الكِفايـة

في التَّفسيرِ بالمأثورِ والدِّرايـة

تأليف الفقير إلى رحمة ربه
عبدالله خضر حمد
باحث عراقي

الجزء الثالث عشر

[سورة المائدة، الآية: ١١٣]- [سورة الأنعام، الآية:٨٤]

منشور إلكترونياً

١٤٣٨ هـ - ٢٠١٧ م

حقوق النسخ والطبع والنشر مسموح بها لكل مسلم

ملاحظة:

إلى الذين يرغبون بطبع التفسير من دور النشر والجهات الخيرية، يرجى مراسلة المؤلف -لطفا وتكرما- على البريد الالكترونى الآتى، وذلك لإرسال التفسير بأحدث نسخة إن شاء الله، وفقنا الله تعالى وإيَّاكم لما يرضيه برحمته، آمين.

abdulla.khdhir@gmail.com

{بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

القرآن

{قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ (١١٣)} [المائدة : ١١٣]

التفسير:

قال الحواريون: نريد أن نأكل من المائدة وتسكن قلوبنا لرؤيتها، ونعلم يقينا صدقك في نبوتك، وأن نكون من الشاهدين على هذه الآية أن الله أنزلها حجة له علينا في توحيده وقدرته على ما يشاء، وحجة لك على صدقك في نبوتك.

قوله تعالى:{قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا} [المائدة : ١١٣]، أي:" قال الحواريون: نريد أن نأكل من المائدة"(١).

قال الطبري:أي:" إنا إنما قلنا ذلك ، وسألناك أن تسأل لنا ربنا لنأكل من المائدة، فنعلم يقينًا قدرته على كل شيء"(٢).

قال ابن كثير:" أي : نحن محتاجون إلى الأكل منها "(٣).

قال السمعاني:" يعني: أكل تبرك لا أكل حاجة"(٤).

قال البغوي:" أي: إنما سألنا لأنا نريد، {أن نأكل منها} أكل تبرك لا أكل حاجة فنستيقن"(٥).

وذكر القرطبي: في قولهم:{ نَأْكُلَ مِنْهَا} [المائدة : ١١٣]، وجهين(٦):

أحدهما- أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها، وذلك أن عيسى عليه السلام كان إذا خرج اتبعه خمسة آلاف أو أكثر، بعضهم كانوا أصحابه وبعضهم كانوا يطلبون منه أن يدعو لهم لمرض كان بهم أو علة، إذ كانوا زمنى أو عميانا، وبعضهم كانوا ينظرون ويستهزئون فخرج يوما إلى موضع فوقعوا في مفازة ولم يكن معهم نفقة فجاعوا وقالوا للحواريين: قولوا لعيسى حتى يدعو بأن تنزل علينا مائدة من السماء، فجاءه شمعون رأس الحواريين وأخبره أن الناس يطلبون بأن تدعو بأن تنزل عليهم مائدة من السماء، فقال عيسى لشمعون: قل لهم:{اتقوا الله إن كنتم مؤمنين} فأخبر بذلك شمعون القوم فقالوا له: قل له:{نريد أن نأكل منها} الآية.

الثاني: {نأكل منها}، لننال بركتها لا لحاجة دعتهم إليها.

قال الماوردي: "وهذا أشبه، لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال "(٧).

وفي قوله تعالى:{قَالُوا نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا} [المائدة : ١١٣]، وجهان(٨):

أحدهما : أنهم أرادوا الأكل منها للحاجة الداعية إليها .

والثاني : أنهم أرادوه تبركاً بها لا لحاجة دعتهم إليها ، وهذا أشبه لأنهم لو احتاجوا لم ينهوا عن السؤال .

قوله تعالى:{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا} [المائدة : ١١٣]، أي:" وتسكن قلوبنا لرؤيتها"(٩).

قال البغوي:أي:"وتسكن"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٦.

(٢) تفسير الطبري:٢٢٤/١١.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.

(٤) تفسير السمعاني:٨٠/٢.

(٥) تفسير البغوي:١١٧/٣.

(٦) انظر: تفسير القرطبي:٣٦٦/٦.

(٧) النكت والعيون: ٨٤/٢.

(٨) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.

(٩) التفسير الميسر:١٢٦.

(١٠) تفسير البغوي:١١٨/٣.

قال الطبري:" يقول :وتسكن قلوبنا ، وتستقرّ على وحدانيته وقدرته على كل ما شاء وأراد "[١].
قال ابن كثير:" أي:إذا شاهدنا نزولها رزقًا لنا من السماء"[٢].
قال السمعاني:" أي: يزداد إيمانها، وهو مثل قوله: {وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي} [البقرة : ٢٦٠]"[٣].
وفي قوله تعالى:{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا} [المائدة : ١١٣]، وجوه[٤]:
أحدها : تطمئن إلى أن الله تعالى قد بعثك إلينا نبياً .
والثاني : تطمئن إلى أن الله تعالى قد اختارنا لك أعواناً .
والثالث : تطمئن إلى أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا .
والرابع: تطمئن بأن الله قد قبل صومنا وعملنا. حكاه القرطبي عن المهدوي[٥].
والخامس: نستيقن قدرته وتطمئن تسكن قلوبنا. قاله الثعلبي[٦].
قوله تعالى:{وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا} [المائدة : ١١٣]، أي:" ونعلم يقينا صدقك في نبوتك"[٧].
قال الثعلبي:أي:" بأنك رسول الله"[٨].
قال الطبري:" يقول :ونعلم أنك لم تكذبنا في خبرك أنك لله رسول مرسل ونبيّ مبعوث"[٩].
قال ابن كثير:" أي : ونزداد إيمانًا بك وعلمًا برسالتك "[١٠].
قال السمعاني:" أي: نزداد إيمانا بصدقك"[١١].
قال البغوي:أي:" بأنك رسول الله، أي: نزداد إيمانا ويقينا"[١٢].
وفي قوله تعالى:{وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا} [المائدة : ١١٣]، ثلاثة اوجه[١٣]:
أحدها: في أنك نبي إلينا.
والثاني: صدقتنا في أننا أعوان لك.
والثالث: أن الله قد أجابنا إلى ما سألنا.
وفي قوله تعالى: :{وَنَعْلَمَ} [المائدة : ١١٣]، وجهان[١٤]:
أحدهما : أنه علم مستحدث لهم بهذه الآية بعد أن لم يكن ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان قبل استحكام المعرفة .
والثاني : أنهم استزادوا بذلك علماً إلى علمهم ويقيناً إلى يقينهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال كان بعد التصديق والمعرفة .

---

(١) تفسير الطبري:٢٢٤/١١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.
(٣) تفسير السمعاني:٨٠/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.
(٥) انظر: تفسير القرطبي:٣٦٦/٦.
(٦) انظر: الكشف والبيان:١٢٥/٤.
(٧) التفسير الميسر:١٢٦.
(٨) الكشف والبيان:١٢٥/٤.
(٩) تفسير الطبري:٢٢٤/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.
(١١) تفسير السمعاني:٨٠/٢.
(١٢) تفسير البغوي:١١٨/٣.
(١٣) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.

قوله تعالى:{وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة : ١١٣]، أي:" وأن نكون من الشاهدين على هذه الآية أن الله أنزلها حجة له علينا في توحيده وقدرته على ما يشاء، وحجة لك على صدقك في نبوتك"(١).

قال الثعلبي:" {من الشاهدين} لله بالوحدانية والقدرة ولك بالنبوة والرسالة"(٢).

قال الطبري:" يقول : ونكون على المائدة {من الشاهدين}، يقول : ممن يشهد أن الله أنزلها حجةً لنفسه علينا في توحيده وقدرته على ما شاء ، ولك على صدقكَ في نبوّتك "(٣).

قال ابن كثير:" أي : ونشهد أنها آية من عند الله ، ودلالة وحجة على نبوتك وصدق ما جئت به"(٤).

قال البغوي:أي:" لله بالوحدانية والقدرة، ولك بالنبوة والرسالة، وقيل: ونكون من الشاهدين لك عند بني إسرائيل إذا رجعنا إليهم"(٥).

وقوله تعالى:{وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ} [المائدة : ١١٣]، يحتمل وجهين(٦):

أحدهما : من الشاهدين لك عند الله بأنك قد أديت ما بعثك به إلينا .

والثاني : من الشاهدين عند من يأتي من قومنا بما شاهدناه من الآيات الدالة على أنك نبي إليهم وإلينا .

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن هؤلاء الحواريين يريدون من الآيات ما يملأ بطونهم، إذ بدؤوا بالأكل {نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا} أول ما بدؤوا، فيشبه قول اليهود لما قيل لهم :{ادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا}[النساء ١٥٤] فدخلوا على أستاههم، على أدبارهم، يقولون: حِنْطَة، أُمروا أن يقولوا: حِطَّة، يعني: احطط عنا ذنوبنا، لكن قالوا: لا، نبغي شيئًا ثانيًا وهو ملء البطن، حنطة، هؤلاء يشبه هذا، والأصل واحد فكلهم من بني إسرائيل، فلا عجب أن يكون سؤالهم متقاربًا.

٢- أن قولهم: {ونعلم أن قد صدقتنا} دال على شكهم وارتيابهم.

٣- ومن فوائد هذه الآية: أن وقوع الشيء يعطي يقينًا أكثر من الخبر به، ومنه قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم:«لَيْسَ الْخَبَرُ كَالْمُعَايَنَةِ»(٧)، ولهذا أمثلة، منها قول إبراهيم عليه الصلاة والسلام:{رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي}[البقرة ٢٦٠] نأخذ هذا من قوله :{وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا}.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أن آيات الأنبياء يزداد بها تصديقهم؛ لقوله :{وَنَعْلَمَ أَنْ قَدْ صَدَقْتَنَا}، أي أخبرتنا بالصدق.

٥- ومنها: ثبوت الخبر بالتواتر وكثرة المخبرين؛ لقولهم :{وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ الشَّاهِدِينَ}، ويمكن أن يُستدل بهذا أيضًا على أن الصحابة رضي الله عنهم قولهم حق وحجة؛ لأنهم شاهدوا النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وشاهدوا آياته، وأيقنوا بها أكثر من غيرهم، وفهموها أكثر من غيرهم.

القرآن

{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا وَآيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ (١١٤)} [المائدة : ١١٤]

---

(١) التفسير الميسر:١٢٦.
(٢) الكشف والبيان:١٢٥/٤.
(٣) تفسير الطبري:٢٢٤/١١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.
(٥) تفسير البغوي:١١٨/٣.
(٦) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.
(٧)أخرجه أحمد (٢٤٤٧) من حديث ابن عباس.

التفسير:

أجاب عيسى بن مريم طلب الحواريين فدعا ربه جل وعلا قائلا: ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء، نتخذ يوم نزولها عيدًا لنا، نعظمه نحن ومَن بعدنا، وتكون المائدة علامة وحجة منك -يا الله- على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي، وامنحنا من عطائك الجزيل، وأنت خير الرازقين.

قوله تعالى:{قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} [المائدة : ١١٤]، أي:" أجاب عيسى بن مريم طلب الحواريين فدعا ربه جل وعلا قائلا: ربنا أنزل علينا مائدة طعام من السماء"[١].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن نبيه عيسى صلى الله عليه وسلم ، أنه أجاب القوم إلى ما سألوا من مسألة ربه مائدةً تنزل عليهم من السماء "[٢].

قال أبو السعود:" لما رأى عليه السلام أن لهم غرضا صحيحا في ذلك وأنهم لا يقلعون عنه أزمع على استدعائها واستنزالها وأراد أن يلزمهم الحجة بكمالها روي أنه صلى الله عليه وسلم اغتسل ولبس المسح وصلى ركعتين فطأطأ رأسه وغض بصره، ثم قال {اللهم ربنا} ناداه سبحانه وتعالى مرتين مرة بوصف الألوهية الجامعة لجميع الكمالات ومرة بوصف الربوبية المنبئة عن التربية إظهارا لغاية التضرع ومبالغة في الاستدعاء، {مائدة من السماء}، أي كائنة من السماء نازلة منها"[٣].

وفي سؤال عيسى-عليه السلام- ، أن ينزل عليهم المائدة، وجهان[٤]:

أحدهما : أنه تفضل عليهم بالسؤال ، وهذا قول من زعم أن السؤال بعد استحكام المعرفة .

والثاني : أنه رغبة منه إلى الله تعالى في إظهار صدقه لهم ، وهذا قول من زعم أن السؤال قبل استحكام المعرفة .

قال أبو بكر: واختلفوا في معنى «اللهم» على قولين:

أحدهما: فقال أبو زكرياء يحيى بن زياد الفراء ، وأبو العباس أحمد بن يحيى: معنى «اللهم»: يا الله أمنا بمغفرتك، فتركت العرب الهمزة: فاتصلت الميم بالهاء: وصارا كالحرف الواحد، واكتفي به من «يا»، فأسقطت[٥].

والدليل على صحة قول الفراء وأبي العباس إدخال العرب «يا» على «اللهم»[٦]، قال الفراء أنشدني الكسائي[٧]:

وما عليك أن تقولي كلما سبحت أو هللت يا اللهم
أردد علينا شيخنا مسلما فإننا من خيره لن نعْدَما

وأنشد قطرب[٨]:

إني إذا ما معظم ألما أقول يا اللهم يا اللهما

فلأن ضرورة الشعر جوزته[٩].

والثاني: وقال الخليل بن أحمد وعمرو بن عثمان سيبويه: «اللهم»، معناه: يا الله. قالا: فجعلت العرب الميم بدلا من«يا»[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) تفسير الطبري:٢٢٤/١١.
(٣) تفسير أبي السعود:٩٨/٣.
(٤) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.
(٥) انظر: معاني القرآن ١ / ٢٠٣.
(٦) انظر: الزاهر في معاني كلمات الناس:٥٢/١.
(٧) البيت بلا عزو في معاني القرآن للفراء: ١ / ٢٠٣ والخزانة : ١ / ٣٥٨ .وروايته:اللهما".
(٨)نوادر أبي زيد ١٦٥، الإنصاف ٣٤١، الخزانة ١ / ٣٥٨. ونسب في المقاصد ٤ / ٢١٦ إلى أبي خراش الهذلي ولم أجده في ديوان الهذليين.
(٩) انظر: النكت والعيون:٨٤/٢.
(١٠)الكتاب ١ / ٣١٠. وانظر: تهذيب اللغة: ٦ / ٤٢٦، والزاهر في معاني كلمات الناس:٥٢/١

قوله تعالى:{تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا} [المائدة : ١١٤]، أي:" نتخذ يوم نزولها عيدًا لنا، نعظمه نحن ومَن بعدنا"(١).

قال السعدي:" أي: يكون وقت نزولها عيدا وموسما، يتذكر به هذه الآية العظيمة، فتحفظ ولا تنسى على مرور الأوقات وتكرر السنين، كما جعل الله تعالى أعياد المسلمين ومناسكهم مذكرا لآياته، ومنبها على سنن المرسلين وطرقهم القويمة، وفضله وإحسانه عليهم"(٢).

قال السمعاني:" العيد: المراد به: يوم السرور لهم"(٣).

وفي قوله تعالى:{تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا وَآخِرِنَا} [المائدة : ١١٤]، ثلاثة تاويلات:

أحدها : نتخذ اليوم الذي أنزلت فيه عيداً نعظمه نحن ومن بعدنا قاله قتادة(٤)، والسدي(٥)، وابن جريج(٦).

وقيل : إن المائدة أنزلت عليهم في يوم الأحد غداة وعشية ، ولذلك جعلوا الأحد عيداً.

قال سفيان:"{تكون لنا عيدًا}، قالوا : نصلي فيه. نزلت مرتين"(٧).

والثاني : معناه: عائدة من الله تعالى علينا ، وبرهاناً لنا ولمن بعدنا. ذكره الطبري عن آخرين(٨).

قال الثعلبي:" أي عائدا من علينا وحجة وبرهانا والعيد اسم لما أعتد به وعاد إليك من كل شيء ومنه قيل: أيام الفطر والأضحى عيد لأنهما يعودان كل سنة، ويقال: لطيف الخيال عيد، قال الشاعر(٩):

يا عيد مالك من شوق وإيراق ومرَّ طيف من الأهوال طرّاَق"(١٠).

فإنه أراد الخيال الذي يعتاده.

والثالث : يعني نأكل منها جميعاً ، أولنا وآخرنا ، قاله ابن عباس(١١).

قال الطبري:" وأولى الأقوال بالصواب ، قولُ من قال : معناه : تكون لنا عيدًا ، نعبد ربنا في اليوم الذي تنزل فيه ، ونصلي له فيه ، كما يعبد الناس في أعيادهم، لأن المعروف من كلام الناس المستعمل بينهم في «العيد»، ما ذكرنا ، دون القول الذي قاله من قال : معناه : عائدة من الله علينا،وتوجيه معاني كلام الله إلى المعروف من كلام من خوطب به ، أولى من توجيهه إلى المجهول منه ، ما وجد إليه السبيل.

وأما قوله : {لأولنا وآخرنا}، فإن الأولى من تأويله بالصواب ، قولُ من قال : تأويله : للأحياء منا اليوم ، ومن يجيء بعدنا منا، للعلة التي ذكرناها في قوله : {تكون لنا عيدًا}، لأن ذلك هو الأغلب من معناه"(١٢).

وقرأ عبد الله والأعمش: «تكن لنا»، بالجزم على جواب الدعاء(١٣).

قوله تعالى:{وَآيَةً مِنْكَ} [المائدة : ١١٤]، أي:" وتكون المائدة علامة وحجة منك -يا الله- على وحدانيتك وعلى صدق نبوتي"(١٤).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٣) تفسير السمعاني:٨٠/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٢٩٩٨):ص٢٢٥/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٢٩٩٧):ص٢٢٥/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٢٩٩٩):ص٢٢٥/١١.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٠٠٠):ص٢٢٥/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٢٢٥/١١.
(٩) البيت لتأبط شرا، انظر: تهذيب اللغة، مادة"عاد":ص ٣/ ٢٢٧٠ - ٢٢٧١. يصف فيه الثور الوحشي.
(١٠) الكشف والبيان:١٢٥/٤.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠١):ص٢٢٥/١١.
(١٢) تفسير الطبري:٢٢٦/١١.
(١٣) انظر: تفسير الثعلبي:١٢٥/٤.
(١٤) التفسير الميسر:١٢٧.

قال ابن كثير:" أي : دليلا تنصبه على قدرتك على الأشياء ، وعلى إجابتك دعوتي ، فيصدقوني فيما أبلغه عنك "[١].

قوله تعالى:{وَارْزُقْنَا} [المائدة : ١١٤]، أي:" وامنحنا من عطائك الجزيل"[٢].

قال ابن كثير:" أي : من عندك رزقًا هنيئًا بلا كلفة ولا تعب"[٣].

قال السعدي:" أي: اجعلها لنا رزقا، فسأل عيسى عليه السلام نزولها وأن تكون لهاتين المصلحتين، مصلحة الدين بأن تكون آية باقية، ومصلحة الدنيا، وهي أن تكون رزقا"[٤].

قوله تعالى:{وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ} [المائدة : ١١٤]، أي:" فإنك خير من يعطي ويرزق"[٥].

الفوائد:

١- أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام لا يستطيعون أن يأتوا بكل ما يُطلب منهم، وأنهم كغيرهم مفتقرون إلى الله يسألونه ويلجئون إليه.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أنه ينبغي للإنسان في حال الدعاء أن يذكر هذين المعنيين: الألوهية والربوبية؛ لقوله:{اللَّهُمَّ رَبَّنَا}؛ لأن هذا نوع من التوسل، يتوسل الإنسان بألوهية الله عز وجل وربوبيته.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أجاب الحواريين على وجه الأمانة التامة؛ لأنه قال:{رَبَّنَا أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ} كما قالوا هم :{هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ}.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن هذه المائدة تكون عيدًا للنصارى، كلما جاء زمنها فهو عيد لهم. فإذا قال قائل: هل هذا يقتضي أن نقول: كلما مر وقت المناسبات فإننا نجعله عيداً؟ فالجواب: لا؛ لأن هذه الأشياء ليس فيها قياس، وهي كانت عيدًا بطلب من؟ بطلب نبيهم، بطلب نبيهم عليه الصلاة والسلام.

٥- مشروعية الأعياد الدينية لعبادة الله بالصلاة والذكر شكراً لله تعالى وفي الإسلام عيدان: الأضحى والفطر.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن ما جاء على خلاف المعهود، وكان خارقًا للعادة فهو آية؛ لقوله:{وَآيَةً مِنْكَ}، ووجه هذا أنه لم يعهد أن المائدة تنزل من السماء عِيانًا يشاهدها الناس، فيكون نزولها -ولا سيما أنه بطلب بعد اقتراح- يكون نزولها آية ودليلًا على صدق من تكلم بالرسالة.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن عيسى بن مريم مفتقِر إلى الله تعالى؛ إلى عطائه، وينبني على هذه الفائدة بطلان دعوى النصارى أنه إله.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله تبارك وتعالى خير الرازقين، وهذا فرد من قاعدة عامة وهي قول الله تعالى::{وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى}[النحل ٦٠] فكل وصف كمال فلله منه الأعلى.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إطلاق الرزق على غير الله عز وجل، بمعنى أنه يصح أن نصف غير الله بأنه رازق؛ لأن الرزق بمعنى العطاء، ولكن الرزق الأكمل والأوفى هو رزق الله تبارك وتعالى.

١٠- أن من محاسن هذا الدعاء أنه أخر ذكر الفائدة المادية للمائدة عن ذكر فائدتها الدينية الروحية، بعكس ما فعله الحواريون، إذ قدموا الأكل على غيره من الفوائد الأخرى.

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.
(٢) التفسير الميسر:١٢٧.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.
(٤) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٥) صفوة التفاسير:٣٤٦.

القرآن

{قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ (١١٥)} [المائدة : ١١٥]

التفسير:

قال الله تعالى: إني منزل مائدة الطعام عليكم، فمن يجحد منكم وحدانيتي ونبوة عيسى عليه السلام بعد نزول المائدة فإني أعذبه عذابًا شديدًا، لا أعذبه أحدًا من العالمين.

قوله تعالى:{قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ} [المائدة : ١١٥]، أي:" قال الله تعالى: إني منزل مائدة الطعام عليكم"(١).

واختلفوا في نزول المائدة على ثلاثة أقاويل .

أحدها : أنه مثل ضربه الله تعالى لخلقه ، ينهاهم به عن مسألة الآيات لأنبيائه ، قاله مجاهد(٢).

والثاني : أنهم سألوا ووعدهم بالإجابة ، فلما قال لهم {فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَاباً لاَّ أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِّنَ الْعَالَمِينَ}، استعفوا منها فلم تنزل عليهم ، قاله الحسن(٣)، وهو مري عن مجاهد ايضا(٤).

قال ابن كثير:" وهذه أسانيد صحيحة إلى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن خبر المائدة لا تعرفه النصارى وليس هو في كتابهم ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما يتوفر الدواعي على نقله ، وكان يكون موجودًا في كتابهم متواترًا ، ولا أقل من الآحاد ، والله أعلم. ولكن الذي عليه الجمهور أنها نزلت ، وهو الذي اختاره ابن جرير(٥)"(٦).

والثالث : أنهم سألوا فأجابهم ، ولم يستعفوا ، لأنه ما حكى الاستعفاء عنهم ، ثم أنزلها عليهم ، لأنه قد وعدهم ، ولا يجوز أن يخلف وعده .

ومن قال بهذا اختلفوا في الذي كان عليها حين نزلت على أقوال:

أحدها : أنه كان عليها ثمار الجنة ، قاله قتادة(٧).

والثاني : أنه كان عيها خبز ولحم ، قاله عمار بن ياسر(٨).

وروي عمار بن ياسر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "نزلت المائدة خبزًا ولحمًا ، وأمروا أن لا يخونوا ولا يدَّخروا ولا يرفعوا لغدٍ ، فخانوا وادّخروا ورفعوا ، فمسخوا قردة وخنازير"(٩).

والثالث : أنه كان عليها سبعة أرغفة وسبعة أحْوات ، يأكلون منها ما شاؤوا. قال : فسرق بعضهم منها وقال : " لعلها لا تنزل غدًا! " ، فرفعت . قاله إسحاق بن عبد الله(١٠).

والرابع : كان عليها سمكة فيها طعم كل الطعام ، قاله عطاء(١١)، وعطية(١٢).

والخامس:أنه كان خبزا وسمكا. قاله ابن عباس(١٣)، وأبو عبدالرحمن السلمي(١٤).

والسادس : كان عليها كل طعام إلا اللحم ، قاله ميسرة(١)، وزادان(٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٠١٩):ص١١/٢٣٠-٢٣١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٢٠):ص١١/٢٣١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٢٢):ص١١/٢٣١.
(٥) انظر: تفسير الطبري:١١/٢٣١-٢٣٢. وسوف يأتي.
(٦) تفسير ابن كثير:٣/٢٣١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٠١٥):ص١١/٢٢٩-٢٣٠.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣١١)١١/٢٢٨.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٠١٢):ص١١/٢٢٨-٢٢٩.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣١٠)١١/٢٢٨.
(١١) انظر: النكت والعيون: ٢/٨٥.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠٤)١١/٢٢٧.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠٦)١١/٢٢٧.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠٣)١١/٢٢٧.

والسابع : نزل عليهم قرصة من شعير وأحوات. قاله وهب بن منبه[٣].
والثامن: أنه الطعام ينزل عليهم حيث نزلوا. قاله مجاهد[٤]، وهو مروي عن ابن عباس في رواية عكرمة[٥].
والتاسع: رغيفان وحوتان ، أكلوا منها أربعين يوماً في سفرة ، وكانوا ومن معهم نحو خمسة آلاف ، قاله جويبر . وأُمِرُوا أن يأكلوا منها ولا يخونوا ولا يدخروا ، فخانوا وادخروا فَرُفِعَتْ[٦].

قال الطبري:" والصواب من القول عندنا في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره أنزل المائدة على الذين سألوا عيسى مسألتَه ذلك ربَّه، وإنما قلنا ذلك ، للخبر الذي روينا بذلك عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه وأهل التأويل من بعدهم ، غير من انفرد بما ذكرنا عنه.

وبعدُ ، فإن الله تعالى ذكره لا يخلف وعدَه ، ولا يقع في خبره الخُلف ، وقد قال تعالى ذكره مخبرًا في كتابه عن إجابة نبيه عيسى صلى الله عليه وسلم حين سأله ما سأله من ذلك : {إني منزلها عليكم}، وغير جائز أن يقول تعالى ذكره : {إني منزلها عليكم}، ثم لا ينزلها ، لأن ذلك منه تعالى ذكره خبر ، ولا يكون منه خلاف ما يخبر. ولو جاز أن يقول : {إني منزلها عليكم}، ثم لا ينزلها عليهم ، جاز أن يقول : {فمن يكفر بعد منكم فإنّي أعذبه عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين}، ثم يكفر منهم بعد ذلك ، فلا يعذّبه ، فلا يكون لوعده ولا لوعيده حقيقة ولا صحة. وغير جائز أن يوصف ربنا تعالى ذكره بذلك"[٧].

قال ابن كثير:" وهذا القول هو - والله أعلم - الصواب ، كما دلت عليه الأخبار والآثار عن السلف وغيرهم. وقد ذكر أهل التاريخ أن موسى بن نصير نائب بني أمية في فتوح بلاد المغرب ، وجد المائدة هنالك مرصعة باللآلئ وأنواع الجواهر ، فبعث بها إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، باني جامع دمشق ، فمات وهي في الطريق ، فحملت إلى أخيه سليمان بن عبد الملك الخليفة بعده ، فرآها الناس وتعجبوا منها كثيرًا لما فيها من اليواقيت النفيسة والجواهر اليتيمة. ويقال إن هذه المائدة كانت لسليمان بن داود ، عليهما السلام ، فالله أعلم"[٨].

قال البغوي:" والصحيح الذي عليه الأكثرون: أنها نزلت، لقوله تعالى: {إني منزلها عليكم}، ولا خلف في خبره، لتواتر الأخبار فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين"[٩].

قرأ نافع وعاصم وابن عامر:{إني منزّلها} مشددة، " لأنها نزلت مرات، والتفعيل يدل على التكرير مرة بعد أخرى"[١٠].

وقرأ الباقون {منزلها} خفيفة[١١].

قوله تعالى:{فَمَنْ يَكْفُرْ بَعْدُ مِنْكُمْ} [المائدة : ١١٥]، أي:" فمن يجحد منكم وحدانيتي ونبوة عيسى عليه السلام"[١٢].

قال السدي:" بعد ما جاءته المائدة"[١].

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٣٠١٦):ص٢٣٠/١١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٠١٨):ص٢٣٠/١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠٧)٢٢٧/١١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٠٨)٢٢٧/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٠١٣):ص٢٢٩/١١.
(٦) انظر: النكت والعيون:٨٥/٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٣١/١١-٢٣٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٣١/٣.
(٩) تفسير البغوي:١١٩/٣.
(١٠) تفسير البغوي:١١٨/٣.
(١١) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٠.
(١٢) التفسير الميسر:١٢٧.

قال ابن كثير:" أي : فمن كذب بها من أمتك يا عيسى وعاندها "[٢].

قال البغوي:" أي: بعد نزول المائدة"[٣].

قوله تعالى:{فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة : ١١٥]، أي:" فإني أعذبه عذابًا شديدًا، لا أعذبه أحدًا من العالمين"[٤].

قال السدي:" يقول: أعذبه عذابا لا يعذب به أحد من العالمين غير أهل المائدة"[٥].

قال ابن كثير:" أي : من عالمي زمانكم ، كقوله : { وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ } [غافر : ٤٦]،وكقوله : { إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرْكِ الأسْفَلِ مِنَ النَّارِ } [النساء : ١٤٥]"[٦].

قال السمعاني:" أي: جنس عذاب لم أعذب به أحدا"[٧].

قال السعدي:" لأنه شاهد الآية الباهرة وكفر عنادا وظلما، فاستحق العذاب الأليم والعقاب الشديد"[٨].

وقوله تعالى:{ مِنَ الْعَالَمِينَ} [المائدة : ١١٥]، يحتمل وجهين:

أحدهما : يعني من عالمي زمانهم .وهذا قول أبو العالية[٩]، وقتادة[١٠]، ومجاهد[١١]، وابن زيد[١٢].

قال أبو العالية:" فإن لكل زمان عالما"[١٣].

والثاني : من سائر العالمين كلهم. ذكره الماوردي[١٤].

قال الزمخشري: العالمين:أي:" الجم الغفير من الناس"[١٥].

وفيهم قولان :

أحدهما : هو أن يمسخهم قردة ، قاله عمار بن ياسر[١٦]، وسلمان الخير[١٧].

عن سلمان الخير:" فلما أمسى المرتابون بها، وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات"[١٨].

والثاني : أنه جنس من العذاب لا يعذب به غيرهم لأنهم كفروا بعد أن رأوا من الآيات ما لم يره غيرهم ، فكانوا أعظم كفراً فصاروا أعظم عذاباً [١٩].

قال عبدالله بن عمر:"إن أشدّ الناس عذابًا ثلاثة : المنافقون ، ومن كفر من أصحاب المائدة ، وآل فرعون"[١].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٠٤٣):ص١٢٥١/٤.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.

(٣) تفسير البغوي:١١٨/٣.

(٤) التفسير الميسر:١٢٧.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٤٧):ص١٢٥٢/٤.

(٦) تفسير ابن كثير:٢٢٥/٣.

(٧) تفسير السمعاني:٨٠/٢.

(٨) تفسير السعدي:٢٤٩.

(٩) أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.

(١٠) أخرجه الطبري(٨٦٨):ص٢٤/٢.

(١١) أخرجه الطبري(٨٧٠):ص٢٤/٢.

(١٢) أخرجه الطبري(٨٧٢):ص٢٤/٢.

(١٣) أخرجه الطبري(٨٦٩):ص٢٤/٢.

(١٤) انظر: النكت والعيون:٨٦/١.

(١٥) الكشاف: ١٣٥/١.

(١٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٤٦):ص١٢٥٢/٤.

(١٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٤٤):ص١٢٥١/٤.

(١٨) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٤٤):ص١٢٥١/٤.

(١٩) انظر: النكت والعيون:٨٦/٢.

أخرج ابن ابي حاتم عن سلمان الخير ؛ أنه قال : "لما سأل الحواريون عيسى ابن مريم المائدة ، كره ذلك جدا وقال : اقنعوا بما رزقكم الله في الأرض ، ولا تسألوا المائدة من السماء ، فإنها إن نزلت عليكم كانت آية من ربكم ، وإنما هلكت ثمود حين سألوا نبيهم آية ، فابتلوا بها حتى كان بَوَارهم فيها. فأبوا إلا أن يأتيهم بها ، فلذلك قالوا : { نُرِيدُ أَنْ نَأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا } الآية.

فلما رأى عيسى أن قد أبوا إلا أن يدعو لهم بها ، قام فألقى عنه الصوف ، ولبس الشعر الأسود ، وجبة من شعر ، وعباءة من شعر ، ثم توضأ واغتسل ، ودخل مصلاه فصلى ما شاء الله ، فلما قضى صلاته قام قائمًا مستقبل القبلة وصف قدميه حتى استويا ، فألصق الكعب بالكعب وحاذى الأصابع ، ووضع يده اليمنى على اليسرى فوق صدره ، وغض بصره ، وطأطأ رأسه خشوعًا ، ثم أرسل عينيه بالبكاء ، فما زالت دموعه تسيل على خديه وتقطر من أطراف لحيته حتى ابتلت الأرض حيال وجهه من خشوعه ، فلما رأى ذلك دعا الله فقال : { اللَّهُمَّ رَبَّنَا أَنزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ } فأنزل الله عليهم سُفْرَة حمراء بين غمامتين : غمامة فوقها وغمامة تحتها ، وهم ينظرون إليها في الهواء منقضة من فلك السماء تهوي إليهم ، وعيسى يبكي خوفًا للشروط التي أتخذها الله عليهم - فيها : أنه يعذب من يكفر بها منهم بعد نزولها عذابًا لم يعذبه أحدًا من العالمين - وهو يدعو الله من مكانه ويقول : اللهم اجعلها رحمة ، إلهي لا تجعلها عذابًا ، إلهي كم من عجيبة سألتك فأعطيتني ، إلهي اجعلنا لك شَكَّارين ، إلهي أعوذ بك أن تكون أنزلتها غضبًا وجزاء ، إلهي اجعلها سلامة وعافية ، ولا تجعلها فتنة ومثلة.

فما زال يدعو حتى استقرت السُّفْرة بين يدي عيسى ، والحواريين وأصحابه حوله ، يَجدون رائحة طيبة لم يجدوا فيما مضى رائحة مثلها قط ، وخَرَّ عيسى والحواريون لله سجدًا شكرًا بما رزقهم من حيث لم يحتسبوا وأراهم فيه آية عظيمة ذات عجب وعبرة ، وأقبلت اليهود ينظرون فرأوا أمرًا عجيبًا أورثهم كمدًا وغمًا ، ثم انصرفوا بغيظ شديد وأقبل عيسى. والحواريون وأصحابه حتى جلسوا حول السفرة ، فإذا عليها منديل مغطى. قال عيسى : من أجرؤنا على كشف المنديل عن هذه السفرة ، وأوثقنا بنفسه ، وأحسننا بلاء عند ربه ؟ فليكشف عن هذه الآية حتى نراها ، ونحمد ربنا ، ونذكر باسمه ، ونأكل من رزقه الذي رزقنا. فقال الحواريون : يا روح الله وكلمته ، أنت أولانا بذلك ، وأحقنا بالكشف عنها. فقام عيسى ، عليه السلام ، واستأنف وضوءًا جديدًا ، ثم دخل مصلاه فصلى كذلك ركعات ، ثم بكى بكاء طويلا ودعا الله أن يأذن له في الكشف عنها ، ويجعل له ولقومه فيها بركة ورزقًا. ثم انصرف فجلس إلى السفرة وتناول المنديل ، وقال : "باسم الله خير الرازقين" ، وكشف عن السفرة ، فإذا هو عليها سمكة ضخمة مشوية ، ليس عليها بواسير ، وليس في جوفها شوك ، يسيل السمن منها سيلا قد نضد حولها بقول من كل صنف غير الكراث ، وعند رأسها خل ، وعند ذنبها ملح ، وحول البقول خمسة أرغفة ، على واحد منها زيتون ، وعلى الآخر ثمرات ، وعلى الآخر خمس رمانات.

فقال شمعون رأس الحواريين لعيسى : يا روح الله وكلمته ، أمن طعام الدنيا هذا أم من طعام الجنة ؟ فقال : أما آن لكم أن تعتبروا بما ترون من الآيات ، وتنتهوا عن تنقير المسائل ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا في سبب نزول هذه الآية! فقال شمعون : وإله إسرائيل ما أردت بها سؤالا يا ابن الصِّدِّيقة. فقال عيسى ، عليه السلام : ليس شيء مما ترون من طعام الجنة ولا من طعام الدنيا ، إنما هو شيء ابتدعه الله في الهواء بالقدرة العالية القاهرة ، فقال له : كن. فكان أسرع من طرفة عين ، فكلوا مما سألتم باسم الله واحمدوا عليه ربكم يُمدكم منه ويَزدكم ، فإنه بديع قادر شاكر.

فقالوا : يا روح الله وكلمته ، إنا نحب أن تُرينا آية في هذه الآية. فقال عيسى : سبحان الله! أما اكتفيتم بما رأيتم في هذه الآية حتى تسألوا فيها آية أخرى ؟ ثم أقبل عيسى ، عليه السلام

---

(١) أخرجه الطبري(١٢٠٢٣):ص١١/٢٣٣.

، على السمكة ، فقال : يا سمكة ، عودي بإذن الله حية كما كنت. فأحياها الله بقدرته ، فاضطربت وعادت بإذن الله حية طرية ، تَلَمَّظ كما يتلمظ الأسد ، تدور عيناها لها بصيص ، وعادت عليها بواسيرها. ففزع القوم منها وانحازوا. فلما رأى عيسى ذلك منهم قال : ما لكم تسألون الآية ، فإذا أراكموها ربكم كرهتموها ؟ ما أخوفني عليكم أن تعاقبوا بما تصنعون! يا سمكة ، عودي بإذن الله كما كنت. فعادت بإذن الله مشوية كما كانت في خلقها الأول.

فقالوا لعيسى : كن أنت يا روح الله الذي تبدأ بالأكل منها ، ثم نحن بعد فقال عيسى : معاذ الله من ذلك! يبدأ بالأكل من طلبها. فلما رأى الحواريون وأصحابهم امتناع نبيهم منها ، خافوا أن يكون نزولها سَخْطَة وفي أكلها مَثُلَة ، فتحاموها. فلما رأى ذلك عيسى دعا لها الفقراء والزَّمْنى ، وقال : كلوا من رزق ربكم ، ودعوة نبيكم ، واحمدوا الله الذي أنزلها لكم ، فيكون مَهْنَؤُها لكم ، وعقوبتها على غيركم ، وافتتحوا أكلكم باسم الله ، واختموه بحمد الله ، ففعلوا ، فأكل منها ألف وثلاثمائة إنسان بين رجل وامرأة ، يصدرون عنها كل واحد منهم شبعان يتجشأ ، ونظر عيسى والحواريون فإذا ما عليها كهيئته إذ أنزلت من السماء ، لم ينتقص منها شيء ، ثم إنها رفعت إلى السماء وهم ينظرون ، فاستغنى كل فقير أكل منها ، وبرئ كل زَمِنٍ أكل منها ، فلم يزالوا أغنياء صِحَاحًا حتى خرجوا من الدنيا.

وندم الحواريون وأصحابهم الذين أبوا أن يأكلوا منها ندامة ، سالت منها أشفارهم ، وبقيت حسرتها في قلوبهم إلى يوم الممات ، قال : فكانت المائدة إذا نزلت بعد ذلك أقبلت بنو إسرائيل إليها من كل مكان يسعون يزاحم بعضهم بعضًا : الأغنياء والفقراء ، والصغار والكبار ، والأصحاء والمرضى ، يركب بعضهم بعضًا. فلما رأى ذلك جعلها نوائب ، تنزل يومًا ولا تنزل يومًا. فلبثوا في ذلك أربعين يومًا ، تنزل عليهم غِبًّا عند ارتفاع الضُحَى فلا تزال موضوعة يؤكل منها ، حتى إذا قاموا ارتفعت عنهم. بإذن الله إلى جو السماء ، وهم ينظرون إلى ظلها في الأرض حتى توارى عنهم.

قال : فأوحى الله إلى نبيه عيسى ، عليه السلام ، أن اجعل رزقي المائدة لليتامى والفقراء والزَّمنَى دون الأغنياء من الناس ، فلما فعل ذلك ارتاب بها الأغنياء من الناس ، وغَمطُوا ذلك ، حتى شَكُّوا فيها في أنفسهم وشككوا فيها الناس ، وأذاعوا في أمرها القبيح والمنكر ، وأدرك الشيطان منهم حاجته ، وقذف وسواسه في قلوب المرتابين حتى قالوا لعيسى : أخبرنا عن المائدة ، ونزولها من السماء أحق ، فإنه قد ارتاب بها بشر منا كثير ؟ فقال عيسى ، عليه السلام : هلكتم وإله المسيح! طلبتم المائدة إلى نبيكم أن يطلبها لكم إلى ربكم ، فلما أن فعل وأنزلها عليكم رحمة ورزقًا ، وأراكم فيها الآيات والعبَر كذَّبْتم بها ، وشككتم فيها ، فأبشروا بالعذاب ، فإنه نازل بكم إلا أن يرحمكم الله.

وأوحى الله إلى عيسى : إني آخذ المكذبين بشرطي ، فإني معذب منهم من كفر بالمائدة بعد نزولها عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين. قال فلما أمسى المرتابون بها وأخذوا مضاجعهم في أحسن صورة مع نسائهم آمنين ، فلما كان في آخر الليل مسخهم الله خنازير ، فأصبحوا يتبعون الأقذار في الكناسات"(١).

قال ابن كثير:"هذا أثر غريب جدًا. قَطَّعَه ابن أبي حاتم في مواضع من هذه القصة ، وقد جمعته أنا له ليكون سياقه أتم وأكمل ، والله سبحانه وتعالى أعلم.

وكل هذه الآثار دالة على أن المائدة نزلت على بني إسرائيل ، أيام عيسى ابن مريم ، إجابة من الله لدعوته ، وكما دل على ذلك ظاهر هذا السياق من القرآن العظيم : { قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنزلُهَا عَلَيْكُمْ } الآية"(٢).

الفوائد:

١- أن من أشد الناس عذاباً يوم القيامة آل فرعون والمنافقون ومن كفر من أهل المائدة.

---

(١) كما في تفسير ابن كثير:٢٢٨/٣-٢٣٠.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٣٠/٣.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: خطر طلب الآيات من الأمم، وأنه إذا جاءت الآيات المطلوبة فقد عرضوا أنفسهم للهلاك، وقد ذكر أهل العلم رحمهم الله أنه متى طلبت الأمة آية معينة وحصلت لهم حق عليهم العذاب.

فإن قال قائل: هذه القاعدة تنتقض بما تواتر عن انشقاق القمر؛ أن قريشًا طلبوا من النبي ﷺ آية فأراهم انشقاق القمر(١)؟

فالجواب عن هذا: أن قريشًا لم يطلبوا آية معينة، وإنما طلبوا آية فقط، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم هو الذي عينها، أراهم انشقاق القمر.

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات أن العذاب له أعلى وله أدنى؛ لقوله:{فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِنَ الْعَالَمِينَ}، فهذا دليل على أن العذاب يتفاوت من شخص لآخر، وتفاوت العذاب أسبابه كثيرة؛ منها: قلة الداعي إلى الذنب، فإن قلة الداعي إلى الذنب توجب شدة العقوبة عليه، وانظر إلى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم:«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ «وهم »أُشَيْمِطٌ زَانٍ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَتَهُ؛ لَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ وَلَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ»(٢).

الشاهد الأول والثاني : أشيمط وزانٍ، يعني رجلًا شمطه الشيب، وهذا يدل على ضعف قوته في طلب النكاح. وصغّره بقوله«أُشَيْمِطٌ» تحقيرًا له، إذن زنا الشيخ أعظم عقوبة من زنا الشاب؛ لأن الداعي في الشيخ أقل.

«عَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ»، عائل يعني: فقير، مستكبر، الفقير يجب أن يعرف نفسه وقدره فكيف يستكبر، الاستكبار من الغني أهون بلا شك ومتوقَّع؛ كما قال عز وجل:{كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى (٦) أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى} [العلق ٦، ٧] أي استغنى عن غيره، وهذا عائل فيستكبر! فلذلك اشتدت عقوبته، فكلما قوي السبب في طلب المعصية صارت العقوبة عليها أهون، وكلما ضعف الطلب صارت العقوبة عليها أشد، هنا بين الله عز وجل أنه لا يعذبه أحدا من العالمين.

٤- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن كفر من رأوا الآيات ليس ككفر من لم يروها، لأن من رأى الآيات فقد رآها علم اليقين، بل عين اليقين، ومن نقلت إليه فقد علمها علم اليقين، أي: بواسطة.

القرآن

{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (١١٦)} [المائدة : ١١٦]

التفسير:

واذكر إذ قال الله تعالى يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اجعلوني وأمي معبودين من دون الله؟ فأجاب عيسى -منزِّهًا الله تعالى-: ما ينبغي لي أن أقول للناس غير الحق. إن كنتُ قلتُ هذا فقد علمتَه; لأنه لا يخفى عليك شيء، تعلم ما تضمره نفسي، ولا أعلم أنا ما في نفسك. إنك أنت عالمٌ بكل شيء مما خفي أو ظهر.

---

(١)عن ابن عباس قال : قالت قريش للنبي صلى الله عليه وسلم : ادع لنا ربك أن يجعل لنا الصفا ذهبًا ونؤمن بك قال : "وتفعلون ؟" قالوا : نعم. قال : فدعا ، فأتاه جبريل فقال : إن ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك : إن شئت أصبح لهم الصفا ذهبًا ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين ، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة. قال : " بل باب التوبة والرحمة".[المسند (٢٤٢/١) والمستدرك (٥٣/١) ورواه الطبراني في المعجم الكبير (١٥٢/١٢) من طريق سفيان به ، وقال الهيثمي في المجمع (١٩٦/١٠) : "رجاله رجال الصحيح"].

(٢)أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٦١١١) والأوسط (٥٥٧٧) من حديث سلمان الفارسي.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [المائدة : ١١٦]، أي:" واذكر إذ قال الله تعالى يوم القيامة: يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اجعلوني وأمي معبودين من دون الله؟"[١].

قال الطبري:أي:" أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي معبودين تعبدونهما من دون الله"[٢].

قال ابن كثير:" هذا أيضًا مما يخاطب الله تعالى به عبده ورسوله عيسى ابن مريم ، عليه السلام ، قائلا له يوم القيامة بحضرة من اتخذه وأمه إلهين من دون الله: { وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ؟ وهذا تهديد للنصارى وتوبيخ وتقريع على رؤوس الأشهاد"[٣].

قال السعدي:" وهذا توبيخ للنصارى الذين قالوا: إن الله ثالث ثلاثة"[٤].

اختلف أهل التأويل في معنى هذا السؤال وليس باستفهام وإن خرج مخرج الاستفهام على ثلاثة اقوال[٥]:

أحدها : أنه تعالى سأله عن ذلك توبيخاً لمن ادعى ذلك عليه ، ليكون إنكاره بعد السؤال أبلغ فى التكذيب وأشد فى التوبيخ والتقريع .

والثاني : أنه قصد بهذا السؤال تعريفه أن قومه وبدّلوا دينهم بعده، وادعوا عليه ما لم يقله .

والثالث: تحذير عيسى عن قيل ذلك ونهيُه ، كما يقول القائل لآخر : أفعلت كذا وكذا ؟ مما يعلم المقولُ له ذلك أن القائل يستعظم فعل ما قال له :أفعلته ، على وجه النهي عن فعله ، والتهديد له فيه.أفاده الطبري[٦].

فإن قيل : "فالنصارى لم تتخذ مريم إلهاً ، فكيف قال تعالى فيهم ذلك ؟

قيل : لما كان من قولهم أنها لم تلد بشراً وإنما ولدت إلهاً لزمهم أن يقولوا إنها لأجل البعضي بمثابة من ولدته ، فصاروا حين لزمهم ذلك كالقائلين له"[٧].

وفي زمان هذا السؤال قولان :

أحدهما : أن الله تعالى قال ذلك لعيسى حين رفعه إليه في الدنيا ، قاله السدي[٨].

والثاني : أن الله تعالى يقول له ذلك يوم القيامة ، قاله ابن جريج[٩]، وقتادة[١٠]، وميسرة[١١].

قال الماوردي:"والثاني أصح القولين"[١٢].

قال السمعاني:" والصحيح أنه يكون في القيامة، والقيامة وإن لم تكن بعد، ولكنها في علم الله، فلما كانت كائنة لا محالة فهي كالكائنة؛ فصح قوله: {وإذ قال الله}"[١٣].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) تفسير الطبري:٢٣٨/١١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٣٢/٣.
(٤) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٥) انظر: تفسير الطبري:٢٣٦/١١-٢٣٧، والنكت والعيون:٨٧/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٢٣٧/١١.
(٧)النكت والعيون:٨٧/٢.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٢٨):ص٢٣٤/١١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٢٩):ص٢٣٤/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٣١):ص٢٣٤/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٣٠):ص٢٣٤/١١.
(١٢) النكت والعيون:٨٧/٢.
(١٣) تفسير السمعاني:٨٠/٢. ذكر السمعاني: انه قد يأتي "إذ" بمعنى "إذا"، واستشهد بقول الشاعر:
لم يجزه به الإله إذ جزا ... جنات عدن في السموات العلا
يعني: إذا جزى.
وقال الماوردي معلقا على البيت السابق:" فأقام الماضي مقام المستقبل وهذا جائز في اللغة كما قال تعالى: {وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ} [الأعراف: ٤٤]"[انظر: النكت والعيون:٨٧/٢، وتفسير السمعاني:٨٢/٢، والبيت بلا نسبة عندهم، ولم أتعرف على قائل البيت فيما عندي من المصادر].
ومنه قول أبي النجم:

قال ابن كثير:" والذي قاله قتادة وغيره هو الأظهر ، والله أعلم : أن ذلك كائن يوم القيامة ، ليدل على تهديد النصارى وتقريعهم وتوبيخهم على رؤوس الأشهاد يوم القيامة"[١].

ورجّح قال الإمام الطبري قول السدي ، واحتج على ذلك بمعنيين[٢]:

إحداهما : أن {إذْ} إنما تصاحب في الأغلب من كلام العرب المستعمل بينها الماضيَ من الفعل ، وإن كانت قد تدخلها أحيانًا في موضع الخبر عما يحدث ، إذا عرف السامعون معناها. وذلك غير فاشٍ ، ولا فصيح في كلامهم ، وتوجيه معاني كلام الله تعالى إلى الأشهر الأعرف ما وجد إليه السبيل، أولى من توجيهها إلى الأجهل الأنكر.

والثاني: أن عيسى لم يشك هو ولا أحد من الأنبياء ، أن الله لا يغفر لمشرك مات على شركه ، فيجوز أن يُتَوهم على عيسى أن يقول في الآخرة مجيبًا لربه تعالى ذكره : إن تعذّب من اتخذني وأمي إلهين من دونك فإنهم عبادك ، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم.

قال ابن كثير:" وهذان الدليلان فيهما نظر ؛ لأن كثيرًا من أمور يوم القيامة ذكر بلفظ المضي ، ليدل على الوقوع والثبوت"[٣].

قال السمعاني:" قال قائل: هم لم يتخذوا أمه إليها؛ فما معنى قوله: {اتخذوني وأمي إلهين من دون الله} ؟ قيل: إنه - جل وعز - لما أراد ذكر عيسى مع أمه، قال: إلهين، وهذا كما يقال عند ذكر أبي بكر وعمر معا: عمران، وقالوا: هذا سنة عمرين، ويقال للشمس والقمر: قمران، قال الفرزدق[٤]:

[أَخَذْنا بآفاقِ السَّمَاءِ عَلَيْكُمُ] لنَا قَمَرَاهَا والنُّجُومُ الطَّوَالِعُ

يعني: الشمس والقمر، وقيل: إن عيسى كان بعضا لمريم، فلما اتخذوه إلها؛ فكأنهم اتخذوا أمه إلها؛ فقال: {إلهين من دون الله}"[٥].

وروي عن أبي موسى الأشعري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إذا كان يوم القيامة دعي بالأنبياء وأممهم ، ثم يُدْعَى بعيسى فيذكره الله نعمته عليه ، فيقِر بها ، فيقولُ : { يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ } الآية [المائدة : ١١٠] ثم يقول : { أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ } ؟ فينكر أن يكون قال ذلك ، فيؤتى بالنصارى فيسألون ، فيقولون : نعم ، هو أمرنا بذلك ، قال : فيطول شعر عيسى ، عليه السلام ، فيأخذ كل ملك من الملائكة بشعرة من شعر رأسه وجسده. فيجاثيهم بين يدي الله ، عز وجل ، مقدار ألف عام ، حتى ترفع عليهم الحجة ، ويرفع لهم الصليب ، وينطلق بهم إلى النار"[٦].

قال ابن كثير:"وهذا حديث غريب عزيز"[٧].

وفتح أبو عمر وابن عامر وعاصم في رواية حفص: {وأمي إلهين} [٨].

قوله تعالى:{قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} [المائدة : ١١٦]، أي:" أنزهك عما لا يليق بك يا رب فما ينبغي لي أن أقول للناس غير الحق"[١].

ثم جزاء الله عنا إذ جزى....جنات عدن في العلالي العلي
يعني: إذا جزى. انظر: ديوانه:٢١٠.
ومنه قول الأسود بن جعفر الأزدي:
فالآن إذ هازلتهن فإنما...يقلن ألا لم يذهب الشيخ مذهبا
يعني: إذا هازلتهن. انظر: [تفسير الطبري:١٣٥/٩، وتفسير القرطبي:٣٠١/٧، تحقيق التركي، وذكره أبوبكر الأنباري في الأضداد:١١٩ دون نسبة].

(١) تفسير ابن كثير:٢٣٢/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري:٢٣٦/١١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٣٢/٢.
(٤)ديوانه طبعة الصاوي ٥١٩.
(٥) تفسير السمعاني:٨٢/٢.
(٦)تاريخ دمشق (١٢٨/١٩ القسم المخطوط) والمختصر لابن منظور (٥٤/٢٩).
(٧) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(٨) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٠.

قال الزمخشري:أي:" سبحانك من أن يكون لك شريك ما يكون لي ما ينبغي لي أن أقول قولا لا يحق لي أن أقوله"(٢).

قال السعدي:" يقول: {سبحانك} عن هذا الكلام القبيح، وعما لا يليق بك، ما ينبغي لي، ولا يليق أن أقول شيئا ليس من أوصافي ولا من حقوقي، فإنه ليس أحد من المخلوقين، لا الملائكة المقربون ولا الأنبياء المرسلون ولا غيرهم له حق ولا استحقاق لمقام الإلهية وإنما الجميع عباد، مدبرون، وخلق مسخرون، وفقراء عاجزون"(٣).

قال ابن كثير:" هذا توفيق للتأدب في الجواب الكامل "(٤).

قال الطبري:أي:" تنزيهًا لك يا رب وتعظيمًا أن أفعل ذلك أو أتكلم به ما يكون لي أن أقول ما ليس لي أن أقول ذلك ، لأني عبد مخلوق ، وأمي أمَةٌ لك ، وكيف يكون للعبد والأمة ادّعاء ربوبية ؟"(٥).

قال الماوردي:" أي: أدعي لنفسي ما ليس من شأنها ، يعني أنني مربوب ولست برب ، وعابد ولست بمعبود وبدأ بالتسبيح قبل الجواب لأمرين : أحدهما : تنزيهاً له عما أضيف إليه. الثاني : خضوعاً لعزته وخوفاً من سطوته"(٦).

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ} [المائدة : ١١٦]، أي:" إن كنتُ قلتُ هذا فقد علمتَه; لأنه لا يخفى عليك شيء"(٧).

قال الطبري:" يقول : إنك لا يخفى عليك شيء ، وأنت عالم أني لم أقل ذلك ولم آمُرهم به"(٨).

قال ابن كثير:" أي : إن كان صَدَرَ مني هذا فقد علمته يا رب"(٩).

قوله تعالى:{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة : ١١٦]، أي:" تعلم ما تضمره نفسي، ولا أعلم أنا ما في نفسك"(١٠).

قال الطبري:" يقول : إنك ، يا رب ، لا يخفى عليك ما أضمرته نفسي مما لم أنطق به ولم أظهره بجوارحي ، فكيف بما قد نطقتُ به وأظهرته بجوارحي ؟ يقول : لو كنت قد قلت للناس : {اتخذوني وأمي إلهين من دون الله }، كنت قد علمته ، لأنك تعلم ضمائر النفوس مما لم تنطق به ، فكيف بما قد نطقت به؟ ولا أعلم أنا ما أخفيته عني فلم تطلعني عليه ، لأني إنما أعلم من الأشياء ما أعلمتنيه"(١١).

قال ابن كثير: أي :"فإنه لا يخفى عليك شيء مما قلته ولا أردته في نفسي ولا أضمرته"(١٢).

قال الزمخشري:" {في نفسي}، أي: في قلبي: والمعنى: تعلم معلومي ولا أعلم معلومك، ولكنه سلك بالكلام طريق المشاكلة وهو من فصيح الكلام وبينه، فقيل في نفسك لقوله في نفسي"(١٣).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧، وصفوة التفاسير:٣٤٦.
(٢) الكشاف:٦٩٤/١.
(٣) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(٥) تفسير الطبري:٢٣٧/١١.
(٦) النكت والعيون:٨٧/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٢٧.
(٨) تفسير الطبري:٢٣٧/١١.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(١٠) التفسير الميسر:١٢٧.
(١١) تفسير الطبري:٢٣٨/١١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(١٣) الكشاف:٦٩٤/١.

قال السعدي:" وهذا من كمال أدب المسيح عليه الصلاة والسلام في خطابه لربه، فلم يقل عليه السلام: "لم أقل شيئا من ذلك" وإنما أخبر بكلام ينفي عن نفسه أن يقول كل مقالة تنافي منصبه الشريف، وأن هذا من الأمور المحالة، ونزه ربه عن ذلك أتم تنزيه، ورد العلم إلى عالم الغيب والشهادة"(١).

وفي قوله تعالى:{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ} [المائدة : ١١٦] وجوه:

أحدها: تعلم ما في غيبي ولا أعلم ما في غيبك، حكاه البغوي عن ابن عباس(٢).

والثاني: تعلم سري ولا أعلم سرك(٣).

والثالث: تعلم ما كان مني في دار الدنيا ولا أعلم ما يكون منك في الآخرة. قاله أبو روق(٤).

والرابع:أن النفس عبارة عن جملة الشيء وحقيقته، يقول: تعلم جميع ما أعلم من حقيقة أمري ولا أعلم حقيقة أمرك، وما عندي علمه. وهذا قول الزجاج(٥).

قال الزجاج:" فإنما هو راجع إلى الفائدة في المعلوم والتوكيد أن الغيب لا يعلمه إلا الله جل ثناؤه"(٦).

قوله تعالى:{إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ} [المائدة : ١١٦]، أي:" إنك أنت عالمٌ بكل شيء مما خفي أو ظهر"(٧).

قال البغوي:أي:" ما كان وما يكون"(٨).

قال الطبري:" يقول : إنك أنت العالم بخفيّات الأمور التي لا يطلع عليها سواك ، ولا يعلمها غيرك"(٩).

قال الزمخشري: قوله:"{إنك أنت علام الغيوب}، تقرير للجملتين معا، لأن ما انطوت عليه النفوس من جملة الغيوب، ولأن ما يعلمه علام الغيوب لا ينتهى إليه علم أحد"(١٠).

وفي الفرق بين «العالم» و«العلام»، وجهان(١١):

أحدهما : أن العلام الذي تقدم علمه ، والعالم الذي حدث علمه .

والثاني : أن العلام الذي يعلم ما كان وما يكون ، والعالم الذي يعلم ما كان ولا يعلم ما يكون .

الفوائد:

١- توبيخ النصارى في عرصات القيامة على تأليه عيسى ووالدته عليهما السلام.

٢- براءة عيسى عليه السلام مِنْ مشركي النصارى وأهل الكتاب.

٣- من فوائد هذه الآية الكريمة: توبيخ الذين اتخذوا عيسى إلهًا وأمه؛ لقوله:{أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ}؛ لأنه سبق أن المراد من هذا الاستفهام هو توبيخ الذين اتخذوا عيسى وأمه إلهين.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: بُعد الرسل عليهم الصلاة والسلام عن الشرك، لقوله :{سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}، وهذا أمر مسلم؛ لأن أصل بعثة الرسل من أجل تحقيق التوحيد.

---

(١) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٢) انظر: تفسير البغوي:١٢٢/٣.
(٣) انظر: تفسير البغوي:١٢٢/٣.
(٤) انظر: تفسير البغوي:١٢٢/٣.
(٥) انظر: معاني القرآن:٢٢٣/٢.
(٦)معاني القرآن:٢٢٣/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٢٧.
(٨) تفسير البغوي:١٢٢/٣.
(٩) تفسير الطبري:٢٣٨/١١.
(١٠) الكشاف:٦٩٤/١.
(١١) انظر: النكت والعيون:٨٨/٢.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تنزيه الله تبارك وتعالى أن يكون له شريك؛ لقوله : {سُبْحَانَكَ}؛ أي: تنزيهًا لك عن كل ما لا يليق بك، والمقام الآن باتخاذ شريك، فيكون معناه تنزيه الله عن كل شريك.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: اعتراف عيسى عليه الصلاة والسلام بما لا يستحق؛ لقوله :{مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ} وهكذا إخوانه من الرسل، فإن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم «لما قال له رجل: مَا شَاءَ اللهُ وَشِئْتَ. قال له: أَجَعَلْتَنِي وَاللهَ عَدْلًا؟ بَلْ مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(١)، فكل الرسل يعرفون قدر أنفسهم، فلا يمكن أن يقروا ما لا يستحقونه.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الألوهية حق خاص لله؛ لقوله :{مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ}، وإذا كان الرسل، بل خلاصة الرسل، ليس لهم في الألوهية، فمن دونهم من باب أولى، فلا أحد يستحق أن يكون إلهًا، ولا أحد يستحق أن نعبده من دون الله عز وجل.

٨- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يعلم ما يصدر من الإنسان من قول؛ لقوله:{إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}.

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تأدب الرسل عليهم الصلاة والسلام مع ربهم جل وعلا؛ لقوله :{إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ}، وإذا كنت علمته فإنه صادر عن علم من عندك يا رب، وعن قضاء وقدر، ولا يخفى عليك.

١٠- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إطلاق النفس على الذات، بل إن بعض العلماء يقول: إن إطلاق الذات على النفس غلط، وإن أصل ذات بمعنى صاحبة، فلا تقال إلا مضافة، كما قال عز وجل:{وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ} [البروج ١] أي صاحبة البروج، وإن إطلاق الذات على النفس من الكلمات المحدثة، وقد صرح بهذا شيخ الإسلام رحمه الله وقال: إنها ليست من كلام العرب العرباء -أي إطلاق الذات على النفس- وإنما يعبر عن الذات بالنفس، يعني بمعنى أن ذات الرجل هي نفسه، ولكن الاصطلاح شيء آخر واللغة العربية الفصحى شيء آخر.

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات علم الله بما في نفس الإنسان؛ لقوله :{تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي} وهذا كقوله تعالى :{وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ} [ق ١٦]، فالله عز وجل يعلم ما في قلبك، احذر أن يكون في قلبك ما يخالف أمر الله عز وجل.

١٢- ومن هنا نأخذ فائدة ثانية وهي: وجوب الخشوع في الصلاة؛ لأنك إذا غفلت وفكرت في غير ما يتعلق بالصلاة فقد أعرضت عن الله عز وجل، هكذا قرره بعض أهل العلم، ولكن في مسألة وجوب الخشوع في الصلاة فيها نظر؛ لأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أخبر أنه«إِذَا أُقِيمَتِ الصَّلَاةُ وَلَّى الشَّيْطَانُ وَلَهُ ضُرَاطٌ، فَإِذَا انْتَهَتِ الْإِقَامَةُ جَاءَ إِلَى الْمُصَلِّي وَجَعَلَ يُحَدِّثُهُ حَتَّى يَقُولَ: اذْكُرْ كَذَا فِي يَوْمِ كَذَا، فَلَا يَدْرِي كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا»(٢).

القرآن

{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (١١٧)} [المائدة : ١١٧]

التفسير:

قال عيسى عليه السلام: يا ربِّ ما قلتُ لهم إلا ما أوحيته إليَّ، وأمرتني بتبليغه من إفرادك بالتوحيد والعبادة، وكنتُ على ما يفعلونه -وأنا بين أظهرهم- شاهدًا عليهم وعلى أفعالهم

---

(١)أخرجه أحمد (١٨٣٩) من حديث ابن عباس.

(٢)متفق عليه؛ البخاري (٣٢٨٥) ومسلم (٣٨٩ / ٨٣) من حديث أبي هريرة.

وأقوالهم، فلما وفيتني أجلي على الأرض، ورفعتني إلى السماء حيًّا، كنت أنت المطَّلِع على سرائرهم، وأنت على كل شيء شهيد، لا تخفى عليك خافية في الأرض ولا في السماء.

قوله تعالى:{مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} [المائدة : ١١٧]، أي:" قال عيسى عليه السلام: يا ربِّ ما قلتُ لهم إلا ما أوحيته إليَّ، وأمرتني بتبليغه من إفرادك بالتوحيد والعبادة"(١).

قال ابن عباس:" سيدي وسيدكم"(٢).

قال الطبري:" يقول : ما قلت لهم إلا الذي أمرتني به من القول أن أقوله لهم ، وهو أن قلت لهم :{اعبدوا الله ربي وربكم}"(٣).

قال ابن كثير: "أي : ما دعوتهم إلا إلى الذي أرسلتني به وأمرتني بإبلاغه : { أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ } أي : هذا هو الذي قلت لهم"(٤).

قال السعدي:أي:"فأنا عبد متبع لأمرك، لا متجرئ على عظمتك، ما أمرتهم إلا بعبادة الله وحده وإخلاص الدين له، المتضمن للنهي عن اتخاذي وأمي إلهين من دون الله، وبيان أني عبد مربوب، فكما أنه ربكم فهو ربي"(٥).

قال الماوردي:" لم يذكر عيسى ذلك على وجه الإخبار به لأن الله عالم به ، ويحتمل وجهين : أحدهما : تكذيباً لمن اتخذ إلهاً معبوداً. والثاني : الشهادة بذلك على أمته فيما أمرهم به من عبادة ربه"(٦).

قوله تعالى:{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ} [المائدة : ١١٧]، أي:" وكنتُ على ما يفعلونه -وأنا بين أظهرهم- شاهدًا عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم"(٧).

قال البغوي:{ما دمت}، أي:"أقمت"(٨).

قال الطبري:" يقول : وكنت على ما يفعلونه وأنا بين أظهرهم شاهدًا عليهم وعلى أفعالهم وأقوالهم "(٩).

قال ابن كثير: " أي : كنت أشهد على أعمالهم حين كنت بين أظهرهم"(١٠).

قال السعدي:أي:" أشهد على من قام بهذا الأمر، ممن لم يقم به"(١١).

قوله تعالى:{فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ} [المائدة : ١١٧]، أي:" فلما وفيتني أجلي على الأرض، ورفعتني إلى السماء حيًّا، كنت أنت المطَّلِع على سرائرهم"(١٢).

قال السعدي:أي:" أي: المطلع على سرائرهم وضمائرهم"(١٣).

قال البغوي:أي: فلما" قبضتني ورفعتني إليك، {كنت انت}الحفيظ عليهم، تحفظ أعمالهم"(١٤).

قال الطبري:" يقول : فلما قبضتني إليك، كنت أنت الحفيظ عليهم دوني ، لأني إنما شهدت من أعمالهم ما عملوه وأنا بين أظهرهم. وفي هذا تبيانُ أن الله تعالى ذكره إنما عرّفه

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٥٥):ص١٢٥٤/٤.
(٣) تفسير الطبري:٢٣٨/١١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(٥) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٦) النكت والعيون:٨٩/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٢٧.
(٨) تفسير البغوي:١٢٢/٣.
(٩) تفسير الطبري:٢٣٨/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٣٣/٣.
(١١) تفسير السعدي:٢٤٩.
(١٢) التفسير الميسر:١٢٧.
(١٣) تفسير السعدي:٢٤٩.
(١٤) تفسير البغوي:١٢٢/٣.

أفعالَ القوم ومقالتهم بعد ما قبضه إليه وتوفاه بقوله:{أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}"(١).

قال السدي(٢) وابن جريج(٣):" أما {الرقيب}، فهو الحفيظ".

عن ميسرة قال : "قال الله تعالى ذكره : {يا عيسى أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله}؟ قال : فأُرعدت مفاصله ، وخشي أن يكون قد قالها ، فقال : {سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام الغيوب}"(٤).

قال طاوس:" : احتج عيسى ، والله وقفه"(٥).

قوله تعالى:{وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ} [المائدة : ١١٧]، أي:" وأنت المطّلع على كل شيء لا يخفى عليك شيء"(٦).

قال الطبري:" يقول : وأنت تشهد على كل شيء ، لأنه لا يخفى عليك شيء ، وأما أنا ، فإنما شهدت بعض الأشياء ، وذلك ما عاينت وأنا مقيم بين أظهر القوم ، فإنما أنا أشهد على ذلك الذي عاينت ورأيتُ وشهدت"(٧).

قال السعدي:أي:" علما وسمعا وبصرا، فعلمك قد أحاط بالمعلومات، وسمعك بالمسموعات، وبصرك بالمبصرات، فأنت الذي تجازي عبادك بما تعلمه فيهم من خير وشر"(٨).

عن ابن عباس قال : "قام فينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بموعظة ، فقال : يا أيها الناس ، إنكم محشورون إلى الله ، عز وجل ، حفاة عراة غُرْلا كما بدأنا أول خلق نعيده ، وإن أول الخلائق يُكْسى إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ بهم ذات الشمال فأقول : أصحابي. فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول كما قال العبد الصالح : { وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ * إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فيقال : إن هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم منذ فارقتهم"(٩).

الفوائد:

١- أن الرسل عليهم الصلاة والسلام مكلّفون بالرسالة أمرًا من الله؛ لقوله :{مَا أَمَرْتَنِي بِهِ}، وهذا له شواهد في القرآن كثيرة، مثل قول الله تعالى لرسوله محمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم :{يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} [المائدة: ٦٧].

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: حُسْن أدب الرسل مع الله عز وجل؛ حيث قال :{إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ}؛ وجه ذلك: أنه يُشعِر بأن عيسى رسولٌ مأمور مكلّف بالأمر.

٣- ومن فوائدها: أن عيسى عليه الصلاة والسلام أُمِر أن يبلّغ الناس بأنه عبد والله تعالى رب؛ لقوله :{أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ} والرب مقابله العبد * .ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا حق لعيسى في الألوهية ولا الربوبية؛ لقوله :{رَبِّي}، ومَنْ ليس له ربوبية ليس له ألوهية.

---

(١) تفسير الطبري:٢٣٩/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٠٣٢):ص٢٣٩/١١. واللفظ له.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٠٣٣):ص٢٣٩/١١.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٠٣٦):ص٢٤٠/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٠٣٤):ص٢٤٠/١١.
(٦) صفوة التفاسير:٣٤٦.
(٧) تفسير الطبري:٣٣٩/١١.
(٨) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٩)مسند الطيالسي برقم (٢٦٣٨) وصحيح البخاري برقم (٤٦٢٥) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٣٠٢٣).

فإن قال قائل: أليس يُحْيي الموتى ويُبْرِئ الأكْمَه والأبرص؟ فالجواب: بلى ولكن بإذن الله.

٤- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام شهداء على أمتهم ما داموا فيهم؛ لقوله:{وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ}، ومع ذلك هم شهداء على ما يَرَوْن أو يسمعون، وليسوا شهداء على غائبٍ بعيد لا يرونه ولا يسمعونه؛ لأن الرسل لا يعلمون الغيب.

٥- ومن فوائد هذه الآية: أن عيسى عليه الصلاة والسلام قد تَوفَّاه الله؛ لقوله :{فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي}، وقد جاء في ذلك آيات منها قوله تعالى :{إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا}]آل عمران ٥٥] إلى آخره، فأثبت أنه متوفيه.

٦- إحاطة علم الله تبارك وتعالى ورقابته؛ لقوله :{كُنْتَ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ}.

٧- إثبات أن الله تعالى شهيد على كل شيء؛ لقوله :{وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ}، وهذا يستلزم فائدة أخرى وهي: أنه يجب على العبد كمال مراقبة الله تبارك وتعالى؛ حيث لا يفقده عند أمره ولا يجده عند نهيه؛ لأن الله رقيب عليك، فلا بد أن تتحاشى هذه الرقابة، وألّا يفقدَك الله تعالى حيث أمرك ولا يجدَك على ما نهاك.

القرآن

{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١١٨)} [المائدة : ١١٨]

التفسير:

إنك يا ألله إن تعذبهم فإنهم عبادك -وأنت أعلم بأحوالهم-، تفعل بهم ما تشاء بعدلك، وإن تغفر برحمتك لمن أتى منهم بأسباب المغفرة، فإنك أنت العزيز الذي لا يغالَبُ، الحكيم في تدبيره وأمره.

قوله تعالى:{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} [المائدة : ١١٨]، أي:" إنك يا ألله إن تعذبهم فإنهم عبادك -وأنت أعلم بأحوالهم-، تفعل بهم ما تشاء بعدلك"[١].

قال السدي:" يقول: إن تعذبهم تميتهم بنصرانيتهم فيحق عليهم العذاب فإنهم عبادك"[٢].

قال الطبري:" إنْ تعذب هؤلاء الذين قالوا هذه المقالة ، بإماتتك إياهم عليها {فإنهم عبادك}، مستسلمون لك ، لا يمتنعون مما أردت بهم ، ولا يدفعون عن أنفسهم ضرًّا ولا أمرًا تنالهم به"[٣].

قال ابن كثير:" ومعنى قوله : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ } الآية : التبري منهم ورد المشيئة فيهم إلى الله ، وتعليق ذلك على الشرط لا يقتضي وقوعه ، كما في نظائر ذلك من الآيات"[٤].

و قوله تعالى:{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ} [المائدة : ١١٨]، يحتمل وجهين[٥]:

أحدهما : أنه قاله على وجه الاستعطاف لهم والرأفة بهم كما يستعطف العبد سيده .

والثاني : أنه قاله على وجه التسليم لأمر ربه والاستجارة من عذابه .

قوله تعالى:{وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ} [المائدة : ١١٨]، أي:" وإن تغفر برحمتك لمن أتى منهم بأسباب المغفرة، فإنك أنت العزيز الذي لا يغالَبُ، الحكيم في تدبيره وأمره"[٦].

قال السدي:" {وإن تغفر لهم}، فتخرجهم من النصرانية، وتهديهم إلى الإسلام فإنك أنت العزيز الحكيم. هذا قول عيسى عليه السلام في الدنيا"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٠):ص٤/١٢٥٥.

(٣) تفسير الطبري:١١/٢٤٠.

(٤) تفسير ابن كثير:٢/٢٣٢.

(٥) انظر: النكت والعيون:٢/٨٩.

(٦) التفسير الميسر:١٢٧.

قال الطبري:أي:" بهدايتك إياهم إلى التوبة منها ، فتستر عليهم {فإنك أنت العزيز} في انتقامه ممن أراد الانتقام منه ، لا يقدر أحدٌ يدفعه عنه، {الحكيم}، في هدايته من هدى من خلقه إلى التوبة ، وتوفيقه من وفَّق منهم لسبيل النجاة من العقاب "(٢).

قال ابن كثير:" وقوله : { إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ }، هذا الكلام يتضمن رد المشيئة إلى الله ، عز وجل ، فإنه الفعال لما يشاء ، الذي لا يسأل عما يفعل وهم يسألون. ويتضمن التبري من النصارى الذين كذبوا على الله ، وعلى رسوله ، وجعلوا لله ندًا وصاحبة وولدًا ، تعالى الله عما يقولون علوًا كبيرًا ، وهذه الآية لها شأن عظيم ونبأ عجيب ، وقد ورد في الحديث : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قام بها ليلة حتى الصباح يرددها"(٣).

ذكر السمعاني والبغوي في الآية وجوه(٤):

أحدها: فإن قال قائل: كيف طلب المغفرة لهم، وهم كفار؟

قيل: إن معنى قوله: {وإن تغفر لهم}، يعني: بعد الإيمان، وهذا إنما يستقيم على قول السدي؛ لأن الإيمان لا ينفع في القيامة، والصحيح آخر القولين، قال بعضهم: هذا في فريقين منهم فقوله: {إن تعذبهم فإنهم عبادك} يعني: من كفر منهم {وإن تغفر لهم} يعني: من آمن منهم. وقال أهل المعاني من أرباب النحو: ليس هذا على وجه طلب المغفرة، وإنما هذا على تسليم الأمر إليه، وتفويضه إلى مراده؛ ألا تراه يقول: " فإنك أنت العزيز الحكيم " ولو كان على وجه طلب المغفرة لقال: " فإنك أنت الغفور الرحيم ".

وأما السؤال الثاني: وكيف قال: {وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم}، وهذا لا يليق بسؤال المغفرة؟

قيل: اعلم أن في مصحف ابن مسعود:{وإن تغفر لهم فإنك أنت الغفور الرحيم} وكان ابن شنبوذ يقرأ كذلك زمانا ببغداد؛ فمنع عنه، وفيه قصة، وقيل: فيه تقديم وتأخير، وتقدير الآية: إن تغفر لهم فإنهم عبادك، وإن تعذبهم فإنك أنت العزيز الحكيم. وقيل: معناه: إن تغفر لهم لا ينقص من عزك شيء، ولا يخرج من حكمك شيء، ويدخل في حكمته ومغفرته وسعة رحمته ومغفرته الكفار، لكنه أخبر أنه لا يغفر وهو لا يخلف خبره.

قال الزمخشري:" فإن قلت: المغفرة لا تكون للكفار فكيف قال: {وإن تغفر لهم}؟

قلت: ما قال إنك تغفر لهم، ولكنه بنى الكلام على: إن غفرت، فقال: إن عذبتهم عدلت، لأنهم أحقاء بالعذاب، وإن غفرت لهم مع كفرهم لم تعدم في المغفرة وجه حكمة لأن المغفرة حسنة لكل مجرم في المعقول. بل متى كان الجرم أعظم جرما كان العفو عنه أحسن"(٥).

عن أبي ذر ، رضي الله عنه ، قال : "صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ليلة فقرأ بآية حتى أصبح ، يركع بها ويسجد بها:{ إِنْ تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ } فلما أصبح قلت : يا رسول الله ، ما زلت تقرأ هذه الآية حتى أصبحت تركع بها وتسجد بها ؟ قال : إني سألت ربي ، عز وجل ، الشفاعة لأمتي ، فأعطانيها ، وهي نائلة إن شاء الله لمن لا يشرك بالله شيئًا"(٦).

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ؛ "أن النبي صلى الله عليه وسلم: تلا قول الله عز وجل في إبراهيم: {رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني} [إبراهيم: ٣٦] الآية، وقال عيسى عليه السلام: {إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم} [المائدة: ١١٨]، فرفع يديه وقال: «اللهم أمتي أمتي»، وبكى، فقال الله عز وجل: «يا جبريل

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٢):ص١٢٥٥/٤.

(٢) تفسير الطبري:٢٤٠/١١-٢٤١.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٣٤/٣.

(٤) انظر: تفسير السمعاني:٨٣/٢، وتفسير البغوي:١٢٣/٣.

(٥) الكشاف:٦٩٧/١.

(٦)المسند (١٤٩/٥).

اذهب إلى محمد، وربك أعلم، فسله ما يبكيك؟» فأتاه جبريل عليه الصلاة والسلام، فسأله فأخبره رسول الله صلى الله عليه وسلم بما قال، وهو أعلم، فقال الله: يا جبريل، اذهب إلى محمد، فقل: إنا سنرضيك في أمتك، ولا نسوءك"(١).

وعن حذيفة بن اليمان قال : "غاب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يومًا فلم يخرج ، حتى ظننا أن لن يخرج ، فلما خرج سجد سجدة ظننا أن نَفْسه قد قبضت فيها ، فلما رفع رأسه قال : "إن ربي ، عز وجل ، استشارني في أمتي : ماذا أفعل بهم ؟ فقلت : ما شئت أي رب هم خلقك وعبادك. فاستشارني الثانية ، فقلت له كذلك ، فقال : لا أخزيك في أمتك يا محمد ، وبشرني أن أول من يدخل الجنة من أمتي معي سبعون ألفًا ، مع كل ألف سبعون ألفا ، ليس عليهم حساب ، ثم أرسل إليّ فقال : ادع تُجب ، وسل تُعْطَ". فقلت لرسوله : أومعطي ربي سؤلي ؟ قال : ما أرسلني إليك إلا ليعطيك ، ولقد أعطاني ربي ولا فخر ، وغفر لي ما تقدم من ذنبي وما تأخر ، وأنا أمشي حيًا صحيحًا ، وأعطاني ألا تجوع أمتي ولا تغلب ، وأعطاني الكوثر ، وهو نهر في الجنة يسيل في حوضي ، وأعطاني العز والنصر والرعب يسعى بين يدي أمتي شهرًا ، وأعطاني أني أول الأنبياء يدخل الجنة ، وطيّب لي ولأمتي الغنيمة ، وأحل لنا كثيرًا مما شُدد على من قبلنا ، ولم يجعل علينا في الدين من حرج"(٢).

الفوائد:

١- أن هذه الآية ثناء على الله -تعالى- بحكمته وعدله، وكمال علمه.
٢- أن تعذيب المشركين وتنعيم الموحدين قائم على مبدأ الحكمة الإلهية.
٣- أن عيسى عليه السلام -وهو أحد أولو العزم من الرسل- يفوض الأمر إلى الله؛ حيث قال :{إِنْ تُعَذِّبْهُمْ}، {وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ}، وهكذا يجب علينا نحن أن نفوض الأمر إلى الله عز وجل فيما يفعله ولا نعترض عليه، فالله يقول :{لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ} [الأنبياء: ٢٣]، {لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ} لكمال حكمته، {وَهُمْ يُسْأَلُونَ} لأنهم عابدون لله عز.
٤- تسليم الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وتفويض الأمر إلى الله عز وجل؛ لأن هذا من عيسى عليه الصلاة والسلام وهو أحد الأنبياء أولي العزم.
٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إطلاق العبودية على مَن استحق التعذيب، والعبودية نوعان: خاصة، وعامة، والخاصة نوعان: أخص، وأعم؛ العامة: هي عبودية القدر؛ يعني عبودية التكوين، هذه عامَّة لكل أحد؛ قال الله عز وجل :{إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا} [مريم: ٩٣]، ولا يشذ عن هذه العبودية أحد، ولا يمكن أن يعارض هذه العبودية أحد، كل الخلق، لا يستطيع أكفر عباد الله أن يمنع قدر الله عز وجل فيه، وهذه عامة للمسلم والكافر، والبَّر والفاجر.
والثاني خاصة: وهي العبودية للشرع؛ العبودية لشريعة الله أن يتذلل الإنسان لشريعة الله عز وجل، وهذه خاصَّة بمن؟ بمن أسلم وجه لله، فيَخْرج منها الكافر؛ فليس بعبد لله بهذا المعنى.
٦- أن لله تبارك وتعالى أن يعذب ويرحم، وإن شئت فقل: أن يعذب ويغفر؛ لتطابق الآية، ولكن هل هذا على ظاهره أو نقول: أن يُعذِّب من يستحق التعذيب؟ لأن الله تعالى لا يُعذِّب أحدًا لا يستحق التعذيب كما قال عز وجل :{وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا} [طه: ١١٢].
٧- ومن فوائد الآية الكريمة: حكمة الله عز وجل في جَعْل الخلق ينقسمون إلى قسمين: معذب، ومغفور له، كقوله تعالى :{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ}]التغابن ٢]، ولولا هذا الانقسام ما ظهر فضل الإيمان، ولا شُرِعَ الجهاد ولا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولا أرسلت الرسل، لكن حكمة الله اقتضت أن يكون الناس قسمين.

---

(١) أخرجه مسلم(٣٤٦):ص١٩١/١، والنسائي في الكبرى(١١٢٠٥):١٤٠/١٠، وغيرهما.
(٢)المسند (٣٩٣/٥) وقال الهيثمي في المجمع (٢٨٧/٢) : "فيه ابن لهيعة وفيه كلام".

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات المغفرة -أي مغفرة الله عز وجل- لمن شاء من عباده؛ لقوله :{وَإِنْ تَغْفِرْ لَهُمْ}، وقد مر عليكم معنى المغفرة وهي: ستر الذنب والتجاوز عنه، نأخذ هذا من اشتقاق هذه الكلمة؛ فإنها مشتقة من المِغْفَر وهو الذي يُتَّقَى به السهام، يجعل على الرأس، فهو ساتر وواقٍ.

٩- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات هذين الاسمين الكريمين: العزيز والحكيم، وإثبات ما تضمناه من صفة، وهي العزة والحكم والحكمة.

فـ«العزيز»:هو المنيع الذي لا يغلب. والعز في كلام العرب على ثلاثة أوجه.

أحدها: بمعنى الغلبة، ومنه قولهم: من عز بز، أي: من غلب سلب، يقال منه: عز يعز -بضم العين- من يعز. ومنه قول الله سبحانه: {وعزني في الخطاب} [ص : ٢٣].

والثاني: بمعنى الشدة والقوة. يقال منه: عز يعز -بفتح العين- من "يعز" ، كقول الهذلي -يصف العقاب-[١]:

حتى انتهيت إلى فراش عزيزة ... سوداء روثة أنفها كالمخصف

جعلها عزيزة، لأنها من أقوى جوارح الطير.

والوجة الثالث: أن يكون بمعنى نفاسة القدر. يقال منه: عز الشيء يعز -بكسر العين- من يعز، فيتأول معنى العزيز على هذا، أنه الذي لا يعادله شيء، وأنه لا مثل له، ولا نظير"[٢].

و«الحكيم»:"{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١].

فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها [٣].

القرآن

{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١١٩)} [المائدة : ١١٩]

التفسير:

قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع الموحدين توحيدهم ربهم، وانقيادهم لشرعه، وصدقهم في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم، لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، ماكثين فيها أبدًا، رضي الله عنهم فقبل حسناتهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزيل ثوابه. ذلك الجزاء والرضا منه عليهم هو الفوز العظيم.

قوله تعالى:{قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ} [المائدة : ١١٩]، أي:" قال الله تعالى لعيسى عليه السلام يوم القيامة: هذا يوم الجزاء الذي ينفع الموحدين توحيدهم ربهم، وانقيادهم لشرعه، وصدقهم في نياتهم وأقوالهم وأعمالهم"[٤].

قال ابن عباس:" يقول: هذا يوم ينفع الموحدين توحيدهم"[٥].

قال الكلبي:" ينفع المؤمنين إيمانهم"[١].

---

(١)ديوان الهذليين القسم الثاني ص ١١٠، وشرح أشعارهم للسكري ص ١٠٨٩ آخر قصيدة لأبي كبير الهذلي، أبياتها ٢٣ بيتا، مطلعها:

أزهير هل عن شيبة من مصرف ... أم لا خلود لباذل متكلف

وفي مقاييس اللغة ٢/ ١٨٢ وتهذيب الأزهري ٧/ ١٤٧ برواية: فتخاء، بدل، سوداء، وفي اللسان والقاموس وشرحه (عزز). وفي الديوان، يريد: أن منسرها حديد دقيق كأنه مخصف. والروثة: طرف الأنف، وفراشها: عشها.

والبيت استشهد به الزجاج في تفسير الأسماء ص ٣٤ على معنى "العزيز"..

(٢) شأن الدعاء:٤٧/١-٤٨.

(٣) انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.

(٤) التفسير الميسر:١٢٧.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٣):ص١٢٥٦/٤.

قال السدي:" هذا فصل من كلام عيسى ، وهذا يوم القيامة"[٢].

يعني:" أن قوله:{سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق}، إلى قوله :{فإنك أنت العزيز الحكيم}، من خبر الله عز وجل عن عيسى أنه قاله في الدنيا بعد أن رفعه إليه ، وأن ما بعد ذلك من كلام الله لعباده يوم القيامة"[٣].

قال البيضاوي:" المعنى هذا الذي مر من كلام عيسى واقع يوم ينفع"[٤].

قال ابن كثير:" يقول تعالى مجيبًا لعبده ورسوله عيسى ابن مريم فيما أنهاه إليه من التبري من النصارى الملحدين ، الكاذبين على الله وعلى رسوله ، ومن رد المشيئة فيهم إلى ربه ، عز وجل ، فعند ذلك يقول تعالى : { هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ }"[٥].

قال الماوردي:" وإنما نفعهم الصدق في ذلك اليوم لوقوع الجزاء فيه وإن كان في كلِّ الأيام نافعاً"[٦].

وفي هذا «الصدق»، قولان[٧]:

أحدهما : أن صدقهم الذي كان منهم في الدنيا نفعهم في الآخرة جُوزُوا عليه من الثواب.

فعلى هذا المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في عهودهم .

والثاني : أنه تصديقهم لرسل الله وكتبه .

والقول الثاني : أنه صدق يكون منهم في الآخرة ينفعهم لقيامهم فيه بحق الله .

فعلى هذا في المراد بهذا الصدق وجهان محتملان :

أحدهما : أنه صدقهم في الشهادة لأنبيائهم بالبلاغ .

والثاني : صدقهم فيما شهدوا به على أنفسهم عن أعمالهم ، ويكون وجه النفع فيه أن يكفوا المؤاخذة بتركهم كتم الشهادة ، فيغفر لهم بإقرارهم لأنبيائهم وعلى أنفسهم .

قال السعدي:" والصادقون هم الذين استقامت أعمالهم وأقوالهم ونياتهم على الصراط المستقيم والهدي القويم، فيوم القيامة يجدون ثمرة ذلك الصدق، إذا أحلهم الله في مقعد صدق عند مليك مقتدر"[٨].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى قوله {ينفع الصادقين صدقهم}؟ إن أريد صدقهم في الآخرة فليست الآخرة بدار عمل، وإن أريد صدقهم في الدنيا فليس بمطابق لما ورد فيه لأنه في معنى الشهادة لعيسى عليه السلام بالصدق فيما يجيب به يوم القيامة؟

قلت: معناه الصدق المستمر بالصادقين في دنياهم وآخرتهم"[٩].

قرأ نافع وحده:{هذا يوم ينفع} نصبا، وقرأ الباقون:{هذا يوم ينفع} رفعا[١٠].

قوله تعالى:{لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ} [المائدة : ١١٩]، أي:" لهم جنات تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار"[١١].

قال أبو مالك:" يعني: المساكن تجري أسفلها أنهارها"[١٢].

قال عبدالله:" أنهار الجنة تفجر من جبل مسك"[١].

---

(١) تفسير البغوي:١٢٤/٣.

(٢) أخرجه الطبري(١٠٣٩١):ص٢٤١/١١.

(٣) تفسير الطبري:٢٤٢/١١.

(٤) تفسير البيضاوي:١٥٢/٢.

(٥) تفسير ابن كثير:٢٣٥/٣.

(٦) النكت والعيون:٩٠/٢.

(٧)انظر: النكت والعيون:٩٠/٢.

(٨) تفسير السعدي:٢٤٩.

(٩) الكشاف:٦٩٧/١.

(١٠) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٠.

(١١) التفسير الميسر:١٢٧.

(١٢) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٧):ص١٢٥٦/٤.

قوله تعالى:{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا} [المائدة : ١١٩]، أي:" ماكثين فيها أبدًا"[٢].
قال سعيد بن جبير:" يعني: لا يموتون"[٣].
عن ابن عباس:{خالدين فيها أبدا}: لا انقطاع له"[٤].
قال ابن كثير:" : ماكثين فيها لا يَحُولون ولا يزولون"[٥].
قوله تعالى:{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ} [المائدة : ١١٩]، أي:" رضي الله عنهم فقبل حسناتهم، ورضوا عنه بما أعطاهم من جزيل ثوابه"[٦].
قال الطبري:أي:" رَضي الله عن هؤلاء الصادقين الذين صدقوا في الوفاء له بما وعدوه ، من العمل بطاعته واجتناب معاصيه، ورضوا هم عن الله تعالى ذكره في وفائه لهم بما وعدهم على طاعتهم إياه فيما أمرهم ونهاهم ، من جزيل ثوابه"[٧].
قال النسفي:" {رضي الله عنهم} بالسعي المشكور، {ورضوا عنه} بالجزاء الموفور"[٨].
قال القرطبي:" ثم بين تعالى ثوابهم وأنه راض عنهم رضا لا يغضب بعده أبدا، {ورضوا عنه}، أي: عن الجزاء الذي أثابهم به"[٩].
عن أنس قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ثم تجلى لهم الرب تبارك وتعالى فيقول: سلوني، سلوني أعطكم قال: فيسألونه الرضى. فيقول: رضاي أحلكم داري وأنا لكم كرامتي فاسألونى أعطكم، فيسألونه الرضى قال: فيشهدهم أنه قد رضي عنهم"[١٠].
قوله تعالى:{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [المائدة : ١١٩]، أي:" ذلك الجزاء والرضا منه عليهم هو الفوز العظيم"[١١].
قال سعيد بن جبير:" يعني: ذلك الثواب الفوز العظيم"[١٢].
قال النسفي:" لأنه باق بخلاف الفوز في الدنيا فهو غير باق"[١٣].
قال ابن كثير:" أي : هذا هو الفوز الكبير الذي لا أعظم منه ، كما قال تعالى : { لِمِثْلِ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ } [الصافات : ٦١] ، وكما قال : { وَفِي ذَلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ } [المطففين : ٢٦]"[١٤].
قال القرطبي:" أي الظفر{العظيم}، أي: الذي عظم خيره وكثر، وارتفعت منزلة صاحبه وشرف"[١٥].
الفوائد:

---

(١) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٦):ص١٢٥٦/٤.
(٢) التفسير الميسر:١٢٧.
(٣) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٨):ص١٢٥٦/٤.
(٤) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٦٩):ص١٢٥٦/٤.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٣٥/٣.
(٦) التفسير الميسر:١٢٧.
(٧) تفسير الطبري:٢٤٥/١١.
(٨) تفسير النسفي:٤٨٨/١.
(٩) تفسير القرطبي:٣٨٠/٦-٣٨١.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٠):ص١٢٥٧/٤، ورواه ابن أبي شيبة في المصنف (١٥٠/٢) : حدثنا عبد الرحمن المحاربي، فذكره من حديث طويل ، وعثمان بن عمير أبو اليقظان الكوفي قال الذهبي : ضعفوه - أي الأئمة - فقال ابن معين : ليس بشيء ، وقال أبو أحمد الزبيدي : كان يؤمن بالرجعة ، وقال النسائي : ليس بالقوي ، وقال أحمد والدارقطني : ضعيف ، وقال ابن عدي : "رديء المذهب ، يؤمن بالرجعة ، على أن الثقات قد رووا عنه مع ضعفه". ميزان الاعتدال (٥٠/٣).
(١١) التفسير الميسر:١٢٧.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧١):ص١٢٥٧/٤.
(١٣) تفسير النسفي:٤٨٨/١.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٣٦/٣.
(١٥) تفسير القرطبي:٣٨١/٦.

١- فضيلة الصدق وأنه نافع في الدنيا والآخرة، وفي الحديث: "عليكم بالصدق٣ فإنه يدعو إلى البر وأن البر يهدي إلى الجنة، ولا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً"[(١)].

٢- ومن فوائدها: الحث على الصدق والترغيب فيه؛ لأن ذكر كونه نافعًا في ذلك الوقت الحرج يدل على الترغيب فيه والحث عليه، وقد حث عليه النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في قوله:«عَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ؛ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَلَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا»[(٢)].

والصدِّيقيَّة أعلى مراتب البشر بعد النبوة، ويكفيك اقتناعًا بفائدته وثمرته ما حصل للثلاثة الذين خُلِّفُوا؛ أي خُلِّفَ أمرُهم ولم يُقْضَ فيه بشيء حتى جاء الوحي، وهم: كعب بن مالك، هلال بن أمية، مرارة بن الربيع، هؤلاء الثلاثة تخلفوا عن غزوة تبوك، ولما رجع النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم منها جاء المعذِّرون يعتذرون إلى الرسول صلى الله عليه الصلاة والسلام، وقد أخبر الله عنهم قبل وصول النبي ﷺ إلى المدينة وقال :{يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ} [التوبة:٩٤]، {لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ} [التوبة: ٩٥ -٩٦].

أما الثلاثة فصدقوا وأخبروا بالصدق، وأنزل الله سبحانه وتعالى فيهم آيات تُتْلَى في الصلاة وخارج الصلاة، ويُثاب على قراءتها، وحثَّ على أن نكون مثلهم؛ فقال بعد ذكر الآيات :{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ} [التوبة:١١٩].

٣- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الثواب بالجنة؛ لقوله :{لَهُمْ جَنَّاتٌ}، وهذا أمر معتقد عند جميع الطوائف المسلمة.

٤- ومن فوائد الآية: أن هذا الثواب يختص به الصادقون، لأن تقديم الخبر في قوله: : {لَهُمْ جَنَّاتٌ} أفاد الحصر.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: وصف الجنات بأن الأنهار المطردة تجري من تحت الأشجار والقصور، وما أجمله من منظر وما ألذَّه من مَخْبَر، اللهم اجعلنا منهم.

٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن أهل الجنة مخلَّدون فيها أبدًا؛ لقوله :{خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا}، وهي موجودة الآن في السماوات؛ قال الله تعالى :{أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ} [آل عمران: ١٣٣] والإعداد يكون مهيَّأ لأهله، والنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم دخلها حين عُرِجَ به ورأى فيها ما رأى[(٣)]، ومَثَّلت له حين قام يصلي صلاة الكسوف[(٤)]هي والنار.

٧- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات رضا الله عز وجل؛ لقوله :{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ}، والرضا صفة فعلية؛ لأنها تتعلق بمشيئته، وكل صفة تتعلق بالمشيئة فهي فعلية.

٨- رضا أهل الصدق عن الله عز وجل، وهذا فيه شيء من الإشكال؛ هل للإنسان أن يرضى عن الله أو لا يرضى، أو الواجب الرضا بقضاء الله مطلقًا؟ الثاني، الواجب رضا الإنسان عن ربه مطلقًا لا بد أن يقول: رضيت بالله ربًّا وبالإسلام دينًا وبمحمد رسولًا، فهل نقول: إن هذا من باب المشاكلة في اللفظ؛ لما قال :{رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ} قال : {وَرَضُوا عَنْهُ}، أو نقول: إن الرضا هنا ليس المراد مقابل الغضب؛ لأنه إذا ثبت الرضا ثبت الرضا، إذا لم يثبت فضده الكراهة والسخط والغضب، أو عدم الرضا بدون كراهة ولا سخط ولا غضب؟ فلا يلزم من هذا أن نقول: إن الإنسان له الخيار بين أن يرضى بقضاء الله وقدره وألَّا يرضى، بل نقول: إن الواجب أن يرضى الإنسان بقضاء الله وقدره؛ لأن هذا من تمام الرضا بالله ربًّا، لكن رضاهم عنه إما من باب مقابلة اللفظ

---

(١)أخرجه غير واحد من أصحاب الصحاح والسنن.

(٢)متفق عليه؛ البخاري (٦٠٩٤)، ومسلم (٢٦٠٧ / ١٠٥) واللفظ له، من حديث عبد الله بن مسعود.

(٣)متفق عليه؛ البخاري (٣٤٩)، ومسلم (١٦٣ / ٢٦٣) من حديث أبي ذر.

(٤)متفق عليه؛ البخاري (٥٤٠)، ومسلم (٢٣٥٩ / ١٣٦) من حديث أنس بن مالك.

بمثله، وإلّا أن المراد برضاهم أنهم فرحوا بذلك واستبشروا به، ولم يبغوا عنه حِوَلًا، كما قال الله عز وجل :{إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَانَتْ لَهُمْ جَنَّاتُ الْفِرْدَوْسِ نُزُلًا (١٠٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يَبْغُونَ عَنْهَا حِوَلًا} [الكهف ١٠٧، ١٠٨].

٩- أن أن الفوز حقيقة ليس بالربح، بربح الدينار والدرهم، وإنما الربح العظيم أو الفوز العظيم هو فوز الإنسان بجنات النعيم -أسأل الله أن يجعلني وإياكم من الفائزين بها- ولهذا قال :{ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ}.

القرآن

{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٢٠)} [المائدة : ١٢٠]

التفسير:

لله وحده لا شريك له ملك السموات والأرض وما فيهن، وهو -سبحانه- على كل شيء قدير لا يعجزه شيء.

قوله تعالى:{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ} [المائدة : ١٢٠]، أي:" لله وحده لا شريك له ملك السموات والأرض وما فيهن"(١).

قال السعدي:" لأنه الخالق لهما والمدبر لذلك بحكمه القدري، وحكمه الشرعي، وحكمه الجزائي"(٢).

قال النسفي:" عظم نفسه عما قالت النصارى أن معه إلها آخر"(٣).

قال ابن كثير:" أي : هو الخالق للأشياء ، المالك لها ، المتصرف فيها القادر عليها ، فالجميع ملكه وتحت قهره وقدرته وفي مشيئته ، فلا نظير له ولا وزير ، ولا عديل ، ولا والد ولا ولد ولا صاحبة ، فلا إله غيره ولا رب سواه"(٤).

قال الطبري:" يقول : له سلطان السموات والأرض ، {وما فيهن}، دون عيسى الذين تزعمون أنه إلهكم ، ودون أمه ، ودون جميع من في السموات ومن في الأرض ، فإن السموات والأرض خلق من خلقه وما فيهن ، وعيسى وأمُّه من بعض ذلك بالحلول والانتقال ، يدلان بكونهما في المكان الذي هما فيه بالحلول فيه والانتقال ، أنهما عبدان مملوكان لمن له ملك السموات والأرض وما فيهن. ينبِّههم وجميعَ خلقه على موضع حجته عليهم ، ليدَّبروه ويعتبروه فيعقلوا عنه"(٥).

قال الزمخشري:" فإن قلت: في السموات والأرض العقلاء وغيرهم، فهلا غلب العقلاء، فقيل: ومن فيهن؟

قلت: «ما» يتناول الأجناس كلها تناولا عاما. ألا تراك تقول إذا رأيت شبحا من بعيد: ما هو؟ قبل أن تعرف أعاقل هو أم غيره، فكان أولى بإرادة العموم"(٦).

قوله تعالى:{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [المائدة : ١٢٠]، أي:" وهو -سبحانه- على كل شيء قدير لا يعجزه شيء"(٧).

قال النسفي:أي:" من المنع والإعطاء والإيجاد والإفناء"(٨).

قال السعدي:" فلا يعجزه شيء، بل جميع الأشياء منقادة لمشيئته، ومسخرة بأمره"(٩).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٧.
(٢) تفسير السعدي:٢٤٩.
(٣) تفسير النسفي:٤٨٨/١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٣٦/٣.
(٥) تفسير الطبري:٢٤٥/١١.
(٦) الكشاف:٦٩٧/١.
(٧) التفسير الميسر:١٢٧.
(٨) تفسير النسفي:٤٨٨/١.
(٩) تفسير السعدي:٢٤٩.

قال الطبري:أي:" الذي له ملك السموات والأرض وما فيهن ، قادرٌ على إفنائهن وعلى إهلاكهن ، وإهلاك عيسى وأمه ومن في الأرض جميعًا كما ابتدأ خلقهم ، لا يعجزه ذلك ولا شيء أراده ، لأن قدرته القدرةُ التي لا تشبهها قدرة ، وسلطانه السلطان الذي لا يشبهه سلطان ولا مملكة"(١).

قال محمد بن إسحاق:" {إن الله على كل شيء} ما أراد بعباده من نقمة أو عفو فهو {قدير}"(٢).

قال البيضاوي:هذه الآية" تنبيه على كذب النصارى وفساد دعواهم في المسيح وأمه، وإنما لم يقل: {ومن فيهن} تغليبا للعقلاء، وقال: {وما فيهن}، اتباعا لهم غير أولي العقل إعلاما بأنهم في غاية القصور عن معنى الربوبية والنزول عن رتبة العبودية، وإهانة لهم وتنبيها على المجانسة المنافية للألوهية، ولأن ما يطلق متناولا للأجناس كلها فهو أولى بإرادة العموم"(٣).

قال ابن وَهْب : "سمعت حُيَيّ بن عبد الله يحدث ، عن أبي عبد الرحمن الحُبُلي ، عن عبد الله بن عَمْرو قال : آخر سورة أنزلت سورة المائدة"(٤).

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: عموم ملك الله للسماوات والأرض، يؤخذ من الإضافة {مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ}، والمفرد المضاف يفيد العموم، واسمع إلى قول الله تعالى : {وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا} [النحل ١٨] فإن {نِعْمَةَ} مفرد، ولا يحتاج إلى عدد لو أخذنا بظاهره لقلنا: النعمة واحدة، لكن لما كان المفرد المضاف يفيد العموم صح أن يقول :{لَا تُحْصُوهَا} .

٢- أن سؤال غير الله شيئاً ضرب من الباطل والشرك، لأن غير الله لا يملك شيئاً، ومن لا يملك كيف يعطي ومن أين يعطي؟

٣- أن السماوات جمع عدد، وقد بين الله تعالى في كتابه أنها سبع سماوات، فقال تعالى :{قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ} [المؤمنون: ٨٦] إذن فالسماوات سبع، وهي طباق كما قال الله تعالى عن نوح :{أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا} [نوح: ١٥] أي: متطابقة بعضها فوق بعض.

٤- عموم قدرة الله عز وجل على كل شيء؛ لقوله تعالى :{وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ}.

«آخر تفسير سورة المائدة، والحمد لله وحده»

---

(١) تفسير الطبري:٢٤٦/١١.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٢):ص١٢٥٧/٤.

(٣) تفسير البيضاوي:١٥٢/٢.

(٤)رواه الترمذي في السنن برقم (٣٠٦٣) عن قتيبة ، عن عبد الله بن وهب به ، وقال : "هذا حديث حسن غريب".

بسم الله الرحمن الرحيم

تفسير سورة «الأنعام»

سورة «الأنعام»: هي السورة السادسة من سور القرآن الكريم في ترتيب المصحف، نزلت بعد سورة: «الحجر»، وقبل سورة: «الصافات»[(١)]، وعدد آياتها: (١٦٥)خمسة وستون ومائة آية عند القرّاء الكوفيين، ويرى البصريون والشاميون أن عدد آياتها: (١٦٦)ستة وستون ومائة آية، وعند الحجازيين، عدد آياتها: (١٦٧)سبعة وستون ومائة آية[(٢)]، وعدد كلماته: (٣٠٥٢)ثلاثة آلاف واثنتان وخمسون كلمة، عدد حروفها: (١٢٢٤٠) اثنا عشر ألفاً ومائتا وأربعون حرفاً[(٣)].

أسماء السورة:

ولهذه السورة أسماء أشهرها:

أولا:- اسمها التوقيفي: سورة «الأنعام»

النّعَم: واحد الانعام، وهي المال الراعية، أو المال السائم، وقيل: النعم: الإبل، والشاء، يذكر ويؤنث، والجمع أنعام، وقيل: الإبل خاصة، والأنعام: الإبل والبقر والغنم، وأكثر ما يقع الاسم على الإبل[(٤)]، وقيل: لا يقال لها أنعام ، حتى يكون فى جملتها الإبل[(٥)].

وهذا الاسم هو توقيفي من رسول الله-صلى الله عليه وسلم-، كما دلت عليه الاحاديث الواردة فيه، وكما وردت في كلام بعض الصحابة-رضوان الله عليهم-[(٦)].

وتسمى هذه السورة بسورة «الأنعام»، لوجهين:

أحدهما: لما ورد فيها من ذكر الأنعام مكرراً،[(٧)] ومفصلاً لأحوالها [(٨)(٩)]، إذ لم يرد في غيرها من السور، فقد ورد ذكر «الأنعام» في مواضع[(١٠)] عدة من القرآن ولكن دون تفصيل، أما

---

(١) انظر: الكشاف:٣/٢.

(٢) انظر: الإتقان للسيوطي:١٢٤٥/٢، وإتحاف فضلاء البشر في القراءات الأربعة عشر:٢٦٠.

(٣) انظر: بصائر ذوى التمييز: ١٨٧/١.

(٤) انظر: الصحاح، مادة"ن ع م":ص٢٠٤٣/٥، واللسان، مادة" ن ع م":ص٥٨٥/١٢، والقاموس:١٥٠١، والمعجم الوسيط:٩٣٥/٢، والمفردات للأصفهاني، مادة "نعم".

(٥) انظر: المفردات للأصفهاني، مادة "نعم".

(٦) سوف يأتي بيان تلك الآثار في محور:" مكية السورة ومدنيتها".

(٧)فى الآيات ١٣٦ ، ١٣٨ ، ١٣٩ ، ١٤٢. .

(٨)فى الآيات ١٤٢-١٤٤ .

(٩) انظر: جمال القراء للسخاوي:٣٦/١، وبصائر ذوي التمييز، للفيروز آبادي:١٨٧/١.

(١٠) مثلا: سورة النحل آية: (٥، ٦٦، ٨٠)، وسورة الحج آية(٢٨، ٣٠، ٣٤)، وسورة المؤمنون آية(٢١)،

سورة الأنعام فقد تكرر فيها لفظ «الأنعام» ست مرات، وجاءت بحديث طويل عنها، استغرق خمس عشرة آية، من أول الآية(١٣٦) من قوله تعالى:{وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا} [الأنعام : ١٣٦]، إلى آية (١٥٠) وهي قوله:{قُلْ هَلُمَّ شُهَدَاءَكُمُ الَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ اللَّهَ حَرَّمَ هَذَا...} [الأنعام : ١٥٠].

كما أن التفصيل الوارد فى ذكر «الأنعام» قوله تعالى :{وَمِنَ الْأَنْعَامِ حَمُولَةً وَفَرْشًا كُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ} [الأنعام : ١٤٢]،لم يرد فى غيرها[١].

والثاني: لأن أكثر احكامها الموضحة لجهالات المشركين تقربا بها إلى أصنامهم مذكورة فيها.

قال المهايمي: "سميت بها؛ لأن أكثر أحكامها وجهالات المشركين فيها، وفي التقرب بها إلى أصنامهم مذكورة فيها، وقد اشتملت على أكثر جهالاتهم ويتم ظهورها بها"[٢].

ثانيا: سورة «الحجة»

ذكره الفيروزآبادي، ولم نجد من المنقول فيما يؤيد بهذه التسمية، وقد علّل الآبادي تسميتها بذلك من وجهين [٣]:

أحدهما: لأنها مقصورة على ذكر حجة النبوة.

والثاني: تكررت فيها الحجة ، فى قوله تعالى:{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام : ٨٣]، وقوله تعالى:{قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ} [الأنعام : ١٤٩].

وأيضاً : فهي أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ، ومن كذب بالبعث والنشور.

مكية السورة ومدنيتها:

في مكان نزول السورة أقوال:

أحدها: أنها مكية قيل: إلا آية واحدة هي قوله تعالى: {وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ} [الأنعام : ١١١] فإنها مدنية. رواه ابن المنذر عن أبي جحيفة[٤].

والثاني: انها مكية قيل: إلا آيتين ومن ثم اختلفوا فيهما على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الآيتين نزلتا في المدينة في رجل من اليهود قال: ما أنزل الله على بشر من شيء، فنزل فيهم: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ}[الأنعام : ٩١] الآيتين، وهو قول الكلبي في رواية أبي الشيخ عنه[٥].

وأخرج أبو الشيخ عن سفيان مثل ذلك وزاد: "هو فنحاص اليهودي أو مالك بن الصيف[٦]"[٧].

القول الثاني: وقيل: هما قوله تعالى:{قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام : ١٥١] إلى آخر الآيتين، رواه إسحاق بن راهويه في مسنده عن شهر بن حوشب[١]، والفريابي عن بشر[٢].

وسورة الزمر آية(٦)، وغافر آية(٧٩)، وغيرها من سور القرآن الكريم.

(١) انظر: البرهان للزركشي:١٤، والإتقان:١٧.

(٢)تفسير القرآن الكريم المسمى تبصرة الرحمن وتيسير المنان، المهايمي:٢٠٧/١، وانظر: محاسن التأويل للقاسمي:٣٠٨/٤.

(٣) انظر: بصائر ذوى التمييز: ١٨٧/١ ، ١٨٦.

(٤) انظر: الدر المنثور:٢٤٤/٣.

(٥) انظر: الدر المنثور: ٢٤٥/٣، والإتقان:٥٧/١. وهو: محمد بن السائب بن بشر بن عمرو بن الحارث الكلبي، صاحب التفسير، ضعّفه الأئمة، ورمي بالرفض، توفي سنة[١٤٦هـ]. انظر: تهذيب التهذيب:١٧٨/٩، والجرح والتعديل:٢١٠/٧، وميزان الاعتدال:٥٥٦/٣.

(٦) أخرج الطبري(١٣٥٣٥):ص٥٢١/١١-٥٢٢، والواحدي في اسباب النزول:٢٢٠، أن هذا الرجل هو مالك بن الصيف، وانظر: تفسير ابن كثير:٣٠٠/٣.

(٧) انظر: الدر المنثور:٢٤٥/٣.

قال محمد رشيد رضا:"وما قبله أقوى من جهة معنى الآيتين، فإنه في محاجة اليهود الذين كانوا في المدينة، وأما {قل تعالوا} الآيتين، فمعناهما من موضوع السور المكية، وهم متصلتان بما بعدهما"[٣].

القول الثالث: وقيل: هما قوله تعالى: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}[الأنعام : ٩١]، والأخرى، قوله:{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام : ١٤١]. حكاه القرطبي عن ابن عباس[٤]، وقتادة[٥].

وجاءت في الأخبار، أن قوله:{وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ}[الأنعام : ٩١]، نزلت في مالك بن الصيف[٦] وكعب ابن الأشرف اليهوديين[٧]، وقيل نزلت في فنحاص اليهودي[٨]،وقوله:{وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ} [الأنعام : ١٤١]، نزلت في ثابت بن قيس بن شماس الأنصاري[٩]. وقيل: نزلت في معاذ بن جبل[١٠].

والثالث: وقيل: أنها مكية إلا ثلاث آيات نزلت بالمدينة، وهي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ} [الأنعام : ١٥١]إلى تمام الآيات الثلاث. رواه النحاس عن مجاهد عن ابن عباس[١١].

قال السيوطي:"وقد صحّ النقل عن ابن عباس باستثناء{قُلْ تَعَالَوْا} الآيات"[١٢].

والرابع:وقال الثعلبي[١٣]: أنها مكية إلا ست آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام : ١٥١] الآيات الثلاث, وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام : ٩١], وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى} [الأنعام : ٩٣], الآيتين.

وهذا جمع بين الأقوال السابقة كلها.

والخامس: وذكر البغوي عن ابن عباس[١٤] أنها مكية إلا ست آيات هي: قوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام : ٩١] إلى آخر ثلاث آيات، وقوله تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام : ١٥١]، إلى قوله:{لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} [الأنعام : ١٥٣].

والسادس: وفي رواية عن ابن عباس[١٥]، أنها مكية إلا خمس آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام : ١٥١]، وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِه} [الأنعام : ٩١], وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ

---

(١) انظر: مسند إسحاق بن راهويه(٢٢٩٨):ص١٧٤/٥، والدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٢) انظر: الإتقان:٥٧/١.

(٣) تفسير المنار:٢٣٧/٧.

(٤) انظر: تفسير القرطبي:٣٨٢/٦.

(٥) انظر: تفسير القرطبي:٣٨٢/٦.

(٦)أخرج الطبريبرقم (١٣٥٣٥):ص٥٢١/١١-٥٢٢،عن سعيد بن جبير، وبرقم (١٣٥٣٦):ص٥٢٢/١١، عن عكرمة. وأخرجه الواحدي في اسباب النزول:٢٢٠، عن سعيد بن جبير أن هذا الرجل هو مالك بن الصيف، وانظر: تفسير ابن كثير:٣٠٠/٣.

(٧) انظر: تفسير القرطبي:٣٨٢/٦.

(٨) أخرجه الطبري(١٣٥٣٧):ص٥٢٢/١١، عن السدي.

(٩) قاله ابن جريج، أخرج الخبرسنيد في "تفسيره" –ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٤٠٤٠):١٧٤/١٢ -: ثنا حجاج عنه به.

قلنا: وسنده ضعيف جداً؛ لإعضاله،وضعف سنيد صاحب "التفسير".

وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٥/ ١٣٩٩ رقم ٧٩٦٦) من طريق عبدالرزاق عن ابن جريج: جدّ معاذ بن جبل –رضي الله عنه- نخلة، فلم يزل يتصدق من ثمره حتى لم يبق منه شيء؛ فنزلت: {وَلَاتُسْرِفُوا}.

قلنا: وهذا معضل..

(١٠) انظر: النكت والعيون:١٧٩/٢، وتفسير القرطبي:٣٨٢/٦.

(١١)الناسخ والمنسوخ: ١٦٧، وانظر الإتقان:٣٩/١-٤٠، قال السيوطي:"وإسناده جيد رجاله كلهم ثقات من علماء العربية المشهورين".

(١٢) الإتقان:٥٧/١.

(١٣) انظر: الكشف والبيان:١٣١/٤.

(١٤) انظر: تفسير البغوي:١٢٥/٣، .

(١٥) حكاه عنه ابن عطية في المحرر الوجيز:٢٦٥/٢.

افْتَرَى}{وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِي غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُو أَيْدِيهِمْ } [الأنعام : ٩٣]، وقوله:{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ} [الأنعام : ١١٤]، وقوله:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام : ٢٠].

والسابع: وقال مقاتل: انها مكية إلا سبع آيات، هي: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ} [الأنعام : ١٥١] الآيات الثلاث, وقوله: {وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ} [الأنعام : ٩١], وقوله: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى} [الأنعام : ٩٣], وقوله:{وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ} [الأنعام : ١١٤]، وقوله:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام : ٢٠][(١)].

والثامن: وقال الزمخشري:" سورة الأنعام مكية إلا الآيات:«٢٠ و ٢٣ و ٩١ و ٩٣ و ١١٤ و ١٤١ و ١٥١ و ١٥٢ و ١٥٣ »، فمدنية"[(٢)].

والتاسع: وذكر ابن العربي: أن قوله تعالى:{قُلْ لَا أَجِدُ} [الأنعام : ١٤٥]، مدنية مكية في قول الأكثر، نزلت على النبي - صلى الله عليه وسلم - يوم نزل عليه قوله: {اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي} [المائدة: ٣] وذلك يوم عرفة[(٣)].

أخرج ابن الضريس وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقي في "الدلائل"، عن ابن عباس قال: "أنزلت سورة الأنعام بمكة"[(٤)].

قال ابن كثير:" قال العَوْفيّ وعِكْرمة وعَطاء ، عن ابن عباس : أنزلت سورة الأنعام بمكة"[(٥)].

قال العلامة ابن عاشور: " واعلم أن نزول هذه السورة جملة واحدة على الصحيح لا يناكد ما يذكر لبعض آياتها من أسباب نزولها، لأن أسباب نزول تلك الآيات إن كان لحوادث قبل الهجرة فقد تتجمع أسباب كثيرة في مدة قصيرة قبل نزول هذه السورة، فيكون نزول تلك الآيات مسببا على تلك الحوادث، وإن كان بعد الهجرة جاز أن تكون تلك الآيات مدنية ألحقت بسورة الأنعام لمناسبات. على أن أسباب النزول لا يلزم أن تكون مقارنة لنزول آيات أحكامها فقد يقع السبب ويتأخر تشريع حكمه، وعلى القول الأصح أنها مكية فقد عدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عد نزول السور. نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات"[(٦)].

مناسبة السورة لما قبلها:

ومن وجوه المناسبة بين هذه السورة وبين سورة «المائدة» التي قبلها[(٧)]:

أولا:- إنها افتتحت بالحمد وتلك اختتمت بفصل القضاء وهما متلازمان كما قال سبحانه: {وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الزمر: ٧٥][(٨)].

ثانيا:- إنه تعالى لما ذكر في آخر المائدة:{لِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا فِيهِنَّ} [المائدة: ١٢٠] على سبيل الإجمال افتتح جل شأنه هذه السورة بشرح ذلك وتفصيله فبدأ سبحانه بذكر خلق السماوات والأرض وضم تعالى إليه أنه جعل الظلمات والنور وهو بعض ما تضمنه ما فيهن ثم ذكر عز اسمه أنه خلق النوع الإنساني وقضى له أجلا وجعل له أجلا آخر للبعث وأنه جل جلاله منشىء القرون قرنا بعد قرن ثم قال تعالى: {قُلْ لِمَنْ ما فِي السَّماواتِ} [الأنعام: ١٢] إلى آخره فأثبت له ملك جميع المظروفات لظرف المكان. ثم قال عز من قائل: {وَلَهُ ما سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهارِ}[الأنعام: ١٣] فأثبت أنه جل وعلا ملك جميع المظروفات لظرف الزمان. ثم ذكر

---

(١) انظر:تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٤٧-٥٤٨. قال:"هذه الآيات مدنيات، وسائرها مكي".

(٢) الكشاف:٢/٣.

(٣) انظر احكام القرآن:٢/٢٩٠.

(٤) الدر المنثور:٣/٢٤٣.

(٥) تفسير ابن كثير:٣/٢٣٦.

(٦) التحرير والتنوير:٧/١٢٣.

(٧) انظر: أسرار ترتيب القرآن للسيوطي:٨٠-٨٣، وتفسير البيضاوي:٣/٣٠٧، وروح المعاني:٤/٧٣-٧٤، وتفسير المنار:٧/٢٤٢، والتحرير والتنوير:٧/١٢٣.

(٨) انظر: أسرار تريب القرآن للسيوطي:٨٠.

سبحانه خلق سائر الحيوان من الدواب والطير ثم خلق النوم واليقظة والموت. ثم أكثر عز وجل في أثناء السورة من الإنشاء والخلق لما فيهن من النيرين والنجوم وفلق الإصباح وفلق الحب والنوى وإنزال الماء وإخراج النبات والثمار بأنواعها وإنشاء جنات معروشات وغير معروشات إلى غير ذلك مما فيه تفصيل ما فيهن.

ثالثا:- أنه سبحانه لما ذكر في سورة المائدة:{يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّباتِ ما أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ} [المائدة: ٨٧] إلى آخره، وذكر جل شأنه بعده :{ما جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ} [المائدة: ١٠٣] إلى آخره، فأخبر عن الكفار أنهم حرموا أشياء مما رزقهم الله تعالى افتراء على الله عز شأنه وكان القصد بذلك تحذير المؤمنين أن يحرموا شيئا من ذلك فيشابهوا الكفار في صنعهم وكان ذكر ذلك على سبيل الإيجاز ساق جل جلاله هذه السورة لبيان حال الكفار في صنعهم فأتى به على الوجه الأبين والنمط الأكمل ثم جادلهم فيه وأقام الدلائل على بطلانه وعارضهم وناقضهم إلى غير ذلك مما اشتملت عليه القصة فكانت هذه السورة شرحا لما تضمنته تلك السورة من ذلك على سبيل الإجمال وتفصيلا وبسطا وإتماما وإطنابا، وافتتحت بذكر الخلق والملك لأن الخالق المالك هو الذي له التصرف في ملكه ومخلوقاته إباحة ومنعا وتحريما وتحليلا فيجب أن لا يعترض عليه سبحانه بالتصرف في ملكه، ولهذه السورة.

رابعا: ولهذه السورة أيضا اعتلاق من وجه بالفاتحة لشرحها إجمال قوله تعالى: {رَبِّ الْعالَمِينَ} [الفاتحة: ٢] وبالبقرة لشرحها إجمال قوله سبحانه: {الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ} [البقرة: ٢١] وقوله عز اسمه:{الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ ما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً} [البقرة: ٢٩] وبآل عمران من جهة تفصيلها لقوله جل وعلا: {وَالْأَنْعامِ وَالْحَرْثِ} [آل عمران: ١٤] وقوله تعالى: {كُلُّ نَفْسٍ ذائِقَةُ الْمَوْتِ} [آل عمران: ١٨٥، الأنبياء: ٣٥، العنكبوت: ٥٧] إلى آخره، وبالنساء من جهة ما فيها من بدء الخلق والتقبيح لما حرموه على أزواجهم وقتل البنات وبالمائدة من حيث اشتمالها على الأطعمة بأنواعها(١).

قال الألوسي:"ومن اللطائف أنه سبحانه وتعالى جعل في كل ربع من كتابه الكريم المجيد سورة مفتتحة بالتحميد"(٢).

وهذه خصائص كتاب الله المجيد وقرآنه الكريم وكلامه القديم، الذى لا يأتيه الباطل ولا يعتريه التعارض؛ بل الإحكام والإتقان، والتناسُق والتناسُب، والتمام والكمال والجمال، وهكذا في كل سوره ونظْمِه وترتيبه المُعجز بلفظه ومعناه، والله الموفِّق والمَرجو ثوابه .

أغراض السورة ومقاصدها:

إن أهم أغراض الرئيسة التي استهدفتها السورة هي التركيز على العقائد الاساسية الثلاث التي كان المشركون يومئذ يتنازعون فيها، وهذه العقائد الأساسية هي(٣):

أولا:- التوحيد، وإثبات أصول الاعتقاد:

إن سورة الأنعام ممثلة بحق للقرآن المكي الذي يعرض العقيدة ناصعة ممارسة ومحاجة، فهي أولى سورة في هذا المنهج وأوفاها، حيث بسطت الحُجّة على عظمة الله تعالى وبديع صنعه وكامل قدرته، وأقامت الدليل على وحدانيته عز وجل وألوهيته وذلك من طريق الإقناع والتأثير والمناظرة والجدل والجواب عن سؤال، كوجود الله وتوحيده وصفاه وآياته في الانفس والآفاق.

وقد تتبع الأسلوب القرآني في إثبات التوحيد ونقض الاعتقادات الشركية من خلال إثبات أنّ الله سبحانه هو الواحدُ المتصفُ بجميعِ الكمالاتِ، المستحقُ للعبادةِ والحمدِ، المختصُّ بالحكمِ والتشريعِ والتحليلِ والتحريمِ؛ لأنه الخالقُ لكلِّ شيءِ الربُّ الحقُّ، المنعمُ بالنعمِ التي لا تحصى.

قال البيضاوي:" قطب هذه السورة يدور على إثبات الصانع، ودلائل التوحيد"(١).

---

(١)الأطعمة ذكرت هنا مفصلة من قوله تعالى: {وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ جَنَّاتٍ مَعْرُوشَاتٍ} إلى قوله: {إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ} [١٤١-١٤٨].

(٢) روح المعاني:٧٤/٤.

(٣) انظر: أهداف كل سورة ومقاصدها:٨٧/١، والتفسير المنير، وهبة الزحيلي:١٢٨/٧.

قال الطيبي:"واعلم أن قطب هذه السورة الكريمة يدور مع إثبات الصانع، ودلائل التوحيد وما يتصل بها، انظر كيف جعل احتجاج الخليل على قومه، ومآله إلى قوله: {إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨) إِنِّي وجَّهْتُ وجْهِيَ لِلَّذِي فَطرَ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ حَنِيفًا}[الأنعام: ٧٨ – ٧٩]. وكيف أوقع أمر حبيبه صلوات الله عليه بقوله تعالى: {فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ}[الأنعام: ٩٠] بعد ذكر معظم الأنبياء واسطة العقد، ولجة بحر التوحيد! ثم تفكر في قوله: {قُلْ إِنَّ صَلاتِي ونُسُكِي ومَحْيَايَ ومَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ العَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وبِذَلِكَ أُمِرْتُ وأَنَا أَوَّلُ المُسْلِمِينَ}[الأنعام: ١٦٢ – ١٦٣] كيف جاءت خاتمة لها! فسبحان من له تحت كل سورةٍ من كتابه كريم، بل كل آيةٍ وكلمةٍ، أسرار ينفد دون نفاد بيانها الأبحر!"(٢).

قال البقاعي: "مقصودها الاستدلال على ما دعا إليه الكتابُ في السورة الماضية من التوحيد بأنه الحاوي لجميع الكمالات: من الإيجاد والإعدام والقدرة عل البعث وغيره، وأنسب الأشياء المذكورة فيها لهذا المقصد الأنعام.؛لأن الإذن فيها مسبب عما ثبت له من الفلق والتفرد بالخلق، تضمن باقي ذكرها إبطال ما اتخذوه من أمرها ديناً.؛ لأنه لم يأذن فيه ولا أذن لأحد معه.؛لأنه المتوحد بالإلهية،لا شريك له، وحصر المحرمات من المطاعم التي هي جُلُّها في هذا الدين وغيره فدل ذلك على إحاطة علمه"(٣).

قال الطباطبائي: " غرض السورة هو توحيده تعالى بمعناه الأعم أعني: أن للإنسان ربا هو رب العالمين جميعًا منه يبدأ كل شيء وإليه ينتهي ويعود كل شيء، أرسل رسلًا مبشرين ومنذرين يهدي بهم عباده المربوبين إلى دينه الحق، ولذلك نزلت معظم آياتها في صورة الحجاج على المشركين في التوحيد والمعاد والنبوة، واشتملت على إجمال الوظائف الشرعية والمحرمات الدينية"(٤).

قال أبو إسحاق الأسفراييني: "في سورة الأنعام كل قواعد التوحيد، ولما كانت نعمه تعالى مما تفوت الحصر إلا أنها ترجع إجمالاً إلى إيجاد وابقاء في النشأة الأولى، وإيجاد وابقاء في النشأة الآخرة، ولما أشير في الفاتحة إلى الجميع ابتدئت بالتحميد لأنها ديباجة نعمه المذكورة في كتابه المجيد ثم أشير في الأنعام إلى الإيجاد الأوّل وفي الكهف إلى الإبقاء الأوّل وفي سبأ إلى الإيجاد الثاني، وفي فاطر إلى الإبقاء الثاني فلهذا ابتدئت هذه السور الخمس بالتحميد فقال جل ثناؤه: {الحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}"(٥).

وقد احتضنت هذه السورة المباركة جملة من الرموز والإشارات للدلالة على أن العقيدة محورها الشامل، من ذلك:

- تكرار لفظ الجلالة فيها نصف مرات عدد آياتها، يعني: (٨٧) مرة في حين أن عدد آياتها يناهز(١٦٥)آية.
- تعدد فعل الأمر: {قُل} في ثناياها؛ حيث ذكر فيها ٤٤ مرة، فكانت أكثر سورة في القرآن تردد فيها هذا اللفظ :{قُل} ، أمرا للرسول صلى الله عليه وسلم وأمته من بعده أن يبلّغوا ما فيها من عقائد وحِكَم وأحكام.
- ورود كلمة "الرب" فيها عدة مرات؛ حيث تكررت فيها أكثر من (٥٠) مرة.
- تكرر مشتقات مادة النظر والإبصار والرؤية فيها مرات عديدة؛ حيث جاءت متكررة في ثناياها أكثر من (٤٤) مرة.

فهذا الكم الهائل من الكلمات المكررة بأعداد تجاوزت العشرات ينبئ عن رمي حثيث إلى إثبات مصطلحات عقدية، وترسيخ مفاهيم إيمانية، وإعداد بيئة منهجية لايكاد قارئ السورة

---

(١) تفسير البيضاوي:٣/٣٠٧.

(٢) فتوح الغيب في الكشف عن قناع الريب (حاشية الطيبي على الكشاف)/ شرف الدين الحسين بن عبد الله الطيبي (٦/ ١٦). ونقله السيوطي في حاشيته على البيضاوي نواهد الأبكار(٣/ ٣٣٠).

(٣)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي:٢/ ٩٠٥..

(٤)تفسير الميزان، الطباطبائي:٧/ ٢.

(٥)حاشية شهاب على سورة الانعام:٤/٢، وانظر: تفسير البيضاوي:٣/٣٠٧.

أن ينهيها حتى تترسخ لديه مفاهيم جديدة ويتكون عنده معجم مصطلحات ويتضح له سبيل المحجة، وقد تعززت هذه الجوانب في السورة برديء من القصص التي طفقت السورة تسرد بعضها، كما هو الشأن في محاجة إبراهيم لقومه، وتشير إلى بعضها الآخر إشارات عابرة، متبعة إياه بكوكبة من المرسلين تثمينا للاقتداء والائتساء. وتنويها بعظمة منة الله تعالى بهم لهداية البشرية قبل بعثة خاتمهم صلى الله عليه وسلم.

ثانيا:- إثبات الوحي والرسالة والرد على شبهات المشركين بالأدلة العقلية والحسية:

فأثبت السورة أن محمدًا ـ صلى الله عليه وسلم ـ رسولٌ من رسل الله، وانه تعالى أرسل رسلًا مبشرين ومنذرين يهدي بهم عباده المربوبين إلى دينه الحق وإثبات أن القرآنَ من عند الله، واليومَ الآخر حقٌّ، وإرشادُه ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسليته في طريق الدعوة إلى ملة إبراهيم التوحيد، ونقض الشرك اعتقادًا وعملًا.

قال ابن عاشور:" وهي أجمع سور القرآن لأحوال العرب في الجاهلية، وأشدها مقارعة جدال لهم واحتجاج على سفاهة أحوالهم من قوله: وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبا [الأنعام: ١٣٦] ، وفيما حرموه على أنفسهم مما رزقهم الله"(١).

وروي عن ابن عباس قال: " إذا سرك أن تعلم جهل العرب، فاقرأ ما فوق الثلاثين ومائة في سورة الأنعام، {قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم} [الأنعام: ١٤٠] إلى قوله {قد ضلوا وما كانوا مهتدين} [الأنعام: ١٤٠]"(٢).

ثالثا:- إثبات البعث والحساب والجزاء والقيامة:

قال الإمام القرطبي:"قال العلماء: هذه السورة أصل في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين ومن كذب بالبعث والنشور"(٣).

قال صاحب المنار:" لو سميت سور القرآن بما يدل على جل ما تشتمل عليه كل سورة أو على أهمه لسميت هذه السورة سورة عقائد الإسلام، أو سورة التوحيد، على ما جرى عليه العلماء من التعبير عن علم العقائد بالتوحيد لأنه أساسها وأعظم أركانها، فهي مفصلة لعقيدة التوحيد مع دلائلها، وما تجب معرفته من صفات الله تعالى وآياته، ولرد شبهات الكفار على التوحيد وما يتبع ذلك من هدم هياكل الشرك وتقويض أركانه، ولإثبات الرسالة والوحي وتفنيد شبهاتهم على الرسول صلى الله عليه وسلم، وإلزامهم الحجة بآية الله الكبرى وهي القرآن المشتمل على الآيات الكثيرة من عقلية وعلمية، ومبينة لوظائف الرسول ودعوته وهديه في الناس على اختلاف طبقاتهم وأحوالهم، وللبعث والجزاء والوعد والوعيد، ولأحوال المؤمنين والكافرين وأعمالهم، ولأصول الدين ووصاياه الجامعة في الفضائل والآداب"(٤).

الناسخ والمنسوخ:

السورة تحتوي من المنسوخ على خمس عشرة آية:

- الآية الأولى: قوله تعالى: {قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام : ١٥]، نسخت بقوله تعالى : {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح : ٢].
- الآية الثانية: قوله تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَق} [الأنعام : ٦٦] هذا محكم، والمنسوخ قوله تعالى: {قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام : ٦٦] نسخ بآية السيف
- الآية الثالثة: قوله تعالى: {وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ} [الأنعام : ٦٨] ،الى قوله تعالى: {وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام : ٦٩]، نسخ ذلك بقوله تعالى: {فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [النساء : ١٤٠].

---

(١) التحرير والتنوير:١٢٥/٧.
(٢)صحيح البخاري برقم (٣٥٢٤).
(٣) تفسير القرطبي:٣٨٣/٦.
(٤) تفسير المنار:٢٣٨/٨-٢٣٩.

- الآية الرابعة :قوله تعالى: {وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [الأنعام : ٧٠] ، يعني: اليهود والنصارى، نسخها قوله تعالى : {قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ} [التوبة : ٢٩].
- الآية الخامسة قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ} [الأنعام : ٩١] فيها محذوف تقديره: قل الله انزله ثم ذرهم فأمر الله بالإعراض عنهم. ثم نسخ ذلك بآية السيف.
- الآية السادسة: قوله تعالى: {وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيظٍ} [الأنعام : ١٠٤] نسخ بآية السيف.
- الآية السابعة: قوله تعالى : {اتَّبِعْ مَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [الأنعام : ١٠٦] هذا محكم، وقوله تعالى : {وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام : ١٠٦] نسخ ذلك بآية السيف.
- الآية الثامنة: قوله تعالى: {وَمَا جَعَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام : ١٠٧] نسخ بآية السيف.
- الآية التاسعة: قوله تعالى: { {وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ} [الأنعام : ١٠٨] نهاهم الله تعالى عن سب المشركين، هذه الآية ظاهرها ظاهر الأحكام وباطنها باطن المنسوخ لأن الله أمرنا بقتلهم والسب يدخل في جنب القتل وهو أشنع وأغلظ نسخت بآية السيف.
- الآية العاشرة: قوله تعالى: {وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوه} [الأنعام : ١١٢] هذا محكم، والمنسوخ: {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُون} [الأنعام : ١١٢] نسخ ذلك بآية السيف
- الآية الحادية عشرة: قوله تعالى: {وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْه} [الأنعام : ١٢١]، نسخ ذلك بقوله تعالى: {الْيَوْمَ أُحِلَّ لَكُمُ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ} [المائدة : ٥]، والطعام –ههنا-: الذبائح.
- الآية الثانية عشرة: قوله تعالى: {قُلْ يَا قَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ} [الأنعام : ١٣٥] إلى قوله: {لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام : ١٣٥] نسخ بآية السيف
- الآية الرابعة عشرة: قوله تعالى: {قُلِ انْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ} [الأنعام : ١٥٨]، نسخت بآية السيف.
- الآية الخامسة عشرة: قوله تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسْتَ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى الله} [الأنعام : ١٥٩]، نسخ آية السيف.

وقد اختلف الناس في قوله تعالى : {فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُون} [الأنعام : ١١٢]، قالت طائفة هي على طريق التهديد وقال آخرون نسخت بآية السيف(١).

قال هبة الله:" وآية السيف نسخت في القرآن مائة آية وأربعا وعشرين آية(٢).

فضائل السورة:

ورد في هذه السورة مجموعة من الفضائل:

أحدها: أنها نزلت جملة واحدة، وشيّعها جمع غفير من الملائكة وهم يسبحون لله العظيم، ، مما يدل على أن لها مكانة مميزة وشأن فريد.

وهو ما لا نعرف له نظيراً مع باقي السور الطوال، إذ لم تنزل وفود الملائكة مشيعة لسورة إلا سورة الأنعام، وهذه خاصية عظيمة تدل على المكانة السامقة والمنزلة الرفيعة لهذه السورة، فمن الأخبار التي وردت في ذلك:

- قال جابر رضي الله عنه: "لما نزلت سورة الأنعام سبح رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: "لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق"(١).

---

(١) انظر: الناسخ والمنسوخ، هبة الله بن سلامة: ٨٥-٨٩.
(٢) انظر: الناسخ والمنسوخ: ٨٩.

- وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: "نزلت [سورة الأنعام] بمكة جملة واحدة ليلاً ونزل معها سبعون ألف ملك قد سدّوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-:«سبحان ربي العظيم»، وخرّ ساجداً"[٢].
- وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «نزلت سورة الأنعام بمكة ليلة، جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»[٣].
- وأخرج أبو الشيخ عن أبي كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"أنزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتكبير والتهليل"[٤].
- وأخرج أبو الشيخ عن عطاء قال: "أنزلت الأنعام جميعا ومعها سبعون ألف ملك"[٥].
- وأخرج ابن مردويه عن أسماء قالت:"نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم وهو في مسير في زجل من الملائكة وقد نظموا ما بين السماء والأرض"[٦].
- وأخرج الطبراني وابن مردويه عن أسماء بنت يزيد قالت: "نزلت سورة الأنعام على النبي صلى الله عليه وسلم جملة واحدة وأنا آخذة بزمام ناقة النبي صلى الله عليه وسلم أن كادت من ثقلها لتكسر عظام الناقة"[٧].
- وأخرج الطبراني وابن مردويه عن ابن عمر قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :"نزلت علي سورة الأنعام جملة واحدة يشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح والتحميد"[٨].
- وأخرج عبد الرزاق والفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد قال: "نزلت سورة الأنعام كلها جملة معها خمسمائة ملك يزفونها ويحفونها"[٩].

قال الشربيني:" قال بعض العلماء: واختصت هذه السورة بنوعين من الفضيلة أحدهما: أنها نزلت دفعة واحدة، والثاني: أنها شيعها سبعون ألفاً من الملائكة والسبب فيها أنها مشتملة على دلائل التوحيد والعدل والنبوّة والمعاد وإبطال مذاهب المبطلين والملحدين"[١٠].

والذي يظهر أن حديث جابر ثابتٌ من حيث الجملة, إذا ضممْنا إليه حديث ابن عباس وأنس بن مالك, فيكون حسناً لغيره إن شاء الله تعالى، وبقية الشواهد لا ترقى لتقوية الحديث.

---

(١)رواه الحاكم في مستدركه (٣٢٢٦)، وقال: "هذا حديث صحيح على شرط مسلم فإن إسماعيل هذا هو السدي و لم يخرجه البخاري"، أما تعليق الذهبي في التلخيص فكان مغايرا لذلك حيث قال: "لا والله لم يدرك جعفر السدي وأظن هذا موضوعا"، وأخرجه البيهقي في الشعب (٢٤٣١)، وذكرهالسيوطيفيالدرالمنثور : ٢٤٤/٣، وزاد نسبته إلى الإسماعيلي في معجمه.

وأما قول الذهبي فهو ظنّ، ولا يمكن أخذه على وجه التسليم، وإنما الحكم يكون من خلال القواعد الحديثية.

(٢)أخرجه البيهقي في السنن الصغرى (٩٨١)، وفي الشعب (٢٤٣٣)، وأخرجه الطبراني في المعجم الأوسط (٦|٢٩٢)، قال الهيثمي: "رواه الطبراني عن شيخه محمد بن عبد الله بن عرس عن أحمد بن محمد بن أبي بكر السالمي، ولم أعرفهما، وبقية رجاله ثقات". انظر: مجمع الزوائد:٢٠/٧. وذكره السيوطي في الدر المنثور:٢٤٣/٣-٢٤٤، وزاد نسبته إلى أبي الشيخ وابن مردويه، والسلفي في المطيوريات.

والزجل ـ بفتح الزاي والجيم: الصوت الرفيع العالي، انظر: اللسانمادة "ز ج ل":ص ٦|٢٣.

(٣)انظر: المعجم الكبير:(٢١٥/١٢)، وفضائل القرآن لأبي عبيد (ص١٢٨)، ولابن الضريس (ص٩٤)، عمدة التفسير:(١١/٥)، موسوعة الفضائل:(٢٥٧/١).

(٤) الدر المنثور:٢٤٤/٣.

(٥) الدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٦) الدر المنثور:٢٤٣/٣.

(٧) الدر المنثور:٢٤٣/٣.

(٨) الدر المنثور:٢٤٣/٣.

(٩) الدر المنثور:٢٤٤/٣.

(١٠) السراج المنير:٤٠٩/١.

قال السيوطي -بعد أن أورد بعضَ شواهد الحديث-:"فهذه شواهد يقوي بعضها بعضاً"[1].

والثاني: وردت في فضائلها مجموعة من الآثار، منها:

- أنها من السبع الأول من القرآن، ومن الأحاديث التي بينت اشتراك هذه السورة مع غيرها في الفضل:

أولا:- عن عائشة ـ رضى الله عنها ـ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "من أخذ السبع الأول فهو حبر"[2]. والأنعام من هذه السبع.

ثانيا:- أنها من السبع الطِّوالِ التي أوتيها النبي صلى الله عليه وسلم مكانَ التوراة، كما جاء عن واثلة بن الأسقع رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "أعطيت مكان التوراة السبع..." [3].

ثالثا:- أنها من المثاني الطوالِ التي أوتيها النبيُّ صلى الله عليه وسلم «مقابلَ ألواح موسى»[4].

- ومما وردت في فضائلها ما ذكره عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حيث قال: "الأنعام من نجائب القرآن"[5].
- وما قاله علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "من قرأ سورة الأنعام فقد انتهى في رضى ربه"[6].
- وأخرج البيهقي في الشعب وضعفه والخطيب في تاريخه عن علي بن أبي طالب قال: "أنزل القرآن خمسا خمسا ومن حفظ خمسا خمسا لم ينسه إلا سورة الأنعام فإنها نزلت جملة في ألف يشيعها من كل سماء سبعون ملكا حتى أدوها إلى النبي صلى الله عليه وسلم ما قرئت على عليل إلا شفاه الله"[7].
- وأخرج محمد بن نصر عن ابن مسعود قال: "الأنعام من مواجب القرآن"[8].
- وأخرج ابن مردويه عن ابن مسعود قال: "نزلت سورة الأنعام يشيعها سبعون ألفا من الملائكة"[9].
- ويقول كعب الأحبار: "فاتحة التوراة الأنعام، وخاتمتها هود" [10].
- وأخرج الديلمي عن ابن مسعود قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم: « من صلى الفجر في جماعة ، وقعد في مصلاة ، وقرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام ، وكل الله به سبعين ملكاً ، يسبحون الله ، ويستغفرون له ، إلى يوم القيامة»[11].

---

(١) الإتقان:٨٨.

(٢)أخرجه الإمام أحمد في المسند(٢٤٥٧٥) من حديث عائشة رضي الله عنها، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه على المسند: "إسناده حسن"، وأخرجه الحاكم في مستدركه (٢٠٧٠)، وقال: "هذا حديث صحيح الإسناد و لم يخرجاه".

والحبر: العالم، ومعناه العالم بتحبير الكلام، والأحبار: هم العلماء، انظر: النهاية (٣٢٨/١)، واللسان مادة (ح ب ر).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند(١٧٠٢٣)، وقال عنه شعيب الأرنؤوط في تعليقه عليه: "إسناده حسن"، وأخرجه البيهقي في الشعب(٢٤١٥)، وكذلك في سننه الصغرى(٩٧٨)، والطبراني في معجمه الكبير(١٨٦)، وقال الشيخ الألباني: "الحديث بمجموع طرقه صحيح"، السلسلة الصحيحة (٣|٤٦٩).

(٤) الأحاديث الثابتة في فضائل السور، ص: ٢٩.

(٥)أخرجه أبو عبيدة في فضائله والدارمي في مسنده ومحمد بن نصر في كتاب الصلاة وأبو الشيخ، كما في الدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٦)المحرر الوجيز:٢|٣١١.

(٧) الدر المنثور:٢٤٤/٣.

(٨) الدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٩) الدر المنثور:٢٤٣/٣.

(١٠)أخرجه الدارمي (٣٤٠٢)، قال حسين سليم أسد: "إسناده صحيح إلى كعب وهو موقوف عليه".

(١١) ضعيف جدا، أخرجه الديلمي في مسند الفردوس - كما في "تمهيد الفرش للسيوطي"، والدر

- وأخرج أبو الشيخ عن حبيب بن محمد العابد قال: "من قرأ ثلاث آيات من أول الأنعام إلى تكسبون بعث الله له سبعين ألف ملك يدعون له إلى يوم القيامة وله مثل أعمالهم فإذا كان يوم القيامة أدخله الله الجنة وسقاه من سلسبيل وغسله من الكوثر وقال: أنا ربك حقا وأنت عبدي حقا"(١).
- وأخرج ابن الضريس عن حبيب بن عيسى عن أبي محمد الفارسي قال: "من قرأ ثلاث آيات من أول سورة الأنعام بعث الله سبعين ألف ملك يستغفرون له إلى يوم القيامة وله مثل أجورهم فإذا كان يوم القيامة أدخله الله الجنة أظله في ظل عرشه وأطعمه من ثمار الجنة وشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل وقال الله: أنا ربك وأنت عبدي"(٢).
- وأخرج السلفي بسنده واه عن ابن عباس مرفوعا قال من قرأ إذا صلى الغداة ثلاث آيات من أول سورة الأنعام إلى {ويعلم ما تكسبون}، نزل إليه أربعون ألف ملك يكتب له مثل أعمالهم وبعث إليه ملك من سبع سموات ومعه مرزبة من حديد، فإن أوحى الشيطان في قلبه شيئا من الشر ضربه حتى يكون بينه وبينه سبعون حجابا، فإذا كان يوم القيامة قال الله تعالى: أنا ربك وأنت عبدي: امش في ظلي واشرب من الكوثر واغتسل من السلسبيل وادخل الجنة بغير حساب ولا عذاب"(٣).
- وأخرج الديلمي بسند ضعيف عن أنس مرفوعا:" ينادي مناديا: قارىء سورة الأنعام هلم إلى الجنة بحبك إياها وتلاوتها"(٤).
- قال البغوي: وروي مرفوعاً "من قرأ سورة الأنعام يصلي عليه أولئك السبعون ألف ملك ليله ونهاره"(٥).

قال الآلوسي: وهذه الاخبار"غالبها في هذا المطلب ضعيف وبعضها موضوع كما لا يخفى على من نقر عنها، ولعل الأخبار بنزول هذه السورة جملة أيضا كذلك. وحكى الإمام اتفاق الناس على القول بنزولها جملة ثم استشكل ذلك بأنه كيف يمكن أن يقال حينئذ في كل واحدة من آياتها إن سبب نزولها الأمر الفلاني مع أنهم يقولونه. والقول بأن مراد القائل بذلك عدم تخلل نزول شيء من آيات سورة أخرى بين أوقات نزول آياتها مما لا تساعده الظواهر بل في الأخبار ما هو صريح فيما يأباه.

والقول بأنها نزلت مرتين دفعة وتدريجا خلاف الظاهر ولا دليل عليه، وخبر تشييع الملائكة لها رواه جمع من المحدثين إلا أن منهم من روى أن المشيعين سبعون ألفا ومنهم من روى أنهم كانوا أقل ومنهم من روى أنهم كانوا أكثر "(٦).

قال ابن الصلاح في فتاويه:" والخبر المذكور في ذلك[أي: نزول سورة الأنعام جملة] قد رويناه من حديث أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف ولم نر له إسنادا صحيحا وقد روى ما يخالفه"(٧).

ويمكن ان يجاب عن قول ابن الصلاح: بأن ضعف السند لا يلزم منه ضعف الحديث إذ قد يكون له شواهد تقويه, والله سبحانه وتعالى أعلم.

المنثور:٢٤٦/٣، فيه محمد بن عمر الوراق، وهو ضعيف، محمد بن علي بن عثمان التمار ، الظاهر أنه : محمد بن السري بن عثمان ، أبو بكر التمار ، وهو مجهول الحال ، وانظر ترجمته في "تاريخ بغداد":٣٦٥/٢.

(١) الدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٢) الدر المنثور:٢٤٥/٣.

(٣) الدر المنثور:٢٤٥/٣-٢٤٦.

(٤) الدر المنثور:٢٤٤/٣.

(٥) تفسير البغوي:١٢٥/٣، والخبر أخرجه الثعلبي من حديث أبي بن كعب. وفيه: أبو عصمة، وهو متهم بالكذب. وأوله عند الطبراني في الصغير.. وفيه: يوسف بن عطية وهو ضعيف،وعنه أخرجه ابن مردويه في التفسير، وأبو نعيم في الحلية. انظر: الكافي الشاف لابن حجرص (٦٣)، والدرالمنثور: ٣ / ٢٤٦.

(٦) روح المعاني:٧٢/٤.

(٧) فتاوى ابن الصلاح:٢٤٩/١.

هذا ما تيسر من التمهيد للسورة، وسوف نبدأ في تفسير آياتها بالتفصيل والتحليل، والله نسأل أن يوفقنا جميعا لما يحبه ويرضاه وأن يجنبنا فتنة القول والعمل. وأن يجعل أعمالنا وأقوالنا ونوايانا خالصة لوجهه الكريم.

القرآن

{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)} [الأنعام : ١]

التفسير:

الثناء على الله بصفاته التي كلّها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، الذي أنشأ السموات والأرض وما فيهن، وخلق الظلمات والنور، وذلك بتعاقب الليل والنهار. وفي هذا دلالة على عظمة الله تعالى، واستحقاقه وحده العبادة، فلا يجوز لأحد أن يشرك به غيره. ومع هذا الوضوح فإن الكافرين يسوون بالله غيره، ويشركون به.

في سبب نزول الآية أربعة أقوال:

أحدها: أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن مجاهد، قال:"نزلت هذه الآية في الزنادقة، قالوا: إن الله لا يخلق الظلمة ولا الخنافس ولا العقارب ولا شيئا قبيحا، وإن الله يخلق الضوء وكل شيء حسن قال: فأنزلت فيهم هذه الآية"[١].

والثاني:وذكر السمرقندي عن الضحاك: "هذه الآية نزلت في شأن المجوس. قالوا: الله خالق النور، والشيطان خالق الظلمة، فأنزل الله تعالى إكذابا لقولهم، وردا عليهم، فقال: {وجعل الظلمات والنور}"[٢].

والثالث:وقال مقاتل: وذلك أن قريشا قالوا للنبي- صلى الله عليه وسلم-: من ربك! فقال: «ربي الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد» فقالوا: أنت كذاب ما اختصك الله بشيء وما أنت عليه بأكرم منا فأنزل الله- عز وجل: بسم الله الرحمن الرحيم {الحمد لله...}"[٣].

والرابع: أنها نزلت في أهل الكتاب. قاله علي بن ابي طالب[٤]، وابن أبزى[٥].

---

(١) تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨١):ص١٢٥٩/٤.
(٢) بحر العلوم:٤٣٣/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٤٨/١-٥٤٩.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٦):ص١٢٦٠/٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٥):ص٢٥٣/١١، وتفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٧):ص١٢٦٠/٤.

قوله تعالى:{الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام : ١]، أي:" الثناء على الله بصفاته التي كلّها أوصاف كمال، وبنعمه الظاهرة والباطنة، الدينية والدنيوية، الذي أنشأ السموات والأرض وما فيهن"(١).

قال ابن كثير:" يقول الله تعالى مادحًا نفسه الكريمة، وحامدا لها على خلقه السموات والأرض قرارًا لعباده"(٢).

قال مقاتل:" لم يخلقهما باطلا، خلقهما لأمر هو كائن"(٣).

قال الزجاج:" فذكر أعظم الأشياء المخلوقة لأن «السماء» بغير عمد ترونها، و«الأرض»غير مائدة بنا"(٤).

قال السمرقندي:" حمد الرب نفسه، ودل بصنعه على توحيده، {الذي خلق السماوات والأرض}، يعني: خلق السموات وما فيها من الشمس والقمر والنجوم، وخلق الأرض وما فيها"(٥).

قال ابن عطية:" هذا تصريح بأن الله تعالى هو الذي يستحق الحمد بأجمعه. لأن الألف واللام في الحمد لاستغراق الجنس، فهو تعالى له الأوصاف السنية والعلم والقدرة والإحاطة والأنعام، فهو أهل للمحامد على ضروبها وله الحمد الذي يستغرق الشكر المختص بأنه على النعم، ولما ورد هذا الإخبار تبعه ذكر بعض أوصافه الموجبة للحمد، وهي الخلق «للسماوات والأرض» قوام الناس وأرزاقهم"(٦).

قال الماوردي:" وقوله:{الْحَمْدُ لِلَّهِ}، جاء على صيغة الخبر وفيه معنى الأمر ، وذلك أولىمن أن يجيء بلفظ الأمر فيقول: احْمِدِ الله، لأمرين:

أحدهما : أنه يتضمن تعليم اللفظ والمعنى ، وفي الأمر المعنى دون اللفظ .

والثاني : أن البرهان إنما يشهد بمعنى الخبر دون الأمر"(٧).

قال الماوردي:" لأن خلق السموات والأرض نِعَمٌ تستوجب الحمد ، لأن الأرض تقل ، والسماء تظل ، وهي من أوائل نعمه على خلقه ، ولذلك استحمد بخلقها وأضاف خلقها إلى نفسه عند حمده ، على أن مستحق الحمد هو خالق السموات والأرض ، ليكون باستحقاق الحمد منفرداً لانفراده بخلق السموات والأرض"(٨).

قال الطنطاوي:" والحمد: هو الثناء باللسان على الجميل الصادر عن اختيار من نعمة أو غيرها، و«أل» في «الحمد» للاستغراق، بمعنى: أن المستحق لجميع المحامد ولكافة ألوان الثناء هو الله تعالى، وإنما كان الحمد مقصورا في الحقيقة على الله، لأن كل ما يستحق أن يقابل بالثناء فهو صادر عنه ومرجعه إليه، إذ هو الخالق لكل شيء، وما يقدم إلى بعض الناس من حمد جزاء إحسانهم، فهو في الحقيقة حمد لله، لأنه- سبحانه- هو الذي وفقهم لذلك، وأعانهم عليه"(٩).

قال ابن عباس:"{الحمد لله} كلمة الشكر، وإذا قال العبد: الحمد لله قال: شكرني عبدي"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٨.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٣٨/٣.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٤٩/١.
(٤) معاني القرآن:٢٢٧/٢.
(٥) بحر العلوم:٤٣٣/١.
(٦) المحرر الوجيز:٢٦٥/٢.
(٧) النكت والعيون:٩١/٢-٩٢.
(٨) النكت والعيون:٩٢/٢.
(٩) التفسير الوسيط:٢٧/٥.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٤):ص١٢٥٨/٤.

وعن ابن عباس أيضا:"{الحمد لله}، هو: الشكر لله الاستخذاء له، الإقرار بنعمه وابتدائه، وغير ذلك"(١).

وقال كعب:"{الحمد لله}: ثناء الله"(٢).

وقال الضحاك:"{الحمد لله}: رداء الله، الرحمن تبارك وتعالى"(٣).

قال عمر: "قد علمنا سبحان الله، ولا إله إلا الله، فما الحمد لله؟ قال علي: كلمة رضي الله لنفسه"(٤).

وفي جمع «السموات» وتوحيد «الأرض» وجهان(٥):

أحدهما : لأن السموات أشرف من الأرض ، والجمع أبلغ في التفخيم من الوحيد كقوله تعالى : {إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ}[الحجر : ٩] .

والثاني : لأن أوامره إلى الأرض تخترق جميع السماوات السبع .

وفي تقديم «السموات»على «الأرض» وجهان(٦):

أحدهما : لتقدم خلقها على الأرض. وهذا قول قتادة(٧).

والثاني : لشرفها فقدمها على ذكر الأرض وإن كانت مخلوقة بعد الأرض .

وهذان الوجهان من اختلاف العلماء أيهما خُلِقَ أولاً .

قوله تعالى:{وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام : ١]، أي:" أي وأنشأ الظلمات والأنوار"(٨).

قال السدي:" الظلمات ظلمة الليل ، والنور نورُ النهار"(٩).

قال قتادة:" فإنه خلق السَّماوات قبل الأرض ، والظلمة قبل النور ، والجنّة قَبل النار"(١٠).

قال الطبري:أي:" وأظلم الليلَ ، وأنارَ النَّهار"(١١).

قال السمرقندي:" يعني: خلق الليل والنهار"(١٢).

قال ابن كثير:أي:" وجعل «الظلمات» و«النور» منفعة لعباده في ليلهم ونهارهم"(١٣).

قال الزجاج:" ثم ذكر «الظلمات» و«النور»، وذكر أمر الليل والنهار، وهو مما به قوام الخلق، فأعلم الله عز وجل أن هذه خلق له، وأن خالقها لا شيء مثله"(١٤).

قال الماوردي:قوله:{وجعل}" يعني: وخلق ، فغاير بين اللفظ ليكون أحسن في النظم"(١٥).

قال الزمخشري:"«جعل» يتعدى إلى مفعول واحد إذا كان بمعنى:أحدث وأنشأ، كقوله {وجعل الظلمات والنور}، وإلى مفعولين إذا كان بمعنى :صير، كقوله:{وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا } [الزخرف : ١٩]، والفرق بين «الخلق» و«الجعل»: أن «الخلق» فيه

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٥):ص١٢٥٨/٤.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٦):ص١٢٥٨/٤.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٧):ص١٢٥٨/٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٧٣):ص١٢٥٨/٤.
(٥) انظر: النكت والعيون:٩٢/٢.
(٦) انظر: النكت والعيون:٩٢/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٧٩):ص١٢٥٩/٤.
(٨) صفوة التفاسير:٣٥١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٠٤٠):ص٢٤٨/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٠٤١):ص٢٤٨/١١.
(١١) تفسير الطبري:٢٤٧/١١.
(١٢) بحر العلوم:٤٣٣/١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(١٤) معاني القرآن:٢٢٧/٢.
(١٥) النكت والعيون:٩٢/٢.

معنى: التقدير، وفي «الجعل» معنى :التضمين، كإنشاء شيء من شيء، أو تصيير شيء شيئا، أو نقله من مكان إلى مكان، ومن ذلك:{وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا} [الأعراف : ١٨٩] ، {وجعل الظلمات والنور}: لأن الظلمات من الأجرام المتكاثفة، والنور من النار، {وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجًا} [النبأ : ٨]، {أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا} [ص : ٥]"[١].

قال ابن كثير:"فجمع لفظ «الظلمات» ووحَّد لفظ «النور»؛ لكونه أشرف ، كما قال { عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ } [النحل : ٤٨] ، وكما قال في آخر هذه السورة { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ } [الأنعام : ١٥٣]"[٢].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم أفرد «النور»؟ قلت: للقصد إلى الجنس،كقوله تعالى {وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا} [الحاقة : ١٧] ، أو لأن «الظلمات» كثيرة، لأن ما من جنس من أجناس الأجرام إلا وله ظل، وظله هو الظلمة، بخلاف «النور» فإنه من جنس واحد وهو النار"[٣].

والمراد بـ«الظلمات» و«النور» هنا،وجوه :

أحدها : وهو المشهور من قول قتادة[٤]، قدم الظلمة على النور، لأنه قدم خلق الظلمة على خلق النور ، وجمع «الظلمات»ووحد «النور»لأن «الظلمات»أعم من «النور» [٥].

والثاني : أن «الظلمات»: الليل، و«النور»: النهار. قاله قتادة[٦]، والسدي[٧]، والواقدي[٨]، وهو قول الجمهور[٩].

والثالث : أن «الظلمات»: الكفر ، و«النور»: الإيمان ، قاله الحسن[١٠] .

قال ابن عطية:" وهذا غير جيد لأنه إخراج لفظ بين في اللغة عن ظاهره الحقيقي إلى باطن لغير ضرورة، وهذا هو طريق اللغز الذي برىء القرآن منه"[١١].

والرابع: يعني: اللجنة والنار. حكاه الثعلبي عن قتادة[١٢].

قوله تعالى:{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام : ١]، أي:" أي ثم بعد تلك الدلائل الباهرة والبراهين القاطعة على وجود الله ووحدانيته يشرك الكافرون بربهم"[١٣].

قال مجاهد[١٤]، والسدي[١٥]:"{ يَعْدِلُونَ}، يقال: يشركون"[١٦].

قال ابن زيد:" الآلهة التي عبَدوها ، عدلوها بالله . قال : وليس لله عِدْلٌ ولا نِدٌ ، وليس معه آلهة ، ولا اتخذ صاحبةً ولا ولدًا"[١٧].

قال قطرب:" يعني: الذين كفروا بعد هذا البيان بربهم يعدلون الأوثان، أي: يشركون وأصله من مساواة الشيء بالشيء يقال: عدلت هذا بهذا إذا ساويته به"[١٨].

---

(١) الكشاف:٣/٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(٣) الكشاف:٣/٢-٤.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤١):ص٢٤٨/١١.
(٥) انظر: النكت والعيون:٩٢/٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز:٢٦٦/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٠):ص٢٤٨/١١، وتفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٢)، و(٧٠٨٥):ص١٢٥٩/٤، ١٢٦٠.
(٨) انظر: تفسير الثعلبي:١٣٢/٤.
(٩) انظر: المحرر الوجيز:٢٦٦/٢.
(١٠) انظر: البغوي:١٢٦/٣، وتفسير القرطبي:٣٨٦/٦.
(١١) المحرر الوجيز:٢٦٦/٢.
(١٢) انظر: تفسير الثعلبي:١٣٢/٤، وتفسير البغوي:١٢٦/٣
(١٣) صفوة التفاسير:٣٥١.
(١٤) أخرجه الطبري(١٣٠٤٤):ص٢٥٣/١١، ابن ابي حاتم(٧٠٨٨):ص١٢٦٠/٤.
(١٥) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٨):ص١٢٦٠/٤.
(١٦) أخرجه الطبري(١٣٠٤٤):ص٢٥٣/١١.
(١٧) أخرجه الطبري(١٣٠٤٨):ص٢٥٤/١١.
(١٨) تفسير الثعلبي:١٣٣/٤.

قال الزجاج:" أي: يجعلون لله عديلا، فيعبدون الحجارة الموات، وهم يقرون أن الله خالق ما وصف"(١).

قال ابن كثير:" أي:ومع هذا كله كفر به بعض عباده ، وجعلوا معه شريكًا وعدلا واتخذوا له صاحبة وولدًا ، تعالى عن ذلك علوًا كبيرًا"(٢).

قال الطبري:أي:"يجعلون له شريكًا في عبادتهم إياه ، فيعبدون معه الآلهة والأنداد والأصنام والأوثانَ ، وليس منها شيء شركه في خلق شيءٍ من ذلك ، ولا في إنعامه عليهم بما أنعم به عليهم ، بل هو المنفرد بذلك كله ، وهم يشركون في عبادتهم إيّاه غيره . فسبحان الله ما أبلغها من حجة ، وأوجزها من عظة ، لمن فكَّر فيها بعقل ، وتدبرها بفهم !"(٣).

قال ابن عطية:"{يعدلون}، معناه: يسوون ويمثلون، وعدل الشيء قرينه ومثيله"(٤).

قال الزمخشري:" معنى {ثم}: استبعاد أن يعدلوا به بعد وضوح آيات قدرته، وكذلك: {ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام : ٢]، استبعاد، لأن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهموباعثهم"(٥).

قال النضر بن شميل: «الباء» في قوله: { بِرَبِّهِمْ}، بمعنى:«عن»، وقوله: { يَعْدِلُونَ}، من العدول. أي: يكون ويعرفون.وأنشد(٦):

وسائلةٍ بثعلبة بن سَيْرٍ   وَقد عَلِقَتْ بثعلبة العَلوق

وأنشد(٧):

شَرِبْنَ بِمَاءِ الْبَحْرِ ثُمَّ تَرَفَّعَتْ   مَتى لُجَجٍ خُضْرٍ لَهُنَّ نَئِيجُ

أي: من البحر، قال الله تعالى: {عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ} [الإنسان : ٦] ،أي: منها"(٨).

واختلف فيمن عني بقوله: تعالى:{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} [الأنعام : ١]، على أقوال:

أحدها: أنهم أهل الكتاب. قاله علي بن ابي طالب(٩)، وابن أبزى(١٠).

قال ابن عطية:" وقول ابن أبزى إن المراد أهل الكتاب بعيد"(١١).

والثاني: أنهم المشركون من عبدةِ الأوثان. قاله قتادة(١٢)، والسدي(١٣)، وابن زيد(١٤)، ومقاتل(١٥).

والثالث: انهم المجوس. وهذا القول حكاه السمرقندي عن الضحاك(١٦).

---

(١) معاني القرآن:٢/٢٢٧.
(٢) تفسير ابن كثير:٣/٢٣٩.
(٣) تفسير الطبري:١١/٢٥٢.
(٤) المحرر الوجيز:٢/٢٦٦.
(٥) الكشاف:٢/٣-٤.
(٦)البيت للمفضل البكري، انظر: الصحاح، مادة "علق":ص: ٢/ ٦٩٢، وإصلاح المنطق: (٣٣٣ - ٣٣٤)؛وهو لهُ في اللسان، مادة:علق"، وغيرمنسوب في المقاييس ،مادة:علق":ص٤/ ١٣٠
قال ابن السكيت: «أراد ابن سيار»،وأضاف اللسان في (سير) «يريد ثعلبة بن سيار،فغيّره للضرورة»ويروى: "وسائلة بثعلبة بن عمرو"
ومراده بقوله: بنسير: ثعلبة بن سيار فغيره للضرورة.
(٧) البيت لأبي ذؤيب ، ديوان الهذليين: ١/ ٥١ - ٥٢.
(٨) تفسير الثعلبي:٤/١٣٣.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٦):ص٤/١٢٦٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٥):ص١١/٢٥٣، وتفسير ابن ابي حاتم(٧٠٨٧):ص٤/١٢٦٠.
(١١) المحرر الوجيز:٢/٢٦٦.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٦):ص١١/٢٥٤.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٧):ص١١/٢٥٤.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٤٨):ص١١/٢٥٤.
(١٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٤٩.
(١٦) انظر: بحر العلوم:١/٤٣٣.

قال ابن عطية:"{الذين كفروا} في هذا الموضع، هم كل من عبد شيئا سوى الله، ومن خصص من المفسرين في ذلك بعضا دون بعض فلم يصب إلا أن السابق من حال النبي صلى الله عليه وسلم أن الإشارة إلى عبدة الأوثان من العرب لمجاورتهم له، ولفظ الآية أيضا يشير إلى المانوية ويقال الماننية العابدين للنور القائلين إن الخير من فعل النور والشر من فعل الظلام"[١].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك بالصواب عندي أن يقال : إنّ الله تعالى ذكره أخبر أنّ الذين كفروا بربهم يعدلون ، فعمّ بذلك جميع الكفّار ، ولم يخصص منهم بعضًا دون بعض. فجميعهم داخلون في ذلك : يهودهم ، ونصاراهم ، ومجوسهم ، وعبدة الأوثان منهم ومن غيرهم من سائر أصناف الكفر"[٢].

قال الزمخشري:" فإن قلت: علام عطف قوله:{ثم الذين كفروا بربهم يعدلون}؟

قلت: إما على قوله:{الحمد لله}، على معنى: أن الله حقيق بالحمد على ما خلق، لأنه ما خلقه إلا نعمة، ثم الذين كفروا به يعدلون، فيكافرون نعمته.

وإما على قوله :{خلق السماوات}، على معنى: أنه خلق ما خلق مما لا يقدر عليه أحد سواهثم هم يعدلون به ما لا يقدر على شيء منه"[٣].

قال كعب:"فاتحة التوراة فاتحة «الأنعام»: {الحمد لله الذي خلق السماوات والأرض وجَعَل الظلمات والنور ثم الذين كَفَروا بربِّهم يعدلون}"[٤].

الفوائد:

١- وجوب حمد الله تعالى والثناء عليه بما هو أهله.

٢- ثناء الله على نفسه، بل حمد الله تعالى نفسه أن خلق السماوات والأرض، وهذا حمد عند ابتداء الخلق؛ أي: خلق السماوات والأرض، هناك حمد آخر عند انتهاء الحمد، كما في آخر سورة «الزمر» حيث قال الله تبارك وتعالى :(وَتَرَى الْمَلَائِكَةَ حَافِّينَ مِنْ حَوْلِ الْعَرْشِ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ)]الزمر ٧٥] قيل: أي قاله كل العالم، الحمد لله رب العالمين.

وحمد نفسه تبارك وتعالى على تنزهه من كل عيب ونقص وكبريائه وعظمته، فقال تعالى :(وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا) [الإسراء١١١]، وحمد نفسه تبارك وتعالى على إنزال القرآن الكريم فقال :(الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِيُنْذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِنْ لَدُنْهُ) [الكهف ١، ٢] فالله تعالى يحمد نفسه عند الأمور العظيمة؛ لأن هذه الأمور العظيمة تُوجِب للعبد المتأمل أن يحمد الله عز وجل على كمال صفاته، وعلى كمال إفضاله وإنعامه.

٣- لا يصح حمد أحد بدون ما يوجد لديه من صفات الكمال ما يحمد عليه.

٤- ومنها: أن خالق السماوات والأرض هو الله عز وجل خلق السماوات والأرض، ولا أحد ادعى أنه يخلق السماوات والأرض حتى المشركون لو سُئلوا: من خلق السماوات والأرض؟ لقالوا: الله.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن السماوات مخلوقة وليست أزليّة؛ لقوله :(خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ) فيكون في ذلك رد على الفلاسفة الذين قالوا بقِدَم هذا العالم، وأنه أزلي، فإن قولهم هذا مردود بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: التفريق بين ذكر السماوات والأرض حيث تُذكر السماوات جمعًا والأرض مفردة؛ وذلك لأن السماوات أعظم من الأرض بكثير لا من جهة

---

(١) المحرر الوجيز:٢٦٦/٢.
(٢) تفسير الطبري:٢٥٤/١١.
(٣) الكشاف:٣/٢-٤.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٠٤٢):٢٥٢/١١.

ارتفاعها ولا سعتها ولا شيء، كل ما في السماوات فهو أعظم مما في الأرض؛ قال الله تعالى :{أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا (٢٧) رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا} إلى آخره [النازعات: ٢٧، ٢٨].

٧- من فوائد هذه الآية: سفه الكفار، وأنه لا عقول لهم، وجهه أنه بعد ظهور هذه الآيات العظيمة، عدلوا بالله عز وجل، جعلوا له عديلًا وندًّا، وهذا يدل على سفههم وإن كانوا أذكياء، ويؤيد هذا قول الله تبارك وتعالى :{وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ} [البقرة ١٣٠]؛ وبأن الله تعالى دائمًا ينعى على الكفار فقدهم العقل أكثرهم لا يعقلون، والآيات في هذا كثيرة، وهذا هو الحق أن الكفار ليسوا عقلاء، والمراد بنفي العقل هنا نفي عقل التصرف، ما هو عقل الإدراك؟ هم عقلاء من جهة الإدراك، ولهذا تلزمهم الطاعات ويلزمهم الإسلام، لكنهم ليسوا عقلاء من حيث التصرف، بل هم سفهاء؟ وما أحسن ما قال شيخ الإسلام رحمه الله عن المتكلمين قال: إنهم أوتوا فهومًا ولم يُؤتوا علومًا، وأوتوا ذكاءً ولم يؤتوا زكاءً، هم عندهم فهم، لكن ما عندهم عِلم، عِلم يعني بالشريعة، وعندهم إدراك، لكن ما عندهم عقل.

٨- التعجب من حال من يسوون المخلوقات بالخالق عز وجل في العبادة.

٩- أن ربوبية الله تعالى عامة للمؤمن والكافر كذا؛ لقوله :{ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ} فجعل نفسه ربًّا لهؤلاء، ولا إشكال فيه، لكن هذه الربوبية العامة، هناك ربوبية خاصة بالمؤمنين تقتضي الكلاءة، والعناية، والحفظ، والتربية، وقد اجتمع النوعان في قول سحرة فرعون:{آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ} [الأعراف ١٢١، ١٢٢] فالأولى عامة، والثانية خاصة.

١٠- ويستفاد من الآية فساد استدلال من يقول بخلق القرآن، وذلك بقولهم أن «جعل» تاتي بمعى«خلق»، ومن ثم فسروا بهذا التأويل الفاسد قوله تعالى: {إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا} [الزخرف: ٣]، فما أفسده من استدلال! فإن «جعل» إذا كان بمعنى: «خلق» يتعدى إلى مفعول واحد، كما في الآية موضع التفسير: {وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ} [الأنعام: ١]، وقوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ - وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ} [الأنبياء: ٣٠ - ٣١]، وإذا تعدى إلى مفعولين لم يكن بمعنى خلق، قال تعالى: {وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا} [النحل: ٩١]، وقوله تعالى: {وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ} [البقرة: ٢٢٤]، ونظائره كثيرة.

القرآن

{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ (٢)} [الأنعام : ٢]

التفسير:

هو الذي خلق أباكم آدم من طين وأنتم سلالة منه، ثم كتب مدة بقائكم في هذه الحياة الدنيا، وكتب أجلا آخر محدَّدًا لا يعلمه إلا هو جل وعلا وهو يوم القيامة، ثم أنتم بعد هذا تشكُّون في قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت.

قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ} [الأنعام : ٢]، أي:" هو الذي خلق أباكم آدم من طين وأنتم سلالة منه"(١).

قال البيضاوي:" أي: ابتدأ خلقكم منه، فإنه المادة الأولى وأن آدم الذي هو أصل البشر خلق منه، أو خلق أباكم، فحذف المضاف"(٢).

(١) التفسير الميسر:١٢٨.
(٢) تفسير البيضاوي:١٥٣/٢.

قال ابن كثير:" يعني : أباهم آدم الذي هو أصلهم ومنه خرجوا ، فانتشروا في المشارق والمغارب"(١).

قوله تعالى:{ثُمَّ قَضَى أَجَلًا} [الأنعام : ٢]، أي:" ثم كتب مدة بقائكم في هذه الحياة الدنيا"(٢).

قال ابن عباس:" يعني: أجل الموت"(٣). قال ابن أبي حاتم:" وروي عن الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وسعيد بن جبير، والسدي وعطية، وقتادة، والضحاك، وزيد بن أسلم نحو ذلك"(٤).

وفي رواية اخرى عن ابن عباس:" أما قوله: {قضى أجلا} فهو النوم، يقبض فيه الروح ثم يرجع إلى صاحبه حين اليقظة"(٥).

وروي سعيد بن جبير عن ابن عباس:{ثم قضى أجلا}، قال: أجل الدنيا"(٦).

وقال عطاء بن أبي مسلم الخراساني:" أما قوله: {قضى أجلا}، فيقال: ما خلق في ستة أيام"(٧).

قال يحيى بن سلام:" يعني: أجل الدنيا ومدتها"(٨).

قال البيضاوي: أي:" أجل القيامة"(٩).

قوله تعالى:{ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} [الأنعام : ٢]، أي:" وكتب أجلا آخر محدَّدًا لا يعلمه إلا هو جل وعلا وهو يوم القيامة"(١٠).

قال ابن عباس:" لا يعلمه إلا الله"(١١).

وفي رواية علي بن أبي طلحة عن ابن عباس:" قوله: {وأجل مسمى عنده}، قال: الوقوف عند الله"(١٢).

وروي عن مجاهد، وخالد بن معدان، أنهما قالا: "أجل البعث"(١٣).

قال يحيى بن سلام: يعني:"وأجل الآخرة"(١٤).

قال البيضاوي: أي:" أجل الموت"(١٥).

قال ابن كثير:" معنى قوله : { عِنْدَهُ } أي : لا يعلمه إلا هو ، كقوله تعالى : { إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي لا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلا هُوَ } [الأعراف : ١٨٧] ، وكقوله { يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا } [النازعات : ٤٢ - ٤٤]"(١٦).

قال الزمخشري: أفاد التقديم في قوله:{ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ }" تعظيما لشأن الساعة، فلما جرى فيه هذا المعنى وجب التقديم"(١٧).

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(٢) التفسير الميسر:١٢٨.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠١٩١):ص١٢٦١/٤.
(٤) تفسير ابن أبي حاتم:١٢٦١/٤.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٩٣):ص١٢٦١/٤.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٩٠):ص١٢٦٠/٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠٩٤):ص١٢٦١/٤.
(٨) التصاريف لتفسير القرآن:٣١٩.
(٩) تفسير البيضاوي:١٥٣/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٢٨.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٠):ص١٢٦٢/٤.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠١):ص١٢٦٢/٤.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٠١٩٩):ص١٢٦٢/٤.
(١٤) التصاريف لتفسير القرآن:٣١٩.
(١٥) تفسير البيضاوي:١٥٣/٢.
(١٦) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(١٧) الكشاف:٥/٢.

قال البيضاوي:"{وأجل} نكرة خصصت بالصفة ولذلك استغني عن تقديم الخبر والاستئناف به لتعظيمه، ولذلك نكر ووصف بأنه {مسمى}، أي: مثبت معين لا يقبل التغير، وأخبر عنه بأنه {عند الله} لا مدخل لغيره فيه يعلم ولا قدرة، ولأنه المقصود بيانه"[١].

واختلف أهل التفسير في قوله تعالى:{هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ} [الأنعام : ٢]، على وجوه:

أحدها: أن الاجل الأول هو الدنيا، والأجل الثاني هو الآخرة، والمعنى: ثم قضى الدنيا، وعنده الآخرة. وهذا قول ابن عباس[٢]، ومجاهد[٣]، والحسن-في قوله الآخر[٤]، وعكرمة[٥]، وقتادة -في قوله الآخر-[٦]، والسدي[٧].

والثاني: أن الله تعالى قضى للناس أجلين: الأجل الأول هو ما بين أن يُخْلق الإنسان إلى أن يموت، والأجل الثاني: ما بين أن يموت إلى أن يبعث، وهو الحياة البرزخ. وهذا قول الحسن[٨]، والضحاك[٩]، وقتادة[١٠]، واختاره الزمخشري[١١].

قال البغوي:" وروي ذلك عن ابن عباس، وقال: لكل أحد أجلان أجل إلى الموت وأجل من الموت إلى البعث، فإن كان برا تقيا وصولا للرحم زيد له من أجل البعث في أجل العمر، وإن كان فاجرا قاطعا للرحم نقص من أجل العمر وزيد في أجل البعث"[١٢].

قال ابن كثير هو يرجع إلى ما تقدم[١٣]، وهو تقدير الأجل الخاص ، وهو عمر كل إنسان ، وتقدير الأجل العام ، وهو عمر الدنيا بكمالها ثم انتهائها وانقضائها وزوالها ، وانتقالها والمصير إلى الدار الآخرة "[١٤].

والثالث: أن الاجل الأول هو النوم، تُقْبض فيه الروح، ثم ترجع إلى صاحبها حين اليقظة وأما الأجل الثاني:فهو أجل موت الإنسان. وهذا قول ابن عباس[١٥].

قال ابن كثير:" وهذا قول غريب"[١٦].

والرابع: أنالاجل الأول: لمن مضى، والثاني: لمن بقي ولمن يأتي. ذكره البيضاوي[١٧].

والخامس:وقال ابن وهب:" خلق آدم من طين، ثم خلقنا من آدم، أخذنا من ظهره، ثم أخذ الأجل والمِيثاق في أجلٍ واحد مسمًّى في هذه الحياة الدنيا"[١٨].

قال الإمام الطبري:" وأولى الأقوال في ذلك عندي بالصواب، قولُ من قال: معناه: ثم قضى أجلَ الحياة الدنيا ،{وأجلٌ مسمى عنده}، وهو أجل البَعْث عنده، لأنه تعالى ذكره نبَّه خلقَه على موضع حُجَّته عليهم من أنفسهم فقال لهم: أيها الناس، إن الذي يعدِلُ به كفارُكم الآلهة والأندادَ، هو الذي خلقكم فابتدأكم وأنشأكم من طين، فجعلكم صورًا أجسامًا أحياءً، بعد إذ كنتم

---

(١) الكشاف:١٥٣/٢.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٥٧)- و(١٣٠٦٦):ص٢٥٧/١١، ٢٥٨.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٥٨)-(١٣٠٦٠):ص٢٥٧/١١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٦٤):ص٢٥٧/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٦٢):ص٢٥٧/١١-٢٥٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٦٤):ص٢٥٨/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٦٧):ص٢٥٨/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٥٤):ص٢٥٦/١١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٥٦):ص٢٥٦/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٥٥):ص٢٥٦/١١.
(١١) انظر: الكشاف:٤/٢.
(١٢) تفسير البغوي:١٢٧/٣.
(١٣)أي: القول الأول.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٦٨):ص٢٥٨/١١-٢٥٩.
(١٦) تفسير ابن كثير:٢٣٩/٣.
(١٧) انظر: تفسير البيضاوي:١٥٣/٢.
(١٨) أخرجه الطبري(١٣٠٦٩):ص٢٥٩/١١.

طينًا جمادًا، ثم قضى آجال حياتكم لفنائكم ومماتكم، ليعيدكم ترابًا وطينًا كالذي كنتم قبل أن ينشئكم ويخلقكم وأجل مسمى عندَه لإعادتكم أحياءً وأجسامًا كالذي كنتم قبل مماتكم، وذلك نظير قوله: {كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [سورة البقرة: ٢٨]"(١).

قوله تعالى:{ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ} [الأنعام : ٢]، أي:" ثم أنتم بعد هذا تشكُّون في قدرة الله تعالى على البعث بعد الموت"(٢).

قال الربيع بن أنس:" يعني:الشك والريبة في أمر الساعة"(٣).

عن خالد بن معدان:"{ثم أنتم تمترون}، يقول: في البعث"(٤).

قال الثعلبي والبغوي:أي:"تشكون في البعث(٥).

قال البيضاوي:" استبعاد لامترائهم بعد ما ثبت أنه خالقهم وخالق أصولهم ومحييهم إلى آجالهم، فإن منقدر على خلق المواد وجمعها وإيداع الحياة فيها وإبقائها ما يشاء كان أقدر على جمع تلك المواد وإحيائها ثانيا، فالآية الأولى دليل التوحيد والثانية دليل البعث"(٦).

قال النسفي:" ومعنى:{ثم} استبعاد أن يمتروا فيه بعد ما ثبت أنه محييهم ومميتهم وباعثهم "(٧).

وفي قوله تعالى:{ تَمْتَرُونَ} [الأنعام : ٢]، وجهان:

أحدهما : تشكون ، والامتراء : الشك. قاله ابن زيد(٨)، والسدي(٩)، واختاره الطبري(١٠)، والسمعاني(١١)، والثعلبي(١٢)، والبغوي(١٣) وغيرهم.

والثاني : تختلفون ، مأخوذ من المراء وهو الاختلاف والمجادلة. ذكره الماوردي(١٤)، والنسفي(١٥).

قال الطبري: المعنى:" ثم أنتم تَشكُّون في قدرة من قَدَر على خلق السماوات والأرض، وإظلام الليل وإنارة النهار، وخلقكم من طين حتى صيَّركم بالهيئة التي أنتم بها على إنشائه إياكم من بعد مماتكم وفنائكم، وإيجاده إيّاكم بعد عدمكم"(١٦).

و«المرية» في كلام العرب، الشك في الأمر(١٧)، قال الأعشى(١٨):

تَدِرُّ عَلَى أَسْوُق المُمْتَرِينَ   رَكْضًا، إذَا مَا السَّرَابُ ارْجَحَنّ

قال الراغب:"«المرية»: التردد في الأمر وهو أخص من الشك، والامتراء والمماراة: المحاجّة فيما فيه مرية"(١).

---

(١) تفسير الطبري:٢٥٩/١١.
(٢) التفسير الميسر:١٢٨.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٣):ص١٢٦٢/٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٣):ص١٢٦٢/٤.
(٥)الكشف والبيان:١٣٤/٤، وتفسير البغوي:١٢٧/٣.
(٦) تفسير البيضاوي:١٥٤/٢.
(٧) تفسير النسفي:٤٩٠/١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٧٠):ص٢٦٠/١١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٧١):ص٢٦٠/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري:٢٦٠/١١.
(١١) انظر: تفسير السمعاني:٨٧/٢.
(١٢) انظر: الكشف والبيان:١٣٤/٤.
(١٣) انظر: تفسير البغوي:١٢٧/٣.
(١٤) انظر: النكت والعيون:٩٣/٢.
(١٥) انظر: تفسير النسفي:٤٩٠/١.
(١٦) تفسير الطبري:٢٦٠/١١.
(١٧) انظر:"العين" ٨/ ٢٩٥،و"الجمهرة" ٢/ ٨٠٦،و"تهذيب اللغة" ٤/ ٣٣٨٤،و"الصحاح" ٦/ ٢٤٩١،و"المجمل" ٣/ ٨٢٨،و"مقاييس اللغة" ٥/ ٣١٤،و"اللسان" ٨/ ٤١٨٩. مادة"مرى".
(١٨)ديوانه: ٢٠،واللسان، مادة:"رجحن".

قال البيضاوي:" وأصل«الامتراء»: المري، وهو استخراج اللبن من الضرع"[٢].

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن بني آدم حادث بعد أن لم يكن، يؤخذ من قوله: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ) [البقرة ٢٩]، وقد قال الله تبارك وتعالى: (هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَذْكُورًا) [الإنسان ١]، (هَلْ) بمعنى (قد)، فمن عمره عشرون سنة هو قبل إحدى وعشرين سنة، لم يكن شيئًا مذكورًا فأوجده الله، ففيه دليل على حدوث بني آدم، وأنهم مخلوقون من العدم.

٢- ومنها: الإشارة إلى أصل بني آدم، وأنهم من الطين، من الأرض، وقد قال الله تعالى: (مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى) [طه ٥٥].

فإن قال قائل: ما الجمع بين هذه الآية وبين قول الله تبارك وتعالى: (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ) [الحجر ٢٦] وقوله تعالى: (خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ) [الروم ٢٠]؟

فالجمع بينهما سهل؛ وذلك أن أصل بني آدم تراب صُبَّ عليه الماء فصار طينًا، بقي زمنًا مدة طويلة فصار صلصالًا؛ لأنه يسود، وإذا صُنع منه الشيء صار صلصالًا له صوت، إذا ضربته بأصبعك صار له صوت، فلا خلاف ولا تناقض.

٣- ومنها: أن الحكم لله عز وجل وحده؛ لقوله: (قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ)، ولا أحد يُغيّر في هذه الآجال.

٤- ومنها: أن من مات مقتولًا فقد مات بأجله الذي قدّره الله له؛ لأن الله قضى، لا يقال: لولا أنه قُتل لم يمت، هذا مستحيل؛ لأن الله قضى أن يموت بالقتل؛ فهو مقتول بأجل.

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الأجل المعلوم -الذي هو الساعة- عند الله عز وجل، لا أحد يصل إلى العلم به، وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين؛ حتى إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم سأله جبريل، وجبريل أفضل الملائكة، ومحمد أفضل البشر، سأله عن الساعة فقال: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ»[٣]. فإذا كان هذان الرسولان الكريمان لا يعلمان متى الساعة، فَمَن دونهما من باب أولى.

٦- ومنها: أن النداء بالبلاهة والغفلة لأولئك القوم الذين عرفوا أصلهم ومنشأهم فيمترون ويشكون في الأجل المسمى عند الله وهو يوم القيامة.

في سورة الجاثية احتج الذين ينكرون البعث و(قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ) [الجاثية ٢٥]، وهذه الدعوىغير صحيحة؛ لأن الذين أخبروا بالقيامة ما قالوا: الآن يبعثون، لم يأتِ الوقت بعد، لكن هذا من باب التشبيه الذي يُقصد به إضلال الخلق.

القرآن

{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ (٣)} [الأنعام : ٣]

التفسير:

والله سبحانه هو الإله المعبود في السموات والأرض. ومن دلائل ألوهيته أنه يعلم جميع ما تخفونه -أيها الناس- وما تعلنونه، ويعلم جميع أعمالكم من خير أو شر; ولهذا فإنه -جلَّ وعلا- وحده هو الإله المستحق للعبادة.

قوله تعالى:{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ} [الأنعام : ٣]، أي:" والله سبحانه هو الإله المعبود في السموات والأرض"[٤].

قال القاسمي:" أي: المعبود فيهما"[١].

---

(١)المفردات: ٧٦٦.

(٢) تفسير البيضاوي:٢/١٥٤.

(٣)متفق عليه؛ البخاري (٥٠)، ومسلم (٩ / ٥) من حديث أبي هريرة.

(٤) التفسير الميسر:١٢٨.

قال الزجاج:أي:" هو الخالقالعالم بما يصلح به أمر السماء والأرض، المعنى هو المتفرد بالتدبير فيالسماوات والأرض"(٢).

قال السمرقندي:" يعني: هو المتفرد بالتدبير في السموات وفي الأرض. وهذا كقوله:{وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَهٌ} [الزخرف : ٨٤]، يعني: وهو خالق السموات والأرض"(٣).

قال السعدي:" أي: وهو المألوه المعبود في السماوات وفي الأرض، فأهل السماء والأرض، متعبدون لربهم، خاضعون لعظمته، مستكينون لعزه وجلاله، الملائكة المقربون، والأنبياء والمرسلون، والصديقون، والشهداء والصالحون"(٤).

قوله تعالى:{يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام : ٣]، أي:" ومن دلائل ألوهيته أنه يعلم جميع ما تخفونه -أيها الناس- وما تعلنونه"(٥).

قال ابن عباس:" «السر»: ما أسر ابن آدم في نفسه"(٦).

قال سعيد بن جبير:" «السر»: ما حدثت به نفسك"(٧).

قال مقاتل:" يعني: سر أعمالكم وجهرها"(٨).

قال السمرقندي:" يعني: يعلم سر أعمالكم وعلانيتكم"(٩).

قال القاسمي:" أي: من الأقوال أو الدواعي والصوارف القلبية وأعمال الجوارح"(١٠).

قال صاحب المنار:" وأما جملة {يعلم سركم وجهركم}، فهي تقرير لمعنى الجملة الأولى لأن الذي استوى في علمه السر والعلانية هو الله وحده"(١١).

واختلف في تفسير قوله تعالى:{وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ} [الأنعام : ٣]، على وجوه:

أحدها : أن معنى الكلام: وهو اله المُدَبِّر في السموات وفي الأرض .{يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ}، أي: ما تخفون ، وما تعلنون. ذكره الزجاج(١٢).

قال الماتريدي:" أي: إلى الله تدبير، ما في السماوات وما في الأرض، وحفظهما إليه؛ لأنه هو المتفرد بخلق ذلك كله؛ فإليه حفظ ذلك وتدبيره"(١٣).

قال الزجاج:"{في} موصولة في المعنى بما يدل عليه اسم الله، المعنى هو الخالق العالم بما يصلح به أمر السماء والأرض، المعنى هو المتفرد بالتدبير فيالسماوات والأرض، ولو قلت: هو زيد في البيت والدار، لم يجز إلا أن يكون في الكلام دليل على أن زيدا يدبر أمر البيت والدار، فيكون المعنى هو المدبر في الدار والبيت، ولو قلت: هو المعتضد الخليفة في الشرق والغرب، أو قلت: هو المعتضد في الشرق والغرب، جاز على هذا"(١٤).

قال ابن عطية:" وهذا عندي أفضل الأقوال وأكثرها إحرازا لفصاحة اللفظ وجزالة المعنى، وإيضاحه أنه أراد أن يدل على خلقه وإيثار قدرته وإحاطته واستيلائه ونحو هذه

---

(١) محاسن التأويل:٣١٥/٤.
(٢) معاني القرآن:٢٢٨/٢.
(٣) بحر العلوم:٤٣٤/١.
(٤) تفسير السعدي:٢٥٠.
(٥) التفسير الميسر:١٢٨.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٥):ص١٢٦٢/٤-١٢٦٣.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٦):ص١٢٦٣/٤.
(٨) تفسير مقاتل ن سليمان:٥٤٩/١.
(٩) بحر العلوم:٤٣٤/١.
(١٠) محاسن التأويل:٣١٥/٤.
(١١) تفسير المنار:٢٥٠/٧.
(١٢) انظر: معاني القرآن:٢٢٨/٢، وبحر العلوم:٤٣٤/١، والنكت والعيون:٩٤/٢.
(١٣) تفسير الماتريدي:١٥/٤.
(١٤) معاني القرآن:٢٢٨/٢.

الصفات فجمع هذه كلها في قوله:{وهو الله} أي:الذي له هذه كلها {في السماوات وفي الأرض} كأنه وهو الخالق الرازق المحيي المحيط {في السماوات وفي الأرض} كما تقول: زيد السلطان في الشام والعراق، فلو قصدت ذات زيد لقلتمحالا، وإذا كان مقصد قوله زيد الآمر الناهي المبرم الذي يعزل ويولي في الشام والعراق فأقمت السلطان مقام هذه كان فصيحا صحيحا، فكذلك في الآية أقام لفظة الله مقام تلك الصفات المذكورة"(١).

والثاني : وهو الله المعظم المعبود في السموات ، وفي الأرض. ذكره الزجاج(٢).

قال الزجاج:" وهذا نحو القول الأول"(٣).

واختاره القرطبي وقال: وهذا القول" أسلم وأبعد من الإشكال، والقاعدة تنزيهه عز وجل عن الحركة والانتقال وشغل الأمكنة"(٤).

قال السمرقندي:"ويقال: هو الذي يوحد ويقر بوحدانيته أهل السموات والأرض"(٥).

قال الثعلبي والبغوي:" يعني: وهو إله السماوات وإله الأرض"(٦).

والثالث : أن في الكلام تقديماً وتأخيراً ، وتقديره : وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض ، لأن في السموات الملائكة ، وفي الأرض الإنس والجن ، قاله الزجاج(٧)، والنحاس(٨).

قال النحاس:" ومن أحسن ما قيل فيه: أن المعنى: وهو الله يعلم سركم وجهركم في السموات وفي الأرض"(٩).

قال احمد الكرجي القصاب:" لأنه إله من في السماء من الملائكة، ومن في الأرض من الخلق يعلم سر الجميع وجهرهم سبحانه وبحمده"(١٠).

والرابع: أن المعنى:هو عالم بما في السموات وبما في الأرض. ذكره السمرقندي (١١).

والخامس: أن قوله { وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ } وقف تام ، ثم استأنف الخبر فقال : { وَفِي الأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ } وهذا اختيار الطبري(١٢).

قال ابن كثير:" اختلف مفسرو هذه الآية على أقوال ، بعد الاتفاق على تخطئة قول الجَهْمِيَّة الأول القائلين بأنه - تعالى عن قولهم علوًا كبيرًا - في كل مكان ؛ حيث حملوا الآية على ذلك ، فأصح الأقوال أنه المدعو الله في السموات وفي الأرض، أي : يعبده ويوحده ويقر له بالإلهية من في السموات ومن في الأرض ، ويسمونه الله ، ويدعونه رَغَبًا ورَهَبًا ، إلا من كفر من الجن والإنس ، وهذه الآية على هذا القول كقوله تعالى : { وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَهٌ وَفِي الأرْضِ إِلَهٌ } [الزخرف : ٨٤] ، أي : هو إله مَنْ في السماء وإله مَنْ في الأرض ، وعلى هذا فيكون قوله : { يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ } خبرًا أو حالا"(١٣).

قال ابن عطية:" قاعدة الكلام في هذه الآية أن حلول الله تعالى في الأماكن مستحيل وكذلك مماسته للأجرام أو محاداته لها أو تحيز لا في جهة لامتناع جواز التقرب عليه تبارك

---

(١) المحرر الوجيز:٢/٢٦٧-٢٦٨.
(٢) انظر: معاني القرآن:٢/٢٢٨.
(٣) معاني القرآن:٢/٢٢٨.
(٤) تفسيرالقرطبي:٦/٣٩٠.
(٥) بحر العلوم:١/٤٣٤.
(٦) الكشف والبيان:٤/١٣٤، وتفسير البغوي:٣/١٢٧
(٧) نقلا عن النكت والعيون:٢/٩٤، ولم أجده في معاني القرآن.
(٨) انظر: إعراب القرآن:٢/٣.
(٩)إعراب القرآن:٢/٣.
(١٠) النكت الدالة على البيان في انواع العلوم والاحكام:٢/٧٢.
(١١) انظر: بحر العلوم:١/٤٣٤.
(١٢) انظر: تفسير الطبري:١١/٢٦١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٣/٢٣٩-٢٤٠.

وتعالى، فإذا تقرر هذا فبين أن قوله تعالى:{وهو الله في السماوات وفي الأرض}، ليس على حد قولنا: زيد في الدار، بل هو على وجه من التأويل آخر"[١].

قال صاحب المنار:" وزعمت الجهمية أن المعنى: أن الله تعالى كائن في السماوات والأرض، ومنه أخذوا قولهم. إنه في كل مكان، والله أعلى وأجل مما قالوا، فهو بائن من خلقه غير حال فيه كله ولا في جزء منه، وما صح من إطلاق كونه في السماء ليس معناه إنه حال في هذه الأجرام السماوية كلها أو بعضها، وإنما هو إطلاق لإثبات علوه على خلقه غير مشابه لهم في شيء بل هو بائن منهم ليس كمثله شيء"[٢].

قوله تعالى:{وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ} [الأنعام : ٣]، أي:" ويعلم جميع أعمالكم من خير أو شر"[٣].

قال مقاتل:" يعنى: ما تعملون من الخير والشر"[٤].

قال السمرقندي:أي:" من الخير والشر فيجازيكم بذلك"[٥].

قال ابن كثير:" أي : جميع أعمالهم خيرها وشرها"[٦].

قال الماوردي: "أي: ما تعلمون من بعد ، ولا يخفى عليه ما كان منكم ، ولا ما سيكون ، ولا ما أنتم عليه في الحال من سر ، وجهر"[٧] .

قال البيضاوي:أي:" من خير أو شر فيثيب عليه ويعاقب، ولعله أريد بالسر والجهر ما يخفى وما يظهر من أحوال الأنفس وبالمكتسب أعمال الجوارح"[٨].

قال السعدي:أي:" ويعلم ما تكسبون، فاحذروا معاصيه وارغبوا في الأعمال التي تقربكم منه، وتدنيكم من رحمته، واحذروا من كل عمل يبعدكم منه ومن رحمته"[٩].

قال القاسمي:" أي: ما تفعلونه من خير أو شر، فيثيب عليه ويعاقب. وتخصيصه بالذكر، مع اندراجه فيما سبق، على التفسير الثاني للسر والجهر- لإظهار كمال الاعتناء به الذي يتعلق به الجزاء. وهو السر في إعادة {يعلم}"[١٠].

قال ابن عطية:قوله:{علم سركم وجهركم ويعلم ما تكسبون }" تحذير وزجر، و{تكسبون}، لفظ عام لجميع الاعتقادات والأفعال والأقوال"[١١].

قال القرطبي:" والكسب الفعل لاجتلاب نفع أو دفع ضرر ولهذا لا يقال لفعل الله كسب"[١٢].

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن ألوهية الله ثابتة في السماوات والأرض، يألهه من في السماوات ومن في الأرض؛ لقوله: (وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ).

٢- ومنها: أن الله تبارك وتعالى يعلم السر والجهر، يعلم ما يسر به الإنسان وما يجهر به، والإسرار تارة يكون إسرارًا في النفس، وتارة يكون إسرارًا مع الغير بصفة خاصة، والجهر هو الإعلان الذي لا يخفى؛ فالله يعلم السر سواء مع النفس أو مع الغير بصفة خاصة أو الجهر.

---

(١) المحرر الوجيز:٢/٢٦٧.
(٢) تفسير المنار:٧/٢٥٠.
(٣) التفسير الميسر:١٢٨.
(٤) تفسير مقاتل ن سليمان:١/٥٤٩.
(٥) بحر العلوم:١/٤٣٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٠.
(٧) النكت والعيون:٢/٩٤.
(٨) تفسير البيضاوي:٢/١٥٤.
(٩) تفسير السعدي:٢٥٠.
(١٠) محاسن التأويل:٤/٣١٥.
(١١) المحرر الوجيز:٢/٢٦٨.
(١٢) تفسيرالقرطبي:٦/٣٩٠.

٣- ومنها: عموم علم الله تبارك وتعالى؛ عموم علمه؛ لأن قوله: {سرّكم} يشمل كل أحد، وقد قال الله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا) [طه ٩٨] والآيات في هذا المعنى كثيرة.

٤- ومنها: ما يترتب على إيماننا بأن الله يعلم السر والجهر مع إيماننا بهذا يقتضي ألا نخالف أمر الله عز وجل بترك واجب، أو فعل معصية؛ لأننا نعلم أن الله تعالى يعلمه، ولو لم يثمر العلم هذه الثمرة الجليلة لكان علمنا لا فائدة منه.

وانتبه لهذه المسألة؛ إن كثيرًا من الناس لا يعتني بالفوائد المسلكية المترتبة على أسماء الله وصفاته، وهذا أمر لا بد منه، هذا هو الثمرة، فإذا علمت أن الله يعلم سرك وجهرك استحييت منه فلم تترك ما وجب، ولم تفعل ما يحرم.

٥- ومنها: علم الله تبارك وتعالى بما يكسب؛ أي: بما يكسبه من الأعمال سواء كان كسبًا دنيويًّا أو كسبًا أخرويًّا، فإن الله تعالى يعلمه، لا يخفى عليه، ويترتّب على هذه الفائدة ألا نكسب شيئًا حرّمه الله علينا.

القرآن

{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤)} [الأنعام : ٤]

التفسير:

هؤلاء الكفار الذين يشركون مع الله تعالى غيره قد جاءتهم الحجج الواضحة والدلالات البينة على وحدانية الله -جل وعلا- وصِدْق محمد صلى الله عليه وسلم في نبوته، وما جاء به، ولكن ما إن جاءتهم حتى أعرضوا عن قبولها، ولم يؤمنوا بها.

قوله تعالى:{وَمَا تَأْتِيهِمْ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ} [الأنعام : ٤]، أي:" أي ما يظهر لهم دليل من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن "(١).

قال قتادة:" يقول: ما تأتيهم من شيء من كتاب الله"(٢).

قال الطبري:أي:" وما تأتي هؤلاء الكفار الذين بربهم يعدِلون أوثانَهم وآلهتهم حجّة وعلامة ودلالة من حُجج ربهم ودلالاته وأعلامه على وحدانيته، وحقيقة نبوتك، يا محمد، وصدق ما أتيتهم به من عندي"(٣).

قال القرطبي:" أي: علامة كانشقاق القمر ونحوها. و{من} لاستغراق الجنس، تقول: ما في الدار من أحد، {من آيات ربهم}{من}الثانية للتبعيض"(٤).

قال البيضاوي:" أي: ما يظهر لهم دليل قط من الأدلة أو معجزة من المعجزات أو آية من آيات القرآن"(٥).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن المشركين المكذبين المعاندين : إنهم مهما أتتهم { مِنْ آيَةٍ } أي : دلالة ومعجزة وحجة ، من الدلالات على وحدانية الرب ، عَزَّ وجل ، وصدق رسله الكرام"(٦).

قال مقاتل:"{ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم}، يعني: انشقاق القمر"(٧).

قال ابن عباس: "ومن الآيات انشقاق القمر بمكة"(١).

---

(١) صفوة التفاسير:٣٥١/١.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٧):ص١٢٦٣/٤.
(٣) تفسير الطبري:٢٦١/١١.
(٤) تفسير القرطبي:٣٩٠/٦.
(٥) تفسير البيضاوي:١٥٤/٢.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٠/٣.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٤٩/١.

قال أبو العالية:"مثل الشمس والقمر والنجوم"[٢].
وقال عطاء :"يريد القرآن"[٣].
قال ابن أبي زمنين:" يعني: القرآن"[٤].
قال الواحدي:"المراد بالآيات: الدلالات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله وصدق نبيه - صلى الله عليه وسلم - من خلق السموات والأرض وما بينهما مع المعجزات التي أتى بها محمد - صلى الله عليه وسلم –"[٥].
والأولى في تفسير«الآيات»-هنا-: لعموم،فتشمل الآيات الشرعية والكونية،الآية من القرآن والمعجزة كانشقاق القمر ونحوه، وهواختيارالجمهور[٦].
وقد أخرج البخاري في "صحيحه"كتاب "المناقب"،باب سؤال المشركين أن يريهم النبي – صلى الله عليه وسلم – آية فأراهم انشقاق القمر. عن عبدالله بن مسعود-رضي الله عنه-قال: "انشق القمرعلى عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم - شقين،قال النبي – صلى الله عليه وسلم -: «اشهدوا»"[٧].
قال الآلوسي:" وإضافة «الآيات» إلى اسم «الرب» المضاف إلى ضميرهم، لتفخيم شأنها المستتبع لتهويل ما اجترءوا عليه في حقها، والمراد بها إما هذه الآيات الناطقة بما فصل من بدائع صنع الله تعالى وسوابغ آلائه تعالى الموجبة للإقبال عليها والايمان وإيتاؤها نزولالوحي بها"[٨].
قوله تعالى:{إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ} [الأنعام : ٤]، أي:" إلاّ تركوا النظر فيها ولم يلتفتوا إليها"[٩].
قال قتادة:" إلا أعرضوا عنه"[١٠].
قال مقاتل:" فلم لا يتفكرون فيها فيعتبروا في توحيد الله"[١١].
قال ابن أبي زمنين:" يعني به: مشركي العرب"[١٢].
قال ابن كثير:أي:" فإنهم يعرضون عنها ، فلا ينظرون فيها ولا يبالون بها "[١٣].
قال البيضاوي: أي: "تاركين للنظر فيه غير ملتفتين إليه"[١٤].
قال الواحدي:"أي: تاركين التفكر فيها. ومعنى «الإعراض»: الانصراف بالوجه عن الشيء، ثم يبنى عليه الانصراف بالفكر عنه"[١٥].
قال الطبري:" يقول: إلاأعرضوا عنها، يعني عن الآية، فصدّوا عن قبُولها والإقرار بما شهدت على حقيقته ودلّت على صحته، جهلا منهم بالله، واغترارًا بحلمه عنهم"[١٦].

---

(١) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط:١٦/٨، وفي "تنويرالمقباس" ٢/ ٤،نحوه، وذكره الثعلبي في "تفسيره" ٦/ ١٧٥ ب،والبغوي في "تفسيره" ٣/ ١٢٨ بلا نسبة.
(٢) حكاه عنه الواحدي في التفسير البسيط:١٦/٨، ولم أقف عليه.
(٣) ذكره الواحدي في التفسير البسيط:١٦/٨، و"الوسيط" ١/ ٩،والبغويفي "تفسيره" ٣/ ١٢٨.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين:٥٩/١.
(٥) التفسير البسيط:١٦/٨.
(٦)انظر:تفسيرالطبري:٢٦١/١١، والسمرقندي في بحر العلوم:١/ ٤٧٤،وابن الجوزي في زاد المسير: ٣/ ٤،والرازي في مفاتيح الغيب:١٢/ ١٥٧.
(٧) صحيح البخاري(٣٦٣٦).
(٨) روح المعاني:٢٩/١٢.
(٩) صفوة التفاسير:٣٥١/١.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٠٧):ص١٢٦٣/٤.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٤٩/١.
(١٢) تفسير ابن أبي زمنين:٥٩/١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٤٠/٣.
(١٤) تفسير البيضاوي:١٥٤/٢.
(١٥) التفسير البسيط:١٧/٨.
(١٦) تفسير الطبري:٢٦١/١١-٢٦٢.

قال القرطبي:" والإعراض: ترك النظر في الآيات التي يجب أن يستدلوا بها على توحيد الله عز وجل من خلق السموات والأرض وما بينهما وأنه يرجع إلى قديم حي غني عن جميع الأشياء قادر لا يعجزه شي عالم لا يخفى عليه شي من المعجزات التي أقامها لنبيه صلى الله عليه وسلم «٣»، ليستدل بها على صدقه في جميع ما أتى به"[١].

قال أبو السعودي:" والتعرض لعنوان الرحمة، لتغليظ شناعتهم وتهويل جنايتهم فإن الإعراض عما يأتيهم من جنابه عز وجل على الإطلاق شنيع قبيح وعما يأتيهم بموجب رحمته تعالى المحض منفعتهم أشنع وأقبح "[٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: بيان عتو هؤلاء المكذبين؛ وجه ذلك أنه لا تأتيهم أي آية إلا كانوا عنها معرضين، وقد طلبت قريش من النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم آية، فأراهم انشقاق القمر؛ أشار إلى القمر انفلق فرقتين[٣]، وشاهده الناس، وقد أشار الله إليه في قوله: (اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ) [القمر ١]، وهو انشقاق حسي، والمراد بالقمر القمر المشاهَد المعروف.

وقد أنكر الفلاسفة وعلماء الفلك أن القمر انشق، وقالوا: لا يمكن؛ لأن الأجرام السماوية لا يمكن فيها التفكّك، والواجب على المؤمن أن يرد كل قول يخالف الكتاب والسنة مهما كان قائله، لأن الله عز وجل، خالقها، يفعل ما يشاء وهو انشقاق حسي للقمر ، وليس كما قال علماء الفلك، وحرّفوا من أجله الكتاب والسنة، وقالوا: إن أخبار الانشقاق أخبار أحادية تحتمل التأويل أو الرد، وأما القرآن فمعنى انشق القمر أي بان نور النبوة، وهذا غلط.

٢- ومنها الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى حكيم رحيم، وذلك لكونه يأتي بالآيات للخلق، فإن هذا من الحكمة الواضحة؛ لأنه ليس من المعقول أن يأتي رجل ويقول للناس: إنه رسول، ويستبيح دماء من لم يُؤمن به وأموالهم وذرياتهم ونساءهم بدون أن يكون هناك آية تدل على صدقه؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ» - يَعْنِي بَعَثَهُ اللَّهُ- «إِلَّا آتَاهُ مِنَ الْآيَاتِ مَا يُؤْمِنُ عَلَى مِثْلِهِ الْبَشَرُ»[٤]. لا بد، هذه من جهة الحكمة.من جهة الرحمة؛ أن الله رحم الخلق بكونه إذا أرسل إليهم الرسل آتاهم الآيات الدالة على صدقهم، ولو شاء لأرسل رسلًا بدون آيات، ثم من كذب أخذه، لكن تأبى حكمته ورحمته أن يرسل رسلًا بلا آية.

٣- ومنها: إثبات الربوبية للكفار؛ لقوله: (مِنْ آيَاتِ رَبِّهِمْ)، وهذه الربوبية العامة، وربوبية الله عز وجل تنقسم إلى عامة وخاصة، فربوبيته لأوليائه خاصة، ولأعدائه وأوليائه جميعًا عامة،وبالتاالي: فإن العبودية تنقسم إلى عامة وخاصة؛ فالعامة كقوله تعالى: (إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا) [مريم ٩٣]، والخاصة مثل قوله: (ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا) [فاطر ٣٢]، وقوله: (تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ) [الفرقان ١] والأمثلة كثيرة.

٤- ومنها: خطر الإعراض عن الآيات، وأنه يُخشى على مَن أعرض عن الآيات ألا يهتدي لها؛ لقوله تعالى: (إِلَّا كَانُوا عَنْهَا مُعْرِضِينَ).ويدل لهذا -أي لخطر الإعراض عن الآيات- قول الله تبارك وتعالى: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ) [الأنعام ١١٠]، والكاف هنا للتعليل (كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)، وهذه مسألة خطيرة في الواقع، يجب على طالب العلم أن يجعلها نصب عينيه، إذا كان يمشي على طريق معين، وجاءت النصوص دالة على خلافه، فإن بعض

---

(١) تفسير القرطبي:٣٩٠/٦.

(٢) تفسير أبي السعود:٢٣٤/٦.

(٣)متفق عليه؛ البخاري (٣٦٣٦)، ومسلم (٢٨٠٠ / ٤٤) من حديث عبد الله بن مسعود.

(٤)متفق عليه؛ البخاري (٤٩٨١)، ومسلم (١٥٢ / ٢٣٩) من حديث أبي هريرة.

الناس قد يتلكأ ويحاول أن يحرّف النصوص التي تخالف طريقه، وهذا خطر عظيم، بل الواجب على المؤمن أن يستسلم للنصوص من حين أن تأتيه كما كان الصحابة رضي الله عنهم يفعلون هذا، مجرد ما يأمر الرسول بشيء يفعلونه، مجرد ما ينهى عن شيء يتركونه، فكون الإنسان يتلكأ أول ما يأتيه الحق خطر عظيم، والآية واضحة في سورة الأنعام: (وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ) [الأنعام١١٠]، وقال الله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة ٤٩].

القرآن

{فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (٥)} [الأنعام : ٥]

التفسير:

لقد جحد هؤلاء الكفار الحقَّ الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم وسخروا من دعاته; جهلا منهم بالله واغترارًا بإمهاله إياهم، فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وسيجازيهم عليه.

قوله تعالى:{فَقَدْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ} [الأنعام : ٥]، أي:" لقد جحد هؤلاء الكفار الحقَّ الذي جاءهم به محمد صلى الله عليه وسلم وسخروا من دعاته; جهلا منهم بالله واغترارًا بإمهاله إياهم"[١].

قال البغوي:" بالقرآن، وقيل: بمحمد صلى الله عليه وسلم"[٢].

قال الزمخشري:" يعني: القرآن الذي تحدوا به على تبالغهم في الفصاحة"[٣].

قال ابن عطية:"{كذبوا بالحق}: وهو محمد عليه السلام وما جاء به"[٤].

قال مقاتل:" يعني: القرآن، حين جاءهم به محمد- صلى الله عليه وسلم- استهزءوا بالقرآن بأنه ليس من الله، يعني: كفار مكة منهم: أبو جهل بن هشام، والوليد بن المغيرة، ومنبه ونبيه ابنا الحجاج والعاص بن وائل السهمي، وأبى بن خلف، وعقبةابن أبي معيط، وعبد الله بن أبي أمية، وعتبة وشيبة ابنا ربيعة، وأبو البختري ابن هشام بن أسد، والحارث بن عامر بن نوفل، ومخرمة بن نوفل وهشام بن عمرو ابن ربيعة، وأبو سفيان بن حرب، وسهل بن عمرو، وعمير بن وهب بن خلف، والحارث بن قيس، وعدى بن قيس، وعامر بن خالد الجمحي، والنضر بن الحارث، وزمعة بن الأسود، ومطعم بن عدي، وقرط بن عبد عمرو بن نوفل، والأخنس ابن شريق، وحويطب بن عبد العزي، وأمية بن خلف كلهم من قريش"[٥].

قوله تعالى:{فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام : ٥]، أي:" فسوف يرون ما استهزءوا به أنه الحق والصدق، ويبين الله للمكذبين كذبهم وافتراءهم، وسيجازيهم عليه"[٦].

قال ابن كثير:" وهذا تهديد لهم ووعيد شديد على تكذيبهم بالحق ، بأنه لا بد أن يأتيهم خبر ما هم فيه من التكذيب ، وليجدُنَّ غبه ، وليذوقُنَّ وَباله"[٧].

قال قتادة:" يقول: سيأتيهم يوم القيامة أنباء ما استهزءوا به من كتاب الله عز وجل"[٨].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٨.
(٢) تفسير البغوي:١٢٨/٣.
(٣) الكشاف:٦/٢.
(٤) المحرر الوجيز:٢٦٨/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٤٩/١-٥٥٠.
(٦) التفسير الميسر:١٢٨.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤٠/٣.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٠٨):ص١٢٦٣/٤.

قال مقاتل:" يعني: حديث {ما كانوا به}: بالعذاب،{يستهزؤن} بأنه غير نازل بهم ونظيرها في الشعراء، فنزل بهم العذاب ببدر"[١].

قال البغوي:" أي: أخبار استهزائهم وجزاؤه، أي: سيعلمون عاقبة أاستهزائهم إذا عذبوا"[٢].

قال الزمخشري:أي:" أنباء الشيء الذي كانوا به يستهزؤن وهو القرآن، أى أخباره وأحواله، بمعنى:سيعلمون بأى شيء استهزءوا. وسيظهر لهم أنه لم يكن بموضع استهزاء، وذلك عند إرسال العذاب عليهم في الدنيا أو يوم القيامة، أو عند ظهور الإسلام وعلو كلمته"[٣].

قال الطبري:" يقول: سوف يأتيهم أخبارُ استهزائهم بما كانوا به يستهزئون من آياتي وأدلّتي التي آتيتهم، ثم وفى لهم بوعيده لمّا تمادَوا في غيِّهم، وعَتَوا على ربهم، فقتلتهم يوم بدرٍ بالسَّيف"[٤].

قال الزجاج:" دل بهذا أنهم كانوا يستهزئون، وقد ذكر استهزاؤهم في غير هذاالمكان، ومعنى «إتيانه»، أي: تأويله: المعنى: سيعلمون ما يؤول إليه استهزاؤهم"[٥].

قال ابن عطية:" توعدهم بأن يأتيهم عقاب استهزائهم، و{ما} بمعنى:«الذس»، ويصح أن تكون مصدرية، وفي الكلام حذف مضاف تقديره: يأتيهم مضمن أنباء القرآن الذي كانوا به يستهزئون، وإن جعلت {ما} مصدرية فالتقدير:يأتيهم نبأ كونهم مستهزئين، أي: عقاب يخبرون أنه على ذلك الاستهزاء، وهذه العقوبات التي توعدوا بها تعم عقوبات الدنيا كبدر وغيرها وعقوبات الآخرة"[٦].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء مع تواتر الآيات عليهم كذبوا بالحق ولم يستجيبوا له، والتكذيب بالحق بعد مجيئه أشد من التكذيب به قبل أن يأتي بحيث يسمع الإنسان عنه، ولكنه لم يتأكد، فإن هذا الذي أتاه الحق وكذَّب به يكون تكذيبه أعظم.
٢- ومنها: الإشارة إلى أن هؤلاء سوف يُمهلون، ولا يأتيهم العذاب؛ لقوله: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).
٣- ومنها: أن هؤلاء كذبوا بالحق بعد أن جاءهم فيكون تكذيبهم أشد قبحًا وأعظم إثمًا؛ ذلك لقيام الحجة عليهم.
٤- ومنها: تهديد هؤلاء بالعذاب؛ لقوله: (فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).
٥- ومنها: أن تكذيب هؤلاء مقرون بالاستهزاء؛ إذ إنهم يسخرون: كيف نُبعث وقد كنا عظامًا ورفاتًا؟! ويقولون: (أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عُجَابٌ) [ص ٥] فسيأتيهم هذا أنباء ما كانوا به يستهزئون.
٦- ومنها: أن هؤلاء الكفار عندهم عناد والعياذ بالله؛ وذلك أنهم قرنوا كفرهم بالاستهزاء فلم يَسلم الشرع، ولا من جاء بالشرع من استهزائهم.

القرآن

{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ (٦)} [الأنعام : ٦]

التفسير:

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٠/١.
(٢) تفسير البغوي:١٢٨/٣.
(٣) الكشاف:٦/٢.
(٤) تفسير الطبري:٢٦٢/١١.
(٥) معاني القرآن:٢٢٨/٢.
(٦) المحرر الوجيز:٢٦٨/٢.

ألم يعلم هؤلاء الذين يجحدون وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده العبادة، ويكذبون رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ما حلَّ بالأمم المكذبة قبلهم من هلاك وتدمير، وقد مكنَّاهم في الأرض ما لم نمكن لكم أيها الكافرون، وأنعمنا عليهم بإنزال الأمطار وجريان الأنهار من تحت مساكنهم؛ استدراجًا وإملاءً لهم، فكفروا بنعم الله وكذبوا الرسل، فأهلكناهم بسبب ذنونهم، وأنشأنا من بعدهم أممًا أخرى خلفوهم في عمارة الأرض؟

قوله تعالى:{أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ} [الأنعام : ٦]، أي:" ألم يعلم هؤلاء الذين يجحدون وحدانية الله تعالى واستحقاقه وحده العبادة، ويكذبون رسوله محمدًا صلى الله عليه وسلم ما حلَّ بالأمم المكذبة قبلهم من هلاك وتدمير"[١].

قال البغوي:" يعني: الأمم الماضية، والقرن: الجماعة من الناس، وجمعه قرون"[٢].

قال ابن كثير:" ثم قال تعالى واعظًا ومحذرًا لهم أن يصيبهم من العذاب والنكال الدنيوي ما حل بأشباههم ونظرائهم من القرون السالفة الذين كانوا أشد منهم قوة ، وأكثر جمعًا ، وأكثر أموالا وأولادًا واستغلالا للأرض وعمارة لها ، فقال { أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ}"[٣].

قال ابن الجوزي:"«القرن»: "اسم أهل كل عصر. وسموا بذلك، لاقترانهم في الوجود"[٤].

وللمفسرين في المراد بـ«القرن»، أقوال:

أحدها: أنه أربعون سنة، حكاه ابن سيرين والزهراوي[٥]عن النبي -صلى الله عليه وسلم-[٦].

الثاني: ثمانون سنة، رواه أبو صالح عن ابن عباس[٧]، واختاره الفراء[٨].

الثالث: مائة سنة، قاله عبد الله بن بسر المازني[٩]، وأبو سلمة بن عبد الرحمن[١٠]، وهو قول الجمهور[١١].

الرابع: مائة وعشرون سنة، قاله زرارة بن أوفى[١٢]، وإياس بن معاوية[١٣].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٨.

(٢) تفسير البغوي:١٢٨/٣.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٠/٣.

(٤) زاد المسير:٩/٢.

(٥) عزاه السمين الحلبي الى الزهراوي يرفعه الى النبي-صلى الله عليه وسلم- وهذا مرسل.

(٦) انظر: زاد المسير:٩/٢، عزاه ابن الجوزي لابن سيرين عن النبي-صلى الله عليه وسلم-، وكذلك السمين الحلبي في الدر المصون:٥٤١/٤، وهذامرسلفهوواه،ولمأقفعلىإسناده،وهومنكر.

(٧) انظر: زاد المسير:١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.

(٨) انظر: معاني القرآن:٣٢٨/١.

(٩)ورد ذلك مرفوعا وهو حديث قوي. علقه البخاري في «التاريخ الكبير» ١/ ٣٢٣ و «الصغير» ١/ ٢١٦ قال: قال داود بن رشيد حدثنا أبو حياة شريح بن يزيد الحضرمي عن إبراهيم بن محمد بن زياد عن أبيه عن عبد الله بن بسر أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «يعيش هذا الغلام قرنا» ، فعاش مائة سنة. وذكره الهيثمي في «المجمع» ١٦١١٩ بأتم منه وقال رواه الطبراني والبزار باختصار إلا أنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليدركن قرنا» ورجال أحد إسنادي البزار رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب الحضرمي، وهو ثقة اهـ.

وورد بنحوه عن الحسن بن أيوب الحضرمي قال: أراني عبد الله بن بسر شامة في قرنه فوضعت إصبعي عليها فقال: وضع رسول الله صلى الله عليه وسلم إصبعه عليها وقال: «لتبلغن قرنا» أخرجه أحمد ٤/ ١٨٩ والطبراني كما في «المجمع» ١٦١٢٠. قال الهيثمي: ورجال أحمد رجال الصحيح غير الحسن بن أيوب، وهو ثقة، ورجال الطبراني ثقات اهـ. وانظر «الإصابة» ٢/ ٢٨١- ٢٨٢ (٤٥٦٥) .

الخلاصة هو حديث صحيح بمجموع طرقه وشواهده..

(١٠) انظر: زاد المسير:١٠/٢.

(١١) انظر: الدر المصون:٥٤١/٤.

(١٢) انظر: زاد المسير:١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.

(١٣) انظر: زاد المسير:١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.

الخامس: عشرون سنة، حكاه الحسن البصري[١].
السادس: سبعون سنة، ذكره الفراء عن بعضهم[٢].
السابع: أن القرن: أهل كل مدة كان فيها نبي، أو طبقة من العلماء، قلّت السنون، أو كثرت بدليل قوله -صلى الله عليه وسلم-:«خيركم قرني»[٣] يعني: أصحابي «ثم الذين يلونهم» يعني: التابعين «ثم الذين يلونهم» يعني: الذين أخذوا عن التابعين. وهذا قول الزجاج[٤].

فالقرن: "مقدار التوسط في أعمار أهل الزمان فهو في كل قوم على مقدار أعمالهم"[٥].
الثامن: أن القرن: أمد. قاله أبو مالك[٦].

والراجح-والله أعلم-من هذه الأقوال هوالقول الثالث بأن القرن مئة سنة، إذ ورد فيه الحديث مرفوعا وهو حديث قوي.

واشتقاق القرن: من الاقتران[٧]. وفي معنى ذلك «الاقتران» قولان:
أحدهما: أنه سمي قرنا، لأنه المقدار الذي هو أكثر ما يقترن فيه أهل ذلك الزمان في بقائهم. هذا اختيار الزجاج[٨].
والثاني: أنه سمي قرنا، لأنه يقرن زمانا بزمان، وأمة بأمة، قاله ابن الأنباري[٩].

وقال أبو عبيدة:" يرون أن أقل ما بين القرنين: ثلاثون سنة"[١٠].

قوله تعالى:{مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ} [الأنعام : ٦]، أي:"وقد منحناهم من أسباب السعة والعيش والتمكين في الأرض ما لم نعطكمأيها الكافرون"[١١].

قال قتادة:"يقول : أعطيناهم ما لم نعطكم"[١٢].

قال ابن عباس: "أمهلناهم في العمر مثل قوم نوح وعاد وثمود"[١٣].

قال مقاتل:" يقول: أعطيناهم من الخير والتمكين في البلاد ما لم نعطكم يأهل مكة"[١٤].

قال ابن كثير:" أي:من الأموال والأولاد والأعمار، والجاه العريض، والسعة والجنود"[١٥].

قال ابن الجوزي:أي:" أعطيناهم ما لم نعطكم. يقال: مكنته ومكنت له: إذا أقدرته على الشيء باعطاء ما يصح به الفعل من العدة. وفي هذه الآية رجوع من الخبر إلى الخطاب"[١٦].

قال الزمخشري:" مكن له في الأرض: جعل له مكانا فيها. ونحوه: أرض له. ومنه قوله :{إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ} [الكهف : ٨٤]، {أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ} [القصص : ٥٧]، وأما مكنته في الأرض: فأثبته فيها. ومنه قوله {وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ} [الأحقاف : ٢٦]، ولتقارب

---

(١) انظر: زاد المسير:١٠/٢، والدر المصون: ٥٤١/٤.
(٢) انظر: معاني القرآن:٣٢٨/١.
(٣)حديث صحيح. لكن لفظ «يعني ... » ليس من الحديث. أخرجه البخاري ٢٦٥١ و ٣٦٥٠ و ٦٤٢٨ و ٦٦٩٥ ومسلم ٢١٤ و ٢١٥ و ٢٥٣٥ وأبو داود ٤٦٥٧، والترمذي ٢٢٢٢ والنسائي ٧/ ١٧ و ١٨، والطيالسي ٨٥٢ وأحمد ٤/ ٤٢٧ و ٤٣٦ و ٤٤٠ وابن حبان ٦٧٢٩. والبيهقي ١٠/ ١٢٣ و ١٦٠ وفي «الدلائل» ٦/ ٥٥٢. من حديث عمران بن حصين. وله شواهد.
(٤) انظر: معاني القرآن:٢٢٩/٢.
(٥)زاد المسير:١٠/٢.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧١٠٩):ص١٢٦٣/٤.
(٧) انظر: معاني القرآن للزجاج: ٢٢٩/٢، وزاد المسير:١٠/٢.
(٨) انظر: معاني القرآن:٢٢٩/٢.
(٩) انظر: زاد المسير:١٠/٢.
(١٠) مجاز القرآن:١٨٥/١.
(١١) صفوة التفاسير:٣٥٢/١، والتفسير الميسر:١٢٨.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٠٧٢):ص٢٦٣/١١.
(١٣) تفسير البغوي:١٢٨/٣.
(١٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٠/١.
(١٥) تفسير ابن كثير:٢٤٠/٣.
(١٦) زاد المسير:١٠/٢.

المعنيين جمع بينهما في قوله :{ **مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّنْ لَكُم**}، والمعنى: لم نعط أهل مكة نحو ما أعطينا عادا وثمود وغيرهم، من البسطة في الأجسام، والسعة في الأموال والاستظهار بأسباب الدنيا"(١).

قوله تعالى:{وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا} [الأنعام : ٦]، أي:" أي أنزلنا المطر غزيراً متتابعاً يدرُّ عليهم درّا"(٢).

عن ابن عباس، قوله: {مدرارا}، يقول: يتبع بعضها بعضا"(٣).

وعن ابن عباس –أيضا-:"{مدرارا}، أي: متتابعا في أوقات الحاجات"(٤).

قال مقاتل:" بالمطر، يعني متتابعا"(٥).

قال ابن كثير:" أي : شيئًا بعد شيء "(٦).

وعن هارون التيمي، في قول الله: "{وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِدْرَارًا}، قال: المطر في إبانه"(٧).

قال الشافعي: " و«المدرار»: الكثير الدر والمطر"(٨).

قال الزجاج:" أي: ذات غيث كثير، ومفعال من أسماء المبالغة يقال ديمة مدرار، إذاكان مطرها غزيرا دائما، وهذا كقولهم امرأة مذكار، إذا كانت كثيرة الولادة للذكور، وكذا مئناث في الإناث"(٩).

قال الأنباري:" معناه: وأرسلنا المطر عليهم. وقال زهير (١٠):

عفا من آل فاطمة الجواء ... فيمن فالقوادم فالحساء

فذو هاش فميث عريتنات ... عفتها الريح بعدك والسماء

أراد: والمطر.

وقال حسان بن ثابت (١١) :

عفت ذات الأصابع فالجواء ... إلى عذراء منزلها خلاء

ديار من بني الحساس قفر ... تعفيها الروامس والسماء"(١٢).

و«المِدرار»: المَطَر الغزير الديمة(١٣)، قال الشاعر(١٤):

وسقاك من نَوءِ الثُرَيّا مُزْنَة ... سَحَراً تَحَلَّبُ وابلاً مِدْرارا

قال ابن الأنباري: "والمراد بالمدرار: "المبالغة في اتصال المطر ودوامه يعني: أنها تدر وقت الحاجة إليها لا أنها تدوم ليلا ونهارا، فتفسد"(١٥).

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ} [الأنعام : ٦]، أي:"وأنعمنا عليهم بجريان الأنهار من تحت مساكنهم؛ استدراجًا وإملاءً لهم"(١).

---

(١) الكشاف:٦/٢.
(٢)صفوة التفاسير:٣٥٢/١.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١١٢):ص١٢٦٣/٤.
(٤) تفسير البغوي:١٢٨/٣.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٠/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١١٣):ص١٢٦٤/٤.
(٨) الزاهر في غريب الفاظ الشافعي.
(٩) معاني القرآن:٢٢٩/٢.
(١٠)ديوانه ٥٦. وانظر:المذكر والمؤنث: ٣٦٨.
(١١) ديوانه:٧١.
(١٢) الزاهر في معاني كلمات الناس:٢٣٨/١.
(١٣)اللسان، مادة"رمد":ص٣٩/٨.
(١٤) البيت بلا نسبة في اللسان، مادة"رمد":ص٣٩/٨.
(١٥) زاد المسير:١٠/٢.

قال ابن كثير:" أي: أكثرنا عليهم أمطار السماء وينابيع الأرض ، أي : استدراجًا وإملاء لهم "(٢).

قال أبو حيان:" المعنى: أنه تعالى مكنهم التمكين البالغ ووسع عليهم الرزق فذكر سببه وهو تتابع الأمطار على قدر حاجاتهم وإمساك الأرض ذلك الماء، حتى صارت الأنهار تجري من تحتهم"(٣).

قوله تعالى:{فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ} [الأنعام : ٦]، أي:" أي فكفروا وعصوا فأهلكناهم بسبب ذنوبهم"(٤).

قال مقاتل:" يعني: فعذبناهم بتكذيبهم رسلهم"(٥).

قال ابن كثير:" أي : بخطاياهم وسيئاتهم التي اجترموها"(٦).

قال الطبري:" فغمَطُوا نعمة ربهم ، وعصوا رسولَ خالقهم ، وخالفوا أمرَ بارئهم ، وبغَوْا حتى حقَّ عليهم قَوْلي ، فأخذتهم بما اجترحوا من ذنوبهم ، وعاقبتهم بما اكتسبت أيديهم ، وأهلكت بعضهم بالرَّجفة ، وبعضهم بالصيحة ، وغير ذلك من أنواع العذاب"(٧).

قال أبو حيان:" فكثر الخصب فأذنبوا فأهلكوا بذنوبهم، والظاهر أن الذنوب هنا هي كفرهم وتكذيبهم برسل الله وآياته، والإهلاك هنا لا يراد به مجرد الإفناء والإماتة بل المراد الإهلاك الناشئ عن الذنوب والأخذ به كقوله تعالى: {فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُمْ مَنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُمْ مَنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُمْ مَنْ أَغْرَقْنَا} [العنكبوت : ٤٠]، لأن الإهلاك بمعنى الإماتة مشترك فيه الصالح والطالح"(٨).

قال ابن سليمان: سمعت مالك بن دينار يقول:"إذا كان القحط يقول:بذنوبنا، وإذا كان الخصب يتلو هذه الآية: {وأرسلنا السماء عليهم مدرارا وجعلنا الأنهار تجري من تحتهم فأهلكناهم بذنوبهم وأنشأنا من بعدهم قرنا آخرين}"(٩).

قوله تعالى:{وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ} [الأنعام : ٦]، أي:" أي أحدثنا من بعد إهلاك المكذبين قوماً آخرين غيرهم"(١٠).

قال مقاتل:" يقول: وخلقنا من بعد هلاكهم قوما آخرين "(١١).

قال الطبري:" ، يقول : وأحدثنا من بعدالذين أهلكناهم قرنًا آخرين ، فابتدأنَا سِواهم"(١٢).

قال ابن كثير:" أي : فذهب الأولون كأمس الذاهب وجعلناهم أحاديث ، { وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ } أي : جيلا آخر لنختبرهم ، فعملوا مثل أعمالهم فهلكوا كهلاككم. فاحذروا أيها المخاطبون أن يصيبكم مثلما أصابهم ، فما أنتم بأعز على الله منهم ، والرسول الذي كذبتموه أكرم على الله من رسولهم ، فأنتم أولى بالعذاب ومعاجلة العقوبة منهم ، لولا لطفه وإحسانه"(١٣).

قال أبو حيان:" وفائدة ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم، إظهار القدرة التامة على إفناء ناس وإنشاء ناس فهو تعالى لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده وينشئ مكانه آخر يعمر

---

(١) التفسير الميسر:١٢٨.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣.
(٣) البحر المحيط:٤٤٠/٤.
(٤)صفوة التفاسير:٣٥٢/١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٠/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٦٣/١١.
(٨) البحر المحيط:٤٤٠/٤.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١١٣):ص١٢٦٤/٤.
(١٠)صفوة التفاسير:٣٥٢/١.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٠/١.
(١٢) تفسير الطبري:٢٦٣/١١-٢٦٤.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣.

بلاده وفيه تعريض للمخاطبين، بإهلاكهم إذا عصوا كما أهلك من قبلهم ووصف قرنا ب آخرين وهو جمع حملا على معنى قرن، وكان الحمل على المعنى أفصح لأنها فاصلة رأس آية"(١).

قال الزمخشري:" فإن قلت: أي فائدة في ذكر إنشاء قرن آخرين بعدهم؟

قلت: الدلالة على أنه لا يتعاظمه أن يهلك قرنا ويخرب بلاده منهم؟ فإنه قادر على أن ينشئ مكانهم آخرين يعمر بهم بلاده، كقوله تعالى: {وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا} [الشمس : ١٥]"(٢).

الفوائد:

١- تهديد المكذّبين لرسول الله ﷺ أن يصيبهم ما أصاب الأمم السابقة، وجه ذلك أن الله قرَّر أنهم قد رأوا الأمم التي أهلكت من قبل.

٢- ومن فوائدها: الاستدلال بالأعلى على الأدنى، وجه ذلك أنهم لما كانوا أقوى من هؤلاء أرسل الله عليهم السماء مدرارًا، وجعل الأنهار تجري من تحتهم، ومع ذلك أهلكهم، فمَن دونهم من باب أولى.

٣- ومنها: بيان عظمة الله سبحانه وتعالى وغيرته، حيث أهلك أولئك القوم مع ما عندهم من القوة والنَّعْمَة.

٤- ومنها: أن ما يحصل من النعم واندفاع النِّقم فإنه من الله عز وجل؛ لقوله: (مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ).

٥- ومنها: إثبات الأسباب؛ لقوله: (أَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ).

٦- ومنها: أن الذنوب من أسباب الهلاك، والمراد الهلاك الحسي وهو الموت أو فقد الأموال، أو ما أشبه ذلك، أو الهلاك الحسي والمعنوي الذي هو موت القلوب، قال الله تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) [المائدة ٤٩]، فجعل تولّيهم من أسباب الذنوب.

٧- ومنها: تمام قدرة الله تبارك وتعالى وسلطانه، حيث يُهْلِك أقوامًا وينشئ آخرين؛ لأن الأمر أمره عز وجل، والملك ملكه، والسلطان سلطانه، فهو سبحانه وتعالى يفعل ما يشاء من إهلاك وإنشاء.

القرآن

{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ (٧)} [الأنعام : ٧]

التفسير:

ولو نزَّلنا عليك -أيها الرسول- كتابًا من السماء في أوراق فلمسه هؤلاء المشركون بأيديهم لقالوا: إنَّ ما جئت به -أيها الرسول- سحر واضح بيِّن.

سبب النزول:

قال الكلبي ومقاتل(٣): "نزلت في النضر بن الحارث وعبد الله بن أبي أمية ونوفل بن خويلد، قالوا: يا محمد! لن نؤمن لك حتى تأتينا بكتاب من عند الله، ومعه أربعة من الملائكة يشهدون عليه أنه من عند الله وأنك رسوله؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ}(٤). [موضوع]

وفي السياق نفسه ذكر ابن أبي زمنين عن الحسن، قال:" وذلك أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيهم بآية:بكتاب يقرءونه، وقالوا: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه من الله إلى كل رجل باسمه؛ أن آمن بمحمد؛ فإنه رسولي"(٥).

---

(١) البحر المحيط:٤/٤٤٠.

(٢) الكشاف:٢/٦.

(٣) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٥٠.

(٤)ذكره البغوي في "تفسيره" (٣/ ١٢٩) هكذا معلقاً عنهما, ولايخفى عليك ضعفه ووهائه.

(٥) تفسير ابن ابي زمنين:٢/٥٩.

قوله تعالى:{وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ} [الأنعام : ٧]، أي:" ولو نزَّلنا عليك -أيها الرسول- كتابًا من السماء في أوراق"[١].

قال القرطبي:" المعنى: ولو نزلنا يا محمد بمرأى منهم كما زعموا وطلبوا كلاما مكتوبا {في قرطاس}"[٢].

قال الطبري:" إخبار من الله تعالى ذكره نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم ، عن هؤلاء القوم الذين يعدلون بربهم الأوثانَ والآلهة والأصنام. يقول تعالى ذكره : وكيف يتفقهون الآيات ، أم كيف يستدِلُّون على بُطْلان ما هم عليه مُقِيمون من الكفر بالله وجحودِ نبوتك ، بحجج الله وآياته وأدلته ، وهم لعنادهم الحقَّ وبعدِهم من الرشد ، لو أنزلت عليك ، يا محمد ، الوحيَ الذي أنزلته عليك مع رسولي ، في قِرْطاس"[٣].

قال السعدي:" هذا إخبار من الله لرسوله عن شدة عناد الكافرين، وأنه ليس تكذيبهم لقصور فيما جئتهم به، ولا لجهل منهم بذلك، وإنما ذلك ظلم وبغي، لا حيلة لكم فيه"[٤].

عن السدي : " {ولو نزلنا عليك كتابًا في قرطاس}، الصحف"[٥].

قال قتادة:" يقول : في صحيفة"[٦].

قال السمعاني:" والقرطاس: ما يكون مكتوبا، فإذا لم يكن مكتوبا سمي: طرسا"[٧].

قوله تعالى:{فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ } [الأنعام : ٧]، أي:" فلمسه هؤلاء المشركون بأيديهم"[٨].

قال مجاهد:" فمسوه ونظروا إليه ، لم يصدِّقوا به"[٩].

قال قتادة:" يقول : فعاينوه معاينة"[١٠].

قال السعدي:أي:" وتيقنوه"[١١].

قال الطبري:أي:" يعاينونه ويمسُّونه بأيديهم ، وينظرون إليه ويقرءونه منه ،معلَّقًا بين السماء والأرض ، بحقيقة ما تدعوهم إليه ، وصحَّةِ ما تأتيهم به من توحيدي وتنزيلي"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : عاينوه ، ورأوا نزوله ، وباشروا ذلك"[١٣].

قال القرطبي:" أي: فعاينوا ذلك ومسوه باليد كما اقترحوا وبالغوا في ميزه وتقليبه جسا بأيديهم ليرتفع كل ارتياب ويزول عنهم كله إشكال"[١٤].

قال السمعاني:" فإن قال قائل: لم لم يقل: فرأوه بأعينهم؟

قيل: لأن اللمس أبلغ في إيقاع العلم من الرؤية؛ لأن السحر يجري على المرئي، ولا يجري على الملموس؛ لأن الملموس يصير مرئيا، والمرئي لا يصير ملموسا؛ فذكر اللمس ليكون أبلغ"[١٥].

قال الزمخشري:" ولم يقتصر بهم على الرؤية، لئلا يقولوا : سكرت أبصارنا، ولا تبقى لهم علة"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٨.
(٢) تفسير القرطبي:٣٩٢/٦.
(٣) تفسير الطبري:٢٦٥/١١.
(٤) تفسير السعدي:٢٥١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٠٧٦):ص٢٦٦/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٠٧٧):ص٢٦٦/١١.
(٧) تفسير السمعاني:٨٩/٢.
(٨) التفسير الميسر:١٢٨.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٠٧٣):ص٢٦٥/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٠٧٤):ص٢٦٦/١١.
(١١) تفسير السعدي:٢٥١.
(١٢) تفسير الطبري:٢٦٥/١١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(١٤) تفسير القرطبي:٣٩٣/٦.
(١٥) تفسير السمعاني:٨٩/٢.

قوله تعالى:{لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ} [الأنعام : ٧]، أي:" لقالوا: إنَّ ما جئت به -أيها الرسول- سحر واضح بيِّن"(٢).

قال ابن عباس:" لزادهم ذلك تكذيبا"(٣).

قال مجاهد:" فنظروا إليه، ولم يصدقوا به"(٤).

قال الطبري:أي : لقال الذين يعدلون بي غيري فيشركون في توحيدِي سواي ما هذا الذي جئتنا به إلا سحر سحرتَ به أعيننا ، ليست له حقيقة ولا صحة، مبين لمن تدبّره وتأمَّله أنه سحر لا حقيقة له"(٥).

قال القرطبي: أي:"لعاندوا فيه وتابعوا كفرهم"(٦).

قال السمعاني:" معناه: أنه لا ينفع معهم شيء فإنا وإن أنزلنا عليهم ما اقترحوا قالوا إن هذا إلا سحر مبين"(٧).

قال البغوي:" معناه: لا ينفع معهم شيء لما سبق فيهم من علمي"(٨).

قال ابن كثير:" وهذا كما قال تعالى مخبرًا عن مكابرتهم للمحسوسات : { وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَابًا مِنَ السَّمَاءِ فَظَلُّوا فِيهِ يَعْرُجُونَ * لَقَالُوا إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَسْحُورُونَ } [الحجر : ١٤ ، ١٥] وقال تعالى : { وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ } [الطور : ٤٤]"(٩).

قال الزجاج:" أعلم الله عز وجل أنهم قد أصلوا في السيئ الباطل في دفع النبوة، لأنهم قد رأوا القمر انشق فأعرضوا، وقالوا سحر مستمر، وكذلك يقولون في كل ما يعجز عنهالمخلوقون سحر، هذا عين الدفعلغاية الحق والنور الساطع المبين، فلو رأوا الكتاب ينزل من السماء لقالواسحر كما أنهم قالوا في انشقاق القمر سحر"(١٠).

قال السعدي:" فأي بينة أعظم من هذه البينة، وهذا قولهم الشنيع فيها، حيث كابروا المحسوس الذي لا يمكن من له أدنى مسكة من عقل دفعه؟"(١١).

الفوائد:

١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الإشارة إلى أن الكتاب إذا كان في القرطاس فهو أبين وأظهر، وإلا يمكن يُكْتَب على غير قرطاس، في اللوح من خشب، في اللوح من عظام، في اللوح من أحجار، في اللوح من جريد النخل، كما كان في أول الأمر، لكن القرطاس أثبت وألين وأسهل.

٢- ومنها: أن هؤلاء المكذِّبين لن يؤمنوا ولو جاءتهم كل آية؛ لأن من أعظم الآيات أن ينزل الكتاب يشاهدونه في قرطاس ويلمسونه، ثم ينكرون، ويفسِّر هذا قول الله تبارك وتعالى: (إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ (٩٦) وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ) [يونس ٩٦، ٩٧]، وقوله تعالى: (وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ) [يونس ١٠١]، وقال عز وجل: (وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنَ الْأَنْبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ (٤) حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ (٥) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ) [القمر ٤ - ٦]

---

(١) الكشاف:٦/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٢٨.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١١٨):ص١٢٦٤/٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١١٩):ص١٢٦٤/٤.
(٥) تفسير الطبري:٢٦٥/١١.
(٦) تفسير القرطبي:٣٩٣/٦.
(٧) تفسير السمعاني:٨٩/٢.
(٨) تفسير البغوي:١٢٩/٣.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(١٠) معاني القرآن:٢٢٩/٢-٢٣٠.
(١١) تفسير السعدي:٢٥١.

٣- ومنها: أنه ينبغي الإظهار في موضع الإضمار إذا دعت الحاجة؛ لقوله: (لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا)، وهذا يقع كثيرًا في القرآن الكريم في آيات متعددة، مثل قول الله تعالى: (مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) [البقرة ٩٨]، ما قال: عدو له، مع أن الآية: (فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ) فيها مناسبة ثالثة، وهي مراعاة فواصل الآيات، فانظر كيف كان الإظهار في موضع الإضمار.

٤- ومنها: مكابرة أولئك المشركين الذين يكذّبون النبي ﷺ بصرفهم الحق إلى باطل، الحق أنه قرآن من عند الله، وهم يصرفونه إلى السحر، هذا السحر الذي قالوه هل هو في بلاغة القرآن، وفصاحة القرآن، وبيان القرآن، أو في كونه أتى بكتاب نزل من السماء فمَوَّه على أبصارهم؟ الظاهر أنه يشمل الأمرين، يقول: هذا ما هو حقيقة يا محمد، سحرتنا، أو يقولون إنه لبيانه وفصاحته سَحَرَهم، وأيًّا كان فالجاحد -والعياذ بالله- يتشبث في كل شيء.

٥- من فوائدها: علم الله تبارك وتعالى بما سيكون لو كان؛ لأنه عَلِم ماذا سيكون قول هؤلاء لو نُزِّلَ عليهم كتاب في قرطاس.

٦- ومنها: أن هؤلاء كفار؛ لقوله: (لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ)، وكان مقتضى السياق أن يقول: (لقالوا)، لكنه أظهر في موضع الإضمار، والإظهار في موضع الإضمار له فوائد:

- منها: الحكم على مرجع الضمير بما يقتضيه الوصف الظاهر، أيش الوصف الظاهر معنا؟ (الَّذِينَ كَفَرُوا)، مرجع الضمير لو كان ضميرًا: أولئك المكذّبون.
- الفائدة الثانية: القياس، بمعنى أن كل من قال قولهم فهو كافر؛ لأنه لو قال: (لقالوا)، ما استفدنا أن من قال مثل قولهم يكون كافرًا بالنص، فإذا كان ظاهرًا هذا الوصف قسنا عليه كل ما ماثله، أو كل ما اتصف بهذا الوصف.

٧- ومنها: أن للسحر تأثيرًا، وهل التأثير يكون بقلب الحقائق، أو بالتخييل على الحواس؟ الجواب: الثاني، وإلا فإنه لا يقلب الحقائق، فالعِصِيّ والحبال التي ألقاها سحرة فرعون لم تنقلب حيات، ولكن خُيِّل للرَّائين أنها حيات، وإلا فهي على حقيقتها عِصِيّ وحبال.

القرآن

{وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ (٨)} [الأنعام : ٨]

التفسير:

وقال هؤلاء المشركون: هلا أنزل الله تعالى على محمد مَلَكًا من السماء; ليصدقه فيما جاء به من النبوة، ولو أنزلنا مَلَكًا من السماء إجابة لطلبهم لقضي الأمر بإهلاكهم، ثم لا يمهلون لتوبة، فقد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون.

سبب النزول:

قال ابن إسحاق:" دعا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قومه إلى الإسلام وكلمهم، فأبلغ إليهم فيما بلغني، فقال له زمعة بن الأسود بن المطلب، والنضر بن الحارث بن كلدة، وعبدة بن عبد يغوث، وأبيّ بن خلف بن وهب، والعاص بن وائل بن هشام الذي يقول له: لو جعل معك يا محمدملك يحدث عنك الناس ويرى معك؛ فأنزل الله في ذلك من قولهم {وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ}"(١). [ضعيف]

قوله تعالى:{وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام : ٨]، أي:" وقال هؤلاء المشركون: هلا أنزل الله تعالى على محمد مَلَكًا من السماء; ليصدقه فيما جاء به من النبوة"(٢).

---

(١)أخرجهابنأبيحاتمفي "تفسيره" (٤/ ١٢٦٥ رقم ٧١٢٠) حدثنامحمدبنالعباسثنامحمدبنعمروثناسلمةعنهبه.
ذكرهالسيوطيفي "الدرالمنثور" (٣/ ٢٥١) وزادنسبتهلابنالمنذر.
قلنا: وسندهضعيف.
(٢) التفسير الميسر:١٢٨.

عن مجاهد: قوله: "{لولا أنزل عليه ملك}، قال: في صورته"[١].
قال ابن كثير:" أي : فيكون معه نذيرا"[٢].
قال السعدي:" {وقالوا} أيضا تعنتا مبنيا على الجهل، وعدم العلم بالمعقول. {لولا أنزل عليه ملك} أي: هلا أنزل مع محمد ملك، يعاونه ويساعده على ما هو عليه بزعمهم أنه بشر، وأن رسالة الله، لا تكون إلا على أيدي الملائكة"[٣].
قال السمعاني:" وهذا قول عبد الله بن أبي أمية المخزومي اقترح إنزال ملك"[٤].
قوله تعالى:{وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ} [الأنعام : ٨]، أي:" ولو أنزلنا مَلَكًا من السماء إجابة لطلبهم لقضي الأمر بإهلاكهم"[٥].
قال ابن عباس:" ولو أتاهم ملك في صورته"[٦]، " لأهلكناهم"[٧].
قال مجاهد:"{لقضي الأمر}: لقامت الساعة"[٨]. وروي عن عكرمة مثل ذلك[٩].
قال ابن عطية:" وهذا ضعيف"[١٠].
قال قتادة:" يقول: لو أنزلنا ملكا، ثم لم يؤمنوا لعجل لهم العذاب"[١١]. وروي عن السدي مثل ذلك[١٢].
قال ابن عطية:" وهذا قول حسن"[١٣].
قال البغوي:" أي: لوجب العذاب، وفرغ من الأمر"[١٤].
قال السمعاني:" وقيل: معناه: لاستؤصلوا بالعذاب، وهذه سنة الله في الكفار؛ أنهماستأصلهم بالعذاب، كدأب قوم نوح، وعاد وثمود، وقوم لوط، وأمثالهم "[١٥].
قال ابن عطية:" وقالت فرقة: لقضي الأمر أي لماتوا من هول رؤية الملك في صورته، ويؤيد هذا التأويل ما بعده من قوله: {ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا}، فإن أهل التأويل مجمعون أن ذلك لأنهم لم يكونوا يطيقون رؤية الملك في صورته، فالأولى في قوله:{لقضي الأمر}، أي: لماتوا من هول رؤيته"[١٦].
قال النسفي:" لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون"[١٧].
قال ابن كثير:" أي : لو نزلت الملائكة على ما هم عليه لجاءهم من الله العذاب ، كما قال تعالى : { مَا نُنزلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُنْظَرِينَ } [الحجر : ٨] ، [و] (٢) قال تعالى : { يَوْمَ يَرَوْنَ الْمَلائِكَةَ لا بُشْرَى يَوْمَئِذٍ لِلْمُجْرِمِينَ [وَيَقُولُونَ حِجْرًا مَحْجُورًا] (٣) } [الفرقان : ٢٢]"[١٨].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢١):ص١٢٦٥/٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(٣) تفسير السعدي:٢٥١.
(٤) تفسير السمعاني:٨٩/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٢٨.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٢):ص١٢٦٥/٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٣):ص١٢٦٥/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٤):ص١٢٦٥/٤.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٢٦٥/٤. حكاه دون ذكر السند
(١٠) المحرر الوجيز:٢٧٠/٢.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٥):ص١٢٦٥/٤-١٢٦٦.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٢٦٦/٤. حكاه دون ذكر السند
(١٣) المحرر الوجيز:٢٧٠/٢.
(١٤) تفسير البغوي:١٢٩/٣.
(١٥) تفسير السمعاني:٨٩/٢-٩٠.
(١٦) المحرر الوجيز:٢٧٠/٢.
(١٧) تفسيرالنسفي:٤٩٢/١.
(١٨) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.

قال السعدي: قال الله في بيان رحمته ولطفه بعباده، حيث أرسل إليهم بشرا منهم يكون الإيمان بما جاء به، عن علم وبصيرة، وغيب: {ولو أنزلنا ملكا} برسالتنا، لكان الإيمان لا يصدر عن معرفة بالحق، ولكان إيمانا بالشهادة، الذي لا ينفع شيئا وحده، هذا إن آمنوا، والغالب أنهم لا يؤمنون بهذه الحالة، فإذا لم يؤمنوا قضي الأمر بتعجيل الهلاك عليهم"[١].

قوله تعالى:{ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ} [الأنعام : ٨]، أي:" ثم لا يمهلون لتوبة، فقد سبق في علم الله أنهم لا يؤمنون"[٢].

قال ابن عباس:" ثم لا يؤمنون"[٣].

قال قتادة:" يقول: ثم لم ينظروا"[٤].

قال السمعاني:" أي: ثم لا يمهلون"[٥].

قال البغوي:" أي: لا يؤجلون ولا يمهلون"[٦].

قال ابن عطية:" معناه يؤخرون، والنظرة التأخير"[٧].

قال الزمخشري:"{ثم لا ينظرون} بعد نزوله طرفة عين ، إما لأنهم إذا عاينوا الملك قد نزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورته وهي آية لا شيء أبين منها وأيقن، ثم لا يؤمنون كما قال: ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى لم يكن بد من إهلاكهم، كما أهلك أصحاب المائدة. وإما لأنه يزول الاختيار الذي هو قاعدة التكليف عند نزول الملائكة فيجب إهلاكهم. وإما لأنهم إذا شاهدوا ملكا في صورته زهقت أرواحهم من هول ما يشاهدون. ومعنى:{ثم} بعد ما بين الأمرين: قضاء الأمر، وعدم الإنظار. جعل عدم الإنظار أشد من قضاء الأمر، لأن مفاجأة الشدة أشد من نفس الشدة"[٨].

قال السعدي:"لأن هذه سنة الله، فيمن طلب الآيات المقترحة فلم يؤمن بها، فإرسال الرسول البشري إليهم بالآيات البينات، التي يعلم الله أنها أصلح للعباد، وأرفق بهم، مع إمهال الله للكافرين والمكذبين خير لهم وأنفع، فطلبهم لإنزال الملك شر لهم لو كانوا يعلمون، ومع ذلك، فالملك لو أنزل عليهم، وأرسل، لم يطيقوا التلقي عنه، ولا احتملوا ذلك، ولا أطاقته قواهم الفانية"[٩].

الفوائد:

١- نستفيد من هذه الآية فوائد؛ منها: تعنُّت المكذِّبين للرسل، وطلبهم آيات، مع أن الآيات كانت موجودة، لكنهم متعنِّتون.

٢- ومنها: أنهم يؤمنون بالملائكة، أعني المكذِّبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ).

٣- ومنها: أنهم يعلمون أن الملائكة في السماء، هي مقرُّهم ومسكنهم، الدليل: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ).

٤- ومنها: أن الملك آية من آيات الله عز وجل إذا نزل مساعدًا للبشر؛ لأنهم هم أقرُّوا بأنه آية تدل على صدق النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

٥- ومنها: أن الله سبحانه وتعالى يرد على المعاندين بمثل ما عاندوا به، ويحذرهم من اقتراح الآيات؛ لقوله: (وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَقُضِيَ الْأَمْرُ).

---

(١) تفسير السعدي:٢٥١.

(٢) التفسير الميسر:١٢٨.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٦):ص١٢٦٦/٤.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٢٧):ص١٢٦٦/٤.

(٥) تفسير السمعاني:٩٠/٢.

(٦) تفسير البغوي:١٢٩/٣.

(٧) المحرر الوجيز:٢٧٠/٢.

(٨) الكشاف:٧/٢.

(٩) تفسير السعدي:٢٥١.

٦- ومنها: ما أشرنا إليه أن المكذّبين للرسل إذا اقترحوا آية معينة ولم يؤمنوا عُجِّلت لهم العقوبة.

القرآن

{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ (٩)} [الأنعام : ٩]

التفسير:

ولو جعلنا الرسول المرسل إليهم مَلَكًا إذ لم يقتنعوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، لجعلنا ذلك الملك في صورة البشر، حتى يستطيعوا السماع منه ومخاطبته; إذ ليس بإمكانهم رؤية الملك على صورته الملائكية، ولو جاءهم الملك بصورة رجل لاشتبه الأمر عليهم، كما اشتبه عليهم أمر محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى:{وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًالَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا} [الأنعام : ٩]، أي:"ولو جعلنا الرسول ملكاً لكان في صورة رجل لأنهم لا طاقة لهم على رؤية الملك في صورته"[١].

قال ابن عباس:"ما آتاهم إلا في صورة رجل ، لأنهم لا يستطيعون النظر إلى الملائكة"[٢].

قال مجاهد:" في صورة رجل ، في خَلْق رجل"[٣].

قال قتادة:" يقول : لو بعثنا إليهم ملكًا لجعلناه في صورة آدم"[٤].

وقال ابن زيد:" لجعلنا ذلك الملك في صورة رجل ، لم نرسله في صورة الملائكة"[٥].

قال الماوردي:" يعني: ولو جعلنا معه ملكاً يدل على صدقه لجعلناه في صورة رجل"[٦].

قال ابن كثير:" أي : ولو أنزلنا مع الرسول البَشَرِيّ ملكًا ، أي : لو بعثنا إلى البشر رسولا ملكيًا لكان على هيئة رجل لتُفْهَم مخاطبته والانتفاع بالأخذ عنه"[٧].

قال الطبري:أي:" ولو جعلنا رسولنا إلى هؤلاء العادلِين بي ، القائلين : لولا أنزل على محمّدٍ ملك بتصديقه - ملكًا ينزل عليهم من السماء ، يشهد بتصديق محمد صلى الله عليه وسلم ، ويأمرهم باتباعه " لجعلناه رجلا " ، يقول : لجعلناه في صورة رجل من البشر ، لأنهم لا يقدرون أن يروا الملك في صورته . يقول : وإذا كان ذلك كذلك ، فسواء أنزلت عليهم بذلك ملكًا أو بشرًا ، إذ كنت إذا أنزلت عليهم ملكًا إنما أنزله بصورة إنسيّ ، وحججي في كلتا الحالتين عليهم ثابتة : بأنك صادق ، وأنّ ما جئتهم به حق"[٨].

قال السمعاني:" أي: في صورة رجل؛ لأن الرجل أأنس بالرجل، وأفهم منه، وقد جاء جبريل إلى النبي في صورة دحية الكلبي وجاء الملكان إلى داود في صورة رجلين"[٩].

قال الزمخشري:" ولو جعلنا الرسول ملكا كما اقترحوا لأنهم كانوا يقولون: لولا أنزل على محمد ملك. وتارة يقولون: ما هذا إلا بشر مثلكم، لو شاء ربنا لأنزل ملائكة، لجعلناه رجلا لأرسلناه في صورة رجل، كما كان ينزل جبريل على رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلم الأحوال في صورة دحية [١٠] لأنهم لا يبقون مع رؤية الملائكة في صورهم"[١].

---

(١) صفوة التفاسير:٣٥٢/١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٠٨٤):ص٢٦٨/١١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٠٨٥):ص٢٦٨/١١-٢٦٩.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٠٨٦):ص٢٦٩/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٠٨٩):ص٢٦٩/١١.
(٦) النكت والعيون:٩٦/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣.
(٨) تفسير الطبري:٢٦٨/١١.
(٩) تفسير السمعاني:٩٠/٢.
(١٠)متفق عليه من روآية أبى عثمان النهدي عن أسامة بن زيد قال «نبئت أن جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم وعنده أم سلمة، فجعل يتحدث، ثم قام فقال نبى الله لأم سلمة: من هذا؟ فقالت: دحية الكلبي ... الحديث»

وفي وجوب جعله رجلاً وجهان[٢]:
أحدهما : لأن الملائكة أجسامهم رقيقة لا تُرَى ، فاقتضى أن يُجْعَل رجلاً لكثافة جسمه حتى يرى.
والثاني : أنهم لا يستطيعون أن يروا الملائكة على صورهم ، وإذا كان في صورة الرجل لم يعلموا ملك هو أو غير ملك.
قوله تعالى:{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام : ٩]، أي:" ولو جاءهم الملك بصورة رجل لاشتبه الأمر عليهم، كما اشتبه عليهم أمر محمد -صلى الله عليه وسلم-"[٣].
قال سفيان:" وللبسنا عنهم فلا يعرفون"[٤].
قال البغوي:" أي: خلطنا عليهم ما يخلطون وشبهنا عليهم فلا يدرون أملك هو أم آدمي"[٥].
قال ابن كثير:" ولو كان كذلك لالتبس عليهم الأمر كما يلبسون على أنفسهم في قبول رسالة البشري ، كما قال تعالى : { قُلْ لَوْ كَانَ فِي الأرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنزلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولا } [الإسراء : ٩٥] ، فمن رحمة الله تعالى بخلقه أنه يرسل إلى كل صنف من الخلائقرسلا منهم ، ليدعو بعضهم بعضا ، وليمكن بعضهم أن ينتفع ببعض في المخاطبة والسؤال ، كما قال تعالى : { لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ } الآية [آل عمران : ١٦٤]"[٦].
قال الطبري:يعني:" ولو أنزلنا ملكًا من السماء مصدِّقًا لك ، يا محمد ، شاهدًا لك عند هؤلاء العادلين بي ، الجاحدين آياتِك على حقيقة نبوّتك ، فجعلناه في صورة رجل من بني آدم ، إذ كانوا لا يُطيقون رؤية الملك بصورته التي خلقتُه بها التبس عليهم أمرُه ، فلم يدروا أملك هو أمْ إنسيّ! فلم يوقنوا به أنَّه ملك ، ولم يصدّقوا به ، وقالوا : ليس هذا ملكًا! وللبسنا عليهم ما يلبسونه على أنفسهم من حقيقة أمرك ، وصحة برهانك وشاهدك على نبوّتك"[٧].
وفي قوله تعالى:{وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ} [الأنعام : ٩]، وجوه:
أحدها : معناه ولخلطنا عليهم ما يخلطون ، قاله الكلبي[٨].
والثاني : لشبهنا عليهم ما يشبهون على أنفسهم، وهذا قول ابن عباس[٩]، وقتادة[١٠]، والسدي[١١].
قال الزجاج : يقال: لبست الأمر على القوم ألبسه، إذا شبهته عليهم، وأشكلته عليهم، وكانوا هم يلبسون على ضعفتهم في أمر النبي - صلى الله عليه وسلم - فيقولون: إنما هذا بشر

وللحاكم من روآية مسروق عن عائشة قالت: «لقد رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يناجى في حجري رجلا شبهته بدحية الكلبي. فقال لي: هذا جبريل، وهو يقرئك السلام» وللطبراني من روآية قتادة عن أنس «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: يأتينى جبريل على صورة دحية الكلبي» قال أنس «وكان دحية رجلا جسيما جميلا أبيض» وفي إسناده عفير بن سعدان وهو ضعيف ولأبى نعيم في الدلائل من روآية صفوان بن عمرو عن شريح بن عبيد عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «رأيت جبرئيل في خلقه الذي خلق عليه، وكنت أراه قبل ذلك في صور مختلفة وأكثر ما كنت أراه في صورة دحية الكلبي» رجاله ثقات، إلا أنه مرسل وروى ابن سعد من طريق يحيى بن يعمر عن ابن عمر «كان جبريل يأتى رسول الله صلى الله عليه وسلم في صورة دحية الكلبي» .[انظر: تخريج احاديث الكشاف:٤٣٣/١-٤٣٤]
(١) الكشاف:٧/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:٩٦/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٢٩.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٣٣):ص١٢٦٧/٤.
(٥) تفسير البغوي:١٢٩/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤١/٣-٢٤٢.
(٧) تفسير الطبري:٢٦٩/١١-٢٧٠.
(٨) انظر: النكت والعيون:٩٦/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٨٩):ص٢٧٠/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٩٠):ص٢٧٠/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٠٩١):ص٢٧٠/١١.

مثلكم فقال :{ولو أنزلنا ملكا} فرأوا هم الملك رجلا لكان يلحقهم فيه من اللبس مثل ما لحق ضعفتهم منهم"[1]. ومنه قول الخنساء[2]:

صدّقْ مقالته واحذرْ عداوته والبِسْ عليه بشكٍّ مثلَ ما لَبَسا

وذكر السمعاني في معنى هذا القول وجهان[3]:

أحدهما: أنهم شبهوا على ضعفائهم فتشبه عليهم كما شبهوا، وينزل الملك في صورة رجل (حي) يشتبه عليهم؛ فيقول بعضهم: هو ملك، ويقول بعضهم: ليس بملك.

والقول الثاني: أن معناه: أضللناهم بإنزال الملك في صورة رجل، كما ضلوا من قبل، أي: لو حسبوا أن يهتدوا بإنزال الملك، فإنزال الملك لا يعجزنا من إضلالهم به.

والثالث : معناه: وللبسنا على الملائكة من الثبات ما يلبسه الناس من ثيابهم ، ليكونوا على صورهم وعلى زيِّهم ، حكاه الماوردي عن جويبر[4].

والرابع: ان معنى اللبس: هو تعريف الكلام عن مواضعه. وهذا قول الضحاك[5]، وهو مروي عن ابن عباس في رواية اخرى[6].

عن ابن عباس قوله : {وللبسنا عليهم ما يلبسون} ، فهم أهل الكتاب ، فارقوا دينهم ، وكذَّبوا رسلهم ، وهو تحريفُ الكلام عن مواضعه"[7].

عن الضحاك في قوله : " {وللبسنا عليهم ما يلبسون}، يعني : التحريفَ ، هم أهل الكتاب ، فرقوا كتبهم ودينَهم ، وكذَّبوا رسلهم ، فلبَّس الله عليهم ما لبَّسوا على أنفسهم"[8].

والخامس: ويجوز أن يراد: وللبسنا عليهم حينئذ مثل ما يلبسون على أنفسهم الساعة في كفرهم بآيات الله البينة. ذكره الزمخشري[9].

وقرأ ابن محيصن: ولبسنا عليهم، بلام واحدة[10]، قرأ الزهري: {وللبسنا} بالتشديد على التكرير والتأكيد[11].

الفوائد:

١- أن الله تعالى لو أراد أن ينزل ملكًا لم ينزل ملكًا بصورته الملكية، ولجعله رجلًا، من أجل التناسب؛ تناسب الرسل والمرسَل إليهم.

٢- ومنها: حكمة الله تبارك وتعالى في إرسال الرسل من البشر من أجل الركون إليهم وقبولهم، بل إن الله تبارك وتعالى يجعل الرسل من أوساط الأقوام وأشرافهم وأفاضلهم حتى يحتموا بهم، وهذا لا يضر، أن يجعل الله تبارك وتعالى للرسل من يحميهم من أقوامهم، ويدل لذلك قول قوم شعيب له: (وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ) [هود ٩١]، مما يدل على أن الإنسان إذا كان من القوم صار له شأن كبير وهيبة، ويدل لعكس هذا قول لوط عليه السلام: (لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ) [هود ٨٠]، يعني: إلى قوم يكونون عمادًا لي.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: حسن المحاجة في القرآن الكريم، وهو أنه لو جاء الأمر على اقتراح هؤلاء لم يكن على ما اقترحوه، أي: لم يكن ملَكًا، لعدم المناسبة بين الرسول

---

(١) معاني القرآن:٢٣١/٢.
(٢) البيت لها في شمس العلوم:"لبأ"، والنكت والعيون:٩٦/٢.
(٣) تفسير السمعاني:٩٠/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:٩٦/٢.
(٥) انظر: الطبري(١٣٠٩٣):ص٢٧١/١١.
(٦) انظر: الطبري(١٣٠٩٢):ص٢٧٠/١١-٢٧١.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٠٩٢):ص٢٧٠/١١-٢٧١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٠٩٣):ص٢٧١/١١.
(٩) انظر: الكشاف:٨/٢.
(١٠) انظر: الكشاف:٨/٢.
(١١) انظر: الكشاف:٨/٢، و تفسير البغوي:١٣٠/٣.

والمرسَل إليهم، فإذا كان رجلًا عاد اللبس والاقتراح الذي اقترحوه؛ لقوله: (وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ).

القرآن

{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ (١٠)} [الأنعام : ١٠]

التفسير:

ولمَّا كان طلبهم إنزال الملك على سبيل الاستهزاء بمحمد صلى الله عليه وسلم بيَّن الله تعالى له أن الاستهزاء بالرسل عليهم السلام ليس أمرا حادثا، بل قد وقع من الكفار السابقين مع أنبيائهم، فأحاط بهم العذاب الذي كانوا يهزؤون به وينكرون وقوعه.

سبب النزول:

قال محمد بن إسحاق: "ومرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما بلغني بالوليد بن المغيرة، وأمية بن خلف، وأبي جهل بن هشام، فهمزوه واستهزءوا به، فغاظه ذلك، فأنزل الله تعالى عليه في ذلك من أمرهم: {وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ}"(١).[ضعيف]

نقل السمرقندي عن الضحاك: "كان النبي صلى الله عليه وسلم جالسا في المسجد الحرام مع المستضعفين من المؤمنين بلال بن رباح وصهيب بن سنان وعمار بن ياسر وغيرهم. فمر بهم أبو جهل بن هشام في ملأ من قريش وقال: يزعم محمد أن هؤلاء ملوك أهل الجنة فأنزل الله تعالى عل رسوله هذه الآية ليثبت بها فؤاده، ويصبره على أذاهم فقال: :{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}"(٢).

وقال مقاتل:" وذلك أن مكذبي الأمم الخالية، أخبرتهم رسلهم بالعذاب فكذبوهم، بأن العذاب ليس بنازل بهم. فلما كذب كفار مكة النبي- صلى الله عليه وسلم- بالعذاب حين أوعدهم استهزءوا منه، فأنزل الله يعزي نبيه- صلى الله عليه وسلم- ليصبر على تكذيبهم إياه بالعذاب فقال: :{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ}"(٣).

قوله تعالى:{وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام : ١٠]، أي:" والله لقد استهزأ الكافرون من الأمم بأنبيائهم الذين بعثوا إليهم"(٤).

قال السمرقندي:أي:" في أمر العذاب"(٥).

قال الطبري:أي:" هَوِّنْ عليك، يا محمد، ما أنت لاقٍ من هؤلاء المستهزئين بك، المستخفِّين بحقك فيّ وفي طاعتي، وامض لما أمرتك به من الدُّعاء إلى توحيدي والإقرار بي والإذعان لطاعتي، فإنهم إن تمادوا في غيِّهم، وأصَرُّوا على المقام على كفرهم، نسلك بهم سبيلَ أسلافهم من سائر الأمم من غيرهم، من تعجيل النقمةلهم، وحلول المَثُلاتِ بهم. فقد استهزأت أمم من قبلك برسلٍ أرسلتهم إليهم بمثل الذي أرسلتك به إلى قومك، وفعلوا مثل ما فعل قومُك بك"(٦).

قوله تعالى:{فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ} [الأنعام : ١٠]، أي:"فأحاط ونزل بهؤلاء المستهزئين بالرسل عاقبة استهزائهم"(٧).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٣٧):ص١٢٦٧/٤.
(٢) بحر العلوم:٤٣٦/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥١/١.
(٤) صفوة التفاسير:٣٥٢/١.[بتصرف]
(٥) بحر العلوم:٤٣٦/١.
(٦) تفسير الطبري:٢٧١/١١-٢٧٢.
(٧)صفوة التفاسير:٣٥٢/١.

قال السدي:" يقول: وقع بهم العذاب الذي استهزءوا به"[١].
قال ابن ابي زمنين:" يعني: نزل بهم عقوبة استهزائهم"[٢].
قال البغوي:" أي: جزاء استهزائهم من العذاب والنقمة"[٣].
قال مقاتل:" يعني: فدار بالذين سخروا من الرسل ما كانوا بالعذاب يستهزؤنبأنه غير نازل بهم"[٤].
قال الطبري:أي:" فنزل وأحاط بالذين هزئوا من رسلهم العذابُ الذي كانوا يهزءون به، وينكرون أن يكون واقعًا بهم على ما أنذرتهم رسلهم"[٥].
قال ابن كثير:" هذا تسلية لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم في تكذيب من كذبه من قومه ، ووعد له وللمؤمنين به بالنصرة والعاقبة الحسنة في الدنيا والآخرة"[٦].
قال الواحدي:" قال المفسرون: هذه الآية تعزية للنبي - صلى الله عليه وسلم - وتسلية له عما يرى من تكذيب المشركين إياه واستهزائهم به؛ إذ جعل إسوته في ذلك بالأنبياء الذين كانوا قبله، وتحذير المشركين الذين فعلوا بنبيهم ما فعل من قبلهم من مكذبي الرسل فحل بهم العذاب"[٧].
قال الربيع بن أنس:"{ فَحَاقَ}: ترك"[٨]. ونقل عنه الواحدي والبغوي، أنه قال:"نزل"[٩].
وقال عطاء: "أحل"[١٠].
قال الضحاك: "{فَحَاقَ}: أي: أحاط"[١١].
قال الثعلبي:" وقيل: وجب"[١٢].
والأقوال متقاربة، وأكثرهم على أنه بمعنى نزل وأحاط بهم العذاب، قال الرازي:"في تفسيره وجوه كثيرة وهي بأسرها متقاربة"[١٣].
قال الزجاج:"«الحيق» في اللغة ما يشتمل على الإنسان من مكروه فعله، ومنه قوله عز وجل: {وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ} [فاطر : ٤٣]، أي: لا ترجع عاقبةمكروهه إلا عليهم"[١٤].
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة: توكيد الجملة بأنواع المؤكّدات.
فإذا قال قائل: و خبر الله تعالى صدق، سواء اقترن بالقسم وأدوات التوكيد أم لا، وأما الغرض من التوكيد فمن وجيهن:
أحدهما: أن القرآن الكريم جاء باللسان العربي، واللسان العربي يحسُن فيه التأكيد إذا اقتضت الحال ذلك، وإلا فمن المعلوم أن الله إذا أخبر بخبر وإن لم يؤكّد فهو حق وصدق كما نشاهد الشمس

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٠٩٤):ص٢٧٢/١١.
(٢) تفسير ابن ابي زمنين:٦٠/٢.
(٣) تفسير البغوي:١٣٠/٣.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥١/١.
(٥) تفسير الطبري:٢٧٢/١١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(٧) التفسير البسيط:٢٩/٨.
(٨) الكشف والبيان:١٣٦/٤.
(٩) التفسير البسيط:٣٠/٨، وتفسير البغوي:١٣٠/٣.
(١٠)الكشف والبيان:١٣٦/٤. وتفسير البغوي:١٣٠/٣، وعزاه الواحدي لابن عباس، انظر: التفسير البسيط:٣٠/٨.
(١١) ذكره عنه الواحدي في التفسير البسيط:٣١/٨، والبغوي في تفسيره:١٣٠/٣.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(١٣) مفاتيح الغيب:٣١/٨.
(١٤) معاني القرآن:٢٣١/٢.

ثانيًا: تأكيد الله له بالقسم يدل على أهميته، وأنه من الأمور التي لا بد أن يقبلها الإنسان ويصدِّق بها، واضح؟ثالثًا: أنه قد يراد به دفع إنكار من أنكر مدلول الخبر، ككون الله عز وجل يؤكِّد قيام الساعة بالمؤكِّدات الكثيرة لرد إنكار المكذِّبين.

٢- ومنها: أنه ليس بغريب أن يستهزئ المشركون بالنبي ﷺ؛ لأن هذا قد سبق من الأمم السابقة، استهزاء المكذِّبين للرسول بأي شيء؟ بأمور متعددة: (لَوْلَا نُزِّلَ هَذَا الْقُرْآنُ عَلَى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ) [الزخرف ٣١]، كأنهم يقولون: محمد لا يستحق هذا، وكما في قولهم: (أَهَذَا الَّذِي يَذْكُرُ آلِهَتَكُمْ) [الأنبياء ٣٦]، والاستفهام هنا للتحقير، يعني: من هذا الرجل الذي يذكر آلهتكم بالسوء! ليس بشيء، وليس له قيمة، ومنها وصفهم إياه بأنه مجنون مخرِّف، وما أشبه ذلك.

٣- ومنها: عناية الله تبارك وتعالى بنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، حيث ينزل عليه من القرآن ما يسلِّيه به، وجهه؟ أن ذكر هذا -أعني استهزاء الأمم السابقة برسلها- تسلية لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن كونه يعلم بأن الأمم السابقة كذَّبت رسلها يهون عليه الأمر، أليس كذلك؟ وهذا واضح، فإن الإنسان يتسلَّى بالمصائب إذا أصابت غيره، وتهون عليه مصيبته، وقد أشار الله إلى هذا في قوله: (وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ) [الزخرف ٣٩]، مع أنه لو كان في الدنياواشترك الناس في العذاب لهان عليهم ونفعهم، وحملهم على الصبر، لكن في القيامة لا ينفع.

٤- ومنها: تهديد المكذِّبين للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يؤخذ من قوله تعالى: (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، يعني: فاحذروا أيها المكذِّبون لمحمد صلى الله عليه وعلى آله وسلم المستهزئون به.

٥- ومنها: أن السخرية والاستهزاء بالرسل موجِب للعقاب؛ لقوله: (فَحَاقَ بِالَّذِينَ سَخِرُوا مِنْهُمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ).

٦- ومنها: أن المعاصي سبب للعقوبة؛ لقوله: (مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ)، وأن العقوبة بقدر العمل، ولذلك عُبِّرَ به عنها، وهذا من عدل الله عز وجل؛ أن العقوبة بقدر العمل، أما المثوبة فالحسنة بعشر أمثالها، إلى سبع مئة ضعف، إلى أضعاف كثيرة.

القرآن

{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (١١)} [الأنعام : ١١]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: سيروا في الأرض ثم انظروا كيف أعقب الله المكذبين الهلاك والخزي؟ فاحذروا مثل مصارعهم، وخافوا أن يحلَّ بكم مثل الذي حل بهم.

قوله تعالى:{قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِثُمَّ انْظُرُوا} [الأنعام : ١١]، أي: " قل يا محمد لهؤلاء المستهزئين الساخرين: سافروا في الأرض فانظروا وتأملوا"[١].

قال الطبري:" يقول : جولوا في بلاد المكذِّبين رسلَهم ، الجاحدين آياتي مِنْ قبلهم من ضُرَبائهم وأشكالهم من الناس، ثم انظروا"[٢].

قال الواحدي:أي:" سافروا في الأرض، فاعتبروا"[٣].

قال السمعاني:" يحتمل هذا السير بالفكرة والعقول، ويحتمل السير بالأقدام"[٤].

قال البغوي:أي:" معتبرين، يحتمل هذا: السير بالعقول والفكر، ويحتمل السير بالأقدام"[٥].

---

(١) صفوة التفاسير:٣٥٢/١.
(٢) تفسير الطبري:٢٧٢/١١.
(٣) الوجيز:٣٤٦.
(٤) تفسير السمعاني:٩٠/٢.
(٥) تفسير البغوي:١٢٠/٣.

قال ابن كثير:" أي : فكروا في أنفسكم ، وانظروا"[١].
قال الزمخشري:" فإن قلت: أى فرق بين قوله:«فانظروا»، وبين قوله:«ثم انظروا»؟
قلت: جعل النظر مسببا عن السير في قوله :«فانظروا»، فكأنه قيل: سيروا لأجل النظر، ولا تسيروا سير الغافلين.
وأما قوله :{سيروا في الأرض ثم انظروا}، فمعناه: إباحة السير في الأرض للتجارة وغيرها من المنافع وإيجاب النظر في آثار الهالكين. ونبه على ذلك بثم، لتباعد ما بين الواجب والمباح"[٢].
قوله تعالى:{كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ} [الأنعام : ١١]، أي:" كيف أعقب الله المكذبين الهلاك والخزي؟ فاحذروا مثل مصارعهم، وخافوا أن يحلَّ بكم مثل الذي حل بهم"[٣].
قال الطبري:أي:" كيف أعقَبَهم تكذيبهم ذلك ، الهلاكَ والعطبَ وخزيَ الدنيا وعارَها ، وما حَلَّ بهم من سَخَط الله عليهم ، من البوار وخرابالديار وعفوِّ الآثار. فاعتبروا به ، إن لم تنهكم حُلُومكم ، ولم تزجركم حُجج الله عليكم ، عمَّا أنتم عليه مقيمون من التكذيب ، فاحذروا مثل مصارعهم ، واتقوا أن يحلّ بكم مثلُ الذي حلّ بهم"[٤].
قال الواحدي:{ الْمُكَذِّبِينَ}، أي:" مُكذِّبي الرُّسل، يعني: إذا سافروا رأوا آثار الأمم الخالية المهلكة يحذِّرهم مثلَ ما وقع بهم"[٥].
قال السمعاني:" عني: ممن سبق من الأمم"[٦].
قال البغوي:أي:" أي: آخر أمرهم وكيف أورثهم الكفر والتكذيب الهلاك، فحذر كفار مكة عذاب الأمم الخالية"[٧].
قال ابن كثير:" ما أحل الله بالقرون الماضية الذين كذبوا رسله وعاندوهم ، من العذاب والنكال ، والعقوبة في الدنيا ، مع ما ادَّخَر لهم من العذاب الأليم في الآخرة ، وكيف نَجَّى رسله وعباده المؤمنون "[٨].
قال ابن أبي زمنين:" كان عاقبتهم أن دمر الله عليهم، ثم صيرهم إلى النار"[٩].
قال قتادة:" بئس والله ما كان عاقبة المكذبين، دمر الله عليهم وأهلكهم ثم صيرهم إلى النار"[١٠].
قال ابن عطية:"{قل سيروا} الآية، حض على الاعتبار بآثار من مضى ممن فعل فعلهم، وقال كان ولم يقل كانت لأن تأنيث العاقبة ليس بحقيقي، وهي بمعنى الآخر والمآل، ومعنى الآية :سيروا وتلقوا ممن سار لأن العبرة بآثار من مضى إنما يستند إلى حس العين"[١١].
الفوائد:

١- من فوائد الآية: الأمر بالسير في الأرض للاعتبار، سواء كان بالبصائر أو بالأبصار؛ لقوله: (سِيرُوا فِي الْأَرْضِ)، ويتفرع على هذه الفائدة: أنه ينبغي أن نقرأ تاريخ الأمم السابقة، من أي مصدر؟ من القرآن وصحيح السنة، قيِّد؛ لأن من الأحاديث الضعيفة أو الموضوعة عن الأمم السابقة ما لا يحصيه إلا الله عز وجل، والعبرة بالصحيح، وما أكثر الأحاديث التي فيها الأخبار عن الأمم السابقة.

---

(١) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٢.
(٢) الكشاف:٢/٨.
(٣) التفسيرالميسر:١٢٩.
(٤) تفسير الطبري:١١/٢٧٢-٢٧٣.
(٥) الوجيز:٣٤٦.
(٦) تفسير السمعاني:٢/٩٠.
(٧) تفسير البغوي:٣/١٢٠.
(٨) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٢.
(٩) تفسير ابن ابي زمنين:٢/٦١.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٤٠):ص٤/١٢٦٨.
(١١) المحرر الوجيز:٢/٢٧١.

٢- ومنها: فضل الاعتبار، وأنه أمر مطلوب؛ لقوله: (انْظُرُوا)، وسواء كان الاعتبار بمن انتقم الله منهم، أو بمن أثابهم؛ إن كان بمن انتقم الله منهم فالإنسان يحذر، وإن كان ممن أثابهم فالإنسان يرغب، وفي هذه الآية أيّ الاعتبارين؟ بمن انتقم الله منهم.
٣- ومنها: أن الآثار تدل على المؤثِّر، وهذا أمر معلوم بالحس والواقع، سُئِلَ أعرابي: بما عرفت ربك؟ قال: الأثر يدل على المسير -يعنى على السير- والبعرة تدل على البعير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فِجَاج، وبحار ذات أمواج، ألا تدل على السميع البصير؟ الجواب: بلى والله تدل على السميع البصير، فالآثار تدل على المؤثِّر.
٤- ومنها: عقوبة المكذِّب، والتكذيب أحد شِقَّي ما يحصل به الكفر؛ لأن الكفر يحصل بأمرين: إما التكذيب، وإما الاستكبار، مع أن التكذيب فرع عن الاستكبار؛ لأنه ما كَذَّب إلا أنه يرى أنه فوق المرسَل.

القرآن

{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢)} [الأنعام : ١٢]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: لمن مُلكُ السموات والأرض وما فيهن؟ قل: هو لله كما تقرون بذلك وتعلمونه، فاعبدوه وحده. كتب الله على نفسه الرحمة فلا يعجل على عباده بالعقوبة. ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه للحساب والجزاء. الذين أشركوا بالله أهلكوا أنفسهم، فهم لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعده ووعيده، ولا يقرون بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى:{قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام : ١٢]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: لمن مُلكُ السموات والأرض وما فيهن؟"[١].

قال الزمخشري:"{لمن ما في السماوات والأرض}، سؤال تبكيت"[٢].

قال السعدي:" أي: من الخالق لذلك، المالك له، المتصرف فيه؟"[٣].

قال الطبري:أي:"قل يا محمد ، لهؤلاء العادلين بربهم: لمن ملك ما في السماوات والأرض ؟"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ لِلَّهِ} [الأنعام : ١٢]، أي:" قل: هو لله كما تقرون بذلك وتعلمونه، فاعبدوه وحده"[٥].

قال الزمخشري:"{قل لله} تقرير لهم، أى هو- الله- لا خلاف بيني وبينكم، ولا تقدرون أن تضيفوا شيئا منه إلى غيره"[٦].

قال الواحدي:" فإن أجابوك وإلاَّ {قل لله}"[٧].

قال السعدي:" {قل} لهم: {لله} وهم مقرون بذلك لا ينكرونه، أفلا حين اعترفوا بانفراد الله بالملك والتدبير، أن يعترفوا له بالإخلاص والتوحيد؟"[٨].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) الكشاف:٨/٢.
(٣) تفسير السعدي:٢٥١.
(٤) تفسير الطبري:٢٧٣/١١.
(٥) التفسير الميسر:١٢٩.
(٦) الكشاف:٨/٢.
(٧) الوجيز:٣٤٦.
(٨) تفسير السعدي:٢٥١.

قال الطبري:أي:" ثم أخبرهم أن ذلك لله الذي استعبدَ كل شيء ، وقهر كل شيء بملكه وسلطانه لا للأوثان والأنداد ، ولا لما يعبدونه ويتخذونه إلهًا من الأصنام التي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا تدفع عنها ضُرًّا"[١].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه مالك السموات والأرض ومن فيهن"[٢].

قال البغوي:" أمره بالجواب عقيب السؤال ليكون أبلغ في التأثير وآكد في الحجة"[٣].

وفي قوله تعالى:{قُلْ لِلَّهِ} [الأنعام : ١٢]، وجهان[٤]:

أحدهما: قال بعض أهل التأويل: في الكلام حذف تقديره: قل لمن ما في السماوات والأرض؟ فإذا تحيروا ولم يجيبوا، قل لله.

والثاني: وقالت فرقة: المعنى أنه أمر بهذا السؤال فكأنهم لما لم يجيبوا ولا تيقنوا سألوا فقيل له: قل لله.

قال ابن عطية:"والصحيح أن الله عز وجل أمر محمدا عليه السلام بقطعهم بهذه الحجة الساطعة والبرهان القطعي الذي لا مدافعة فيه عندهم ولا عند أحد، ليعتقد هذا المعتقد الذي بينه وبينهم ثم يتركب احتجاجه عليه، وجاء ذلك بلفظ استفهام وتقرير في قوله: لمن ما في السماوات والأرض والوجه في المحاجة إذا سأل الإنسان خصمه، بأمر لا يدافعه الخصم فيه، أن يسبقه بعد التقرير إليه مبادرة إلى الحجة، كما تقول لمن تريد غلبته بآية تحتج بها عليه، كيف قال الله في كذا؟ ثم تسبقه أنت إلى الآية فتنتصها عليه، فكأن النبي صلى الله عليه وسلم قال لهم: يا أيها الكافرون العادلون بربهم لمن ما في السماوات والأرض؟ ثم سبقهم فقال: لله، أي لا مدافعة في هذا عندكم ولا عند أحد"[٥].

قوله تعالى:{كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام : ١٢]، أي:" كتب الله على نفسه الرحمة فلا يعجل على عباده بالعقوبة"[٦].

قال ابن قتيبة:" أي: أوجبها على نفسه لخلقه"[٧].

قال الواحدي:أي:" أوجب على نفسه الرَّحمة وهذا تلطُّفٌ في الاستدعاء إلى الإنابة"[٨].

قال الزمخشري:" أى: أوجبها على ذاته في هدايتكم إلى معرفته، ونصب الأدلة لكم على توحيده بما أنتم مقرونبه من خلق السموات والأرض"[٩].

قال الطبري:" يقول : قضى أنَّه بعباده رحيم ، لا يعجل عليهم بالعقوبة ، ويقبل منهم الإنابة والتوبة. وهذا من الله تعالى ذكره استعطاف للمعرضين عنه إلى الإقبال إليه بالتوبة، يقول تعالى ذكره : أن هؤلاء العادلين بي ، الجاحدين نبوّتك ، يا محمد ، إن تابوا وأنابوا قبلت توبتهم ، وإني قد قضيت في خَلْقي أنّ رحمتي وسعت كل شيء"[١٠].

قال السعدي:" أي: العالم العلوي والسفلي تحت ملكه وتدبيره، وهو تعالى قد بسط عليهم رحمته وإحسانه، وتغمدهم برحمته وامتنانه، وكتب على نفسه كتابا أن رحمته تغلب غضبه، وأن العطاء أحب إليه من المنع، وأن الله قد فتح لجميع العباد أبواب الرحمة، إن لم يغلقوا عليهم أبوابها بذنوبهم، ودعاهم إليها، إن لم تمنعهم من طلبها معاصيهم وعيوبهم"[١١].

---

(١) تفسير الطبري:٢٧٣/١١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(٣) تفسير البغوي:١٣٠/٣.
(٤) انظر: المحرر الوجيز:٢٧١/٢.
(٥) المحرر الوجيز:٢٧١/٢.
(٦) التفسير الميسر:١٢٩.
(٧) غريب القرآن:١٥١.
(٨) الوجيز:٣٤٦.
(٩) الكشاف:٨/٢-٩.
(١٠) تفسير الطبري:٢٧٣/١١-٢٧٤.
(١١) تفسير السعدي:٢٥٢.

قال ابن عطية:"{ كتب على نفسه الرحمة}، معناه: قضاها وأنفذها. وفي هذا المعنى أحاديث عن النبي عليه السلام تتضمن كتب الرحمة، ومعلوم من غير ما موضع من الشريعة أن ذلك للمؤمنين في الآخرة ولجميع الناس في الدنيا، منها أن الله تعالى خلق مائة رحمة فوضع منها واحدة في الأرض فيها تتعاطف البهائم وترفع الفرس رجلها لئلا تطأ ولدها. وبها تتعاطف الطير والحيتان، وعنده تسع وتسعون رحمة، فإذا كان يوم القيامة صير تلك الرحمة مع التسعة والتسعين وبثها في عباده، فما أشقى من لم تسعه هذه الرحمات تغمدنا الله بفضل منه... ويتضمن هذا الإخبار عن الله تعالى بأنه كتب الرحمة تأنيس الكفار ونفي يأسهم من رحمة الله إذا تابوا، وأن باب توبتهم مفتوح"(١).

قال الزجاج:" الله عز وجل تفضل على العباد بأن أمهلهم عند كفرهم وإقدامهم علىكبائر ما نهاهم عنه بأن أنظرهم وعمرهم وفسح لهم ليتوبوا، فذلك كتبه الرحمةعلى نفسه"(٢).

عن أبي هريرة ، رضي الله عنه ، قال : قال النبي - صلى الله عليه وسلم- "إن الله لما خَلَقَ الخَلْق كتب كتابًا عنده فوق العرش ، إن رحمتي تَغْلِبُ غَضَبي" (٣).

قال البغوي:" هذا استعطاف منه تعالى للمؤمنين عنه إلى الإقبال عليه وإخباره بأنه رحيم بالعباد لا يعجل بالعقوبة، ويقبل الإنابة والتوبة"(٤).

قال سلمان:" إنّ الله تعالى ذكره لما خلق السماء والأرض ، خلق مئة رحمةٍ ، كل رحمة ملء ما بين السماء إلى الأرض. فعنده تسع وتسعون رحمة ، وقسم رحمة بين الخلائق. فبها يتعاطفون ، وبها تشرب الوَحْش والطير الماءَ. فإذا كان يوم ذلك، قصرها الله على المتقين ، وزادهم تسعًا وتسعين"(٥).

قال طاوس:" إن الله تعالى ذكره لما خلق الخلق ، لم يعطف شيء على شيء ، حتى خلق مئة رحمة ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، فعطف بعضُ الخلق على بعض"(٦).

قال معمر: وأخبرني الحكم بن أبان ، عن عكرمة ، حسبته أسنده قال : "إذا فرغ الله عز وجلّ من القضاء بين خلقه ، أخرج كتابًا من تحت العرش فيه : «إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين»، قال : فيخرج من النار مثل أهل الجنة أو قال : «مِثلا أهل الجنة»، ولا أعلمه إلا قال : «مثلا»، وأما «مثل »فلا أشك مكتوبًا ها هنا ، وأشار الحكم إلى نحره ، «عتقاء الله»، فقال رجل لعكرمة : يا أبا عبد الله ، فإن الله يقول : {يُرِيدُونَ أَنْ يَخْرُجُوا مِنَ النَّارِ وَمَا هُمْ بِخَارِجِينَ مِنْهَا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ} [سورة المائدة : ٣٧] ؟ قال : ويلك ! أولئك أهلها الذين هم أهلها"(٧).

قال عبد الله بن عمرو : "إن لله مئة رحمة ، أهبط منها إلى الأرض رحمة واحدة ، يتراحم بها الجنّ والإنس ، والطير والبهائم وهوامُّ الأرض"(٨).

عن أبي المخارق زهير بن سالم: قال عمر لكعب : "ما أوَّل شيء ابتدأه الله من خلقه ؟ فقال كعب : كتب الله كتابًا لم يكتبه بقلم ولا مداد ، ولكنه كتب بأصبعه يتلوها الزبرجد واللؤلؤ والياقوت « أنا الله لا إله إلا أنا ، سبقت رحمتي غضبي»"(٩).

---

(١) المحرر الوجيز:٢/٢٧١-٢٧٢.
(٢) معاني القرآن:٢/٢٣١-٢٣٢.
(٣)صحيح البخاري برقم (٧٤٠٤) ورواه مسلم في صحيحه برقم (٢٧٥١) من طريق أبي الزناد ، عن الأعرج ، عن أبى هريرة. بنحوه.
(٤) تفسير البغوي:٣/١٣٠.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٠٩٧):ص١١/٢٧٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٣١٠١):ص١١/٢٧٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٣١٠٣):ص١١/٢٧٦.
(٨) أخرجه الطبري(١٣١٠٧):ص١١/٢٧٧.
(٩) أخرجه الطبري(١٣١٠٨):ص١١/٢٧٧.

قوله تعالى:{لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ} [الأنعام : ١٢]، أي:" ليجمعنكم إلى يوم القيامة الذي لا شك فيه للحساب والجزاء"(١).

قال الواحدي:" أيْ: ليضمنَّكم إلى هذا اليوم الذي أنكرتموه وليجمعنَّ بينكم وبينه"(٢).

قال الطبري:أي:" ليجمعنكم الله ، أيها العادلون بالله ، ليوم القيامة الذي لا ريب فيه ، لينتقم منكم بكفركم به"(٣).

قال ابن كثير:" هذه اللام هي الموطئة للقسم ، فأقسم بنفسه الكريمة ليجمعن عباده لميقات يوم معلوم وهو يوم القيامةالذي لا ريب فيه ولا شك فيه عند عبادهالمؤمنين ، فأما الجاحدون المكذبون فهم في ريبهم يترددون"(٤).

قال الزجاج:" فأما{ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، فهو احتجاج على المشركينالذين دفعوا البعث، فقال عز وجل: {ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، أي: إلى اليوم الذي أنكرتموه، كما تقول قد جمعت هؤلاء إلى هؤلاء، أي ضممت بينهم في الجمع"(٥).

قال البغوي:" {إلى يوم القيامة} أي: في يوم القيامة، وقيل: معناه ليجمعنكم في قبوركم إلى يوم القيامة"(٦).

قال الزمخشري:" ثم أوعدهم على إغفالهم النظر وإشراكهم به من لا يقدر على خلق شيء بقوله:{ليجمعنكم إلى يوم القيامة}، فيجازيكم على إشراككم"(٧).

قال السعدي:" وقوله {ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه} وهذا قسم منه، وهو أصدق المخبرين، وقد أقام على ذلك من الحجج والبراهين، ما يجعله حق اليقين"(٨).

قال أبو الدرداء:" الريب: يعني: الشك"(٩).

قال ابن أبي حاتم:" وروي عن ابن عباس، وسعيد بن جبير، وأبي مالك، ونافع مولى، بن عمر، وعطاء بن أبي رباح، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقتادة، ومقاتل بن حيان، والسدي، وإسماعيل بن أبي خالد قالوا: الريب: الشك"(١٠).

أخرج ابن مردويه -عند تفسير هذه الآية -عن ابن عباس، قال: "سُئِلَ رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الوقوف بين يدي رب العالمين ، هل فيه ماء ؟ قال : «والذي نَفْسِي بيَدِه ، إن فيه لماءً ، إن أولياء الله ليردون حِياضَ الأنبياء ، ويَبْعَثُ الله تعالى سبعين ألف مَلَكٍ في أيديهم عِصِيّ من نار ، يَذُودون الكفار عن حياض الأنبياء»"(١١).

وفي الترمذي : "إن لكل نبي حَوْضًا ، وإنهم يتباهون أيهم أكثر واردة ، وأرجو أن أكون أكثرهم واردة"(١٢).

قال ابن كثير:" هذا حديث غريب"(١٣).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) الوجيز:٣٤٦.
(٣) تفسير الطبري:٢٧٩/١١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣-٢٤٣.
(٥) معاني القرآن:٢٣٢/٢.
(٦) تفسير البغوي:١٣١/٣.
(٧) الكشاف:٩/٢.
(٨) تفسير السعدي:٢٥٢.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٤٤):ص١٢٦٩/٤.
(١٠) تفسير ابن ابي حاتم(٧١٤٥):ص١٢٦٩/٤.
(١١) انظر: تفسير ابن كثير:٢٤٣/٣.
(١٢)) سنن الترمذي برقم (٢٤٤٣) من طريق سعيد بن بشير ، عن قتادة ، عن الحسن ، عن سمرة بن جندب ، رضي الله عنه ، مرفوعا. وقال الترمذي : "هذا حديث غريب". قلت : في إسناده سعيد بن بشير وهو ضعيف.
(١٣)تفسير ابن كثير:٢٤٣/٣.

قوله تعالى:{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام : ١٢]، أي:" الذين أشركوا بالله أهلكوا أنفسهم، فهم لا يوحدون الله، ولا يصدقون بوعده ووعيده، ولا يقرون بنبوة محمد-صلى الله عليه وسلم-"(١).

قال الطبري:" يقول : الذين أهلكوا أنفسهم وغبنوها بادعائهم لله النِدَّ والعَدِيل ، فأوبقوها بإستيجابهم سَخَط الله وأليم عقابه في المعاد"(٢).

قال ابن كثير:{ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}" أي: يوم القيامة، { هُمْ لا يُؤْمِنُونَ }، أي: لا يصدقون بالمعاد ، ولا يخافون شر ذلك اليوم"(٣).

قال البغوي:" { خسروا}: غبنوا"(٤).

قال الواحدي:{ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}، أيْ:" أهلكوها بالشِّرك"(٥).

قال الزمخشري:" قوله:لاَالذين خسروا أنفسهم}، نصب على الذم، أو رفع، أى: أريد الذين خسروا أنفسهم، أو أنتم الذين خسروا أنفسهم. فإن قلت: كيف جعل عدم إيمانهم مسببا عن خسرانهم، والأمر على العكس؟ قلت:معناه: الذين خسروا أنفسهم في علم الله: لاختيارهم الكفر. فهم لا يؤمنون"(٦).

قال السعدي:أي:" ولكن أبى الظالمون إلا جحودا، وأنكروا قدرة الله على بعث الخلائق، فأوضعوا في معاصيه، وتجرءوا على الكفر به، فخسروا دنياهم وأخراهم، ولهذا قال: {الذين خسروا أنفسهم فهم لا يؤمنون}"(٧).

وأصل:«الخسار»، الغُبْنُ. يقال منه: خسر الرجل في البيع ، إذا غبن(٨)، كما قال الأعشى(٩):

لا يَأْخُذُ الرِّشْوَةَ فِي حُكْمِهِ وَلا يُبَالِي خَسَرَ الخَاسِرِ

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن جميع من في السماوات والأرض لله عز وجل، الدليل: (قُلْ لِمَنْ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلْ لِلَّهِ).

٢- ومنها: إثبات السماوات والأرض، وهذا متكرر كثيرًا علينا، وتعلمون أن السماوات سبع والأرضين سبع.

٣- ومنها: أننا متى آمنا بهذا، وأن مَن في السماوات والأرض لله، فإننا لن نلجأ إلا لله، ولن نخاف إلا من الله عز وجل؛ لأنه مالك من في السماوات والأرض، وليتنا نتوكل على الله حق توكله، لو توكلنا على الله حق توكله لكان الأمر كما قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «لرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ، تَغْدُو خِمَاصًا وَتَرُوحُ بِطَانًا»(١٠)، «تَغْدُو خِمَاصًا» أي: تطير في أول النهار وهي جائعة، وترجع في آخر النهار وهي ممتلئة البطون، سبحان الله!وهذا شيء مشاهَد، تجد الطيور في أول الصباح تطير في الجو، وقد أعطاها الله تعالى قوة النظر -من رحمة الله عز وجل- تنظر للحَبِّ وهي في جو السماء، فتنزل عليه، وتنظر للحبة الصغيرة التي لا يدركها الإنسان إلا بمشقة، وهي

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٠/١١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٣/١١.
(٤) تفسير البغوي:١٣١/٣.
(٥) الوجيز:٣٤٦.
(٦) الكشاف:٩/٢.
(٧) تفسير السعدي:٢٥٢.
(٨) انظر:مجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٨٧،و تفسير الطبري: ٢٨٠/١١.
(٩)) ديوانه : ١٠٥ ، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١ / ١٨٧،و تفسير الطبري: ٢٨٠/١١.
(١٠)أخرجه الترمذي (٢٣٤٤)، وابن ماجه (٤١٦٤) من حديث عمر بن الخطاب.

تنظرها بسهولة، تجد أنها تأخذ الحبة الصغيرة جدًّا في وسط القطيفة المفروشة من بين الخمل اللي فيها، لكن الله عز وجل أعطاها قوة بصر حتى تعيش.

٤- ومنها: جواب إجابة السائل نفسه إذا كان الأمر واضحًا؛ لقوله: (قُلْ لِلَّهِ)، مع أنه أمره أن يسأل، ثم أمره أن يجيب، فإذا كان الأمر واضحًا لا نزاع فيه فأَجِب أنت؛ لأن المسؤول قد يمنعه من الإجابة استكباره وكبرياؤه، فأَجِب أنت إذا كان الأمر واضحًا لا نزاع فيه.

٥- ومنها: أن لله تعالى أن يكتب على نفسه ما شاء؛ لقوله: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ).

فإذا قال قائل: كيف يكون الشيء لازمًا على الله؟

فالجواب: أن الله ألزم نفسه به، وله أن يفعل ما شاء، نحن لا نلزم الله بشيء، لكن الله له أن يلزم نفسه بشيء، فكتابة الله على نفسه الرحمة لا تنافي كماله، بل هي من كماله عز وجل أن يفرض على نفسه الرحمة، لكن نحن ليس لنا على الله حق إلا ما أوجبه على نفسه، قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

مَا لِلْعِبَادِ عَلَيْهِ حَقٌّ وَاجِبٌ هُوَأَوْجَبَالْأَجْرَالْعَظِيمَ الشَّأن
إِنْ عُذِّبُوا فَبِعَدْلِهِ أَوْ نُعِّمُوا فَبِفَضْلِهِوَالْفَضْلُلِلْمَنَّان

٦- ومنها: أن الله يُعَبِّر عنه بالنفس؛ لقوله: (كَتَبَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ)، ولها نظائر، قال الله عز وجل: (وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ) [آل عمران ٢٨]، وقال عيسى عليه الصلاة والسلام: (تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ) [المائدة ١١٦].

٧- ومنها: إثبات البعث؛ لقوله: (لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ).

٨- ومن فوائدها: تأكيد الشيء بالقسم وغيره من المؤكّدات إذا دعت الحاجة إليه، وتدعو الحاجة في مواطن، منها:

- إذا كان المخاطَب منكِرًا، فهنا يجب -حسب البلاغة- أن يؤكَّد الكلام.
- ومنها: إذا كان الأمر بعيدًا يُسْتَغْرَب، فإنه يؤكَّد، لكن ليس كالأول، الأول يؤكَّد وجوبًا، وهذا يؤكَّداستحبابًا، يعني توكيده أحسن من عدمه، ونقول: استحسانًا، كلما دعت الحاجة إلى توكيد الكلام أكِّد، ولا يعد هذا تطويلًا ولا إخلالًا بالبلاغة.

٩- ومن الفوائد: حكمة الله عز وجل في جمع الأولين والآخرين حتى يكون هذا اليوم يومًا مشهودًا، كما قال عز وجل: (يَوْمٌ مَشْهُودٌ) [هود ١٠٣]: يشهده الأوَّلون والآخِرون، نحن نشهد هابيل وقابيل، ونشهد آخر واحد من هذه الأمة، كل العالم مشهود، بل كل شيء مشهود، الجن، البهائم، الوحوش، كل شيء، قال الله عز وجل: (وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ) فوق الأرض، (إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ) [الأنعام ٣٨]، كل شيء، لو تصور الإنسان هذا اليوم لرأى مشهدًا عظيمًا ما يستطيع أن يدركه الآن، لكن نفهم معناه ولا ندرك حقيقته، حقيقته أبلغ مما نتصوره، اللهم اجعله علينا يسيرًا.

١٠- ومنها: تسمية يوم البعث بيوم القيامة؛ للوجوه ثلاثة:

- الأول: قيام الناس من قبورهم لرب العالمين، وهذا القيام قيام عظيم يا إخواننا، كل العالم بصيحة واحدة يحضرون كلهم لا يتخلف أحد، وهذا قيام عظيم جدًّا جدًّا، حتى الذي أكلته السباع، أحرقته النار، أغرقه الماء، لا بد أن يخرج.
- الثاني:لأنه يُقام فيه العدل، يُقتَصُّ حتى للشاة الْجَلْحَاء من الشاة القَرْنَاء(١).
- الثالث: تُقَامُ فيه الأشهاد الذين يشهدون، هذه الأمة تشهد على الأمم السابقة، والرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم يكون شهيدًا على هذه الأمة.

١١- ومنها: أنه لا ريب في هذا اليوم شرعًا وعقلًا؛ شرعًا: لأن الله أخبر به، وأكّده، وضرب له الأمثال.وعقلًا: لأنه ليس من المعقول أن الله تعالى يوجِد هذه الخليقة، ويأمرها وينهاها، ويرسل إليها الرسل، وتُسْتَبَاح الأنفس، والأموال، والذرية، في القتال في سبيل

---

(١)أخرجه مسلم (٢٥٨٢ / ٦٠) من حديث أبي هريرة.

الله، ثم تكون النتيجة أن الأرض تبلعهم فقط، هذا ينافي الحكمة، فالعقل يوجِب أن يكون هناك بعث، حتى وإن لم يكن نصٌّ، فكيف والنصوص كثيرة كثيرة.ومن رحمة الله عز وجل -وله الحمد، والفضل، والمِنَّة- أنه يُكْثِر من إثبات يوم القيامة، ويضرب له الأمثال؛ لأن الإيمان باليوم الآخر هو الذي يحمل الإنسان حقيقةً على الإيمان؛ إذ لولا اعتقاد المؤمن أنه سيُبْعَث ويجازَى، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر، ما عمل أبدًا، ولصارت الأمة موطنًا للسلب والنهب والأخذ والعدوان.

١٢- ومنها: أن هؤلاء المكذِّبين خسروا أنفسهم، يعني كأن لم يوجَدوا على الأرض؛ لأنهم لم يستفيدوا من حياتهم، ولذلك لما لم يستفيدوا من حياة الدنيا لم يستفيدوا من حياة الآخرة، فكانوا مخلَّدين في نار جهنم، والعياذ بالله.

١٣- ومنها: أنه من الفصاحة أن يُذْكَر السبب بعد المُسَبَّب، إذا جعلنا جملة: (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) خبرًا، وجه ذلك أن سبب خسرانهم هو عدم الإيمان، فأُخِّر السبب وقُدِّم المسبَّب، هذا إذا جعلنا (فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ) خبرًا لقوله: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ)، أما إذا جعلناها جملة مستقلة فلا تتأتى هذه الفائدة؛ لأنها على الترتيب.

القرآن

{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣)} [الأنعام : ١٣]

التفسير:

ولله ملك كل شيء في السموات والأرض، سكن أو تحرك، خفي أو ظهر، الجميع عبيده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره، وهو السميع لأقوال عباده، الحليم بحركاتهم وسرائرهم.

سبب النزول:

نقل الواحدي عن الكلبي عن ابن عباس: "إن كفار مكة أتوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا: يا محمد إنا قد علمنا أنه إنما يحملك على ما تدعو إليه الحاجة، فنحن نجعل لك نصيبا في أموالنا حتى تكون أغنانا رجلا وترجع عما أنت عليه، فنزلت هذه الآية"(١). [ضعيف]

قوله تعالى:{وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ} [الأنعام : ١٣]، أي:" ولله ملك كل شيء في السموات والأرض، سكن أو تحرك، خفي أو ظهر، الجميع عبيده وخلقه، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره"(٢).

قال السدي:" يقول: ما استقر في الليل والنهار"(٣).

قال الطبري:" يقول : وله ملك كل شيء ، لأنه لا شيء من خلق الله إلا وهو ساكنٌ في الليل والنهار"(٤).

قال السمرقندي:" ما استقر في الليل والنهار من الدواب والطير في البر والبحر، فمنها ما يستقر في الليل وينتشر بالنهار. ومنها ما يستقر بالنهار وينتشر الليل"(٥).

قال ابن كثير:" أي : كل دابة في السموات والأرض ، الجميع عباده وخلقه ، وتحت قهره وتصرفه وتدبيره ، ولا إله إلا هو"(٦).

قال البغوي:" أي: استقر، قيل: أراد ما سكن وما تحرك، كقوله:{سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرّ} [النحل : ٨١]، أي: الحر والبرد، وقيل: إنما خص السكون بالذكر لأن النعمة فيه أكثر، وقيل معناه: ما يمر عليه الليل والنهار"(٧).

---

(١) أسباب النزول:٢١٣-٢١٤. الكلبي هو ممن يضع الحديث، فالخبر لاشيء.
(٢) التفسير الميسر:١٢٩.
(٣) تفسير ابن ابي حاتم(٧١٤٦):ص١٢٦٩/٤.
(٤) تفسير الطبري:٢٨٢/١١.
(٥) بحر العلوم:٤٣٧/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٣/١١.
(٧) تفسير البغوي:١٣١/٣.

قال الزجاج:" هذا أيضا احتجاج على المشركين لأنهم لم ينكروا أن ما استقر فيالليل والنهار لله، أي هو خالقه ومدبره، فالذي هو كذلك قادر على إحياءالموتى"[١].

قال ابن عطية:" و{سكن}، هي من السكنى ونحوه، أي :ما ثبت وتقرر، قاله السدي[٢] وغيره وقالت فرقة: هو من السكون، وقال بعضهم: لأن الساكن من الأشياء أكثر من المتحرك إلى غير هذا من القول الذي هو تخليط، والمقصد في الآية عموم كل شيء وذلك لا يترتب إلا أن يكون سكن بمعنى استقر وثبت وإلا فالمتحرك من الأشياء المخلوقات أكثر من السواكن، ألا ترى إلى الفلك والشمس والقمر والنجوم السابحة والملائكة وأنواع الحيوان والليل والنهار حاصران للزمان"[٣].

قال السعدي:" ذكر الله فيها ما يتبين به الهدى، وينقمع به الشرك. فذكر أن {له} تعالى {ما سكن في الليل والنهار} وذلك هو المخلوقات كلها، من آدميها، وجنها، وملائكتها، وحيواناتها وجماداتها، فالكل خلق مدبرون، وعبيد مسخرون لربهم العظيم، القاهر المالك، فهل يصح في عقل ونقل، أن يعبد من هؤلاء المماليك، الذي لا نفع عنده ولا ضر؟ ويترك الإخلاص للخالق، المدبر المالك، الضار النافع؟! أم العقول السليمة، والفطر المستقيمة، تدعو إلى إخلاص العبادة، والحب، والخوف، والرجاء لله رب العالمين؟!"[٤].

قال الزمخشري:"{وله} عطف على «الله»، {ما سكن في الليل والنهار} من السكنى، وتعديه بـ{في} كما في قوله :{وَسَكَنْتُمْ فِي مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ} [إبراهيم : ٤٥]"[٥].

قوله تعالى:{وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} [الأنعام : ١٣]، أي:" وهو السميع لأقوال عباده، الحليم بحركاتهم وسرائرهم"[٦].

قال ابن كثير:" أي : السميع لأقوال عباده ، العليم بحركاتهم وضمائرهم وسرائرهم"[٧].

قال البغوي:أي:"{السميع} لأصواتهم، {العليم} بأسرارهم"[٨].

قال الزمخشري:" يسمع كل مسموع ويعلم كل معلوم، فلا يخفى عليه شيء مما يشتمل عليه الملوان"[٩].

قال ابن عطية:"{وهو السميع العليم}، هاتان صفتان تليقان بنمط الآية من قبل أن ما ذكر قبل من الأقوال الردية عن الكفرة العادلين هو سميع لهم عليم بمواقعها مجاز عليها، ففي الضمير وعيد"[١٠].

قال السعدي {السميع} لجميع الأصوات، على اختلاف اللغات، بتفنن الحاجات. {العليم} بما كان، وما يكون، وما لم يكن لو كان كيف كان يكون، المطلع على الظواهروالبواطن؟!"[١١].

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة العظيمة (وَلَهُ مَا سَكَنَ فِي اللَّيْلِ): اختصاص الله تبارك وتعالى بملك كل شيء، وجه الاختصاص؟ تقديم الخبر (وَلَهُ)؛ لأن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر؛ ولهذا قلنا: إن قوله تعالى: (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) [الفاتحة ٥] توحيد خالص، بمعنى: لا نعبد إلا إياك، وكذلك نقول في: (إِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) [الفاتحة ٥].

---

(١) معاني القرآن:٢/٢٣٢.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧١٤٦):ص٤/١٢٦٩.
(٣) المحرر الوجيز:٢/٢٧٢.
(٤) تفسير السعدي:٢٥٢.
(٥) الكشاف:٢/٩.
(٦) التفسير الميسر:١٢٩.
(٧) تفسير ابن كثير:١١/٢٤٣.
(٨) تفسير البغوي:٣/١٣١.
(٩) الكشاف:٢/٩.
(١٠) المحرر الوجيز:٢/٢٧٢.
(١١) تفسير السعدي:٢٥٢.

٢- ومنها: أن السكون والحركة بيد الله عز وجل؛ لأن مالك من يسكن ويتحرك مالك للحركة والسكون، فيكون في هذا دليل على أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى، وهذا هو مذهب السلف وأهل السنة، وهو وسط بين مذهبي الجبرية والقدرية.
٣- ومنها: إثبات هذين الاسمين: السميع والعليم، وإثبات ما تضمناه من صفة؛ صفة السمع في (السَّمِيعُ)، والعلم في (الْعَلِيمُ).
- فـ«السَّمِيعُ»: بمعنى السامع، إلا أنه أبلغ في الصفة، وبناء فعيل: بناء المبالغة، كقولهم: عليم: من عالم، وقدير: من قادر، وهو الذي يسمع السر والنجوى. سواء عنده الجهر، والخفوت، والنطق، والسكوت، وقد يكون السماع بمعنى القبول والإجابة.

كقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: "اللهم إني أعوذ بك من قول لا يسمع"[١]، أي: من دعاء لا يستجاب،

ومن هذا قول المصلي:"سمع الله لمن حمده"[٢]، معناه: قبل الله حمد من حمده.

وأنشد أبو زيد لشتير بن الحارث الضبي[٣]:

دعوت الله حتى خفت ألا يكون الله يسمع ما أقول

أي: لا يجيب، ولا يقبل[٤].

و{السَّمِيعُ} له معنيان:

أحدهما: بمعنى المجيب. ومثالهقوله تعالى عن إبراهيم: {إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ} [إبراهيم: ٣٩]، أي: لمجيب الدعاء.

والثاني: بمعنى السامع للصو، وهوينقسم إلى عدة أقسام:

الأول: سمع يراد به بيان عموم إدراك سمع الله عز وجل،وأنه ما من صوت إلا ويسمعه الله، وهو من الصفات الذاتية، وإن كان المسموع قد يكون حادثاً، ومثاله: قوله تعالى: {قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ} [المجادلة: ١]، فهذا فيه بيان إحاطة سمع الله تعالى بكل مسموع، ولهذا قالت عائشة رضي الله عنها: "الحمد لله الذي وسع سمعه الأصوات، والله إني لفي الحجرة، وإن حديثها ليخفى على بعضه"[٥].

---

(١) .هذا طرف حديث رواه ابن حبان في صحيحه برقم ٢٤٤٠ موارد، والنسائي ٨/ ٢٦٤،والإمام أحمد ٣/ ١٩٢، ٢٥٥، ٣٨٣، والخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢ من حديث أنس، وانظر: الكنز ٢/ ٢٠١.

(٢)أخرجه البخاري بشرح الفتح برقم ٦٩٠، ٧٢٢، ٧٣٢، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٣٨، ٧٣٩، ٧٨٨، ٧٩٥، ٧٩٦، ٧٩٧، ٧٩٩،وفيه: "ربنا ولك الحمد حمدا كثيرا طيبا مباركا فيه" وبرقم ٣٢٠٣، ٣٢٢٨، ٤٠٦٩، ٤٥٦٠، ٤٥٩٨.

ومسلم "صلاة" برقم (٢٥)، (٢٨)، (٥٤)، (٦٢)، (٦٣)، (٧١)، (٧٧)، (٨٦)، (٨٨)، (٨٩)، (١٩٦)، (١٩٨)، (١٩٩)، (٢٠٢)،وفيه: "اللهم ربنا لك الحمد، ملء السموات، وملء الأرض،وملء ماشئت من شيء بعده". وكذلك روايته برقم (٢٠٣) وكتاب صلاة المسافرين برقم (٢٠٢)، (٢٠٣)،والنسائي (افتتاح) ٢/ ١٩٥، ١٩٦، ١٩٧، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، ٢٠٢، ٢١١. وابن ماجه برقم ٨٦٢، ٨٧٥، ٨٧٦، ٨٧٧، ٨٧٨، ٨٧٩، ١٠٦١، ١٢٣٨، ١٢٣٩. وغيرهم.

(٣)أنشده الطبري في تفسيره، ٥/ ٦ - ٥٢٨،وابن الجوزي في زادالمسير ١/ ١٤٤،والقرطبي ٢/ ٣١،وفي الخزانة ٢/ ٣٦٣، مطلع قصيدة من سبعة أبيات في الشاهد السادس والستين بعد الثلاثمائة منسوباً إلى شمير بن الحارث الضبي. وقال: شمير، بضم الشين المعجمة وفتح الميم وآخره راء مهملة، هكذا ضبطه أبو زيد. وقال الأخفش -فيما كتبه عليه- الذي في حفظي سمير -بالسين المهملة وكذا ضبطه الصاغاني في العباب بالمهملة- وقال: هو شاعر جاهلي والله أعلم. اهـ وفي نوادر أبي زيد ص ١٢٤ مع ستة أبيات أخرى. وفي أمالي المرتضى ١/ ٦٠٣، وفي اللسان (سمع) ولم ينسبه. وأنشده الخطابي في غريب الحديث ١/ ٣٤٢، والزمخشري في الفائق ١/ ٦١٢ كما هنا، إلى شتير. وانظر تفسير أسماء الله الحسنى للزجاج ص ٤٢.

(٤) انظر: شأن الدعاء للخطابي:٥٩-٦٠.

(٥)رواه البخاري معلقاً "الفتح" (١٣١/ ٣٧٢) في كتاب التوحيد/ باب {وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعاً بَصِيراً}. وقد وصله الإمام أحمد في "المسند" (٦/ ٤٦)،وابن كثير ٤/ ٢٨٦ , وابن ماجة بهذا اللفظ, ورواه ايضاً بلفظ "تبارك" (٢٠٦٣).

الثاني: سمع يراد به النصر والتأييد، وهو من الصفات الفعلية، لأنه مقرون بسبب، ومثاله: قوله تعالى لموسى وهارون: {إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى} [طه: ٤٦].

الثالث: سمع يراد به الوعيد والتهديد، ومثاله: قوله تعالى: {أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ بَلَى وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ} [الزخرف: ٨٠]، فإن هذا يراد به تهديدهم ووعيدهم، حيث كانوا يسرون ما لا يرضى من القول[١].

- و«العليم»: من أسمائه -عزّ وجل-، والعِلمُصفةٌ ذاتيةٌ ثابتةٌ لله عَزَّ وجلَّ، ، فهو سبحانه «العليم»المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٢].

قال الخطابي:"«العليم»: هو العالم بالسرائر والخفيات التي لا يدركها علم الخلق. كقوله تعالى: {إنه عليم بذات الصدور} [لقمان:٢٣]. وجاء على بناء فعيل للمبالغة في وصفه بكمال العلم، ولذلك قال -سبحانه-: {وفوق كل ذي علم عليم} [يوسف:٧٦]. والآدميون -وإن كانوا يوصفون بالعلم- فإن ذلك ينصرف منهم إلى نوع من المعلومات، دون نوع، وقد يوجد ذلك منهم في حال دون حال، وقد تعترضهم الآفات فيخلف علمهم الجهل، ويعقب ذكرهم النسيان، وقد نجد الواحد منهم عالما بالفقه غير عالم بالنحو وعالما بهما غير عالم بالحساب وبالطب ونحوهما من الأمور، وعلم الله -سبحانه- علم حقيقة، وكمال {قد أحاط بكل شيء علما} [الطلاق:١٢]، {وأحصى كل شيء عددا} [الجن: ٢٨]"[٣].

القرآن

{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٤)} [الأنعام : ١٤]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين مع الله تعالى غيره: أغير الله تعالى أتخذ وليًّا ونصيرًا، وهو خالق السموات والأرض وما فيهن، وهو الذي يرزق خلقه ولا يرزقه أحد؟ قل -أيها الرسول-: إني أُمِرْتُ أن أكون أول مَن خضع وانقاد له بالعبودية من هذه الأمة، ونهيت أن أكون من المشركين معه غيره.

سبب النزول:

قال البغوي:" وهذا حين دعا إلى دين آبائه، فقال تعالى: قل يامحمد {أغير الله أتخذ وليا}"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا} [الأنعام : ١٤]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين مع الله تعالى غيره: أغير الله تعالى أتخذ وليًّا ونصيرًا"[٥].

قال البغوي:أي:" ربا ومعبودا وناصرا ومعينا"[٦].

قال السعدي:" {قل} لهؤلاء المشركين بالله: {أغير الله أتخذ وليا} من هؤلاء المخلوقات العاجزة يتولاني، وينصرني؟!.فلا أتخذ من دونه تعالى وليا"[٧].

قال الطبري:" يا محمد، لهؤلاء المشركين العادلين بربهم الأوثانَ والأصنامَ، والمنكرين عليك إخلاص التوحيد لربك، الداعين إلى عبادة الآلهة والأوثان: أشيئًا غيرَ الله تعالى ذكره أستنصره وأستعينه على النوائب والحوادث"[٨].

---

(١) انظر: شرح العقيدة الواسطية، ابن عثيمين:١/٢٠٦-٢٠٧.
(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
(٣) شأن الدعاء:٥٧.
(٤) تفسير البغوي:٣/١٣٢.
(٥) التفسير الميسر:١٢٩.
(٦) تفسير البغوي:٣/١٣٢.
(٧) تفسير السعدي:٢٥١.
(٨) تفسير الطبري:١١/٢٨٢.

قال ابن كثير:" المعنى : لا أتخذ وليًا إلا الله وحده لا شريك له "(١).

قال الزمخشري:يعني:" أولى غير الله ، همزة الاستفهام دون الفعل الذي هو:«أتخذ» لأن الإنكار في اتخاذ :غير الله وليا، لا في اتخاذ الولي، فكان أولى بالتقديم. ونحوه :{قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ} [الزمر : ٦٤] { آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ} [يونس : ٥٩]"(٢).

قال السدي:" أما«الولي»، فالذي يتولّونه ويقرّون له بالربوبية"(٣).

قوله تعالى:{فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام : ١٤]، أي:" وهو خالق السموات والأرض وما فيهن"(٤).

قال الواحدي:أي:" خالقهما ابتداءً"(٥).

قال السعدي:" أي: خالقهما ومدبرهما"(٦).

قال الطبري:أي:" مبتدعهما ومبتدئهما وخالقهما"(٧).

قال البغوي:أي:" خالقهما ومبدعهما ومبتديهما"(٨).

قال ابن كثير:" أي : خالقهما ومبدعهما على غير مثال سَبَق "(٩).

قال قتادة(١٠) والسدي(١١):" خالق السماوات والأرض".

قال ابن عباس:" بديع السموات والأرض"(١٢).

قال مجاهد:" سمعت ابن عباس يقول: كنت لا أدري ما{فاطر السماوات والأرض}، حتى أتاني أعرابيّان يختصمان في بئر، فقال أحدهما لصاحبه:«أنا فَطَرتها»، يقول: أنا ابتدأتها"(١٣).

يقال :فطرها الله يَفطُرُها وَيفطِرها فَطرًا وفطورًا، ومنه قوله: {هَلْ تَرَى مِنْ فُطُورٍ} [سورة الملك: ٣] ، يعني: شقوقًا وصدوعًا. يقال:سيف فُطارٌ، إذا كثر فيه التشقق، وهو عيب فيه، ومنه قول عنترة(١٤):

وَسَيْفِي كَالعَقِيقَةِ فَهْوَ كِمْعِي، سِلاحِي، لا أَفَلَّ وَلا فُطَارَا

(١) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.

(٢) الكشاف:٩/٢.

(٣) أخرجه الطبري(١٣١١٠):ص٢٨٢/١١.

(٤) التفسير الميسر:١٢٩.

(٥) الوجيز:٣٤٧.

(٦) تفسير السعدي:٢٥١.

(٧) تفسير الطبري:٢٨٣/١١.

(٨) تفسير البغوي:١٣٢/٣.

(٩) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.

(١٠) أخرجه الطبري(١٣١١٣):ص٢٨٣/١١.

(١١) أخرجه الطبري(١٣١١٢):ص٢٨٣/١١.

(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٤٨):ص١٢٦٩/٤.

(١٣) أخرجه الطبري(١٣١١١):ص٢٨٣/١١.

(١٤)ديوانه ،في أشعار الستة الجاهلين: ٣٨٤، وأمالي ابن الشجري ١: ١٩، واللسان (فطر) (عقق) (كمع) (فلل) ، من أبياته التي قالها وتهدد بها عمارة بن زياد العبسي، وكان يحسد عنترة على شجاعته، ويظهر تحقيره، ويقول لقومه بني عبس: "إنكم قد أكثرتم من ذكره، ولوددت أني لقيته خاليا حتى أريحكم منه، وحتى أعلمكم أنه عبد"! فقال عنترة:

أَحَوْلِي تَنْفُضُ اسْتُكَ مِذْرَوَيهَا ... لِتَقْتُلَنِي؟ فَهَا أَنَا ذَا، عُمَارَا!
مَتَى ما تَلْقَنِي خِلْوَينَ، تَرْجُفْ ... رَوَانِفُ أَلْيَتَيْكَ وتُسْتَطَارَا
وَسَيْفِي صَارِمٌ قَبَضَتْ عَلَيْهِ ... أَشَاجِعُ لا تَرَى فِيهَا انْتِشَارَا
وسَيْفِي كالعَقِيقَةِ. . . . .

و"العقيقة": شقة البرق، وهو ما انعق منه، أي: تشقق. و"الكمع" و"الكميع" الضجيع. و"الأفل": الذي قد أصابه الفل، وهو الثلم في حده. [انظر: حاشية تفسير الطبري:٢٨٣/١١].

ومنه يقال:فَطَر ناب الجمل، إذا تشقق اللحم فخرج، ومنه قوله: {تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْ فَوْقِهِنَّ} [سورة الشورى: ٥] ، أي: يتشققن، ويتصدعن[١].

وقرئ «فاطر السماوات» بالجر صفة «لله»، وبالرفع على المدح، وقرأ الزهري:«فطر»[٢].

قوله تعالى:{وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ} [الأنعام : ١٤]، أي:"وهو الذي يرزق خلقه ولا يرزقه أحد"[٣].

قال السدي:" يَرْزق، ولا يُرزق"[٤].

قال الطبري:أي:" وهو يرزق خلقه ولا يرزق"[٥].

قال ابن كثير:" أي : وهو الرزاق لخلقه من غير احتياج إليهم ، كما قال تعالى : { وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإنْسَ إِلا لِيَعْبُدُونِ *[مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ* إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ] (٩) } [الذاريات : ٥٦ - ٥٨]"[٦].

قال السعدي:" أي: وهو الرزاق لجميع الخلق، من غير حاجة منه تعالى إليهم، فكيف يليق أن أتخذ وليا غير الخالق الرزاق، الغني الحميد؟"[٧].

قال الزمخشري:" المعنى: أن المنافع كلها من عنده، ولا يجوز عليه الانتفاع"[٨].

عن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال :" دعا رجل من الأنصار من أهل قباء النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فانطلقنا معه ، فلما طعم النبي صلى الله عليه وسلم وغسل يديه قال : الحمد لله الذي يُطعِم ولا يَطْعَم ، ومَنَّ علينا فهدانا ، وأطعمنا وسَقانا وكلّ بَلاء حَسَن أبلانا ، الحمد لله غير مُودّع (١) ولا مكافأ ولا مكفور ولا مُسْتَغْنًى عنه ، الحمد لله الذي أطعمنا من الطعام ، وسقانا من الشراب ، وكسانا من العري ، وهدانا من الضلال ، وبَصَّرنا من العَمَى ، وفَضَّلنا على كثير ممن خلق تفضيلا الحمد لله رب العالمين"[٩].

وقرئ: «ولا يطعم»، بفتح الياء. وروى ابن المأمون عن يعقوب: «وهو يطعم ولا يطعم»، على بناء الأول للمفعول والثاني للفاعل، والضمير لغير «الله».وقرأ الأشهب«وهو يطعم ولا يطعم»، على بنائهما للفاعل. وفسر بأن معناه: وهو يطعم، ولا يستطعم[١٠].

قوله تعالى:{قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ} [الأنعام : ١٤]، أي:" قل -أيها الرسول-: إني أُمِرْتُ أن أكون أول مَن خضع وانقاد له بالعبودية من هذه الأمة"[١١].

عن ابن عباس:"{أول من أسلم}، أول المصدقين"[١٢].

قال ابن كثير:" أي : من هذه الأمة"[١٣].

قال السعدي:" أي: لله بالتوحيد، وانقاد له بالطاعة، لأني أولى من غيري بامتثال أوامر ربي؟"[١٤].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٢٨٣/١١-٢٨٤.
(٢) انظر الكشاف:٩/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٢٩.
(٤) أخرجه الطبري(١٣١١٤):ص١٨٤/١١.
(٥) تفسير الطبري:٢٨٤/١١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٢/٣.
(٧) تفسير السعدي:٢٥١.
(٨) الكشاف:٩/٢.
(٩)رواه النسائي في السنن الكبرى برقم (١٠١٣٢) وابن حبان في صحيحه برقم (١٣٥٢) من طريق سهيل بن أبي صالح به.
(١٠) انظر: الكشاف:٩/٢.
(١١) التفسير الميسر:١٢٩.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٥٢):ص١٢٧٠/٤.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٤٣/٣.
(١٤) تفسير السعدي:٢٥١.

قال البغوي:" يعني: من هذه الأمة، والإسلام بمعنى الاستسلام لأمر الله، وقيل: أسلم أخلص"(١).

قال الزمخشري:" لأن النبي سابق أمته في الإسلام، كقوله :{وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ} [الأنعام : ١٦٣]، وكقول موسى :{سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ} [الأعراف : ١٤٣] "(٢).

قوله تعالى:{وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام : ١٤]، أي:" ونهيت أن أكون من المشركين معه غيره"(٣).

قال الزمخشري:" معناه: أمرت بالإسلام ونهيت عن الشرك"(٤).

قال السعدي:" أي: ونهيت أيضا، عن أن أكون من المشركين، لا في اعتقادهم، ولا في مجالستهم، ولا في الاجتماع بهم، فهذا أفرض الفروض علي، وأوجب الواجبات"(٥).

قال البغوي:" يعني: وقيل لي ولا تكونن، {من المشركين}"(٦).

الفوائد:

١- من فوائد الآية: ألا يلجأ العبد إلا إلى الله سبحانه وتعالى؛ لأن الله هو الولي، ثم ولاية الله عز وجل ولاية مبنية على الحمد، كما قال تعالى: (وَهُوَ الْوَلِيُّ الْحَمِيدُ) [الشورى ٢٨].

٢- ومنها: أن الله وحده خالق السماوات والأرض على غير مثال؛ يعني أنه سبحانه وتعالى لم يخلق سماوات وأرضين قبل ثم أعادها مرة أخرى، بل هي على ما هي عليه.

٣- ومنها: تمام قدرة الله تبارك وتعالى؛ حيث فطر السماوات والأرض، وبقيت السماوات والأرض على حسب ما أراد الله تبارك وتعالى: (الشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا) [يس ٣٨] (وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ) [يس ٣٩] لم تختلف.

٤- ومنها: أن الله تبارك وتعالى هو المُطْعِم لا مُطْعَمَ سواه، وينبني على هذه الفائدة: ألا نسأل الإطعام إلا من الله تبارك وتعالى، ولو أننا تمسَّكنا بهذا مع التوكل على الله والاستعانة به لكان رزقنا مضمونًا؛ لقول الله تبارك وتعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا (٢) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ) [الطلاق ٢، ٣]، لكن غلبت علينا الأمور المادية الحسية، فصار الإنسان -مع الأسف- يعتمد على الأسباب أكثر مما يعتمد على المسبِّب عز وجل.

٥- ومنها: أن الله تعالى لا يُطْعِمُه أحد؛ لعدم حاجته إلى الطعام، وعدم حاجته إلى غيره، فهو (لَا يُطْعَمُ)؛ لأنه لا يحتاج للطعام، (وَلَا يُطْعَمُ) أيضًا يعني: لا يحتاج إلى غيره، فهو غني عن كل من سواه، وكل من سواه مفتقر إليه.

٦- ومنها: وجوب إعلان النبي ﷺ عن نفسه أنه أول من أسلم؛ لقوله: (قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ) [الأنعام ١٤]، يعني: من هذه الأمة، وهذا هو الذي صار.

٧- ومنها: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم محتاج إلى الإسلام، وليس له حق في الربوبية، كما صرح بذلك هو عليه الصلاة والسلام، حيث دعا عشيرته الأقربين، وجعل يناديهم بأسمائهم: يا فلان ابن فلان، إلى أن وصل إلى بنته فاطمة فقال: «يَا فَاطِمَةُ بِنْتَ مُحَمَّدٍ، سَلِينِي مِنْ مَالِي مَا شِئْتِ، لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»(٧).

٨- ومنها: صحة النهي عما لا يمكن أن يقع؛ لقوله: (وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ)، فشرك النبي ﷺ لا يمكن أن يقع شرعًا، ومع ذلك نهى عنه.

---

(١) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(٢) الكشاف:١٠/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٢٩.
(٤) الكشاف:١٠/٢.
(٥) تفسير السعدي:٢٥١.
(٦) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(٧)متفق عليه؛ البخاري (٢٧٥٣)، ومسلم (٢٠٦ / ٣٥١) من حديث أبي هريرة.

القرآن

{قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (١٥)} [الأنعام : ١٥]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين مع الله غيره: إني أخاف إن عصيت ربي، فخالفت أمره، وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب عظيم يوم القيامة.

قوله تعالى:{قُلْ} [الأنعام : ١٥]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين مع الله غيره "[١].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل لهؤلاء المشركين العادلين بالله، الذين يدعونك إلى عبادة أوثانهم"[٢].

قال ابن عباس - رضي الله عنه -: "قل يا محمد لكفار أهل مكة"[٣].

قوله تعالى:{إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّيعَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ} [الأنعام : ١٥]، أي:" إني أخاف إن عصيت ربي، فخالفت أمره، وأشركت معه غيره في عبادته، أن ينزل بي عذاب عظيم يوم القيامة "[٤].

قال الثعلبي[٥] والبغوي[٦]:" تعبدت غيره".

قال أبو السعود:" أي بمخالفة أمره ونهيه أي عصيان كان فيدخل فيه ما ذكر دخولا أوليا وفيه بيان لكما اجتنابه صلى الله عليه وسلم عن المعاصي على الإطلاق"[٧].

قال الشوكاني:" أي: بترك إخلاص العبادة له، وتوحيده، والدعاء إلى ترك الشرك وتضليل أهله، قال أكثر المفسرين: المعنى إني أخاف إن عصيت ربي بإجابة المشركين إلى ما دعوني إليه من عبادة غير الله"[٨].

قال المراغي:أي:" إن فرض وقوع العصيان منى فإننى أخاف أن يصيبنى عذاب ذلك اليوم العظيم وهو يوم القيامة الذي يتجلى فيه الرب على عباده ويحاسبهم الحساب العسير على أعمالهم ويجازيهم بما يستحقون "[٩].

قال السعدي:" فإن المعصية في الشرك توجب الخلود في النار، وسخط الجبار. وذلك اليوم هو اليوم الذي يخاف عذابه، ويحذر عقابه؛ لأنه من صرف عنه العذاب يومئذ فهو المرحوم، ومن نجا فيه فهو الفائز حقا، كما أن من لم ينجمنه فهو الهالك الشقي"[١٠].

قال ابن كثير:{ يَوْمٍ عَظِيمٍ}"يعني : يوم القيامة"[١١].

قال الطبري:" ووصفه تعالى بـ«العظم»، لعظم هَوْله، وفظاعة شأنه"[١٢].

عن ابن عباس:"{عذاب}، يقول: نكال"[١٣].

وذكر الماتريدي عن ابن عباس:"{ إني أخاف} أي: أعلم {إن عصيت ربي} فعبدت غيره، {عذاب يوم عظيم}"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٥/١١.
(٣) تفسير الماتريدي:٣٤/٤.
(٤) التفسير الميسر:١٢٩.
(٥) الكشف والبيان:١٣٨/٤.
(٦) تفسير البغوي:١٣٢/٢.
(٧) تفسير أبي السعود:١١٦/٣.
(٨) فتح القدير:٥٢٢/٤.
(٩) تفسير المراغي:٩٠/٧.
(١٠) تفسير السعدي:٢٥١.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٤٤/٣.
(١٢) تفسير الطبري:٢٨٥/١١.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٥٣):ص١٢٧٠/٤.

وعلّق عليه الماتريدي:" هذا التأويل صحيح إن كان ما ذكر من سؤالهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعرضهم المال عليه ليعود ويرجع إلى دينهم، فيخرج هذا على الجواب لهم"(٢).

قال ابن عطية:" لفظة عصيت عامة في أنواع المعاصي، ولكنها هاهنا إنما تشير إلى الشرك الذي نهي عنه"(٣).

وقال أبو حيان:" الظاهر أن الخوف هنا على بابه وهو توقع المكروه.. والخوف ليس بحاصل لعصمته بل هو معلق بشرط هو ممتنع في حقه صلى الله عليه وسلم وجوابه محذوف ولذلك جاء بصيغة الماضي. فقيل: هو شرط معترض لا موضع له من الإعراب كالاعتراض بالقسم.

وقيل: هو في موضع نصب على الحال، كأنه قيل: إني أخاف عاصيا ربي"(٤).

قال ابن الجوزي:" زعم بعض المفسرين أنه كان يجب عليه أن يخاف عاقبة الذنوب، ثم نسخ ذلك بقوله: {لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ} [الفتح : ٢](٥)، والصحيح أن الآيتين خبر، والخبر لا يدخله النسخ، وإنما هو معلق بشرط، ومثله: {لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ} [الزمر : ٦٥]"(٦).

الفوائد:

١- من فوائدها: أن المعصية سبب للعذاب، ولكن المعاصي على نوعين: معاصٍ لا يغفرها الله؛ وهي الشرك، ومعاصٍ تدخل تحت مشيئة الله؛ وهي الكبائر، وهناك معاصٍ أخرى تُكَفِّرها الأعمال الصالحة؛ وهي الصغائر، هذا فيما يتعلق بينك وبين الله عز وجل.أما حقوق الآدميين فلا بد من إيصالهم حقَّهم؛ إما باستحلالٍ منه في الدنيا، وإما بأعمال صالحة تؤخَذ من أعمال هذا الظالم، وسبق لنا أن الإنسان إذا تاب من ذنب فيه جناية على غيره هل يسقط حق الغير أو لا، وذكرنا أن ظاهر النصوص أنه يسقط إذا كان غير مالٍ، كالذي يزني بامرأة كرهًا ثم يتوب، فإن الله يتوب عليه، ويُرضِي التي أكْرهت على الزنا، قال: (مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ) [الأنعام ١٦].قال الله تبارك وتعالى: (قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ) [الأنعام ١٥]، (قُلْ) أي: لهؤلاء وغيرهم، مُعْلِنًا هذا الكلام المهم.

٢- ومنها: إشارة إلى أن هذا يوم لا محاباة فيه لأحد مهما كان عظيما، وأنه لا تنفع فيه شفاعة الشافعين، بل الأمر يومئذ لله، فلا سلطان لغيره يتكل عليه من يعصيه، ظنا منه أنه يخفف عنه العذاب أو ينجيه، وإذا كان خوف النبي صلى الله عليه وسلم من العذاب على المعصية منتفيا لوجود العصمة، فخوف الإجلال والتعظيم ثابت له فى جميع الأحوال.

القرآن

{مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (١٦)} [الأنعام : ١٦]

التفسير:

من يصرف الله عنه ذلك العذاب الشديد فقد رحمه، وذلك الصرف هو الظفر البين بالنجاة من العذاب العظيم.

---

(١) تفسير الماتريدي:٣٤/٤.

(٢) تفسير الماتريدي:٣٤/٤.

(٣) المحرر الوجيز:٢٧٣/٢.

(٤) البحر المحيط:٤٥٤/٤.

(٥) عزى الشوكاني دعوى النسخ إلى أبي حمزة اليماني، وابن المسيب. انظر: فتح القدير:٥٢٢/٤.

(٦) زاد المسير:١٤/٢، واختار المصنف إحكام هذه الآية في مختصرعمدة الراسخ ورقة (٦)، ونواسخ القرآن:٤٢٣/٢.

قوله تعالى:{مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ} [الأنعام : ١٦]، أي:" من يصرف الله عنه ذلك العذاب الشديد فقد رحمه"(١).

قال قتادة:" من يصرف عنه العذاب"(٢).

قال الزجاج:" أي: من يصرف عنه العذاب يومئذ"(٣).

قال البغوي:" يعني: من يصرف العذاب عنهيوم القيامة"(٤).

قال السمرقندي:" يعني: غفر له وعصمه"(٥).

قال ابن كثير:" { مَنْ يُصْرَفْ عَنْهُ } يعني : العذاب { يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُ } يعني : فقد رحمه الله"(٦).

وفي قراءة أبي: «من يصرفه الله»(٧).

وقرأ ابن كثير ونافع وأبو عامر وعاصم في رواية حفص:«من يصرف عنه» بضم الياء ونصب الراء على معنى فعل ما لم يسم فاعله. وقرأ حمزة والكسائي وعاصم في رواية أبي بكر: «من يصرف» بنصب الياء ومعناه: من يصرف الله عنه. ولأنه سبق ذكر قوله: «ربي»، فانصرف إليه(٨).

قوله تعالى:{وَذَلِكَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ} [الأنعام : ١٦]، أي:" وذلك الصرف هو الظفر البين بالنجاة من العذاب العظيم"(٩).

قال البغوي:"أي: النجاة البينة"(١٠).

قال السمرقندي:" يعني: صرف العذاب: هو النجاة الوافرة"(١١).

قال البيضاوي:"{وذلك الفوز المبين}، أي: الصرف أو الرحمة"(١٢).

قال ابن عطية:"{وذلك} إشارة إلى صرف العذاب وإلى الرحمة، والفوز والنجاة"(١٣).

قال ابن كثير:" والفوز : هو حصول الربح ونفي الخسارة"(١٤).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: فوز من يُصْرَف عنه العذاب يوم القيامة.

٢- ومنها: إثبات الرحمة لله عز وجل بلفظ الفعل؛ لقوله: (فَقَدْ رَحِمَهُ)، ورحمة الله تبارك وتعالى من الصفات الذاتية الفعلية؛ فباعتبار المفهوم تكون فعلية، وباعتبار كونهاوصفًا ثابتًا لله تكون من الصفات الذاتية، والرحمة يكون بها حصول المطلوب، والنجاة من المرهوب.

٣- ومنها: أن الفوز الحقيقي البيِّن الظاهر هو الفوز من نجاة العذاب يوم القيامة، نسأل الله أن يرزقنا وإياكم ذلك.

القرآن

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٥٥):ص١٢٧٠/٤.
(٣) معاني القرآن:٢٢٣/٢.
(٤) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(٥) بحر العلوم:٤٣٨/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٤/٣.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٥٤):ص١٢٧٠/٤.
(٨) انظر: بحر العلوم:٤٣٨/١، وتفسير البغوي:١٣٢/٣، والمحرر الوجيز:٢٧٣/٢-٢٧٤.
(٩) التفسير الميسر:١٢٩.
(١٠) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(١١) بحر العلوم:٤٣٨/١.
(١٢) تفسير البيضاوي:١٥٦/٢.
(١٣) المحرر الوجيز:٢٧٤/٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٤٤/٣.

{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٧)} [الأنعام : ١٧]

التفسير:

وإن يصبك الله تعالى -أيها الإنسان- بشيء يضرك كالفقر والمرض فلا كاشف له إلا هو، وإن يصبك بخير كالغنى والصحة فلا راد لفضله ولا مانع لقضائه، فهو -جل وعلا- القادر على كل شيء.

قوله تعالى:{وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ} [الأنعام : ١٧]، أي:" وإن يصبك الله تعالى -أيها الإنسان- بشيء يضرك كالفقر والمرض فلا كاشف له إلا هو"(١).

قال مقاتل:" يعني :يصبك الله ببلاء وشدة، لا يقدر أحد من الآلهة ولا غيرهم كشف الضر إلا الله"(٢).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: يا محمد، إن يصبك الله بشدة في دنياك، وشظف في عيشك وضيق فيه، فلن يكشف ذلك عنك إلا الله الذي أمرك أن تكون أوّل من أسلم لأمره ونهيه، وأذعن له من أهل زمانك، دون ما يدعوك العادلون به إلى عبادته من الأوثان والأصنام، ودون كل شيء سواها من خلقه"(٣).

قال البغوي:أي:" {وإن يمسسك الله بضر} بشدة وبلية، {فلا كاشف له} لا رافع"(٤).

قال الزمخشري:أي:" من مرض أو فقر أو غير ذلك من بلاياه، فلا قادر على كشفه إلا هو"(٥).

قال القرطبي:" المس والكشف من صفات الأجسام، وهو هنا مجاز وتوسع، والمعنى: إن تنزل بك يا محمد شدة من فقر أو مرض فلا رافع وصارف له إلا هو"(٦).

قال السمعاني:" الضر: خلاف النفع ومعناه: إن يصبك الله بضر فلا كاشف له إلا هو"(٧).

قال الواحدي:" أي: إن جعل الضر يمسسك ويصيبك،فلا يكشف ذلك الضر الذي أصابك غير الله، ولا يصرفه عنك غيره، والضر: اسم جامع لكل ما يتضرر به الإنسان من فقر ومرض وزمانة، كما أن الخير: اسم جامع لكل ما ينتفع به الإنسان"(٨).

قال ابن عطية:" يمسسك معناه يصبك وينلك، وحقيقة المس هي بتلافي جسمين فكأن الإنسان والضر يتماسان، و «الضر» بضم الضاد سوء الحال في الجسم وغيره، «والضر» بفتح الضاد ضد النفع، وناب الضر في هذه الآية مناب الشر"(٩).

قوله تعالى:{وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ} [الأنعام : ١٧]، أي:" وإن يصبك بخير كالغنى والصحة فلا راد لفضله ولا مانع لقضائه، فهو -جل وعلا- القادر على كل شيء"(١٠).

قال محمد بن إسحاق:" أي: لا يقدر على هذا غيرك بسلطانك وقدرتك"(١١).

قال مقاتل:" يعني يصبك بفضل وعافية،{فهو على كل شيء قدير} من ضر وخير"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٢٩.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٣/١.[بتصرف بسيط حتى يستقيم المعنى]
(٣) تفسير الطبري:٢٨٧/١١.
(٤) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(٥) الكشاف:١٠/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٣٩٨/٦.
(٧) تفسير السمعاني:٩٢/٢.
(٨) التفسير الوسيط:٢٥٧/٢.
(٩) المحرر الوجيز:٢٧٤/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٢٩.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٥٦):ص١٢٧٠/٤.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٣/١.

قال القرطبي:أي:" وإن يصبك بعافية ورخاء ونعمة،{فهو على كل شيء قدير} من الخير والضر"(١).

قال الطبري:" يقول: وإن يصبك بخير، أي: برخاء في عيش، وسعة في الرزق، وكثرة في المال، فتقرّ أنه أصابك بذلك، والله الذي أصابك بذلك، فهو على كل شيء قدير ، هو القادر على نفعك وضرِّك، وهو على كل شيء يريده قادر، لا يعجزه شيء يريده، ولا يمتنع منه شيء طلبه، ليس كالآلهة الذليلة المَهينة التي لا تقدر على اجتلاب نفع على أنفسها ولا غيرها، ولا دفع ضر عنها ولا غيرها. يقول تعالى ذكره: فكيفتعبد من كان هكذا، أم كيف لا تخلص العبادة، وتقرُّ لمن كان بيده الضر والنفع، والثواب والعقاب، وله القدرة الكاملة، والعزة الظاهرة؟"(٢).

قال الواحدي:أي:وإن"يصبك بغنى وسعة في الرزق وصحة في الجسممن الغنى والفقر"(٣).

قال البغوي:أي:" عافية ونعمة، {فهو على كل شيء قدير} من الخير والضر"(٤).

قال الزمخشري:أي:" من غنى أو صحة فهو على كل شيء قدير فكان قادرا على ادامته أو إزالته"(٥).

وأخرج أبو الشيخ عن السدي :"في قوله {وإن يمسسك بخير} يقول: بعافية"(٦).

ونقل ابن عطية عن السدي:"«الضر» هاهنا المرض، و«الخير» العافية"(٧).

قال ابن عطية:" وهذا مثال ومعنى الآية الإخبار عن أن الأشياء كلها بيد الله إن ضر فلا كاشف لضره غيره وإن أصاب بخير فكذلك أيضا لا راد له ولا مانع منه، هذا تقرير الكلام، ولكن وضع بدل هذا المقدر لفظا أعم منه يستوعبه وغيره، وهو قوله: على كل شيء قدير ودل ظاهر الكلام على المقدر فيه،وقوله: {على كل شيء قدير} عموم، أي: على كل شيء جائز أن يوصف الله تعالى بالقدرة عليه"(٨).

قال البيضاوي:"{فهو على كل شيء قدير}، فكان قادرا على حفظه وإدامته فلا يقدر غيره على دفعه، كقوله تعالى: {فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ} [يونس : ١٠٧]"(٩).

قال السعدي:" فإذا كان وحده النافع الضار، فهو الذي يستحق أن يفرد بالعبودية والإلهية"(١٠).

وفي الصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : "اللهم لا مانع لِما أَعْطَيْت ، ولا معطِيَ لما مَنَعْتَ ، ولا ينفع ذا الجَدّ منك الجَدّ"(١١).

وعن ابن عباس قال: "كنت خلف رسول الله – صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ – يوماً فقال: ياغلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك؟ إذاسألت فاسأل الله، وإذااستعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لواجتمعت على أن ينفعوك بشيء لم ينفعوك إلاّ بشيء قدكتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلاّ بشيء قد كتبه الله عليك، رُفعت الأقلام وجفت الصحف"(١٢).

---

(١) تفسير القرطبي:٣٩٨/٦.
(٢) تفسير الطبري:٢٨٧/١١-٢٨٨.
(٣) التفسير الوسيط:٢٥٧/٢.
(٤) تفسير البغوي:١٣٢/٣.
(٥) الكشاف:١٠/٢.
(٦) الدر المنثور:٢٥٥/٣.
(٧) المحرر الوجيز:٢٧٤/٢.
(٨) المحرر الوجيز:٢٧٥/٢.
(٩) تفسير البيضاوي:١٥٦/٢.
(١٠) تفسير السعدي:٢٥١.
(١١)رواه البخاري في صحيحه برقم (٨٤٤) ومسلم في صحيحه برقم (٥٩٣) من حديث المغيرة بن شعبة ، رضي الله عنه.
(١٢)أخرجه الترمذي في صفة القيامة والرقائق والورع، باب ٥٩ ،حديث (٢٥١٦)، وقال: حديث حسن

الفوائد:
١- من فوائد هذه الآية الكريمة: تمام سلطان الله عز وجل، وأنه سبحانه وتعالى هو المتصرف كما يشاء بعباده؛ لقوله: (إِنْ يَمْسَسْكَ) بكذا، (وَإِنْ يَمْسَسْكَ) بكذا.
٢- ومنها: عموم قدرة الله؛ لقوله: (فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)، يقابل القدرة العجز، وهنا صفتان متشابهتان أو متقاربتان؛ القوة والقدرة، والفرق بينهما يحصل بالتعريف:
- فالقدرة: التمكن من الفعل بلا عجز.
- والقوة: التمكن من الفعل بلا ضعف.

والدليل قول الله تبارك وتعالى في القدرة: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) [فاطر ٤٤]، والدليل للقوة قول الله تعالى: (اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً) [الروم ٥٤]، والقوَّة أعمُّ؛ لأنها تكون في ذي الشعور وغيره؛ ذي الشعور يعني: في ذي الإرادة وغيره؛ فتقول: فلان قويٌّ، وتقول: الحديد قويٌّ، وأما القدرة فإنها لا تكون إلا من ذي الإرادة؛ إذ لا يصح أن تقول: الباب قادر؛ لأنه ليس له إرادة، والقوة أكمل؛ لأنه يلزم من وجود القوة القدرة ولا عكس، ونضرب مثلًا لهذا برجل قيل له: احمل هذا الجحر، فحمله لكن بمشقة، فنصف هذا الرجل بأنه قادر غير قوي، وإنسان آخر قلنا له: احمل هذا الحجر، أراد أن يحمله فعجز، نقول: هذا عاجز غير قادر، ورجل ثالث قلنا: احمل هذا الحجر، فأخذه وكأنه ريشة، هذا قويٌّ، وهو قادر، من باب أولى.

فالله قادر على كل شيء، حتى وإن بَعُدَ في ذهنك فالله قادر عليه؛ ولهذا نبَّه الله تبارك وتعالى زكريا حين قال: (رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا) [مريم ٨] قال الله له: (كَذَلِكَ قَالَ رَبُّكَ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَقَدْ خَلَقْتُكَ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ تَكُ شَيْئًا) [مريم ٩] قال: لا، أنا خلقتك من قبل ولم تك شيئًا، قادر على أن يخلق لك ولدًا، وهذا قياس أولوية واضح أو على الأقل قياس مِثْلِيٌّ واضح، فالقادر على العدم قادر على الإيجاد، والقادر على الإيجاد قادر على العدم.

إذن يا أخي، لا تستكثر أن تسأل الله تبارك وتعالى شيئًا لا تكون فيه معتديًا في الدعاء، ولو كان في نظرك بعيدًا؛ لأن الله تعالى على كل شيء قدير.
٣- إثبات اسم من اسمائه تعالى، وهو:«القدير»: إذ "وصف الله نفسه بأنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"(١).

روي البيهقي عن عبد العزيز قال الحليمي، قال: "و«القدير»: التام القدرة لا يلابس قدرته عجز بوجه"(٢).

القرآن

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (١٨)} [الأنعام : ١٨]

التفسير:

والله سبحانه هو الغالب القاهر فوق عباده; خضعت له الرقاب وذَلَّتْ له الجبابرة، وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها وَفْق حكمته، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء. ومن اتصف بهذه الصفات يجب ألا يشرك به.

قوله تعالى:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام : ١٨]، أي:" والله سبحانه هو الغالب القاهر فوق عباده; خضعت له الرقاب وذَلَّتْ له الجبابرة"(٣).

صحيح.
(١) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.
(٢) الاسماء والصفات:١١١/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٢٩.

قال أبو السعود:" تصوير لقهره وعلوه بالغلبة والقدرة"[١].
قال النسفي:" أي: عال عليهم بالقدرة والقهر بلوغ المراد بمنع غيره عن بلوغه"[٢].
قال القاسمي:" أي: هو الغالب بقدرته، المستعلي فوق عباده، يدبر أمرهم بما يريد، فيقع في ذلك ما يشق عليهم ويثقل ويغم ويحزن، فلا يستطيع أحد منهم رد تدبيره، والخروج من تحت قهره وتقديره"[٣].
قال الطبري:أي:" والله الغالب عبادَه، المذلِّلهم، العالي عليهم بتذليله لهم، وخلقه إياهم، فهو فوقهم بقهره إياهم، وهم دونه"[٤].
قال ابن كثير:" : هو الذي خضعت له الرقاب ، وذلت له الجبابرة ، وعنت له الوجوه ، وقهر كل شيء ودانت له الخلائق ، وتواضعت لعظمة جلاله وكبريائه وعظمته وعلوه وقدرته الأشياء ، واستكانت وتضاءلت بين يديه وتحت حكمه وقهره"[٥].
قال الثعلبي:"أي: القادر الغالب فوق عباده وفي القهر معنى زائد على القدرة وهو منع غيره عن بلوغ المراد"[٦].
قال السعدي:" فلا يتصرف منهم متصرف، ولا يتحرك متحرك، ولا يسكن ساكن، إلا بمشيئته، وليس للملوك وغيرهم الخروج عن ملكه وسلطانه، بل هم مدبرون مقهورون، فإذا كان هو القاهر وغيره مقهورا، كان هو المستحق للعبادة"[٧].
قال السمعاني:" القاهر: الغالب الذي لا يغلب، وقيل: هو المنفرد بالتدبير، يجبر الخلق على مراده، وقوله: {فوق عباده} هو صفة الاستعلاء الذي لله - تعالى - الذي يعرفه أهل السنة"[٨].
قال البغوي:"{فوق عباده} هو صفة الاستعلاء الذي تفرد به الله عز وجل"[٩].
قال الشوكاني:" معنى فوق عباده فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، لا فوقية المكان كما تقول: السلطان فوق رعيته: أي بالمنزلة والرفعة، وفي القهر معنى زائد ليس في القدرة، وهو منع غيره عن بلوغ المراد"[١٠].
قال الزمخشري:"{فوق عباده} تصوير للقهر والعلو بالغلبة والقدرة، كقوله وإنا فوقهم قاهرون الشيءأعم العام لوقوعه على كل ما يصح أن يعلم ويخبر عنه، فيقع على القديم والجرم والعرض والمحال والمستقيم. ولذلك صح أن يقال في الله عز وجل: شيء لا كالأشياء، كأنك قلت: معلوم لا كسائر المعلومات، ولا يصح: جسم لا كالأجسام"[١١].
قال ابن عطية:" و{فوق}، نصب على الظرف لا في المكان بل في المعنى الذي تضمنه لفظ القاهر، كما تقول: زيد فوق عمرو في المنزلة، وحقيقة {فوق} في الأماكن، وهي في المعاني مستعارة شبه بها من هو رافع رتبة في معنى ما، لما كانت في الأماكن تنبىء حقيقة عن الأرفع وحكى المهدوي: «أنها بتقدير الحال، كأنه قال: وهو القاهر غالبا»، وهذا لا يسلم من الاعتراض أيضا، والأول عندي أصوب"[١٢].

---

(١) تفسير أبي السعود:١١٧/٣.
(٢) تفسير النسفي:٤٩٥/١.
(٣) محاسن التأويل:٣٢٨/٤.
(٤) تفسير الطبري:٢٨٨/١١.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٤٤/٣.
(٦) تفسير الثعلبي:١٣٩/٤.
(٧) تفسير السعدي:٢٥١.
(٨) تفسير السمعاني:٩٣/٢.
(٩) تفسير البغوي:١٣٣/٣.
(١٠) فتح القدير:١٢٠/٢.
(١١) الكشاف:١٠/٢-١١.
(١٢) المحرر الوجيز:٢٧٥/٢.

قال القرطبي:" القهر الغلبة، والقاهر الغالب، وأقهر الرجل إذا صير بحال المقهور الذليل، قال الشاعر(١):

تمنى حصين أن يسود جذاعه فأمسى حصين قد أذل وأقهرا

وقهر غلب.

ومعنى {فوق عباده} فوقية الاستعلاء بالقهر والغلبة عليهم، أي: هم تحت تسخيره لا فوقية مكان، كما تقول: السلطان فوق رعيته أي بالمنزلة والرفعة. وفي «القهر» معنى زائد ليس في «القدرة»، وهو منع غيره عن بلوغ المراد"(٢).

قال أبو حيان:" و{فوق} حقيقة في المكان وأبعد من جعلها هنا زائدة، وأن التقدير: وهو القاهر لعباده، وأبعد من هذا قول من ذهب إلى أنها هنا حقيقة في المكان، وأنه تعالى حال في الجهة التي فوق العالم إذ يقتضي التجسيم، وأما الجمهور فذكروا أن الفوقية هنا مجاز. فقال بعضهم: هو فوقهم بالإيجاد والإعدام. وقال بعضهم: هو على حذف مضاف معناه فوق قهر عباده بوقوع مراده دون مرادهم.

والعرب تستعمل فوق إشارة لعلو المنزلة وشفوفها على غيره من الرتب ومنه قوله: {يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ} [الفتح : ١٠] ، وقوله: {وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ} [يوسف : ٧٦] ، وقال النابغة الجعدي(٣):

بَلَغْنَا السَّمَاءَ مَجْدًا وَجُدُودُنَا وَإِنَّا لَنَرْجُو فَوْقَ ذَلِكَ مَظْهَرَا

يريد: علو الرتبة والمنزلة.

وقال أبو عبد الله الرازي: صفات الكمال محصورة في العلم والقدرة فقوله: {وهو القاهر فوق عباده}، إشارة إلى كمال القدرة {وهو الحكيم الخبير}، إشارة إلى كمال العلم، أما كونه قاهرا، فلأن ما عداه تعالى ممكن الوجود لذاته، والممكن لذاته لا يترجح وجوده على عدمه ولا عدمه على وجوده إلا بترجيحه تعالى وإيجاده، فهو في الحقيقة الذي قهر الممكنات تارة في طرق ترجيح الوجود على العدم وتارة في طرق ترجيح العدم على الوجود، ويدخل فيه كل ما ذكره الله تعالى في قوله: {قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ} [آل عمران : ٢٦]، الآية"(٤).

قال الآلوسي:" وظاهر الآية يقتضي القول بالجهة والله تعالى منزه عنها، لأنها محدثة بإحداث العالم وإخراجه من العدم إلى الوجود، ويلزم أيضا من كونه سبحانه وتعالى في جهة مفاسد لا تخفى. وأنت تعلم أن مذهب السلف إثبات الفوقية لله تعالى كما نص عليه الإمام الطحاوي وغيره واستدلوا لذلك بنحو ألف دليل"(٥).

---

(١) البيت لمخبل السعدي، وهو في ادب الكاتب:٤٤٧، والخزانة:١٠١/٨ وحصين: هو الزبرقان بن بدر.

(٢) تفسير القرطبي:٣٩٩/٦.

(٣) ورد البيت في الديوان:٥١، و٦٨، في قصيدتين، في الاولى برواية: بلغنا السماء مجدنا وجدودنا، وفي الثانية: بلغنا السماء مجدا وجودا وسددا، وانظر: مهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي :٣٦٤.

ضمن قصيدة أنشدها الشاعر بين يدي حضرة النبي صلى الله عليه وسلم.

أما الحديث الشريف فهو موضع تساؤل عن صحته، وقد رواه عبد الله بن جراد في (غريب الحديث، ج١، ص ١٩٠) للخَطابي، كما ورد في كتاب (الاستيعاب في معرفة الأصحاب) لابن عبد البَرّ- مادة النابغة الجعدي، ص ١٧٦.

(٤) البحر المحيط:٤٥٧/٤.

(٥) روح المعاني:١٠٨/٤، وانظر: شرح العقيدة *الطحاوية ص*٣٢٦-٣٢٥ .

شرح العقيدة الطحاوية ص ٣٢٥-٣٢٦ . وتجدر الإشارة إلى أن الجويني – كالكثير ممن تعمق في علم الكلام – قد ندم على تعاطيه هذا العلم حتى قال ناصحا لتلاميذه : "لا تشتغلوا بالكلام ، فلو أني عرفت أنه يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به" انظر : نقض المنطق ص٦١. ومما يدل على عودته إلى المذهب الحق قوله بعد أن ذكر كلام الإمام مالك أن الاستواء معلوم واستحسنه ، قال : فلتجر آية الاستواء والمجيء وقوله:(لما خلقت بيدي) [الأعراف : ٧٥] (ويبقى وجه ربك)[الرحمن : ٢٧] وقوله :(تجري بأعيننا) [القمر : ١٤] وما صح من أخبار الرسول عليه السلام كخبر النزول وغيره على ما ذكرنا . اهـ من العقيدة النظامية، ص ٢٣.

وإثبات علو الله على خلقه وفوقيته عليهم هو مقتضى الفطر السليمة التي لم تتلوث بلوثة الابتداع ولم تَشُبْها شائبة علم الكلام وذلك أن الخلق جميعا بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله لا يلتفتون يمنة ولا يسرة . وبهذه الحجة قهر الشيخ أبو جعفر الهمداني الأستاذ أبا المعالي الجويني المتكلم المعروف بإمام الحرمين حتى ضرب على رأسه وقال : حيرني الهمداني ! حيرني !! كما حكى القصة الإمام ابن أبي العز في شرحه لعقيدة الإمام أبي جعفر الطحاوي(١).

وبذلك أيضا احتج الإمام أبو الحسن الأشعري في الإبانة . قال: "ورأينا المسلمين جميعا يرفعون أيديهم إذا دعوا نحو السماء ، لأن الله عز وجل مستو على العرش الذي هو فوق السموات ، فلو لا أن الله عز وجل على العرش لم يرفعوا أيديهم نحو العرش كما لا يحطونها إذا دعوا إلى الأرض"(٢).

وقال ابن عبد البر المالكي رحمه الله : "ومن الحجة أيضا في أنه عز وجل على العرش فوق السموات السبع : أن الموحدين أجمعين من العرب والعجم إذا كربهم أمر أو نزلت بهم شدة رفعوا وجوههم إلى السماء يستغيثون ربهم تبارك وتعالى . وهذا أشهر وأعرف عند الخاصة والعامة من أن يحتاج فيه إلى أكثر من حكايته لأنه اضطرار لم يؤنبهم عليه أحد ولا أنكره عليهم مسلم "(٣). ثم استشهد بحديث الجارية السابق الذي رواه مالك في الموطأ ومسلم في صحيحه(٤).

قال عثمان ابن فودي:" لا يُقدح إطلاق الفوقانية على الله ، فكثيرا ما أومأت إليه الأخبار وظواهر الآيات. ولكن الاعتقاد يقدح إن اعتقدها من غير تنزيه"(٥).

قوله تعالى:{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ١٨]، أي:" وهو الحكيم الذي يضع الأشياء مواضعها وَفْق حكمته، الخبير الذي لا يخفى عليه شيء"(٦).

قال أبو العالية:" الحكيم في أمره"(٧).

قال محمد بن إسحاق:" الحكيم في عذره، وحجته إلى عباده"(٨).

قال الثعلبي:"أي:{الحكيم} في أمره،{الخبير} بما جاء من عباده"(٩).

قال الطبري:" يقول: والله الحكيم في علّوه على عباده، وقهره إياهم بقدرته، وفي سائر تدبيره،{الخبير}، بمصالح الأشياء ومضارِّها، الذي لا يخفي عليه عواقب الأمور وبواديها، ولا يقع في تدبيره خلل، ولا يدخل حكمه دَخَل"(١٠).

قال القرطبي:"{وهو الحكيم} في أمره،{الخبير} بأعمال عباده، أي من اتصف بهذه الصفات يجب ألا يشرك به"(١١).

قال السعدي:"{الحكيم} فيما أمر به ونهى، وأثاب، وعاقب، وفيما خلق وقدر. {الخبير} المطلع على السرائر والضمائر وخفايا الأمور، وهذا كله من أدلة التوحيد"(١٢).

---

(١) .
(٢) الإبانة عن أصول الديانة ، ص١٢٠.
(٣) انظر: التمهيد ١٣٤/٧.
(٤)أخرجه مسلم ١/ ٣٨٢: ح ٥٣٧،في المساجد، وانظر: إثبات صفة العلو: ٦٩. والأدلة كثيرة، فليراجع فيها كتاب "إثبات علو الله على خلقه والرد على المخالفين" للقصاص، و"إثبات صفة العلو" لابن قدامة.
(٥)الجامع الحاوي لغالب ما في كتب المجدد عثمان بن فودي، تأليف العلامة الحاج عثمان الماسني، نشره حفيده المرحوم الحاج أمين تفيد، بقلم الكاتب الطاهر بن محمد البخاري، عام ١٩٧٨م، ص ١٣١.
(٦) التفسير الميسر:١٢٩.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٥٧):ص١٢٧٠/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٥٨):ص١٢٧١/٤.
(٩) تفسير الثعلبي:١٣٩/٤.
(١٠) تفسير الطبري:٢٨٨/١١.
(١١) تفسير القرطبي:٣٩٩/٦.
(١٢) تفسير السعدي:٢٥١.

قال ابن كثير:"{الْحَكِيمُ } أي : في جميع ما يفعله، { الْخَبِيرُ } بمواضع الأشياء ومحالها ، فلا يعطي إلا لمن يستحق ولا يمنع إلا من يستحق "(١).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: إثبات الفوقية لله -تعالى- على جميع خلقه، فوقية مطلقة تليق بجلاله سبحانه.

وأهل السنة والجماعة يعتقدون أنَّ الله فوق جميع مخلوقاته، مستوٍ على عرشه، في سمائه، عالياً على خلقه، بائناً منهم، يعلم أعمالهم ويسمع أقوالهم ويرى حركاتهم وسكناتهم لا تخفى عليه خافية .

٢- ومنها: إثبات العبودية لجميع الخلق؛ لقوله: (فَوْقَ عِبَادِهِ)، وهذه العبودية الكونية؛ كل الخلق عباد الله عز وجل يفعل فيهم ما شاء، ولا يمكن لأي واحد بَرٍّ أو فاجر، مؤمن أو كافر يستعصي على ربه عز وجل من هذه الناحية.

٣- ومن الفوائد المسلكية والمنهجية: أنك تلتزم بأحكام الله الشرعية؛ لأن الحكم له والحكمة فيما شرع، فلا مناص لك عن أحكام الله الشرعية، وهذا لا يمنع من أن نسأل عن الحكمة، لكن بشرط أن نستسلم تمامًا قبل معرفة الحكمة، أما ألّا نستسلم إلا إذا عرفنا الحكمة فهذا غلط عظيم.

٤- إثبات اسمين من اسمائه تعالى، وهما:«الحكيم»، و«الخبير»:

- فـ«الحكيم»: "هو المحكم لخلق الأشياء.قال تعالى:{آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١].

فدل على أن المراد بـ«الحكيم» هنا، الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها (٢).

ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها. إذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك. هذا في قوله -جل وعز-: {الذي أحسن كل شيء خلقه} [السجدة:٧] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيهإلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها. كقوله [تعالى]: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان:٢] (٣).

- و«الخبير»:"هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، كقوله تعالى:{فاسأل بخبيرا} [الفرقان:٥٩]. يقال فلان بهذا الأمر خبير؛ وله به خبر، وهو أخبر به من فلان؛ أي: أعلم. إلا أن الخبر في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع العلم الذي يدخلة الاختبار، ويتوصل إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببدائه العقول.

وعلم الله -سبحانه- سواء فيما غمض من الأشياء و فيما لطف، وفيما تجلى به منه وظهر. وإنما تختلف مدارك علوم الآدميين الذين يتوصلون إليها بمقدمات من حس، وبمعاناة من نظر، وفكر؛ ولذلك قيل لهم: ليس الخبر كالمعاينة، وتعالى الله عن هذه الصفات علوا كبيرا"(٤).

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٤٤/٣.
(٢) انظر: شأن الدعاء، للخطابي:٧٣-٧٤.
(٣) انظر: شأن الدعاء:٧٢/١-٧٣.
(٤) شأن الدعاء:٦٣.

والفرق بين العلم والخبر: "أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها؛ ففيه معنىزائد على العلم"(١).

وفي قَرْن هذين الاسمين«الحكيم والخبير» فائدة؛ وهي أن الخبرة قد تكون خفيَّة لايعلمها إلا الله عز وجل؛ ومن ثَمَّ قلنا: إن جميع أوامر الشرع ونواهيه حكمة، ولا حاجة أن نعرف العلَّة؛ لأنا نعلم أن الله حكيم عز وجل، وأنه ما شرعه إلا لحكمة فلا حاجة، وما موقفنا من الأوامر والنواهي إلا أن نقول: سمعنا وأطعنا.

القرآن

{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩)} [الأنعام : ١٩]

التفسير:

قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: أيُّ شيء أعظم شهادة في إثبات صدقي فيما أخبرتكم به أني رسول الله؟ قل: الله شهيد بيني وبينكم أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلونه لي، وأوحى الله إليَّ هذا القرآن مِن أجل أن أنذركم به عذابه أن يحلَّ بكم، وأنذر به مَن وصل إليه من الأمم. إنكم لتقرون أن مع الله معبودات أخرى تشركونها به. قل لهم -أيها الرسول-: إني لا أشهد على ما أقررتم به، إنما الله إله واحد لا شريك له، وإنني بريء من كل شريك تعبدونه معه.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: "جاء النحام بن زيد وقردم بن كعب وبحري بن عمير، فقالوا: يا محمد! ما تعلم مع الله إلهاً غيره، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: «لا إله إلا الله، بذلك بُعثت وإلى ذلك أدعو»؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ- فيهم وفي قولهم: {قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لَا أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (١٩) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)}(٢). [ضعيف]

والثاني: نقل الواحدي عن الكلبي: "إن رؤساء مكة قالوا: يا محمد ما نرى أحدا يصدقك بما تقول من أمر الرسالة، ولقد سألنا عنك اليهود والنصارى فزعموا أن ليس لك عندهم ذكر ولا صفة، فأرنا من يشهد لك أنك رسول كما تزعم، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٣).[ضعيف]

قوله تعالى:{قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً} [الأنعام : ١٩]، أي:" قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: أيُّ شيء أعظم شهادة في إثبات صدقي فيما أخبرتكم به أني رسول الله؟"(٤).

قال البغوي:أي:" أعظم، {شهادة}"(٥).

---

(١) الفروق/ ابو هلال العسكري:٧٤.

(٢)أخرجه ابن إسحاق في "المغازي" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان"(١٣١٢٩):ص٢٩٣/١١، وذكر الطبري أن هذا الإسناد لم تثبت صحته عنده. قال المحقق:"وهذه أول مرة يذكر أبو جعفر أن هذا الإسناد لم تثبت صحته عنده ، كما قدم قبل ذكره".

وهذا سند ضعيف ؛لجهالة محمد هذا؛ فلم يرو عنه إلا ابن إسحاق ، وقال الذهبي في "الميزان": لايعرف، وقال ابن حجر: مجهول.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٥٦) وزاد نسبته لابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ.

وهو عند ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٧١٦٨):ص٤/ ١٢٧٢،معضلاً.

(٣) أسباب النزول:٢١٤. الكلبي هو ممن يضع الحديث، فالخبر لاشيء.

(٤) التفسير الميسر:١٣٠.

(٥) تفسير البغوي:١٣٣/٣.

قال ابن كثير:" أي : من أعظم الأشياء شهادة"[١].

قال السمعاني:" قوله {قل الله} جواب أى الله أكبر شهادة فالله مبتدأ والخبر محذوف فيكون دليلا على أنه يجوز إطلاق اسم الشئ على الله تعالى وهذا لأن الشئ اسم للموجود ولا يطلق على المعدوم والله تعالى موجود فيكون شيئا ولذا تقول الله تعالى شيء لا كالأشياء"[٢].

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام : ١٩]، أي:" قل: الله شهيد بيني وبينكم أي: هو العالم بما جئتكم به وما أنتم قائلونه لي"[٣].

قال البغوي:أي:" فإن أجابوك، وإلا {قل الله} هو {شهيد بيني وبينكم} على ما أقول، ويشهد لي بالحق وعليكم بالباطل"[٤].

قال ابن كثير:" أي : هو العالم بما جئتكم به ، وما أنتم قائلون لي "[٥].

قوله تعالى:{وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ} [الأنعام : ١٩]، أي:" وأوحى الله إليَّ هذا القرآن مِن أجل أن أنذركم به عذابه أن يحلَّ بكم، وأنذر به مَن وصل إليه من الأمم"[٦].

قال البغوي:أي:" لأخوفكم به يا أهل مكة، {ومن بلغ} يعني: ومن بلغه القرآن من العجم وغيرهم من الأمم إلى يوم القيامة"[٧].

قال ابن كثير:" أي : وهو نذير لكل من بلغه ، كما قال تعالى : { وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ } [هود : ١٧]"[٨].

قال السمعاني:" أي: ومن بلغه القرآن إلى قيام الساعة"[٩].

قال مقاتل:" يعني: لكي أنذركم بالقرآن يأهل مكة ،{ومن بلغ} القرآن من الجن والإنس فهو نذير لهم، يعني: القرآن إلى يوم القيامة"[١٠].

قال الزجاج:" ففي الإنذار دليل على نبوته، لأنه لم يأت أحد بمثله، ولا يأتي بمثله لأن فيه أخبار الأمم السالفة، جاء بها عليه السلام، وهو أمي لا يقرأ الكتب، وأنبأ بما سيكون، وكان ما أنبأ به حقا، ثم قال: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة : ٦٧] ، وكان - صلى الله عليه وسلم - معصوما منهم، وقال:{ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ} [التوبة : ٣٣، الصف:٩]، فأظهر الله دين الإسلام على سائر الأديان بالحجة القاطعة، وغلبة المسلمين على أكثر أقطار الأرض، وقال في إليهود. وكانوا في وقت مبعثه أعز قوم وأمتنه:{وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ} [البقرة : ٦١]، فهم أذلاء إلى يوم القيامة، فأنبأ الله في القرآن بما كان وما يكون، وأتى به مؤلفا تأليفالم يقدر أحد من العرب أن يأتي بسورة مثله، وهو في الوقت الذي قيل لهمليأتوا بسورة من مثله، خطباء شعراء لم يكن عندهم أوجز من الكلام المنثور، والموزون، فعجزوا عن ذلك"[١١].

قال محمد بن كعب:"من بلغه القرآن فكأنما رأى النبي صلى الله عليه وسلم - زاد أبو خالد : وكلّمه"[١٢].

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٢) تفسير السمعاني:٤٩٥/١.
(٣) التفسير الميسر:١٣٠.
(٤) تفسير البغوي:١٣٣/٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٦) التفسير الميسر:١٣٠.
(٧) تفسير البغوي:١٣٣/٣.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٩) تفسير السمعاني:٤٩٥/١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٤/١.
(١١) معاني القرآن:٢٣٤/٢.
(١٢) اخرجه ابن أبي حاتم والطبري كما في تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.

وعن قتادة في قوله : "{ لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ } إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قال : "بلغوا عن الله ، فمن بلغته آية من كتاب الله فقد بَلَغه أمر الله"(١).

وقال الربيع بن أنس : "حق على من اتبع رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يدعو كالذي دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأن ينذر كالذي أنذر"(٢).

عن عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمدا فليتبوأ معقده من النار"(٣).

عن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود عن أبيه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " «نضر الله امرأ سمع منا حديثا، فحفظه حتى يبلغه، فرب حامل فقه إلى من ليس بفقية، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه»"(٤).

قوله تعالى:{أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى} [الأنعام : ١٩]، أي:" إنكم لتقرون أن مع الله معبودات أخرى تشركونها به"(٥).

قال مقاتل:" ثم قال: {أإنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى}؟ قالوا: نعم نشهد"(٦).

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.

(٣)أخرجه البخاري في الصحيح (٣٤٦١)،والترمذي في السنن (٢٦٦٩)،وابن حبان في الإحسان (٦٢٥٦).

(٤)ورد من حديث ابن مسعود، وزيد بن ثابت، وجبير بن مطعم .

فأما حديث ابن مسعود أخرجه الترمذي (٥/ ٣٣) في العلم، باب ما جاء في الحث على تبليغ السماع (٢٦٥٧، ٢٦٥٨) ، وابن ماجة (١/ ٨٥) في المقدمة، باب من بلغ علما (٢٣٢) والحميدي في »مسنده (٨٨) «، وأحمد (١/ ٤٣٧) ، والشافعي في »مسنده (١٦ /١) «، وأبو يعلى (٥٢٢٦، ٥٢٩٦) ، وابن حبان (٧٤، ٧٥، ٧٦) موارد، والرامهرمزي في »المحدث الفاصل «برقم (٦، ٧، ٨) ، وابن عبد البر في »جامع بيان العلم١٨٨) «، ١٨٩، ١٩٠، (١٩١، وأبو نعيم في »الحلية . (٣٣١ /٧) «والخطيب في »الكفاية «ص (١٧٣) ، وفي »شرف أصحاب الحديث «ص (١٨، ١٩) ، والبيهقي في »معرفة السنن والآثار١٦ -١٥ /١) «، (٤٣، وفي »الدلائل (٥٤٠ /٦) «والقضاعي في »مسند الشهاب١٤١٩) «، (١٤٢٠، وابن أبي حاتم في »الجرح والتعديل٩ /٢) «، (١٠وأبو الشيخ في »الأمثال (٢٠٤) «، وأبو نعيم في »تاريخ أصبهان (٩٠ /٢) «، والحاكم في »معرفة علوم الحديث «ص (٣٢٢) من طرق عنه .وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح .وأما حديث زيد بن ثابت أخرجه أبو داود (٢/ ٣٤٦) في العلم، باب فضل نشر العلم (٣٦٦٠) ، والترمذي (٢٦٥٦) وابن ماجة (٢٣٠) ، وأحمد (٥/ ١٨٣) وابن حبان (٧٢- ٧٣) موارد، والدارمي (١/ ٧٥) ، والطحاوي في »مشكل الآثار (٢٣٢ /٢) «، وابن عبد البر في »جامع بيان العلم١٨٤) «، ١٨٥، ١٨٦، (١٨٧، وابن أبي عاصم في »السنة (٩٤) «، وابن أبي حاتم في »الجرح والتعديل (١١ /٢) «، والرامهرمزي (٤٢٣) والخطيب في »شرف أصحاب الحديث) «ص ١٧، ١٨) والخطيب في »الفقيه والمتفقه . (٧١ /٢) «وقال الترمذي: حديث حسن .وأما حديث جبير بن مطعم فأخرجه ابن ماجة (٢٣١) ، وأحمد (٤/ ٨٠، ٨٢) والدارمي (١/ ٧٤-٧٥) والطبراني في »الكبير (١٥٤١) «، وأبو يعلى في مسنده (٧٤١٣) والقضاعي في »مسند الشهاب « (١٤٢١)والطحاوي في »المشكل (٢٣٢ /٢) «وابن أبي حاتم في »الجرح والتعديل (١٠ /٢) «، وابن حبان في »المجروحين (٥ -٤ /١) «، وابن عبد البر في »جامع بيان العلم (١٩٥) «، والحاكم في »المستدرك /١) « (٨٧من طرق عن محمد بن إسحاق عن الزهري عن محمد بن جبير عن أبيه .وأخرجه ابن ماجة (٢٣١) ، والطبراني في »الكبير (١٥٤٢) «، والطحاوي في »المشكل (٢٣٢ /٢) «من طريق ابن إسحاق، عن عبد السلام بن أبي الجنوب، عن الزهري، عن محمد بن جبير به .وقال البوصيري في »الزوائد : (٩٩ /١) «هذا إسناد ضعيف لضعف عبد السلام ..وأخرجه الطبراني (١٥٤٣) وابن أبي حاتم (١/ ١٠) من طريق ابن إسحاق، عن عمرو بن أبي عمرو، عن محمد بن جبير، عن أبيه به. -- وأخرجه أبو يعلى في »مسنده « (٧٤١٤)، والحاكم (١/ ٨٧- ٨٨) من طريق ابن إسحاق عن عمرو بن أبي عمرو عن عبد الرّحمن بن الحويرث عن محمد بن جبير به .وتابعه عليه إسماعيل بن جعفر، عن عمرو به، وأخرجه الدارمي في »سننه « . (٧٤ /١)وأخرجه الطبراني (١٥٤٤) ، والحاكم (١/ ٨٧) من طريق نعيم بن حماد قال: ثنا إبراهيم بن سعد، عن صالح بن كيسان، عن الزهري، عن محمد بن جبير. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي..

(٥) التفسير الميسر:١٣٠.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٤/١.

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المشركين ، الجاحدين نبوَّتك ، العادلين بالله ، ربًّا غيره : {أئنكم }، أيها المشركون تشهدون أنّ معه معبودات غيره من الأوثانَ والأصنام"[1].

قال ابن كثير:"{أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ}، أي: أيها المشركون { أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى قُلْ لا أَشْهَدُ } كما قال تعالى : { فَإِنْ شَهِدُوا فَلا تَشْهَدْ مَعَهُمْ } [الأنعام : ١٥٠]"[2].

قال ابن ابي زمنين:" وهذا على الاستفهام؛ أي: قد شهدتم أن مع الله آلهة أخرى؟"[3].

قوله تعالى:{قُلْ لَا أَشْهَدُ} [الأنعام : ١٩]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: إني لا أشهد على ما أقررتم به"[4].

قال مقاتل:" قال الله للنبي- صلى الله عليه وسلم-:قل لهم لا أشهد بما شهدتم"[5].

قال الطبري:" ثم قال لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : {قل}، يا محمد {لا أشهد}، بما تشهدون : أن مع الله آلهة أخرى ، بل أجحد ذلك وأنكره"[6].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ} [الأنعام : ١٩]، أي:" إنما الله إله واحد لا شريك له"[7].

قال مقاتل:" ولكن أشهد قل إنما هو إله واحد"[8].

قال الطبري:" يقول : إنما هو معبود واحد ، لا شريك له فيما يستوجب على خلقه من العبادة "[9].

قوله تعالى:{وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام : ١٩]، أي:" وإنني بريء من كل شريك تعبدونه معه"[10].

قال الطبري:" يقول : قل : وإنني بريء من كلّ شريك تدعونه لله ، وتضيفونه إلى شركته ، وتعبدونه معه ، لا أعبد سوى الله شيئًا ، ولا أدعو غيره إلهًا"[11].

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن شهادة الله أكبر شهادة، والله إن شهادة الله أكبر شهادة؛ لأنها مبنيَّة على علم ويقين وعدل.

٢- ومنها: أن الله تبارك وتعالى حاكم بين النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم وخصومه؛ لقوله: (شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ).

٣- ومنها: أن هذا القرآن موحى إلى الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم كله، ما فيه ولا كلمة ولا حرف غير موحى إليه، وأَبْهَم الفاعل؛ لأنه معلوم، لأن الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم أُمِر أن يقول: (إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي) [سبأ :٥٠].

٤- ومنها: عظمة هذا القرآن حيث أُوحِي من الله إلى رسوله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولا شك في هذا، وآثار تعظيمه وعظمته كثيرة؛ منها أنه لا يقرؤه الجنب حتى يغتسل، ومنها أنه لا يمسُّه المحدث حتى يتوضأ، ومنها أنه لا يجوز أن تُدْخَل به الأماكن القذرة، ومنها أنه لا تجوز إهانته بأن يوضع بين القدمين مثلًا، ومنها أنه لا يُسافَر به إلى

(١) تفسير الطبري:٢٩٢/١١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٦٢/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٣٠.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٤/١.
(٦) تفسير الطبري:٢٩٣/١١.
(٧) التفسير الميسر:١٣٠.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٤/١.
(٩) تفسير الطبري:٢٩٣/١١.
(١٠) التفسير الميسر:١٣٠.
(١١) تفسير الطبري:٢٩٣/١١.

أرض العدو إذا كان يُخْشى عليه من الإهانة، ومنها أنه لا يجوز بيع المصحف؛ بعض العلماء يقول: لا يجوز بيعه، وعللوا ذلك بأن ذلك ابتذال له حتى قال ابن عمر رضي الله عنهما: «وددت أن الأيدي تُقْطع في بيعه»[1]، لأن الواجب على من استغنى عنه أن يبذله لغيره، فالمهم أن تعظيم القرآن واجب، وله صُوَرٌ ذكرنا منها ما شاء الله.

٥- ومنها: أن القرآن الكريم كافٍ في الإنذار؛ لقوله: (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ) فمن لم يتعظ بالقرآن فلا وَعَظَه الله، قال الله تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ) [يونس ٥٧].

٦- ومنها: أن من بَلَغَه القرآن فقد قامت عليه الحجة؛ لقوله: (لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ).

٧- ومنها: أنه يجب على علماء المسلمين أن يُبَلِّغوا القرآن كل أحد؛ لأنهم ورثة الأنبياء، ولكن من لم يكن لسانه عربيًّا فإنه يُبَلَّغ معنى القرآن بلسانه، ثم يُعطى القرآن فيقرأه باللفظ العربي؛ ولهذا نرى بعض الذين لا ينطقون العربية يقرؤون القرآن بالعربية، وهم لا يعرفون معناه، وهذه من آيات الله أن الله تعالى يسَّر القرآن لهم حتى كانوا ينطقون به بالعربي، مع أنك لو أعطيتهم قطعة من سطرين فقط ما يقرؤونها، ما يستطيعون، لكن هذا من آيات الله، وربما نقول: إنه داخل في قوله تعالى: (وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ) [القمر ١٧].

٨- ومنها: الإنكار الشديد على من يشهدون أن مع الله آلهة أخرى؛ لقوله: (أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ)، وتأمل كيف أتت الجملة مؤكَّدة حتى لا يستطيعوا أن ينكروا، فقال:(أَئِنَّكُمْلَتَشْهَدُونَ) يعني: أؤكد أنكم تشهدون أن مع الله آلهة أخرى، وأنا أنكر عليكم، والاستفهام للإنكار، والجملة التي دخل عليها الاستفهام مؤكدة بـ(إن واللام) حتى لا يمكن، يعني أؤكد أنكم تشهدون (أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَى)، وأنكر عليكم.

٩- ومنها: سفه أولئك المشركين الذين يشهدون أن مع الله آلهة أخرى، ولو سئلوا عنها: أتخلق شيئًا؟ لقالوا: لا، وهذا من سفههم أن يعبدوا من لا يخلق.

١٠- ومنها: وجوب التبرُّؤ من أهل الباطل وما هم عليه؛ لقوله: (قُلْ لَا أَشْهَدُ) يعني: أؤكد أنكم تشهدون، ولكني أنا لا أشهد، وهذا واجب أن يتبرأ الإنسان من كل ما يُعْبَد من دون الله، فإنْ لم يشهد ببطلان آلهتهم سوى الله فإنه لم يُخلص ولم يوحِّد؛ إذ إن التوحيد مبنيٌّ على النفي والإثبات.

١١- ومنها: وجوب البراءة مما عليه المشركون؛ لقوله: (وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ).

١٢- إثبات اسم من اسماءه تعالى، وهو «الشهيد»:

و«الشهيد»: "هو الذي لا يغيب عنه شيء. يقال: شاهد وشهيد كعالم، وعليم. أي: كأنه الحاضر الشاهد الذي لا يعزب عنه شيء. وقد قال –سبحانه-: {فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ} [البقرة : ١٨٥]، أي: من حضر منكم في الشهر فليصمه.

ويكون «الشهيد»، بمعنى: العليم. كقوله: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} [آل عمران : ١٨، قيل: معناه: علم الله.

وقال أبو العباس أحمد بن يحيى معناه: «بين الله أنه لا إله إلا هو»، وهو أيضا الشاهد للمظلوم الذي لا شاهد له ولا ناصر على الظالم المتعدي الذي لا مانع له في الدنيا؛ لينتصف له منه"[2].

القرآن

{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠)} [الأنعام : ٢٠]

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة (٢٠٤٦١).

(٢) شأن الدعاء:٧٦.

التفسير:

الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، يعرفون محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفاته المكتوبة عندهم كمعرفتهم أبناءهم، فكما أن أبناءهم لا يشتبهون أمامهم بغيرهم، فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم لا يشتبه بغيره لدقة وصفه في كتبهم، ولكنهم اتبعوا أهواءهم، فخسروا أنفسهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به.

سبب النزول:

قال مقاتل:" وأنزل في قولهم:«لقد سألنا عنك أهل الكتاب فزعموا أنه ليس لك عندهم ذكر»، فقال: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ}، أي: صفة محمد- صلى الله عليه وسلم- فى كتبهم، { كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ}...إن عبد الله بن سلام قال: لأنا أعرف بمحمد- عليه السلام- مني بابني، لأني لا أعلم ما أحدثت فيه أمه"[١].

قوله تعالى:{الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ} [الأنعام : ٢٠]، أي:" الذين آتيناهم التوراة والإنجيل، يعرفون محمدًا صلى الله عليه وسلم بصفاته المكتوبة عندهم كمعرفتهم أبناءهم، فكما أن أبناءهم لا يشتبهون أمامهم بغيرهم، فكذلك محمد صلى الله عليه وسلم لا يشتبه بغيره لدقة وصفه في كتبهم"[٢].

قال قتادة:" اليهود , والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم في كتابهم كما يعرفون أبناءهم"[٣].

قال الزجاج:" أي: يعرفون محمدا - صلى الله عليه وسلم - أنه نبي كما يعرفون أبناءهم"[٤].

قال السمرقندي:"{الذين آتيناهم الكتاب}، يعني: التوراة والإنجي، {يعرفونه} يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم بنعته وصفته كما يعرفون أبناءهم"[٥].

قال الزمخشري:" يعنى اليهود والنصارى يعرفون رسول الله صلى الله عليه وسلم بحليته ونعته الثابت في الكتابين معرفة خالصة كما يعرفون أبناءهم بحلاهم ونعوتهم لا يخفون عليهم ولا يلتبسون بغيرهم. وهذا استشهاد لأهل مكة بمعرفة أهل الكتاب به وبصحة نبوته"[٦].

قال القرطبي:"{لذين آتيناهم الكتاب}، يريد اليهود والنصارى الذين عرفوا وعاندوا"[٧].

قال ابن عطية:"{الكتاب}، معناه: التوراة والإنجيل، وهو لفظ مفرد يدل على الجنس"[٨].

قال ابن كثير:" ثم قال مخبرًا عن أهل الكتاب : إنهم يعرفون هذا الذي جئتهم به كما يعرفون أبناءهم ، بما عندهم من الأخبار والأنباء عن المرسلين المتقدمين والأنبياء ، فإن الرسل

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٥٤.

وأما قول عبدالله بن سلام، فقد سبق الإشارة إليه في سبب نزول الآية(١٤٦) من سورة البقرة، وهو قوله: {الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦)} [البقرة: ١٤٦]:

قال الواحدي: " نزلت في مؤمني أهل الكتاب عبد الله بن سلام وأصحابه كانوا يعرفون رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بنعته وصفته وبعثه في كتابهم كما يعرف أحدهم ولده إذا رآه مع الغلمان؛ قال عبد الله بن سلام: لأنا أشد معرفة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - مني بابني، فقال له عمر بن الخطاب: وكيف ذاك يا ابن سلام؟ قال: لأني أشهد أن محمدا رسول الله حقا يقينا، وأنا لا أشهد بذلك على ابني، لأني لا أدري ما أحدث النساء، فقال عمر: وفقك الله يا ابن سلام".[أسبابالنزول: ٤٤،وانظر: العجاب: ١/ ٣٩٨ – ٣٩٩].

(٢) التفسير الميسر:١٣٠.

(٣) تفسير عبدالرزاق(٧٨٨):ص٤٧/٢.

(٤) معاني القرآن:٢٣٥/٢.

(٥) بحر العلوم:٤٣٩/١.

(٦) الكشاف:١١/٢-١٢.

(٧) تفسير القرطبي:٤٠٠/٦.

(٨) المحرر الوجيز:٢٧٦/٢.

كلهم بَشَّروا بوجود محمد صلى الله عليه وسلم وببعثه وصفته ، وبلده ومُهَاجَرِه ، وصفة أمته"[١].

واختلف في عود الضمير في قوله تعالى:{يَعْرِفُونَهُ} [الأنعام : ٢٠]، على أقوال[٢]:

أحدها: أنه عائد إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم-، أي: يعرفونه معرفة جلية، يميزون بينه وبين غيره كما يعرفون أبناءهم، لا تشتبه عليهم وأبناء غيرهم. وهذا قول ابن عباس [٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، وابن جريج[٦]، وهو قول أكثر المفسرين[٧].

قال ابن عطية:"وذلك على ما في قوله: {وأوحي إلي هذا القرآن لأنذركم} [الأنعام: ١٩]، فكأنه قال: وأهل الكتاب يعرفون ذلك من إنذاري والوحي إلي، وتأول هذا التأويل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يدل على ذلك قوله لعبد الله بن سلام :«إن الله أنزل على نبيه بمكة أنكم تعرفونه كما تعرفون أبناءكم فكيف هذه المعرفة فقال عبد الله بن سلام نعم أعرفه الصفة التي وصفه الله في التوراة فلا أشك فيه، وأما ابني فلا أدري ما أحدثت أمه»[٨].وتأول ابن سلام رضي الله عنه المعرفة بالابن تحقق صحة نسبه، وغرض الآية إنما هو الوقوف على صورته فلا يخطىء الأب فيها"[٩].

والثاني: أنه عائد على التوحيد، لقرب قوله: {قل إنما هو إله واحد} [الأنعام: ١٩].

والثالث: أنه عائد على القرآن المذكور قبل.

والرابع: أنه عائد على هذه كلها دون اختصاص، كأنه وصف أشياء كثيرة، ثم قال: {أهل الكتاب يعرفونه}، أي: ما قلنا وما قصصنا. قاله ابن عطية[١٠].

والخامس: أنه يعود على «الكتاب»، أي: يعرفونه على ما يدل عليه، أي على الصفة التي هو بها من دلالته على صحة أمر النبي صلى الله عليه وسلم . ذكره القرطبي[١١].

قال ابن عطية:"وهذا استشهاد في ذلك على كفرة قريش والعرب بأهل الكتاب"[١٢].

في سبب تخصيص ذكر الأبناء في المعرفة دون الأنفس في قوله تعالى {كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ}، قال الرازي: " لأن الذكور أعرف وأشهر وهم بصحبة الآباء ألزم وبقلوبهم ألصق" [١٣].

وقال القرطبي: "وخص الأبناء في المعرفة بالذكر دون الأنفس وإن كانت ألصق لأن الإنسان يمر عليه من زمنه برهة لا يعرف فيها نفسه، ولا يمر عليه وقت لا يعرف فيه ابنه"[١٤]

قوله تعالى:{الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} [الأنعام : ٢٠]، أي:" ولكنهم اتبعوا أهواءهم، فخسروا أنفسهم حين كفروا بمحمد صلى الله عليه وسلم وبما جاء به"[١٥].

قال الطبري:" يعنى بقوله:"خسروا أنفسهم"، أهلكوها وألقوها في نار جهنم، بإنكارهم محمدًا أنه لله رسول مرسل، وهم بحقيقة ذلك عارفون ، فهم بخسارتهم بذلك أنفسهم لا يؤمنون،

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٢) انظر: المحرر الوجيز:٢٧٦/٢.
(٣)عزاه في: زاد المسير: ١/ ١٥٨.
(٤)عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٢٢٤.
(٥)عزاه إليه ابن عطية، انظر: المحرر الوجيز: ١/ ٢٢٤.
(٦) انظر: المحرر الوجيز:٢٧٧/٢.
(٧)انظر: تفسير الثعلبي: ٢/ ١٣،وتفسير البيضاوي: ١٥٧/٢، وقال في "البحر المحيط" ١/ ٤٣٥: "واختاره الزجاج ورجحه التبريزي، وبدأ به الزمخشري".وهو الذي رجحه أبوحيان.
(٨) انظر: أسباب النزول للواحدي: ٤٤،والعجاب في بيان الأسباب: ١/ ٣٩٨ – ٣٩٩.
(٩) المحرر الوجيز:٢٧٧/٢.
(١٠) انظر: المحرر الوجيز:٢٧٦/٢.
(١١) انظر: تفسير القرطبي:٤٠٠/٦.
(١٢) المحرر الوجيز:٢٧٦/٢.
(١٣)مفاتيح الغيب: ٤/ ١١٨.
(١٤)تفسيرالقرطبي: ٢/ ١٦٣.
(١٥) التفسير الميسر:١٣٠.

وقد قيل: إنّ معنى:«خسارتهم أنفسهم»، أن كل عبد له منزل في الجنة ومنزل في النار. فإذا كان يوم القيامة، جعل الله لأهل الجنة منازلَ أهل النار في الجنة، وجعل لأهل النار منازلَ أهل الجنة في النار، فذلك خسران الخاسرين منهم، لبيعهم منازلهم من الجنة بمنازل أهل الجنة من النار، بما فرط منهم في الدنيا من معصيتهم الله، وظلمهم أنفسهم، وذلك معنى قول الله تعالى ذكره: الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ، [سورة المؤمنون: ١١]"[١].

قال يحيى بن سلام:{ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ}،" لأنهم كفروا به بعد المعرفة"[٢].

قال الزجاج:"{والذين خسروا أنفسهم}، الأشبه أن يكون ههنا يعني به: أهل الكتاب، وجائز أن - يكون يعني به: جملة الكفار من أهل الكتاب وغيرهم"[٣].

قال السمرقندي:" يعني: كعب بن الأشرف ومن تابعه ممن طلبوا الرئاسة، آثروا الدنيا على الآخرة"[٤].

قال البغوي:" {الذين خسروا أنفسهم} ، غبنوا أنفسهم {فهم لا يؤمنون} ، وذلك أن الله جعل لكل آدمي منزلا في الجنة ومنزلا في النار، وإذا كان يوم القيامة جعل الله للمؤمنين منازل أهل النار في الجنة، ولأهل النار منازل أهل الجنة في النار، وذلك الخسران"[٥].

قال الزمخشري: {الذين خسروا أنفسهم}، أي:" من المشركين ومن أهل الكتاب الجاحدين فهم لا يؤمنون به، جمعوا بين أمرين متناقضين، فكذبوا على الله بما لا حجة عليه، وكذبوا بما ثبت بالحجة البينة والبرهان الصحيح، حيث قالوا: لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا. وقالوا: والله أمرنا بها وقالوا: الملائكة بنات الله وهؤلاء شفعاؤنا عند الله ونسبوا إليه تحريم البحائر والسوائب، وذهبوا فكذبوا القرآن والمعجزات، وسموها سحرا، ولم يؤمنوا بالرسول - صلى الله عليه وسلم-"[٦].

قال البيضاوي:"{الذين خسروا أنفسهم} من أهل الكتاب والمشركين،{فهم لا يؤمنون}، لتضييعهم ما به يكتسب الإيمان"[٧].

قال ابن كثير:" أي : خسروا كل الخسارة ، { فَهُمْ لا يُؤْمِنُونَ } بهذا الأمر الجلي الظاهر الذي بشرت به الأنبياء ، ونوهت به في قديم الزمان وحديثه"[٨].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الحجة قائمة على اليهود والنصارى في صحة بعثة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لقوله: (يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ).

٢- ومنها: أنه ينبغي أن يُضْرَب المثل بأقرب مطابق للمُمَثَّل؛ لقوله: (كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ) لأن هذا أقرب إلى التصور وإلى الصدق.

٣- ومنها: أن من لم يؤمن فقد خسر نفسه؛ لقوله: (الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ)، وخسر أهله كذلك، لقوله الله عز وجل: (قُلْ إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) [الزمر ١٥]،وخسروا أيضًا أعمارهم التي مضت في غير فائدة؛ لأن شخصًا مآله نار جهنم -والعياذ بالله- بعد أن عُمِّر في الدنيا ما عمر، قد خسر وقته وزمنه، كما قال الله عز وجل: (أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ) [فاطر ٣٧].

---

(١) تفسير الطبري:٢٩٤/١١، وانظر:معاني القرآن للفراء ١/ ٣٢٩، ٢٣٠.

(٢)التصاريف لتفسير القرآن مما اشتبهت أسمائه وتصرفت معانيه:ص١٠٤.

(٣) معاني القرآن:٢٣٥/٢.

(٤) بحر العلوم:٤٣٩/١.

(٥) تفسير البغوي:١٣٤/٣.

(٦) الكشاف:١٢/٢.

(٧) تفسير البيضاوي:١٥٧/٢.

(٨) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.

القرآن
{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ (٢١)} [الأنعام : ٢١]
التفسير:
لا أحد أشد ظلمًا ممَّن تَقَوَّلَ الكذب على الله تعالى، فزعم أن له شركاء في العبادة، أو ادَّعى أن له ولدًا أو صاحبة، أو كذب ببراهينه وأدلته التي أيَّد بها رسله عليهم السلام. إنه لا يفلح الظالمون الذين افتروا الكذب على الله، ولا يظفرون بمطالبهم في الدنيا ولا في الآخرة.
سبب النزول:
عن عكرمة قال: قال النضر وهو من بني عبد الدار: إذا كان يوم القيامة شفعت لي اللات والعزى فأنزل الله تعالى: {وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ}"(١).
قوله تعالى:{وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا} [الأنعام : ٢١]، أي:" لا أحد أشد ظلمًا ممَّن تَقَوَّلَ الكذب على الله تعالى، فزعم أن له شركاء في العبادة، أو ادَّعى أن له ولدًا أو صاحبة"(٢).
قال الواحدي:أي:" أي: لا أحد أظلم ممَّن اختلق على الله كذباً يعني: الذين ذكرهم في قوله: {وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً} [الأعراف : ٢٨]،الآية"(٣).
قال السمرقندي:" يعني: ممن اختلق على الله كذبا باتخاذ الآلهة وقوله الشرك"(٤).
قال الثعلبي:{ومن أظلم}، يعني:"أكفر"(٥).
قال السمعاني:" أي: قال عليه ما لم يقله"(٦).
قال ابن كثير:" أي : لا أظلم ممن تَقَوَّل على الله ، فادعى أن الله أرسله ولم يكن أرسله"(٧).
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: ومن أشدُّ اعتداءً، وأخطأ فعلا وأخطأ قولا ممن اختلق على الله قيلَ باطل، واخترق من نفسه عليه كذبًا، فزعم أن له شريكًا من خلقه، وإلهًا يعبد من دونه - كما قاله المشركون من عبدة الأوثان - أو ادعى له ولدًا أو صاحبة، كما قالته النصارى"(٨).
قوله تعالى:{أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ} [الأنعام : ٢١]، أي:" أو كذب ببراهينه وأدلته التي أيَّد بها رسله عليهم السلام"(٩).
قال مقاتل:" يعني: بالقرآن أنه ليس من الله"(١٠).
قال السمعاني:" يعني: آيات القرآن"(١١).
قال الواحدي:أي:" بالقرآن وبمحمد عليه السَّلام"(١٢).
قال الطبري:" يقول: أو كذب بحججه وأعلامه وأدلته التي أعطاها رسله على حقيقة نبوتهم، كذّبت بها اليهود"(١).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٧٣):ص١٢٧٣/٤.
(٢) التفسير الميسر:١٣٠.
(٣) الوجيز:٣٤٨.
(٤) بحر العلوم:٤٤٠/١.
(٥) تفسير الثعلبي:١٤١/٤.
(٦) تفسير السمعاني:٩٤/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٨) تفسير الطبري:٢٩٦/١١.
(٩) التفسير الميسر:١٣٠.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(١١) تفسير السمعاني:٩٤/٢.
(١٢) الوجيز:٣٤٨.

قال السمرقندي:" يعني: بالقرآن أنه ليس من عند الله"(٢).
قال ابن كثير:أي:" ثم لا أظلم ممن كذب بآيات الله وحججه وبراهينه ودلالاته"(٣).
قال السعدي:" أي: لا أعظم ظلما وعنادا، ممن كان فيه أحد الوصفين، فكيف لو اجتمعا، افتراء الكذب على الله، أو التكذيب بآياته، التي جاءت بها المرسلون، فإن هذا أظلم الناس، ويدخل في هذا، كل من كذب على الله، بادعاء الشريك له والعوين، أو زعم أنه ينبغي أن يعبد غيره أو اتخذ له صاحبة أو ولدا، وكل من رد الحق الذي جاءت به الرسل أو من قام مقامهم"(٤).
قال الحسن: "كل ما في القرآن:«بآياتنا وآياته»، يعني به: الدين بما فيه"(٥).
قوله تعالى:{إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام : ٢١]، أي:" إنه لا يفلح الظالمون الذين افتروا الكذب على الله، ولا يظفرون بمطالبهم في الدنيا ولا في الآخرة"(٦).
قال مقاتل:" يعني: المشركين في الآخرة يعيبهم نظيرها في«يونس»(٧)"(٨).
قال الطبري:" يقول: إنه لا يفلح القائلون على الله الباطل، ولا يدركون البقاءَ في الجنان، والمفترون عليه الكذب، والجاحدون بنبوة أنبيائه"(٩).
قال ابن كثير:" أي : لا يفلح هذا ولا هذا ، لا المفتري ولا المكذب"(١٠).
قال السمرقندي:" يعني: أنه لا يأمن الكافرون من عذابه"(١١).
قال الواحدي:أي:" لا يسعد مَنْ جحد ربوبيَّة ربِّه وكذَّب رسله، وهم الذين ظلموا أنفسهم بإهلاكها بالعذاب"(١٢).
قال الثعلبي:"{الظالمون}: الكافرون"(١٣).
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة: أن الظلم يختلف، بعضه أشدُّ من بعض، لأن المعاصي تختلف، بعضها أعظم من بعض، هناك كبائر وهناك صغائر، والكبائر نفسها تختلف، فيه أكبر الكبائر وما دونها، والصغائر كذلك تختلف، فمن أين نعرف أن الأعمال المحرمة تختلف باختلاف الظلم؟ لأن كل فعل محرَّم أو تركِ واجب ظلم، وإذا كان يتفاوت لزم من ذلك تفاوت الأعمال.
٢- ومنها: التحذير من أن يفتري الإنسان على الله الكذب؛ لأنه بَيَّن أنه في المرتبة العليا من الظلم، ومن ذلك -أي من الافتراء على الله كذبًا- أن يَكْذِب الإنسان على ربه عز وجل في مدلول آياته فيقول: أراد الله بكذا كذا وكذا، هذا كذب على الله، ومن ذلك أن يفتري على الله كذبًا في أحكامه فيقول: هذا حلال وهذا حرام كما قال تعالى: (وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ) [النحل ١١٦].
٣- ومنها: عِظَمُ ظلم من كذَّب بآيات الله؛ لأنه دخل في الطبقة العليا من الظلم (وَمَنْ أَظْلَمُ).

---

(١) تفسير الطبري:٢٩٦/١١.
(٢) بحر العلوم:٤٤٠/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(٤) تفسير السعدي:٢٥٣.
(٥) تفسير الثعلبي:١٤١/٤.
(٦) التفسير الميسر:١٣٠.
(٧)يشير إلى الآية ١٧ من سورة يونس وهي:{فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْمُجْرِمُونَ} [يونس : ١٧].
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(٩) تفسير الطبري:٢٩٦/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٤٥/٣.
(١١) بحر العلوم:٤٤٠/١.
(١٢) الوجيز:٣٤٨.
(١٣) تفسير الثعلبي:١٤١/٤.

٤- ومنها: أنه لا يُحْكَم بظلمه أو بكونه في المرتبة العليا إلا إذا تبينت له الآيات، كذَّب بآيات الله وقد قال الله تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ) [التوبة ١١٥] فإذا بَيَّن لهم ما يتقون حكم بضلالهم سبحانه وتعالى وإلا فهم في عذر.
٥- ومنها: وجوب التصديق بكل آيات الله الكونية والشرعية؛ وجه ذلك أن (آيات) مضاف، والجمع إذا أضيف يفيد العموم.
٦- ومنها: نفي الفلاح عن الظالم؛ أي لا يمكن أن يحصل له مقصوده بل بالعكس.
٧- ومنها: التحذير من الظلم وأن عاقبته الخسارة والدمار؛ لقوله: (إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ)، أعاذنا الله وإياكم من الظلم، وجعلنا من المفلحين المتقين المحسنين.

القرآن

{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ (٢٢)} [الأنعام : ٢٢]

التفسير:

وليحذر هؤلاء المشركون المكذبون بآيات الله تعالى يوم نحشرهم ثم نقول لهم: أين آلهتكم التي كنتم تدَّعون أنهم شركاء مع الله تعالى ليشفعوا لكم؟

قوله تعالى:{وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا} [الأنعام : ٢٢]، أي:" أي اذكر يوم نحشرهم جميعاً للحساب"[١].

قال مجاهد:" الحشر: الموت"[٢].

قال السمرقندي:" قوله تعالى: { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا }: يوم القيامة"[٣].

قال السمعاني:" أراد به: حشر القيامة"[٤].

قال الواحدي:أي:" واذكر يوم {نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا}"[٥].

قال البغوي:" أي: العابدين والمعبودين، يعني: يوم القيامة"[٦].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: إن هؤلاء المفترين على الله كذبًا، والمكذبين بآياته، لا يفلحون اليومَ في الدنيا، ولا يوم نحشرهم جميعًا- يعني: ولا في الآخرة.ففي الكلام محذوف قد استغني بذكر ما ظهر عما حذف، وتأويل الكلام: إنه لا يفلح الظالمون اليوم في الدنيا،{ويوم نحشرهم جميعًا}، فقوله:{ويوم نحشرهم}، مردود على المراد في الكلام. لأنه وإن كان محذوفًا منه، فكأنه فيه، لمعرفة السامعين بمعناه"[٧].

قال البيضاوي:"{ويوم نحشرهم جميعا}، منصوب بمضمر، تهويلا للأمر"[٨].

قال الزمخشري:"{ويوم نحشرهم} ناصبه محذوف تقديره: ويوم نحشرهم كان كيت وكيت، فترك ليبقى على الإبهام الذي هو داخل في التخويف"[٩].

وقرأ يعقوب:«يحشرهم»، بالياء، وقرأ الآخرون بالنون[١٠].

---

(١) صفوة التفاسير:٣٥٦/١.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٧٤):ص١٢٧٣/٤.
(٣) بحر العلوم:٤٤٠/١.
(٤) تفسير السمعاني:٩٥/٢.
(٥) الوجيز:٣٤٨.
(٦) تفسير البغوي:١٣٥/٣.
(٧) تفسير الطبري:٢٩٧/١١.
(٨)تفسير البيضاوي:١٥٧/٢.
(٩) الكشاف:١٢/٢.
(١٠) انظر: تفسير البيضاوي:١٥٧/٢، وتفسير البغوي:١٣٥/٣.

قوله تعالى:{ ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ} [الأنعام : ٢٢]، أي:" ونقول لهم على رءوس الأشهاد: أين آلهتكم التي كنتم تدَّعون أنهم شركاء مع الله تعالى ليشفعوا لكم؟"(١).

قال السمرقندي:" يعني: أين آلهتكم {التي} تعبدون من دون الله"(٢).

قال السمعاني:" يعني أين الشركاء الذين كنتم تزعمون أنهم شركاء الله، والزعم قول الكذب، قال ابن عباس: «الزعم الكذب في كل موضع»، وفي الآثار:«زعموا مطية الكذب»(٣)"(٤).

قال الواحدي:"{أَيْنَ شركاؤكم} أصنامكم وآلهتكم {الذين كنتم تزعمون} أنَّها تشفع لكم وهذا سؤال توبيخ"(٥).

قال الطبري:" يقول: ثم نقول، إذا حشرنا هؤلاء المفترين على الله الكذب، بادِّعائهم له في سلطانه شريكًا، والمكذّبين بآياته ورسله، فجمعنا جميعهم يوم القيامة :{أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون}، أنهم لكم آلهة من دون الله، افتراء وكذبًا، وتدعونهم من دونه أربابًا؟ فأتوا بهم إن كنتم صادقين!"(٦).

قال مقاتل:" وذلك أن المشركين في الآخرة لما رأوا كيف يتجاوز الله عن أهل التوحيد فقال بعضهم لبعض إذا سئلنا قولوا: كنا موحدين فلما جمعهم الله وشركاءهم: قال لهم: {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون} في الدنيا بأن مع الله شريكا"(٧).

قال ابن كثير:" يقول تعالى مخبرًا عن المشركين : { وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا } يوم القيامة فيسألهم عن الأصنام والأنداد التي كانوا يعبدونها من دونه"(٨).

قال السعدي:" يخبر تعالى عن مآل أهل الشرك يوم القيامة، وأنهم يسألون ويوبخون فيقال لهم {أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون}، أي: إن الله ليس له شريك، وإنما ذلك على وجه الزعم منهم والافتراء"(٩).

قال الزمخشري:"{أين شركاؤكم}، أى: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، وقوله: {الذين كنتم تزعمون}، معناه: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان، وإنما يقال لهم ذلك على وجه التوبيخ، ويجوز أن يشاهدوهم، إلا أنهم حين لا ينفعونهم ولا يكون منهم ما رجوا من الشفاعة.

---

(١) التفسير الميسر:١٣٠، وصفوة التفاسير:٣٥٦/١.

(٢) بحر العلوم:٤٤٠/١.

(٣)غريب بهذا اللفظ، والموجود في الحديث عن أبي قلابة أن أبا عبد الله قال لأبي مسعود أو أبو مسعود قال لأبي عبد الله ما سمعت النبي صلى الله عليه وسلم في زعم؟ قال: "بئس مطية الرجل".

صحيح لغيره - «الإرواء» (٢٥٧٥/٢٠١/٨).

أخرجه أحمد(٢٣٤٠٣):ص٤٠٩/٣٨، وابن أبي شيبة ٦٣٦/٨-٦٣٧،ومن طريقه أبو داود (٤٩٧٢)، البخاري في "الأدب المفرد" (٧٦٢) ،والقضاعي في "مسند الشهاب" (١٣٣٤)، ابن أبي عاصم في "الآحاد والمثاني" (٢٧٩٨) ،والحسن بن سفيان في "مسنده" كما في "النكت الظراف" ٤٥/٣-٤٦،والطحاوي في "شرح المشكل" (١٨٥).

وفي خبر أبي داود وغيره: "زعموا بئس الرجل". انظر: سنن أبي داود" (٤٩٧٢) كتاب: الأدب، باب: فيقول الرجل زعموا. رواه البخاري في "الأدب المفرد" ص ٢٦٦ (٧٦٣). وابن المبارك في "الزهد" ص ١٢٧ (٣٧٧). وأحمد ٥/ ٤٠١. وصححه الألباني في "السلسلة الصحيحة" (٨٦٦).

ومعناه: أن من أكثر الحديث بما يعلم صدقه لم يؤمن عليه الكذب فقد يستعمل في القول المحقق.

(٤) تفسير السمعاني:٩٥/٢.

(٥) الوجيز:٣٤٨.

(٦) تفسير الطبري:٢٩٧/١١.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.

(٨) تفسير ابن كثير:٢٤٦/٣.

(٩) تفسير السعدي:٢٥٣.

فكأنهم غيب عنهم، وأن يحال بينهم وبينهم في وقت التوبيخ ليفقدوهم في الساعة التي علقوا بهم الرجاء فيها، فيروا مكان خزيهم وحسرتهم"[١].

قال البيضاوي:"{ أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ}، أي: آلهتكم التي جعلتموها شركاء لله، {الَّذِينَ كُنْتُمْ تَزْعُمُونَ}، أي: تزعمونهم شركاء، فحذف المفعولان والمراد من الاستفهام التوبيخ، ولعله يحال بينهم وبين آلهتهم حينئذ ليفقدوها في الساعة التي علقوا بها الرجاء فيها، ويحتمل أن يشاهدوهم ولكن لما لم ينفعوهم فكأنهم غيب عنهم"[٢].

و«الزعم»:" بالضم والفتح قريبًا من «الظن»، قاله ابن الأثير[٣]، والأصل فيه: أن يقال في الأمر الذي لا تعلم حقيقته، وفي المثل: زعموا مطية الكذب[٤].

وقرأ يعقوب:«يقول»، بالياء[٥].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: تسلية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم حيث ذُكر له مآل المكذبين له.
٢- ومن فوائدها: التحذير من الشرك؛ لأن المشرك سوف يُوبَّخ في يوم لا يستطيع الخلاص فيه.
٣- ومنها: إثبات يوم القيامة، يوم الحشر.
٤- ومنها: أن الحشر عام شامل، لا يشذّ عنه أحد، لا مؤمن ولا كافر، ولا بر ولا فاجر؛ حيث أكده الله عز وجل بقوله: (جَمِيعًا).
٥- ومنها: توبيخ أولئك المشركين حيث يُقال لهم في هذا المجمع العظيم: (أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمُ).
٦- ومنها: أن هذه الآية تدل على أن الأصنام لا تنفع عابديها؛ لأنها لا تنصرهم في هذا الموقف، بل قد قال الله عز وجل: (إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ)، أي: تحصبون بها في وسطها.
٧- ومنها: أن أولئك العابدين لهذه الأصنام ليس عندهم حجة ولا برهان، وإنما هي مجرد دعوى تُؤخذ من قوله: (تَزْعُمُونَ)، والزعم -في الغالب- يكون في قول لا دليل له.

القرآن

{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ (٢٣)} [الأنعام : ٢٣]

التفسير:

ثم لم تكن إجابتهم حين فتنوا واختبروا بالسؤال عن شركائهم إلا أن تبرؤوا منهم، وأقسموا بالله ربهم أنهم لم يكونوا مشركين مع الله غيره.

قوله تعالى:{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ} [الأنعام : ٢٣]، أي:"ثم لم يكن جوابهم حين اختبروا بهذا السؤال ورأوا الحقائق"[٦].

قال ابن كثير:" أي : حجتهم"[٧].

وفي معنى «الفتنة»في الآية الكريمة،أربعة أقوال :

أحدها : يعني معذرتهم ، فسماها فتنة لحدوثها عن الفتنة ، قاله قتادة[٨]، ومقاتل[١]. وهو مروي عن ابن عباس ايضا [٢].

---

(١) الكشاف:١٢/٢.
(٢)تفسير البيضاوي:١٥٧/٢.
(٣)النهاية في غريب الحديث والأثر" ٢/ ٣٠٣.
(٤) منحة الباري بشرح صحيح البخاري:٢٦٦/٩.
(٥) انظر: تفسير البيضاوي:١٥٧/٢.
(٦) صفوة التفاسير:٣٥٦/١.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٤٦/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣١٣٨):ص٢٩٩/١١.

قال ابن الأنباري:" فالمعنى: اعتذروا بما هو مهلك لهم، وسبب لفضيحتهم"[٣].
والثاني: أنها بمعنى البلية، يعني: بَلِيَّتُهم التي ألزمتهم الحجة وزادتهم لائمة ، قاله عطاء الخراساني[٤]، وأبو عبيد القاسم بن سلام[٥].
والثالث: أنها بمعنى الكلام والقول. وهذا قول ابن عباس[٦]، وقتادة-في قوله الآخر[٧]- والضحاك[٨].
والرابع: أنها بمعنى الافتتان، والمعنى: لم تكن عاقبة فتنتهم، وهو شركهم. وهذا معنى قول الزجاج[٩].
قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك أن يقال : معناه : ثم لم يكن قيلهم عند فتنتنا إياهم ، اعتذارًا مما سلف منهم من الشرك بالله {إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين}، فوضعت «الفتنة» موضع «القول»، لمعرفة السامعين معنى الكلام. وإنما «الفتنة»، الاختبار والابتلاء ، ولكن لما كان الجواب من القوم غيرَ واقع هنالك إلا عند الاختبار ، وضعت «الفتنة» التي هي الاختبار ، موضع الخبر عن جوابهم ومعذرتهم"[١٠].
وفي قوله:{ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ} [الأنعام : ٢٣]، خمس قراءات[١١]:
قرأ حمزة والكسائي:«يكن»بالياء، «فتنتهم» بالنصب خبر«يكن»، {إلا أن قالوا} اسمها، أي إلا قولهم، فهذه قراءة بينة.
وقرأ أهل المدينة وأبو عمرو«تكن» بالتاء«فتنتهم»، بالنصب،{إلا أن قالوا}، أي: إلا مقالتهم.
وقرأ أبي وابن مسعود:«وما كان- بدل قوله{ثم لم تكن} - فتنتهم»،{إلا أن قالوا}.
وقرأ ابن عامر وعاصم من رواية حفص، والأعمش من رواية المفضل، والحسن وقتادة وغيرهم :«ثم لم تكن» بالتاء، « فتنتهم» بالرفع اسم«تكن»، والخبر{إلا أن قالوا}.
والقراة الخامسة:«ثم لم يكن»، بالياء،«فتنتهم»، بالرفع، ويذكر «الفتنة»، لأنها بمعنى الفتون، ومثله قوله تعالى:{فَمَنْ جَاءَهُ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّهِ فَانْتَهَى} [البقرة : ٢٧٥].
قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ} [الأنعام : ٢٣]، أي:" أقسموا كاذبين بقولهم والله يا ربنا ما كنا مشركين"[١٢].
قال الطبري:"يعني بقوله :{ما كنا مشركين}، ما كنا ندعو لك شريكًا ، ولا ندعو سواك"[١٣].
قال القرطبي:" تبرءوا من الشرك وانتفوا منه لما رأوا من تجاوزه ومغفرته للمؤمنين. قال ابن عباس: يغفر الله تعالى لأهل الإخلاص ذنوبهم، ولا يتعاظم عليه ذنب أن يغفره، فإذا رأى المشركون ذلك، قالوا إن ربنا يغفر الذنوب ولا يغفر الشرك فتعالوا نقول إنا كنا أهل ذنوب ولم نكن مشركين، فقال الله تعالى: أما إذ كتموا الشرك فاختموا على أفواههم، فيختم على أفواههم، فتنطق أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون، فعند ذلك يعرف المشركون أن الله لا

---

(١) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧١٧٦):ص١٢٧٣/٤.
(٣) زاد المسير:١٦/٢.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧١٧٨):ص١٢٧٣/٤.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٢، وزاد المسير:١٦/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣١٣٥) ، و(١٣١٣٦):ص٢٩٩/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣١٣٤):ص٢٩٩/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣١٣٧):ص٢٩٩/١١.
(٩) انظر: معاني القرآن:٢٣٦/٢، والنكت والعيون:١٠٢/٢، وزاد المسير:١٦/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٠٠/١١.
(١١) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٤-٢٥٥، وتفسير القرطبي:٤٠٣/٦.
(١٢) صفوة التفاسير:٣٥٦/١.
(١٣) تفسير الطبري:٣٠١/١١.

يكتم حديثا، فذلك قوله: {يومئذ يود الذين كفروا وعصوا الرسول لو تسوى بهم الأرض ولا يكتمون الله حديثا}[النساء: ٤٢]"(١).

وقال الزجاج:" وتأويل هذه الآية تأويل حسن في اللغة لطيف لا يفهمه إلا من عرف معاني الكلام وتصرف العرب في ذلك، والله جل وعز ذكر في هذهالأقاصيص التي جرت في أمر المشركين وهم مفتتنون بشركهم، أعلم الله أنه لم يكن افتتانهم بشركهم، وإقامتهم عليه إلا أن تبرأوا منه وانتفوا منه، فحلفوا أنهم ما كانوا مشركين.ومثل ذلك في اللغة أن ترى إنسانا يحب غاويا، فإذا وقع في هلكةتبرأ منه، فتقول له ما كانت محبتك لفلان إلا أن انتفيت منه"(٢).

فإن قيل : كيف كذبوا في الآخرة بجحود الشرك ولا يصح منهم الكذب في الآخرة لأمرين:أحدهما : أنه لا ينفعهم .والثاني : أنهم مصروفون عن القبائح ملجؤون إلى تركها لإزالة التكليف عنهم ، ولو لم يلجؤوا إلى ترك القبيح ويصرفوا عنه مع كما عقولهم وجب تكليفهم ليقلعوا به عن القبيح، وفي عدم تكليفهم دليل على إلجائهم إلى تركه .

قيل : عن ذلك جوابان(٣):

أحدهما : أن قولهم :{وَاللَّهِ رَبِّنَآ مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ]، أي: في الدنيا عند أنفسنا لاعتقادنا فيها أننا على صواب ، وإن ظهر لنا خطؤه الآن ، فلم يكن ذلك منهم كذباً ، قاله قطرب(٤).

قال الزمخشري:" وأما قول من يقول:معناه: ما كنا مشركين عند أنفسنا وما علمنا أنا على خطأ في معتقدنا، وحمل قوله: {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأنعام : ٢٤](٥)، يعنى: في الدنيا فتمحل وتعسف وتحريف لأفصح الكلام إلى ما هو عى وإقحام، لأن المعنى الذي ذهبوا إليه ليس هذا الكلام بمترجم عنه ولا منطبق عليه، وهو ناب عنه أشد النبو. وما أدرى ما يصنع من ذلك تفسيره بقوله تعالى: {يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة : ١٨]، بعد قوله:{وَيَحْلِفُونَ عَلَى الْكَذِبِ وَهُمْ يَعْلَمُونَ} [المجادلة : ١٤]، فشبه كذبهم في الآخرة بكذبهم في الدنيا"(٦).

والثاني : أن الآخرة مواطن ، فموطن لا يعلمون ذلك فيه ولا يضطرون إليه ، وموطن يعلمون ذلك فيه ويضطرون إليه ، فقالوا ذلك في الموطن الأول ، قاله بعض متأخري المتكلمين(٧).

قال الماوردي:" وهذا ليس بصحيح لأنه يقتضي أن يكونوا في الموطن الأول مكلفين لعدم الإلجاء والاضطرار ، وفي الموطن الثاني غير مكلفين، وقد يعتل الجواب الأول بقوله تعالى بعد هذه الآية :{انظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَى أَنفُسِهِمْ}، فأخبر عنهم بالكذب ، وهم على الجواب الأول غير كاذبين، وقد أُجيب عن هذا الاعتراض بجواب ثالث ، وهو أنهم أنكروا بألسنتهم ، فلما نطقت جوارحهم أقروا ، وفي هذا الجواب دخل لأنه قد كذبوا نُطْقَ الجوارح"(٨).

وفي الوقت الذي يحلفونثلاثة أقوال:

أحدها: إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا من كان مسلما، قالوا:تعالوا نكابر عن شركنا، فحلفوا، قاله ابن عباس(٩).

عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: "أتاه رجل فقال: يا أبا عباس. سمعت الله يقول: {والله ربنا ما كنا مشركين}، قال: أما قوله: {والله ربنا ما كنا مشركين}، فإنهم إذا رأوا أنه لا يدخل الجنة إلا أهل الصلاة، قالوا:تعالوا فلنجحد فيجحدون، فيختم على أفواههم، وتشهد أيديهم

---

(١) تفسير القرطبي:٤٠١/٦.
(٢) معاني القرآن:٢٣٥/٢-٢٣٦.
(٣) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٢.
(٥) سيأتي تفسيره.
(٦) الكشاف:١٣/٢.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٠٢/٢.
(٨) النكت والعيون:١٠٣/٢.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧١٨٠):ص١٢٧٤/٤.

وأرجلهم، ولا يكتمون الله حديثا. فهل في قلبك الآن شيء؟ إنه ليس من القرآن شيء إلا وقد أنزل فيه شيء، ولكن لا تعلمون وجهه"(١).
والثاني: أنهم إذا دخلوا النار، ورأوا أهل التوحيد يخرجون والذنوب تغفر، فحلفوا واعتذروا، قاله سعيد بن جبير(٢)، ومجاهد(٣).
والثالث: أنهم إذا سئلوا: أين شركاؤكم؟تبرؤوا، وحلفوا: ما كنا مشركين، قاله مقاتل(٤).
وقال الضحاك ، عن ابن عباس : هذه في "المنافقين المشركين، وإنما سماهم الله منافقين لأنهم كتموا الشرك، وأظهروا الإيمان، فقالوا وهم في النار: هلموا فلنكذب هاهنا فلعله أن ينفعنا كما نفعنا في الدنيا، فإنا كذبنا في الدنيا فنفعنا، حقنا دماءنا وأموالنا، فقالوا: يا ربنا ما كنا مشركين"(٥).
قال ابن كثير:" وفي هذا نظر ، فإن هذه الآية مكية ، والمنافقون إنما كانوا بالمدينة ، والتي نزلت في المنافقين آية المجادلة : { يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمُ الْكَاذِبُونَ} [المجادلة : ١٨] ، وهكذا قال في حق هؤلاء : {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ } كَمَا قَالَ { ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُو مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ} [غافر : ٧٣ ، ٧٤]"(٦).
قرأ ابن كثير ونافع وعاصم وأبو عمرو وابن عامر: {والله ربنا} بالكسر فيهما، وقرأ حمزة والكسائي: {والله ربنا} بالنصب(٧).
قال القرطبي:" ومن نصب فعلى النداء، أي: يا ربنا، وهي قراءة حسنة، لأن فيها معنى الاستكانة والتضرع، إلا أنه فصل بين القسم وجوابه بالمنادي"(٨).
الفوائد:
١- من فوائد هذه الآية الكريمة:أن أولئك القوم فتنوا بهذا الجواب واستحسنوه وظنوه مفيدًا، وهو: (وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ).
٢- ومنها: إقرار هؤلاء المشركين بألوهية الله وربوبية الله؛ بألوهيته في قولهم: (وَاللَّهِ)، وربوبيتهم في قولهم: (رَبِّنَا) لكن هذا الإقرار لا ينفعهم لو أنهم وحَّدوا حين نزل بهم الموت، كما قال عز وجل: (وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) [النساء ١٨].

القرآن
{انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٢٤)} [الأنعام : ٢٤]
التفسير:
تأمل -أيها الرسول- كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم وهم في الآخرة قد تبرؤوا من الشرك؟ وذهب وغاب عنهم ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم.
قوله تعالى:{انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ} [الأنعام : ٢٤]، أي:" تأمل -أيها الرسول- كيف كذب هؤلاء المشركون على أنفسهم وهم في الآخرة قد تبرؤوا من الشرك؟"(٩).

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧١٨٠):ص١٢٧٤/٤.
(٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧١٨٣):ص١٢٧٤/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧١٨٢):ص١٢٧٤/٤.
(٤) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٨١):ص١٢٧٤/٤.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٦/٣.
(٧) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٥.
(٨) تفسير القرطبي:٤٠٣/٦.
(٩) التفسير الميسر:١٣٠.

قال مجاهد:" بتكذيب الله إياهم"(١).
عن ابن عباس قوله: "قال الله: {انظر كيف كذبوا على أنفسهم} هنا في القيامة"(٢).
قال ابن الجوزي:" أي: باعتذارهم بالباطل"(٣).
قال السمعاني:" كذبهم على أنفسهم: تبرئهم من الشرك"(٤).
قال البغوي:أي:" باعتذارهم بالباطل وتبريهم عن الشرك"(٥).
قال الطبري:" ومعنى :«النظر» في هذا الموضع ، النظر بالقلب ، لا النظر بالبصر. وإنما معناه : تبين فاعلم كيف كذبوا في الآخرة، وقال : {كذبوا}، ومعناه : يكذبون ، لأنه لما كان الخبر قد مضى في الآية قبلها ، صار كالشيء الذي قد كانَ ووُجد"(٦).

قوله تعالى:{وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام : ٢٤]، أي:" وذهب وغاب عنهم ما كانوا يظنونه من شفاعة آلهتهم"(٧).

قال الطبري:" يقول : وفارقهم الأنداد والأصنام ، وتبرءوا منها ، فسلكوا غير سبيلها ، لأنها هلكت"(٨).

قال البغوي:أي:" زال وذهب عنهم {ما كانوا يفترون} من الأصنام، وذلك أنهم كانوا يرجون شفاعتها ونصرتها، فبطل كله في ذلك اليوم"(٩).

قال ابن الجوزي:" أي: ذهب ما كانوا يدعون ويختلقون من أن الاصنام شركاء لله، وشفعاؤهم في الآخرة"(١٠).

قال الزمخشري:أي:" وغاب عنهم {ما كانوا يفترون}، أى: يفترون إلهيته وشفاعته"(١١).

وفي قوله تعالى:{ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ} [الأنعام : ٢٤]، وجهان من التفسير:
أحدها: معناه: ما كانوا يكذبون في الدنيا. قاله ابن عباس(١٢).
والثاني: معناه: ماكانوا يشركون. قاله قتادة(١٣).

قال الزمخشري:" فإن قلت:كيف يصح أن يكذبوا حين يطلعون على حقائق الأمور وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته؟

قلت: الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا: ألا تراهم يقولون ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه، ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم"(١٤).

وقال القرطبي:" والنظر في قوله: {انظر} يراد به نظر الاعتبار، ثم قيل: كذبوا بمعنى يكذبون، فعبر عن المستقبل بالماضي، وجاز أن يكذبوا في الآخرة لأنه موضع دهش وحيرة وذهول عقل. وقيل: لا يجوز أن يقع منهم كذب في الآخرة، لأنها دار جزاء على ما كان في الدنيا- وعلى ذلك أكثر أهل النظر- وإنما ذلك في الدنيا، فمعنى{والله ربنا ما كنا مشركين} على هذا: ما كنا مشركين عند أنفسنا، وعلى جواز أن يكذبوا في الآخرة يعارضه قوله: {وَلَا يَكْتُمُونَ

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٨٤):ص١٢٧٥/٤.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٨٥):ص١٢٧٥/٤.
(٣) زاد المسير:١٧/٢.
(٤) تفسير السمعاني:٩٥/٢.
(٥) تفسير البغوي:١٣٥/٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٠١/١١.
(٧) التفسير الميسر:١٣٠.
(٨) تفسير الطبري:٣٠١/١١.
(٩) تفسير البغوي:١٣٥/٣.
(١٠) زاد المسير:١٧/٢.
(١١) الكشاف:١٣/٢.
(١٢) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧١٨٦):ص١٢٧٥/٤.
(١٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧١٨٧):ص١٢٧٥/٤.
(١٤) الكشاف:١٣/٢.

اللَّهَ حَدِيثًا} [النساء : ٤٢] ، ولا معارضة ولا تناقض، لا يكتمون الله حديثا في بعض المواطن إذا شهدت عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بعملهم، ويكذبون على أنفسهم في بعض المواطن قبل شهادة الجوارح على ما تقدم"(١).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن ما افتروه من الشريك لله عز وجل سوف يضل عنهم مع شدة طلبهم له، كما تضل الضالة عن صاحبها؛ لقوله: (وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ).

٢- ومنها: إن المؤمن بالله يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى الفلاح والنجاة إلا بالعمل الصالح الذي يرضاه الله،قال تعالى: {وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقربكم عندنا زلفى إلا من آمن وعمل صالحا فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا وهم في الغرفات آمنون} [السبأ:٣٧] ، في حين يعتقد غيره اعتقادات باطلة كاعتقاد أن الله أمر بصلب ابنه تكفيرا عن خطايا البشر، أو يؤمن بآلهة ويعتقد أنها تحقق له ما يريد، وهي في حقيقتها لا تنفع ولا تضر، أو يكون ملحدا فلا يؤمن بوجود خالق .. وكل هذه أماني، قال تعالى: {انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ}.

القرآن

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٢٥)} [الأنعام : ٢٥]

التفسير:

ومن هؤلاء المشركين من يستمع إليك القرآن -أيها الرسول-، فلا يصل إلى قلوبهم; لأنهم بسبب اتباعهم أهواءهم جعلنا على قلوبهم أغطية; لئلا يفقهوا القرآن، وجعلنا في آذانهم ثقلا وصممًا فلا تسمع ولا تعي شيئًا، وإن يروا الآيات الكثيرة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم لا يصدقوا بها، حتى إذا جاؤوك -أيها الرسول- بعد معاينة الآيات الدالة على صدقك يخاصمونك: يقول الذين جحدوا آيات الله: ما هذا الذي نسمع إلا ما تناقله الأولون من حكايات لا حقيقة لها.

سبب النزول:

قال ابن عباس في رواية أبي صالح: "إن أبا سفيان بن حرب والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث، وعتبة وشيبة ابني ربيعة، وأمية وأبيا ابني خلف، استمعوا إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال: والذي جعلها بيته ما أدري ما يقول، إلا أني أرى يحرك شفتيه يتكلم بشيء وما يقول إلا أساطير الأولين مثلما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون الأولى، وكان يحدث قريشا فيستملحون حديثه، فأنزل الله تعالى هذه الآية"(٢).

وفي السياق نفسه قال البغوي:" قال الكلبي: اجتمع أبو سفيان بن حرب وأبو جهل بن هشام والوليد بن المغيرة والنضر بن الحارث وعتبة وشيبة ابنا ربيعة وأمية وأبي ابنا خلف والحارث بن عامر، يستمعون القرآن فقالوا للنضر: يا أبا قتيلة ما يقول محمد؟ قال: ما أدري ما يقول إلا أني أراه يحرك لسانه ويقول أساطير الأولين، مثل ما كنت أحدثكم عن القرون الماضية، وكان النضر كثير الحديث عن القرون وأخبارها ، فقال أبو سفيان: إني أرى بعض ما يقول حقا، فقال أبو جهل: كلا لا نقر بشيء من هذا، وفي رواية: للموت أهون علينا من هذا، فأنزل الله عز وجل: {ومنهم من يستمع إليك}"(٣).

---

(١) تفسير القرطبي:٤٠٣/٦.

(٢) أسباب النزول:٢١٤-٢١٥. أبو صالح لم يسمع من ابن عباس.

(٣) تفسير البغوي:١٣٦/٣.

قوله تعالى:{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ} [الأنعام : ٢٥]، أي:" أي ومن هؤلاء المشركين من يصغي إليك يا محمد حين تتلو القرآن"(١).

قال الزمخشري:أي:" حين تتلوا القرآن"(٢).

قال ابن كثير:" أي : يجيؤوك ليسمعوا قراءتك"(٣).

قال الطبري:أي:" ومن هؤلاء العادلين بربِّهم الأوثانَ والأصنامَ من قومك، يا محمدمن يستمع القرآن منك، ويستمع ما تدعوه إليه من توحيد ربك، وأمره ونهيه"(٤).

قال القرطبي:" أفرد على اللفظ، يعني المشركين كفار مكة"(٥).

قال أبو عبيدة:"«من»-هاهنا- فى موضع جميع"(٦).

قوله تعالى:{وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ} [الأنعام : ٢٥]، أي:" جعلنا على قلوبهم أغطية لئلا يفقهوا القرآن"(٧).

قال السدي:" أما {أكنة}، فالغطاء أكن قلوبهم"(٨). قال ابن أبي حاتم:"وروي، عن مجاهد، وعطية، والضحاك، نحو ذلك"(٩).

وعن السدي ايضا:" قوله: {أن يفقهوه}: لا يفقهون الحق"(١٠).

قال مقاتل:" يعني: الغطاء عن القلب لئلا يفقهوا القرآن"(١١).

قال ابن كثير:" أي : أغطية لئلا يفقهوا القرآن "(١٢).

قال البغوي:أي:" أغطية أن يعلموه"(١٣).

قال الطبري:أي:" ولا يفقه ما تقول ولا يُوعِيه قلبَه، ولا يتدبره، ولا يصغي له سمعه، ليتفقهه فيفهم حجج الله عليه في تنزيله الذي أنزله عليك، إنما يسمع صوتك وقراءَتك وكلامك، ولا يعقل عنك ما تقول، لأن الله قد جعل على قلبه:«أكنة»"(١٤).

قال القرطبي:" أي: فعلنا ذلك بهم مجازاة على كفرهم. وليس المعنى أنهم لا يسمعون ولا يفقهون، ولكن لما كانوا لا ينتفعون بما يسمعون، ولا ينقادون إلى الحق كانوا بمنزلة من لا يسمع ولا يفهم، قوله {أن يفقهوه}، أي: يفهموه وهو في موضع نصب، المعنى كراهية أن يفهموه، أو لئلا يفهموه "(١٥).

والـ«أكنة»جمع:«كنان»، وهو الغطاء، مثل:سِنان،وأسنة، يقال منه: أكننت الشيءَ في نفسي، بالألف،وكننت الشيء، إذا غطيته، ومن ذلك قوله تعالى: {بَيْضٌ مَكْنُونٌ}[الصافات: ٤٩] ، وهو الغطاء، ومنه قول عمربنأبيربيعة(١٦):

---

(١)صفوة التفاسير:٣٥٧/١.
(٢) الكشاف:١٣/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٧/٣.
(٤) تفسير الطبري:٣٠٥/١١.
(٥) تفسير القرطبي:٤٠٤/٦.
(٦) مجتز القرآن:٢١٥/٢.
(٧)صفوة التفاسير:٣٥٧/١.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩٠):ص١٢٧٥/٤.
(٩) تفسير ابن ابي حاتم:١٢٧٥/٤.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩١):ص١٢٧٦/٤.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٤٧/٣.
(١٣) تفسير البغوي:١٣٦/٣.
(١٤) تفسير الطبري:٣٠٥/١١.
(١٥) تفسير القرطبي:٤٠٤/٦.
(١٦)ليس في ديوانه، ولكنه من قصيدته التي في ديوانه: ١٢٥ - ١٢٦، وهو في الأغاني ١: ١٨٤، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ٤٦، ١٨٨، واللسان (كنن) ، وغيرها. من أبياته التي أولها:
هَاجَ ذَا القَلْبَ مَنْزِلُ ... دَارِسُ الآيِ مُحْوِلُ
وقبله في رواية أبي الفرج في أغانيه:

تَحْتَ عَيْنٍ، كِنَانُنَا ظِلُّ بُرْدٍ مُرَحَّل

يعني: غطاؤُهم الذي يكنُّهم[1].

قوله تعالى:{وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا} [الأنعام : ٢٥]، أي:" وجعلنا في آذانهم ثقلا وصممًا فلا تسمع ولا تعي شيئًا"[2].

قال قتادة:" يسمعونه بآذانهم، ولا يعون منه شيئا، كمثل البهيمة التي تسمع النداء، وما تدري ما يقال لها"[3].

عن السدي:"{وفي آذانهم وقرا}، قال: صمم"[4].

قال مقاتل:" يعني: ثقلا، فلا يسمعوا، يعني: النضر"[5].

قال القرطبي:" أي: ثقلا"[6].

قال الطبري:أي:" وجعل في آذانهم ثِقلا وصممًا عن فهم ما تتلو عليهم، والإصغاء لما تدعوهم إليه"[7].

قال البغوي:أي:" صمما وثقلا هذا دليل على أن الله تعالى يقلب القلوب فيشرح بعضها للهدى، ويجعل بعضها في أكنة فلا تفقه كلام الله ولا تؤمن"[8].

قال ابن كثير:" أي : صمما عن السماع النافع ، فَهُم كما قال تعالى : { وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ إِلا دُعَاءً وَنِدَاءً [صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ] (٢) } [البقرة : ١٧١]"[9].

و«الوقر»: الثقل ، ومنه :الوَقار إذا ثقل في المجلس، يقال منه: وقرت أذنه -بفتح الواو- توقر وقرا أي صمت، وقياس مصدره التحريك إلا أنه جاء بالتسكين، وقد وقر الله أذنه يقرها وقرا، يقال: اللهم قر أذنه. وحكى أبو زيد عن العرب: أذن موقورة على ما لم يسم فاعله، فعلى هذا: وقرت،-بضم الواو-[10].

و«الوقر»: الحمل، يقال منه: نخلة موقر وموقرة إذا كانت ذات ثمر كثير. ورجل ذو قرة إذا كان وقورا بفتح الواو، ويقال منه: وقر الرجل -بضم القاف- وقارا، ووقر -بفتح القاف- أيضا[11].

قال الزمخشري:" والأكنة على القلوب، والوقر في الآذان: مثل في نبو قلوبهم ومسامعهم عن قبوله واعتقاد صحته. ووجه إسناد الفعل إلى ذاته وهو قوله: {وجعلنا} للدلالة على أنه أمر ثابت فيهم لا يزول عنهم، كأنهم مجبولون عليه. أو هي حكاية لما كانوا ينطقون به من قولهم:{وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِنْ بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ} [فصلت : ٥]"[12].

أرْسَلَتْ تَسْتَحِثُى وَتُفَدِّي وتَعْذُل ... أيُّنَا بَاتَ لَيْلَةً بَيْنَ غُصْنَيْن يُوبَلُ

وروايته للبيت:

تَحْتَ عَيْنٍ، يُكِنُّنَا ... بُرْدُ عَصْبٍ مُهَلْهَل

ورواية ابن بري، وصحح رواية أبي عبيدة وأبي جعفر:

تَحْتَ عَيْنٍ، كِنَانُنَا ... بُرْدُ عَصْبٍ مُرَحَّلُ

"العين" في البيت السحاب. و"المرحل من الثياب، الذي عليه تصاوير الرحال.

(١) انظر: تفسير الطبري:١١/٣٠٥-٣٠٦، ومجاز القرآن:١/١٨٨.

(٢) التفسير الميسر:١٣٠.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩٢):ص٤/١٢٧٦.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩٣):ص٤/١٢٧٦.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٥٥.

(٦) تفسير القرطبي:٦/٤٠٤.

(٧) تفسير الطبري:١١/٣٠٦.

(٨) تفسير البغوي:٣/١٣٦.

(٩) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٧.

(١٠) انظر: تفسير الطبري:١١/٣٠٦، والنكت والعيون:٢/١٠٣، وتفسير القرطبي:٦/٤٠٤.

(١١) انظر: تفسير الطبري:١١/٣٢٧.

(١٢) الكشاف:٢/١٣-١٤.

وقرأ طلحة بن مصرف «وقرا»-بكسر الواو-، أي: جعل في آذانهم ما سدها عن استماع القول على التشبيه بوقر البعير، وهو مقدار ما يطيق أن يحمل(١).

قوله تعالى:{وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا} [الأنعام : ٢٥]، أي:" وإن يروا الآيات الكثيرة الدالة على صدق محمد صلى الله عليه وسلم لا يصدقوا بها لفرط العناد"(٢).

قال مقاتل:" يعني: انشقاق القمر، والدخان فلا يصدقوا بأنها من الله- عز وجل-"(٣).

قال ابن كثير:" أي : مهما رأوا من الآيات والدلالات والحجج البينات ، لا يؤمنوا بها. فلا فَهْم عندهم ولا إنصاف ، كما قال تعالى : { وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لأسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ } [الأنفال : ٢٣]"(٤).

قال البغوي:" {وإن يروا كل آية} ، من المعجزات والدلالات"(٥).

قال القرطبي:" أخبر الله تعالى بعنادهم لأنهم لما رأوا القمر منشقا قالوا: سحر، فأخبر الله عز وجل بردهم الآيات بغير حجة"(٦).

قال السمعاني:" وهذا في قوم مخصوصين، علم الله أنهم لا يؤمنون"(٧).

قال السعدي:" وهذا غاية الظلم والعناد، أن الآيات البينات الدالة على الحق، لا ينقادون لها، ولا يصدقون بها، بل يجادلون بالباطل الحق ليدحضوه"(٨).

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} [الأنعام : ٢٥]، أي:" حتى إذا جاؤوك -أيها الرسول- بعد معاينة الآيات الدالة على صدقك يخاصمونك: يقول الذين جحدوا آيات الله: ما هذا الذي نسمع إلا ما تناقله الأولون من حكايات لا حقيقة لها"(٩).

قال الطبري:" يقول : حتى إذا صاروا إليك بعد معاينتهم الآيات الدالة على حقيقة ما جئتهم به، يخاصمونك الذين جحدوا آيات الله وأنكروا حقيقتها ، يقولون لنبيِّ الله صلى الله عليه وسلم إذا سمعوا حجج الله التي احتجَّ بها عليهم ، وبيانَه الذي بيَّنه لهم : ما هذا إلا ما كتبه الأوَّلون"(١٠).

قال ابن كثير:" أي يحاجونك ويناظرونك في الحق بالباطل { يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إلا أَسَاطِيرُ الأوَّلِينَ }، أي : ما هذا الذي جئت به إلا مأخوذ من كتب الأوائل ومنقول عنهم"(١١).

قال ابن عباس:"هم المشركون ، يجادلون المسلمين في الذَّبيحة ، يقولون : أما ما ذبحتم وقتلتم فتأكلون ، وأما ما قتل الله فلا تأكلون! وأنتم تتَّبعون أمرَ الله تعالى ذكره"(١٢).

قال الزمخشري:" المعنى: أنه بلغ تكذيبهم الآيات إلى أنهم يجادلونك ويناكرونك. وفسر مجادلنهم بأنهم يقولون:{إن هذا إلا أساطير الأولين}، فيجعلون كلام الله وأصدق الحديث، خرافات وأكاذيب، وهي الغاية في التكذيب"(١٣).

قال السعدي:"{أساطير الأولين} أي: مأخوذ من صحف الأولين المسطورة، التي ليست عن الله، ولاعن رسله. وهذا من كفرهم، وإلا فكيف يكون هذا الكتاب الحاوي لأنباء السابقين

---

(١) انظر: تفسير القرطبي:٤٠٤/٦.
(٢) التفسيرالميسر:١٣٠، وصفوة التفاسير:٣٥٧/١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٤٧/٣.
(٥) تفسير البغوي:١٣٦/٣.
(٦) تفسير القرطبي:٤٠٤/٦.
(٧) تفسير السمعاني:٩٥/٢.
(٨) تفسير السعدي:٢٥٣.
(٩) التفسيرالميسر:١٣٠.
(١٠) تفسير الطبري:٣٠٨/١١-٣٠٩.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٤٧/٣.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣١٥٨):ص٣١٠/١١، وابن أبي حاتم(٧١٩٤):ص١٢٧٦/٤، مختصرا.
(١٣) الكشاف:١٤/٢.

واللاحقين، والحقائق التي جاءت بها الأنبياء والمرسلون، والحق، والقسط، والعدل التام من كل وجه، أساطير الأولين؟"[١].

وفيما كانوا يجادلون به النبي -صلى الله عليه وسلم- قولان :

أحدهما : أنهم كانوا يجادلونه بما ذكره الله تعالى من قوله عنهم{إِنْ هَذَآ إِلاَّ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، قال الحسن[٢].

قال مقاتل:" يجادلونك في القرآن بأنه ليس من الله"[٣].

والثاني : هو قولهم : تأكلون ما قتلتم ولا تاكلون ما قتل ربكم ، قاله ابن عباس[٤].

قال القرطبي:" مجادلتهم، قولهم: تأكلون ما قتلتم، ولا تأكلون ما قتل الله"[٥].

قال الماوردي:" ومعنى:{أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ}، أي: أحاديث الأولين التي كانوا يسطرونها في كتبهم ، وقيل : أنه جادلهم بهذا النضر بن الحارث"[٦].

قال البغوي:"{أساطير الأولين} ، يعني: أحاديثهم وأقاصيصهم، والأساطير جمع: أسطورة، وإسطارة، وقيل: هي الترهات والأباطيل، وأصلها من سطرت، أي: كتبت"[٧].

وفي معنى «الأساطير»، قولان:

أحدهما: أنها ما سطر من أخبارهم وأحاديثهم.

روى أبو صالح عن ابن عباس قال: "أساطير الأولين: كذبهم، وأحاديثهم في دهرهم"[٨].

عن السدي قوله: "{إن هذا إلا أساطير الأولين}: أساجيع الأولين"[٩].

عن قتادة:{أساطير الأولين}، أي: أحاديث الأولين وباطلهم"[١٠].

وقال أبو الحسن الاخفش: "فبعضهم يزعم أن واحده :أسطورة، وبعضهم :إسطارة، ولا أراه إلا من الجمع الذي ليس له واحد نحو: عباديد ومذاكير وأبابيل" [١١].

وقال ابن قتيبة: {أساطير الأولين} أخبارهم. وما سطر منها أي كتب. ومنه قوله:{ وَمَا يَسْطُرُونَ} [القلم : ١]، أي: يكتبون. واحدها سطر ثم أسطار، ثم أساطير جمع الجمع، مثل: قول وأقوال وأقاويل"[١٢].

والقول الثاني: أن معنى أساطير الأولين: الترهات.

قال أبو عبيدة: " «أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ»، واحدتها: أسطورة، وإسطارة لغة، ومجازها مجار الترّهات البسابس[١٣] ليس له نظام، وليس بشىء"[١٤].

قال ابن قتيبة:"وأبو عبيدة [١٥] يجعل واحدها: أسطورة وإسطارة، معناها: الترهات البسابس[١٦] وهو الذي لا نظام له. وليس بشيء صحيح"[١].

(١) تفسير السعدي:٢٥٤.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٠٤/٢.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٥/١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣١٥٨):ص٣١٠/١١، وابن أبي حاتم(٧١٩٤):ص١٢٧٦/٤، مختصرا.
(٥) تفسير القرطبي:٤٠٥/٦.
(٦) النكت والعيون:١٠٤/٢.
(٧) تفسير البغوي:١٣٦/٣.
(٨) انظر: زاد المسير:١٨/٢.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩٧):ص١٢٧٦/٤.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٧١٩٨):ص١٢٧٦/٤.
(١١) معاني القرآن:٢٩٦/١.
(١٢) غريب القرآن:٣٧.
(١٣)البسابس: الكذب. والبسبس: القفر. والترهات البسابس هي الباطل، وربما قالوا ترهات البسابس، بالإضافة . انظر: اللسان:٣٢٧/٢.
(١٤) مجاز القرآن:١٨٩/١، وانظر: اللسان ٦/ ٢٨، وغريب القرآن لابن قتيبة:٣٧.
(١٥)انظر: اللسان ٦/ ٢٨.
(١٦)في اللسان ٧/ ٣٢٧ "والبسبس: الكذب. والترهات البسابس: هي الباطل، وربما قالوا: ترهات البسابس بالإضافة".

وان قيل: لم عابوا القرآن بأنه أساطير الأولين، وقد سطر الأولون ما فيه علم وحكمة، وما لا عيب على قائله؟

فعنه جوابان[2]:

أحدهما: أنهم نسبوه إلى أنه ليس بوحي من الله.

والثاني: أنهم عابوه بالإشكال والغموض، استراحة منهم إلى البهت والباطل. فعلى الجواب الأول تكون «أساطير» من التسطير، وعلى الثاني تكون بمعنى الترهات، وقد شرحنا معنى الترهات.

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه ليس كل مستمع بمنتفع؛ لقوله: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ)، الآية. ومنهقوله تعالى: (وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذَا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قَالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مَاذَا قَالَ آنِفًا) [محمد ١٦]،فلا يدرون ماذا قال.

٢- ومنها: التحذير من الاستماع بلا انتفاع، وأن هذا دأب الكفار، ويتفرع على هذا أنه ينبغي للإنسان إذا استمع أن يتأمل ويتفكر فيما استمع، لا سيما إذا كان الكتاب والسنة حتى يعرف معناه.

٣- ومنها: أن الفقه محله القلب؛ لقوله: (وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ).

٤- ومنها: أن عدم الانتفاع بالسماع كالصمم تمامًا؛ لقوله: (فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ) [فصلت ٤٤]، بل صاحب الصمم معذور، والذي لا ينتفع بما سمع غير معذور؛ لأن صاحب الصمم إذا لم يسمع؛ هذا من آفة حلت به.

٥- ومنها: أن هؤلاء الكفار لا ينتفعون بما سمعوا ولا ينتفعون بما شاهدوا؛ لقوله: (وَإِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا)؛ والآيات نوعان: آيات قدرية، وآيات شرعية، فمن الآيات القدرية ما يحدثه الله عز وجل في الكون كانشقاق القمر، وهبوب الرياح التي أرسلها الله عز وجل على الأحزاب، وكذلك نزول المطر، وامتناع المطر، أشياء كثيرة لا تُحصى، ثم الشمس والقمر والنجوم والجبال والشجر والدواب، كلها من آيات الله الكونية، وأما آيات الله الشرعية فهي الوحي، إذا تأملت الوحي -وأشرفه القرآن- عرفت ما فيه من الآيات العظيمة في الأخبار والأحكام؛ فالمؤمن ينتفع وغير المؤمن لا ينتفع حتى قال الله عز وجل: (وَإِنْ يَرَوْا كِسْفًا مِنَ السَّمَاءِ سَاقِطًا يَقُولُوا سَحَابٌ مَرْكُومٌ) [الطور ٤٤] لا يصدّقون بأنه عذاب، ومن ذلك ما يحدث في زمننا الآن، العواصف والقواصم والفيضانات والزلازل هي عند قوم من الأمور الطبيعية التي لا تدل على التهديد والتخويف، وذلك من رين القلوب- نسأل الله العافية- ومن مشابهة الكفار في أنهم: (إِنْ يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا).

٦- ومنها: أن الله عز وجل يُرسل الآيات تأييدًا للرسل وتخويفًا لمخالفيهم كما قال عز وجل: (وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ) [العنكبوت ٥٠، ٥١]، وقال عز وجل: (وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا) [الإسراء ٥٩]، فالآيات التي يرسلها الله عز وجل هي تأييد للرسل وتخويف لمخالفيهم، ولكن كما قلنا: إن هؤلاء المخالفين -نسأل الله العافية- لا ينتفعون بالآيات، فلا يؤمنون بها.

٧- ومنها: أن الكفار يجادلون المسلمين، يجادلون النبي عليه الصلاة والسلام، ويجادلون من اتبع النبي، لكن بالباطل ليدحضوا به الحق، ولكن ليبشر صاحب الحق الذي هو أهله أن النصر له؛ لقول الله تعالى: (بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ) [الأنبياء ١٨]، لكن هذا يحتاج إلى أمرين: إلى نية صادقة، وإلى علم يدفع به شبهة المحتج، ولا يجوز للإنسان أن يدخل مع صاحب باطل يجادله وليس عنده

---

(١) غريب القرآن:٣٧.

(٢) انظر: زاد المسير:١٨/٢.

علم؛ لأنه لو فعل لكانت الهزيمة على الحق، فلا تدخل مع شخص في مجادلة إلا وأنت تعرف كيف تصيبه مع إحسان النية، أما أن تدخل في مجادلة مع شخص ذي بيان فصيح وشُبه قوية فلا تفعل؛ لأنك إن فعلت هُزمت، وصارت هزيمتك هزيمة للحق الذي تجادل عنه.

٨- ومنها: أنه ينبغي للإنسان أن يتعلم طرق الجدل؛ لقوله: (حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ) فتعلّم يا أخي طرق الجدل من أجل أن تجادل بها لنُصرة الحق.

٩- ومنها: أن المجادل بالباطل يلجأ إلى المكابرة أو إلى التهديد إذا كان له سوء، المكابرة قال تعالى: (يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ)، وهذه مكابرة؛ لأن دعواهم أنها أساطير الأولين مكابرة بلا شك، وكل أحد يعرف أن القرآن الكريم ليس قول البشر فضلًا عن أن يكون أساطير الأولين، أما اللجوء إلى القوة فانظر إلى مجادلة فرعون وموسى حيث قال له فرعون: (لَئِنِ اتَّخَذْتَ إِلَهًا غَيْرِي لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) [الشعراء ٢٩] فلجأ إلى القوة والإرهاب، وتأمل قوله: (لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ الْمَسْجُونِينَ) [الشعراء ٢٩] ولم يقل: لأسجننك، إشارة إلى أنه يريد أن يظهر بمظهر القوة الذي يسجن الناس، وعنده مساجين، فيهدد موسى بأنه سيكون منهم.

القرآن

{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (٢٦)} [الأنعام : ٢٦]

التفسير:

وهؤلاء المشركون ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه، ويبتعدون بأنفسهم عنه، وما يهلكون -بصدهم عن سبيل الله- إلا أنفسهم، وما يحسون أنهم يعملون لهلاكها.

في سبب نزول الآية قولان:

أحدهما: قال ابن عباس -رضي الله عنهما-؛: "نزلت في أبي طالب، كان نهى المشركين أن يؤذوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويتباعد عما جاء به "(١). [حسن لغيره] وروي عن عطاء بن دينار(١) نحو ذلك.

---

(١)أخرجه الحاكم في "المستدرك" (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠، ٣٤١) -، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٤) من طريق محمد بن منده الأصبهاني ثنا بكر بن بكار ثنا حمزة بن حبيب عن حبيب بن أبي ثابت عن سعيد بن جبير عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:

الأولى: حبيب بن أبي ثابت؛ مدلس وقد عنعنه، ورواه عنه الثوري كما سيأتي؛ فقال: عمن سمع ابن عباس.

الثانية: بكر بن بكار؛ ضعيف؛ ضعفه النسائي، وابن معين، وأبو حاتم، وابن الجارود، وابن أبي حاتم وغيرهم، راجع: "الميزان" (١/ ٣٤٣ رقم ١٢٧٤)، و"اللسان" (٢/ ٤٨ رقم ١٧٨) وغيرها.

والصواب: أن حبيب لم يسمعه من سعيد؛ كذا رواه الثقة الثبت الحافظ الثوري؛ فأخرجه عبد الرزاق في "التفسير" (١/ ٢/ ٢٠٦) -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٣١٧٢):ص٣١٣/١١، والبيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠) -، والطبري -أيضاً- من طريق أخرى (٧/ ١١٠)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٧٦، ١٢٧٧ رقم ٧١٩٩)، والحاكم (٢/ ٣١٥) -وعنه البيهقي في "دلائل النبوة" (٢/ ٣٤٠) - من طرق عن الثوري -وهذا في "تفسيره" (١٠٦ - ١٠٧/ ٢٦٤) - عن حبيب بن أبي ثابت عمن سمع ابن عباس به.

ورواه الطبراني في "الكبير" (١٢/ ١٠٤ رقم ١٢٨٢) من طريق قيس بن الربيع عن حبيب عن ابن عباس، وهذا كما ترى شبه الموصول، وليس الأمر كذلك؛ فقيس ضعيف لا يعادل الثوري في الحفظ، والصواب أن حبيباً لم يسمعه، فعلته الانقطاع.

أما الحاكم، فقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وقال الذهبي: صحيح!!

وفاتهما ما ذكرنا.

وتوبع الإمام الثوري: تابعه حماد بن شعيب عن حبيب به؛ أخرجه سعيد بن منصور في "سننه" (٥/ ١٠ - ١١/ ٨٧٤ - تكملة).

قلنا: وحماد ضعيف يستشهد به.

وعن القاسم بن مخيمرة؛ قال: "نزلت في أبي طالب كان ينهى عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أن يؤذي ولا يصدق به "[٢]. [حسن لغيره]

وعن سعيد بن أبي هلال؛ قال:" نزلت في عمومة النبي - صلى الله عليه وسلم -، وكانوا عشرة، فكانوا أشد الناس معه في العلانية وأشد الناس عليه في السر"[٣]. [ضعيف]

والثاني: أنها: نزلت في كفار مكة كانوا ينهون الناس عن اتباع محمد - صلى الله عليه وسلم - ويتباعدون بأنفسهم عنه، قاله محمد بن الحنفية[٤]، والسدي[٥]، والضحاك[٦]، وهو قول ابن عباس في رواية الوالبي[٧].

قوله تعالى:{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام : ٢٦]، أي:" وهؤلاء المشركون ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم والاستماع إليه، ويبتعدون بأنفسهم عنه"[٨].

قال البغوي:" أي: ينهون الناس عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم {وينأون عنه} ، أي: يتباعدون عنه بأنفسهم، نزلت في كفار مكة"[٩].

قال الزمخشري:أي:" وهم ينهون الناس عن القرآن أو عن الرسول عليه الصلاة والسلام واتباعه، ويثبطونهم عن الإيمان به وينأون عنه بأنفسهم فيضلون ويضلون"[١٠].

قال السعدي:" وهم: أي المشركون بالله، المكذبون لرسوله، يجمعون بين الضلال والإضلال، ينهون الناس عن اتباع الحق، ويحذرونهم منه، ويبعدون بأنفسهم عنه"[١١].

قال القرطبي:" النهي الزجر، والنأي البعد، وهو عام في جميع الكفار أي ينهون عن اتباع محمد صلى الله عليه وسلم، وينأون عنه"[١٢].

وروى أهل السير قال: كان النبي صلى الله عليه وسلم قد خرج إلى الكعبة يوما وأراد أن يصلي، فلما دخل في الصلاة قال أبو جهل لعنه الله-: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته. فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبي صلى الله عليه وسلم، فانفتل النبي

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦٠) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(١)أخرجه الطبري (١٣١٧٨):ص٣١٤/١١،بسند صحيح إليه.

قلنا: وسندهضعيف؛لإعضاله.

(٢)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣١٧٣):ص٣١٣/١١، من طرق عن إسماعيل بن أبي خالد عن القاسم به.

قلنا: وهذا مرسل رجاله ثقات، فيرتقي حديث ابن عباس السابق إلى درجة الحسن لغيره بمجموعهما -إن شاء الله-، والله أعلم.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦٠) وزاد نسبته لابن أبي شيبة -ولم نجده فيه بعد طول بحث- وابن المنذر وأبي الشيخ.

(٣)أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٧٧ رقم ٧٢٠٤): ثنا أبي ثنا هشام بن خالد ثنا الوليد عن ابن لهيعة عن خالد بن يزيد عنه به.

قلنا: وهذا سند ضعيف جداً؛ مسلسل بالعلل:

الأولى: الإعضال.

الثانية: ابن لهيعة؛ سيئ الحفظ.

الثالثة: الوليد بن مسلم يدلس تدليس التسوية، وقد عنعنه.

(٤)انظر: أسباب النزول للواحدي:٢١٥.ذكره بدون إسناد.

(٥)انظر: أسباب النزول للواحدي:٢١٥.ذكره بدون إسناد.

(٦)انظر: أسباب النزول للواحدي:٢١٥.ذكره بدون إسناد.

(٧) انظر: أسباب النزول للواحدي:٢١٥.ذكره بدون إسناد، والوالبي: هوعلي بن أبي طلحة وهو لم يسمع من ابن عباس.

(٨) التفسيرالميسر:١٣٠.

(٩) تفسير البغوي:١٣٦/٣.

(١٠) الكشاف:١٤/٢.

(١١) تفسير السعدي:٢٥٤.

(١٢) تفسير القرطبي:٤٠٥/٦.

صلى الله عليه وسلم من صلاته، ثم أتى أبا طالب عمه فقال: يا عم ألا ترى إلى ما فعل بي، فقال أبو طالب: من فعل هذا بك؟ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: عبد الله بن الزبعرى، فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلما رأوا أبا طالب قد أقبل جعل القوم ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل جللته بسيفي فقعدوا حتى دنا إليهم، فقال: يا بني من الفاعل بك هذا؟ فقال: عبد الله بن الزبعرى، فأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وثيابهم وأساء لهم القول، فنزلت هذه الآية:{وهم ينهون عنه وينأون عنه}، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: يا عم نزلت فيك آية، قال: وما هي؟ قال: تمنع قريشا أن تؤذيني وتأبى أن تؤمن بي، فقال أبو طالب[١]:

ودعوتني وزَعَمْتَ أنَّكَ ناصِحِي ... فلقَدْ صَدَقْت وكُنْتَ ثَمَّ أميناً
وعرضتَ ديناً قد علِمْتُ بأنه ... من خيْرِ أدْيانِ البَرِيةِ دِيناً
لولا الدَّمَامَةُ أو أُحَاذِرُ سُبَّةً ... لَوَجَدْتَني سَمْحاً بذالك مُبِيناً
فاذهب لأمرك ما عليك غَضَاضَةٌ ... وابشِرْ بذاك وقَرَّ مِنَكَ عيوناً
والله لن يَصِلُوا إليك بِجَمْعِهم ... حتى أُوسَّدَ في التُّرابِ دَفِيناً

فقالوا: يا رسول الله هل تنفع أبا طالب نصرته؟ قال: نعم دفع عنه بذاك الغل ولم يقرن مع الشياطين ولم يدخل في جب الحيات والعقارب، إنما عذابه في «نعلين من نار في رجليه يغلي منهما دماغه في رأسه وذلك أهون أهل النار عذابا»[٢]، وأنزل الله على رسوله:{فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل} [الأحقاف: ٣٥] "[٣].

والعرب تقول لكل من بعد عن شيء :قد نأى عنه ، فهو ينأى نَأْيًا، ومسموع منهم : نأيتُكَ، بمعنى :نأيت عنك، وأما إذا أرادوا : أبعدتُك عني ، قالوا : أنأيتك. ومن :نأيتك، بمعنى : نأيتُ عنك ، قول الحطيئة[٤]:

نَأَتْكَ أُمَامَةُ إلا سُؤَالا ... وَأَبْصَرْتَ مِنْهَا بِطَيْفٍ خَيَالا[٥]

وفي قوله تعالى:{وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ} [الأنعام : ٢٦]، ثلاثة وجوه:

أحدها : يَنْهَون عن اتباع محمد -صلى الله عليه وسلم- ، ويتباعدون عنه فراراً منه ، قاله محمد ابن الحنفية[٦]، والحسن[١]، والسدي[٢]، والضحاك[٣]، وحبيب بن ابي ثابت[٤].

---

(١) انظر: الأبيات في السير والمغازي ١٥٥،ودلائل النبوّة للبيهقي ١/ ٤٣٧.

(٢) الحديث:" إن أهون أهل النار عذابا أبو طالب، وهو منتعل نعلين من نار، يغلي منهما دماغه". من حديث ابن عباس-رضي الله عنهما- إسناده صحيح.

اخرجه أحمد(٢٦٣٦):ص٣٨٧/٤، وابن أبي شيبة ١٥٧/١٣-١٥٨،ومن طريقه مسلم (٢١٢) ،والبيهقي في "الدلائل" ٣٤٨/٢،وأخرجه أبوعوانة ٩٨/١ عن محمد بن إسماعيل الصائغ، كلاهما (ابن أبي شيبة والصائغ) عن عفان،بهذا الإسناد.

وأخرجه أبوعوانة ٩٨/١، والحاكم ٥٨١/٤، والبيهقي ٣٤٨/٢ من طرق عن حماد بن سلمة، به. وقول الحاكم: هذا حديث صحيح على شرط مسلم ولم يخرجاه، خطأ بين،فقد أخرجه مسلم كما تقدم آنفا.

وفي الباب دون ذكر أبي طالب في الحديث عن النعمان بن بشيرعند أحمد ٢٧١/٤،والبخاري (٦٥٦١) ،ومسلم (٢١٣) .

وعن أبي سعيد الخدري عند أحمد ١٣/٣،ومسلم (٢١١) .

وعن أبي هريرة عند أحمد ٤٣٢/٢.

(٣) ذكره القرطبي في تفسيره، ولم أقف عليه بهذا السياق. وما ذكره من شعر أبي طالب ذكره في قصة مغايرة لهذه القصة ابن إسحاق في السير والمغازي:١٥٥، والبغوي في تفسيره:١٣٦/٣-١٣٧، وابن الجوزي:١٩/٢، وابن كثير في البداية والنهاية:١٠٨/٤-١٠٩.

(٤)ديوانه : ٣١ ، من قصيدته التي مدح بها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ، معتذرًا له من هجاء الزبرقان بن بدر ، وبعد البيت :

خَيَالا يَرُوعُكَ عِنْدَ المَنَا ... مِ وَيَأْبَى مَعَ الصُّبْحِ إلا زَوَالا
كِنَانِيَّةٌ ، دَارُهَا غَرْبَةٌ ... تُجِدُّ وِصَالا وتُبْلِي وِصَالا.

(٥) انظر: تفسير الطبري:٣١٦/١١.

(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٠١):ص١٢٧٧/٤.

قال ابن كثير:" وهذا القول أظهر"[٥].

والثاني : يَنْهَون عن القرآن أن يُعْمَل بما فيه ، ويتباعدون من سماعه كيلا يسبق إلى قلوبهم العلم بصحته ، قاله مجاهد[٦]، وقتادة[٧].

والثالث : ينهون عن أذى محمد -صلى الله عليه وسلم- ، ويتباعدون عن اتباعه ، وهذا قول ابن عباس[٨].

وروي عن محمد بن كعب: ينهون، عن قتله" [٩].

واستشهد مقاتل بما دل على ذلك عن شعر أبي طالب السابق[١٠]، فنزلت هذه الآية ، فقرأها عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فقال له أبو طالب : أما أن أدخل في دينك فلا ، قال ابن عباس : "لسابق القضاء في اللوح المحفوظ"[١١] ، وبه قال عطاء[١٢]، والقاسم[١٣].

قال الطبري:" وأولى هذه الأقوال بتأويل الآية ، قولُ من قال : تأويلُه : {وهم ينهون عنه}، عن إتباع محمد صلى الله عليه وسلم مَنْ سواهم من الناس ، وينأون عن اتباعه، وذلك أن الآيات قبلها جرت بذكر جماعة المشركين العادِلِين به ، والخبرِ عن تكذيبهم رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، والإعراض عما جاءهم به من تنزيل الله ووحيه ، فالواجب أن يكون قوله : {وهم ينهون عنه}، خبرًا عنهم ، إذ لم يأتنا ما يدُلُّ على انصراف الخبر عنهم إلى غيرهم. بل ما قبل هذه الآية وما بعدها ، يدلّ على صحة ما قلنا ، من أن ذلك خبر عن جماعة مشركي قوم رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ، دون أن يكون خبرًا عن خاصٍّ منهم"[١٤].

قوله تعالى:{وَإِنْ يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ} [الأنعام : ٢٦]، أي:" وما يهلكون -بصدهم عن سبيل الله- إلا أنفسهم، وما يحسون أنهم يعملون لهلاكها"[١٥].

قال القرطبي:" أي: وما يهلكون إلا أنفسهم بإصرارهم على الكفر، وحملهم أوزار الذين يصدونهم"[١٦].

قال البغوي:" أي: لا يرجع وبال فعلهم إلا إليهم، وأوزار الذين يصدونهم عليهم"[١٧].

قال الزمخشري:أي:" لا يتعداهم الضرر إلى غيرهم، وإن كانوا يظنون أنهم يضرون رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١٨].

قال الطبري:" يقول : وما يهلكونَ بصدّهم عن سبيل الله ، وإعراضهم عن تنزيله ، وكفرهم بربهم - إلا أنفسهم لا غيرها ، وذلك أنهم يكسِبُونها بفعلهم ذلك ، سخط الله وأليم عقابه وما لا قِبَل لها به،وما يدرون ما هُمْ مكسبوها من الهلاك والعطب بفعلهم"[١].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٠٤/٢، ولم أقف عليه.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣١٦١):ص٣١١/١١.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٢٧٧/٤، ذكره دون إسناد.
(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٢٧٧/٤، ذكره دون إسناد.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٤٧/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣١٦٧):ص٣١٢/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣١٦٨):ص٣١٢/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣١٧٠)-(١٣١٧٢):ص٣١٣/١١.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٠٥):ص١٢٧٧/٤.
(١٠) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٦/١.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٠٥/٢.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٠٥/٢.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٠٥/٢. وهو أبو عروة بن مخيمرة الهمداني الكوفي نزيل دمشق ثقة فاضل مترجم له في التهذيب:٣٠٢/٨.
(١٤) تفسير الطبري:٣١٥/١١.
(١٥) التفسيرالميسر:١٣٠.
(١٦) تفسير القرطبي:٤٠٨/٦.
(١٧) تفسير البغوي:١٣٧/٣.
(١٨) الكشاف:١٤/٢.

قال السعدي:أي:" ولن يضروا الله ولا عباده المؤمنين، بفعلهم هذا، شيئا"[٢].
عن ابن عباس: "{وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون}، قال:أبو طالب"[٣].

الفوائد:
١- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن أعداء الإسلام ينهون عن الإسلام، ونهيهم عنه يستلزم أن يسلكوا كل طريق يُبعِد الناس عنه؛ لأن نهيهم عنه نهي حقيقي عن قلب، وهذا يستلزم أن يسلكوا كل طريق يُبعِد الناس عن شريعة الله، والأساليب في هذا مختلفة قد تكون بإيراد الشكوك، أو بالأفكار الفاسدة، أو بالأخلاق الفاسدة، أو بالتحريش بين الناس، أو ما أشبه ذلك.
٢- ومنها: أن هؤلاء جمعوا بين الضلال والإضلال، فالإضلال في قوله:(يَنْهَوْنَ)، والضلال في قوله:(وَيَنْأَوْنَ).
٣- ومنها: أن كل من حاول إبطال الحق وإبعاد الناس عنه فإنما جنى على نفسه.
٤- ومنها: التحذير من سلوك الإنسان سبل الهلاك وهو لا يشعر، وقد بيَّن الله تعالى ذلك في قوله: (أَفَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فَرَآهُ حَسَنًا فَإِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشَاءُ) [فاطر ٨].

القرآن
{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٢٧)} [الأنعام : ٢٧]
التفسير:
ولو ترى -أيها الرسول- هؤلاء المشركين يوم القيامة لرأيت أمرًا عظيمًا، وذلك حين يُحْبَسون على النار، ويشاهدون ما فيها من السلاسل والأغلال، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال، فعند ذلك قالوا: ياليتنا نُعاد إلى الحياة الدنيا، فنصدق بآيات الله ونعمل بها، ونكون من المؤمنين.

قوله تعالى:{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام : ٢٧]، أي:" أي لو ترى -أيها الرسول- هؤلاء المشركين يوم القيامة إذ عرضوا على النار لرأيت أمراً عظيماً"[٤].
قال السمعاني:" أي: دخلوا النار، والوقوف: الاطلاع على حقيقة الشيء"[٥].
قال الطبري:"أي:{ولو ترى}، يا محمد، هؤلاء العادلين بربهم الأصنامَ والأوثانَ، الجاحدين نبوّتك، الذين وصفت لك صفتهم إذ حُبِسوا في النار"[٦].
قال الواحدي:" ولو ترى: يا محمد المشركين {إذ وقفوا على النار}، أي: عاينوها ووقفوا عندها، فهم موقوفون على أن يدخلوها"[٧].
قال ابن كثير:" يذكر تعالى حال الكفار إذا وقفوا يوم القيامة على النار ، وشاهدوا ما فيها من السلاسل والأغلال ، ورأوا بأعينهم تلك الأمور العظام والأهوال"[٨].
قال الزمخشري:"{ولو ترى}، جوابه محذوف تقديره: ولو ترى لرأيت أمرا شنيعا،{وقفوا على النار}: أروها حتى يعاينوها"[٩].

---
(١) تفسير الطبري:٣١٥/١١-٣١٦.
(٢) تفسير السعدي:٢٥٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢١٠):ص١٢٧٨/٤.
(٤) صفوة التفاسير:٣٥٧/١، [بتصرف].
(٥) تفسير السمعاني:٩٧/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣١٧/١١.
(٧) التفسير الوسيط:٢٦٢/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٤٨/٣.
(٩) الكشاف:١٥/٢.

قال القرطبي:" وجواب {لو} محذوف، ليذهب الوهم إلى كل شي فيكون أبلغ في التخويف، والمعنى: لو تراهم في تلك الحال لرأيت أسوأ حال، أو لرأيت منظرا هائلا، أو لرأيت أمرا عجبا وما كان مثل هذا التقدير"(١).

قال البيضاوي:"{ولو ترى إذ وقفوا على النار}: جوابه محذوف، أي: لو تراهم حين يوقعون على النار حتى يعاينوها، أو يطلعون عليها، أو يدخلونها فيعرفون مقدار عذابها لرأيت أمرا شنيعا"(٢).

قال ابن عطية:" المخاطبة فيه لمحمد صلى الله عليه وسلم، وجواب {لو} محذوف، تقديره في آخر هذه الآية: لرأيت هؤلاء أو مشقات أو نحو هذا، وحذف جوابها في مثل هذا أبلغ لأن المخاطب يترك مع غاية تخيله، ووقعت إذ في موضع إذا التي هي لما يستقبل وجاز ذلك لأن الأمر المتيقن وقوعه يعبر عنه كما يعبر عن الماضي الوقوع، و{وقفوا}، معناه: حبسوا"(٣).

وفي تفسير قوله تعالى:{إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ} [الأنعام : ٢٧]، ثلاثة وجوه(٤):

أحدها: أن يكونوا عاينوها.

والثاني: أن يكونوا عليها وهي تحتهم.

وفي هذا السياق قال كعب: "ترفع جهنم يوم القيامة كأنها متن إهالة وتستوي أقدام الخلائق، فينادي منادٍ: أن خذي أصحابك ودعي أصحابي، فتنخسف بهم ولهي أعرف بهم من الوالدة بولدها وتمر أولياء الله تندى ثيابهم"(٥).

والثالث: يعني: حبسوا على النار. قاله الكلبي(٦).

والرابع: عرضوا على النار. قاله مقاتل(٧).

الخامس: يعني: جمعوا على ابوابها. قاله الضحاك(٨).

معناه: أدخلوها فعرفوا مقدار عذابها، كما تقول في الكلام: قد وقفت على ما عند فلان، تريد قد فهمته وتبينته. قال الزجاج:وهو " الأجود"(٩).

وقرئ: «وقفوا»، على البناء للفاعل، من وقف عليه وقوفا(١٠).

قوله تعالى:{فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا} [الأنعام : ٢٧]، أي:" قالوا: ياليتنا نُعاد إلى الحياة الدنيا، فنصدق بآيات الله ونعمل بها"(١١).

قال مقاتل:" يعني: كفار قريش هؤلاء الرؤساء تمنوا فقالوا:{يا ليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا}، يعني: القرآن بأنه من الله"(١٢).

---

(١) تفسير القرطبي:٤٠٨/٦.

(٢) تفسير البيضاوي:١٨٥/٢.

(٣) المحرر الوجيز:٢٨١/٢.

(٤) انظر: معاني القرآن للزجاج:٢٣٩/٢، والكشاف:١٥/٢، والقرطبي في تفسيره:٤٠٥/٦.

(٥)أخرجه أحمد (١/ ٤٣٤)، والترمذي (٣١٥٩)،والحاكم (٢/ ٣٧٥)،والبيهقي في البعث (٦٥٧)، والحديث حسن الإسناد.

(٦) عزاه إليه السمرقندي في البحر العلوم:٤٤١/١.

(٧) عزاه إليه السمرقندي في البحر العلوم:٤٤١/١، والقرطبي في تفسيره:٤٠٥/٦، وهو ابن سليمان إذا اطلق، ولم اجده في تفسيره لهذه الآية، وإنما وجدت قوله في تفسير قوله تعالى: {وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام : ٣٠].

قال مقاتل:" {ولو ترى} يا محمد،{إذ وقفوا}، يعني: عرضوا على ربهم...". [انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١].

(٨) عزاه إليه السمرقندي في البحر العلوم:٤٤١/١، والقرطبي في تفسيره:٤٠٥/٦.

(٩) معاني القرآن:٢٣٩/٢.

(١٠) انظر: الكشاف:١٥/٢.

(١١) التفسير الميسر:١٣٠.

(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.

قال الطبري:" فقال هؤلاء المشركون بربهم، إذ حُبسوا في النار:{يا ليتنا نردّ}، إلى الدنيا حتى نتوب ونراجعَ طاعة الله، ولا نكذّب بحجج ربنا ولا نجحدها ، ونكون من المصدّقين بالله وحججه ورسله، متَّبعي أمره ونهيه"(١).

قال الزجاج:" المعنى: يا ليتنا نرد، ونحن لا نكذب، بآيات ربنا رددنا أم لم نرد"(٢).

قال ابن كثير:" يتمنون أن يردوا إلى الدار الدنيا ، ليعملوا عملا صالحا ، ولا يكذبوا بآيات ربهم ويكونوا من المؤمنين"(٣).

قال الزمخشري:"{يا ليتنا نرد}: تم تمنيهم. ثم ابتدءوا:{ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين}، واعدين الإيمان، كأنهم قالوا: ونحن لا نكذب ونؤمن على وجه الإثبات.

وشبهه سيبويه بقولهم:«دعني ولا أعود، بمعنى دعني وأنا لا أعود، تركتني أو لم تتركني»(٤).

ويجوز أن يكون معطوفا على:{نرد}، أو حالا على معنى: يا ليتنا نرد غير مكذبين وكائنين من المؤمنين، فيدخل تحت حكم التمني.

فإن قلت: يدفع ذلك قوله وإنهم لكاذبون لأن المتمنى لا يكون كاذبا.

قلت: هذا تمن قد تضمن معنى العدة، فجاز أن يتعلق به التكذيب، كما يقول الرجل: ليت الله يرزقني مالا فأحسن إليك وأكافئك على صنيعك، فهذا متمن في معنى الواعد، فلو رزق مالا ولم يحسن إلى صاحبه ولم يكافئه كذب، كأنه قال: إن رزقني الله مالا كافأتك على الإحسان"(٥).

قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو والكسائى وعاصم فى رواية أبى بكر :{ولا نكذب}، {ونكون} جميعا بالرفع، وقرأ ابن عامر وحمزة وعاصم فى رواية حفص {ولا نكذب}، {ونكون} بنصبهما(٦)، هذه رواية ابن ذكوان عن أصحابه عن ابن عامر، وقال هشام بن عمار بإسناده عن ابن عامر {ولا نكذب} رفعا، {ونكون} نصبا(٧).

وعن هارون قال: "في حرف ابن مسعود: «يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ فَلا نُكَذِّبَ»، بالفاء"(٨).

قوله تعالى:{وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} [الأنعام : ٢٧]، أي:"ونكون من المؤمنين بالله إيماناً صادقا"(٩).

قال مقاتل:" يعني: المصدقين بالقرآن"(١٠).

قال الزجاج:" أي: قد عاينا وشاهدنا ما لا نكذب معه أبدا"(١١).

قال الواحدي:" يتمنون الرد [إلى الدنيا]، لكي يؤمنوا ويصدقوا"(١٢).

قال ابن عباس:" ولو ردوا إلى الدنيا لحيل بينهم وبين الهدى، كما حلنا بينهم وبينه أول مرة وهم في الدنيا"(١٣).

الفوائد:

---

(١) تفسير الطبري:٣١٨/١١.
(٢) معاني القرآن:٢٣٩/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٨/٣.
(٤) قال سيبويه:"دعني ولا أعود، أي فإني ممن لا يعود، فإنما يسأل الترك وقد أوجب على نفسه أن لا عودة له البتة ترك أو لم يترك، ولم يرد أن يسأل أن يجتمع له الترك وأن لا يعود".[الكتاب:٤٤/٣].
(٥) الكشاف:١٥/٢.
(٦) وذلك بإضمار "أن" على جواب التمني، ومعناه: إن رددنا لم نكذب ونكن من المؤمنين.[انظر: الكشاف:١٥/٢].
(٧) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٥.
(٨) أخرجه الطبري(١٣١٨٠):ص٣١٨/١١.
(٩) صفوة التفاسير:٣٥٧/١، [بتصرف].
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.
(١١) معاني القرآن:٢٣٩/٢.
(١٢) التفسير الوسيط:٢٦٢/٢.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢١١):ص١٢٧٨/٤.

١- من فوائد الآية: شدة ندم الكافرين إذا وُقِفوا على نار جهنم؛ لكونهم يتمنون أمرًا لا يمكن أن يكون.
٢- ومنها: إثبات النار؛ وهي الدار التي أعدها الله عز وجل للكافرين، وقد جاء في الكتاب والسنة من أصناف العذاب فيها ما هو معلوم لكثير من الناس.
٣- ومنها: إثبات القول للناس بعد البعث، وأن الإنسان بعد البعث يقول ويفعل كما يقول في الدنيا ويفعل.
٤- ومنها: إقرار هؤلاء بآيات الله عز وجل؛ لقولهم: (وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا).
٥- ومنها أيضًا: إقرارهم بأنهم ليسوا بمؤمنين؛ لأنهم تمنوا أن يكونوا مؤمنين، ولكن هذا لا ينفع؛ إذ قد انتهى كل شيء.
٦- ومنها: جواز حذف المعلوم، والمعنى: جوازه لغة، وفي هذا يقول ابن مالك رحمه الله(١):

وَحَذْفُ مَا يُعْلَمُ جَائِزٌ كَمَا تَقُولُ زَيْدٌ بَعْدَ مَنْ عِنْدَكُمَا

يعني ما علم من المبتدأ والخبر جاز حذفه، فمثال ذلك في الخبر: "زيد" جوابا لمن قال: "من عندك؟ " والأصل: "زيد عندي". ومثله قوله تعالى: {أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا} [الرعد:٣٥] أي كذلك. ومثاله في المبتدأ قولك: "دنف" جوابا لمن قال: "كيف زيد؟ " والأصل: زيدٌ دنفٌ، فاستغنى عن ذكر زيد للعلم به، ومثله: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا} [فصلت:٤٦] أي فعمله وإساءته.
فإن لم يعلم بقرينة دالة عليه لم يجز حذفه(٢).

القرآن
{بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (٢٨)} [الأنعام : ٢٨]
التفسير:
ليس الأمر كذلك، بل ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعه خلافه. ولو فرض أن أعيدوا إلى الدنيا فأمهلوا لرجعوا إلى العناد بالكفر والتكذيب. وإنهم لكاذبون في قولهم: لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا، وكنا من المؤمنين.
قوله تعالى:{بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام : ٢٨]، أي:" ليس الأمر كذلك، بل ظهر لهم يوم القيامة ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا، وإن كانوا يظهرون لأتباعه خلافه"(٣).
قال الطبري:" يقول: بل بدا لهم ما كانوا يخفون من أعمالهم السيئة التي كانوا يخفونها"من قبل ذلك في الدنيا، فظهرت"(٤).
قال السمعاني:" أي: ظهر لهم ما أخفوا من قبل من تبرئهم عن الشرك بقولهم: {والله ربنا ما كنا مشركين}؛ وذلك أنهم إذا قالوا ذلك؛ يختم الله على أفواههم، وتنطق جوارحهم بشركهم؛ فيبدو لهم ما كانوا يخفون من قبل"(٥).
قال الزمخشري: أي:{ماكانوا يخفون} " من قبائحهم وفضائحهم في صحفهم وبشهادة جوارحهم عليهم، فلذلك تمنوا ما تمنوا ضجرا، لا أنهم عازمون على أنهم لو ردوا لآمنوا. وقيل:

---

(١) الفية ابن مالك:١٨.
(٢) انظر: إرشدا الساري إلى حل ألفية ابن مالك:١٨١/١.
(٣) التفسير الميسر:١٣١.
(٤) تفسير الطبري:٣٢١/١١.
(٥) تفسير السمعاني:٩٧/٢.

هوفي المنافقين وأنه يظهر نفاقهم الذي كانوا يسرونه. وقيل: هو في أهل الكتاب وأنه يظهر لهم ما كانوا يخفونه من صحة نبوة رسول الله صلى الله عليه وسلم"(١).

قال البغوي:"{بل} تحته رد لقولهم، أي: ليس الأمر على ما قالوا إنهم لو ردوا لآمنوا، بل بدا لهم، ظهر لهم، {ما كانوا يخفون} يسرون، {من قبل} في الدنيا من كفرهمومعاصيهم، وقيل: ما كانوا يخفون وهو قولهم "والله ربنا ما كنا مشركين" (الأنعام، ٢٣) ، فأخفوا شركهم وكتموا حتى شهدت عليهم جوارحهم بما كتموا وستروا، لأنهم كانوا لا يخفون كفرهم في الدنيا، إلا أن تجعل الآية في المنافقين"(٢).

وعن قتادة في قوله:"{بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل}، قال: من أعمالهم"(٣).

وفي قوله تعالى:{بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ} [الأنعام : ٢٨]، وجوه:

أحدها : بدا لهم وبال ما كانوا يخفون(٤).

قال المبرد:" قال المبرد: بدا لهم جزاء كفرهم الذي كانوا يخفونه"(٥).

والثاني : بدا لهم ما كان يخفيه بعضهم عن بعض ، قاله الحسن(٦).

وعليه فإن:" المراد الكفار وكانوا إذا وعظهم النبي صلى الله عليه وسلم خافوا وأخفوا ذلك الخوف لئلا يفطن بهم ضعفاؤهم، فيظهر يوم القيامة"(٧).

والثالث : بدا للأتباع مما كان يخفيه الرؤساءعنهم من أمر البعث والقيامة، لأن بعده::{وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}(٨).

والرابع: بدت لهم أعمالهم في الآخرة، التي أخفوها في الدنيا. قاله السدي(٩).

والخامس: ظهر لهم ما كانوا يجحدونه من الشرك فيقولون: {والله ربنا ما كنا مشركين}، فينطق الله جوارحهم فتشهد عليهم بالكفر فذلك حين {بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل}. قاله أبو روق(١٠).

والسادس: وقيل: {بدا لهم} ما كانوا يكتمونه من الكفر، أي بدت أعمالهم السيئة كما قال:{وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون}[الزمر: ٤٧](١١).

قال ابن كثير: المعنى:" بل ظهر لهم حينئذ ما كانوا يخفون في أنفسهم من الكفر والتكذيب والمعاندة ، وإن أنكروها ، في الدنيا أو في الآخرة ، كما قال قبل هذا بيسير { ثُمَّ لَمْ تَكُنْ فِتْنَتُهُمْ إِلا أَنْ قَالُوا وَاللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ انْظُرْ كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ }.

ويحتمل أنهم ظهر لهم ما كانوا يعلمونه من أنفسهم من صدق ما جاءت به الرسل في الدنيا ، وإن كانوا يظهرون لأتباعهم خلافه ، كما قال تعالى مخبرًا عن موسى أنه قال لفرعون : { لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزلَ هَؤُلاءِ إِلا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضِ بَصَائِرَ } الآية [الإسراء : ١٠٢]. قال تعالى مخبرًا عن فرعون وقومه : { وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا } [النمل : ١٤].

ويحتمل أن يكون المراد بهؤلاء المنافقين الذين كانوا يظهرون للناس الإيمان ويبطنون الكفر ، ويكون هذا إخبارا عما يكون يوم القيامة من كلام طائفة من الكفار ، ولا ينافي هذا كون هذه السورة مكية ، والنفاق إنما كان من بعض أهل المدينة ومن حولها من الأعراب ، فقد ذكر

---

(١) الكشاف:١٦/٢.
(٢) تفسير البغوي:١٣٧/٣-١٣٨.
(٣) أخرجه الطبري(١٣١٨٢):ص٣٢٢/١١.
(٤) انظر: النكت والعيون:١٠٦/٢.
(٥) تفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٠٦/٢، وتفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٧) تفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٠٦/٢، وتفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣١٨١):ص٣٢٢/١١.
(١٠) انظر: تفسير القرطبي:٤١٠/٦، وأبوروق: -فتح الراء وسكون الواو وبعدها قاف-هو عطية بن الحرث الهمذاني الكوفي ذكره بن سعد في الطبقة الخامسة، وقال: هوصاحب التفسير. (التهذيب).
(١١) انظر: تفسير القرطبي:٤١٠/٦.

الله وقوع النفاق في سورة مكية وهي العنكبوت ، فقال : { وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ } [العنكبوت : ١١] ؛ وعلى هذا فيكون إخبارًا عن حال المنافقين في الدار الآخرة ، حين يعاينون العذاب يظهر لهم حينئذغب ما كانوا يبطنون من الكفر والشقاق والنفاق.

وأما معنى الإضراب في قوله : { بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ } فهُم ما طلبوا العود إلى الدنيا رغبة ومحبة في الإيمان ، بل خوفا من العذاب الذي عاينوه جزاء ما كانوا عليه من الكفر ، فسألوا الرجعة إلى الدنيا ليتخلصوا مما شاهدوا من النار"(١).

قوله تعالى:{وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ} [الأنعام : ٢٨]، أي:" ولو فرض أن أعيدوا إلى الدنيا فأمهلوا لرجعوا إلى العناد بالكفر والتكذيب"(٢).

قال قتادة:" يقول: ولو وصل الله لهم دُنيا كدنياهم، لعادوا إلى أعمالهم أعمالِ السوء"(٣).

قال ابن عباس:" فأخبر الله سبحانه أنهم لو ردوا لم يقدروا على الهدى، وقال: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون}"(٤).

قال الطبري:" يقول: ولو ردّوا إلى الدنيا فأمْهلوا، لرجعوا إلى مثل العمل الذي كانوا يعملونه في الدنيا قبل ذلك، من جحود آيات الله، والكفر به، والعمل بما يسخط عليهم ربِّهم"(٥).

قال الماوردي:" يعني: ولو ردوا إلى ما تمنوا من الدنيا لعادوا إلى ما نهوا عنه من الكفر"(٦).

قال السمعاني:" أي: ولو ردوا إلى الدنيا لعادوا إلى الكفر، والشرك بالله"(٧).

قال الزمخشري:"{ولو ردوا إلى الدنيا} بعد وقوفهم على النار،{لعادوا لما نهوا عنه} من الكفر والمعاصي"(٨).

قال القرطبي:" أي: لصاروا ورجعوا إلى ما نهوا عنه من الشرك لعلم الله تعالى فيهم أنهم لا يؤمنون، وقد عاين إبليس ما عاين من آيات الله ثم عاند"(٩).

قوله تعالى:{وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام : ٢٨]، أي:" وإنهم لكاذبون في قولهم: لو رددنا إلى الدنيا لم نكذب بآيات ربنا، وكنا من المؤمنين"(١٠).

قال النسفي:أي:"فيما وعدوا من أنفسهم لا يوفون به"(١١).

قال الطبري:أي:"في قيلهم:{لو رددنا لم نكذب بآيات ربّنا وكنا من المؤمنين}، لأنهم قالوه حين قالوه خشية العذاب، لا إيمانًا بالله"(١٢).

قال ابن كثير:" أي : في تمنيهم الرجعة رغبة ومحبة في الإيمان"(١٣).

قال الزمخشري:أي:" فيما وعدوا من أنفسهم لا يفون به"(١٤).

وفي قوله تعالى:{وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ} [الأنعام : ٢٨]، وجهان(١٥):

---

(١) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٨-٢٤٩.
(٢) التفسير الميسر:١٣١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣١٨٣):ص١١/٣٢٢.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢١٧):ص٤/١٢٧٩.
(٥) تفسير الطبري:١١/٣٢١-٣٢٢.
(٦)النكت والعيون:٢/١٠٦.
(٧) تفسير السمعاني:٢/٩٧.
(٨) الكشاف:٢/١٦.
(٩) تفسير القرطبي:٦/٤١٠.
(١٠) التفسير الميسر:١٣١.
(١١) تفسير النسفي:١/٤٤٩.
(١٢) تفسير الطبري:١١/٣٢١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٣/٢٤٩.
(١٤) الكشاف:٢/١٦.
(١٥) انظر: النكت والعيون:٢/١٠٦.

أحدهما : أنه خبر مستأنف أخبر الله به عن كذبهم لا أنه عائد إلى ما تقدم من تمنّيهم ، لعدم الصدق والكذب في التمنّي .
والثاني : {إِنَّهُمْ لَكَاذِبونَ}، يعني: في الإخبار عن أنفسهم بالإيمان إن رُدُّوا.
قال القرطبي:"قوله تعالى:{وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ}:إخبار عنهم، وحكاية عن الحال التي كانوا عليها في الدنيا من تكذيبهم الرسل، وإنكارهم البعث، كما قال:{وإن ربك ليحكم}[النحل: ١٢٤]، فجعله حكاية عن الحال الآتية"(١).
وقرا يحيى ابن وثاب :«ولو ردوا»، بكسر الراء، لأن الأصل: رددوا، فنقلت كسرة الدال على الراء(٢).
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة: أنه تظهر الحقائق يوم القيامة وتبين، واقرأ قول الله عز وجل في سورة «يس» إذ قال قال الله عز وجل في آخر السورة عند ذكر نفخ الصور: (يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا) فيقولون: (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) أو يقال لهم: (هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ) [يس: ٥٢] فيتبين الأمر جليًّا في ذلك الوقت، ولكنه لا ينفع من لم يؤمن به في حياته.
٢- ومنها: تعلُّق علم الله بالمستحيل؛ لقوله: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ).فإذا قال قائل: هذا ليس بمستحيل؛ لأن الله قادر أن يعيدهم إلى الدنيا، فيقال: إنه مستحيل حسب وعد الله عز وجل، فإن الله قد قضى أن الناس لا يرجعون إلى الدنيا، ولهذا إذا تمنى الشهداء الذين قتلوا في سبيل الله؛ تمنوا أن يرجعوا إلى الدنيا فيقتلوا مرة ثانية كما فعل عبد الله بن حرام «حين قال له الله عز وجل: تمنّ، قال: أتمنى أن أعود إلى الدنيا فأقتل فيك مرة أخرى، قال: إني قضيتُ أنهم إليها لا يُرجعون»(٣). هذا قضاء كوني قدري، فيكون مستحيلًا حسب وعد الله.
٣- ومنها: أن الكافرين لا يستنزهون من الكذب حتى في الآخرة، وكذلك المنافقون؛ لأن الله تعالى كذبهم وقال: (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ).
٤- ومنها: تأكيد الشيء إذا دعت الحاجة إليه؛ إما لأهميته وإما لكون المخاطب مترددًا فيه، أو لغير ذلك من الأسباب، المهم أن من الفصاحة والبلاغة أن يُؤكّد الخبر إذا دعت الحاجة إلى تأكيده، التأكيد في الآية في أي جملة؟ (وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) فهنا مؤكد بـ«إن» و«اللام».
٥- ومنها: تعلق الخوارج والمعتزلة بظاهر هذه الآية:
- أما المعتزلة فإنهم قالوا: إنهم لما طلبوا الرد ولم يردهم لما علم أنه لو ردهم لعادوا إلى التكذيب ثانيا، ولو علم منهم أنهم لا يعودون لكان يردهم، فدل أنه إنما لم يردهم لما علم منهم أنهم يعودون إلى ما كانوا من قبل، فيستدلون بظاهر هذه الآية على أن الله لا يفعل بالعبيد إلا الأصلح لهم في الدين، وقالوا: لو علم منهم الإيمان لكان لا يجوز له ألا يردهم.
ومن قولهم: إنه إذا علم من كافر أنه يؤمن في آخر عمره لم يجز له أن يميته.
وغير ذلك من المخاييل والأباطيل.
- وقالت الخوارج: أخبر أنه لو ردهم لعادوا لما نهوا عنه، وسماهم بالقول كاذبين بما في علمه أنهم لا يفعلون بما يقولون، فعلى ذلك كل صاحب كبيرة إذا كان في اعتقاده الذي أظهره أنه لا يأتي بها، فإذا أتى بها يصير فيما اعتقده ألا يأتي بها كاذبا؛ ولذلك يجعلون أصحاب الكبائر كذبة في القول الأول أنهم لا يأتون بها، وعلى ذلك كانت المبايعة بقوله

---
(١) تفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٢) انظر: تفسير القرطبي:٤١٠/٦.
(٣)) أخرجه الترمذي (٣٠١٠)، وابن ماجه (١٩٠) من حديث جابر بن عبد الله.

- عز وجل -: {يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَنْ لَا يُشْرِكْنَ...} [الممتحنة : ١٢] الآية، فإذا سرقن صرن كاذبات في البيعة، كما جعل من ذكر كاذبا في الوعد إذا أخلف،وعلى ذلك يجعلونه كافرا(١).

٦- قال الواحدي:" وهذه الآية من الأدلة الظاهرة على تكذيب القدرية، وذلك أن الله تعالى أخبر عن قوم جرى عليهم قضاؤه في الأزل بالشرك، فقال: لو أنهم شاهدوا النار والحساب وسألوا الرجعة وردوا، لعادوا إلى الشرك، وذلك للقضاء السابق فيهم، وإلا فالعاقل لا يكاد يرتاب فيما شاهد"(٢).

٧- قال الشيخ محمد رشيد رضا:" ومن وقائع العبر في ذلك ما حدث لأخ لي عملت له عملية جراحية خدر قبلها بالبنج (كلورفورم) فكان من تأثيره فيه أنه شعر بأن روحه تسل من بدنه وأنه قادم على ربه وقد طال الأمد على اندمال جرحه، وكان قبل ظهور أمارات الشفاء منه يخاف أن يذهب بنفسه فيندم على ما فات ويتحسر على ما كان منه من التفريط والتقصير فيالواجبات وإضاعة الأوقات الطويلة في البطالة واللهو وإن كان من المباحات وعزم على الجد والتشمير فيما بقي من عمره، إن عافاه الله من مرضه، حتى عزم على الاستمرار على ترك شرب الدخان، الذي منعه الطبيب منه في أثناء أخذه بالعلاج، ولكنه لما عاد إلى مثل ما كان عليه من الصحة على أنها لم تكن سابغة عاد كذلك لجميع أعماله وعاداته السابقة، على أنه تذكر من تلقاء نفسه هذه الآية :{ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه} وعد ما وقع له شاهدا لها ومثالا تعرف به حقيقة تفسيرها"(٣).

٨- ويستنبط من الآية أن الطريقة المثلى لإقامة الناس على صراط الحق والفضيلة إنما هي حملهم على ذلك بالعمل والتعويد، مع التعليم وحسن التلقين، كما يربى الأطفال في الصغر، وكما يمرن الرجال على أعمال العسكر، وأن من أكبر الخطأ أن يسمح للأحداث بطاعة شهواتهم، واتباع أهوائهم، بشبهة تربيتهم على الحرية والاستقلال، الذي يهديهم إلى الحق والفضيلة بما يفيدهم العلم في سن الرشد من الاقتناع بطرق الاستدلال، أقول: إن هذا من أكبر الخطأ وأنا عالم بفضل التربية الاستقلالية ومن الدعاة إليها لأنه قلما يوجد في الناس من يتبع هواه وشهواته في الصغر ثم يرجع عن ذلك كله في الكبر، بعد أن يصير ملكة وعادة له، لقيام الدليل عنده على أنه ينافي الحق أو العدل والفضيلة، وإنما يقع مثل هذا من أفراد من الناس خلقوا مستعدين للحكمة، بما أوتوا من سلامة الفطرة وقوة العزيمة، أو من اتباع الرسل في زمن البعثة، وأكثر البشر مسخرون لعادتهم، منقادونلما ألفوا في أول نشأتهم، لا يخالفون ذلك إلا قليلا، يتكلفون المخالفة تكلفا عند عروض ما يقتضي ذلك، فإذا زال المقتضى عادوا إلى عادهم وشنشنتهم، وعملوا على سابق شاكلتهم وإنما تربية الصغار على ما عرف من الحق، وتقرر من أصول الفضيلة والأدب، كتربيتهم على النظافة ومراعاة قوانين الصحة، لا يشترط فيها أن يعرفوا من أول النشأة فائدة ذلك بالدليل والبرهان، وتأخير تلقينهم هذه الفائدة إلى وقت الاستعداد لها في الكبر لا ينافي تربية الاستقلال، وأوضح الشواهد والأمثلة المعروفة على ما قلنا فشو السكر في أمم الإفرنج ومقلدتهم من الشرقيين، فإن أكثرهم يعلمون أنه ضار قبيح، ولا يكاد يوجد في مائة الألف منهم واحد يتركه بعد أن اعتاده وأدمنه لاقتناعه بضرره مماثبت من الدلائل الطبية والتجارب القطعية(٤).

---

(١) انظر: تفسير الماتريدي:٦٤/٤.
(٢) التفسير البسيط:٨٠/٨، وانظر: مفاتيح الغيب:١٢/ ١٩٤،والبحر المحيط: ٤/ ١٠٤.
(٣)تفسير المنار:٢٩٧/٧.
(٤) انظر: تفسير المنار:٢٩٧/٧-٢٩٨.

القرآن

{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ (٢٩)} [الأنعام : ٢٩]

التفسير:

وقال هؤلاء المشركون المنكرون للبعث: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها، وما نحن بمبعوثين بعد موتنا.

قوله تعالى:{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الأنعام : ٢٩]، أي:"وقال هؤلاء المشركون المنكرون للبعث: ما الحياة إلا هذه الحياة التي نحن فيها"(١).

قال ابن كثير:"أي : لعادوا لما نهوا عنه ، إنهم لكاذبون ولقالوا : { إِنْ هِيَ إِلا حَيَاتُنَا } أي : ما هي إلا هذه الحياة الدنيا ، ثم لا معاد بعدها"(٢).

قال السعدي:"أي: ما حقيقة الحال والأمر وما المقصود من إيجادنا إلا الحياة الدنيا وحدها"(٣).

قال السمرقندي:"{إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا}،يعني: ما هي إلا آجالنا تنقضي في الدنيا، فيموت الآباء، ويجيء الأبناء"(٤).

قال الزمخشري:"{وقالوا}، عطف على {لعادوا}، أى: ولو ردوا لكفروا ولقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا كما كانوا يقولون قبل معاينة القيامة، ويجوز أن يعطف على قوله: {وإنهم لكاذبون}، على معنى:وإنهم لقوم كاذبون في كل شيء، وهم الذين قالوا: {إن هي إلا حياتنا الدنيا}، وكفى به دليلا على كذبهم "(٥).

وفي قوله تعالى:{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} [الأنعام : ٢٩]، ثلاثة وجوه:

أحدها: حكاية قولهم، لو ردوا لقالوا.

قال أصبغ بن الفرج : "سمعت عبد الرحمن بن زيد بن أسلم يقول في قوله: {ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه}، قال: وقالوا- حين يردون-: {إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين}"(٦).

والثاني: -وهو قول الجمهور-أن قوله:{وَقَالُوا إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} إخبار عن منكري البعثأنهم كذلك كانوا يقولون في الدنيا(٧).

والثالث: وهو الجمع بين القولين، فيقال: لما كان ديدنهم في الدنيا هو الكذب بالآخرة الذي كانوا يعبرون عنه بتلك المقولة :{إِنْ هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا} فإنهم لوردوا إلى الدنيا لعادوا إلى ديدنهم ذلك ولقالوا نفس المقولة(٨).

قوله تعالى:{وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [الأنعام : ٢٩]، أي:"وما نحن بمبعوثين بعد موتنا"(٩).

قال السمرقندي: يعني: "بعد الموت"(١٠).

قال القاسمي:"أي: بعد مفارقتنا هذه الحياة"(١١).

قال السمعاني:"هذا في إنكارهم البعث والقيامة"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٣١.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.

(٣) تفسير السعدي:٢٥٤.

(٤) بحر العلوم:٤٤٢/١.

(٥) الكشاف:١٦/٢.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٢٠):ص١٢٧٩/٤-١٢٨٠.

(٧) اظر: تفسير الطبري:٣٢٢/١١-٣٢٣.

(٨)انظر: المحرر الوجيز: ٥ / ١٧٢ - ١٧٣،ومفاتيح الغيب: ١٢/ ١٩٤،و"الفريد" ٢/ ١٣٨،و"البحر" ٤/ ١٠٥،و"الدرالمصون" ٤/ ٥٩٢.

(٩) التفسير الميسر:١٣١.

(١٠) بحر العلوم:٤٤٢/١.

(١١) محاسن التأويل:٣٤٠/٤.

(١٢) تفسير السمعاني:٩٨/٢.

قال الزجاج:"فأنكروا البعث ليجرئوا عنى المعاصي"(١).

قال الطبري:"وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المشركين، العادلين به الأوثان والأصنام، الذين ابتدأ هذه السورة بالخبر عنهم، يخبر عنهم أنهم ينكرون أنّ الله يُحيي خلقه بعد أن يُميتهم، ويقولون: لا حياة بعد الممات، ولا بعث ولا نشور بعد الفناء، فهم بجحودهم ذلك، وإنكارهم ثوابَ الله وعقابَه في الدار الآخرة، لا يبالون ما أتوا وما ركبوا من إثم ومعصية، لأنهم لا يرجون ثوابًا على إيمان بالله وتصديق برسوله وعملٍ صالح بعد موت، ولا يخافون عقابًا على كفرهم بالله ورسوله وسيّئ من عمل يعملونه"(٢).

قال البغوي:"هذا إخبار عن إنكارهم البعث، وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم(٣)، هذا من قولهم لو ردوا لقالوه"(٤).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الكافرين ينكرون البعث؛ لأن قوله: (وَقَالُوا) معطوف على ما سبق، وقد صرح الله عز وجل بهذا في قوله: (زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ) [التغابن ٧].

٢- * ومن فوائد هذه الآية: الإشارة إلى دنوّ حياة الدنيا، وأنها ليست بتلك الحياة التي ينبغي للإنسان أن يحافظ عليها وينسى الآخرة؛ لقوله: (الدُّنْيَا).وقد جاء في الحديث: «لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ لَمْ يَسْقِ اللَّهُ مِنْهَا كَافِرًا شَرْبَةَ مَاءٍ»(٥).

وفي هذا يقول ابن القيم رحمه الله(٦):

لَوْ سَاوَتِ الدُّنْيَا جَنَاحَ بَعُوضَةٍ   لَمْ يَسْقِ مِنْهَا الرَّبُّ ذَا الكُفْرَانِ
لَكِنَّهَا وَاللَّهِ أَحْقَرُ عِنْـــــــدَهُ   مِنْ ذَا الجَنَاحِ القَاصِرِ الطَّيَـــرَانِ

٣- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن إنكار هؤلاء للبعث إنكار مكابرة، نأخذها من أنه لو صدق ما قالوا لأصبح خلق الخلق عبثًا لا فائدة منه، أمم تحيا وتموت وتتقاتل وتتناحر، ثم لا يكون بعث، يُجازَى فيه المحسن بإحسانه والمسيء بإساءته، هذا غير ممكن.

القرآن

{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٠)} [الأنعام : ٣٠]

التفسير:

ولو ترى -أيها الرسول- منكري البعث إذ حُبسوا بين يدي الله تعالى لقضائه فيهم يوم القيامة، لرأيت أسوأ حال، إذ يقول الله جل وعلا أليس هذا بالحق، أي: أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقًّا؟ قالوا: بلى وربنا إنه لحق، قال الله تعالى: فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون أي: العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا بسبب جحودكم بالله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

قوله تعالى:{وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام : ٣٠]، أي:"ولو ترى -أيها الرسول- منكري البعث إذ حُبسوا بين يدي الله تعالى لقضائه فيهم يوم القيامة، لرأيت أسوأ حال"(٧).

قال مقاتل:"يعني: عرضوا على ربهم"(٨).

---

(١) معاني القرآن:٢/٢٤٠.
(٢) تفسير الطبري:١١/٣٢٢-٣٢٣.
(٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٢٢٠):ص٤/١٢٧٩-١٢٨٠.
(٤) تفسير البغوي:٣/١٣٨.
(٥)أخرجه الترمذي (٢٣٢٠)، وابن ماجه (٤١١٠) من حديث سهل بن سعد.
(٦) انظر: شرح المقاصد شرح الكافية الشافية نونية ابن القيم:٢/٤٦٦.
(٧) التفسير الميسر:١٣١.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٥٧.

قال البغوي:"أي: على حكمه وقضائه ومسألته"[١].
قال ابن كثير:"أي : أوقفوا بين يديه "[٢].
قال السمرقندي:"يعني: عرضوا وسيقوا وحبسوا عند ربهم وعند عذاب ربهم"[٣].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره:{لو ترى}، يا محمد، هؤلاء القائلين: ما هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين {إذ} حبسوا، يوم القيامةعلى حكم الله وقضائه فيهم"[٤].
قال الزمخشري:"{وقفوا على ربهم}: مجاز عن الحبس للتوبيخ والسؤال، كما يوقف العبد الجاني بين يدي سيده ليعاتبه. وقيل: وقفوا على جزاء ربهم. وقيل عرفوه حق التعريف"[٥].
قوله تعالى:{قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ} [الأنعام : ٣٠]، أي:"إذ يقول الله جل وعلا أليس هذا بالحق، أي: أليس هذا البعث الذي كنتم تنكرونه في الدنيا حقًّا؟"[٦].
قال الطبري:"فقيل لهم: أليس هذا البعثُ والنشر بعد الممات الذي كنتم تنكرونَه في الدنيا، حقًّا؟"[٧].
قال السمرقندي:"يعني: العذاب والبعث بالحق"[٨].
قال ابن كثير:"أي:أليس هذا المعاد بحق وليس بباطل كما كنتم تظنون؟"[٩].
قال البغوي:"تقول لهم الخزنة بأمر الله، {أليس هذا بالحق} ؟ يعني: أليس هذا البعث والعذاب بالحق؟"[١٠].
قال السمعاني:"وذلك حين تكشف لهم الغيوب والسرائر"[١١].
قال الزمخشري:"{قال}: مردود على قول قائل قال: ماذا قال لهم ربهم إذ وقفوا عليه؟ فقيل: قال أليس هذا بالحق، وهذا تعيين من الله تعالى لهم على التكذيب، وقولهم- لما كانوا يسمعون من حديث البعث والجزاء-: ما هو بحق وما هو إلا باطل"[١٢].
قوله تعالى:{قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا} [الأنعام : ٣٠]، أي:"قالوا: بلى وربنا إنه لحق"[١٣].
قال الطبري:"فأجابوا، فقالوا: بلى والله إنه لحقّ"[١٤].
قال السمرقندي:"أقروا في وقت لا ينفعهم الإقرار"[١٥].
قال ابن عباس: "هذا في موقف، وقولهم: والله ربنا ما كنا مشركين في موقف آخر، وفي القيامة مواقف، ففي موقف يقرون، وفي موقف ينكرون"[١٦].
قوله تعالى:{قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأنعام : ٣٠]، أي:"قال الله تعالى: فذوقوا العذاب الذي كنتم تكذبون به في الدنيا بسبب جحودكم بالله تعالى ورسوله محمد صلى الله عليه وسلم"[١].

---

(١) تفسير البغوي:١٣٨/٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.
(٣) بحر العلوم:٤٤٢/١.
(٤) تفسيرالطبري:٣٢٤/١١.
(٥) الكشاف:١٦/٢.
(٦) التفسير الميسر:١٣١.
(٧) تفسير الطبري:٣٢٤/١١.
(٨) بحر العلوم:٤٤٢/١.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.
(١٠) تفسير البغوي:١٣٨/٣.
(١١) تفسير السمعاني:٩٨/٢.
(١٢) الكشاف:١٦/٢.
(١٣) التفسير الميسر:١٣١.
(١٤) تفسير الطبري:٣٢٤/١١.
(١٥) بحر العلوم:٤٤٢/١.
(١٦) تفسير البغوي:١٣٨/٣.

قال الطبري:"فقال الله تعالى ذكره لهم: فذوقوا العذاب الذي كنتم به في الدنيا تكذبون، بتكذيبكم به وجحودكموه الذي كان منكم في الدنيا"(٢).

قال ابن كثير:"أي : بما كنتم تكذبون به ، فذوقوا اليوم مَسّه، { أَفَسِحْرٌ هَذَا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ } [الطور : ١٥]"(٣).

قال الثعلبي:"أي: بكفركم"(٤).

قال الزمخشري:أي:"بكفركم بلقاء الله ببلوغ الآخرة وما يتصل بها، وقد حقق الكلام فيه في مواضع أخر"(٥).

قال مقاتل:{تكذبون}"بالعذاب بأنه غير كائن نظيرها في الأحقاف(٦)"(٧).

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات ربوبية لله عز وجل لهؤلاء الكفار؛ لقوله: (عَلَى رَبِّهِمْ).

٢- ومن فوائدها: أن لله ملائكة يأتون بالناس إليه عز وجل بدليل قوله: (إِذْ وُقِفُوا) ولم يقل: إذ وَقَفُوا فهم يؤتى بهم ويقفون.

٣- ومنها: أن القسم في قولهم:(بَلَى وَرَبِّنَا) يُشعر بشدة الندم على إنكارهم الأول؛ فكأنهم كذبوا أنفسهم تكذيبًا مقرونًا بالقسم، ولا يخفى أن مثل هذا لا يخرج إلا من قلب متحسِّر، ولكن فات الأوان.

٤- ومنها: إثبات الأسباب؛ لقوله: (بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ)، وإثبات الأسباب هو المطابق للواقع، واعلم أن الناس في إثبات الأسباب انقسموا إلى ثلاثة أقسام؛ الناس من الأمة هذه، من أمة محمد عليه الصلاة والسلام انقسموا ثلاثة أقسام:

- الأول: من أنكر الأسباب نهائيًّا، وقال: إن الأشياء تأتي بمجرد الصدفة، وبمجرد أن الله خلقها.
- والثاني: من أثبت الأسباب على أنها مؤثرة بذاتها، وهؤلاء هم الماديون الذين يعتقدون أن الكون يتفاعل بنفسه، وإن انتسبوا للأمة مثل بعض الفلاسفة أو المتفلسفة.
- الثالث: من أثبتوا الأسباب، لكن بما أودع الله فيها من القوة لا بنفسها، وهذا القول هو الوسط المتعيِّن، ولذلك نجد أن الأشياء تتغير مسبباتها بتقدير الله عز وجل؛ فالنار التي أوقدت لإبراهيم ماذا كانت؟ كانت بردًا وسلامًا، مع أننا لو رجعنا إلى السبب نفسه لكانت محرقة، لكن هي لا تكون محرقة إلا بإرادة الله عز وجل، ونجد أن الله تبارك وتعالى يُحدِث أشياء لا نعلم أسبابها مما يدل على أن السبب ليس هو الفاعل، ولكن الفاعل هو الله، ولكنه لحكمته جعل لكل شيء سببًا.

القرآن

{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ (٣١)} [الأنعام : ٣١]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:١٣١.

(٢) تفسير الطبري:٣٢٤/١١.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.

(٤) الكشف والبيان:١٤٣/٤.

(٥) الكشاف:١٦/٢.

(٦)يشير إلى الآية (٣٤) من سورة الأحقاف وهي: {وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ} [الأحقاف : ٣٤].

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.

قد خسر الكفار الذين أنكروا البعث بعد الموت، حتى إذا قامت القيامة، وفوجئوا بسوء المصير، نادَوا على أنفسهم بالحسرة على ما ضيَّعوه في حياتهم الدنيا، وهم يحملون آثامهم على ظهورهم، فما أسوأ الأحمال الثقيلة السيئة التي يحملونها!!

قوله تعالى:{قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ} [الأنعام : ٣١]، أي:"قد خسر الكفار الذين أنكروا البعث بعد الموت"(١).

قال مقاتل:"يعني: بالبعث"(٢).

قال الطبري:"قد هلك ووُكس، في بيعهم الإيمان بالكفر، الذين أنكروا البعثَ بعد الممات، والثواب والعقابَ، والجنة والنارَ، من مشركي قريش ومَنْ سلك سبيلهم في ذلك"(٣).

قال البغوي:"أي: خسروا أنفسهم بتكذيبهم المصير إلى الله بالبعث بعد الموت"(٤).

عن أبي هريرة يبلغ به النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يلقى العبد يوم القيامة، فيقول: أي فل. ألم أكرمك وأسودك وأزوجك، وأسخر لك الخيل والإبل، وأذرك ترأس وتربع، فظننت أنك ملاقي؟ فيقول: لا. فيقول:فإني أنساك كما نسيتني"(٥).

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً} [الأنعام : ٣١]، أي:"حتى إذا جاءتهم القيامة فجأةً من غير أن يعرفوا وقتها"(٦).

قال مقاتل:"يعني: يوم القيامة فجأة"(٧).

قال الطبري:"يقول: حتى إذا جاءتهم السَّاعة التي يَبْعث الله فيها الموتى من قبورهم"(٨).

قال البغوي:"{الساعة} أي: القيامة، {بغتة} أي: فجأة"(٩).

قال الزمخشري:" و{حتى} غاية لـ«كذبوا» لا لـ«خسر»، لأن خسرانهم لا غاية له. أى: ما زال بهم التكذيب إلى حسرتهم وقت مجيء الساعة.

فإن قلت: أما يتحسرون عند موتهم؟ قلت: لما كان الموت وقوعا في أحوال الآخرة ومقدماتها، جعل من جنس الساعة وسمى باسمها، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «من مات فقد قامت قيامته»(١٠)، أو جعل مجيء الساعة بعد الموت لسرعته كالواقع بغير فترة. {بغتة}: فجأة وانتصابها على الحال بمعنى: باغتة، أو على المصدركأنه قيل: بغتتهم الساعة بغتة"(١١).

---

(١) التفسير الميسر:١٣١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.
(٣) تفسير الطبري:٣٢٤/١١.
(٤) تفسير البغوي:١٣٨/٣.
(٥) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٢٢):ص١٢٨٠/٤.
(٦) صفوة التفاسير:٣٥٧/١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.
(٨) تفسير الطبري:٣٢٤/١١.
(٩) تفسير البغوي:١٣٨/٣.
(١٠)"موضوع، انظر: تخريج الإحياء" (٧٩/٤) الحافظ العراقي " تخريج الكشاف " (٤٣٦/١) للزيلعي "الضعيفة "(٥٤٦٢) (١١٦٦) الألباني بإسنادٍ تالفٍ؛ فيه داود بن المحبر، وقد كذبه الإمام أحمد، و قال فيه الذهبي: تالف.
-معناه صحيح يشهد لمعناه:
ما ثبت في صحيح مسلم (٢٢٦٩) من حديث أنس رضي الله عنه أن رجلاً سأل النبي قال: متى تقوم الساعة؟ قال: فسكت رسول الله هنيهة ثم نظر إلى غلام بين يديه من أزد شنوءة فقال: " إن عُمِّر هذا لم يدركه الهَرَم حتى تقوم الساعة. "
وذكر مثله في حديث عائشة رضي الله عنها . فهذا يدل على أنه له أصلاً لأن القيامة بمعنى الساعة كما ذكر في المقاصد الحسنة (ص ٤٢٨) لما ذكر هذا الحديث قال : وللطبراني من حديث زياد بن علاقة عن المغيرة بن شعبة قال : يقولون : القيامة وإنما قيامة المرء موته . ومن روايةسفيان بن أبي قيس قال : شهدت جنازة فيها علقمة فلما دفن قال : أما هذا فقد قامت قيامته".
(١١) الكشاف:١٦/٢-١٧.

قال الزجاج:"كل ما جاء فجاءة ،فقد بغت، يقال: قد بغته الأمر يبغته بغتا وبغتة، إذا أتاه فجاءة.قال الشاعر(١):

ولكنهم ماتوا ولم أخش بغتةوأفظع شيء حين يفجؤك البغت"(٢)

عن أبي هريرة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "تقوم الساعة على رجل أكلته في فيه يلوكها ولا يسيغها ولا يلفظها، وعلى رجلين قد نشرا بينهما ثوبا يتبايعانه، فلا يطويانه ولا يبتاعانه"(٣).

قال عكرمة:"لا تقوم الساعة حتى ينادي مناد: يا أيها الناس. أتتكم الساعة، أتتكم الساعة، أتتكم الساعة. ثلاثا"(٤).

قوله تعالى:{قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا} [الأنعام : ٣١]، أي:"قالوا يا ندامتنا علىما قصَّرنا وضيّعنا في الدنيا من صالح الأعمال"(٥).

قال مقاتل:"يعني: كفار قريش،{على ما فرطنا فيها}: يا ندامتنا على ما ضيعنا في الدنيا من ذكر الله"(٦).

قال السدي:"أمّا{يا حسرتنا}، فندامتنا ، {على ما فرطنا فيها}، فضيعنا من عمل الجنة"(٧).

عن أبي سعيد، عن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله:{يا حسرتنا}، قال:"يرى أهلُ النار منازلهم من الجنة فيقولون: {يا حسرتنا}"(٨).

عن ابن عباس في قوله:"{يا حسرة}، قال: الندامة"(٩).

عن مجاهد: "{يا حسرة}، قال: كانت عليهم حسرة استهزاؤهم بالرسل"(١٠).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وُكس الذين كذبوا بلقاء الله ببيعهم منازلهم من الجنة بمنازل من اشتروا منازله من أهل الجنة من النار، فإذا جاءتهم الساعة بغتةً قالوا إذا عاينوا ما باعوا وما اشتروا، وتبيَّنوا خسارة صفقة بَيْعهم التي سلفت منهم في الدنيا، تندُّمًا وتلهُّفًا على عظيم الغَبْن الذي غبنوه أنفسهم، وجليلِ الخسران الذي لا خسرانَ أجلَّ منه ، {يا حسرتنا على ما فرطنا فيها}، يقول: يا ندامتنا على ما ضيّعنا فيها، يعني: صفقتهم تلك"(١١).

قال البغوي:أي:"[يا] ندامتنا، ذكر على وجه النداء للمبالغة، وقال سيبويه: كأنه يقول: أيتها الحسرة هذا أوانك، {على ما فرطنا} أي: قصرنا {فيها} أي: في الطاعة، وقيل: تركنا في الدنيا من عمل الآخرة"(١٢).

قال ابن كثير:{فَرَّطْنَا فِيهَا}"وهذا الضمير يحتمل عَوْدُه على الحياة الدنيا، وعلى الأعمال ، وعلى الدار الآخرة، أي : في أمرها "(١٣).

---

(١) البيت ليزيد بن ضبية، انظر: الأغاني: ١٤٦/٦، والكامل:٥٢٠، واللسان"بغت"..

(٢) معاني القرآن:٢٤١/٢.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٢٢):ص١٢٨٠/٤.

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٢٤):ص١٢٨٠/٤.

(٥) صفوة التفاسير:٣٥٧/١.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٧/١.

(٧) أخرجه الطبري(١٣١٨٥):ص٣٢٦/١١.

(٨) أخرجه الطبري (١٣١٨٦):ص٣٢٦/١١، والسيوطي في الدرالمنثور ٣/ ٩، وقال: "أخرج ابن جرير، وابن أبي حاتم،والطبراني، وأبو الشيخ،وابن مردويه، والخطيب بسند صحيح،عن أبي سعيد الخدري"، وذكرالخبر.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٢٥):ص١٢٨٠/٤.

(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٢٧):ص١٢٨١/٤.

(١١) تفسير الطبري:٣٢٥/١١.

(١٢) تفسير البغوي:١٣٨/٣.

(١٣) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.

قال الزمخشري:"{فرطنا فيها}، الضمير للـ«حياة الدنيا»، جيء بضميرها وإن لم يجر لها ذكر لكونها معلومة، أو للـ«ساعة» على معنى: قصرنا في شأنها وفي الإيمان بها، كما تقول: فرطت في فلان. ومنه: فرطت في جنب الله"(١).

قال الزجاج:"وتأويل :«يا حسرتاه»: انتبهوا على أننا قد خسرنا، وهذا مثله في الكلام في أنك أدخلت عليه يا للتنبيه، وأنت تريد الناس قولك: لا أرينك ههنا، فلفظك لفظ الناهي نفسه، ولكنه لما علم أن الإنسان لا يحتاج أن يلفظ بنهي نفسه دخل المخاطب في النهي فصار المعنى: لا تكونن ههنا،فإنك إذا كنت رأيتك، وكذلك {يا حسرتنا}، قد علم أن الحسرة لا تدعى، فوقع التنبيه للمخاطبين، ومعنى: {فرطنا فيها}، قدمنا العجز"(٢).

قوله تعالى:{وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ} [الأنعام : ٣١]، أي:"وهم يحملون آثامهم على ظهورهم"(٣).

قال الزجاج:"أي: يحملون ثقل ذنوبهم، وهذا مثل. جائز أن يكون جعل ما ينالهممن العذاب بمنزلة أثقل ما يحمل، لأن الثقل قد يستعمل في الوزر، وفيالحال، فتقول في الحال قد ثقل على خطاب فلان، تأويله قد كرهت خطابهكراهة اشتدت علي، فتأويل الوزر الثقل من هذه الجهة، واشتقاقه من الوزر، وهو الجبل الذي يعتصم به الملك والنبي، أي يعينه، ومنه قوله تعالى: {وَجَعَلْنَا مَعَهُ أَخَاهُ هَارُونَ وَزِيرًا} [الفرقان : ٣٥]، سأل موسى ربه أن يجعل أخاه وزيرا له"(٤).

قال الزمخشري:"{يحملون أوزارهم على ظهورهم}، كقوله:{فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم} [الشورى : ٣٠]، لأنه اعتيد حمل الأثقال على الظهور، كما ألف الكسب بالأيدى"(٥).

قال ابن عطية:"«الأوزار»: جمع: وزر- بكسر الواو- وهو الثقل من الذنوب، تقول: منه وزر يزر إذا حمل، قال الله تعالى: {ولا تزر وازرة وزر أخرى} [الأنعام: ١٦٤]، وتقول: وزر الرجل فهو موزور، قال أبو عبيد والعامة مازور، وأما إذا اقترن ذلك بما جوز فإن العرب تقول: مأزور، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لنساء لقيهن مقبلات من المقابر: «ارجعن مأزورات غير مأجورات»(٦)، قال أبو علي وغيره فهذا للإتباع اللفظي، والوزر هنا :تجوز وتشبيه بثقل الأحمال، وقوى التشبيه بأن جعله على الظهور إذ هو في العادة موضع حمل الأثقال، ومن قال إنه من الوزر وهو الجبل الذي يلجأ إليه ومنه الوزير وهو المعين فهي مقالة غير بينة، وقال الطبري(٧) وغيره هذا على جهة الحقيقة"(٨).

قال عمرو بن قيس الملائي: "إن المؤمن إذا خرج من قبره استقبله أحسن شيء صورة وأطيبُه ريحًا، فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد طيَّب ريحك وحسَّن صورتك! فيقول: كذلك كنت في الدنيا، أنا عملك الصالح، طالما ركبتك في الدنيا، فاركبني أنت اليوم! وتلا:{يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا} [سورة مريم: ٨٥] . وإن الكافر يستقبله أقبح شيء صورة وأنتنُه ريحًا، فيقول، هل تعرفني؟ فيقول: لا إلا أن الله قد قَبّح صورتك وأنتن ريحك!

---

(١) الكشاف:١٦/٢-١٧.
(٢) معاني القرآن:٢٤١/٢-٢٤٢.
(٣) التفسير الميسر:١٣١.
(٤) معاني القرآن:٢٤٢/٢.
(٥) الكشاف:١٦/٢-١٧.
(٦)جزء حديث أخرجه ابن ماجه في الجنائز،بما جاء في اتباع النساء الجنائز ١/ ٥٠٣،البيهقى في السنن الكبرى ٤/ ٧٧ عن على –رضى الله عنه- ، وهو حديث ضعيف، في إسناده دينار بن عمر، ذكره ابن حبان في الثقات، وقال الخليلى في الإرشاد: كذاب، وبقية رجاله ثقات. قال البيهقى عقب سياقته للحديث: وفى حديث الروذبارى: " موزورات ".
(٧) انظر: تفسير الطبري:٣٢٧/١١-٣٢٨.
(٨) المحرر الوجيز:٢٨٤/٢.

فيقول: كذلك كنتُ في الدنيا، أنا عملك السيئ، طالما ركبتني في الدنيا، فأنا اليوم أركبك، وتلا":{وهم يحملون أوزارهم على ظُهورهم ألا ساء ما يزرون}"[١].

وقال السدي:"فإنه ليس من رجل ظالم يموت فيدخل قبره، إلا جاء رجل قبيح الوجه، أسودُ اللون، مُنتن الريح، عليه ثياب دَنِسة، حتى يدخل معه قبره، فإذا رآه قال له: ما أقبح وجهك! قال: كذلك كان عملك قبيحًا! قال: ما أنتن ريحك! قال: كذلك كان عملك منتنًا! قال: ما أدْنس ثيابك! قال فيقول: إن عملك كان دنسًا. قال: من أنت؟ قال: أنا عملك! قال: فيكون معه في قبره، فإذا بعث يوم القيامة قال له: إني كنت أحملك في الدنيا باللذّات والشهوات، فأنت اليوم تحملني. قال: فيركب على ظهره فيسوقه حتى يدخلَه النار، فذلك قوله:{يحملون أوزارهم على ظهورهم}"[٢].

عن جرير بن عبدالله، قال رسول الله -صلى الله عليه وسلم-: "من سن في الإسلام سنة حسنة، فعمل بها بعده، كتب له مثل أجر من عمل بها، ولا ينقص من أجورهم شيء، ومن سن في الإسلام سنة سيئة، فعمل بها بعده، كتب عليه مثل وزر من عمل بها، ولا ينقص من أوزارهم شيء"[٣].

قوله تعالى:{أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ} [الأنعام : ٣١]، أي:"فما أسوأ الأحمال الثقيلة السيئة التي يحملونها!"[٤].

قال قتادة:"ساء ما يعملون"[٥].

قال ابن كثير:"أي : يحملون"[٦].

قال ابن ابي زمنين:"أي: بئس ما يحملون"[٧].

قال الزجاج:"أي: بئس الشيء شيئا، أي: يحملونه"[٨].

قال الطبري:"يعني: ألا ساء الوزر الذي يزرون ، أي: الإثم الذي يأثمونه بربهم"[٩].

قال الزجاج:"أي: بئس الشيء شيئا أي يحملونه، وقد فسرنا عمل نعم وبئس فيمامضى من الكتاب، وكذلك {سَاءَ مَثَلًا الْقَوْمُ} [الأعراف : ١٧٧]، أي: مثل القوم"[١٠].

قال ابن عطية:"{أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ}:إخبار عن سوء ما يأثمون مضمن التعظيم لذلك والإشادة به، وهذا كقول النبي -صلى الله عليه وسلم-:«ألا فليبلغ الشاهد الغائب»[١١]، وقوله ألا هل بلغت، فإنما أراد الإشادة والتشهير وهذا كله يتضمنه ألا، وأما ساء ما يزرون فهو خبر مجرد كقول الشاعر[١٢]:

رضيت خطة خسف غير طائلة فساء هذا رضى يا قيس غيلانا

و«ساء»: فعل ماض وما فاعلة به كما تقول: ساءني أمر كذا، ويحتمل أن تجري ساء هنا مجرى بئس، ويقدر لها ما يقدر ل «بئس» إذ قد جاء في كتاب الله ساء مثلا القوم [الأعراف: ١٧٧] "[١٣].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣١٨٧):ص٣٢٧/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣١٨٨):ص٣٢٨/١١.
(٣) صحيح مسلم(١٠١٧):ص٢٠٥٩/٤.
(٤) التفسير الميسر:١٣١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣١٨٩):ص٣٢٨/١١.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٤٩/٣.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين:٣٩٩/٢.
(٨) معاني القرآن:٢٤٢/٢.
(٩) تفسير الطبري:٣٢٨/١١.
(١٠) معاني القرآن:٢٤١/٢.
(١١)صحيح البخاري برقم (١١٢) وصحيح مسلم برقم (١٣٥٥) من حديث أبي هريرة، رضي الله عنه.
(١٢) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد ابن عطية في المحرر الوجيز:٢٨٤/٢، والسمين الحلبي في الدر المصون:٥٩٧/٤.
(١٣) المحرر الوجيز:٢٨٤/٢.

الفوائد:
١- من فوائد هذه الآية الكريمة: بيان خسران الكافرين المكذبين بالبعث، وأنهم مهما ظنوا أنهم ربحوا فهم خاسرون، وذلك عند مجيء أجلهم، أما الآن فهم في سكرة لا يدرون.
٢- ومنها: وجوب الإيمان بلقاء الله؛ بدليل ثبوت الخسران لمن كذب به، ومعلوم أنه لا يحل للإنسان أن يُوقع نفسه في الخسران.
٣- ومنها: أن الساعة تأتي بغتة، سواء كانت الساعة الكبرى، أو الساعة الصغرى.
٤- ومنها: شدة تحسر هؤلاء الذين كذبوا بلقاء الله، وإقرارهم على أنفسهم بأنهم فرطوا، وهذا لا ينفعهم، انتهى العمل، وشيء فات لا يمكن رده، ولهذا أقروا بأنهم مفرطون.
٥- ومنها: أن أهل الأوزار يحملون أوزارهم على ظهورهم يوم القيامة حقيقة؛ لأن هذا هو الواجب؛ أن نجري النصوص القرآنية والنبوية على ظاهرها.فإذا قال قائل: كيف يحملونها؟فالجواب: أن هذا سؤال في غير محله؛ لأن أحوال الآخرة لا تقاس بأحوال الدنيا.
٦- ومنها: أن الأعمال محل الثناء والقدح؛ لقوله: (أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ)، هذا قدح.محل الثناء مثل قوله تعالى: (هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ) [الرحمن ٦٠]، فالأعمال محل القدح ومحل المدح.

القرآن
{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ (٣٢)} [الأنعام : ٣٢]
التفسير:
وما الحياة الدنيا في غالب أحوالها إلا غرور وباطل، والعمل الصالح للدار الآخرة خير للذين يخشون الله، فيتقون عذابه بطاعته واجتناب معاصيه. أفلا تعقلون -أيها المشركون المغترون بزينة الحياة الدنيا- فتقدِّموا ما يبقى على ما يفنى؟
قوله تعالى:{وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ} [الأنعام : ٣٢]، أي:"وما الحياة الدنيا في غالب أحوالها إلا غرور وباطل"[١].
قال البغوي:أي:"باطل وغرور لا بقاء لها"[٢].
قال ابن كثير:"أي : إنما غالبها كذلك"[٣].
قال الواحدي:"لأنَّها تفنى وتنقضي كاللَّهو واللَّعب تكون لذَّةً فانيةً عن قريبٍ"[٤].
قال السمرقندي:"يعني: لعب كلعب الصبيان يبنون بنيانا، ثم يهدمونه، ويلعبون ويلهون ويبنون ما لا يسكنون. كذلك أهل الدنيا يجمعون ما لا يأكلون، ويبنون ما لا يسكنون ويأملون ما لا يدركون"[٥].
قال ابن ابي زمنين:"أي: أن أهل الدنيا أهل لعب ولهو"[٦].
قال الثعلبي:أي:"باطل وغرور لا يبقى، وهذا تكذيب من الله للكفار في قولهم ما هي إلا حياتنا الدنيا الآية وللدار الآخرة"[٧].
قال الطبري:"وهذا تكذيب من الله تعالى ذكره هؤلاء الكفارَ المنكرين البعثَ بعد الممات في قولهم: {إِنْ هِيَ إلا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ} [سورة المائدة: ٢٩]، يقول تعالى ذكره،

(١) التفسير الميسر:١٣١.
(٢) تفسير البغوي:١٣٩/٣.
(٣) تفسير ابن كثير٢٥٠/٣.
(٤) الوجيز:٣٥٠.
(٥) بحر العلوم:٤٤٣/١.
(٦) تفسير ابن أبي زمنين:٦٥/٢.
(٧) الكشف والبيان:١٤٤/٤.

مكذبًا لهم في قبلهم ذلك:{ما الحياة الدنيا}، أيها الناس {إلا لعب ولهو}، يقول: ما باغي لذاتِ الحياة التي أدْنيت لكم وقرّبت منكم في داركم هذه، ونعيمَها وسرورَها، فيها، والمتلذذُ بها، والمنافسُ عليها، إلا في لعب ولهو، لأنها عما قليل تزول عن المستمتع بها والمتلذذِ فيها بملاذّها، أو تأتيه الأيام بفجائعها وصروفها، فتُمِرُّ عليه وتكدُر،كاللاعب اللاهي الذي يسرع اضمحلال لهوه ولعبه عنه، ثم يعقبه منه ندمًا، ويُورثه منه تَرحًا. يقول: لا تغتروا، أيها الناس، بها، فإن المغتر بها عمّا قليل يندم"[١].

قال الزمخشري:"جعل أعمال الدنيا لعبا ولهوا واشتغالا بما لا يعنى ولا يعقب منفعة، كما تعقب أعمال الآخرة المنافع العظيمة"[٢].

عن مجاهد قال: "«اللهو» هو:الطبل"[٣].

قوله تعالى:{وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأنعام : ٣٢]، أي:" ولدّار الآخرة وما فيها من انواع النعيم خير للذين يخشون الله، فيتقون عذابه بطاعته واجتناب معاصيه"[٤].

عن ابن عباس قوله: "{وللدار الآخرة خير}، يقول: باقية"[٥].

عن عكرمة قوله: "{وللدار الآخرة}، يقول: الجنة"[٦].

قال السمرقندي:"يعني: الجنة خير للذين يتقون الشرك والفواحش"[٧].

قال الطبري:"يقول: وللعمل بطاعته، والاستعدادُ للدار الآخرة بالصالح من الأعمال التي تَبقى منافعها لأهلها، ويدوم سرورُ أهلها فيها، خيرٌ من الدار التي تفنى وشيكًا، فلا يبقى لعمالها فيها سرور، ولا يدوم لهم فيها نعيمللذين يخشون الله فيتقونه بطاعته واجتناب معاصيه، والمسارعة إلى رضاه"[٨].

قال الزمخشري:"قوله {للذين يتقون}، دليل على أن ما عدا أعمال المتقين لعب ولهو"[٩].

وفي قوله تعالى:{وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ} [الأنعام : ٣٢]، ثلاثة وجوه[١٠]:

أحدها : وما أمر الدنيا والعمل لها إلا لعب ولهو ، فأما عمل الصالحات فيها فهو من عمل الآخرة ، فخرج من أن يكون لعباً ولهواً .

والثاني : وما أهل الحياة الدنيا إلا أهل لعب ولهو لاشتغالهم بها عما هو أولى منها ، قاله الحسن[١١].

والثالث : أنهم كأهل اللعب واللهو لانقطاع لذاتهم وقصور مدتهم ، وأهل الآخرة بخلافهم لبقاء مدتهم واتصال لذتهم ، وهو معنى قوله تعالى:{وَلَلدَّارُ الأخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ}، لأنه قدْ دام لهم فيها ما كان منقطعاً في غيرها .

والرابع: أنها لعب لمن جمعها ، لهو لمن يرثها. ذكره الماوردي عن بعضهم[١٢].

قال الثعلبي:"سميت الدنيا لدنوها، وقيل: لدناءتها وسميت الآخرة، لأنها بعد الدنيا"[١٣].

---

(١) تفسير الطبري:٣٢٩/١١.
(٢) الكشاف:١٧/٢.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٣١):ص١٢٨٢/٤.
(٤) التفسير الميسر:١٣١.[بتصرف]
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٣٢):ص١٢٨٢/٤.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٣٣):ص١٢٨٢/٤.
(٧) بحر العلوم:٤٤٣/١.
(٨) تفسير الطبري:٣٢٩/١١-٣٣٠.
(٩) الكشاف:١٧/٢.
(١٠) انظر: النكت والعيون:١٠٦/٢-١٠٧.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٠٧/٢.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٠٧/٢.
(١٣) الكشف والبيان:١٤٤/٤.

قرأ ابن عامر: «ولدار الاخرة»، بلام واحدة بالتخفيف، وبكسر «الآخرة» على معنى الإضافة. وقرألباقون: «وللدار الآخرة» بلامين، والآخرة بالضم على معنى النعت[١].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَعْقِلُونَ} [الأنعام : ٣٢]، أي:"أفلا تعقلون -أيها المشركون المغترون بزينة الحياة الدنيا- فتقدِّموا ما يبقى على ما يفنى؟"[٢].

قال الماوردي:أي:"أن ذلك خير لكم"[٣].

قال السمرقندي:"أي: أن الآخرة أفضل من الدنيا"[٤].

قال الواحدي:أي:"أنَّها كذلك فلا تَفْتُروا في العمل لها"[٥].

قال الطبري:"يقول: أفلا يعقل هؤلاء المكذّبون بالبعث حقيقة ما نخبرهم به، من أن الحياة الدنيا لعب ولهوٌ، وهم يرون من يُخْتَرم منهم، ومن يهلك فيموت، ومن تنوبه فيها النوائب وتصيبُه المصائب وتفجعه الفجائع. ففي ذلك لمن عقل مدَّكر ومزدجر عن الركون إليها، واستعباد النفس لها ودليلٌ واضح على أن لها مدبِّرًا ومصرفًا يلزم الخلقَ إخلاصُ العبادة له، بغير إشراك شيءٍ سواه معه"[٦].

قرأ نافع وابن عامر وعاصم في رواية حفص: «أفلا تعقلون»، بالتاء على معنى المخاطبة، والباقون بالياء على معنى المغايبة[٧].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة:التزهيد في الدنيا، والترغيب في الآخرة.
٢- ومنها: أن الدنيا كلها لعب ولهو، لعب في الجوارح، ولهو في القلوب.
٣- ومنها: أنه لا حال للدنيا سوى ذلك، وجه الدلالة الحصر (وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ).
٤- * ومنها: أن الدار الآخرة خير من الدنيا للمتقين؛ . وعلى هذا فما يصيبهم في الدنيا من الأذى في الله عز وجل، أو في أمراض تصيبهم، أو في فقد حبيب، أو ما أشبه ذلك، فإنه في الآخرة يُنسى وكأنه لم يكن؛ لأن الدار الآخرة تمحو كل شيء سبق، كأنه لم يكن.
٥- ومنها: إثبات الدار الآخرة؛ لأن إثبات وصفها يدل على وجود أصلها.والدار الآخرة هي عديلة الدنيا، وضرة الدنيا، وهي ما يكون بعد البعث، وسماها الله تعالى آخرة لأنها آخر المراحل؛ فإن بني آدم لهم أربع مراحل:
   - المرحلة الأولى: في بطون الأمهات.
   - والمرحلة الثانية: في هذه الحياة.
   - والمرحلة الثالثة: في البرزخ بين البعث والممات.
   - والمرحلة الرابعة: في البعث بعد الممات إذا قامت الساعة، ولذلك سميت آخرة.
٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الآخرة خير لهؤلاء المعتصمين بالتقوى، ولغيرهم ليست خيرًا، بل هي شر، ولهذا جاء في الحديث «أَنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وجَنَّةُ الْكَافِرِ»[٨].فهي بالنسبة للمؤمن سجن؛ لأنه لو نسب نعيم الدنيا كلها إلى نعيم الآخرة لم يكن شيئًا، أما الكافر فهي جنته؛ لأنه في الدنيا كان في أهله مسرورًا، لكن في الآخرة على العكس من ذلك.

---

(١) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٦، وبحر العلوم:٤٤٣/١.
(٢) التفسير الميسر:١٣١.
(٣) النكت والعيون:١٠٧/٢.
(٤) بحر العلوم:٤٤٣/١.
(٥) الوجيز:٣٥٠.
(٦) تفسير الطبري:٣٣٠/١١.
(٧) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٦، وبحر العلوم:٤٤٣/١.
(٨)أخرجه مسلم (٢٩٥٦ / ١) من حديث أبي هريرة.

حكي أن الحافظ ابن حجر، -وكان رئيس القضاه في مصر- مرّ بيهودي زيات تعبان من الأذى؛ أذى الزيت والحرارة وغير ذلك، وابن حجر -رحمه الله- تجره الخيول أو البغال على العربة؛ لأنه كان قاضي القضاه في مصر، فاستوقفه هذا اليهودي وقال: كيف تكون أنت في هذه الحال، وأنا في هذه الحال، والحديث عندكم «إِنَّ الدُّنْيَا سِجْنُ الْمُؤْمِنِ وَجَنَّةُ الْكَافِرِ»(١)؟ فأجابه على البديهة، قال: ما المؤمن فيه من النعيم بالنسبة للآخرة إلا سجن، وما العذاب الذي أنت فيه بالنسبة للآخرة إلا جنة. فعلم اليهودي الحقيقة وأسلم.

ذكر الله تعالى في تفضيل الآخرة على الدنيا ثلاث آيات:

- الآية الأولى: تتعلق بشخص معين، فقال تعالى: (وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى) وهو الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم.
- والثانية: بمعين بوصف، والمعينة بوصف، وهو قوله تعالى: (وَلَلدَّارُ الْآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ)، وقوله عز وجل: (وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ لِمَنِ اتَّقَى) [النساء ٧٧].
- والثالثة: إطلاق، وهو قوله تعالى:(بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (١٦) وَالْآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَى) [الأعلى ١٦، ١٧].

القرآن

{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ (٣٣)} [الأنعام : ٣٣]

التفسير:

إنا نعلم إنه ليُدْخل الحزنَ إلى قلبك تكذيبُ قومك لك في الظاهر، فاصبر واطمئن; فإنهم لا يكذبونك في قرارة أنفسهم، بل يعتقدون صدقك، ولكنهم لظلمهم وعدوانهم يجحدون البراهين الواضحة على صدقك، فيكذبونك فيما جئت به.

في سبب نزول الآية أقوال:

أحدها:عن علي بن أبي طالب -رضي الله عنه- قال: "قال أبو جهل للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إنا لا نكذبك، ولكن نكذب ما جئت به؛ فأنزل الله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ. . .}"(٢). [ضعيف]

---

(١)أخرجه مسلم (٢٩٥٦ / ١) من حديث أبي هريرة.

(٢)أخرجه الترمذي (٥/ ٢٦١ رقم ٣٠٦٤) –ومن طريقه القاضي عياض في "الشفا" (١/ ١٣٤) – والدارقطني في "العلل" (٤/ ١٤٣، ١٤٤)، وابن أبي حاتم في "التفسير" (٤/ ١٢٨٢ رقم ٧٢٣٤)،والضياء المقدسي في "الأحاديث المختارة" (٢/ ٣٦٤، ٣٦٥ رقم ٧٤٨) –من طريق معاوية بن هشام القصار عن الثور يعن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي.

قلنا: وهذا سند ضعيف ؛فيه علتان:

الأولى: أبو إسحاق السبيعي مدلس وقد عنعن، ولم يصرح بالتحديث. أما اختلاطه؛ فالراوي عنه هنا الثوري وقد سمع منه قبل الاختلاط.

الثانية: المخالفة؛ فرواه عبد الرحمن بن مهدي ويحيى بن آدم عن الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب به مرسلاً، لم يذكر علياً.

أخرجه الترمذي، والطبري في "جامع البيان" (١٣١٩٥)، و(١٣١٩٦):ص٣٣٤/١١، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٨٢ رقم ٧٢٣٥)، والضياء المقدسي في "المختارة" (٢/ ٣٦٥) وهو أصح.

وقد خالفهما معاوية -وهو صدوق له أوهام- فرواه موصولاً مسنداً، وهو وهم، والصواب الإرسال.

قال الترمذي بعد روايته من طريق ابن مهدي مرسلاً: "وهذا أصح".

وقال الدارقطني في "العلل" (٤/ ١٤٣ رقم ٤٧٤) -عن حديث ناجية بن كعب-: "يرويه الثوري عن أبي إسحاق عن ناجية بن كعب عن علي؛ قاله معاوية بن هشام عن الثوري.

وغيره يرويه عن الثوري مرسلاً لا يذكر فيه علياً، وهو المحفوظ". ا. هـ.

لكن رواه الحاكم (٢/ ٣١٥) من طريق إسرائيل عن أبي إسحاق به موصولاً مثل رواية معاوية بن هشام، فلعل الحديث مروي من الوجهين. أما الحاكم؛ فقال: "صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه"، وتعقبه الذهبي بقوله: "قلت: فيه ناجية بن كعب ولم يخرجا له شيئاً".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٦٣) وزاد نسبته لأبي الشيخ وابن مردويه.

وفي السياق نفسه روي عن أبي ميسرة؛ قال: "مر رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على أبي جهل، فقال: والله يا محمد ما نكذبك؛ إنك عندنا لمصدق، ولكنا نكذب بالذي جئت به؛ فأنزل الله: {فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} "(١). [ضعيف]

وعن أبي صالح؛ قال: "كان المشركون إذا رأوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بمكة؛ قال بعضهم لبعض فيما بينهم: إنه لنبي؛ فنزلت هذه الآية: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}"(٢). [ضعيف]

والثاني: وقال مقاتل:"نزلت فى الحارث بن عامر ابن نوفل بن عبد مناف بن قصي. كان الحارث يكذب النبي- صلى الله عليه وسلم- في العلانية فإذا خلا مع أهل ثقته، قال: ما محمد من أهل الكذب، وإني لأحسبه صادقا وكان إذا لقي النبي- صلى الله عليه وسلم- قال: إنا لنعلم أن هذا الذي تقول حق وإنه لا يمنعنا أن نتبع الهدى معك إلا مخافة أن يتخطفنا الناس، يعني: العرب من أرضنا إن خرجنا فإنما نحن أكلة رأس ولا طاقة لنا بهم نظيرها في القصص {وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا}(٣)، فأنزل الله: قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون"(٤).

والثالث: وعن أبي صالح في قوله: {قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}؛ قال: "جاء جبريل إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم وهو جالس حزين، فقال له:ما يحزنك؟، فقال: كذبني هؤلاء، قال: فقال له جبريل:{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} هم يعلمون أنك صادق ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون"(٥). [ضعيف]

قوله تعالى:{قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ} [الأنعام : ٣٣]، أي:"إنا نعلم إنه ليُدْخل الحزنَ إلى قلبك تكذيبُ قومك لك في الظاهر"(٦).

قال مقاتل:أي:"في العلانية بأنك كذاب مفتر"(٧).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : { قد نعلم}، يا محمد ، إنه ليحزنك الذي يقول المشركون ، وذلك قولهم له : إنه كذّاب "(٨).

قال الزمخشري:"{قد} في {قد نعلم}، بمعنى: «ربما» الذي يجيء لزيادة الفعل وكثرته ، كقوله(٩):

أخي(١٠)ثِقَةٍ لا تُهْلِكُ الخَمْرُ مَالَه ... ولكنَّه قد يُهلِك المالَ نائلُه

و{الذي يقولون}، هو قولهم: ساحر كذاب"(١١).

---

(١)ذكره السيوطي في "الدرالمنثور" (٣/ ٢٦٤)،والشوكاني في "فتح القدير" (٢/ ١١٣) ونسباه لعبد بن حميد وابن المنذر وابن مردويه.

وذكره الدارقطني في "العلل" (٤/ ١٤٣)،وقال: "ورواه إسرائيل عن أبي إسحاق عن أبي ميسرة مرسلاً عن النبي – صلى الله عليه وسلم -".

قلنا: وأبوإسحاق مدلس مختلط وقد عنعنه، ورواية إسرائيل عنه بعد اختلاطه؛كما قال الإمام أحمد.

(٢)ذكره السيوطي في "الدرالمنثور" (٣/ ٢٦٤) ونسبه لأبي الشيخ.

(٣)[القصص : ٥٧].

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٨/١، وانظر: اسباب النزول للواحدي:٢١٦.

(٥) أخرجه الطبري(١٣١٩١):ص٣٣٢/١١-٣٣٣. مرسل صحيح الإسناد.

(٦) التفسير الميسر:١٣١.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٨/١.

(٨) تفسير الطبري:٣٣٠/١١.

(٩) البيت لزهير، كما في ديوانه١٢٤، وانظر: اشعار الستة الجاهليين:٦٥، والموشح في مآخذ العلماء على الشعراء:٦٦، والبديع في نقد الشهر: ٢٨٩، وتحرير التحبير:٣٣٣، وغيرها.

يمدح حصن بن أبى حذيفة. والثقة من وثق، كالعدة من وعد. وإن كان الفعل الأول مكسورا والثاني مفتوحا، فأصلها «وثق» حذفت الواو وخلفتا التاء، والمراد بها ما يتوثق به، أو المصدر هو التوثق، أى هو ملازم لما يتوثق به من مكارم الأخلاف، لا ينفك عنه كأنه أخوه أو ملازم للتوثق به. وإسناد الإهلاك إلى الخمر مجاز عقلى، لأنه سببه، وكذلك إسناده إلى النائل، أى العطاء. و «قد» هنا للتكثير، وإلا لم يكن مدحا

(١٠) في الكشاف: "أخو"، والرواية الصحيحة: أخي.

(١١) الكشاف:١٧/٢.

قال أبو السعود:"استئناف مسوق لتسلية رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الحزن الذي يعتريه مما حكي عن الكفرة من الإصرار على التكذيب والمبالغة فيه ببيان أنه عليه الصلاة والسلام بمكانة من الله عز وجل وأن ما يفعلونه في حقه فهو راجع إليه تعالى في الحقيقة وأنه ينتقم منهم لا محالة أشد انتقام وكلمة قد لتأكيد العلم بما ذكر المفيد لتأكيد الوعيد كما في قوله تعالى ما أنتم عليهخ وقوله تعالى قد يعلم الله المعوقين ونحوهما بإخراجها إلى معنى التكثير حسبما يخرج إليه ربما في مثل قوله[١]:

وإن تُمْسِ مهجورَ الفِناءِ فرُبَّما أقامَ به بعدَ الوُفودِ وُفودُ

جريا على سنن العرب عند قصد الإفراط في التكثير تقول لبعض قواد العساكر كم عندك من الفرسان؟ فيقول: رب فارس عندي وعنده مقانب جمة، يريد بذلك التمادي في تكثير فرسانه ولكنه يروم إظهار براءته عن التزيد وإبراز أنه ممن يقلل كثير ما عنده فضلا عن تكثير القلل، وعليه قوله عز وجل:{رُبَمَا يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ كَانُوا مُسْلِمِينَ} [الحجر : ٢].

وهذه طريقة إنما تسلك عند كون الأمر من الوضوح بحيث لا تحو حوله شائبة ريب حقيقة كما في الآيات الكريمة المذكورة أو ادعاءكما في البيت، وقوله[٢]:

قد أتْرُكُ القِرْنَ مُصْفَرّاً أنامِلُه [كأنَّ أثوابَهُ مُجّتْ بفِرْصادِ]

وقوله[٣]:

[أخي ثِقَةٍ لَا يُذْهِبُ الْخَمْرُ مَالَهُ] وَلَكِنَّهُ قَدْ يُهْلِكُ الْمَالَ نَائِلُهْ

والمراد بكثرة علمه تعالى كثرة تعلقه، وهو متعد إلى اثنين وما بعده ساد مسدهما، واسم «إن» ضمير الشأن وخبرها الجملة المفسرة له والموصول فاعل «يحزنك» وعائده محذوف، أي: الذي يقولونه، وهو ما حكي عنهم من قولهم:{إن هذا إلا أساطير الاولين} ونحو ذلك"[٤].

وقرئ:« ليحزنك» بفتح الياء وضمها[٥].

قوله تعالى:{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} [الأنعام : ٣٣]، أي:"فإنهم لا يكذبونك في قرارة أنفسهم، بل يعتقدون صدقك"[٦].

قال مقاتل:أي:"في السر بما تقول بأنك نبي رسول، بل يعلمون أنك صادق وقد جربوا منك الصدق فيما مضى"[٧].

قال القرطبي:"أي: لا يجدونك تأتي بالكذب، كما تقول: أكذبته وجدته كذابا، وأبخلته وجدته بخيلا، أي لا يجدونك كذابا إن تدبروا ما جئت به"[٨].

قال ابن كثير:"يقول تعالى مسليا لنبيه صلى الله عليه وسلم ، في تكذيب قومه له ومخالفتهم إياه : { قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ }، أي : قد أحطنا علما بتكذيب قومك لك ، وحزنك وتأسفك عليهم ، { فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ } [فاطر : ٨] كما قال تعالى في الآية الأخرى : { لَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلا يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ } [الشعراء : ٣]، { فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَى آثَارِهِمْ إِنْ لَمْ يُؤْمِنُوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا } [الكهف : ٧]"[٩].

قال الزمخشري:"المعنى: أن تكذيبك أمر راجع إلى الله، لأنك رسوله المصدق بالمعجزات فهم لا يكذبونك في الحقيقة وإنما يكذبون الله بجحود آياته، فاله عن حزنك لنفسك

---

(١) البيت لابن عطاء السندي، في ابن هبيرة، وكان قد قتله المنصور بواسط غدرا. الحماسة لأبي تمام ١/ ٣٣١.
(٢) البيت لعبيد بن الأبرص كما في ديوانه:٤٩، والكتاب ٤/ ٢٢٤،والمقتضب ١/ ٤٣،وكتاب الشعر: ص ٣٩١،وتخريجه فيه.
(٣)البيت لزهير، كما في ديوانه١٢٤.
(٤) تفسير أبي السعود:١٢٦/٣. وانظر: هذا المعنى في الكشاف:٢٦٠/٢-٢٦١
(٥) انظر: الكشاف:١٨/٢.
(٦) التفسير الميسر:١٣١.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٨/١.
(٨) تفسير القرطبي:٤١٦/٦.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٥٠/٣.

وإن هم كذبوك وأنت صادق، وليشغلك عن ذلك ما هو أهم وهو استعظامك بجحود آيات الله تعالى والاستهانة بكتابه. ونحوه قول السيد لغلامه- إذا أهانه بعض الناس-: إنهم لم يهينوك وإنما أهانوني. وفي هذه الطريقة قوله تعالى:{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ} [الفتح : ١٠]"[١].

قال أبو السعود:قوله:{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ}"تعليل لما يشعرون به الكلام السابق من النهي عن الاعتداد بما قالوا لكن لا بطريق التشاغل عنه وعده هينا والإقبال التام على ما هو أهم منه من استعظام جحودهم بآيات الله عز وجل كما قيل فإنه مع كونه بمعزل من التسلية بالكلية مما يوهم كون حزنه عليه الصلاة والسلام لخاصة نفسه بل بطريق التسلي بما يفيده من بلوغه عليه الصلاة والسلام في جلالة القدر ورفعة المحل والزلفى من الله عز وجل إلى حيث لا غاية وراءه حيث لم يقتصر على جعل تكذيبه صلى الله عليه وسلم تكذيبا لآياته سبحانه على طريقة قوله تعالى :{مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ} [النساء : ٨٠]، بل نفى تكذيبهم عنه صلى الله عليه وسلم وأثبت لآياته تعالى على طريقة قوله تعالى :{إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ} [الفتح : ١٠] أيذانا بكمال القرب واضمحلال شئونه صلى الله عليه وسلم في شأن الله عز وجل نعم فيه استعظام لجنايتاهم منبيء عن عظم عقوبتهم كأنه قيل لا: تعتد به وكله إلى الله تعالى فإنهم في تكذيبهم ذلك لا يكذبونك في الحقيقة"[٢].

وفي قوله تعالى:{فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ} [الأنعام : ٣٣]، خمسة وجوه:

أحدها : فإنهم لا يكذبونك بحجة ، وإنما هو تكذيب بهت وعناد ، فلا يحزنك ، فإنه لا يضرك ، قاله أبو صالح[٣]، وقتادة[٤]، والسدي[٥].

قال السدي:" لما كان يوم بدر قال الأخنس بن شريق لبني زهرة : يا بني زهرة ، إن محمدًا ابن أختكم ، فأنتم أحقُّ مَنْ كَفَّ عنه ، فإنه إن كان نبيًّا لم تقاتلوهُ اليوم ، وإن كان كاذبًا كنتم أحق من كف عن ابن أخته! قفوا ههنا حتى ألقى أبا الحكم فإن غُلب محمدٌ [صلى الله عليه وسلم] رجعتم سالمين ، وإن غَلَب محمدٌ فإن قومكم لا يصنعون بكم شيئًا فيومئذ سمّي :«الأخنس»[٦] ، وكان اسمه «أبيّ» فالتقى الأخنس وأبو جهل ، فخلا الأخنس بأبي جهل ، فقال : يا أبا الحكم ، أخبرني عن محمد ، أصادق هو أم كاذب ؟ فإنه ليس ههنا من قريش أحد غيري وغيرك يسمع كلامنا! فقال أبو جهل : وَيْحك ، والله إن محمدًا لصادق ، وما كذب محمّد قط ، ولكن إذا ذهب بنو قُصَيٍّ باللواء والحجابة والسقاية والنبوة ، فماذا يكون لسائر قريش ؟ فذلك قوله : {فإنهم لا يكذّبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون}، فآيات الله: محمدٌ صلى الله عليه وسلم[٧].

وعن عن أبي يزيد المدني:" أن النبي صلى الله عليه وسلم لقي أبا جهل فصافحه. فقال له رجل: ألا أراك تصافح هذا الصابئ. فقال: والله إني لأعلم أنه لنبي، ولكن متى كنا لبني عبد مناف تبعا؟ فتلا أبو يزيد: {فإنهم لا يكذبونك}، الآية"[٨].

والثاني : فإنهم لا يكذبون قولك لعلمهم بصدقك ، ولكن يكذبون ما جئت به ، قاله ناجية بن كعب[٩].

والثالث : لا يكذبونك في السر لعلمهم بصدقك ، ولكنهم يكذبونك في العلانية لعداوتهم لك ، قاله الكلبي[١].

---

(١) الكشاف:١٨/٢.
(٢) تفسير ابي السعود:١٢٦/٣-١٢٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣١٩٠)، و(١٣١٩١):ص٣٣٢/١١-٣٣٣.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣١٩٢):ص٣٣٣/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣١٩٣):ص٣٣٣/١١.
(٦)) سمى " الأخنس " ، لأنه من " خنس يخنس خنوسا " ، إذا انقبض عن الشيء وتأخر ورجع.
(٧) أخرجه الطبري(١٣١٩٣):ص٣٣٣/١١.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٣٩):ص١٢٨٣/٤.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣١٩٥)، و(١٣١٩٦):ص٣٣٤/١١.

والرابع : معناه أن تكذيبهم لقولك ليس بتكذيب لك ، لأنك رسول مُبَلّغ ، وإنما هو تكذيب لآياتي الدالة على صدقك والموجبة لقبول قولك، وقد بين ذلك بقوله تعالى:{وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِئَآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ}، أي: يكذبون[٢].

عن سعيد بن جبير : " {فإنهم لا يكذبونك}، قال : ليس يكذّبون محمدًا ، ولكنهم بآيات الله يجحدون "[٣].

والخامس: :معناه:أنهم لا يبطلون ما في يديك. وهذا قول محمد بن كعب، وكان يقرؤها:«فغنهم لا يكذبونك بالتخفيف»[٤].

والخامس: معناه:انهم لا يقدرون أن يقولوا لك فيما أنبات به مما في كتبهم: كذبت. قاله الزجاج[٥].

عن سالم بن أبي حفصة قال: "قرأ علي بن أبي طالب: {فإنهم لا يكذبونك}، قال: لا يجيئون بحق هو أحق من حقك. وقرأ: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الحَق} [الأنعام : ٦٦]"[٦].

وقرأ علي ونافع والكسائي :«لاَ يُكْذِبونَكَ»،بمعنى : إنهم لا يُكْذِبونك فيما أتيتهم به من وحي الله ، ولا يدفعون أن يكون ذلك صحيحًا ، بل يعلمون صحته ، ولكنهم يجحَدون حقيقته قولا فلا يؤمنون به[٧].

وقرأته جماعة من قرأة المدينة والعراقيين والكوفة والبصرة : «فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ»بمعنى : أنهم لا يكذّبونك علمًا ، بل يعلمون أنك صادق ولكنهم يكذبونك قولا عنادًا وحسدًا[٨].

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إنهما قراءتان مشهورتان ، قد قرأ بكل واحدة منهما جماعة من القرأة ، ولكل واحدة منهما في الصحة مخرج مفهوم. وذلك أن المشركين لا شكَّ أنه كان منهم قوم يكذبون رسولَ الله صلى الله عليه وسلم ، ويدفعونه عما كان الله تعالى ذكره خصه به من النبوّة ، فكان بعضهم يقول :هو شاعر، وبعضهم يقول : هو كاهن " ، وبعضهم يقول :هو مجنون، وينفي جميعُهم أن يكون الذي أتَاهم به من وحي السماء ، ومن تنزيل رب العالمين ، قولا. وكان بعضهم قد تبين أمرَه وعلم صحة نبوّته ، وهو في ذلك يعاند ويجحد نبوّته حسدًا له وبغيًا"[٩].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ} [الأنعام : ٣٣]، أي:"ولكنهم لظلمهم وعدوانهم يجحدون البراهين الواضحة على صدقك، فيكذبونك فيما جئت به"[١٠].

قال قتادة:" يقول: يعلمون أنك رسول الله ويجحدون"[١١].

قال مقاتل: "يعني: بالقرآن بعد المعرفة"[١٢].

قال ابن كثير:"أي : ولكنهم يعاندون الحق ويدفعونه بصدورهم"[١٣].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٠٨/٢.
(٣) أخرجه الطبري(١٣١٩٤):ص٣٣٤/١١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣١٩٧):ص٣٣٤/١١.
(٥) معاني القرآن:٢٤٢/٢.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٣٨):ص١٢٨٣/٤.
(٧) انظر:معاني القرآن للفراء ١ /٣٣١ ، وتفسير الطبري: ٣٣٠/١١، والبحر المحيط ٤ /١١١، والنكت والعيون:١٠٨/٢، وغيرها.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٣٣١/١١.
(٩) تفسير الطبري:٣٣١/١١.
(١٠) التفسير الميسر:١٣١.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٤١):ص١٢٨٣/٤.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٨/١.
(١٣) تفسير ابن كثير:٢٥١/٣.

قال الطبري:": ولكن المشركين بالله ، بحجج الله وآي كتابه ورسولِه يجحدون ، فينكرون صحَّة ذلك كله"[١].

وقال السدي:"آيات الله: محمدٌ -صلى الله عليه وسلم-"[٢].

قال الزجاج:"لأنهم إنما جحدوا براهين الله جل وعز وجائز أن يكون فإنهم لايكذبونك، أي أنت عندهم صادق، لأنه - صلى الله عليه وسلم - كان يسمى فيهم الأمين قبل الرسالة، ولكنهمجحدوا بألسنتهم ما تشهد قلوبهم يكذبهم فيه"[٣].

قال البغوي:"يقول: إنهم لا يكذبونك في السر لأنهم عرفوا صدقك فيما مضى، وإنما يكذبون وحيي ويجحدون آياتي، كما قال: {وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} [النمل : ١٤]"[٤].

قال الزمخشري:"قوله :{ولكن الظالمين}، من إقامة الظاهر مقام المضمر، للدلالة على أنهم ظلموا في جحودهم"[٥].

قال أبو السعود:"أي ولكنهم بآياته تعالى يكذبون، فوضع المظهر موضع المضمر تسجيلا عليهم بالرسوخ في الظلم الذي جحودهم هذا فن من فنونه والالتفات إلى الإسم الجليل لتربية المهابة واستعظام ما أقدموا عليه من جحود آياته تعالى وإيراد الجحود في مورد التكذيب للإيذان بأن آياته تعالى من الوضوح بحيث يشاهد صدقها كل أحد وأن من ينكرها فإنما ينكرها بطريق الجحود الذي هو عبارة عن الإنكار مع العلم بخلافه كما في قوله تعالى{وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ} [النمل : ١٤]، وهو المعني بقول من قال إنه نفي ما في القلب إثباته أو إثبات ما في القلب نفيه"[٦].

قال أبو الأشهب :" قرأ رجل عند الحسن: «فإنهم لا يكذبونك» خفيفة. قال الحسن:«فإنهم لا يكذبونك». وقال: إن القوم قد عرفوه، ولكنهم جحدوا بعد المعرفة"[٧].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: حرص النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم على هداية الخلق، وأنه يحزنه إعراض الناس عن دين الله عز وجل.

٢- ومنها: علم الله تعالى بما في القلوب؛ بقوله: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ).

٣- ومنها: علم الله تعالى بما في القلوب؛ بقوله: (فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ).نظير هذه الآية قوله تعالى عن آل فرعون: (وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا) هذه مفعول لأجله عامله (جحدوا)، أي: جحدوا بذلك ظلمًا (وَعُلُوًّا) [النمل ١٤]، وانظر إلى قول موسى، وهو يجادل فرعون، يقول له موسى: (لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ) [الإسراء ١٠٢] قال: (لَقَدْ عَلِمْتَ)، ولم يكذبه فرعون، في هذه المحاورة، ما قال: لم أعلم، بينما لما كان يشرح لقومه يقول لهم: (مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ) [القصص ٣٨] والظاهر -والله أعلم- أن فرعون لم يقل لموسى: إنني لا أعلم خوفًا من نزول العقوبة العاجلة، أو خوفًا من أن ينزل كتاب يكذبه. على كل حال الرجل أقر، وطريق إقراره السكوت.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه ينبغي للدعاة أن يتسلوا برسول الله ﷺ فيما إذا سمعوا ما يكرهون من هؤلاء المكذبين المعاندين، فليتسلوا به ويقولوا في أنفسهم وفي ألسنتهم: إن الله تعالى عالم ما تقولون وسيجازيهم.

---

(١) تفسير الطبري:٣٣٤/١١.

(٢) أخرجه الطبري(١٣١٩٣):ص٣٣٣/١١.

(٣) معاني القرآن:٢٤٣/٢.

(٤) تفسير البغوي:١٤٠/٣.

(٥) الكشاف:١٩/٢.

(٦) تفسير أبي السعود:١٢٧/٣.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٤٢):ص١٢٨٣/٤.

٥- ومنها: أن الجحد بآيات الله كفر.

القرآن

{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ (٣٤)} [الأنعام : ٣٤]

التفسير:

ولقد كذَّب الكفارُ رسلا من قبلك أرسلهم الله تعالى إلى أممهم وأوذوا في سبيله، فصبروا على ذلك ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى أتاهم نصر الله. ولا مبدل لكلمات الله، وهي ما أنزل على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم مِن وعده إياه بالنصر على مَن عاداه. ولقد جاءك -أيها الرسول- مِن خبر مَن كان قبلك من الرسل، وما تحقق لهم من نصر الله، وما جرى على مكذبيهم من نقمة الله منهم وغضبه عليهم، فلك فيمن تقدم من الرسل أسوة وقدوة. وفي هذا تسلية للرسول صلى الله عليه وسلم.

سبب النزول:

قال مقاتل:"وذلك قبل كفار مكة لأن كفار مكة قالوا: يا محمد ما يمنعك أن تأتينا بآية كما كانت الأنبياء تجيء بها إلى قومهم، فإن فعلت صدقناك وإلا فأنت كاذب. فأنزل الله يعزي نبيه- صلى الله عليه وسلم- ليصبر على تكذيبهم إياه وأن يقتدي بالرسل قبله :{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ}[1].

قوله تعالى:{وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام : ٣٤]، أي:"ولقد كذَّب الكفارُ رسلا من قبلك أرسلهم الله تعالى إلى أممهم"[2].

قال الضحاك[3]وابن جريج[4]:"يعزّي نبيَّه -صلى الله عليه وسلم-".

قال البغوي:أي:"كذبهم قومهم كما كذبتك قريش"[5].

قال الزمخشري:"{ولقد كذبت}، تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا دليل على أن قوله:{فإنهم لا يكذبونك}، ليس بنفي لتكذيبه، وإنما هو من قولك لغلامك: ما أهانوك ولكنهم أهانوني"[6].

قال الطبري:"وهذا تسلية من الله تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم، وتعزية له عما ناله من المساءة بتكذيب قومه إيّاه على ما جاءهم به من الحق من عند الله، يقول تعالى ذكره: إن يكذبك، يا محمد، هؤلاء المشركون من قومك، فيجحدوا نبوّتك، وينكروا آيات الله أنّها من عنده، فلا يحزنك ذلك، واصبر على تكذيبهم إياك وما تلقى منهم من المكروه في ذات الله، حتى يأتي نصر الله، فقد كُذبت رسلٌ من قبلك أرسلتهم إلى أممهم، فنالوهم بمكروه"[7].

قوله تعالى:{فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا} [الأنعام : ٣٤]، أي:"فصبروا على ما نالهم من قومهم من التكذيب والاستهزاء والأذى ومضوا في دعوتهم وجهادهم حتى أتاهم نصر الله"[8].

قال قتادة:"يعزِّي نبيه صلى الله عليه وسلم كما تسمعون، ويخبره أن الرسل قد كُذّبت قبله، فصبروا على ما كذبوا، حتى حكم الله وهو خير الحاكمين"[9].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٢) التفسير الميسر:١٣١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣١٩٩):ص٣٣٦/١١.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٢٠٠):ص٣٣٦/١١.
(٥) تفسير البغوي:١٤٠/٣.
(٦) الكشاف:١٩/٢.
(٧) تفسيرالطبري:٣٣٥/١١.
(٨) التفسير الميسر:١٣١، وصفوة التفاسير:٣٥٨/١.[بتصرف]
(٩) أخرجه الطبري(١٣١٩٨):ص٣٣٦/١١.

قال الطبري:أي:"فصبروا على تكذيب قومهم إياهم، ولم يثنهم ذلك من المضيّ لأمر الله الذي أمرهم به من دعاء قومهم إليه، حتى حكم الله بينهم وبينهم"[١].

قال ابن أبي زمنين:"أي: أنه سينصرك، ويظهر دينك، كما نصر الرسل الذين كذبوا من قبلك"[٢].

قال ابن كثير:"هذه تسلية للنبي-صلى الله عليه وسلم- وتعزية له فيمن كذبه من قومه ، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ، ووعد له بالنصر كما نصروا ، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة ، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ ، ثم جاءهم النصر في الدنيا ، كما لهم النصر في الآخرة"[٣].

قال الواحدي:"{فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا} رجاء ثوابي ، {وأوذوا}، حتى نشروا بالمناشير وحرِّقوا بالنَّار"[٤].

قال القرطبي:"قوله تعالى: {فصبروا على ما كذبوا}، أي: فاصبر كما صبروا،{وأوذوا حتى أتاهم نصرنا}، أي: عوننا، أي فسيأتيك ما وعدت به"[٥].

قال البغوي:"{حتى أتاهم نصرنا} بتعذيب من كذبهم"[٦].

قال البيضاوي:أي:"فتأس بهم واصبر. {حتى أتاهم نصرنا}، فيه إيماء بوعد النصر للصابرين"[٧].

قوله تعالى:{وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ} [الأنعام : ٣٤]، أي:"ولا مغيِّر لكلمات الله"[٨].

قال الطبري:" و«كلماته»- تعالى ذكره -: ما أنزل الله إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم ، من وعده إياه النصر على من خَالفه وضادّه ، والظفرَ على من تولّى عنه وأدبر"[٩].

قال مقاتل:"يعني: لا تبديل لقول الله بأنه ناصر محمد- صلى الله عليه وسلم-، ألا وقوله حق كما نصر الأنبياء قبله"[١٠].

قال الواحدي والبغوي:"لا ناقِضَ لحكمه وقد حكم بنصر الأنبياء في قوله:{ كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]"[١١].

قال السمعاني:"أي: لعلم الله وأحكامه"[١٢].

قال الزمخشري:أي:"لمواعيده من قوله:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ} [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] "[١٣].

قال الزجاج:"أي: إذ قال الله لرسوله:{وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس} [المائدة : ٦٧] ، وإذ قال:{ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّين كُلِّهِ} [التوبة : ٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، فلا مبدل لكلمات الله أي لا يخلف الله وعده ولايغلب أولياءه أحد"[١٤].

قال ابن كثير:"أي : التي كتبها بالنصر في الدنيا والآخرة لعباده المؤمنين ، كما قال : { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات :

---

(١) تفسيرالطبري:٣٣٥/١١.
(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٦٦/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(٤) الوجيز:٣٥١.
(٥) تفسير القرطبي:٤١٧/٦.
(٦) تفسير البغوي:١٤٠/٣.
(٧) تفسير البيضاوي:١٦٠/٢.
(٨) تفسير الطبري:٣٣٥/١١.
(٩) تفسير الطبري:٣٣٥/١١.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(١١) الوجيز للواحدي:٣٥١، وتفسير البغوي:١٤٠/٣.
(١٢) تفسير السمعاني:١٠٠/٢.
(١٣) الكشاف:١٩/٢.
(١٤) معاني القرآن:٢٤٣/٢.

١٧١ - ١٧٣] ، وقال تعالى : { كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ } [المجادلة : ٢١]"(١).

قال الكلبي: {كلمات الله}: "يعني" القرآن"(٢).

وقال الحسن بن الفضل: "لا خلف لعداته"(٣).

وقال عكرمة: {كلمات الله}: "يعني: قوله:{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا} [الصافات : ١٧١]، إلى قوله:«غالبون»(٤)، وقوله:{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا} [غافر : ٥١]، وقوله تعالى:{كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]"(٥).

قال القرطبي:"{ولا مبدل لكلمات الله}، مبين لذلك النصر، أي: ما وعد الله عز وجل به فلا يقدر أحد أن يدفعه، لا ناقض لحكمه، ولا خلف لوعده، و{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد : ٣٨]،{إِنَّا لَنَنْصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا} [غافر : ٥١] ، { وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ * إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ } [الصافات : ١٧١ - ١٧٣] ، { كَتَبَ اللَّهُ لأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي} [المجادلة : ٢١]"(٦).

قوله تعالى:{وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ} [الأنعام : ٣٤]، أي:"ولقد جاءك بعض أخبار المرسلين الذين كُذّبوا وأُوذوا كيف أنجيناهم ونصرناهم على قومهم فتسلَّ ولا تحزن فإن الله ناصرك كما نصرهم"(٧).

قال السمعاني:"أي: أخبار المرسلين"(٨).

قال الزمخشري:أي:"بعض أنبائهم وقصصهم وما كابدوا من مصابرةالمشركين"(٩).

قال البيضاوي:"أي: بعض قصصهم وما كابدوا من قومهم"(١٠).

قال مقاتل:"يعني: من حديث المرسلينحين كذبوا وأوذوا ثم نصروا"(١١).

قال ابن كثير:"أي : من خبرهم كيف نُصِروا وأُيدوا على من كذبهم من قومهم ، فلك فيهم أسوة وبهم قدوة"(١٢).

قال ابن أبي زمنين:أي:"من أخبار المرسلين أنهم قد نصروا بعد الأذى، وبعد الشدائد"(١٣).

قال الواحدي:"أيْ: خبرهم في القرآن كيف أنجيناهم ودَمَّرنا قومهم"(١٤).

قال الطبري:أي:"ولقد جاءك يا محمد، من خبر من كان قبلك من الرسل، وخبر أممهم، وما صنعتُ بهم حين جحدوا آياتي وتمادَوا في غيهم وضلالهم... فانتظر أنت أيضًا من النصرة والظفر مثل الذي كان منِّي فيمنكان قبلك من الرسل إذ كذبهم قومهم، واقتد بهم في صبرهم على ما لقُوا من قومهم"(١٥).

الفوائد:

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(٢) انظر: الكشف والبيان:١٤٥/٤.
(٣) انظر: تفسير البغوي:١٤٠/٣.
(٤) لعله يقصد الآية:{وَإِنَّ جُنْدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ} [الصافات : ١٧٣].
(٥) انظر: الكشف والبيان:١٤٥/٤.
(٦) تفسير القرطبي:٤١٧/٦.
(٧) صفوة التفاسير:٣٥٨/١.
(٨) تفسير السمعاني:١٠٠/٢.
(٩) الكشاف:١٩/٢.
(١٠) تفسير البيضاوي:١٦٠/٢.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(١٣) تفسير ابن أبي زمنين:٦٦/٢.
(١٤) الوجيز:٣٥١.
(١٥) تفسير الطبري:٣٣٥/١١-٣٣٦.

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان أن تكذيب الأنبياء ليس وليد عهده، بل هو سابق؛ لقوله: (وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا).
٢- ومنها: عتو بعض بني آدم، حيث تأتيهم الآيات فيكذبون؛ لأنه ما من رسول بعثه الله إلا آتاه من الآيات ما يؤمن على مثله البشر، وهذا أمر لا بد منه؛ أن يؤتي الله عز وجل الرسل الآيات التي تقوم بها الحجة، فإذا كذب الرسل مع هذه الآيات صار ذلك دليلًا على عظم عتو هؤلاء المكذبين.
٣- ومنها: تسلية الله لنبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم؛ لأن الإنسان إذا علم أن غيره قد أصابه ما أصابه هان عليه الأمر، وقد ذكرنا في التفسير أمثلة لذلك من القرآن ومن كلام العرب، من القرآن أن الإنسان يتسلى بغيره.
٤- ومنها: الثناء على الرسل عليهم الصلاة والسلام بالصبر على ما كذبوا، وعلى ما أوذوا.
٥- ومنها: أنه يجب علينا أن نتأسى، وأن نتسلى أيضًا بما جرى للرسل عليهم الصلاة والسلام، فنصبر على أذى من يقوم أمام دعوتنا، نصبر، والعاقبة للمتقين؛ لقوله: (فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا).
٦- ومنها: أن أعداء الرسل لا يقتصرون على مجرد التكذيب، بل يؤذون الرسل وأتباعهم، والأذية قد تكون جسدية، وقد تكون مالية، وقد تكون فكرية، وقد تكون عسكرية، أنواع متعددة، والكافر يرى أقرب وسيلة تحصل بها الأذية للمسلم لا شك في هذا، ولو حصل له أن يبيد الأمم الإسلامية في ليلة بين عشية وضحاها لفعل ذلك.
٧- ومنها: أن فرج الله عز وجل يأتي مع شدة الكرب، كلما اشتد الكرب فاعلم أنه دنا الفرج، ويؤيد هذا قوله عز وجل: (فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا (٥) إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا) [الشرح ٥، ٦] فجعل الله مقابل العسر الواحد يسرين، وقال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «وَاعْلَمْ أَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ، وَأَنَّ الْفَرَجَ مَعَ الْكَرْبِ، وَأَنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا»(١).
٨- ومنها: ألا يرجى النصر إلا من عند الله؛ لقوله: (حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا)، وإذا علمنا أن النصر لا يكون إلا من عند الله، فوجب طلب النصر من الله عز وجل وحده، ولهذا اختصر النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم في عريش له يوم بدر يناشد ربه تبارك وتعالى النصر حتى نصره الله(٢).
٩- ومنها: أنه لا مبدل لكلمات الله، أي لا أحد يبدلها، إذا قدر الله النصر لا أحد يمنعه، وإذا قدر الخذلان لا أحد يمنعه. أما الكلمات الكونية فعدم المبدل لها ظاهر، وهي مفروغ منها أنه لا أحد يستطيع أن يبدلها، أما الكلمات الشرعية فمن الناس من يبدلها لكن تبديله هذا باطل.
١٠- ومن فوائد الآية الكريمة: قوة عظمة الله وسلطانه عز وجل، حيث إنه لا مبدل لكلماته غير الله عز وجل، مهما بلغ من السلطان والقدرة والقوة والجنود، فإن كلماته تبدل.
١١- ومنها: إثبات رسالة النبي ﷺ، كما ثبتت رسالات من قبله؛ لقوله: (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ).
١٢- ومنها: تأكيد رسالة النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم، وذلك بالقسم، واللام و(قد).
١٣- ومنها: أن القرآن الكريم يُراعَى فيه فواصل الآيات؛ لقوله: (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ)، وقال في آية أخرى: (وَكُلًّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِ فُؤَادَكَ) [هود ١٢٠].
١٤- ومنها: أنه قد يكون فيها إشارة إلى أن محمدًا خاتم الرسل؛ لقوله: (وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبَإِ الْمُرْسَلِينَ) يعني: الذين أرسلوا، فإن صح أخذ هذه الفائدة من الآية وإلا فكونه خاتم النبيين أمر مجمع عليه، نص عليه القرآن الكريم في قوله تعالى: (مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ

---

(١)أخرجه أحمد (٢٨٠٣) من حديث عبد الله بن عباس..
(٢)أخرجه البخاري (٢٩١٥) من حديث ابن عباس..

مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ} [الأحزاب ٤٠] يعني: ولكن كان رسول الله وخاتم النبيين، اللهم صلِّ وسلم عليه.

القرآن

{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ (٣٥)} [الأنعام : ٣٥]

التفسير:

وإن كان عَظُمَ عليك -أيها الرسول- صدود هؤلاء المشركين وانصرافهم عن الاستجابة لدعوتك، فإن استطعت أن تتخذ نفقًا في الأرض، أو مصعدًا تصعد فيه إلى السماء، فتأتيهم بعلامة وبرهان على صحة قولك غير الذي جئناهم به فافعل. ولو شاء الله لَجَمعهم على الهدى الذي أنتم عليه ووفَّقهم للإيمان، ولكن لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه، فلا تكونن -أيها الرسول- من الجاهلين الذين اشتد حزنهم، وتحسَّروا حتى أوصلهم ذلك إلى الجزع الشديد.

قوله تعالى:{وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام : ٣٥]، أي:"وإن كان عَظُمَ عليك -أيها الرسول- صدود هؤلاء المشركين وانصرافهم عن الاستجابة لدعوتك"(١).

قال مقاتل:"يعني: ثقل عليك إعراضهم عن الهدى ولم تصبر على تكذيبهم إياك"(٢).

قال ابن كثير:"أي : إن كان شق عليك إعراضهم عنك"(٣).

قال الطبري:أي:"إن كان عظم عليك، يا محمد، إعراض هؤلاء المشركين عنك، وانصرافهم عن تصديقك فيما جئتهم به من الحق الذيبعثتُك به، فشقَّ ذلك عليك، ولم تصبر لمكروه ما ينالك منهم"(٤).

قال الزجاج:"أي: إن كان عظم عليك أن أعرضوا إذ طلبوا منك أن تنزل عليهم ملكا، لأنهم قالوا:{لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ} [الأنعام : ٨] ،ثم أعلم الله جل وعز أنهم لو نزلتعليهم الملائكة وأتاهم عظيم من الآيات ما آمنوا"(٥).

قال البغوي:"أي: عظم عليك وشق أن أعرضوا عن الإيمان بك، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحرص على إيمان قومه أشد الحرص، وكانوا إذ سألوا آية أحب أن يريهم الله تعالى ذلك طمعا في إيمانهم"(٦).

قال الزمخشري:"كان يكبر على النبي صلى الله عليه وسلم كفر قومه وإعراضهم عما جاء به فنزل "{فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ} [الكهف : ٦، الشعراء:٣]، {إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ} [القصص : ٥٦]، {وَإِنْ كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ} [الأنعام : ٣٥]"(٧).

قوله تعالى:{فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ} [الأنعام : ٣٥]، أي:"فإن استطعت أن تتخذ نفقًا في الأرض"(٨).

قال الطبري:"يقول: فإن استطعت أن تتَّخذ سَرَبا في الأرض مثلَ نَافِقاء اليَرْبُوع، وهي أحد جِحَرِته فتذهب فيه"(٩).

قال الزمخشري:أي:"منفذا تنفذ فيه إلى ما تحت الأرض حتى تطلع لهم آية يؤمنون بها"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:١٣١.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(٤) تفسير الطبري:٣٣٦/١١-٣٣٧.
(٥) معاني القرآن:٢٤٣/٢.
(٦) تفسير البغوي:١٤٠/٣.
(٧) الكشاف:١٩/٢.
(٨) التفسير الميسر:١٣١.
(٩) تفسير الطبري:٣٣٧/١١.
(١٠) الكشاف:١٩/٢.

قال ابن عباس:"و«النفق»: السَّرب، فتذهب فيه، {فتأتيهم بآية}"[١].
قال قتادة[٢] والسدي [٣]:"{نَفَقًا}: سَرَبًا".
قال الزجاج:"و«النفق»: الطريق النافذ في الأرض، والنافقاء ممدود أحد جحرة اليربوعيخرقه من باطن الأرض إلى جلدة الأرض فإذا بلغ الجلدة أرقها حتى إنرابة دبيب رفع برأسه هذا المكان وخرج منه. ومن هذا سمي المنافقمنافقا، لأنه أبطن غير ما أظهر، كالنافقاء الذي ظاهره غير بين، وباطنه حفرفي الأرض"[٤].
قوله تعالى:{أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [الأنعام : ٣٥]، أي:"أو مصعدًا تصعد فيه إلى السماء"[٥].
قال ابن عباس:"أو تجعل لك سلّمًا في السماء، فتصعد عليه"[٦].
قال الطبري:"يقول: أو مصعدًا تصعد فيه، كالدَّرَج وما أشبهها، كما قال الشاعر[٧]:
لا تُحْرِزُ الْمَرْءُ أَحْجَاءُ البِلادِ، وَلا يُبْنَى لَهُ فِي السَّمَاوَاتِ السَّلالِيم "[٨]
وفي قوله تعالى:{أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ} [الأنعام : ٣٥]، ثلاثة أقوال:
أحدها : مصعداً ، قاله السدي[٩].
والثاني : دَرَجاً ، قاله قتادة [١٠].
والثالث : سبباً، قاله الكلبي[١١]، وأبو عبيدة[١٢].
قال أبو عبيدة:" و«السلّم»:السبب والمرقاة، قال الشّيبانىّ[١٣]:
هم صلبوا العبدى فى جذع نخلة فلا عطست شيبان إلّا بأجدعا
وقال ابن مقبل[١٤]:
لا تحرز المرء أحجاء البلاد ولا يبنى له فى السموات السّلاليم
ويقول الرجل: اتخذتني سلّما لحاجتك أي سببا"[١٥].
ومن ذلك قول كعب بن زهير[١٦]:

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٢٠١):ص٣٣٧/١١-٣٣٨.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٢٠٢):ص٣٣٨/١١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٢٠٣):ص٣٣٨/١١.
(٤) معاني القرآن:٢٤٤/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٣١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٢٠١):ص٣٣٧/١١-٣٣٨.
(٧) البيت لتميم بن أبي مقبل،من قصيدة له جيدة، نقلها قديمًا، والبيت في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٩٠، وشرح شواهد المغني: ٢٢٧، واللسان (سلم) (حجا) ، وتفسير الطبري:٣٣٧/١١.وغيرها، وقبل البيت، وهي أبيات حسان: إنْ يَنْقُصِ الدّهْرُ مِنِّي، فالفَتَى غَرَضٌ ... لِلدَّهْرِ، من عَوْدِهِ وَافٍ وَمَثْلُومُ
وَإنْ يَكُنْ ذَاكَ مِقْدَارًا أُصِبْتُ بِهِ ... فَسِيرَةَ الدَّهْرِ تَعْوِيجٌ وتَقْوِيمُ
مَا أَطْيَبَ العَيْشَ لَوْ أن الفَتَى حَجَرٌ ... تَنْبُو الحَوَادِثَ عَنْهُ وهو مَلْمُومُ
لا يمنع المرءَ أنصارٌ وَرَابيةٌ ... تَأْبَى الهَوَانَ إذَا عُدَّ الجَرَاثِيمُ
لا يُحْرِزُ المَرْءَ. . . . .
و"أحجاء البلاد": نواحيها وأطرافها. ويروى"أعناء البلاد"، وهو مثله في المعنى.
(٨) تفسير الطبري:٣٣٧/١١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٢٠٣):ص٣٣٨/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٢٠٢):ص٣٣٨/١١.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٠٩/٢.
(١٢) انظر: مجاز القرآن:٢٣٤/٢.
(١٣)لسويد بن أبى كاهل اليشكري وهو في الكامل ص ٤٨٨، والطبري١٨/ ٣٣٩، والاقتضاب: ٤٣١، والقرطبي: ١١/ ٢٢٤،وفتح الباري: ٦/ ٣٠٤ وشواهد المغني: ١٦٤.
(١٤)في تفسيرالطبري١١/ ٣٣٧،واللسان"حجا"، و"سلم"، وشواهد المغني: ٢٢٧ منسوب إلى تميم بن أبى عقيل- أحجاء البلاد: نواحيها او أطرافها"اللسان".
(١٥) مجاز القرآن:٢٣٤/٢.
(١٦) انظر: النكت والعيون:١٠٩/٢، والبحرالمحيط:٤/ ١١٤،والدرالمصون:٤/ ٦١٠.

ولا لَكُمَا مَنْجىً عَلَى الأرْضِ فَابْغِيَابه نَفَقاً أوْ في السَّمَوَات سُلَّماً

قال الزجاج:"و«السلم»: مشتق من السلامة، وهو الشيء الذي يسلمك إلى مصعدك"[1].

قوله تعالى:{فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ} [الأنعام : ٣٥]، أي:"فتأتيهم بعلامة وبرهان على صحة قولك غير الذي جئناهم به، فافعل"[2].

قال ابن عباس:"فتأتيهم بآية أفضل مما أتيناهم به، فافعل"[3].

قال الماوردي:أي:"يعني أفضل من آيتك ولن تستطيع ذلك ، لم يؤمنوا لك ، فلا يحزنك تكذيبهم وكفرهم"[4].

قال الفراء : "وفي الكلام مضمر محذوف وتقديره : فتأتيهم بآية "فافعل، وإنما تفعله العرب في كل موضع يعرف فيه معنى الجواب ألا ترى أنك تقول للرجل: إن استطعت أن تتصدق، إن رأيت أن تقوم معنا، بترك الجواب لمعرفتك بمعرفته به"[5].

قال الزجاج:"المعنى: فإن استطعت هذا فافعل، وليس في القرآن فافعل، لأنه قد يحذف مافي الكلام دليل عليه، ومثل ذلك قولك: إن رأيت أن تمضي معنا إلى فلان.ولا تذكر فافعل.فأعلم الله نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يستطيع أن يأتي بآية إلا بإذن الله. وإعلامه النبي هذا هو إعلام الخلق أنهم إنما اقترحوا هم الآيات وأعلم الله جل وعز أنه قادر على أن ينزل آية آية، وأنه لو أنزلت الملائكة وكلمهمالموتى ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله"[6].

قال الطبري:"وتُرك جواب الجزاء فلم يذكر، لدلالة الكلام عليه، ومعرفة السامعين بمعناه. وقد تفعل العرب ذلك فيما كان يُفهم معناه عند المخاطبين به، فيقول الرجل منهم للرجل:"إن استطعت أن تنهض معنا في حاجتنا، إن قدرت على مَعُونتنا"، ويحذف الجواب، وهو يريد: إن قدرت على معونتنا فافعل. فأما إذا لم يعرف المخاطب والسامع معنى الكلام إلا بإظهار الجواب، لم يحذفوه. لا يقال:إن تقم، فتسكت وتحذف الجواب، لأن المقول ذلك له لا يعرف جوابه إلا بإظهاره،حتى يقال:إن تقم تصب خيرًا، أو:إن تقم فحسن، وما أشبه ذلك، ونظيرُ ما في الآية مما حذف جَوَابه وهو مراد، لفهم المخاطب لمعنى الكلام قول الشاعر[7]:

فَبِحَظٍّ مِمَّا نَعِيشُ، وَلا تَذْ هَبْ بِكِ التُّرَّهَاتُ فِي الأهْوَالِ

والمعنى: فبحظٍّ مما نعيش فعيشي"[8].

قال الزمخشري:أي:"{فتأتيهم} منها {بآية} فافعل. يعنى أنك لا تستطيع ذلك. والمراد بيان حرصه على إسلام قومه وتهالكه عليه، وأنه لو استطاع أن يأتيهم بآية من تحت الأرض أو من فوق السماء لأتى بها رجاء إيمانهم. وقيل: كانوا يقترحون الآيات فكان يور أن يجابواإليها لتمادى حرصه على إيمانهم. فقيل له: إن استطعت ذلك فافعل، دلالة على أنه بلغ من حرصه أنه لو استطاع ذلك لفعله حتى يأتيهم بما اقترحوا من الآيات لعلهم يؤمنون. ويجوز أن يكون ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء هو الإتيان بالآيات، كأنه قيل: لو استطعت النفوذ إلى ما تحت الأرض أو الرقى إلى السماء لفعلت، لعل ذلك يكون لك آية يؤمنون عندها.

وحذف جواب «أن» كما تقول: إن شئت أن تقوم بنا إلى فلان نزوره ولو شاء الله لجمعهم على الهدى بأن يأتيهم بآية ملجئة، ولكنه لا يفعل لخروجه عن الحكمة"[9].

---

(١) معاني القرآن:٢٤٤/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٣١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٢٠١):ص٣٣٧/١١-٣٣٨.
(٤) النكت والعيون:١٠٩/٢.
(٥) معاني القرآن:٣٣١/١.
(٦) معاني القرآن:٢٤٤/٢.
(٧) الشعر لعبيد بن الأبرص، انظر: ديوانه: ٣٧.
(٨) تفسير الطبري:٣٣٨/١١-٣٣٩.
(٩) الكشاف:١٩/٢-٢٠.

قال أبو حيان:"والظاهر من قوله:{فتأتيهم بآية}، أن الآية هي غير ابتغاء النفق في الأرض أو السلم في السماء، وأن المعنى: أن تبتغي نفقا في الأرض فتدخل فيه أو سلما في السماء فتصعد عليه إليها فتأتيهم بآية غير الدخول في السرب والصعود إلى السماء مما يرجى إيمانهم بسببها أومما اقترحوه رجاء إيمانهم، وتلك الآية من إحدى الجهتين"(١).

قوله تعالى:{وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى} [الأنعام : ٣٥]، أي:"ولو شاء الله لجَمعهم على الهدى الذي أنتم عليه ووفَّقهم للإيمان، ولكن لم يشأ ذلك لحكمة يعلمها سبحانه"(٢).

قال البغوي:أي:"فآمنوا كلهم"(٣).

قال الماوردي:"يعني: بالإلجاء والاضطرار"(٤).

قال مقاتل:"ثم عزى نبيه- صلى الله عليه وسلم- ليصبر على تكذيبهم فقال: ولو شاء الله لجمعهم على الهدى"(٥).

قال ابن عباس:"يقول الله سبحانه: لو شئتُ لجمعتهم على الهدى أجمعين"(٦).

قال الطبري:"وفي هذا الخبر من الله تعالى ذكره، الدلالةُ الواضحة على خطإ ما قال أهل التَّفْويض من القدريّة، المنكرون أن يكون عند الله لطائف لمن شاءَ توفيقه من خلقه، يلطفُ بها له حتى يهتدِيَ للحقّ، فينقاد له، وينيبَ إلى الرشاد فيذعن به ويؤثره على الضلال والكفر بالله. وذلك أنه تعالى ذكره أخبر أنه لو شاءَ الهداية لجميع من كفر به، حتى يجتمعوا على الهدى، فعلَ. ولا شك أنه لو فعل ذلك بهم، كانوا مهتدين لا ضلالا. وهم لو كانوا مهتدين، كان لا شك أنّ كونهم مهتدين كان خيرًا لهم. وفي تركه تعالى ذكره أن يجمعهم على الهدى، تركٌ منه أن يفعل بهم في دينهم بعض ما هو خيرٌ لهم فيه، مما هو قادر على فعله بهم، وقدترك فعله بهم. وفي تركه فعل ذلك بهم، أوضحُ الدليل أنه لم يعطهم كل الأسباب التي بها يصلون إلى الهداية، ويتسبّبون بها إلى الإيمان"(٧).

قال الزجاج:"وقوله: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، فيه غير قول، فأحدها أنه لو شاء الله أن يطبعهم على الهدى لفعلذلك، وقول آخر: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، أي: لو شاء لأنزل عليهم آية تضطرهم إلى الإيمان كقوله جل وعز:{إِنْ نَشَأْ نُنَزِّلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْ} [الشعراء : ٤]، فإنما أنزل الله الآيات التي يفكر الناس معها، فيؤجر ذو البصر، ويثاب على الإيمان بالآيات، ولو كانت نار تنزل على من يكفر أو يرمى بحجر من السماء لان كل واحد "(٨).

قوله تعالى:{فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ} [الأنعام : ٣٥]، أي:"فلا تكونن -أيها الرسول- من الجاهلين الذين اشتد حزنهم، وتحسَّروا حتى أوصلهم ذلك إلى الجزع الشديد"(٩).

قال الماوردي:"يعني: تجزع في مواطن الصبر ، فتصير بالأسف والتحسر مقارباً لأحوال الجاهلين "(١٠).

قال البغوي:"أي: بهذا الحرف، وهو قوله: {ولو شاء الله لجمعهم على الهدى}، وأن من يكفر لسابق علم الله فيه"(١١).

قال الزمخشري:أي:"من الذين يجهلون ذلك ويرومون ما هو خلافه"(١).

---

(١) البحر المحيط:٤/٤٩٢-٤٩٣.
(٢) التفسير الميسر:١٣١.
(٣) تفسير البغوي:١٤١/٣.
(٤) النكت والعيون:١٠٩/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٢٠٥):ص٣٤٠/١١.
(٧) تفسير الطبري:٣٤٠/١١-٣٤١.
(٨) معاني القرآن:٢٤٤/٢-٢٤٥.
(٩) التفسير الميسر:١٣١.
(١٠) النكت والعيون:١٠٩/٢.
(١١) تفسير البغوي:١٤١/٣.

قال مقاتل:"فإن الله لو شاء لجعلهم مهتدين"[٢].
قال الخازن:"يعني: ولا تجزع من إعراضهم عنك فتقارب حال الجاهلين الذين لا صبر لهم، وإنما نهاه عن هذه الحالة وغلظ له الخطاب تبعيدا له عن هذه الحالة"[٣].
قال ابن عطية:هذه الآية "فيها إلزام الحجة للنبي صلى الله عليه وسلم وتقسيم الأحوال عليه حتى يبين أن لا وجه إلا الصبر والمضي لأمر الله تعالى، والمعنى إن كنت تعظم تكذيبهم وكفرهم على نفسك وتلتزم الحزن عليه فإن كنت تقدر على دخول سرب في أعماق الأرض أو على ارتقاء سلم في السماء فدونك وشأنك به، أي إنك لا تقدر على شيء من هذا، ولا بد لك من التزام الصبر واحتمال المشقة ومعارضتهم بالآيات التي نصبها الله تعالى للناظرين المتأملين، إذ هو لا إله إلا هو لم يرد أن يجمعهم على الهدى، وإنما أراد أن ينصب من الآيات ما يهتدي بالنظر فيه قوم ويضل آخرون، إذ خلقهم على الفطرة وهدى السبيل وسبقت رحمته غضبه، وله ذلك كله بحق ملكه،{فلا تكونن من الجاهلين}، في أن تأسف وتحزن على أمر أراده الله وأمضاه وعلم المصلحة فيه"[٤].
الفوائد:

١- في هذا من الفوائد: أن النبي ﷺ قد عظم عليه إعراض المدعوين إلى الإسلام.هل وهذاليس انتصارا لنفسه وإنما رغبة في هداية عباد الله، وهذا من تمام نصحه للأمة عليه الصلاة والسلام.

٢- ومن فوائد هذه الآية: أن الإنسان ينبغي له ألا يهون عليه إعراض الناس، بل يكون كبيرًا في نفسه، لكن لا تعصب لما هو عليه، ولكن أيش؟ من أجل مصلحة الآخرين، إذا رأينا مثلًا رجلًا عالمًا عابدًا كريمًا لكنه في الأسماء والصفات على غير ما يرام، فهل يشق علينا هذا أو لا يشق؟ نعم يشق، لا شك أنه يشق علينا. وإذا نظرنا إليه بعين القدر رحمناه وقلنا: سبحان الله، كيف يكون هذا الرجل الفاضل على عقيدة غير سليمة؟! نرحمه، فهو حقيقة؛ لأنه محروم، لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع فإننا نجادله، فإن رجع إلى الحق فهذا المطلوب، وإن لم يرجع فإننا نفعل به كما قال الشافعي رحمه الله: حكمي في أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد والنعال، ويطاف بهم في العشائر، ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب، والسنة وأقبل على علم الكلام.رجل زانٍ، زنا، وهو من علية القوم، ومن أهل الخير، إذا نظرنا إليه بعين القدر نعم رحمناه ورققنا له؛ كيف يصدر الزنا من هذا؟! لكن إذا نظرنا إليه بعين الشرع أقمنا عليه الحد ولا نرأف به، كما قال عز وجل: (الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ وَلَا تَأْخُذْكُمْ بِهِمَا رَأْفَةٌ فِي دِينِ اللَّهِ) [النور ٢] ما قال: في قدر الله، قال: فِي دِينِ اللَّهِ (إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) [النور ٢]، أفهمتم؟ ولهذا جاء في الحديث، وإن كان فيه نظر: «أَقِيلُوا ذَوِي الْهَيْئَاتِ عَثَرَاتِهِمْ إِلَّا الْحُدُودَ»[٥].

٣- من فوائد هذه الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى قد يبين الشيء المستحيل بضرب مثل له دون أن يذكره بعينه، وجهه أن الله قال: (فَإِنِ اسْتَطَعْتَ أَنْ تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي السَّمَاءِ فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ). يعني: فافعل بدلًا من أن يقول: وإن كان كبر عليك إعراضهم فإنهم لن يؤمنوا؛ لأن هذا هو المتوقع؛ أن يقول: إن كان كبر عليك إعراضهم فإنهم لن يؤمنوا، لكن الله تعالى ضرب مثلًا، حتى يكون مقنعًا للرسول عليه الصلاة والسلام ولغيره أيضًا.

---

(١) الكشاف:٢/٢٠.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٥٩.
(٣) تفسير الخازن:٢/١١٠.
(٤) المحرر الوجيز:٢/٢٨٧.
(٥)أخرجه أبو داود، كتاب الحدود، باب في الحد يشفع (٤٣٧٥) . وصححه الألباني في صحيح الجامع (رقم ١١٨٥) .

٤- ومن فوائد في هذه الآية: أن نقول -وانتبهوا-: الملاجئ قسمان: إما نفق في الأرض، وإما صعود في السماء، هل يستقيم هذا؟ أو نقول: طلب الشواهد قد يكون من الأرض وقد يكون من السماء؟ طلب الشواهد للصحة؛ صحة ما يقول الإنسان؟الظاهر أن الثاني أولى؛ لأن الله إنما قال له ذلك لا لأجل أن يلجأ، ولكن من أجل أن يأتي بما يشهد له، ولهذا قال: (فَتَأْتِيَهُمْ بِآيَةٍ).

٥- * ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا بد لكل نبي من آية، وهذا من حكمة الله عز وجل، أرأيتم لو جاء رجل في غير هذه الأمة وادعى أنه رسول، وقال: أنا رسول، ومنهجي كذا، وعقيدتي كذا، وعبادتي كذا، فأطيعوني. بدون أي آية، هل يكون هذا من الحكمة، أو لا؟ ليس من الحكمة. ومن كذبه فهو معذور، وإلا لكان كل كاذب دجال يدعي أنه نبي أو ربما يدعي أنه رب.

٦- ومن فوائد هذه الآيات الكريمة: أن الهداية والضلالة بيد الله عز وجل؛ لقوله: (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُدَى).

٧- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات مرتبة من مراتب الإيمان بالقدر، وهي المشيئة؛ أن الله تعالى قد شاء جميع أفعال العباد. ومراتب القدر، هي أربع:«العلم، والكتابة، والمشيئة، والخلق».

٨- ومنها: حكمة الله عز وجل في جعل الناس صنفين: مؤمنين وكافرين.وهذا أمر لا بد منه؛ لوجوه، منها:

- لأنه لولا الكفر لم يُعرف قدر الإيمان، ولولا الإيمان لم يُعرَف قُبح الكفر، كما أنه لولا الحلو ما عُرف المر، وهذا واضح. إذا لم يكن هناك أشياء متضادة ما عرف فضل الأشياء المحمودة.
- لولا هذا الاختلاف ما قام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؛ لأن الناس سيكونون كلهم إما على منكر وإما على معروف.
- ولولا هذا الاختلاف ما قامت الدعوة إلى الله عز وجل؛ لأنهم إن كانوا مؤمنين كلهم لم يحتاجوا إلى دعوة، وإن كانوا كافرين ما دعوا.

إذن من الحكمة: أن الله جعل الخلق صنفين.

لكن قد يقول قائل: إذا كان أحد الناس من الصنف الآخر الكافر، أفلا يكون في هذه ظلم له؟

فالجواب: لا، كما قال بعض أهل السنة وهو يجادل معتزليًّا لما قال: أرايت إن منعني الهدى وقضى علي بالشقاء، فهل أساء إليّ أم لم يسئ إلي؟فقال له السني: إن منعك ما هو لك فقد أساء، وإن منعك ما هو فضله فذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

القرآن

{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ (٣٦)} [الأنعام : ٣٦]

التفسير:

إنما يجيبك -أيها الرسول- إلى ما دعوت إليه من الهدى الذين يسمعون الكلام سماع قبول. أما الكفار فهم في عداد الموتى; لأن الحياة الحقيقية إنما تكون بالإسلام. والموتى يخرجهم الله من قبورهم أحياء، ثم يعودون إليه يوم القيامة ليوفوا حسابهم وجزاءهم.

قوله تعالى:{إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [الأنعام : ٣٦]، أي:"نما يجيبك -أيها الرسول- إلى ما دعوت إليه من الهدى الذين يسمعون الكلام سماع قبول، أما الكفار فهم في عداد الموتى; لأن الحياة الحقيقية إنما تكون بالإسلام "[١].

قال السمعاني:"هاهنا الوقف، ومعناه: إنما يستجيب الذين يسمعون سماع القبول"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٢.

قال ابن قتيبة:"أي: يجيبك من يسمع"[٢].
قال البيضاوي:"إنما يجيب الذين يسمعون بفهم وتأمل لقوله: {أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ} [ق : ٣٧] ،وهؤلاء كالموتى الذين لا يسمعون"[٣].
قال البغوي:"يعني: المؤمنين الذين يسمعون الذكر فيتبعونه وينتفعون به دون من ختم الله على سمعه"[٤].
قال قتادة:"هذا مثل المؤمن سمع كتاب الله فأخذ به، وانتفع به وعقله"[٥].
قال الزجاج:"أي: الذين يسمعون سماع قابلين، وجعل من لم يقبل بمنزلة الأصم، قال الشاعر[٦]:
أَصَمُّ عَمَّا سَاءَهُ سَمِيعُ"[٧]
قال ابن كثير:"أي : إنما يستجيب لدعائك يا محمد من يسمع الكلام ويعيه ويفهمه ، كقوله : { لِيُنْذِرَ مَنْ كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ الْقَوْلُ عَلَى الْكَافِرِينَ } [يس : ٧٠]"[٨].
قال الزمخشري:"يعنى: أن الذين تحرص على أن يصدقوك بمنزلة الموتى الذين لا يسماعون، وإنما يستجيب من يسمع، كقوله:{إِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى} [النمل : ٨٠]"[٩].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : لا يكبُرنّ عليك إعراض هؤلاء المعرضين عنك ، وعن الاستجابة لدعائك إذا دعوتهم إلى توحيد ربّهم والإقرار بنبوّتك ، فإنه لا يستجيب لدعائك إلى ما تدعوه إليه من ذلك ، إلا الذين فتح الله أسماعهم للإصغاء إلى الحق ، وسهَّل لهم اتباع الرُّشد ، دون من ختم الله على سمعه ، فلا يفقه من دعائك إياه إلى الله وإلى اتباع الحق إلا ما تفقه الأنعام من أصوات رُعاتها ، فهم كما وصفهم به الله تعالى ذكره : {صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ} [سورة البقرة : ١٧١]"[١٠].
قال القرطبي:"{يسمعون}، أي: سماع إصغاء وتفهم وإرادة الحق، وهم المؤمنون الذين يقبلون ما يسمعون فينتفعون به ويعملون"[١١].
قال السعدي:"يقول تعالى لنبيه صلى الله عليه وسلم: {إنما يستجيب} لدعوتك، ويلبي رسالتك، وينقاد لأمرك ونهيك {الذين يسمعون} بقلوبهم ما ينفعهم، وهم أولو الألباب والأسماع.
والمراد بالسماع هنا: سماع القلب والاستجابة، وإلا فمجرد سماع الأذن، يشترك فيه البر والفاجر. فكل المكلفين قد قامت عليهم حجة الله تعالى، باستماع آياته، فلم يبق لهم عذر، في عدم القبول"[١٢].
وفي قوله تعالى:{الَّذِينَ يَسْمَعُونَ} [الأنعام : ٣٦]، ثلاثة اقوال:
أحدها : يعني الذين يعقلون ، قاله الكلبي[١٣].
والثاني : يعني: الذين يسمعون الهدى، يعني: القرآن. قاله مقاتل[١].

---

(١) تفسير السمعاني:١٠٠/٢.
(٢) غريب القرآن:١٥٣.
(٣) تفسير البيضاوي:١٦٠/٢.
(٤) تفسير البغوي:١٤١/٣.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٥٣):ص١٢٨٥/٤.
(٦)ورد هذا الرجز في "تهذيب اللغة" (صمم) ٢/ ٢٠٥٨، "اللسان" (صمم) ٤/ ٢٥٠٠، "شرح الحماسة" للمرزوقي ٣/ ١٤٥٠، "الكشاف" ١/ ٢٠٤، "القرطبي" في "تفسيره" ١/ ١٨٦. جميعها بدون نسبة، ومعناه: هو أصم عما لا يليق به،معرض عم اساءه مع أنه يملك السمع.
(٧) معاني القرآن:٢٤٥/٢.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(٩) الكشاف:٢٠/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٤٢/١١.
(١١) تفسير القرطبي:٤١٨/٦.
(١٢) تفسير السعدي:٢٥٥.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٠٩/٢.

والثالث: الذين يسمعون طلباً للحق ، لأن الاستجابة قد تكون من الذين يسمعون طلباً للحق ، فأما من لا يسمع ، أو يسمع لكن لا بقصد طلب الحق ، فلا يكون منه استجابة .

قال ابن عطية:"هذا من النمط المتقدم في التسلية أي لا تحفل بمن أعرض فإنما يستجيب لداعي الإيمان الذين يقيمون الآيات ويتلقون البراهين بالقبول، فعبر عن ذلك كله ب يسمعون إذ هو طريق العلم بالنبوة والآياتالمعجزة، وهذه لفظة تستعملها الصوفية إذا بلغت الموعظة من أحد مبلغا شافيا قالوا سمع"(٢).

قوله تعالى:{وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ} [الأنعام : ٣٦]، أي:"والموتى يخرجهم الله من قبورهم أحياء"(٣).

قال الزجاج:"أي: يحييهم"(٤).

قال ابن عطية:"أي: يحشرهم يوم القيامة"(٥).

قال ابن قتيبة:أي:"فأما الموتى فالله يبعثهم. شبههم بالموتى"(٦).

قال مقاتل:" يعني: كفار مكة يبعثهم الله في الآخرة"(٧).

قال مجاهد:"{والموتى}: الكفار، حين يبعثهم الله مع الموتى"(٨).

قال ابن كثير:"يعني : بذلك الكفار ؛ لأنهم موتى القلوب ، فشبههم الله بأموات الأجساد فقال : { وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ } وهذا من باب التهكم بهم ، والازدراء عليهم"(٩).

قال الطبري:"يقول : والكفارُ يبعثهم الله مع الموتى ، فجعلهم تعالى ذكره في عداد الموتى الذين لا يسمعون صوتًا ، ولا يعقلون دعاء ، ولا يفقهون قولا إذ كانوا لا يتدبرون حُجج الله ، ولا يعتبرون آياته ، ولا يتذكرون فينزجرون عما هم عليه من تكذيب رُسل الله وخلافهم"(١٠).

قال السعدي:"أي: إنما يستجيب لك أحياء القلوب، وأما أموات القلوب، الذين لا يشعرون بسعادتهم، ولا يحسون بما ينجيهم، فإنهم لا يستجيبون لك، ولا ينقادون، وموعدهم القيامة، يبعثهم الله ثم إليه يرجعون، ويحتمل أن المراد بالآية، على ظاهرها، وأن الله تعالى يقرر المعاد، وأنه سيبعث الأموات يوم القيامة ثم ينبئهم بما كانوا يعملون.

ويكون هذا، متضمنا للترغيب في الاستجابة لله ورسوله، والترهيب من عدم ذلك"(١١).

وفي قوله تعالى:{وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ} [الأنعام : ٣٦]، قولان:

أحدهما : أن المراد بالموتى هنا الكفار ، قاله الحسن(١٢)، وقتادة(١٣)، ومجاهد(١٤)، واختاره الطبري(١٥)، وابن كثير(١٦).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٢) المحرر الوجيز:٢٨٨/٢-٢٨٩.
(٣) التفسير الميسر:١٣٢.
(٤) معاني القرآن:٢٤٥/٢.
(٥) المحرر الوجيز:٢٨٩/٢.
(٦) غريب القرآن:١٥٣.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٥٥):ص١٢٨٥/٤.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٣٤٢/١١.
(١١) تفسير السعدي:٢٥٥.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٠٩):ص٣٤٢/١١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٠٨):ص٣٤٢/١١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٠٦):ص٣٤٢/١١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري:٣٤٢/١١.
(١٦) انظر: تفسير ابن كثير:٢٥٢/٣.

ويكون معنى الكلام : إنما يستجيب المؤمنون الذين يسمعون ، والكفار لا يسمعون إلا عند معاينة الحق اضطراراً حين لا ينفعهم حتى يبعثم الله كفاراً ثم يحشرون كفاراً .

قال ابن عطية:"{والموتى}، يريد الكفار، فعبر، عنهم بضد ما عبر عن المؤمنين وبالصفة التي تشبه حالهم في العمى عن نور الله تعالى والصمم عن وعي كلماته، أي: هم بمثابة الموتى حين لا يرون هدى ولا يسمعون فيعون"(١).

والقول الثاني : أنهم الموتى الذين فقدوا الحياة ، وهو مثل ضربه الله تعالى لنبيه -صلى الله عليه وسلم- ، ويكون معنى الكلام : كما أن الموتى لا يستجيبون حتى يبعثهم الله فكذلك الذين لا يسمعون(٢).

قال الزمخشري:"{والموتى يبعثهم الله}: مثل لقدرته على إلجائهم إلى الاستجابة بأنه هو الذي يبعث الموتى من القبور يوم القيامة"(٣).

قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ} [الأنعام : ٣٦]، أي:"ثم يعودون إليه يوم القيامة ليوفوا حسابهم وجزاءهم"(٤).

قال مقاتل:" يعني: يردون فيجزيهم"(٥).

قال البغوي:أي:"فيجزيهم بأعمالهم"(٦).

قال ابن عطية:"أي: إلى سطوته وعقابه يرجعون"(٧).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره :ثم إلى الله يرجع المؤمنون الذين استجابوا لله والرسول، والكفارُ الذين يحول الله بينهم وبين أن يفقهوا عنك شيئًا ، فيثيب هذا المؤمن على ما سلف من صالح عمله في الدنيا بما وعد أهل الإيمان به من الثواب ، ويعاقب هذا الكافرَ بما أوعدَ أهل الكفر به من العقاب ، لا يظلم أحدًا منهم مثقال ذرة"(٨).

قال الزمخشري: يعني:"للجزاء، فكان قادرا على هؤلاء الموتى بالكفر أن يحييهم بالإيمان. وأنت لا تقدر على ذلك. وقيل معناه: وهؤلاء الموتى- يعنى الكفرة- يبعثهم الله. ثم إليه يرجعون، فحينئذ يسماعون. وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى استماعهم"(٩).

وقرئ: «يرجعون»، بفتح الياء(١٠).

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية: أنه كلما صار الإنسان أسمع لكلام الله ورسوله صارت استجابته أقوى، مأخوذ من القاعدة المعروفة: أن ما علق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب هذا الوصف الذي علق عليه الحكم؛ مثال ذلك قوله عز وجل: (إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ) [القصص ٢٦]، فكلما كان أقوى كان أخير وأنفع، وكذلك الأمان؛ كلما كان آمن فهو أخير، المهم من هذه القاعدة المفيدة: كل شيء علق على وصف فإنه يزداد قوة بحسب قوة ذلك الوصف.

٢- ومنها: إثبات البعث، وهو -أعني الإيمان بالبعث- أحد أركان الإيمان الستة التي أخبر بها النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم جبريل حينما قال: أخبرني عن الإيمان. قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١١).

---

(١) المحرر الوجيز:٢٨٩/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:١١٠/٢.
(٣) الكشاف:٢٠/٢.
(٤) التفسير الميسر:١٣٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٦) تفسير البغوي:١٤١/٣.
(٧) المحرر الوجيز:٢٨٩/٢.
(٨) تفسير الطبري:٣٤٢/١١.
(٩) الكشاف:٢٠/٢.
(١٠) انظر: الكشاف:٢٠/٢.
(١١)أخرجه مسلم (٨ / ١) من حديث عمر بن الخطاب.

٣- ومنها أيضًا: أن هؤلاء الكفار بمنزلة الموتى؛ وذلك لأنهم لا ينتفعون بما يسمعون، كما أن الميت لا ينتفع بما يسمع، جثة، فكذلك هؤلاء الكفار.
٤- ومنها: تهديد أولئك الكفار الذين لا يسمعون بأن الله سيبعثهم ثم يجازيهم.
٥- ومنها: قدرة الله عز وجل الكاملة، وذلك بالبعث، والبعث الذي يكون ليس يأتي كالإحياء شيئًا فشيئًا، فتجد البشر وغير البشر يخرج صغيرًا ثم ينمو حتى يأتي كاملًا، البعث يبعثون كلهم في لحظة واحدة، اقرأ قول الله عز وجل: (فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ) [النازعات ١٣، ١٤]، وقال عز وجل: (إِنْ كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ) [يس ٥٣]، وقال عز وجل: (وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ) [القمر ٥٠].
٦- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن المرجع في النهاية إلى الله عز وجل؛ لقوله: (ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ) [الأنعام ٣٦]، وهذا الرجوع فيه حصر، طريقه تقديم المعمول في قوله: (إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ)، وفائدة هذا التقديم -أعني تقديم المعمول في هذه الآية- لفظية ومعنوية:أما المعنوية فهي إفادة الحصر، وأنه لا مرجع إلا إلى الله. وأما اللفظية فلتتناسب رؤوس الآيات؛ لأن تناسب رؤوس الآيات من البلاغة.

القرآن

{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٧)} [الأنعام : ٣٧]

التفسير:

وقال المشركون -تعنتًا واستكبارًا-: هلا أنزل الله علامة تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من نوع العلامات الخارقة، قل لهم -أيها الرسول-: إن الله قادر على أن ينزل عليهم آية، ولكن أكثرهم لا يعلمون أن إنزال الآيات إنما يكون وَفْق حكمته تعالى.

سبب النزول:

قال ابن عباس: "نزلت في رؤساء قريش"(١).

قوله تعالى:{وَقَالُوا لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأنعام : ٣٧]، أي:"وقال المشركون -تعنتًا واستكبارًا-: هلا أنزل الله علامة تدل على صدق محمد صلى الله عليه وسلم من نوع العلامات الخارقة"(٢).

قال مقاتل:"يعني: هلا {نزل عليه} محمد، كما أنزل على الأنبياء {آية من ربه}"(٣).

قال السمرقندي:"يعني: الكفار. قالوا: هلا نزل عليه آية من ربه يعني: علامة لنبوته"(٤).

قال مكي:"أي: قال هؤلاء العادلون بالله غيره: هلا نزل على محمد آية، أي: علامة"(٥).

قال البيضاوي:"أي: آية بما اقترحوه، أو آية أخرى سوى ما أنزل من الآيات المتكاثرة لعدم اعتدادهم بها عنادا"(٦).

قال الزجاج:"أي: آية تجمعهم على الهدى"(٧). قال القرطبي:" أي: جمع إلجاء"(٨).

---

(١) حكاه عنه ابن الجوزي في زاد المسير:٢٦/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٣٢.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.
(٤) بحر العلوم:٤٤٦/١.
(٥) الهداية غلى بلوغ النهاية:٢٠١٢/٣.
(٦) تفسير البيضاوي:١٦٠/٢.
(٧) معاني القرآن:٢٤٥/٢.
(٨) تفسير القرطبي:٤١٩/٦.

قال ابن كثير:"يقول تعالى مخبرًا عن المشركين أنهم كانوا يقولون : { لَوْلا نزلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ } أي : خارق على مقتضى ما كانوا يريدون ، ومما يتعنتون كما قالوا : { لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأرْضِ يَنْبُوعًا } الآيات [الإسراء : ٩٠]"[١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: وقال هؤلاء العادلون بربهم، المعرضون عن آياته: هلا نزل على محمد آية من ربه؟ كما قال الشاعر[٢]:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ ... بَنِي ضَوْطَرَي، لَولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا

بمعنى: هلا الكميَّ.

و«الآية»، العلامة، وذلك أنهم قالوا: مَالِ هَذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الأسْوَاقِ لَوْلا أُنزلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا أَوْ يُلْقَى إِلَيْهِ كَنز أَوْ تَكُونُ لَهُ جَنَّةٌ يَأْكُلُ مِنْهَا [سورة الفرقان: ٧،٨]"[٣].

قال الزمخشري:"وإنما قالوا ذلك مع تكاثر ما أنزل من الآيات على رسول الله صلى الله عليه وسلم، لتركهم الاعتداد بما أنزل عليه، كأنه لم ينزل عليه شيء من الآيات عنادا منهم"[٤].

قال مقاتل: أرادوا بالآية مثل آيات الأنبياء[٥].

وقال غيره: "أرادوا نزول ملك يشهد له بالنبوة"[١].

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٥٣/٣.

(٢)البيت لجرير فى النقائض ص ٨٣٣، وهو فى ديوانه ص ٩٠٧، وانظر: الكامل ١/ ٢٧٨، والإيضاح: ٢٩، والخصائص: ٢/ ٤٥، والجمل المنسوب للخليل: ١٠٢، والبيت أنشده ابن الشجرى من غير نسبة فى المجلس المتمّ الأربعين، ونسبه فى المجلس السادس والستين إلى الأشهب بن رميلة. وممّن نسبه هذا النسبة أبو جعفر الطبرى فى تفسيره ٢/ ٥٥٢، وقال البغدادىّ فى الخزانة ٣/ ٥٩: «نسبه ابن الشجرىّ فى أماليه للأشهب بن رميلة، وكذا غيره، والصحيح أنه من قصيدة لجرير، لا خلاف بين الرواة أنها له».

وقد سبق أبا جعفر الطبرىّ وابن الشجرى فى نسبة البيت للأشهب: أبو عبيدة فى مجاز القرآن ١/ ٥٢،٣٤٦، وأنشده من غير نسبة فى :ص ١٩١.

وقال السيوطى فى شرح شواهد المغنى ص ٢٢٩،٢٣٠: «ورأيت فى تفسير ابن المنذر نسبة هذا البيت إلى الأشهب بن رميلة». انتهى. وهذا ابن المنذر: هو أبو بكر محمد بن إبراهيم النيسابورى المتوفى سنة ٣١٩، على اختلاف. راجع طبقات الشافعية الكبرى ٣/ ١٠٢، ولسان الميزان ٥/ ٢٧. ويبقى أن أشير إلى أن الأشهب بن رميلة كان يهاجى الفرزدق، وله فيه قصيدة من بحر البيت الشاهد وقافيته، فهذا سبب التخليط فى النسبة. راجع طبقات فحول الشعراء ص ٥٨٥،٥٨٦. وانظر شعره ضمن (شعراء أمويون) ٢/ ٢٣٦،٢٣٧. وتعدّون هنا بمعنى تعتقدون، ولا يجوز أن يكون من العدّ بمعنى الحساب، حكاه البغدادى فى الخزانة ٣/ ٥٧.

والعقر: مصدر عقر الناقة بالسيف: إذا ضرب قوائمها به، وكانوا إذا أرادوا نحر البعير عقروه، ثم نحروه، وإنما يفعلون به ذلك كيلا يشرد عند النحر. وكان العرب يتكارمون بالمعاقرة. وهي أن يعقر هذا ناقة، فيعقر الآخر، يتباريان في الجود والسخاء، ويلحان في ذلك حتى يغلب أحدهما صاحبه.

والنّيب، بكسر النون: جمع ناب، وهى الناقة المسنّة، أسموها بذلك لطول نابها. ويشير جرير بذلك إلى ما كان يفخر به الفرزدق من معاقرة أبيه غالب بن صعصعة، سحيم بن وثيل الرياحي بمكان يقال له"صوأر"، فعقر سحيم خمسا ثم بدا له، وعقر غالب مئة، أو مئتين. وهذا أمر من أمور الجاهلية قال ابن عباس: " لا تأكلوا من تعاقر الأعراب، فإني لا آمن أن يكون مما أهل لغير الله به"، وقال علي رضي الله عنه: "يا أيها الناس، لا تحل لكم، فإنها أهل بها لغير الله". (انظر خبر المعاقرة في النقائض: ٦٢٥ - ٦٢٦) .

وقوله: "بني ضوطرى"، يعني: يا بني الحمقى. هكذا قيل، وأخشى أن لا يكون كذلك، فإن: "ضوطرى" نبز لرجل من بني مجاشع بن دارم - لم يعينوه - فقال جرير للفرزدق: إن ابن شعرة، والقرين، وضوطرى ... بئس الفوارس ليلة الحدثان

فهذا دليل على أنه شخص بعينه، أرجو أن أحققه في غير هذا المكان. وقد أراد ذمه بأسلافه على كل. والكمي: الشجاع الذي لا يرهب، أى المستتر بالدرع والبيضة، فلا يحيد عن قرنه، كان عليه سلاح أو لم يكن.

وقوله: "تعدون" أي تحسبون وتجعلون، فعدى الفعل"عد" إلى مفعولين، تضمينا لمعنى"جعل وحسب"، كما قال ذو الرمة: أشم أغر أزهر هبرزي ... يعد القاصدين له عيالا.

(٣) تفسير الطبري:٣٤٣/١١.

(٤) الكشاف:٢٠/٢.

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٥٩/١.

قال القرطبي:" قال الحسن: {لولا}-ها هنا- بمعنى «هلا»، وقال الشاعر[٢]:

تَعُدُّونَ عَقْرَ النِّيبِ أَفْضَلَ مَجْدِكُمْ بَنِي ضَوْطَرَي، لَولا الكَمِيَّ المُقَنَّعَا

وكان هذا منهم تعنتا بعد ظهور البراهين، وإقامة الحجة بالقرآن الذي عجزوا أن يأتوا بسورة مثله، لما فيه من الوصف وعلم الغيوب"[٣].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً} [الأنعام : ٣٧]، أي:"لهم -أيها الرسول-: إن الله قادر على أن ينزل عليهم آية"[٤].

قال الطبري:أي:"قل، يا محمد، لقائلي هذه المقالة لك:{إنّ الله قادر على أن ينزل آية}، يعني: حجة على ما يريدون ويسألون"[٥].

قال ابن كثير:"أي : هو تعالى قادر على ذلك ، ولكن حكمته تعالى تقتضي تأخير ذلك"[٦].

قال الزمخشري:يعني: فـ"تضطرهم إلى الإيمان.كنتق الجبل على بنى إسرائيل ونحوه، أو آية إن جحدوها جاءهم العذاب"[٧].

قال السمعاني:"يعني: أنه قادر على إنزال الآيات، وقد أنزل كثيرا من الآيات والمعجزات، ولكن لا ينزل الآيات على اقتراح الكفار"[٨].

قال البيضاوي:أي:آية مما اقترحوه، أو آية تضطرهم إلى الإيمان كنتق الجبل، أو آية إن جحدوها هلكوا"[٩].

وقرئ:«أن ينزل»، بالتشديد والتخفيف[١٠].

قوله تعالى:{وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ} [الأنعام : ٣٧]، أي:"ولكن أكثرهم لا يعلمون أن إنزال الآيات إنما يكون وَفق حكمته تعالى"[١١].

قال البغوي:يعني:"ما عليهم في إنزالها"[١٢].

قال السمرقندي:"أي: لا يعلمون أن الله إنما ينزل ما فيه الصلاح لعباده"[١٣].

قال مكي:"أي: قال هؤلاء العادلون بالله غيره: هلا نزل على محمد آية، أي: علامة"[١٤].

قال الزمخشري:أي:"أن الله قادر على أن ينزل تلك الآية، وأن صارفا من الحكمة يصرفه عن إنزالها"[١٥].

قال القرطبي:"أي: لا يعلمون أن الله عز وجل إنما ينزل من الآيات ما فيه مصلحة لعباده، وكان في علم الله أن يخرج من أصلابهم أقواما يؤمنون به ولم يرد استئصالهم.

وقيل: {ولكن أكثرهم لا يعلمون} أن الله قادر على إنزالها"[١].

---

(١) زاد المسير:٢٦/٢.

(٢)البيت لجرير فى النقائض ص ٨٣٣، وهو فى ديوانه ص ٩٠٧، وانظر: الكامل ١/ ٢٧٨، والإيضاح: ٢٩، والخصائص: ٢/ ٤٥، والجمل المنسوب للخليل: ١٠٢. وسبق الكلام فيه.

(٣) تفسير القرطبي:٤١٨/٦-٤١٩.

(٤) التفسير الميسر:١٣٢.

(٥) تفسير الطبري:٣٤٣/١١.

(٦) تفسير ابن كثير:٢٥٣/٣.

(٧) الكشاف:٢٠/٢.

(٨) تفسير السمعاني:١٠١/٢.

(٩) تفسير البيضاوي:١٦٠/٢.

(١٠) انظر: الكشاف:٢٠/٢.

(١١) التفسير الميسر:١٣٢.

(١٢) تفسير البغوي:١٤١/٣.

(١٣) بحر العلوم:٤٤٦/١.

(١٤) الهداية على بلوغ النهاية:٢٠١٢/٣.

(١٥) الكشاف:٢١/٢.

قال الطبري:"يقول: ولكن أكثر الذين يقولون ذلك فيسألونك آية، لا يعلمون ما عليهم في الآية إن نزلها من البلاء، ولا يدرون ما وجه ترك إنزال ذلك عليك، ولو علموا السبب الذي من أجله لم أنزلها عليك، لم يقولوا ذلك، ولم يسألوكه، ولكن أكثرهم لا يعلمون ذلك"(٢).

قال ابن كثير:"لأنه لو أنزلها وفق ما طلبوا ثم لم يؤمنوا ، لعاجلهم بالعقوبة ، كما فعل بالأمم السالفة ، كما قال تعالى : { وَمَا مَنَعَنَا أَنْ نُرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَنْ كَذَّبَ بِهَا الأوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلا تَخْوِيفًا } [الإسراء : ٥٩] ، وقال تعالى : { إِنْ نَشَأْ نُنزلْ عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ آيَةً فَظَلَّتْ أَعْنَاقُهُمْ لَهَا خَاضِعِينَ } [الشعراء : ٤]"(٣).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: تعنت هؤلاء المكذبين؛ حيث احتجوا بهذا أن الله لم ينزل عليهم آية، وأيم الله أن هذه الدعوى باطل، فإن آيات النبي ﷺ مشاهدة معلومة:

- فمن آياته العظيمة هذا القرآن الذي جعل كبار قريش يتسللون لواذًا في الليل ليستمعوا قراءة النبي ﷺ؛ لأنها سحرت ألبابهم وأعجبتهم إعجابًا كثيرًا لكنهم معاندون.
- ومن الآياتالحسية : ما حصل لعمه أبي طالب من البركات في أهله وماله بسبب حضانته للنبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم.
- كذلك أيضًا صد أعدائه عنه عليه الصلاة والسلام، (وَجَعَلْنَا مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ سَدًّا وَمِنْ خَلْفِهِمْ سَدًّا فَأَغْشَيْنَاهُمْ فَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ) [يس: ٩]، والآيات كثيرة يعرفونها لكنهم مستكبرون.

٢- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: استكبار هؤلاء وترفعهم؛ حيث قالوا: (مِنْ رَبِّهِ) لم يقولوا: من ربنا، ولم يقولوا: من الله، كأنهم في جانب والرسولُ صلى الله عليه وعلى آله وسلم واللهُ في جانب آخر.

٣- ومنها: انتصار الله عز وجل للنبي ﷺ؛ حيث يدافع عنه لما قالوا: (لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ)، لا شك أن هذا يوجب ضغطًا على الرسول عليه الصلاة والسلام، فالله تعالى يجيب عنه انتصارًا له (قُلْ إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً).

٤- ومنها: إثبات قدرة الله عز وجل؛ لقوله: (إِنَّ اللَّهَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً)، هذه القدرة قدرة كاملة لا يلحقها شيء من العجز؛ لقول الله تبارك وتعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا) [فاطر ٤٤]، فلكمال علمه وقدرته لا يعجزه شيء؛ لأن العجز عن الشيء سببه؛ إما الجهل وإما الضعف، فالله عليم قدير.

٥- ومنها: أن أفعال الله عز وجل مقرونة بمشيئته؛ بمعنى أن ما لم يشأه لم يكن وإن كان قادرًا عليه؛ لقوله: (قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنَزِّلَ آيَةً) يعني: ولكنه لم يشأ.

٦- ومنها: أن أكثر هؤلاء المنكرين المكذبين لا يعلمون حقيقة الأمر؛ لأنهم لم يتفكروا، ولو تفكروا لعلموا لكنهم معرضون.

القرآن

{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨)} [الأنعام : ٣٨]

التفسير:

---

(١) تفسير القرطبي:٤١٩/٦.

(٢) تفسير الطبري:٣٤٣/١١.

(٣) تفسير ابن كثير:٢٥٣/٣.

ليس في الأرض حيوان يَدِبُّ على الأرض أو طائر يطير في السماء بجناحيه إلا جماعات متجانسة الخلق مثلكم. ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئًا إلا أثبتناه، ثم إنهم إلى ربهم يحشرون يوم القيامة، فيحاسب الله كلا بما عمل.

قوله تعالى:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام : ٣٨]، أي:"ليس في الأرض حيوان يَدِبُّ على الأرض أو طائر يطير في السماء بجناحيه إلا جماعات متجانسة الخلق مثلكم"(١).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء المعرضين عنك ، المكذبين بآيات الله : أيها القوم ، لا تحسبُنَّ الله غافلا عما تعملون ، أو أنه غير مجازيكم على ما تكسبون! وكيف يغفل عن أعمالكم ، أو يترك مجازاتكم عليها ، وهو غير غافل عن عمل شيء دبَّ على الأرض صغيرٍ أو كبيرٍ، ولا عمل طائر طار بجناحيه في الهواء ، بل جعل ذلك كله أجناسًا مجنَّسة وأصنافًا مصنفة، تعرف كما تعرفون ، وتتصرف فيما سُخِّرت له كما تتصرفون"(٢).

قال الزجاج:"وقال:{يطير بجناحيه} على جهة التوكيد لأنك قد تقول للرجل: طر في حاجتي أي أسرع، وجميع ما خلق الله عز وجل فليس يخلو من هاتين المنزلتين، إما أن يدب أو يطير، {إلا أمم أمثالكم}، أي: في الخلق والموت والبعث"(٣).

قال الواحدي:"يعني: جميع الحيوانات لأنها لا تخلوا من هاتين الحالتين، {إلاَّ أمم أمثالكم} أصناف مصنَّفة تُعرف بأسمائها فكلُّ جنس من البهائم أُمَّة كالطَّير والظِّباء والذُّباب والأسود وكلُّ صنفٍ من الحيوان أُمَّة مثل بني آدم يعرفون بالإنس"(٤).

قال ابو هلال العسكري:"لما جعلها أمثالهم في الخلق والموت والبعث، جعلها أمما"(٥).

عن مجاهد في قوله : " {أمم أمثالكم}، أصناف مصنفة تُعرَف بأسمائها"(٦).

قال قتادة:" يقول : الطير أمة ، والإنس أمة ، والجن أمة"(٧).

قال السدي:"يقول : إلا خلق أمثالكم"(٨).

قال ابن جريج:"الذرّة فما فوقها من ألوان ما خلق الله من الدواب"(٩).

قال ابو الحسن:"الدابة: كل ما دب من الحيوان، معنى قوله: {إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} ، أي: في الحاجة وشدة الفاقة إلى مدبر يدبرهم في أغذيتهم وكسبهم ونومهم ويقظتهم وما أشبه ذلك"(١٠).

قال القرطبي:"و{دابة} تقع على جميع ما دب، وخص بالذكر ما في الأرض دون السماء لأنه الذي يعرفونه ويعاينونه. وقيل: هي أمثال لنا في التسبيح والدلالة، والمعنى: وما من دابة ولا طائر إلا وهو يسبح الله تعالى، ويدل على وحدانيته لو تأمل الكفار"(١١).

قال الماوردي:«الدَابَّة»:" يعني: جميع الحيوان الذي أنشأه فيها، سماه {دابة} لدبيبه عليها"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:٥٢٥/١.
(٢) تفسير الطبري:٣٤٤/١١.
(٣) معاني القرىن:٢٤٥/٢.
(٤) الوجيز:٣٥٢.
(٥) الوجوه والنظائر:٣٧.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٢١١):ص٣٤٥/١١.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٢١٢):ص٣٤٥/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٢١٣):ص٣٤٥/١١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٢١٤):ص٣٤٥/١١.
(١٠) النكت في القرآن الكريم:٢١٥.
(١١) تفسير القرطبي:٤٢٠/٦.
(١٢) النكت والعيون:٢١٧/١، وانظر: المحرر الوجيز: ٢٣٣/١، وتفسير القرطبي: ١٩٧/٢.

قال القرطبي: "وقد أخرج بعض الناس الطير، وهو مردود قال الله تعالى : {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا} [هود : ٦] فإن الطير يدب على رجليه في بعض حالاته"[١] ، ومنه قول الأعشى[٢]:

نياف كغض البان ترتجّ إنْ مشتْ دبيب قطا البطحاء في كل منهل

وقال علقمة بن عبدة[٣] :

فكأنما صَابَتْ عليه سحابة صواعقها لطيرهن دبيب

وقال الحافظ ابن حجر: " الدابة: ما دبّ من الحيوان"[٤]، واستثنى بعضهم[٥] الطير لقوله تعالى: {وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ} [الأنعام: ٣٨]، ولقوله تعالى: {مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا} [هود: ٥٦]، وعرفاً: ذوات الأربع[٦]، وقيل: يختص بالفرس[٧]، وقيل: بالحمار[٨]، والمراد هنا المعنى اللغوي"[٩]، أي: كل ما دب على الأرض من كائن له روح ليفيد العموم.

وفي قوله تعالى:{إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام : ٣٨]، قولان:

أحدهما : أنها الجماعات. قاله الأخفش[١٠]، وغيره[١١].

والثاني : أنها الأجناس ، قاله الفراء[١٢]، وأبو عبيدة[١٣].

قال أبو عبيدة:"إلا أجناس يعبدون الله، ويعرفونه، وملك"[١٤].

قال الماوردي:"وليس يريد بقوله{أَمْثَالُكُم} في التكليف كما جعل قوم اشتبه الظاهر عليهم وتعلقوا مع اشتباه الظاهر برواية أبي ذر ، قال : «انتطحت شاتان عند النبي -صلى الله عليه وسلم- ، فقال : يا أبا ذر أتدري فيم انتطحتا ؟ قلت : لا ، قال : لَكِنَّ اللَّهَ يَدْرِي وَسَيَقْضِي بَيْنَهُمَا، قال أبو ذر : لقد تركنا رسول الله -صلى الله عليه وسلم- وما يقلب طائر بجناحيه في السماء إلا ذكرنا منه علماً»[١٥]، لأنه إذا كان العقل سبباً للتكليف كان عدمه لارتفاع التكليف"[١٦].

والمراد بقوله تعالى:{أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام : ٣٨]، ثلاثة وجوه[١٧]:

---

(١) تفسير القرطبي: ١٩٧/٢، وانظر: المحرر الوجيز:٣٥/٢،والبحرالمحيط: ٤٥٥/١.

(٢) ديوانه: ١٦١ ، والبحر المحيط: ٦٢٩/١، والدر المصون: ٤٢٤/١.

(٣) المفضليات: ٣٩٥، واللسان (صوب). والبيت في مفضليته التي مطلعها:

طحا بك قلب في الحسان طروب بعيد الشباب عصر حان مشيب

(٤) انظر: لسان العرب لابن منظور: ١٣١٤/٢، معاني القرآن وإعرابه للزجاج: ٥٠/٤، المفردات للراغب: ١٦٤، الوسيط للواحدي: ٢٤٧/١، النكت والعيون للماوردي: ٢١٧/١، المحرر الوجيز لابن عطية: ٣٥/٢، الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: ١٩٦/٢-١٩٧، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٥٥/١، تاج العروس للزبيدي: ٤٧٨/١، الدر المصون للسمين: ٥٢/٣.

(٥) ويقصد به الإمام الطبري:٢٧٥/٣، و ظاهر كلام الرازي في مفاتيح الغيب: ٢٢٢/١٢.

(٦) لم أهتد إلى من ذكر هذا العرف مع البحث، والذي في لسان العرب: ١٣١٤/٢: (والدابة: التي تركب، قال: وقد غلب هذا الاسم على ما يركب من الدواب)، وما يركب أخص من ذوات الأربع، وانظر: الصحاح للجوهري: ١٢٤/١، وتاج العروس للزبيدي: ٤٧٨/١، عمدة القاري للعيني: ١٧٨/١٠.

(٧) قاله: الراغب في المفردات: ١٦٤.

(٨) لم أهتدِ إلى من ذكره.

(٩) الفتح: ٤٠٠/٦.

(١٠) انظر: معاني القرىن:٢٩٩/١.

(١١) انظر: النكت والعيون:١١١/٢.

(١٢) حكاه عنه الماوردي في: النكت والعيون:١١١/٢، ولفظه في معاني القرآن٣٣٢/١:"يقال: إن كل صنف من البهائم أمة، والعرب تقول صنف".

(١٣) انظر: مجاز القرآن:١٩١/١.

(١٤) مجاز القرآن:١٩١/١.

(١٥) أخرجه الطبري(١٣٢٢٤):ص٣٤٨/١١.

(١٦) النكت والعيون:١١١/٢.

(١٧) انظر: النكت والعيون:١١٢/٢، وتفسير السمعاني:١٠١/٢.

أحدها : أنها أجناس وتتميز في الصور والأسماء .
والثاني : أنها مخلوقة لا تُظْلَم ، ومرزوقة لا تُحْرَم .
والثالث: يعني: في العلم بالضار والنافع، والتوقي عن الهلاك، ومعرفة العدو.

قال السمعاني:المراد"أنها أمثالكم في الخلق، والموت، والبعث، يعني: يخلقها كما يخلقكم، ويميتها كما يميتكم ويبعثها كما يبعثكم"(١).

قال الزمخشري:"{أمم أمثالكم}: مكتوبة أرزاقها وآجالها وأعمالها كما كتبت أرزاقكم وآجالكم وأعمالكم"(٢).

قال القرطبي:"{إلا أمم أمثالكم}، أي: هم جماعات مثلكم في أن الله عز وجل خلقهم، وتكفل بأرزاقهم، وعدل عليهم، فلا ينبغيأن تظلموهم، ولا تجاوزوا فيهم ما أمرتم به"(٣).

قال الطبري:"فإن قال قائل : فما وجهُ قوله : {ولا طائر يطير بجناحيه}؟ وهل يطير الطائر إلا بجناحيه ؟ فما في الخبر عن طيرانه بالجناحين من الفائدة ؟

قيل : قد قدمنا القول فيما مضى أن الله تعالى ذكره أنزل هذا الكتاب بلسان قوم ، وبلغاتهم وما يتعارفونه بينهم ويستعملونه في منطقهم خاطبهم. فإذ كان من كلامهم إذا أرادوا المبالغة في الكلام أن يقولوا : كلمت فلانًا بفمي، ومشيت إليه برجلي، وضربته بيدي، خاطبهم تعالى بنظير ما يتعارفونه في كلامهم ، ويستعملونه في خطابهم ، ومن ذلك قوله تعالى ذكره : {إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً أُنْثَى} [سورة ص : ٢٣]"(٤).

قال الزمخشري:"معنى زيادة قوله :{في الأرض ويطير بجناحيه}: زيادة التعميم والإحاطة، كأنه قيل: وما من دابة فقط في جميع الأرضين السبع، وما من طائر قط في جو السماء من جميع ما يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم محفوظة أحوالها غير مهمل أمرها. فإن قلت: فما الغرض في ذكر ذلك؟ قلت: الدلالة على عظم قدرته، ولطف علمه، وسعة سلطانه وتدبيره تلك الخلائق المتفاوتة الأجناس، المتكاثرة الأصناف، وهو حافظ لما لها وما عليها، مهيمن على أحوالها، لا يشغله شأن عن شأن، وأن المكلفين ليسوا بمخصوصين بذلك دون من عداهم من سائر الحيوان"(٥).

قال القرطبي:"{بجناحيه} تأكيد وإزالة للإبهام، فإن العرب تستعمل الطيران لغير الطائر، تقول للرجل: طرفي حاجتي، أي أسرع، فذكر {بجناحيه} ليتمحض القول في الطير، وهو في غيره مجاز.

وقيل: إن اعتدال جسد الطائر بين الجناحين يعينه على الطيران، ولو كان غير معتدل لكان يميل، فأعلمنا أن الطيران بالجناحين و{مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ال} [النحل : ٧٩].

و«الجناح»: أحد ناحيتي الطير الذي يتمكن به من الطيران في الهواء، وأصله الميل إلى ناحية من النواحي، ومنه جنحت السفينة إذا مالت إلى ناحية الأرض لاصقة بها فوقفت. وطائر الإنسان عمله، وفي التنزيل:{وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ} [الإسراء : ١٣]"(٦).

وقرأ ابن أبى عبلة: «ولا طائر»، بالرفع على المحل، كأنه قيل:وما دابة ولا طائر.وقرأ علقمة: «ما فرطنا»، بالتخفيف(٧).

قوله تعالى:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٣٨]، أي:"ما تركنا في اللوح المحفوظ شيئًا إلا أثبتناه"(٨).

---

(١) تفسير السمعاني:١٠١/٢.
(٢) الكشاف:٢١/٢.
(٣) تفسير القرطبي:٤١٩/٦-٤٢٠.
(٤) تفسير الطبري:٣٤٩/١١.
(٥) الكشاف:٢١/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٤١٩/٦.
(٧) انظر: الكشاف:٢١/٢.
(٨) التفسير الميسر:٥٢٥/١.

قال ابن عباس:"ما تركنا شيئًا إلا قد كتبناه في أم الكتاب"(١).
قال ابن زيد:"لم نُغفِل الكتاب ، ما من شيء إلا وهو في الكتاب"(٢).
قال الطبري:"معناه : ما ضيعنا إثبات شيء منه"(٣).
قال أبو عبيدة:"ما تركنا ولا ضيعنا ولا خلقنا"(٤).
قال ابن ابي زمنين:"من آجالها وأعمالها وأرزاقها وآثارها؛ أي: أن ذلك كله مكتوب عند الله"(٥).

قال الواحدي:أي:" ما تركنا في الكتاب من شيءٍ بالعباد إليه حاجةٌ إلاَّ وقد بيَّناه إمَّا نصّاً وإمَّا دلالة وإمَّا مجملاً وإمَّا مفصَّلاً كقوله: {وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} أيْ: لكلِّ شيء يحتاج إليه من أمر الدِّين"(٦).

قال الزمخشري:يعني"في اللوح المحفوظ من شيء من ذلك لم نكتبه ولم نثبت ما وجب أن يثبت مما يختص به"(٧).

قال القرطبي:"أي: في اللوح المحفوظ فإنه أثبت فيه ما يقع من الحوادث. وقيل: أي في القرآن أي ما تركنا شيئا من أمر الدين إلا وقد دللنا عليه في القرآن، إما دلالة مبينة مشروحة، وإما مجملة يتلقى بيانها من الرسول عليه الصلاة والسلام، أو من الإجماع، أو من القياس الذي ثبت بنص الكتاب، قال الله تعالى:{وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ} [النحل : ٨٩]، وقال:{وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ} [النحل : ٤٤]، وقال:{وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا} [الحشر : ٧]، فأجمل في هذه الآية وآية «النحل» ما لم ينص عليه مما لم يذكره، فصدق خبر الله بأنه ما فرط في الكتاب من شي إلا ذكره، إما تفصيلا وإما تأصيلا، وقال:{الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ} [المائدة : ٣]"(٨).

وفي قوله تعالى:{مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٣٨]، ثلاثة أقوال:
أحدها : ما تركنا خلقاً إلا أوجبنا له أجلاً ، والكتاب هنا هو إيجاب الأجل كما قال تعالى :{لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ} [الرعد : ٣٨] قاله ابن بحر(٩) وأنشد لنابغة بني جعدة(١٠):
بلغو الملوك وأدركوا الـ ... كتاب وانتهى الأجل
والثاني : وهو قول الجمهور(١١): أن الكتاب هو القرآن الكريم الذي أنزله ، ما أخل فيه بشيء من أمور الدين ، إما مُفَصَّلاً يَسْتَغْني عن التفسير ، أو مجْمَلاً جعل إلى تفسيره سبيلاً .
والثالث: ما فرطنا فيه بدخول خلل عليه ، أو وجود نقص فيه ، فكتاب الله سليم من النقص والخلل . افاده الماوردي(١٢).
والرابع: أنه ذكر فيه جميع الاحتجاجات على مخالفيه. أفاده ابو الحسن(١٣).

قال السمعاني:"فإن قال قائل: نرى كثيرا من الأحكام ليست في الكتاب، فما معنى قوله: {ما فرطنا في الكتاب من شيء} ؟ قيل: ما من شيء إلا وأصله في الكتاب، وقيل: ما قاله الرسول، فإنما قاله من الكتاب؛ لأنه قد قال في خبر معروف: " أوتيت القرآن ومثله " وقد قال

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٢١٦):ص٣٤٥/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٢١٧):ص٣٤٥/١١-٣٤٦.
(٣) تفسير الطبري:٣٤٥/١١.
(٤) مجاز القرآن:١٩١/١.
(٥) تفسير ابن ابي زمنين:٦٧/٢.
(٦) الوجيز:٣٥٢.
(٧) الكشاف:٢١/٢.
(٨) تفسير القرطبي:٤٢٠/٦.
(٩) انظر: النكت والعيون:١١٢/٢.
(١٠) البيت في النكت والعيون:١١٢/٢.
(١١) انظر: النكت والعيون:١١٢/٢.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١١٢/٢.
(١٣) انظر: النكت في القرآن الكريم:٢١٥.

الله - تعالى - :{وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى(٣)إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم : ٣-٤]، فكل ما ثبت بالسنة؛ فكأنه ثابت في الكتاب، وقيل: معناه: ما فرطنا في الكتاب من شيء تقع الحاجة إليه"(١).

قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام : ٣٨]، أي:"ثم إنهم إلى ربهم يحشرون يوم القيامة، فيحاسب الله كلا بما عمل"(٢).

قال الواحدي:"أيْ: هذه الأمم {يحشرون} للحساب والجزاء"(٣).

قال الزمخشري:"يعنى: الأمم كلها من الدواب والطير فيعوضها وينصف بعضها من بعض"(٤).

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ} [الأنعام : ٣٨]، وجهان:

أحدهما: أن الحشر الجمع لبعث الساعة. وهذا قول أبي ذر(٥)، وابي هريرة(٦)، والحسن(٧) وغيرهم.

قال أبو ذر: "بينا أنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ انتطحت عنزان ، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون فيما انتطحتا ؟ قالوا : لا ندري! قال : لكن الله يدري ، وسيقضي بينهما"(٨).

قال أبو هريرة:"يحشر الله الخلق كلهم يوم القيامة ، البهائمَ والدوابَّ والطيرَ وكل شيء ، فيبلغ من عدل الله يومئذ أن يأخذَ للجمَّاء من القَرْناء ، ثم يقول : كوني ترابًا، فلذلك يقول الكافر : يَا لَيْتَنِي كُنْتُ تُرَابًا [سورة النبأ : ٤٠]"(٩).

والثاني : أن المراد بالحشر الموت ، قاله ابن عباس(١٠)، والضحاك(١١)، واختاره الفراء(١٢).

قال الفراء:"حشرها: موتها، ثم تحشر مع الناس فيقال لها:كوني ترابا. وعند ذلك يتمنى الكافر أنه كان ترابا مثلها(١٣).

قال القرطبي:"والأول أصح لظاهر الآية والخبر الصحيح، وفي التنزيل:{وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ} [التكوير : ٥]، وقالت جماعة: هذا الحشر الذي في الآية يرجع إلى الكفار وما تخلل كلام معترض وإقامة حجج، وأما الحديث فالمقصود منه التمثيل على جهة تعظيم أمر الحساب والقصاص والاعتناء فيه حتى يفهم منه أنه لا بد لكل أحد منه، وأنه لا محيص له عنه، وعضدوا هذا بما في الحديث في غير الصحيح عن بعض رواته من الزيادة فقال: حتى يقاد للشاة الجلحاء من القرناء، وللحجر لما ركب على الحجر، وللعود لما خدش العود، قالوا: فظهر من هذا أن المقصود منه التمثيل المفيد للاعتبار والتهويل، لأن الجمادات لا يعقل خطابها ولا ثوابها ولا عقابها، ولم يصر إليه أحد من العقلاء، ومتخيله من جملة المعتوهين الأغبياء، قالوا: ولأن القلم لا يجري عليهم فلا يجوز أن يؤاخذوا. قلت: الصحيح القول الأول لما ذكرناه من حديث أبي هريرة، وإن كان القلم لا يجري عليهم في الأحكام ولكن فيما بينهم يؤاخذون به"(١٤).

---

(١) تفسير السمعاني:١٠١/٢-١٠٢.
(٢) التفسير الميسر:٥٢٥/١.
(٣) الوجيز:٣٥٢.
(٤) الكشاف:٢١/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٢٣):ص٣٤٧/١١-٣٤٨.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٢٢):ص٣٤٧/١١.
(٧) انظر: تفسير القرطبي:٤٢١/٦.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٢٢٣):ص٣٤٧/١١-٣٤٨.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٢٢٢):ص٣٤٧/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٢١٩):ص٣٤٦/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٢١):ص٣٤٦/١١-٣٤٧.
(١٢) انظر: معاني القرآن:٣٢٣/١.
(١٣) معاني القرآن:٣٢٣/١.
(١٤) تفسير القرطبي:٤٢١/٦.

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك عندي أن يقال : إن الله تعالى ذكره أخبر أنّ كل دابة وطائر محشورٌ إليه. وجائز أن يكون معنيًّا بذلك حشر القيامة وجائز أن يكون معنيًّا به حشر الموت وجائز أن يكون معنيًّا به الحشران جميعًا ، ولا دلالة في ظاهر التنزيل ، ولا في خبر عن النبي صلى الله عليه وسلم أيُّ ذلك المراد بقوله : {ثم إلى ربهم يحشرون} ، إذ كان «الحشر»، في كلام العرب الجمع ، ومن ذلك قول الله تعالى ذكره : {وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ} [سورة ص : ١٩] ، يعني : مجموعة. فإذ كان الجمع هو «الحشر»، وكان الله تعالى ذكره جامعًا خلقه إليه يوم القيامة ، وجامعهم بالموت ، كان أصوبُ القول في ذلك أن يُعَمَّ بمعنى الآية ما عمه الله بظاهرها وأن يقال : كل دابة وكل طائر محشورٌ إلى الله بعد الفناء وبعد بعث القيامة ، إذ كان الله تعالى ذكره قد عم بقوله : {ثم إلى ربهم يحشرون}، ولم يخصص به حشرًا دون حشر"(١).

قال الماوردي:"فإن قيل :فإذا كانت غير مُكَلَّفَةٍ فلماذا تبعث يوم القيامة؟

قيل : ليس التكليف علة البعث ، لأن الأطفال والمجانين يبعثون وإن كانوا في الدنيا غير مكلفين ، وإنما يبعثها ليعوض ما استحق العوض منها بإيلام أو ظلم ، ثميجعل ما يشاء منها تراباً ، وما شاء من دواب الجنة يتمتع المؤمنون بركوبه ورؤيته "(٢).

قال السمعاني:"ولا شك في حشر البهائم والحيوانات يوم القيامة، حتى روى: «أن الله - تعالى - يحشرها ويقتص للجماء من القرناء»(٣)، وروى أبو ذر: «أن النبي رأى شاتين تنتطحان؛ فقال: يا أبا ذر، أتدري فيما تنتطحان؟ فقلت: لا. فقال لكن الله يدري، وسيقضي بينهما»(٤)، وأمثال هذا كثير، وسبيل الناس أن يؤمنوا به، ويكلوا علمه إلى الله - تعالى - فإنه شيء لا تهتدي إليه العقول، وعلى هذه الآية حكاية: حكي أن بهلول المجنون رأى أبا يوسف القاضي في الطريق؛ فسأله وقال: إن الله - تعالى - يقول:{وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ} [الأنعام : ٣٨]، ثم يقول: {وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ} [فاطر : ٢٤]، فما نذير الكلاب؟ فتحير أبو يوسف عن الجواب، فأخذ بهلول حجرا من الأرض، وقال: هذا نذير الكلاب"(٥).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه ما من حيوان يدب على الأرض أو يطير في السماء إلا وهو مكتوب عند الله عز وجل.
٢- ومنها: أن القرآن الكريم جاء بالأسلوب العربي، بمعنى أنه جرى على ما ينطق به العرب في لغتهم، فإذا كان من عادة العرب مثلًا أن يؤكدوا الشيء بما يزيده قوة جاء به القرآن؛ ولذلك تجدون في القرآن الكريم كثيرًا من الإقسامات على الشيء، (وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ) [الطارق ١]، (وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ) [البروج ١]، وما أشبه ذلك، وهذا ليس لشك فيما أخبر الله به؛ لأن الله تعالى صادق سواء أقسم أم لا، لكن القرآن الكريم نزل بلسان عربي مبين فجرى في التعبير على ما كان العرب يعبرون به.

---

(١) تفسير الطبري:٣٤٩/١١.

(٢) النكت والعيون:١١٢/٢-١١٣.

(٣) الحديث: عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: " لتؤدن الحقوق إلى أهلها يوم القيامة، حتى يقتص للشاة الجماء من الشاة القرناء نطحتها ". صحيح أخرجه احمد(٧٢٠٤):ص١٣٧/١٢، والبخاري في "الأدب المفرد" (١٨٣)، ومسلم(٢٥٨٢)في البر والصلة: باب تحريم الظلم، والترمذي(٢٤٢٠)في صفة القيامة: باب ما جاء في شأن الحساب والقصاص.

ويروى "إنه ليبلغ من عدل الله يوم القيامة يقتص للجماء من ذات القرن ". أخرجه الطبرانى فى الأوسط (١٦٣/٩ رقم ٩٤٢٨) عن ابن أبى أوفى.

قال الهيثمى (٣٥٣/١٠) : فيه من لم أعرفهم وعطاء بن السائب اختلط.

و " الجماء " : الشاة إذا لم تكن ذات قرن. و " القرناء " : الشاة الكبيرة القرن

(٤) أخرجه الطبري(١٣٢٢٣):ص٣٤٧/١١-٣٤٨.

(٥) تفسير السمعاني:١٠٢/٢.

٣- ومنها: أن الإنسان يجب أن يعرف قدر نفسه، فهو بالنسبة لعظمة الله عز وجل كالنملة، (أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ)، إذن لا تترفع ولا تتعالَ، ما أنت إلا مثل هذه الدواب بالنسبة لعظمة الله عز وجل، وإن كان الله عز وجل قال: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) [الإسراء ٧٠]، لم يفضل بنو آدم على كل ما خلق الله، بل على كثير مما خلق الله، وما يفهمه بعض الناس من أن بني آدم هم أفضل المخلوقات فخطأ، لماذا؟

٤- ومنها: أن الله عز وجل لم يهمل شيئًا في اللوح المحفوظ، كل شيء كتبه؛ لقوله: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ)، ولأن الله تعالى أمره -أي أمر القلم- أن يكتب ما هو كائن إلى يوم القيامة.

٥- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن مآل هذه المخلوقات الطائرة والزاحفة إلى الله عز وجل، (ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ).

القرآن

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (٣٩)} [الأنعام : ٣٩]

التفسير:

والذين كذبوا بحجج الله تعالى صمٌّ لا يسمعون ما ينفعهم، بُكْمٌ لا يتكلمون بالحق، فهم حائرون في الظلمات، لم يختاروا طريقة الاستقامة. من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ هدايته يجعله على صراط مستقيم.

سبب النزول:

قال مقاتل:"{مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ}عن الهدى، نزلت في بني عبد الدار ابن قصي،{وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ}، يعني: على دين الإسلام، منهم علي بن أبي طالب، والعباس، وحمزة، وجعفر"(١).

قال ابن عطية:"{ولكن الذين كذبوا صم وبكم}..ظاهر الآية أنها تعم كل مكذب، وقال النقاش نزلت في بني عبد الدار"(٢).

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنعام : ٣٩]، أي:"والذين كذبوا بحجج الله تعالى"(٣).

قال الطبري:يقول:"والذين كذبوا بحجج الله وأعلامه وأدلته "(٤).

قال مقاتل:"{بآياتنا}، يعني: القرآن"(٥).

قال السمرقندي:"{بآياتنا} يعني: محمدا صلى الله عليه وسلم والقرآن"(٦).

قوله تعالى:{صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ} [الأنعام : ٣٩]، أي:"صمٌ لا يسمعون كلام الله سماع قبول بكمٌ لا ينطقون بالحق خابطون في ظلمات الكفر"(٧).

عن قتادة:"{صم وبكم}، هذا مثل الكافر، أصم أبكم، لا يبصر هدًى، ولا ينتفع به، صَمَّ عن الحق في الظلمات، لا يستطيع منها خروجًا، متسكّع فيها"(٨).

قال مقاتل:"{صم} لا يسمعون الهدى،{وبكم}، لا يتكلمون به،{في الظلمات} يعني: الشرك"(١).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.
(٢) المحرر الوجيز:٢٩٠/٢.
(٣) التفسير الميسر:١٣٢.
(٤) تفسير الطبري:٣٥٠/١١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.
(٦) بحر العلوم:٤٤٧/١.
(٧) صفوة التفاسير:٣٦١/١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٢٢٥):ص٣٥١/١١، وابن أبي حاتم(٧٢٦٣)، و(٧٢٦٤):ص١٢٨٦/٤-١٢٨٧.

قال السمرقندي:"{صم} عن الخبر فلا يسمعون الهدى،{وبكم}، يعني: خرسا فلا يتكلمون بخير،{في الظلمات}، يعني: في الضلالات"(٢).

قال البغوي:{صُمٌّ وَبُكْمٌ}: أي:" لا يسمعون الخير ولا يتكلمون به، {في الظلمات} في ضلالات الكف"(٣).

قال أبو عبيدة:"مثل للكفار، لأنهم لا يسمعون الحق والدين وهم قد يسمعون غيره، وبكم لا يقولونه، وهم ليسوا بخرس"(٤).

قال القرطبي:"أي: عدموا الانتفاع بأسماعهم وأبصارهم، فكل أمة من الدواب وغيرها تهتدي لمصالحها والكفار لا يهتدون، {في الظلمات}، أي: ظلمات الكفر، وقال أبو علي: يجوز أن يكون المعنى {صم وبكم} في الآخرة، فيكون حقيقة دون مجاز اللغة"(٥).

قال ابن كثير:"أي : مثلهم في جهلهم وقلة علمهم وعدم فهمهم كمثل أصم - وهو الذي لا يسمع - أبكم - وهو الذي لا يتكلم - وهو مع هذا في ظلام لا يبصر ، فكيف يهتدي مثل هذا إلى الطريق ، أو يُخْرج مما هو فيه ؟ كما قال تعالى : { مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لا يُبْصِرُونَ * صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ} [البقرة : ١٧ ، ١٨} وكما قال تعالى: { أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ } [النور : ٤٠]"(٦).

قال الطبري:يقول:"{صمٌّ}، عن سماع الحق،{بكم}، عن القيل به ،{في الظلمات}، يعني: في ظلمة الكفر حائرًا فيها، يقول: هو مرتطم في ظلمات الكفر، لا يبصر آيات الله فيعتبر بها، ويعلم أن الذي خلقه وأنشأه فدبَّره وأحكم تدبيره، وقدَّره أحسن تقدير، وأعطاه القوة، وصحح له آلة جسمه لم يخلقه عبثًا، ولم يتركه سدًى، ولم يعطه ما أعطاه من الآلات إلا لاستعمالها في طاعته وما يرضيه، دون معصيته وما يسخطه. فهو لحيرته في ظلمات الكفر، وتردّده في غمراتها، غافلٌ عمَّا الله قد أثبت له في أمّ الكتاب، وما هو به فاعلٌ يوم يحشر إليه مع سائر الأمم"(٧).

قال الزمخشري:"فإن قلت: كيف أتبعه قوله:{والذين كذبوا بآياتنا}؟

قلت: لما ذكر من خلائقه وآثار قدرته ما يشهد لربوبيته وينادى على عظمته قال: والمكذبون {صم} لا يسماعون كلام المنبه، {بكم} لا ينطقون بالحق، خابطون في ظلمات الكفر، فهم غافلون عن تأمل ذلك والتفكر فيه"(٨).

قوله تعالى:{مَنْ يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام : ٣٩]، أي:"من يشأ الله إضلاله يضلله، ومن يشأ هدايته يجعله على صراط مستقيم"(٩).

قال ابن كثير:"أي : هو المتصرف في خلقه بما يشاء"(١٠).

قال السمرقندي:"{من يشأ الله يضلله}، يعني: يخذله فيموت على الكفر،{ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}، يعني:يستنقذه من الكفر فيوفقه للإسلام"(١١).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.
(٢) بحر العلوم:٤٤٧/١.
(٣) تفسير البغوي:١٤٢/٣.
(٤) مجاز القرآن:١٩١/١.
(٥) تفسير القرطبي:٤٢٢/٦.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٥٥/٣.
(٧) تفسير الطبري:٣٥٠/١١.
(٨) الكشاف:٢٢/٢.
(٩)التفسير الميسر:١٣٢.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٥٥/٣.
(١١) بحر العلوم:٤٤٧/١.

قال القرطبي:قوله:"{من يشأ الله يضلله} دل على أنه شاء ضلال الكافر وأراده لينفذ فيه عدله. ألا ترى أنه قال: {وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} [الأنعام : ٣٩]، أي: على دين الإسلام لينفذ فيه فضله. وفيه إبطال لمذهب القدرية، والمشيئة راجعة إلى «الذين كذبوا»، فمنهم من يضله ومنهم من يهديه"(١).

قال البيضاوي:يعني:"من يشأ الله إضلاله يضلله، وهو دليل واضح لنا على المعتزلة، {ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم}، بأن يرشده إلى الهدى ويحمله عليه"(٢).

قال الطبري:"ثم أخبر تعالى ذكره أنه المضِلّ من يشاء إضلاله من خلقه عن الإيمان إلى الكفر، والهادي إلى الصراط المستقيم منهم من أحبَّ هدايته، فموفّقه بفضله وطَوْله للإيمان به، وترك الكفر به وبرسله وما جاءت به أنبياؤه، وأنه لا يهتدي من خلقه أحد إلا من سبق له في أمّ الكتاب السعادة، ولا يضل منهم أحد إلا من سبق له فيها الشقاء، وأنّ بيده الخير كلُّه، وإليه الفضل كله، له الخلق والأمر"(٣).

قال ابن عطية:"الصراط: الطريق الواضح"(٤).

عن الحارث، قال: "دخلت على علي بن أبي طالب رضي الله عنه، فقال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول:الصراط المستقيم: كتاب الله"(٥).

عن النواس بن سمعان الأنصاري، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: "ضرب الله مثلا صراطا مستقيما، قال: فالصراط: الإسلام"(٦).

وعن عاصم الأحول عن أبي العالية، قال: "«الصراط المستقيم»: هو النبي صلى الله عليه وسلم وصاحباه من بعده. قال عاصم: فذكرنا ذلك للحسن. فقال صدق أبو العالية ونصح"(٧).

وعن مجاهد في قوله: «صراط مستقيم»، قال: الحق"(٨).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان حال الذين كذبوا بآيات الله، وأنه لا سبيل إلى هدايتهم،لأنهم صم لا يسمعون الحق سماع انتفاع، وكذلك في الظلمات، وأنهم لا ينطقون بالحق.

٢- ومنها: أن من شاء الله هدايته اهتدى، ومن شاء إضلاله ضل.

٣- ويتفرع من الفائدة السابقة: أن يلجأ الإنسان إلى ربه تبارك وتعالى بطلب الهداية والاستعاذة من الغواية؛ لأن الأمر بيد الله.

فإن قال قائل: هل هذه المشيئة مشيئة مجردة؛ بمعنى أنه من شاء أن يهديه هداه، ومن شاء أن يضله أضله بدون أي حكمة، أو أنها مشيئة مقرونة بالحكمة؟

فالجواب: الثاني؛ أنها مشيئة مقرونة بحكمة، وهذا هو المتعين؛ لأن جميع أفعال الله تبارك وتعالى وأحكام الله كلها مقرونة بالحكمة، انظر في أحكام الله قال الله تعالى في آية المواريث: (فَرِيضَةً مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [النساء ١١]، وقال تعالى في الأمور القدرية: (وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا) [الإنسان ٣٠]، فلا مشيئة مجردة في أفعال الله ولا أحكامه، بل هي مقرونة بالحكمة، ولكن هل هذه الحكمة معلومة للخلق؟

---

(١) تفسير القرطبي:٤٢٢/٦.
(٢) تفسير البيضاوي:١٦١/٢.
(٣) تفسير الطبري:٣٥٠/١١.
(٤) المحرر الوجيز:٢٩٠/٢.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٦٥):ص١٢٨٧/٤.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٦٦):ص١٢٨٧/٤.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٦٧):ص١٢٨٧/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٦٨):ص١٢٨٧/٤.

الجواب: قد تكون معلومة، وهذا -والحمد لله- هو الأكثر، وقد تكون مجهولة لبعض الناس دون بعض، وقد تكون مجهولة لجميع الناس لا يحيطون بالله علمًا.

وإذا قال قائل: هل للإنسان حجة على الله إذا أضله وهدى آخرين؟فالجواب: لا؛ لأن الهداية فضل من الله عز وجل، وفضل الله يؤتيه من يشاء، وأيضًا الإضلال لا بد أن يكون مبنيًّا على حال العبد؛ لقول الله تعالى: (فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ) [الصف ٥]، ولقوله: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ وَإِنَّ كَثِيرًا مِنَ النَّاسِ لَفَاسِقُونَ) [المائدة ٤٩]، فالحاصل أن الله تعالى يضل من يشاء ويهدي من يشاء لحكمة، ولا بد من أن يكون الإضلال من جراء فعل العبد.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الصراط -وهو دين الإسلام- مستقيم لا اعوجاج فيه، ولا انحراف فيه، ولا شقاء فيه، مستقيم، ويضاف إلى ذلك: ولا تناقض فيه؛ لأنه لو كان فيه تناقض لم يكن مستقيمًا.

القرآن

{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (٤٠)} [الأنعام : ٤٠]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا أو جاءتكم الساعة التي تبعثون فيها: أغير الله تدعون هناك لكشف ما نزل بكم من البلاء، إن كنتم محقين في زعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟

قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ} [الأنعام : ٤٠]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن جاءكم عذاب الله في الدنيا أو جاءتكم الساعة التي تبعثون فيها"[(١)].

عن مجاهد: قوله:"{قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله}، قال: فجاءة آمنين"[(٢)].

قال ابن أبي زمنين:"{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ}، قال الحسن: يعني: في الدنيا بالاستئصال، {أو أتتكم الساعة} بالعذاب"[(٣)].

قال الطبري:أي:" قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بالله الأوثانَ والأصنامَ: أخبروني، إن جاءكم، أيها القوم، عذاب الله، كالذي جاء من قبلكم من الأمم الذين هلك بعضهم بالرجفة، وبعضهم بالصاعقة أو جاءتكم الساعة التي تنشرون فيها من قبوركم، وتبعثون لموقف القيامة"[(٤)].

قال الزجاج:"أي: أتدعون هذه الأصنام والحجارة التي عبدتموها من دون الله، فاحتج الله عليهم بما لا يدفعونه، لأنهم كانوا إذا مسهم الضر دعوا الله"[(٥)].

قال ابن كثير:"يخبر تعالى أنه الفعال لما يريد ، المتصرف في خلقه بما يشاء ، وأنه لا مُعقِّب لحكمه ، ولا يقدر أحد على صرف حكمه عن خلقه ، بل هو وحده لا شريك له ، الذي إذا سئل يجيب لمن يشاء ؛ ولهذا قال : { قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ } أي : أتاكم هذا أو هذا"[(٦)].

قال البغوي: قوله:{أَرَأَيْتَكُمْ}، أي:"هل رأيتم؟ والكاف فيه للتأكيد"[(٧)].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٢.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٦٩):ص١٢٨٧/٤.
(٣) تفسير ابن أبي زمنين:٦٧/٢.
(٤) تفسير الطبري:٣٥٣/١١.
(٥) معاني القرآن:٢٤٦/٢.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٧) تفسير البغوي:١٤٣/٣.

قال الفراء:"العرب لها فى «أرأيت» لغتان، ومعينان:
أحدهما: أن يسأل الرجل الرجل: أرأيت زيدا بعينك؟ فهذه مهموزة. فإذا أوقعتها على الرجل منه قلت: أرأيتك على غير هذه الحال؟ تريد: هل رأيت نفسك على غير هذه الحال. ثم تثنى وتجمع، فتقول للرجلين: أرايتما كما، وللقوم:أرأيتموكم، وللنسوة: أرأيتنكن ، وللمرأة: أرأيتك، تخفض التاء والكاف، لا يجوز إلا ذلك.
والمعنى الآخر: أن تقول: أرأيتك، وأنت تريد: أخبرني وتهمزها، وتنصب التاء منها وتترك الهمز إن شئت، وهو أكثر كلام العرب، وتترك التاء موحدة مفتوحة للواحد والواحدة والجميع مؤنثه ومذكره. فتقول للمرأة: أرايتك زيدا هل خرج، وللنسوة: أرايتكن زيدا ما فعل"[١].
وقرأ أهل المدينة :«أرايتكم»، و«أرايتم»، و«أرايت»، بتليين الهمزة الثانية، والكسائي بحذفها[٢].
قوله تعالى:{أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ} [الأنعام : ٤٠]، أي:"أغير الله تدعون هناك لكشف ما نزل بكم من البلاء"[٣].
قال السمرقندي:أي:"ليدفع عنكم العذاب"[٤].
قال الثعلبي:أي:" في صرف العذاب"[٥].
قال الطبري:يقول:"أغير الله هناك تدعون لكشف ما نزل بكم من البلاء، أو إلى غيره من آلهتكم تفزعون لينجيكم مما نزل بكم من عظيم البلاء؟"[٦].
قال الواحدي:"أيْ: أتدعون هذه الأصنام والأحجار التي عبدتموها من دون الله"[٧].
قال ابن كثير:"أي : لا تدعون غيره لعلمكم أنه لا يقدر أحد على دفع ذلك سواه"[٨].
قال ابن أبي زمنين:"أي: أنكم لا تدعون إلا الله؛ فتؤمنوا حيث لا يقبل الإيمان منكم؛ وقد قضى الله ألا يقبل الإيمان عند نزول العذاب"[٩].
قال الماتريدي:يعني:"في رفع ذلك، وكشفه عنكم، وقوله - تعالى-:{أغير الله تدعون}، يحتمل: حقيقة الدعاء عند نزول الجلاء، ويحتمل: العبادة، أي: أغير الله تعبدون على رجاء الشفاعة لكم، وقد رأيتم أنها لم تشفع لكم عند نزول البلايا"[١٠].
قال السمعاني:"هذا استفهام بمعنى التقرير، يعني: لا تدعون إلا الله، وأراد به في أحوال الضرورات؛ فإن الكفار في حال الضرورات يدعون الله - تعالى - كما قال: {وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله مخلصين له الدين}"[١١].
قال الزمخشري:"بمعنى أتخصون آلهتكم بالدعوة فيما هو عادتكم إذا أصابكم ضر، أم تدعون الله دونها بل إياه تدعون بل تخصونه بالدعاء دون الآلهة"[١٢].
قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأنعام : ٤٠]، أي:"إن كنتم محقين في زعمكم أن آلهتكم التي تعبدونها من دون الله تنفع أو تضر؟"[١٣].

---

(١) معاني القرآن:٣٣٣/١.
(٢) انظر: تفسير البغوي:١٤٢/٣-١٤٣.
(٣) التفسير الميسر:١٣٢.
(٤) بحر العلوم:٤٤٧/١.
(٥) الكشف والبيان:١٤٧/٤.
(٦) تفسير الطبري:٣٥٣/١١.
(٧) الوجيز:٣٥٣.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٩) تفسير ابن أبي زمنين:٦٧/٢.
(١٠) تفسير الماتريدي:٨٢/٤.
(١١) تفسير السمعاني:١٠٣/٢.
(١٢) الكشاف:٢١/٢.
(١٣) التفسير الميسر:١٣٢.

قال الطبري:يقول:"إن كنتم محقّين في دعواكم وزعمكم أنّ آلهتكم التي تدعونها من دون الله تنفع أو تضر"[١].

قال الماتريدي:أي:"أن معه شركاء وآلهة، أو أن ما تعبدون شفعاؤكم عند الله، أو تقربكم عبادتكم إياها إلى الله"[٢].

قال ابن كثير:" أي : في اتخاذكم آلهة معه"[٣].

قال الواحدي:"{إن كنتم صادقين} جوابٌ لقوله: {أرأيتكم} لأنَّه بمعنى أخبروني كأنَّه قيل: إنْ كنتم صادقين أخبروا مَنْ تدعون عند نزول البلاء بكم"[٤].

قال النحاس:"في هذها لآية أعظم الاحتجاج؛ لأنهم كانوا يعبدون الأصنام، فإذا وقعوا في شدة، دعوا الله"[٥].

الفوائد

١- من فوائد الآية الكريمة: تقرير الإنسان بما لا يمكنه دفعه، تقرير الإنسان أن يُقَرر بشيء يقر به لا يمكنه دفعه، وذلك في قوله: (أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ)؛ لأنهم في هذه الحال لا يدعون إلا الله، فإذا كان كذلك فلماذا يخلصون في الشدة ويشركون في الرخاء؟!

٢- ومن فوائد هذه الآية: أنه لا يصرف السوء إلا الله عز وجل، فالإلتجاء إليه وحده في المكاره.

القرآن

{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ (٤١)} [الأنعام : ٤١]

التفسير:

بل تدعون -هناك- ربكم الذي خلقكم لا غيره، وتستغيثون به، فيفرج عنكم البلاء العظيم النازل بكم إن شاء; لأنه القادر على كل شيء، وتتركون حينئذ أصنامكم وأوثانكم وأولياءكم.

قوله تعالى:{بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ} [الأنعام : ٤١]، أي:"بل تدعون -هناك- ربكم الذي خلقكم لا غيره، وتستغيثون به"[٦].

قال الثعلبي:أي:"تخلصون"[٧].

قال البغوي:"أي: تدعون الله ولا تدعون غيره"[٨].

قال ابن عطية:"المعنى: بل لا ملجأ لكم إلا الله"[٩].

قال البيضاوي:أي:"بل تخصونه بالدعاء كما حكي عنهم في مواضع، وتقديم المفعول لإفادة التخصيص"[١٠].

قال السمعاني:"هذا تقرير لما استفهم منه في الآية الأولى، يعني: بل تدعون الله، ولا تدعون غيره"[١١].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره مكذبا لهؤلاء العادلين به الأوثان: ما أنتم أيها المشركون بالله الآلهة والأنداد إن أتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة بمستجيرين بشيء غير الله في حال شدة

(١) تفسير الطبري:٣٥٣/١١.
(٢) تفسير الماتريدي:٨٢/٤.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٤) الوجيز:٣٥٣.
(٥)معاني القرآن: ٢/ ٤٢٢ - ٤٢٣.
(٦) التفسير الميسر:١٣٢.
(٧) الكشف والبيان:١٤٧/٤.
(٨) تفسير البغوي:١٤٣/٣.
(٩) المحرر الوجيز:٢٩١/٢.
(١٠) تفسير البيضاوي:١٦١/٢.
(١١) تفسير السمعاني:١٠٢/٢.

الهول النازل بكم من آلهة ووثن وصنم، بل تدعون هناك ربكم الذي خلقكم وبه تستغيثون وإليه تفزعون دون كل شيء غيره"(١).

قال ابن كثير:"أي : في وقت الضرورة لا تدعون أحدا سواه"(٢).

قال الزجاج:"فأعلمهم الله جل وعز أنهم لا يدعون في حال الشدائد إلا إياه، وفي ذلك أعظم الحجة عليهم، لأنهم قد عبدوا الأصنام"(٣).

قال الواحدي:"{بل}- هاهنا- نفي دعائهم غير الله في الشدائد وإثبات دعائهم إياه"(٤).

قوله تعالى:{فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ} [الأنعام : ٤١]، أي:"فيفرج عنكم البلاء العظيم النازل بكم إن شاء"(٥).

قال الواحدي:"أي: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم"(٦).

قال القرطبي:"أي: يكشف الضر الذي تدعون إلى كشفه إن شاء كشفه"(٧).

قال الزمخشري:" أى: ما تدعونه إلى كشفه،{إن شاء}، إن أراد أن يتفضل عليكم ولم يكن مفسدة "(٨).

قال الطبري:"يقول: فيفرِّج عنكم عند استغاثتكم به وتضرعكم إليه، عظيم البلاء النازل بكم إن شاء أن يفرج ذلك عنكم، لأنه القادر على كل شيء، ومالك كل شيء، دون ما تدعونه إلهًا من الأوثان والأصنام"(٩).

قال الزجاج:"المعنى: فيكشف الضر الذي من أجله دعوتم، وهذا على اتساع الكلام.مثل: سل القرية: المعنى: سل أهل القرية"(١٠).

قال ابن أبي زمنين:" وهذه مشيئة القدرة، ولايشاء أن يكشف عنهم عند نزول العذاب"(١١).

قال البغوي:"قيد الإجابة بالمشيئة، والأمور كلها بمشيئته"(١٢).

قال السمعاني:"قيّد إجابة الدعوة بالمشيئة –هاهنا-، وأطلقها في قوله: {ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ} [غافر : ٦٠]، قال أهل العلم: وذلك مقيد بالمشيئة أيضا، بدليل هذه الآية"(١٣).

قال ابن عطية: "و{إن شاء}: استثناء، لأن المحنة إذا أظلت عليهم فدعوا إليه في كشفها وصرفها فهو لا إله إلا هو كاشف إن شاء ومصيب إن شاء لا يجب عليه شيء"(١٤).

عن جابر بن عبد الله، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:ما من الناس أحد يدعو بدعاء إلا آتاه الله ما سأل، وكف عنه من السوء مثله، ما لم يدع بإثم أو قطيعة رحم"(١٥).

قوله تعالى:{وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ} [الأنعام : ٤١]، أي:"وتتركون حينئذ أصنامكم وأوثانكم وأولياءكم"(١٦).

---

(١) تفسير الطبري:٣٥٣/١١-٣٥٤.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٣) معاني القرآن:٢٤٧/٢.
(٤) التفسير البسيط:١٢٤/٨.
(٥) التفسير الميسر:١٣٢.
(٦) التفسير البسيط:١٢٤/٨.
(٧) تفسير القرطبي:٤٢٣/٦.
(٨) الكشاف:٢١/٢-٢٢.
(٩) تفسير الطبري:٣٥٤/١١.
(١٠) معاني القرآن:٢٤٧/٢.
(١١) تفسير ابن أبي زمنين:٦٨/٢.
(١٢) تفسير البغوي:١٤٣/٣.
(١٣) تفسير السمعاني:١٠٢/٢.
(١٤) المحرر الوجيز:٢٩١/٢.
(١٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٧٠):ص١٢٨٨/٤.
(١٦) التفسير الميسر:١٣٢.

قال القرطبي:"قيل: عند نزول العذاب"[١].
وقال الحسن: "أي تعرضون عنه إعراض الناسي، وذلك لليأس من النجاة من قبله إذ لا ضرر فيه ولا نفع"[٢].
قال البيضاوي:أي:"وتتركون آلهتكم في ذلك الوقت، لما ركز في العقول على أنه القادر على كشف الضر دون غيره، أو وتنسونه من شدة الأمر وهوله"[٣].
قال ابن أبي زمنين:أي:"{ما تشركون} بالله من هذه الأوثان؛ فتعرضون عنها"[٤].
قال مقاتل:"يعني: وتتركون ما تشركون بالله من الآلهة فلا تدعونهم أن يكشفوا عنكم ولكنكم تدعون الله"[٥].
قال الطبري:"يقول: وتنسون حين يأتيكم عذاب الله أو تأتيكم الساعة بأهوالها، ما تشركونه مع الله في عبادتكم إياه، فتجعلونه له ندًّا من وثن وَصنم، وغير ذلك مما تعبدونه من دونه وتدعونه إلهًا"[٦].
قال السمرقندي:"يعني: تتركون دعاء الآلهة عند نزول الشدة"[٧].
قال ابن كثير:أي:"وتذهب عنكم أصنامكم وأندادكم "[٨].
قال ابن عطية:أي:"وأصنامكم مطرحة منسية"[٩].
قال السمعاني:"وذلك أنهم لما تركوا الأصنام في حال الضرورات إلى دعاء الله؛ فكأنهم نسوا ما يشركون"[١٠].
قال الزمخشري:أي:" وتتركون آلهتكم، أو لا تذكرونها في ذلك الوقت، لأن أذهانكم في ذلك الوقت مغمورة بذكر ربكم وحده، إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره. ويجوز أن يتعلق الاستخبار بقوله:{أغير الله تدعون}، كأنه قيل:أغير الله تدعون إن أتاكم عذاب الله.
فإن قلت: إن علقت الشرط به فما تصنع بقوله: {فيكشف ما تدعون إليه}، مع قوله :{أو أتتكم الساعة} وقوارع الساعة لا تكشف عن المشركين؟
قلت: قد اشترط في الكشف المشيئة، وهو قوله: {إن شاء} إيذانا بأنه إن فعل كان له وجه من الحكمة، إلا أنه لا يفعل لوجه آخر من الحكمة أرجح منه"[١١].
قال الزجاج:"{وتنسون}-ههنا- على ضربين: جائز أن يكون تنسون تتركون، وجائز أنيكون المعنى إنكم في ترككم دعاءهم بمنزلة من يسهون"[١٢].
الفوائد:
١- ومن فوائدها: أن هؤلاء المكذبين عند الضراء لا يلجؤون إلا إلى الله؛ لقوله: (بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ).
٢- ومن فوائد الآية: أن الله تعالى يجيب دعوة المضطر ولو كان كافرًا، بل ويعلم عز وجل أنه سيكفر إذا نجا؛ لأن الله ينجيهم من الكرب وهو يعلم أنهم إذا نجوا سوف يشركون، لكن وقوعهم في الشدة تقتضي رحمة الله عز وجل أن يجيب دعاءهم، ومثل ذلك المظلوم؛ فإن الله يجيب دعوته ولو كان كافرًا، فهذان صنفان تجاب دعوتهما: المضطر،

---

(١) تفسير القرطبي:٤٢٣/٦.
(٢) انظر: التفسير البسيط للواحدي: ١٣٥/٨، ومفاتيح الغيب ١٢/ ٢٢٣، وتفسير القرطبي ٦/ ٤٢٣.
(٣) تفسير البيضاوي:١٦١/٢.
(٤) تفسير ابن أبي زمنين:٦٨/٢.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.
(٦) تفسير الطبري:٣٥٤/١١.
(٧) بحر العلوم:٤٤٧/١.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٩) المحرر الوجيز:٢٩١/٢.
(١٠) تفسير السمعاني:١٠٢/٢.
(١١) الكشاف:٢١/٢-٢٢.
(١٢) معاني القرآن:٢٤٧/٢.

والثاني المظلوم يجيب الله تعالى دعوته، أما المضطر فلأن رحمة الله سبقت غضبه، فيرحم المضطر ويجيب دعوته، وأما المظلوم فلكمال عدل الله عز وجل أن يجيب المظلوم انتصارًا له على الظالم.

٣- ومن فوائد الآية: الحذر من ممارسة السيئات، فإن الإنسان ربما يتوب إلى الله عز وجل ثم يعود؛ ولهذا قال: (وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ) معنى «تنسون» هنا بمعنى:تتركون؛ يعني: أن الآلهة التي كنتم تشركون بها تتركونها، ويحتمل معنى الذهول؛ لشدة ما نزل بهم.

القرآن

{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ (٤٢)} [الأنعام : ٤٢]

التفسير:

ولقد بعثنا -أيها الرسول- إلى جماعات من الناس من قبلك رسلا يدعونهم إلى الله تعالى، فكذَّبوهم، فابتليناهم في أموالهم بشدة الفقر وضيق المعيشة، وابتليناهم في أجسامهم بالأمراض والآلام; رجاء أن يتذللوا لربهم، ويخضعوا له وحده بالعبادة.

قوله تعالى:{وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَى أُمَمٍ مِنْ قَبْلِكَ} [الأنعام : ٤٢]، أي:" ولقد بعثنا -أيها الرسول- إلى جماعات من الناس من قبلك رسلا يدعونهم إلى الله تعالى"[(١)].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره متوعدًا لهؤلاء العادلين به الأصنامَ ومحذِّرَهم أن يسلك بهم إن هم تمادَوا في ضلالهم سبيلَ من سلك سبيلهم من الأمم قبلهم، في تعجيل الله عقوبته لهم في الدنيا ومخبرًا نبيَّه عن سنته في الذين خلوا قبلهم من الأمم على منهاجهم في تكذيب الرسل :{لقد أرسلنا}، يا محمد،{إلى أمم}، يعني: إلى جماعات وقرون"[(٢)].

قوله تعالى:{فَأَخَذْنَاهُمْ بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ} [الأنعام : ٤٢]، أي:" فكذَّبوهم، فابتليناهم في أموالهم بشدة الفقر وضيق المعيشة، وابتليناهم في أجسامهم بالأمراض والآلام"[(٣)].

قال ابن أبي زمنين:" {البأساء}: البؤس؛ وهي الشدائد من الجدوبة، وشدة المعاش. و{الضراء}، يعني: الضر من الأمراض والأوجاع"[(٤)].

قال ابن كثير:" {بِالْبَأْسَاءِ } يعني : الفقر والضيق في العيش { وَالضَّرَّاءِ } وهي الأمراض والأسقام والآلام"[(٥)].

قال الطبري:" يقول: فأمرناهم ونهيناهم، فكذبوا رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، فامتحناهم بالابتلاء {بالبأساء}، وهي شدة الفقر والضيق في المعيشة،{والضراء}، وهي الأسقام والعلل العارضة في الأجسام، وفي الكلام محذوفٌ قد استغني بما دلّ عليه الظاهرمن إظهاره دون قوله: {ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك فأخذناهم}، وإنما كان سبب أخذه إياهم، تكذيبهم الرسل وخلافهم أمرَه لا إرسال الرسل إليهم. وإذ كان ذلك كذلك، فمعلوم أن معنى الكلام:{ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك} رسلا فكذبوهم،{فأخذناهم بالبأساء}"[(٦)].

قال الزجاج:" قيل {الباسا}: الجوع، و{الضراء}: النقص في الأموال والأنفس، والمعنى: أن الله جل ثناؤه أعلم نبيه - صلى الله عليه وسلم - أنه قد أرسل الرسل قبله إلى قوم بلغوا من القسوة إلى أن أخذوا بالشدة في أنفسهم وأموالهم ليخضعوا ويذلوا لأمر الله، لأن القلوب تخشع. والنفوس تضرع عند ما يكون من أمر الله في البأساء والضراء. فلم تخشع ولم تضرع"[(٧)].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٢.
(٢) تفسير الطبري:٣٥٤/١١.
(٣) التفسير الميسر:١٣٢.
(٤) تفسير ابن ابي زمنين:٦٨/٢.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٥٤/١١-٣٥٥.
(٧) معاني القرآن:٢٤٨/٢.

وفي تفسير { الْبَأْسَاءِ }[1][الأنعام : ٤٢]، على أربعة أقوال:
أحدهما: أنه الفقر. قاله عبدالله بن مسعود[2]، قال ابن أبي حاتم:" وروي، عن ابن عباس، وأبي العالية، والحسن -في أحد قوليه-، ومرة الهمداني، وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك، والربيع بن أنس والسدي ومقاتل ابن حيان نحو ذلك[3].
والثاني: أنه البلاء. قاله الحسن[4].
والثالث:انه البؤس. قاله عبيد بن عمير[5].
والرابع: انه الخوف من السلطان. وهذا قول سعيد بن جبير[6].

واختلف في قوله:{الضَّرَّاءِ}[7][الأنعام : ٤٢]،، على ثلاثة أقوال:
أحدها: أنه السقم. قاله السدي[8]، قال ابن ابي حاتم:"وروي عن ابن عباس وأبي العالية ومرة وأبي مالك والحسن ومجاهد والربيع بن أنس ومقاتل بن حيان، والضحاك نحو ذلك"[9].
الثاني: أنه الأمراض والجوع. قاله الحسن[10].
الثالث: أنه البلاء والشدة. قاله سعيد بن جبير[11].
قوله تعالى:{لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ} [الأنعام : ٤٢]، أي:" رجاء أن يتذللوا لربهم، ويخضعوا له وحده بالعبادة"[12].
قال الزمخشري:أي:" يتذللون ويتخشعون لربهم ويتوبون عن ذنوبهم"[13].
قال الواحدي:أي:" لكي يتذلَّلوا ويتخشعوا"[14].
قال البغوي:" أي: يتوبون ويخضعون، والتضرع: السؤال بالتذلل"[15].
قال النحاس:" أي: ليكون العباد على رجاء من التضرع"[16].
قال ابن كثير:" أي : يدعون الله ويتضرعون إليه ويخشعون "[17].
قال السمرقندي:" يعني: لكي يرجعوا إليه ويؤمنوا به"[1].

---

(١) الباء والهمزة والسين أصل واحد يدل على الشدة وما ضارعها، فالبأس: الشدة في الحرب، يقال: رجل ذو بأس، أي: ذو شجاعة وشدة، والبؤس: الشدة والضنك في العيش، يقال: بَئِس الرجل فهو بائس إذا اشتدت حاجته. انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ١٠٧/١٣، معجم مقاييس اللغة لابن فارس: ٣٢٨/١، الصحاح للجوهري: ٩٠٦/٣-٩٠٧، لسان العرب لابن منظور: ١٩٩/١.
وانظر: الدر المصون للسمين: ٤٥٠/١، البحر المحيط لأبي حيان: ٤٩٧/١، ومن قال: من البؤس قال: المراد بالبأساء: شدة الفقر، ومن قال: من البأس، قال: المراد بالبأساء: شدة القتال، انظر: البحر المحيط لأبي حيان: ٨/٢، تفسير غريب القرآن لابن قتيبة: ٧٠، معالم التنزيل للبغوي: ١٨٨/١.

(٢) انظر: ابن أبي حاتم(٧٢٧١):ص١٢٨٨/٤
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم:١٢٨٨/٤
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٤):ص١٢٨٨/٤.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٣):ص١٢٨٨/٤.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٥):ص١٢٨٨/٤.
(٧)عن قتادة قال : كنا نُحدِّث أن البأساء البؤس والفقر ، وأن الضراء السُّقم. وقد قال النبي أيوب صلى الله عليه وسلم(أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ) [سورة الأنبياء : ٨٣].[تفسير الطبري: ٣٤٩/٣-٣٥٠].
(٨) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٦):ص١٢٨٩/٤.
(٩) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٢٨٩/٤.
(١٠) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٩):ص١٢٨٩/٤.
(١١) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٢٧٨):ص١٢٨٩/٤.
(١٢) التفسير الميسر:١٣٢.
(١٣) الكشاف:٢٣/٢.
(١٤) الوجيز:٣٥٣.
(١٥) تفسير البغوي:١٤٣/٣.
(١٦) معاني القرآن:٤٢٤/٢.
(١٧) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.

قال الطبري:" يقول: فعلنا ذلك بهم ليتضرعوا إليّ، ويخلصوا لي العبادة، ويُفْردوا رغبتهم إليَّ دون غيري، بالتذلل منهم لي بالطاعة، والاستكانة منهم إليّ بالإنابة"[٢].

عن أبي مالك قوله: "{لعلهم}، يعني: كي"[٣].

قال الزجاج:" معنى لعل ترج، وهذا الترجي للعباد، أخذهم الله بذلك ليكون ما يرجوه العباد منه بالتضرع، كما قال عز وجل في قصة فرعون: {لَعَلَّهُ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَى} [طه : ٤٤]، قال سيبويه: «المعنى اذهبا على رجائكما، والله عالم بما يكون وراء ذلك»[٤]"[٥].

و«التضرع»: هو:التفعل من«الضراعة»، وهي الذلة والاستكانة"[٦].

قال السمعاني:" التضرع: السؤال بالتذلل"[٧].

قال الواحدي:" معنى التضرع: التخشع وهو حال ظاهرة تنبئ عن الانقياد للطاعة، وأصله من الضراعة وهي الذلة، يُقال: ضرع الرجل يضرع ضراعة، وهو ضارع، ورجل ضرع: ذليل ضعيف"[٨].

قال أهل اللغة: "ضَرَعَ الرجل يضرَع ضَرَعًا وضَرَاعَة: إذا استكان وذل، فهو ضارع بين الضَّراعة، وتَضَرَّع إلى الله، أي: ابتهل، والضَّرَعُ بالتحريك: الضعيف"[٩].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: إقامة الحجة على الخلق بإرسال الرسل، وهذا كقوله تعالى في سورة النساء: (إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ) [النساء ١٦٣] إلى قوله: (رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ) [النساء ١٦٥]، ومن تمام الحجة في إرسال الرسل أن الرسل بلسان قومهم؛ أي: بلغة قومهم الذين أرسلوا إليهم، وذلك من أجل أن يفهموا الحجة.

٢- فيتفرع على الفائدة السابقة: أنه لا تقوم الحجة بمجرد البلاغ حتى يفهمها المرسل إليهم، وإلا ما الفائدة؟ إلا أنه يجب على من بلغه ولم يفهم أن يبحث، وهذه النقطة الأخيرة ربما تكون سدًّا لعذرهم إذا قالوا: ما فهمنا، نقول: يجب عليكم أن تبحثوا، لكن أحيانًا يتعذر البحث لكونهم لا يجدون من يثقون به فيبقون جاهلين.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: رحمة الله تبارك وتعالى بالخلق؛ حيث أرسل إليهم الرسل لإقامة الحجة ولبيان المحجة، المحجة يعني: الطريق، فلولا الرسل ما عرفنا، لولا أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بيَّن لنا كيف نتوضأ ما عرفنا، كيف نصلي ما عرفنا، كيف نزكي، كيف نصوم، كيف نحج، كيف نتعامل ما عرفنا، فإرسال الرسل من رحمة الله عز وجل.

٤- ومنها: حذف السبب ليكون ذلك أشد وقعًا وهيبة للمخاطب، حذف السبب وذكر المسبب والنتيجة ليكون ذلك أشد وقعًا وهيبة في قلوب المخاطب؛ لقوله: (فَأَخَذْنَاهُمْ) ولم يذكر التكذيب حتى يكون أشد، ويبحث الذهن لماذا أخذوا؟ فيكون أشد هيبة ووقعًا في قلوب المخاطب.

---

(١) بحر العلوم:١/٤٤٧.

(٢) تفسير الطبري:١١/٣٥٥.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٨٠):ص٤/١٢٨٩.

(٤) انظر: الكتاب:١/٣٣١، وفيه:"فالعلمُ قد أتى من وراء ما يكون، ولكن اذهَبَا أنتما فى رَجائكما وطَمَعِكما ومبلغكما من العلم، وليس لهما أكثرُ من ذا ما لم يَعْلَما".

(٥) معاني القرآن:٢/٢٤٨.

(٦) تفسير الطبري:١١/٣٥٥.

(٧) تفسير السمعاني:٢/١٠٣.

(٨) الوجيز:٨/١٣٧.

(٩)انظر: "العين" ١/ ٢٦٩،و"الجمهرة" ٢/ ٧٤٧،و"تهذيب اللغة" ٣/ ٢١١٥،و"الصحاح" ٣/ ١٢٤٩،و "مقاييس اللغة" ٣/ ٣٩٥، و"المفردات" ٥٠٦،و"اللسان" ٥/ ٢٥٨٠ "ضرع".

٥- ومنها: أن الله تعالى يبتلي بالبأساء والضراء لكن لحكمة لا لمجرد إلحاق الضرر بالخلق، ما هي الحكمة؟ بيَّنها في قوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)، وإلا فإن الله لا يمكن أن يريد مجرد الإضرار، بل كل ما ضر الناس من تقديرات الله فالمراد به مصلحة الخلق.
٦- ومنها: أن الأخذ قد يكون بالبأساء، وقد يكون بالضراء، قد يكون بالشدة التي يتأذى بها الإنسان بدون ضرر، وقد يكون بالضرر، فمثلًا الخوف والجوع وما أشبه ذلك هذا شدة، المرض المباشر للشخص هذا ضرر، فالأخذ إما هذا، وإما هذا.
٧- ومنها: إثبات الحكمة في أفعال الله، تؤخذ من قوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ)، وثبوت الحكمة لله عز وجل في أفعاله وفي شرعه أمر معلوم لكل ذي عقل؛ لأن كون الأفعال والأحكام تصدر عن حكمة يدل على كمال الفاعل والمشرع.
٨- ومنها: وجوب التضرع إلى الله عز وجل، والتضرع بمعنى اللجوء والإنابة إلى الله تعالى، والقيام بما يجب له من كل ما يجب؛ من عقيدة، أو قول، أو عمل.

القرآن
{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٤٣)} [الأنعام : ٤٣]
التفسير:
فهلا إذ جاء هذه الأمم المكذبة بلاؤنا تذللوا لنا، ولكن قست قلوبهم، وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي، ويأتون من الشرك.
قوله تعالى:{فَلَوْلَا إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا} [الأنعام : ٤٣]، أي:" فهلا إذ جاء هذه الأمم المكذبة بلاؤنا تذللوا لنا"[١].
قال ابن كثير:" أي : فهلا إذ ابتليناهم بذلك تضرعوا إلينا وتمسكنوا إلينا"[٢].
قال مقاتل:" يعني: الشدة والبلاء تضرعوا إلى الله وتابوا إليه لكشف ما نزل بهم من البلاء"[٣].
قال الطبري:أي:" فهلا إذ جاء بأسنا هؤلاء الأمم المكذبة رسلَها، الذين لم يتضرعوا عند أخذِناهم بالبأساء والضراء، فاستكانوا لربهم، وخضعوا لطاعته، فيصرف ربهم عنهم بأسه، وهو عذابه"[٤].
قال الزمخشري:" معناه: نفى التضرع، كأنه قيل: فلم يتضرعوا إذ جاءهم بأسنا. ولكنه جاء بلولا ليفيد أنه لم يكن لهم عذر في ترك التضرع إلا عنادهم وقسوة قلوبهم، وإعجابهم بأعمالهم التي زينها الشيطان لهم"[٥].
قال الفراء:" معنى {فَلَوْلَا}: فهلا. ويكون معناها على معنى «لولا»، كأنك قلت: لولا عبد الله لضربتك. فإذا رأيت بعدها اسما واحدا مرفوعا فهو بمعنى لولا التي جوابها اللام وإذا لم تر بعدها اسما فهي استفهام كقوله: {لَوْلَا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ} [المنافقون : ١٠]، وكقوله: {فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ(٨٦)تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الواقعة : ٨٦-٨٧] "[٦].
قال ابن قتيبة:" أي: فهلا إذ جاءهم بأسنا"[٧]. "وقال: {فَلَوْلا كانَتْ قَرْيَةٌ آمَنَتْ} [يونس: ٩٨]، وقال الشاعر [١]:

---
(١) التفسير الميسر:١٣٢.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.
(٤) تفسير الطبري:٣٥٦/١١.
(٥) الكشاف:٢٣/٢.
(٦) معاني القرآن:٣٣٤/١-٣٣٥.
(٧) غريب القرآن:١٥٣.

تعدّون عقر النّيب أفضل مجدكم بني ضوطرى لولا الكميّ المقنّعا
أي: فهّلا تعدّون الكميّ"[٢].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ } [الأنعام : ٤٣]، أي:" ولكن ظهر منهم النقيض حيث قست قلوبهم فلم تلن للإِيمان"[٣].

قال مقاتل:" يعني: جفت قلوبهم فلم تلن"[٤].

قال ابن كثير:" أي : ما رقت ولا خشعت"[٥].

قال الطبري:" يقول: ولكن أقاموا على تكذيبهم رسلهم، وأصرُّوا على ذلك، واستكبروا عن أمر ربهم، استهانةً بعقاب الله، واستخفافًا بعذابه، وقساوةَ قلب منهم"[٦].

قال قتادة:" عاب الله عليهم القسوة عند ذلك، فتضعضعوا لعقوبة الله. بارك الله فيكم لا تعرضوا لعقوبة الله بالقسوة، فإنه عاب ذلك على قوم قبلكم"[٧].

قوله تعالى:{وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأنعام : ٤٣]، أي:" وزيَّن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من المعاصي، ويأتون من الشرك"[٨].

قال الطبري:" يقول: وحسن لهم الشيطان ما كانوا يعملون من الأعمال التي يكرهها الله ويسخطها منهم"[٩].

قال مقاتل:" من الشرك والتكذيب"[١٠].

قال البغوي:أي:" من الكفر والمعاصي"[١١].

قال ابن كثير:" أي : من الشرك والمعاصي"[١٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: بيان شدة قسوة هؤلاء المعذبين، أنه لما جاءهم العذاب ليتضرعوا صار أمرهم بالعكس، بل زاد ذلك قسوة لقلوبهم، نسأل الله العافية، وكان الذي ينبغي أن يتضرعوا إلى الله عز وجل.

وهذا قد يقع من الإنسان ألّا تزيده البأساء والضراء إلا قسوة في القلب وسخطًا على الله عز وجل -والعياذ بالله- وشعورًا بما لا ينبغي، فإن بعض الناس إذا ابتلي ببلاء لا يصبر ولا يحمدالله على الابتلاء، فيقسو قلبه، والعياذ بالله. ومن ثم وجب الصبر على من أصيب بمصيبة حتى لا يقسو قلبه، فالبشر خلق من مخلوقاته يفعل به خالقه ما يشاء، ومع ذلك -والحمد لله- الضراء التي تصيب الإنسان تكون تكفيرًا لسيئاته، وما أكثر السيئات، حتى الشوكة إذا أصابته فإنها تكفر السيئات، فإن احتسبه أثبت ثواب الصابرين، فلم يفرط الله تبارك وتعالى بشيء فيما ينفع الخلق.

٢- ومن فوائد الآية: إثبات قسوة القلب بعد لينه؛ لقوله: (وَلَكِنْ قَسَتْ قُلُوبُهُمْ)، وكما في آية البقرة (ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ) [البقرة ٧٤]، فقسوة القلب تحدث، ولين القلب يحدث أيضًا، فكلاهما حدثان، والواجب على الإنسان أن يلاحظ دائمًا قلبه ألين هو أم

---

(١)البيت لجرير فى النقائض ص ٨٣٣، وهو فى ديوانه ص ٩٠٧، وانظر: الكامل ١/ ٢٧٨، والإيضاح: ٢٩، والخصائص: ٢/ ٤٥، والجمل المنسوب للخليل: ١٠٢. وسبق الكلام فيه.

(٢) تأويل مشكل القرآن:٢٨٩.

(٣) صفوة التفاسير:٣٦٢/١.

(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.

(٥) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.

(٦) تفسير الطبري:٣٥٦/١١.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٨١):ص١٢٨٩/٤.

(٨) التفسير الميسر:١٣٢.

(٩) تفسير الطبري:٣٥٦/١١.

(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٠/١.

(١١) تفسير البغوي:١٤٣/٣.

(١٢) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.

لا؟ أمخبت إلى الله أم لا؟ أمخلص لله أم لا؟ الأعمال الظاهرة كل إنسان يستطيع أن يأتي بها على أحسن وجه، فلمنافق يمكن أن يأتي بالصلاة على أحسن وجه، ويمكن أن يتصدق، لكن أعمال القلوب هي الصعبة، حرر قلبك من رق المعاصي حتى يفتح الرب.

ومن اسباب ازالة قسوة القلب:

- أولا: كثرة قراءة القرآن بتدبر، وأن تشعر وأنت تقرأ أن هذا كلام الله عز وجل لا كلام البشر، كلام الله خالق السماوات والأرض، وحينئذٍ تعظِّم هذا الكلام وتنتفع به.
- ثانيًا: كثرة الذكر؛ ذكر الله عز وجل، أكثر من ذكر الله، وذكر الله عز وجل ليس فيه صعوبة؛ لأن الذي يتحرك هو اللسان والشفتان وليس فيه صعوبة، قال الله عز وجل: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) [الرعد ٢٨].
- ثالثا: مصاحبة الأخيار، فإن مصاحبة الأخيار تكسب الإنسان خيرًا كثيرًا، وفي الحديث «أن الجليس الصالح كحامل المسك؛ إما أن يحذيك» -يعطيك تبرعًا- «وإما أن يبيعك، وإما أن ترى منه رائحة طيبة»[(١)]، احرص على مصاحبة الأخيار، ولكن انتفع بهم وانفعهم؛ لأن ما كل أحد معصوم، أنت انفعهم وانتفع بهم.
- رابعا: ومنها؛ أي من أسباب لين القلب: رحمة الصغار ولا سيما اليتامى؛ فإنها توجب رقة القلب، وجرب تجد، ولقد قال النبي ﷺ: «ارْحَمُوا مَنْ فِي الْأَرْضِ يَرْحَمْكُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ»[(٢)].

وهناك أسباب أخرى تظهر للمتأمل في دواء قسوة القلب، نسأل الله تعالى أن يلين قلوبنا جميعًا لذكره ولطاعته، إنه على كل شيء قدير.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الشيطان يزين لبني آدم سوء العمل، كما قال عز وجل: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، وفي آية أخرى (زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ) [الأنفال ٤٨].

٤- ومن الفوائد: أن الله تبارك وتعالى قد يسلط على العبد من هو عدو له، ولا يعد هذا ظلمًا من الله عز وجل، كلا؛ لأن الله قد بين لنا هذا العدو وحذرنا من اتباع خطواته، فلا عذر لنا.

٥- ومنها: أن الرجل إذا سلط عليه الشيطان صار السيء في نظره حسنًا، وصار الحسن سيئًا؛ لقوله: (وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ)، ومن المعلوم أنهم يعملون بالمعاصي. ثم قال عز وجل: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ) إلى آخره.

القرآن

{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ (٤٤)} [الأنعام : ٤٤]

التفسير:

فلما تركوا العمل بأوامر الله تعالى معرضين عنها، فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق فأبدلناهم بالبأساء رخاءً في العيش، وبالضراء صحة في الأجسام; استدراجا منا لهم، حتى إذا بطروا، وأعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة أخذناهم بالعذاب فجأة، فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير.

قوله تعالى:{فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ} [الأنعام : ٤٤]، أي:" فلما تركوا العمل بأوامر الله تعالى معرضين عنها"[(٣)].

قال ابن عباس:" يعني : تركوا ما ذكروا به"[(٤)].

---

(١)متفق عليه؛ البخاري (٥٥٣٤)، ومسلم (٢٦٢٨ / ١٤٦) من حديث أبي موسى الأشعري.

(٢)أخرجه أبو داود (٤٩٤١)، والترمذي (١٩٢٤) واللفظ له من حديث عبد الله بن عمرو.

(٣) التفسير الميسر:١٣٢.

(٤) أخرجه الطبري(١٣٢٢٦):ص٣٥٧/١١.

وعن ابن جريج قوله : "{ نسوا ما ذكروا به}، قال : ما دعاهم الله إليه ورسله ، أبوْه وردُّوه عليهم"(١).

قال الطبري:أي:" فلما تركوا العمل بما أمرناهم به على ألسن رسلنا"(٢).

قال الزمخشري:{ ما ذكروا به}، أي:" من البأساء والضراء: أى تركوا الاتعاظ به ولم ينفع فيهم ولم يزجرهم"(٣).

قال البغوي:أي:" تركوا ما وعظوا وأمروا به"(٤).

قال ابن كثير:" أي : أعرضوا عنه وتناسوه وجعلوه وراء ظهورهم "(٥).

قوله تعالى:{فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ} [الأنعام : ٤٤]، أي:" فتحنا عليهم أبواب كل شيء من الرزق فأبدلناهم بالبأساء رخاءً في العيش، وبالضراء صحة في الأجسام; استدراجا منا لهم"(٦).

قال الفراء:" يعني: أبواب الرزق والمطر، وهو الخير في الدنيا لنفتنهم فيه، وهو مثل قوله: {حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا} [يونس : ٢٤]، ومثله:{وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقًا(١٦){لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا..} [الجن : ١٦-١٧]، و«الطريقة»: طريقة الشرك، أي: لو استمروا عليها فعلنا ذلك بهم"(٧).

قال الزجاج:" أي: فتحنا عليهم أبواب كل شيء كان مغلقا عليهم من الخير"(٨).

قال الطبري:" يقول : بدلنا مكان البأساء الرخاء والسعة في العيش ، ومكان الضراء الصحة والسلامة في الأبدان والأجسام ، استدراجًا منَّا لهم"(٩).

قال الزمخشري:أي:" من الصحة والسعة وصنوف النعمة، ليزاوج عليهم بين نوبتي الضراء والسراء، كما يفعل الأب المشفق بولده يخاشنه تارة ويلاطفه أخرى، طلبا لصلاحه"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : فتحنا عليهم أبواب الرزق من كل ما يختارون ، وهذا استدراج منه تعالى وإملاء لهم ، عياذا بالله من مكره "(١١).

قال البغوي:أي:" وهذا فتح استدراج ومكر، أي: بدلنا مكان البلاء والشدة الرخاء والصحة"(١٢).

عن مجاهد في قول الله تعالي ذكره : " {فتحنا عليهم أبواب كل شيء} ، قال : رخاء الدنيا ويُسْرها ، على القرون الأولى"(١٣).

قال قتادة:" يعني الرخاء وسعة الرزق"(١٤).

عن السدي قوله : "{ فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، يقول : من الرزق"(١٥).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٢٢٧):ص١١/٣٥٧-٣٥٨.
(٢) تفسير الطبري:٣٥٦/١١.
(٣) الكشاف:٢٣/٢.
(٤) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٦) التفسير الميسر:١٣٢.
(٧) معاني القرآن:٣٣٤/١-٣٣٥.
(٨) معاني القرآن:٢٤٨/٢.
(٩) تفسير الطبري:٣٥٨/١١.
(١٠) الكشاف:٢٣/٢.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(١٢) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(١٣) أخرجه الطبري(١٣٢٢٨):ص٣٥٨/١١.
(١٤) أخرجه الطبري(١٣٢٢٩):ص٣٥٨/١١.
(١٥) أخرجه الطبري(١٣٢٣٠):ص٣٥٨/١١.

عن عبادة بن الصامت:" أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إن الله تبارك وتعالى إذا أراد بقوم بقاء أو نماء- رزقهم القصد والعفاف، وإذا أراد بقوم اقتطاعا- فتح لهم أو فتح عليهم باب خيانة {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، كما قال: {فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين}"(١).

وروي عن أبي سنان الشيباني، أنه قال في قوله: "{فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، قال: فتح عليهم أربعين سنة"(٢).

قال الطبري:" فإن قال لنا قائل : وكيف قيل : {فتحنا عليهم أبوابَ كل شيء}، وقد علمت أن بابَ الرحمة وباب التوبة [لم يفتحا لهم] ، لم تفتح لهم أبواب أخر غيرهما كثيرة ؟

قيل : إن معنى ذلك على غير الوجه الذي ظننتَ من معناه ، وإنما معنى ذلك : فتحنا عليهم ، استدراجًا منا لهم ، أبوابَ كل ما كنا سددنا عليهم بابه ، عند أخذنا إياهم بالبأساء والضراء ليتضرعوا ، إذ لم يتضرعوا وتركوا أمر الله تعالى ذكره ، لأنّ آخر هذا الكلام مردودٌ على أوله. وذلك كما قال تعالى ذكره في موضع آخر من كتابه :{وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إلا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ} ، [سورة الأعراف : ٩٤ - ٩٥] ، ففتح الله على القوم الذين ذكر في هذه الآية [أنهم نسوا ما] ذكرهم ، بقوله :{فلما نسوا ما ذكّروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، هو تبديله لهم مكانَ السيئة التي كانوا فيها في حال امتحانه إياهم ، من ضيق العيش إلى الرخاء والسعة ، ومن الضر في الأجسام إلى الصحة والعافية ، وهو :فتح أبواب كل شيء، كان أغلق بابه عليهم ، مما جرى ذكره قبل قوله : {فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، فردّ قوله : {فتحنا عليهم أبواب كل شيء}، عليه"(٣).

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا} [الأنعام : ٤٤]، أي:" حتى إذا بطروا، وأعجبوا بما أعطيناهم من الخير والنعمة"(٤).

قال الطبري:" حتى إذا فرح هؤلاء المكذّبون رسلهم بفتحنا عليهم أبوابَ السَّعة في المعيشة ، والصحة في الأجسام"(٥).

قال الزجاج:" أي: حتى إذا ظنوا أن كل ما نزل بهم لم يكن انتقاما من الله جل وعز، وأنهم لما فتح عليهم ظنوا أن ذلك باستحقاقهم"(٦).

قال الزمخشري:أي:" بما أوتوا من الخير والنعم، لم يزيدوا على الفرح والبطر، من غير انتداب لشكر ولا تصد لتوبة واعتذار"(٧).

قال ابن كثير:" أي : من الأموال والأولاد والأرزاق "(٨).

قال البغوي:" وهذا فرح بطر مثل فرح قارون بما أصاب من الدنيا"(٩).

عن السدي : " {حتى إذا فرحوا بما أوتوا}، من الرزق"(١٠).

قال ابن جريج:"أعجبَ ما كانت إليهم ، وأغَرَّها لهم"(١١).

قال الفضيل بن عياض:" {حتى إذا فرحوا بما أوتوا} من الدنيا وركنوا إليها، واطمأنوا بها، {أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}"(١).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٨٣):ص٤/١٢٩٠.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٨٧):ص٤/١٢٩٠.
(٣) تفسير الطبري:١١/٣٥٨-٣٥٩.
(٤) التفسير الميسر:١٣٢.
(٥) تفسير الطبري:١١/٣٥٩.
(٦) معاني القرآن:٢/٢٤٨.
(٧) الكشاف:٢/٢٣.
(٨) تفسير ابن كثير:٣/٢٥٧.
(٩) تفسير البغوي:٣/١٤٤.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٢٣١):ص١١/٣٥٩.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٢٣٤):ص١١/٣٦٠.

قوله تعالى:{ أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً} [الأنعام : ٤٤]، أي:" أخذناهم بالعذاب فجأة"[٢].
قال مجاهد:" فجأة آمنين"[٣].
قال السدي:" يقول : أخذهم العذابُ بغتةً"[٤].
قال ابن قتيبة: أي: "فجأة وجهرة معاينة"[٥].
قال ابن كثير:" أي : على غفلة "[٦].
قال الطبري:أي:" أتيناهم بالعذاب فجأة ، وهم غارُّون لا يشعرون أن ذلك كائن ، ولا هو بهم حالٌّ"[٧].
قال الزجاج:" أي: فاجأهم عذابنا من حيث لا يشعرون"[٨].
قال البغوي:يعني:" فجأة آمن ما كانوا، وأعجب ما كانت الدنيا إليهم "[٩].
قال أبو عبيدة:" {بَغْتَةً}: أي فجأة، يقال: بغتني، أي: فاجأنى"[١٠].
عن محمد بن النضر الحارثي في قوله :"{خذناهم بغتة}، قال : أُمهلوا عشرين سنة"[١١].
عن سفيان قوله: "{أخذناهم بغتة}، قال: ستين سنة"[١٢].
عن حماد بن زيد قال : "كان رجل يقول : رَحم الله رجلا تلا هذه الآية ، ثم فكر فيها ماذا أريد بها :{حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة}"[١٣].
وقال قتادة:" بغت القوم أمر الله، وما أخذ الله قوما قط إلا عند سلوتهم وعزتهم ونعمتهم، فلا تفتروا بالله، إنه لا يفتر بالله إلا القوم الفاسقون"[١٤].
قوله تعالى:{فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام : ٤٤]، أي:" فإذا هم آيسون منقطعون من كل خير"[١٥].
عن ابن عباس، "قوله: أبلسوا، يقول: أيسوا"[١٦].
قال السدي:" فإذا هم مهلكون ، متغيِّر حالهم"[١٧].
وفي رواية اخرى عن السدي:" فإذا هم مبلسون، قال: تغير الوجه، وإنما سمي إبليس لأن الله عز وجل أبلسه وغيره"[١٨].
عن مجاهد : {فإذا هم مبلسون}، قال : الاكتئاب"[١٩].
وعن عكرمة قال: "{فإذا هم مبلسون}، قال: عام الفتح"[٢٠].

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩١):ص١٢٩١/٤.
(٢) التفسير الميسر:١٣٢.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٢٣٦):ص٣٦٠/١١.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٢٣٥):ص٣٦٠/١١.
(٥) غريب القرآن:١٥٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٧) تفسير الطبري:٣٦٠/١١.
(٨) معاني القرآن:٢٤٨/٢.
(٩) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(١٠) مجاز القرآن:١٩١/١.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٢٣٣):ص٣٥٩/١١-٣٦٠.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩٥):ص١٢٩٢/٤.
(١٣) أخرجه الطبري(١٣٢٣٢):ص٣٥٩/١١.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩٤):ص١٢٩١/٤.
(١٥) التفسير الميسر:١٣٢.
(١٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩٧):ص١٢٩٢/٤.
(١٧) أخرجه الطبري(١٣٢٣٧):ص٣٦٠/١١-٣٦١.
(١٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩٨):ص١٢٩٢/٤.
(١٩) أخرجه الطبري(١٣٢٣٨):ص٣٦١/١١.
(٢٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٢٩٩):ص١٢٩٢/٤.

قال الطبري:أي:" فإنهم هالكون ، منقطعة حججهم ، نادمون على ما سلف منهم من تكذيبهم رسلهم"[١].

قال ابن قتيبة: أي: " يائسون ملقون بأيديهم"[٢].

قال الزمخشري:أي:" متحسرون آيسون"[٣].

قال البغوي وابن كثير:أي:" آيسون من كل خير "[٤].

وفي اصل «الإبلاس» خمسة اقوال:

أحدها: أنه الحزن على الشيء والندم عليه. وهذا قول أبو عبيدة[٥]، والزجاج[٦]، وهو معنى قول السدي[٧].

قال أبو عبيدة:" المبلس: الحزين الدائم...قال رؤبة[٨]:

وحضرت يوم خميس الأخماس   وفى الوجوه صفرة وإبلاس

أي: اكتئاب وكسوف وحزن"[٩].

قال الزجاج:" «المبلس»: الشديد الحسرة، واليائس الحزين"[١٠].

قال البغوي: "وأصل «الإبلاس»:الإطراق من الحزن والندم"[١١].

والثاني:أنه السكوت وانقطاع الحجة. وهذا قول الفراء[١٢]، وحكاه الطبري عن بعضهم[١٣].

قال الفراء:" المبلس: اليائس المنقطع رجاؤه. ولذلك قيل للذي يسكت عند انقطاع حجته ولا يكون عنده جواب: قد أبلس"[١٤]، ثم استشهد بقول العجّاج[١٥]:

يَا صَاحِ هَلْ تَعْرِفُ رَسْمًا مُكْرَسَا؟   قَالَ : نَعَمْ! أَعْرِفُه! وَأَبْلَسَا

أي: "لم يحر إلي جوابا"[١٦].

والثالث: أنه الخشوع. حكاه الطبري عن بعضهم[١٧].

والرابع: أن الإبلاس : الإياس. قال عدي بن زيد [١٨]:

ملك إذا حل العفاة ببابه   غبطوا وأنجح منهم المستبلس

يعني: الآيس[١٩].

والخامس: أنه الخذلان. ذكره الماوردي[٢٠].

عن ابن وهب قال ابن زيد:"«المبلس»: الذي قد نزل به الشرّ الذي لا يدفعه. والمبلس أشد من المستكين ، وقرأ : {فَمَا اسْتَكَانُوا لِرَبِّهِمْ وَمَا يَتَضَرَّعُونَ} [سورة المؤمنون : ٧٦] . وكان

---

(١) تفسير الطبري:٣٦٠/١١.
(٢) غريب القرآن:١٥٣.
(٣) الكشاف:٢٣/٢.
(٤) تفسير البغوي:١٤٤/٣، وتفسير ابن كثير:٢٥٧/٣.
(٥) انظر: مجاز القرآن:١٩٢/١.
(٦) انظر: معاني القرآن:٢٤٩/٢.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٣٨):ص٣٦١/١١.
(٨)ديوانه ٦٧، واللسان "بلس".
(٩) مجاز القرآن:١٩٢/١.
(١٠) معاني القرآن:٢٤٩/٢.
(١١) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(١٢) انظر: معاني القرىن:٣٣٥/١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري:٣٦٣/١١.
(١٤)معاني القرآن:٣٣٥/١.
(١٥)ديوانه ١٦. - والكامل ٣٤٣،والطبري ٧/ ١١٦،والقرطبي ٦/ ٤٢٧،واللسان والتاج "بلس".
(١٦)معاني القرآن:٣٣٥/١.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٣٦٣/١١.
(١٨) البيت من شواهد الماوردي في: النكت والعيون:١١٤/٢.
(١٩) انظر: النكت والعيون:١١٤/٢.
(٢٠) انظر: النكت والعيون:١١٤/٢.

أول مرة فيه معاتبة وبقيّة، وقرأ قول الله :{أخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون} { فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا}، حتى بلغ :{وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون}، ثم جاء أمرٌ ليس فيه بقية، وقرأ : {حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، فجاء أمر ليس فيه بقية، وكان الأوّل ، لو أنهم تضرعوا كُشف عنهم"[1].

وروى عقبة بن عامر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " «إذا رأيت الله يعطي العبد من الدنيا على معاصيه ما يحب، فإنما هو استدراج »، ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم: {فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ} [الأنعام: ٤٤]"[2].

وروي عن الحسن، أنه قال:" من وسع عليه فلم ير أنه يمكر به فلا رأي له، ومن قتر عليه فلم ير أنه ينظر له فلا رأي له. ثم قرأ: {فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون}، قال الحسن: مكر بالقوم ورب الكعبة أعطوا حاجتهم ثم أخذوا"[3].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الله تعالى عجَّل لهم بالعقوبة لكن على وجه الاستدراج؛ لقوله: (فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ).

٢- ومن الفوائد: أن يحذر الإنسان عقوبة الله عز وجل إذا مَنَّ الله عليه بتيسير أمور الدنيا من مأكل ومشرب ونكاح ومركب ومسكن، فلا يغتر بهذا؛ لأنه قد يكون استدراجًا، ولهذا قال بعض السلف: «إذا رأيت الله عز وجل ينعم على الإنسان مع تماديه في العصيان، فاعلم أن ذلك استدراج»[4]، وصدقوا فلا تغتر أيها الإنسان، فقد تبتلى بالنعم كما تبتلى بالنقم، وقد تكون البلوى بالنعم أشد من البلوى بالنقم.

٣- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الذي بيده الرخاء والشدة هو الله؛ لقوله: (فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ).

٤- ومن فوائد الآية: أنه يجب الحذر من الفرح الذي هو فرح البطر بنعم الله عز وجل؛ لقوله: (فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا) أي: فرح بطر، أما إذا فرح الإنسان بما يسره من أمور الدنيا أو من أمور الآخرة فرح سرور وانبساط بنعمة الله فإن هذا لا بأس به، قال الله عز وجل: (قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا) [يونس ٥٨].

٥- ومن فوائد الآية الكريمة: أن الإنسان قد يأتيه العذاب بغتة، فبينا هو في نعيمه وسروره في الدنيا منغمسًا في معاصي الله إذا بالعذاب يأتيه بغتة، وسواء كان هذا العذاب عامًّا شاملًا أو كان خاصًّا، قد يبتلى بمرض أو بحوادث تكسره وتحطمه أو بموت عاجل؛ ولهذا قال: (أَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً) أي: أخذ بغتة؛ أي: مباغت، والمباغت هو الشيء الذي لا يتوقعه الإنسان، فيقع في غير توقع له.

٦- ومنها: أن هذا الأخذ الذي توعد الله به عز وجل أخذ مدمر؛ لقوله: (فَإِذَا هُمْ مُبْلِسُونَ) أي: آيسون من كل خير.

القرآن

{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (٤٥)} [الأنعام : ٤٥]

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٢٣٩):ص٣٦١/١١.

(٢)أخرجه أحمد (١٤٥/٤، رقم ١٧٣٤٩) ، والطبرانى فى الكبير (٣٣٠/١٧، رقم ٩١٣) ، وفى الأوسط (١١٠/٩، رقم ٩٢٧٢) ، قال الهيثمى (٢٤٥/١٠) : رواه الطبرانى فى الأوسط عن شيخه الوليد بن العباس المصرى، وهو ضعيف. والبيهقى فى شعب الإيمان (١٢٨/٤، رقم ٤٥٤٠) . وأخرجه أيضًا: الرويانى (١٩٥/١، رقم ٢٦٠) ، والرافعى فى التدوين (٢٧٩/١) . قال المناوى (٣٥٥/١) : قال العراقى: إسناده حسن.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٢٩٣):ص١٢٩١/٤.

(٤)أخرجه أحمد في المسند (١٧٣١١) مرفوعًا من حديث عقبة بن عامر، ولم نقف عليه من قول غيره.

التفسير:
فاستؤصل هؤلاء القوم وأهلكوا إذ كفروا بالله وكذَّبوا رسله، فلم يبق منهم أحد. والشكر والثناء لله تعالى -خالق كل شيء ومالكه- على نصرة أوليائه وهلاك أعدائه.

قوله تعالى:{فَقُطِعَ دَابِرُ الْقَوْمِ الَّذِينَ ظَلَمُوا} [الأنعام : ٤٥]، أي:" فاستؤصل هؤلاء القوم وأهلكوا إذ كفروا بالله وكذَّبوا رسله، فلم يبق منهم أحد"[١].

قال السدي:" يقول: قطع أصل الذين ظلموا"[٢].

قال عبد الرحمن بن زيد:" استؤصل القوم"[٣].

قال أبو عبيدة:" أي: آخر القوم الذي يدبرهم"[٤].

قال ابن قتيبة: " أي: آخرهم. كما يقال: اجتث أصلهم"[٥].

قال الزمخشري:" {دابر القوم}: آخرهم، لم يترك منهم أحد، قد استؤصلت شأفتهم[٦]"[٧].

قال البغوي: {دابر القوم}: " أي: آخرهم الذين بدبرهم، يقال: دبر فلان القوم يدبرهم دبرا ودبورا إذا كان آخرهم، ومعناه أنهم استؤصلوا بالعذاب فلم يبق منهم باقية"[٨].

قوله تعالى:{وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام : ٤٥]، أي:" والشكر والثناء لله تعالى -خالق كل شيء ومالكه- على نصرة أوليائه وهلاك أعدائه"[٩].

قال الزجاج:" حمد الله عز وجل نفسه على أن قطع دابرهم، واستأصل شأفتهم، لأنه جل وعز أرسل إليهم الرسل، وأنظرهم بعد كفرهم، وأخذهم بالبأساء والضراء فبالغ جل وعز في إنذارهم وإمهالهم، فحمد نفسه، لأنه محمود في إمهاله من كفر به وانتظاره توبته"[١٠].

قال البغوي: حمد الله نفسه على أن قطع دابرهم لأنه نعمة على الرسل، فذكر الحمد لله تعليما لهم ولمن آمن بهم، أن يحمدوا الله على كفايته شر الظالمين، وليحمد محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه ربهم إذا أهلك المكذبين"[١١].

عن الضحاك، عن ابن عباس قال: "ثم قال جبريل: قل يا محمد: الحمد لله رب العالمين قال: قل يا محمد لله الخلق كله، السموات كلهن ومن فيهن والأرضون كلهن، ومن فيهن، ومن بينهن مما يعلم ومما لا يعلم"[١٢].

واختُلِف في (العالم)، على أقوال[١٣] :

أحدها : أن العالم كل ما خلقه الله تعالى في الدنيا والآخرة ، وهذا قول أبي إسحاق الزجَّاج[١٤]، وقتادة[١٥]، ومجاهد[١٦]، وابن عباس[١٧] في رواية الضحاك عنه.

---

(١) التفسير الميسر:١٣٣.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٠٢):ص١٢٩٣/٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٠٣):ص١٢٩٣/٤.
(٤) مجاز القرآن:١٩٢/١.
(٥) غريب القرآن:١٥٤.
(٦)قوله«شأفتهم»:قرحة تخرج من أسفل القدم فتكوى فتذهب،ثم ضربت مثلا في الاستئصال. أورده الصحاح.
(٧) الكشاف:٢٣/٢.
(٨) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(٩) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٠) معاني القرآن:٢٤٩/٢.
(١١) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٠٤):ص١٢٩٣/٤.
(١٣) انظر: النكت والعيون: ٥٤/١-٥٥.
(١٤) انظر: معاني القرآن: ٤٦/١.
(١٥) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(١٦)حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(١٧)انظر: تفسير الطبري(١٥٦):ص١٤٤/١.

قال الثعلبي:"واحتجوا بقوله: {قالَ فِرْعَوْنُ وَما رَبُّ الْعالَمِينَ قالَ رَبُّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُمَا}[الشعراء:٢٣-٢٤]"[١].

والثاني: أنّه الإنس ، والجنِّ ، وهذا قول ابن عباس[٢]، وسعيد بن جبير[٣]، ومجاهد[٤]، وابن جريج[٥]، ومقاتل بن سليمان[٦].

ودليلهم قوله تعالى:{تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيراً}[الفرقان: ١]، ولم يكن نذيرا للبهائم[٧].

كما ويقوي هذا القول، جمع الكلمة على (عالمون)، وهو جمع لايكون إلا مع العاقل! فيكون هذا دليلا على أن الحديث عن عوالم عاقلة.

والثالث : أن العالم: الدنيا وما فيها[٨].

والرابع: أهل كل زمان عالم، قاله الحسين بن الفضل، لقوله تعالى : {أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ}[الشعراء: ١٦٥]، أي من الناس[٩]، وقال العجّاج[١٠]:

فَخِنْدِفٌ هامَةُ هَذَا العَالَمِ مبارك للأنبياء خاتم

وقال جرير بن الخطفى [١١]:

تنصفه[١٢] البرية وهو سام ويضحي العالمون له عيالا

والخامس: أن العالم عبارة عمن يعقل، وهم أربعة أمم : الإنس والجن والملائكة والشياطين، ولا يقال للبهائم : عالم، لأن هذا الجمع إنما هو جمع من يعقل خاصة. وهذا قول الفراء وأبي عبيدة[١٣].

والسادس: أن العالمين، أي: المخلوقين. قاله أبو عبيدة[١٤]، وأنشد قول لبيد بن ربيعة[١٥]:

ما إن رأيت ولا سمعـ تُ بمثلهم فى العالمينا

والسابع: أنهم المرتزقون، قاله زيد بن أسلم[١٦]، ونحوه قول أبي عمرو بن العلاء[١٧]: هم الروحانيّون، وابن قتيبة[١٨]، وهو معنى قول ابن عباس كذلك: "كل ذي روح دبّ على وجه الأرض"[١٩].

والثامن: العالمون: أهل الجنة وأهل النار. حكاه الثعلبي عن جعفر الصادق[٢٠].

---

(١) تفسير الثعلبي: ١١٢/١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٥٧)، و(١٥٨):ص١٤٤/١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٥٩)، و(١٦٠):ص١٤٤/١-١٤٥.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٦١)، و(١٦٢):ص١٤٥/١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٦٥):ص١٤٦/١.
(٦) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ٣٦/١.
(٧) انظر: تهذيب اللغة للأزهري: ٤١٦/٢.
(٨) انظر: النكت والعيون: ٥٥/١.
(٩) انظر: تفسير الطبري: ١٤٤/١.
(١٠)هو عبدالله بن رؤبة أبو الشعثاء، اشتهر بالعجاج الراجز، لقي أبا هريرة، وسمع منه أحاديث، والبيت في ديوانه: ٦٠.
(١١) ديوانه: ٧٥٠/٢.
(١٢) تنصفه: أي تطلب فضله.
(١٣) انظر: حكاه عنهما القرطبي في تفسيره: ٢١٣/١. وقول أبي عبيدة: أن العالمين: المخلوقين.
(١٤) انظر: مجاز القرىن:٢٢/١.
(١٥) ديوانه: ١٢/١، والأغاني: ٣٧٩/١٥، ونسبه القرطبي للأعشى، ولم نقف عليه للأعشى.
(١٦) حكاه عنه القرطبي في تفسيره:٢١٣/١.
(١٧) حكاه عنه الثعلبي في تفسيره: ١١٢/١.
(١٨) انظر: غريب القرآن: ٣٨، قال:"(العالَمُونَ): أصناف الخلق الرُّوحانِيِّين، وهم الإنس والجن والملائكة، كلُّ صِنْفٍ منهم عالَم".
(١٩) انظر: تفسير الثعلبي: ١١٢/١، وزاد المسير: ١٢/١، وتفسير القرطبي: ٢١٣/١.
(٢٠) تفسير الثعلبي:١١٢/١.

والظاهر أن{العالَمين}: جمع «عالم»، وهو كل موجود سوى الله جل وعلا، و«العالَم» جمع لا واحدَ له من لفظه، و«العوالم» أصناف المخلوقات في السموات والأرض في البر والبحر، فالإنس عالَم، والجن عالَم، والملائكة عالَم(١). والله أعلم.

الفوائد:

١- من فوائد هذه الآية الكريمة: إثبات الأسباب؛ لقوله: (الَّذِينَ ظَلَمُوا)؛ لأن هذه العقوبة مرتبة على قوم اتصفوا بالظلم، فيكون الظلم سببًا للعقوبة، وهذا من كمال الله تبارك وتعالى: أن تكون أفعاله لحكمة وأحكامه الشرعية لحكمة.

٢- ومنها: أن الظلم سبب للعقوبة والهلاك؛ لأن الحكم إذا علق على وصف صار ذلك الوصف علة له؛ يزداد الحكم قوة بقوته، وينقص بنقصه.

٣- ومنها: أن الله محمود على قطع دابر الظالمين، وهو كذلك، فهو سبحانه وتعالى محمود على جلب النعم وعلى دفع النقم، والظالم إذا أهلكه الله فإن ذلك من تمام عدله ورحمته؛ لأنه يكون نكالًا لما بين يديه وما خلفه.

القرآن

{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ (٤٦)} [الأنعام : ٤٦]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أذهب الله سمعكم فأصمَّكم، وذهب بأبصاركم فأعماكم، وطبع على قلوبكم فأصبحتم لا تفقهون قولا أيُّ إله غير الله جل وعلا يقدر على ردِّ ذلك لكم؟! انظر -أيها الرسول- كيف ننوِّع لهم الحجج، ثم هم بعد ذلك يعرضون عن التذكر والاعتبار؟

قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ اللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَارَكُمْ} [الأنعام : ٤٦]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن أذهب الله سمعكم فأصمَّكم، وذهب بأبصاركم فأعماكم"(٢).

قال الزمخشري:"بأن يصمكم ويعميكم"(٣).

قال أبو عبيدة:أي:"إن أصم الله أسماعكم وأعمى أبصاركم، تقول العرب: قد أخذ الله سمع فلان، وأخذ بصر فلان"(٤).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بي الأوثانَ والأصنامَ، المكذبين بك: أرأيتم، أيها المشركون بالله غيرَه، إن أصمَّكم الله فذهب بأسماعكم، وأعماكم فذهب بأبصاركم، حتى لا تفقهوا قولا ولا تبصروا حجة"(٥).

قال السمرقندي:"أي: قل لاهل مكة أرأيتم إن أخذ الله سمعكم فلم تسمعوا شيئا وأبصاركم فلم تبصروا شيئا"(٦).

قال ابن عطية:"هذا ابتداء احتجاج على الكفار، و{أخذ الله}، معناه: أذهبه وانتزعه بقدرته، ووحد «السمع»، لأنه مصدر مفرد يدل على جمع"(٧).

قرأ نافع: «أرأيتم»: بعد الألف بغير همز. وقرأ الكسائي بغير مد ولا همز. وقرأ الباقون: بالهمز. فهي كلها لغات العرب(١).

---

(١) انظر: تفسير الطبري: ١٤٣/١، معاني القرآن للزجاج: ٤٦/١.
(٢) التفسير الميسر:١٣٣.
(٣) الكشاف:٢٤/٢.
(٤) مجاز القرآن:١٩٢/١.
(٥) تفسير الطبري:٣٦٥/١١.
(٦) بحر العلوم:٤٤٩/١.
(٧) المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.

قوله تعالى:{وَخَتَمَ عَلَى قُلُوبِكُمْ} [الأنعام : ٤٦]، أي:"وطبع على قلوبكم فأصبحتم لا تفقهون قولا"(٢).

عن أبي مالك، قوله: "{وختم}، يعني: طبع"(٣).

قال الزمخشري:"بأن يغطى عليها ما يذهب عنده فهمكم وعقلكم"(٤).

قال الطبري:أي:"فطبع عليها حتى لا تفهموا مفهومًا"(٥).

قال البغوي:أي:"حتى لا تفقهوا شيئا ولا تعرفوا مما تعرفون من أمور الدنيا"(٦).

قوله تعالى:{مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِهِ} [الأنعام : ٤٦]، أي:"أيُّ إله غير الله جل وعلا يقدر على ردِّ ذلك لكم؟!"(٧).

قال السمرقندي:"يعني: هل أحد يرده عليكم يأتيكم به يعني: يخلقها لكم"(٨).

قال ابن ابي زمنين:"يقول: ليس بفعل ذلك؛ حتى يرده عليكم إن شاء إلا هو"(٩).

قال الطبري:يقول:"أيّ إله غير الله الذي له عبادة كل عابد يرد عليكم ما ذهب الله به منكم من الأسماع والأبصار والأفهام، فتعبدوه أو تشركوه في عبادة ربكم الذي يقدر على ذهابه بذلك منكم، وعلى ردّه عليكم إذا شاء؟

وهذا من الله تعالى ذكره، تعليم نبيِّه الحجة على المشركين به، يقول له: قل لهم: إن الذين تعبدونهم من دون الله لا يملكون لكم ضرًّا ولا نفعًا، وإنما يستحق العبادةَ عليكم من كان بيده الضر والنفع، والقبض والبسط، القادرُ على كل ما أراد، لا العاجز الذي لا يقدر على شيء"(١٠).

قال البغوي:"ولم يقل «بها» مع أنه ذكر أشياء، قيل: معناه: يأتيكم بما أخذ منكم، وقيل: الكناية ترجع إلى السمع الذي ذكر أولا ويندرج غيره تحته، كقوله تعالى: {وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ} [التوبة : ٦٢]، فالهاء راجعة إلى الله، ورضى رسوله يندرج في رضى الله تعالى"(١١).

قال ابن عطية:"والاستفهام في قوله: {من إله} معناه التوقيف، أي: ليس ثمة إله سواه فما بال تعلقكم بالأصنام وتمسككم بها وهي لا تدفع ضررا ولا تأتي بخير"(١٢).

وقرأ الأعرج وغيره: «به انظر» بضم الهاء، ورواها المسيبي وأبو وجزة عن نافع(١٣).

قوله تعالى:{انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} [الأنعام : ٤٦]، أي:" انظر كيف نبيّن ونوضح الآيات الدالة على وحدانيتنا"(١٤).

قال الطبري:"يقول: انظر كيف نتابع عليهم الحجج، ونضرب لهم الأمثال والعبر، ليعتبروا ويذكروا فينيبوا"(١٥).

قال البغوي:"أي: نبين لهم العلامات الدالة على التوحيد والنبوة"(١).

---

(١) انظر: بحر العلوم:٤٤٩/١.
(٢) التفسير الميسر:١٣٣.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٠٩):ص١٢٩٤/٤.
(٤) الكشاف:٢٤/٢.
(٥) تفسير الطبري:٣٦٥/١١.
(٦) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(٧) التفسير الميسر:١٣٣.
(٨) بحر العلوم:٤٤٩/١.
(٩) تفسير ابن ابي زمنين:٦٩/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٦٥/١١.
(١١) تفسير البغوي:١٤٤/٣.
(١٢) المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.
(١٣) انظر: المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.
(١٤) صفوة التفاسير:٣٦٢/١.
(١٥) تفسير الطبري:٣٦٥/١١.

قال السمرقندي:"أي: كيف تبين لهم العلامات فيما ذكر من تخويفهم"[٢].

قال ابن عطية:"وتصريف الآيات هو نصب العبر ومجيء آيات القرآن بالإنذار والاعذار والبشارة ونحوه"[٣].

قوله تعالى:{ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ} [الأنعام : ٤٦]، أي:" ثم هم بعد ذلك يعرضون عنها فلا يعتبرون"[٤].

عن ابن عباس قوله:"{يصدفون}، قال: يعدلون"[٥].

عن السدي:"{ثم هم يصدفون}، قال: يصدُّون"[٦].

عن مجاهد في قوله:"{يصدفون}، قال: يعرضون"[٧].

عن قتادة في قوله:"{نصرف الآيات ثم هم يصدفون}، قال: يعرضون عنها"[٨].

قال أبو عبيدة:أي:"يعرضون، يقال: صدف عنى بوجهه، أي أعرض"[٩].

قال السمرقندي:"يعني: يعرضون ولا يعتبرون"[١٠].

قال الثعلبي:أي:" يعرضون عنها مكذبين بها"[١١].

قال الزمخشري:"يعرضون عن الآيات بعد ظهورها"[١٢].

قال القرطبي:"أي :مائلون معرضون عن الحجج والدلالات"[١٣].

قال الزجاج:"أي :يعرضون، أعلم الله جل وعز أنه يصرف لهم الآيات، وهيالعلاماتالتي تدل على توحيده، وصحة نبوة نبيه - صلى الله عليه وسلم - ثم هم يعرضون عما وضح لهم وظهر عندهم"[١٤].

قال الطبري:"يقول: ثم هم مع متابعتنا عليهم الحجج، وتنبيهنا إياهم بالعبر، عن الادّكار والاعتبار يُعْرضون، يقال منه:صدف فلانٌ عني بوجهه، فهو يصدِفُ صُدُوفًا وصَدَفًا، أي: عدل وأعرض، ومنه قول ابن الرقاع[١٥]:

إذَا ذَكَرْنَ حَدِيثًا قُلْنَ أَحْسَنَهُ، وَهُنَّ عَنْ كُلِّ سُوءٍ يُتَّقَى صُدُفُ

وقال لبيد[١٦]:

---

(١) تفسير البغوي:١٤٤/٣.

(٢) بحر العلوم:٤٤٩/١.

(٣) المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.

(٤) صفوة التفاسير:٣٦٢/١.

(٥) أخرجه الطبري(١٣٢٤٦):ص٣٦٧/١١.

(٦) أخرجه الطبري(١٣٢٤٨):ص٣٦٨/١١.

(٧) أخرجه الطبري(١٣٢٤٤):ص٣٦٧/١١.

(٨) أخرجه الطبري(١٣٢٤٧):ص٣٦٧/١١.

(٩) مجاز القرآن:١٩٢/١.

(١٠) بحر العلوم:٤٤٩/١.

(١١) الكشف والبيان:١٤٨/٤.

(١٢) الكشاف:٢٤/٢.

(١٣) تفسير القرطبي:٤٢٨/٦.

(١٤) معاني القرآن:٢٤٩/٢.

(١٥) البيت من شواهد الطبري في تفسيره:٣٦٦/١١.

(١٦)ديوانه، القصيدة رقم: ١٢، البيت: ٢٢. وهذا البيت من أبيات أحسن فيها الثناء على نفسه، وقبله:

ولا أقُولُ إذا ما أزْمَةٌ أزَمَتْ ... يَا وَيْحَ نَفْسِيَ مِمَّا أَحْدَثَ القَدَرُ

ولا أضِلُّ بأَصْحَابٍ هَدَيْتُهُمُ ... إذَا المُعَبَّدُ في الظَّلْمَاءِ يَنْتَشِرُ

وأرْبحُ التَّجْرَ، إنْ عَزَّتْ فِصَالُهُمُ ... حَتَّى يَعُودَ سَلِيمًا حَوْلَهُ نَفَرُ

غَرْبُ المَصَبَّةِ، مَحْمُودٌ مَصَارِعُهُ ... لاَهِي النَّهَارِ، أَسِيرُ الليل، مُحْتَقِرُ

يُرْوَى قَوَامحَ. . . . .

ولا أضِلُّ بأَصْحَابٍ هَدَيْتُهُمُ ... إذَا المُعَبَّدُ في الظَّلْمَاءِ يَنْتَشِرُ

وأرْبحُ التَّجْرَ، إنْ عَزَّتْ فِصَالُهُمُ ... حَتَّى يَعُودَ سَلِيمًا حَوْلَهُ نَفَرُ

يُرْوِي قَوامِحَ قَبْلَ اللَّيْلِ صَادِقَةً أَشْبَاهَ جِنٍّ، عَلَيْهَا الرَّيْطُ وَالأُزُرُ "[١]

الفوائد:

١- من فوئاد الآية الكريمة: تحدي هؤلاء الذين أشركوا بالله بهذه المسألة اليسيرة بالنسبة لغيرهم؛ وهي: أن الله إذا أخذ سمعهم وأبصارهم وختم على قلوبهم فإنه لن ينصرفوا إلا إلى الله عز وجل، وهذا تحدٍّ لهم.

٢- ومنها: أن الإنسان إذا أصيب بسمعه أو بصره أو قلبه أو سائر جسده فليلجأ إلى الله عز وجل؛ لأنه لا أحد ينفعه.

٣- ومنها: خطورة انسداد هذه الأمور الثلاثة؛ وهي السمع بحيث لا يسمع الآيات، والبصر لا يراها، والقلب لا يعيها، فعلى الإنسان أن يراعي هذه الأمور الثلاثة.

٤- ومنها: رحمة الله عز وجل؛ حيث صرَّف الآيات للعباد، ولو شاء لترك التصريف وجعل الناس يتخبطون خبط عشواء، لكن من نعمة الله أن الله يري عباده الآيات ويصرفها وينوعها، فهذا من رحمة الله عز وجل؛ يعني: إذا لم يؤمن بهذه الآية آمن بالآية الأخرى وحصل المقصود، وكم من إنسان تفوته آيات كثيرة لا يعتبر بها، ثم يصاب بآية واحدة فيعتبر، حتى إن بعض المستقيمين حكوا لي عن أنفسهم أنهم كانوا منزلقين في الشهوات والتلهي، فلما مات قريبهم استقاموا، كل الآيات السابقة لم ينتفعوا بها، لكن لما مات القريب استقاموا وعرفوا أن مآلهم كمآل هذا، فعادوا إلى الله عز وجل.

٥- ومنها: التشنيع على هؤلاء الذين صرفت لهم الآيات فأعرضوا؛ لقوله: (انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ) أي: ينصرفون عنها ولا يعتبرون بها، فيكون فيه الحذر من تولي الإنسان بعد ظهور الآيات؛ لأنه إذا تولى بعد ظهور الآيات صار من قسم المغضوب عليهم؛ لأنه علم الحق، ولكنه تمرد عليه (ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ).

القرآن

{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ (٤٧)} [الأنعام : ٤٧]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن نزل بكم عقاب الله فجأة وأنتم لا تشعرون به، أو ظاهرًا عِيانًا وأنتم تنظرون إليه: هل يُهلك إلا القوم الظالمون الذين تجاوزوا الحد، بصرفهم العبادة لغير الله تعالى وبتكذيبهم رسله؟

قوله تعالى:{قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً} [الأنعام : ٤٧]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أخبروني إن نزل بكم عقاب الله فجأة وأنتم لا تشعرون به، أو ظاهرًا عِيانًا وأنتم تنظرون إليه"[٢].

إِنْ يُثْلِفُوا يُخْلِفُوا فِي كُلِّ مَنْفَصَةٍ ... مَا أَثْلَفُوا لاِبْتِغَاءِ الحَمْدِ أَوْ عَقَرُوا

"المعبد": الطريق الموطوء، يقول: إذا انتشر الطريق المعبد، فصار طرقًا مختلفة، اهتديت إلى قصده ولزمته، فلم أضل. و"التجر" باعة الخمر، و"الفضال" بقايا الخمر في الباطية والدن. و"عزت": قلت وغلت. يقول: اشتري الخمر بالثمن الغالي إذا عزت، ثم أسقي أصحابي حتى يصرعوا حول الزق، كأنهم يعودون سليما ملدوغًا. وقوله: "غرب المصبة"، يصف"الزق"، يقول: يكثر ما يصبه من خمر، وإذا صرع شاربًا، كانت صرعته محمودة الأثر، محمودة العاقبة. وقوله: "لاهي النهار"، يعني أنه لا يمس بها، فإذا جاء الليل أخذوه كالأسير بينهم، ومحتقر، لأنه يدفع من هنا ومن هنا. وقوله: "يروى قوامح"، يعني الزق، يبلغ بهم الري، و"القوامح": التي كرهت الشراب وعافته. يقول: كانوا يكرهون الشراب نهارًا فيصدفون عنه، فإذا أقبل الليل أقبل على أشباه جن من النشاط والإقبال، عليهم الريط والأزر، يعني أنهم أهل ترف ونعمة إذا جاء الليل، وسمروا، وشربوا.

(١) تفسير الطبري:١١/٣٦٥-٣٦٦.

(٢) التفسيرالميسر:١٣٣.

عن مجاهد:"{قل أرأيتكم إن أتاكم عذاب الله بغتة}، فجأة آمنين ، {أو جهرة}، وهم ينظرون"[١].
قال الزجاج:"البغتة: المفاجأة، والجهر: أو يأتيهم وهم يرونه"[٢].
قال مقاتل:"{بغتة}، يعني: فجأة لا تشعرون حتى ينزل بكم،{أو جهرة}، أو معاينة ترونه حين ينزل بكم: القتل ببدر"[٣].
قال ابن كثير:"{بَغْتَةً} أي:وأنتم لا تشعرون به حتى بغتكم وفجأكم، {أَوْ جَهْرَةً } أي : ظاهرًا عيانًا"[٤].
قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ، المكذبين بأنك لي رسول إليهم: أخبروني {إن أتاكم عذاب الله}، وعقابه على ما تشركون به من الأوثان والأنداد، وتكذيبكم إيايَ بعد الذي قد عاينتم من البرهان على حقيقة قولي، فجأة على غرة لا تشعرون، أو أتاكم عذاب الله وأنتم تعاينونه وتنظرون إليه"[٥].
قال الزمخشري:"لما كانت البغتة أن يقع الأمر من غير أن يشعر به وتظهر أماراته، قيل :بغتة أو جهرة"[٦].
وقال ابن أبي زمنين[٧]، والسمعاني[٨]:"{بغتة} أي: ليلا {أو جهرة} نهارا". وعزاه البغوي إلى ابن عباس والحسن[٩].
قال ابن عطية:"قوله تعالى: {قل أرأيتكم} الآية، وعيد وتهديد، و{بغتة}، معناه: لا يتقدم عندكم منها علم، و{جهرة}، معناه: تبدو لكم مخايله ومباديه ثم تتوالى حتى تنزل"[١٠].
وقرئ:«بغتة أو جهرة»، بتحريك الغين والهاء[١١].
قوله تعالى:{هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الظَّالِمُونَ} [الأنعام : ٤٧]، أي:"هل يُهلك إلا القوم الظالمون الذين تجاوزوا الحد، بصرفهم العبادة لغير الله تعالى وبتكذيبهم رسله؟"[١٢].
قال مقاتل:"يعني: المشركون"[١٣].
قال الزجاج:"أي: هل يهلك الأ أنتم ومن أشبهكم، لأنكم كفرتم معاندين، فقد علمتم أنكم ظالمون"[١٤].
قال الزمخشري:"أى: ما يهلك هلاك تعذيب وسخط إلا الظالمون"[١٥].
قال الطبري:"يقول: هل يهلك الله منا ومنكم إلا من كان يعبد غير من يستحق علينا العبادة، وترك عبادة من يستحق علينا العبادة؟"[١٦].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٢٥٠):ص١١/٣٦٨-٣٦٩.
(٢) معاني القرآن:٢/٢٤٩.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦١.
(٤) تفسير ابن كثير:٣/٢٥٨.
(٥) تفسير الطبري:١١/٣٦٨.
(٦) الكشاف:٢/٢٤.
(٧) تفسير ابن أبي زمنين:٢/٦٩. واللفظ له.
(٨) تفسير السمعاني:٢/١٠٥.
(٩) انظر: تفسير البغوي:٣/١٤٥، وعزاه الزمخشري إلى الحسن، انظر: الكشاف:٢/٢٤.
(١٠) المحرر الوجيز:٢/٢٩٣.
(١١) انظر: الكشاف:٢/٢٤.
(١٢) التفسيرالميسر:١٣٣.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦١.
(١٤) معاني القرآن:٢/٢٤٩.
(١٥) الكشاف:٢/٢٤.
(١٦) تفسير الطبري:١١/٣٦٨.

قال ابن كثير:"أي : إنما : كان يحيط بالظالمين أنفسهم بالشرك بالله عَزَّ وجل وينجو الذين كانوا يعبدون الله وحده لا شريك له ، فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون. كما قال تعالى { الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام : ٨٢]"(١).

قال ابن أبي زمنين:"يخوفهم العذاب؛ إن لم يؤمنوا"(٢).

وأصل «الظلم»: في كلام العرب، وضعُ الشيء في غير موضعه، ومنه قول نابغة بني ذبيان (٣):

إلا أُوَارِيَّ لأيًا مَا أُبَيِّنُهَا وَالنُّؤْيُ كَالحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الجَلَدِ

فجعل الأرض مظلومة، لأن الذي حفر فيها النؤى حَفر في غير موضع الحفر، فجعلها مظلومة، لموضع الحفرة منها في غير موضعها، ومن ذلك قول ابن قَمِيئة في صفة غيث (٤):

ظَلَمَ البِطَاحَ بِهَا انْهِلالُ حَرِيصَةٍ فَصَفَا النِّطَافُ لَهُ بُعَيْدَ المُقْلَعِ

قوله ظلمه إياه: مجيئه في غير أوانه، وانصبابه في غير مصبِّه. ومنه: ظَلم الرجلُ جَزوره، وهو نحره إياه لغير علة. وذلك عند العرب وَضْع النحر في غير موضعه (٥).

وقرأ ابن محيصن:«هل يهلك»، بفتح الياء، والمعنى: هل تهلكون ألا أنتم، لأن الظلم قد تبين في حيزكم (٦).

الفوائد:

١- في هذه الآية: تحذير من نزول العذاب؛ إما بغتة، وإما جهرة، فلا يأمن الإنسان إذا كان عاصيًا أن ينزل به العذاب، ولكن أتظنون أن العذاب هو عقوبة الجسد؟ لا، عقوبة الجسد لا شك أنها عذاب، لكن أكبر من ذلك الإعراضُ عن دين الله عز وجل، كما قال تعالى: (فَإِنْ تَوَلَّوْا فَاعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُصِيبَهُمْ بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ) [المائدة ٤٩]؛ ولهذا قال العلماء رحمهم الله: إن المعاصي بريد الكفر ينزلها الإنسان مرحلة مرحلةً، كما ينزل البريد المسافة مرحلة مرحلةً، حتى يصل إلى الكفر، والعياذ بالله، ووجه ذلك ظاهر؛ لأن المعاصي تقسي القلب وتسود القلب وتوبس القلب حتى يصبح ميتًا وتحل الكارثة، ولكن -الحمد لله- جعل الله لكل داء دواء، المعصية قارنها بالتوبة، وإذا تبت فالتوبة تهدم ما قبلها تكون كأنك لم تذنب، ولله الحمد.

بل إن الإنسان إذا تاب إلى الله توبة نصوحًا ربما تكون حاله بعد التوبة أكمل من حاله قبل المعصية، انظر إلى قول الله تبارك وتعالى: (وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى (١٢١) ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى) [طه ١٢١، ١٢٢]، فارتفعت منزلته حين تاب من المعصية، وهذا شيء مشاهد؛ لأن الإنسان إذا بقي مستمرًا على حاله في طاعة الله بقي قلبه لا يتحرك يفعل الأشياء هذه وكأنها غريزة، إذا أذنب خجل من الله عز وجل واستحيى من الله وأخبت إلى الله تبارك وتعالى، وصار يتذكر هذا الذنب في كل لحظة؛ ولهذا قال بعض السلف: إن المعصية بالنسبة للفاسق كذباب وقع على أنفه فطرده؛

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.

(٢) تفسير ابن أبي زمنين:٦٩/٢.

(٣)ديوانه: ٢٣. يقال: لقيته أصيلالا وأصيلانًا، إذا لقيته بالعشي. وذلك أن الأصيل هو العشي، وجمعه أُصُل (بضمتين) وأصلان (بضم فسكون) ، ثم صغروا الجمع فقالوا: أصيلان، ثم أبدلوا من النون لامًا. فعلوا ذلك اقتدارا على عربيتهم، ولكثرة استعمالهم له حتى قل من يجهل أصله ومعناه. وعى في منطقه: عجز عن الكلام.

(٤)والبيت جاء في بعض كتب التفاسير منسوبًا لعمرو بن قميئة (انظر: تفسيرالقرطبي: ٢/ ٥٠). وصحة نسبته إلى الحادرة الذبياني، وهو في ديوان الحادرة، قصيدة: ٤، البيت رقم: ٧، وشرح المفضليات: ٥٤. والبطاح جمع بطحاء وأبطح: وهو بطن الوادي. وأنهل المطر انهلالا: اشتد صوبه ووقعه. والحريصة والحارصة: السحابة التي تحرص مطرتها وجه الأرض، أي تقشره من شدة وقعها. والنطاف جمع نطفة: وهي الماء القليل يبقى في الدلو وغيره. وقوله: "بعيد المقلع": أي بعد أن أقلعت هذه السحابة. ورواية المفضليات: "ظلم البطاح له" وقوله: "له": أي من أجله.

(٥)انظر: تفسيرالطبري: ١/ ٥٢٤.

(٦) انظر: الكشاف:٢٤/٢، والمحرر الوجيز:٢٩٣/٢

يعني: خفيفة عنده، وأما أهل القلوب الحية فالمعصية كأنها جبل يستثقلها ويخاف منها حتى يتوب إلى الله تبارك وتعالى.

٢- ومنها: أن الكفر أعظم الظلم، والظلم سبب في هلاك الإنسان.

القرآن

{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٤٨)} [الأنعام : ٤٨]

التفسير:

وما نرسل رسلنا إلا مبشرين أهل طاعتنا بالنعيم المقيم، ومنذرين أهل المعصية بالعذاب الأليم، فمن آمن وصدَّق الرسل وعمل صالحًا فأولئك لا يخافون عند لقاء ربهم، ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا.

قوله تعالى:{وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ} [الأنعام : ٤٨]، أي:"وما نرسل رسلنا إلا مبشرين أهل طاعتنا بالنعيم المقيم، ومنذرين أهل المعصية بالعذاب الأليم"(١).

قال ابن كثير:"أي : مبشرين عباد الله المؤمنين بالخيرات ومنذرين من كفر بالله النقمات والعقوبات"(٢).

قال الطبري:يقول:"وما نرسل رسلنا إلا ببشارة أهل الطاعة لنا بالجنة والفوز المبين يوم القيامة، جزاءً منَّا لهم على طاعتنا وبإنذار من عصَانا وخالف أمرنا، عقوبتنا إياه على معصيتنا يوم القيامة، جزاءً منا على معصيتنا، لنعذر إليه فيهلك إن هلك عن بينة"(٣).

قال الزجاج:"أي: ليس إرسالهم بأن يأتوا الناس بما يقترحون عليهم من الآيات، وإنمايأتون من الآيات بما يبين الله به براهينهم، وإنما قصدهم التبشيروالإنذار"(٤).

قال الزمخشري:"{مبشرينومنذرين}، لمن آمن بهم وبما جاءوا به وأطاعهم، ومن كذبهم وعصاهم ولم يرسلهم ليتلهى بهم ويقترح عليهم الآيات بعد وضوح أمرهم بالبراهين القاطعة"(٥).

قال البيضاوي:"مبشرين المؤمنين بالجنة، ومنذرين الكافرين بالنار، ولم نرسلهم ليقترح عليهم ويتلهى بهم"(٦).

عن ابن عباس، قوله: "{مبشرين} قال: مبشرا بالجنة"(٧) ، {ومنذرين}، قال:"نذيرا من النار"(٨).

قال أبي بن كعب:"إن الله إنما بعث الرسل وأنزل الكتاب عند الاختلاف"(٩).

قال قتادة:"فكان أول نبي بعث نوحا صلى الله عليه وسلم"(١٠).

قوله تعالى:{فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ} [الأنعام : ٤٨]، أي:"فمن آمن وصدَّق الرسل وعمل صالحًا"(١١).

قال ابن كثير:"أي : فمن آمن قلبه بما جاءوا به وأصلح عمله باتباعه إياهم "(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.
(٣) تفسير الطبري:٣٦٩/١١.
(٤) معاني القرآن:٢٥٠/٢.
(٥) الكشاف:٢٤/٢.
(٦) تفسير البيضاوي:١٦٢/٢.
(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣١٧):ص١٢٩٥/٤.
(٨) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣١٨):ص١٢٩٥/٤.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣١٥):ص١٢٩٥/٤.
(١٠) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣١٦):ص١٢٩٥/٤.
(١١) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.

قال الطبري:"يقول: فمن صدَّق من أرسلنا إليه من رسلنا إنذارهم إياه، وقبل منهم ما جاؤوه به من عند الله، وعمل صالحًا في الدنيا"(١).
قال السعدي:"أي: آمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله واليوم الآخر، وأصلح إيمانه وأعماله ونيته"(٢).
عن قتادة:"{وأصلح} قال: أصلح ما بينه وبين الله"(٣).
قال الزمخشري:"{وأصلح} ما يجب عليه إصلاحه مما كلف"(٤).
قوله تعالى:{فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ} [الأنعام : ٤٨]، أي:"فأولئك لا يخافون عند لقاء ربهم،"(٥).
قال سعيد بن جبير ومقاتل بن حيان:"يعني: في الآخرة"(٦).
قال الثعلبي:"حين يخاف أهل النار"(٧).
قال ابن كثير:"أي : بالنسبة إلى ما يستقبلونه"(٨).
قال البيضاوي:أي:"من العذاب"(٩).
قال السعدي:"أي: فيما يستقبل"(١٠).
قال الطبري:أي:"عند قدومهم على ربهم، من عقابه وعذابه الذي أعدَّه الله لأعدائه وأهل معاصيه "(١١).
قال محمد رشيد رضا:"أي: فلا خوفعليهم من عذاب الدنيا الذي ينزل بالجاحدين، ولا من عذاب الآخرة الذي أعده الله للكافرين"(١٢).
قوله تعالى:{وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [الأنعام : ٤٨]، أي:"ولا يحزنون على شيء فاتهم من حظوظ الدنيا"(١٣).
قال سعيد بن جبير:" يعني: لا يحزنون للموت"(١٤).
قال السمعاني:"يعني: يوم القيامة"(١٥).
قال البيضاوي:أي:"بفوات الثواب"(١٦).
قال السعدي:أي: "على ما مضى"(١٧).
قال ابن كثير: "أي : بالنسبة إلى ما فاتهم وتركوه وراء ظهورهم من أمر الدنيا وصنيعها ، الله وليهم فيما خلفوه ، وحافظهم فيما تركوه "(١٨).
قال الطبري:أي:" عند ذلك على ما خلَّفوا وراءَهم في الدنيا"(١٩).

---

(١) تفسير الطبري:٣٦٩/١١.
(٢) تفسير السعدي:٢٥٧.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣١٨):ص١٢٩٥/٤.
(٤) الكشاف:٢٤/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٣٣.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٢٠):ص١٢٩٥/٤.
(٧) تفسير الثعلبي:١٤٩/٤.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.
(٩) تفسير البيضاوي:١٦٢/٢.
(١٠) تفسير السعدي:٢٥٧.
(١١) تفسير الطبري:٣٦٩/١١.
(١٢) تفسير المنار:٣٥٠/٧.
(١٣) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٢١):ص١٢٩٥/٤.
(١٥) تفسير السمعاني:١٠٥/٢.
(١٦) تفسير البيضاوي:١٦٢/٢.
(١٧) تفسير السعدي:٢٥٧.
(١٨) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.
(١٩) تفسير الطبري:٣٦٩/١١.

قال محمد رشيد رضا:"ولا هم يحزنون يوم لقاء الله تعالى على شيء فاتهم ; لأن الله تعالى يقيهم من كل فزع: {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ(٢٢){إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ} [القيامة : ٢٢-٢٣]، {وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ(٣٨){ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ} [عبس : ٣٨-٣٩]،ولك أن تقول: إن هؤلاء الكملة لا يحزنون في الدنيا أيضا مما يحزن منه الكفار والفساق كفوات شهوات الدنيا ولذاتها، أو لا يكون حزنهم كحزنهم في شدته وطول أمده، فإنهم إذا عرض لهم الحزن لسبب صريح كموت الولد، والقريب، والصديق، أو فقد المال، وقلة النصير - يكون حزنهم رحمة وعبرة، مقرونا بالصبر وحسن الأسوة، لا يضرهم في أنفسهم ولا أبدانهم، ولا يغير شيئا من عاداتهم وأعمالهم، فالإيمان بالله يعصمهم من إرهاق البأساء والضراء، ومن بطر السراء والنعماء، عملا بقوله عز وجل:{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ(٢٢){لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ} [الحديد : ٢٢-٢٣]"[١].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: منَّة الله عز وجل على عباده بإرسال الرسل، ولا بد من إرسال الرسل، يعني أن حكمة الله عز وجل تقضي بإرسال الرسل؛ لأن العقل البشري لا يستقلّ بمعرفة ما يجب لله من الأسماء، والصفات، والأحكام، ولا يمكن أن يستقل بمعرفة العبادات، فالناس مضطرون غاية الضرورة إلى الرسل، (كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً) [البقرة ٢١٣]: على دين واحد، فلما كفروا تفرقوا واختلفوا، (فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ)، (لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ) [البقرة ٢١٣].

٢- ومنها: أن رسالة الرسل تتضمن هذين الشيئين؛ وهما: البشارة، والإنذار، تكون البشارة لمن أطاع واتبع الرسل، والإنذار لمن كذَّب بالعقوبة، يعني ينذِّر بعقوبة الله عز وجل.

٣- يتفرع على الفائدة السابقة: أن الرسل عليهم الصلاة والسلام لم يأتوا بمجرد الأحكام، أي: بمجرد أن يقولوا: هذا حلال، هذا حرام، بل قَرَنُوا ذلك بالبشارة والإنذار؛ لأن البشارة تحمل الإنسان على فعل المأمور، أليس كذلك؟ لأنك لو بشَّرت إنسانًا بأنه سيحصل على كنز في المكان الفلاني، تجده يسابق إليه، ويفعل ما يوصله إليه، الإنذار يحصل به البعد عن المعاصي، وعلى هذا تتركب دعوة الرسل.

٤- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الناس انقسموا في تقبُّل وقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن، ومكذِّب.

٥- ومنها: حكمة الله عز وجل في انقسام الناس بالنسبة لقبول دعوة الرسل إلى قسمين: مؤمن عمل صالحًا، ومكذِّب، هذا من الحكمة، بل ومن الرحمة، لأنه لو لم يكن كفر لم يُعرَف قدر الإسلام، ولهذا قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه فيما يروى عنه: « قد علمت ورب الكعبة متى تهلك العرب: إذا ولي أمرهم من لم يصحب الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يعالج أمر الجاهلية»[٢]، فمن عرف الكفر ما يمكن ينقض الإسلام.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: أن من جمع بين هذين الوصفين؛ الإيمان والإصلاح، فليبشر أنه لا خوف عليه ولا حزن عليه؛ لقوله: (فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ).

٧- ومنها: أن إصلاح العمل لا يتم إلى بأمرين:

- الأول: الإخلاص لله عز وجل، فمن أشرك مع الله في العبادة فإنه لم يصلح العمل، حتى ولو كان الشرك أصغر؛ لقول الله تبارك وتعالى في الحديث القدسي: «أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ»[٣].

---

(١) تفسير المنار:٣٥٠/٧.

(٢)رواه ابن أبي شيبة في مصنفه (٣٣٠١٢)، والحاكم في مستدركه (٨٥٢٣)، ولفظه: "قد علمْتُ وربِّ الكعبة متى تهلك العرب؛ إذا وُلِّيَ أمرَهم مَن لم يصحبِ الرسولَ ﷺ، ولم يعالج أمرَ الجاهلية".

(٣)أخرجه مسلم (٢٩٨٥ / ٤٦) من حديث أبي هريرة.

- الثاني: المتابعة لرسول الله صلى الله عليه وعلى آله وسلم، فمن لم يتابع الرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم في العبادة فعبادته غير صحيحة، وهو غير مُصْلِح، حتى لو خشع، ورَقَّ قلبه، ودمعت عينه، فإن ذلك لا ينفعه؛ لقول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ»[١]، أي: مردود عليه.

٨- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: تشجيع الإنسان على الإيمان والعمل الصالح، والحث على ذلك بذكر عاقبة هذا المؤمن المصلِح، (فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ).

٩- ومن الفوائد في الآية الكريمة: أن الإيمان وحده لا يكفي، لا بد من إصلاح.

١٠- ومنها: القول بالمفهوم، وهو أن (مَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ)، ومن لم يكن كذلك فعليه الخوف والحزن.

القرآن

{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (٤٩)} [الأنعام : ٤٩]

التفسير:

والذين كذَّبوا بآياتنا من القرآن والمعجزات فأولئك يصيبهم العذاب يوم القيامة، بسبب كفرهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى.

قوله تعالى:{وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا} [الأنعام : ٤٩]، أي:"والذين كذَّبوا بآياتنا من القرآن والمعجزات"[٢].

قال القرطبي:"أي: بالقرآن والمعجزات. وقيل: بمحمد عليه الصلاة والسلام"[٣].

قال الطبري:أي:"وأما الذين كذَّبوا بمن أرسلنا إليه من رسلنا، وخالفوا أمرنا ونهينا، ودافعوا حجتنا"[٤].

قال محمد رشيد رضا:"أي: والذين كذبوا بآياتنا التي أرسلنا بها الرسل"[٥].

قوله تعالى:{يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام : ٤٩]، أي:"فأولئك يصيبهم العذاب يوم القيامة، بسبب كفرهم وخروجهم عن طاعة الله تعالى"[٦].

قال السمعاني:"أي: يصيبهم عذاب النار"[٧].

قال القرطبي:"أ أي يصيبهم [العذاب]، {بما كانوا} يكفرون"[٨].

قال الطبري:أي:"فإنهم يباشرهم عذابُنا وعقابنا، على تكذيبهم ما كذبوا به من حججنا بما كانوا يكذّبون"[٩].

قال ابن كثير:"أي : ينالهم العذاب بما كفروا بما جاءت به الرسل ، وخرجوا عن أوامر الله وطاعته ، وارتكبوا محارمه ومناهيه وانتهاك حرماته "[١٠].

قال السعدي:"{يمسهم العذاب} أي: ينالهم، ويذوقونه"[١١].

قال محمد رشيد رضا:أي:"يصيبهم العذاب في الدنيا أحيانا، ولا سيما عند الجحود والعناد الذي يكون في المجموع دون بعض الأفراد، وفي الآخرة على سبيل الشمول والاطراد،

---

(١)متفق عليه؛ البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨ / ١٨) واللفظ له من حديث عائشة.
(٢) التفسير الميسر:١٣٣.
(٣) تفسير القرطبي:٤٢٩/٦.
(٤) تفسير الطبري:٣٧٠/١١.
(٥) تفسير المنار:٣٥٠/٧.
(٦) التفسير الميسر:١٣٣.
(٧) تفسير السمعاني:١٠٦/٢.
(٨) تفسير القرطبي:٤٢٩/٦.
(٩) تفسير الطبري:٣٧٠/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٥٨/٣.
(١١) تفسير السعدي:٢٥٧.

وذلك بسبب فسقهم، أي كفرهم وإفسادهم، فهؤلاء قد ذكروا في مقابل الذين آمنوا وأصلحوا أنفسهم وأعمالهم ومعاملاتهم، فالتكذيب يقابل الإيمان، والفسق يقابل الإصلاح، وإن كان أعم منه في اللغة والاصطلاح، فهو يطلق على الكفر والخروج من الطاعة"(١).

قال ابن زيد:" كل«فسق» في القرآن، فمعناه: الكذب"(٢).

وقال البغوي:{بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ}، أي:"يكفرون"(٣).

قال ابن عطية:"{يمسهم}، أي: يباشرهم ويلصق بهم"(٤).

قال الزمخشري:"جعل العذاب ماسا، كأنه حى يفعل بهم ما يريد من الآلام. ومنه قولهم:«لقيت منه الأمرين والأقورين»، حيث جمعوا جمع العقلاء، وقوله: {إِذَا رَأَتْهُمْ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا} [الفرقان : ١٢]"(٥).

وقرأ الحسن والأعمش«العذاب بما»، بإدغام الباء في الباء، ورويت عن أبي عمرو، وقرأ يحيى بن وثاب والأعمش :«يفسقون» بكسر السين، وهي لغة(٦).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن التكذيب بآيات الله سبب للعقوبة؛ لقوله: (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، وليُعْلَم أن آيات الله عز وجل تنقسم إلى قسمين: آيات شرعية، وآيات كونية.

- الآيات الشرعية:هي ما جاءت به الرسل من شرائع الله؛ لأنك لو تأملت هذه الأحكام، سواء في الأمة الإسلامية، أو في الأمم السابقة، لوجدتها مطابقة تمامًا للحكمة والمصلحة، وأنه لو اجتمع كل أهل الأرض على أن يأتوا بمثل ذلك ما أتوا، قال الله عز وجل: (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) [المائدة ٥٠].

- أما آيات الله الكونية: فإما أن ينسبها لغير الله، كما يفعل السببيون الملحدون الذين ينسبون الأشياء لأسبابها المحضة، ويرون أن السبب فاعل بنفسه،

فصارت الآيات الكونية هي المخلوقات كلها، والشرعية ما جاءت به الرسل من الوحي.

٢- ومن فوائد الآية الكريمة: أن هؤلاء المكذِّبين سيصيبهم العذاب مباشرة؛ لقوله: (يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ)، وإن أفلتوا من العذاب في الدنيا لم يفلتوا منه في الآخرة.

٣- ومن فوائد الآية: إثبات الأسباب؛ لقوله: (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)، الباء للسببية، وإثبات الأسباب دل عليه العقل والسمع، ولا ينكره إلا أحمق.، والقرآن مملوء من هذا، قال الله تعالى: (وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ) [النحل ٤٤]، وقال: (يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا) [النساء ١٧٦].

٤- ومنها: أن الفسق يطلَق على الكفر؛ لقوله: (بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ)؛ لأنه قال الذين كذبوا بآياتنا كفار لا إشكال، التكذيب بالآيات كفر، قال: بما كانوا يفسقون، واقرأ قول الله تعالى في تنزيل السجدة: (أَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ جَنَّاتُ الْمَأْوَى نُزُلًا بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٩) وَأَمَّا الَّذِينَ فَسَقُوا فَمَأْوَاهُمُ النَّارُ كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا أُعِيدُوا فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ) [السجدة: ١٩، ٢٠]، الفسق هنا كفر، وقد يطلَق الفسق على ما دون الكفر، وهذا هو المراد من كلام الفقهاء رحمهم الله، ومنه قول الله تعالى: (وَلَكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمَانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ

---

(١) تفسير المنار:٣٥٠/٧.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٢٥١):ص٣٧٠/١١.
(٣) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(٤) المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.
(٥) الكشاف:٢٥/٢.
(٦) انظر: المحرر الوجيز:٢٩٣/٢.

وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ) [الحجرات: ٧]، فهنا الفسوق ما دون الكفر، وجه التعيُّن العطف على الكفر، والعطف يقتضي المغايرة.

٥- ومن فوائد الآية: تمام عدل الله عز وجل، حيث إنه لم يعذّب هؤلاء إلا لأنهم استحقوا العذاب بفسقهم جزاءً وفاقًا.

القرآن

{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ (٥٠)} [الأنعام : ٥٠]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إني لا أدَّعي أني أملك خزائن السموات والأرض، فأتصرف فيها، ولا أدَّعي أني أعلم الغيب، ولا أدَّعي أني ملك، وإنما أنا رسول من عند الله، أتبع ما يوحى إليَّ، وأبلِّغ وحيه إلى الناس، قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هل يستوي الكافر الذي عَمِي عن آيات الله تعالى فلم يؤمن بها والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها؟ أفلا تتفكرون في آيات الله; لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟

سبب النزول:

عن ابن عباس في رواية أبي صالح:" أن أهل مكة قالوا: يا محمد، لو أنزل الله عليك كنزا فتستغني به، فانك فقير محتاج أو تكون لك جنة تأكل منها، فانك تجوع، فنزلت هذه الآية"[١].

قال السمعاني:"قوله - تعالى -: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ}، أنزل هذا حين اقترحوا الآيات، وكانوا يقولون: لن نؤمن لك حتى تنزل علينا كتابا من السماء، وسائر مااقترحوا من الآيات؛ فنزل قوله: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ}، فأعطيكم ما تريدون"[٢].

قال البغوي:"نزل حين اقترحوا الآيات فأمره أن يقول لهم: {لا أقول لكم عندي خزائن الله}"[٣].

قال ابن عطية: هذه الآية"من الرد على القائلين لولا أنزل عليه آية والطالبين أن ينزل ملك أو تكون له جنة أو أكثر أو نحوهذا، والمعنى: لست بهذه الصفات فيلزمني أن أجيبكم باقتراحاتكم"[٤].

قوله تعالى:{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إني لا أدَّعي أني أملك خزائن السموات والأرض، فأتصرف فيها"[٥].

قال الثعلبي: "يعني: رزق الله"[٦].

قال الواحدي:أي: الخزائن:"التي منها يرزق ويعطي"[٧].

قال البغوي:"أي: خزائن رزقه فأعطيكم ما تريدون"[٨].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل لهؤلاء المنكرين نبوّتك: لستُ أقول لكم إنّي الرب الذي له خزائنُ السماوات والأرض"[٩].

---

(١) انظر: زاد المسير:٣١/٢، وأبوصالح لم يسمع ابن عباس فهو منقطع.
(٢) تفسير السمعاني:١٠٥/٢-١٠٦.
(٣) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(٤) المحرر الوجيز:٢٩٤/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٣٣.
(٦)الكشف والبيان:١٤٩/٤.
(٧) الوجيز:٣٥٤.
(٨) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(٩) تفسير الطبري:٣٧١/١١.

قال الزجاج:"هذا متصل بقوله: {لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِنْ رَبِّهِ} [الأنعام : ٣٧]، فأعلمهم النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه لا يملك خزائن الله التي بها يرزق ويعطي"[١].

وقال مقاتل:"يعني: مفاتيح الله بنزول العذاب"[٢].

قال الزمخشري:"أى: لا أدعى ما يستبعد في العقول أن يكون لبشر من ملك خزائن الله- وهي قسمه بين الخلق وإرزاقه"[٣].

وفي قوله تعالى:{قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ} [الأنعام : ٥٠]، وجهان من التفسير:
أحدهما: الرزق ، أي لا أقدر على إغناء فقير ، ولا إفقار غني ، قاله الكلبي[٤].
والثاني : مفاتيح خزائن العذاب، لأنه خَوَّفَهُم منه ، فقالوا متى يكون هذا؟، أو لقولهم:{ائْتِنَا بِعَذَابِ الله} [العنكبوت : ٢٩].وهذا قول مقاتل[٥]، وبه قال ابن أبي زمنين[٦].

قوله تعالى:{وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"ولا أدَّعي أني أعلم الغيب"[٧].

قال الثعلبي: يعني: "ما يخفى عن الناس"[٨].

قال الواحدي:"فأخبركم بعاقبة ما تصيرون إليه "[٩].

قال البغوي:"فأخبركم بما غاب مما مضى ومما سيكون"[١٠].

قال الطبري:أي:"[ولستُ أقول لكم إنّي] أعلم غيوب الأشياء الخفية التي لا يعلمها إلا الرب الذي لا يخفى عليه شيء، فتكذبوني فيما أقول من ذلك، لأنه لا ينبغي أن يكون ربًّا إلا من له ملك كل شيء، وبيده كل شيء، ومن لا يخفى عليه خافية، وذلك هو الله الذي لا إله غيره"[١١].

قال الزجاج:أخبرهم بـ"أنه لا يعلم الغيب فيخبرهم بما غاب عنه مما مضى، وما سيكون إلا بوحي من الله جل وعز"[١٢].

قال السمعاني:"و«الغيب»: كل ما غاب عنك ويكون ماضيا، ويكون في المستقبل، والماضي منه يجوز أن يعلمه الإنسان بخبر مخبر ونحوه. فأما المستقبل فلا يعلمه إلا الله، ورسول ارتضاه، كما قال في «سورة الجن»[١٣]، وقوله: {ولا أعلم الغيب} فيه إضمار، أي: ولا أعلم الغيب إلا ما أعلمنيه الله"[١٤].

قال ابن عطية:"وقوله:{لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ} [الأنعام : ٥٠]، يحتمل معنيين:
أظهرهما: أن يريد أنه بشر لا شيء عنده من خزائن الله ولا من قدرته ولا يعلم شيئا مما غيب عنه.

---

(١) معاني القرىن:٢٥٠/٢.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٢/١.
(٣) الكشاف:٢٥/٢.
(٤) انظر: النكت والعيون:١١٥/٢.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٢/١.
(٦) انظر: تفسير ابن ابي زمنين:٦٩/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٣٣.
(٨)الكشف والبيان:١٤٩/٤.
(٩) الوجيز:٣٥٤.
(١٠) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(١١) تفسير الطبري:٣٧١/١١.
(١٢) معاني القرىن:٢٥٠/٢.
(١٣) وهو قوله: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا(٢٦) إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ فَإِنَّهُ يَسْلُكُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ رَصَدًا} [الجن : ٢٦-٢٧].
(١٤) تفسير السمعاني:١٠٦/٢.

والآخر: أنه ليس بإله، فكأنه قال: لا أقول لكم إني أتصف بأوصاف إله في أن عندي خزائنه وأني أعلم الغيب"[1]. وهذا هو قول الإمام الطبري[2].

قوله تعالى:{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"ولا أدَّعي أني ملك"[3].

قال الثعلبي: "فتنكرون قولي وتجحدون أمري"[4].

قال ابن أبي زمنين:"إنما أنا بشر، ولكني رسول يوحى إليّ" [5].

قال الزجاج:"أي: الملك يشاهد من أمور الله عز وجل ما لا يشاهده البشر"[6].

قال البغوي:"قال ذلك لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي ويشاهد ما لا يشاهده الآدمي، يريد لا أقول لكم شيئا من ذلك فتنكرون قولي وتجحدون أمري"[7].

قال مقاتل:"لقولهم في «حم السجدة»: {لَوْ شَاءَ رَبُّنَا لَأَنْزَلَ مَلَائِكَةً} [فصلت : ١٤]، رسلا فنؤمن بهم، فأما أنت يا محمد فلا نصدقك فيما تقول"[8].

قال الطبري:"لأنه لا ينبغي لملك أن يكون ظاهرًا بصورته لأبصار البشر في الدنيا، فتجحدوا ما أقول لكم من ذلك"[9].

قال الزمخشري:أي: ولا أدعي:"أنى من الملائكة .. أى: لم أدع إلهية ولا ملكية، لأنه ليس بعد الإلهية منزلة أرفع من منزلة الملائكة، حتى تستبعدوا دعواي وتستنكرونها"[10].

قال السمعاني:"إنما أمره بذلك؛ لأن الملك يقدر على ما لا يقدر عليه الآدمي، وقيل: لأن الملك يشاهد ما لا يشاهد الآدمي، واستدل بهذا من فضل الملائكة على الآدميين[11]، وليس فيه مستدل، ومعناه: ما بينا"[12].

وفي قوله تعالى:{وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ} [الأنعام : ٥٠]، وجهان[13]:

أحدهما : أنه يريد أنه لا يقدر على ما يعجز عنه العباد ، وإن قدرت عليه الملائكة .

والثاني : أنه يريد بذلك أنه من جملة البشر وليس بمَلَك ، لينفي عن نفسه غُلُوَّ النصارى في المسيح وقولهم : إنه ابن الله .

ثم في نفيه أن يكون ملكاً وجهان [14]:

أحدهما : أنه بَيَّنَ بذلك فضل الملائكة على الأنبياء ، لأنه دفع عن نفسه منزلة ليست له .

والثاني : أنه أراد إني لست ملكاً في السماء ، فأعلم غيب السماء الذي تشاهده الملائكة ويغيب عن البشر ، وإن كان الأنبياء أفضل من الملائكة مع غيبهم عما تشاهده الملائكة .

قال ابن عطية:"وتعطي قوة اللفظ في هذه الآية الملك أفضل من البشر، وليس ذلك بلازم من هذا الموضع، وإنما الذي يلزم منه أن الملك أعظم موقعا في نفوسهم وأقرب إلى الله، والتفضيل يعطيه المعنى عطاء خفيا وهو ظاهر من آيات أخر، وهي مسألة خلاف"[15].

---

(١) المحرر الوجيز:٢/٢٩٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري:١١/٣٧١.

(٣) التفسير الميسر:١٣٣.

(٤)الكشف والبيان:٤/١٤٩.

(٥) تفسير ابن ابي زمنين:٢/٦٩.

(٦) معاني القرىن:٢/٢٥٠.

(٧) تفسير البغوي:٣/١٤٥.

(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦٢.

(٩) تفسير الطبري:١١/٣٧١.

(١٠) الكشاف:٢/٢٥.

(١١)الملائكة هم أشرف جنس عند المعتزلة، أماعند أهل السنة، فالبشر أشرف،على ما تقرر في التوحيد. والله أعلم.

(١٢) تفسير السمعاني:٢/١٠٦.

(١٣) انظر: النكت والعيون:٢/١١٦.

(١٤) انظر: النكت والعيون:٢/١١٦.

(١٥) المحرر الوجيز:٢/٢٩٤.

قوله تعالى:{إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"وإنما أنا رسول من عند الله، أتبع ما يوحى إليَّ، وأبلِّغ وحيه إلى الناس"(١).

قال الواحدي:"أيْ: ما أخبركم إلاَّ بما أنزل الله عليّ"(٢).

قال ابن أبي زمنين:"أي: إنما أبلغ عن الله ما أمرني به" (٣).

قال مقاتل:"من القرآن"(٤).

قال ابن عطية:"{ما يوحى}، يريد القرآن وسائر ما يأتي به الملك، أي: وفي ذلك عبر وآية لمن تأمل ونظر"(٥).

قال الطبري:"يقول: قل لهم: ما أتبع فيما أقول لكم وأدعوكم إليه، إلا وحي الله الذي يوحيه إليّ، وتنزيله الذي ينزله عليّ، فأمضي لوحيه وأئتمر لأمره، وقد أتيتكم بالحجج القاطعة من الله عذركم على صحة قولي في ذلك، وليس الذي أقول من ذلك بمنكر في عقولكم ولا مستحيل كونه، بل ذلك مع وجود البرهان على حقيقته هو الحكمة البالغة، فما وجه إنكاركم ذلك؟وذلك تنبيه من الله تعالى نبيَّه صلى الله عليه وسلم على موضع حُجته على منكري نبوّته من مشركي قومه"(٦).

قال الثعلبي:"وذلك غير منكر ولا مستحيل في العقل مع وجود الدلائل والحجة البالغة"(٧).

قال الزجاج:"فأعلمهمأنه يتبع الوحي فقال: {إن أتبع إلا ما يوحى إلي}، أي: ما أنبأتكم به من غيب فيما مضى، وفيما سيكون فهو بوحي مناالله، فأما الإنباء بما مضى، فإخبار بقصص الأمم السالفة، والإخبار بماسيكون كقوله:{غُلِبَتِ الرُّومُ(٢)فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ(٣)فِي بِضْعِ سِنِين...(٤)} [الروم : ٢-٤]، فوجد من ذلك ما أنبأ به، ونحو قوله: {وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} [المائدة : ٦٧]، فاجتهدوا في قتله، فلم يصلوا إلى ذلك.

وقوله: {لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ} [التوبة : ٣٣، الفتح:٢٨، الصف:٩]، وما يروى من الأخبار عنه بما يكون أكثر من أن يحصى "(٨).

قوله تعالى:{قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: هل يستوي الكافر الذي عَمِي عن آيات الله تعالى فلم يؤمن بها والمؤمن الذي أبصر آيات الله فآمن بها؟"(٩).

قال الواحدي:أيْ: "الكافر والمؤمن"(١٠).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره: قل، يا محمد،لهم: هل يستوي الأعمى عن الحق،والبصير به،و{الأعمى}، هو الكافر الذي قد عَمِى عن حجج الله فلا يتبيَّنها فيتبعها و{البصير}، المؤمن الذي قد أبصرَ آيات الله وحججه، فاقتدى بها واستضاء بضيائها"(١١).

قال مقاتل:"{الأعمى} بالهدى فلا يبصره وهو الكافر،{والبصير} بالهدى وهو المؤمن"(١٢).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٣.
(٢) الوجيز:٣٥٤.
(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٦٩/٢.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٢/١.
(٥) المحرر الوجيز:٢٩٤/٢.
(٦) تفسير الطبري:٣٧١/١١.
(٧)الكشف والبيان:١٤٩/٤.
(٨) معاني القرىن:٢٥٠/٢-٢٥١.
(٩) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٠) الوجيز:٣٥٤.
(١١) تفسير الطبري:٣٧/١١-٣٧٢.
(١٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٢/١.

قال ابن أبي زمنين:"{الأعمى} يعني: الذي لا يبصر {والبصير} الذي يبصر؛ هذا مثل المؤمن والكافر"[١].

عن مجاهد في قول الله تعالى ذكره:"{قل هل يستوي الأعمى والبصير}، قال: الضال والمهتدي"[٢].

قال قتادة:"{الأعمى}، الكافر الذي قد عمي عن حق الله وأمره ونعمه عليه، و{البصير}، العبد المؤمن الذي أبصر بصرًا نافعًا، فوحّد الله وحده، وعمل بطاعة ربه، وانتفع بما آتاه الله"[٣].

قال السمعاني:"{الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}: قيل: الجاهل والعالم "[٤].

قال الزمخشري:{الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ}:"مثل للضال والمهتدى، ويجوز أن يكونمثلا لمن اتبع ما يوحى إليه. ومن لم يتبع. أو لمن ادعى المستقيم وهو النبوة، والمحال وهو الإلهية أو الملكية"[٥].

قال ابن عطية:"أي: قل لهم إنه لا يستوي الناظر المفكر في الآيات أو المعرض الكافر المهمل للنظر، فالأعمى والبصير مثالان للمؤمن والكافر"[٦].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} [الأنعام : ٥٠]، أي:"أفلا تتفكرون في آيات الله; لتبصروا الحق فتؤمنوا به؟"[٧].

قال مقاتل:"يعنى: فهلا يتفكرون فتعلمون أنهما لا يستويان"[٨].

قال البغوي:"أي: أنهما لا يستويان"[٩].

قال ابن عطية:"أي: ففكروا أنتم وانظروا، وجاء الأمر بالفكرة في عبارة العرض والتحضيض "[١٠].

قال الطبري:"يقول لهؤلاء الذين كذبوا بآيات الله: أفلا تتفكرون فيما أحتجّ عليكم به، أيها القوم، من هذه الحجج، فتعلموا صحة ما أقول وأدعوكم إليه، من فساد ما أنتم عليه مقيمون من إشراك الأوثان والأنداد بالله ربّكم، وتكذيبكم إياي مع ظهور حجج صدقي لأعينكم، فتدعوا ما أنتم عليه من الكفر مقيمون، إلى ما أدعوكم إليه من الإيمان الذي به تفوزون؟"[١١].

قال الزمخشري:أي:"فلا تكونوا ضالين أشباه العميان. أو فتعلموا أنى ما ادعيت ما لا يليق بالبشر. أو فتعلموا أن أتباع ما يوحى إلى مما لا بد لي منه"[١٢].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أنه يجب على النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم أن يعلِن للأمة ما أمره الله به؛ (لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ).
٢- ومنها: أن ما صُدِّر بـ {قُلْ} بالنسبة للرسول ﷺ كان ذلك دليلًا على أهميته، وأن الله تعالى أوصى نبيه أن يُبَلِّغه خاصة، مما يدل على العناية به.

---

(١) تفسير ابن ابي زمنين:٧٠/٢.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٢٥٢):ص٣٧٢/١١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٢٥٤):ص٣٧٢/١١.
(٤) تفسير السمعاني:١٠٦/٢.
(٥) الكشاف:٢٥/٢-٢٦.
(٦) المحرر الوجيز:٢٩٤/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٣٣.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٢/١.
(٩) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(١٠) المحرر الوجيز:٢٩٤/٢.
(١١) تفسير الطبري:٣٧/١١-٣٧٢.
(١٢) الكشاف:٢٦/٢.

٣- ومن فوائد هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يملك خزائن الله عز وجل، أي: خزائن الرزق، ولذلك يعيش ﷺ الشهرين والثلاثة لا يُوقَد في بيته نار(١)، ولو كان عنده خزائن الله لأدركها، مع أنه لو شاء لدعا ربه أن يحقّق له ما يريد، لكنه ﷺ خُيِّرَ بين أن يكون عبدًا نبيًّا، أو ملكًا نَبيًّا، فاختار أن يكون عبدًا نَبيًّا(٢).

٤- ومن فوائد هذه الآية: أن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لا يعلم الغيب؛ لقوله: (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ).

فإن قال قائل: أليس النبي ﷺ يحدِّث عن أشياء مستقبَلة؟

فالجواب: بلى، ولكن بوحي من الله عز وجل، والله تبارك وتعالى يعلم الغيب، ولهذا نقول: كل ما أخبر به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم من أمور المستقبل فهي بوحي خاص من الله عز وجل، وحينئذ لا ينافي ما أخبر به من أمور الغيب ما ذكره الله تعالى في هذه الآية: (وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ)؛ لأن علمه بالمستقبل بما أوحى الله إليه ليس علمًا ذاتيًّا أدركه بنفسه، ولكنه علم من عند الله عز وجل، كما أن الإنسان يرى الرؤيا الصالحة في المنام وينتفع بها في المستقبل، و«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»(٣).

٥- ومن فوائد هذه الآية: الرد الصريح على من قالوا: إن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم يعلم الغيب، ثم لَبَّسوا وشَبَّهُوا بما أخبر به من المغيَّبَات التي أوحى الله إليه بها، فيقال: الأصل أنه لا يعلم الغيب، وإذا جاء شيء تحدث به النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم عن المستقبل فإننا نعلم أن ذلك بوحي خاص من الله تبارك وتعالى.

٦- ومن فوائد هذه الِآية: أن الملك قد يتصور بصورة إنسان؛ لقوله: (وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ)؛ لأنه لولا أنه يمكن تصوره بصورة إنسان ما احتيج إلى النفي؛ إذ إنه معلوم بدون نفي، وهذا هو الواقع، وقد جاء جبريل عليه السلام بصورة البشر.

٧- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: الرد على الذين قالوا: (لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ) [الأنعام ٨]، وقالوا: لولا نزل عليه الملائكة، فإن الملائكة لا يمكن أن ينزلوا ليكونوا رسلًا إلى البشر، كما قال عز وجل: (وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ) [الأنعام ٩].

٨- ومن فوائد الآية: كمال عبودية النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم لله عز وجل؛ لقوله: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)، لا يزيد ولا ينقص، حتى لو كان الذي نزل إليه على شخصيته عليه الصلاة والسلام، فإنه لا يمكن أن يدعه، وانظر إلى قول الله تعالى: (وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ) [الأحزاب ٣٧]، كلمات عظيمة، يوجِّهها الله عز وجل إلى نبيه صلى الله عليه وعلى آله وسلم، ولو كان كاتمًا شيئًا مما أوحاه الله إليه لكتم هذا؛ لأنه شيء عظيم، أو كقوله: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ اتَّقِ اللَّهَ وَلَا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ) [الأحزاب ١].

٩- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أن الشرائع توقيفية لا يجوز لأحد أن يبتدع منها شيئًا، كقوله: (إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)، ولهذا قرَّر أهل العلم أن الأصل في العبادات المنع والحظر، وأنه لا يجوز للإنسان أن يتعبد لله تعالى بشيء إلا ما أذن الله فيه شرعًا، وهذا حق مستنِد إلى آيات متعددة، وإلى قول النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَدٌّ»(٤).

---

(١)أخرجه أحمد (٩٢٤٩) من حديث أبي هريرة..

(٢)أخرجه النسائي في السنن الكبرى (٦٧١٠) من حديث عبد الله بن عباس.

(٣)متفق عليه، البخاري (٦٩٨٩) ومسلم (٢٢٦٣ / ٨) من حديث أبي هريرة.

(٤)متفق عليه؛ البخاري (٢٦٩٧)، ومسلم (١٧١٨ / ١٧) من حديث عائشة.

١٠- ومنها: إثبات وحي الله له؛ لقوله: (إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ)، وأنواع الوحي مذكورة في قوله تعالى: (وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ) [الشورى ٥١].

١١- ومن فوائد هذه الآية الكريمة: أنه لا يستوي الأعمى والبصير، ولا يمكن أن يستويَا؛ لقوله: (قُلْ هَلْ يَسْتَوِي)، ووجهه أن الاستفهام هنا بمعنى النفي، والاستفهام بمعنى النفي مُضَمَّن أو مُشْرَب معنى التحدي.

١٢- ومنها: أنه كما أنه لا يستوي الأعمى والبصير حِسًّا، فلا يستوي الأعمى والبصير معنًى،فالجاهل أعمى والعالِم بصير.

١٣- ومن فوائد الآية الكريمة: الحث على التفكر؛ لقوله: (أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ).

١٤- ومنها: ذم مَن لم يتفكر؛ لأن الاستفهام هنا للتوبيخ، ولكن التفكر في الأمور على حسب الواقع، لا يتخيل أشياء لا تمت للواقع بصلة، ولا يتفكر في أشياء لا يمكنه الوصول إليها، فلو أراد أحد أن يتفكر في ذات الله عز وجل فإنه لا يجوز؛ لأنه لا يمكن الوصول إليه، ولو أراد أن يتفكر في كيفية النزول إلى السماء الدنيا فلا يجوز؛ لأن ذلك لا يمكن الوصول إليه، والله عز وجل قال: (لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ) [الأنعام ١٠٣]، فإذا كان البصر الذي يدرك الأشياء إدراكًا حسيًّا لا يمكن أن يدرك الله عز وجل، فالفكر من باب أولى.

عليه يكون التفكر في الأمور الواقعة، في آيات الله عز وجل الكونية والشرعية؛ فالآيات الكونية هي المخلوقات، وما أبدع الله فيها من الحِكم والأسرار العظيمة، والآيات الشرعية هي الأحكام الشرعية التي شرعها الله للعباد، وجعلها صالحة لكل زمان ومكان، يعني إذا طُبِّقَت الشريعة فهي صالحة لكل زمان ومكان، لا يمكن أن تُدَمِّر.

وهنا نقف لنذكر من توسل بهذه العبارة إلى تكييف الشريعة حسب الواقع، فإن هذا غلط عظيم، والواجب تكييف الواقع حسب الشريعة، وإذا كُيِّفَ الواقع حسب الشريعة صلحت الأمور، أما أن يكيِّف الشريعة على الواقع ويكون لنا في كل زمان شريعة، أو في كل مكان شريعة، أو في كل أمة شريعة، فهذا يعني أن الشريعة تُبَدَّل، وتُعَدَّل، وتدخلها الأهواء، وهذا شيء ممتنع، فإذن التفكر في آيات الله عز وجل الكونية والشرعية.

كذلك أيضًا تفكر في أسمائه وصفاته، التفكر في الاسم ماذا يدل عليه من الصفة، سواء كانت الدلالة دلالة تضمُّن، أو دلالة مطابقة، أو دلالة التزام.

القرآن

{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١)} [الأنعام : ٥١]

التفسير:

وخوِّف -أيها النبي- بالقرآن الذين يعلمون أنهم يُحشرون إلى ربهم، فهم مصدِّقون بوعد الله ووعيده، ليس لهم غير الله وليّ ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عنده تعالى، فيخلصهم من عذابه; لعلهم يتقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي.

سبب النزول:

أخرج ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس:"مرّ الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده خباب وبلال وصهيب فقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أتأمرنا أن نكون

تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلنا نتبعك. فأنزل الله:{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ}، إلى قوله: {وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام : ٥٥]، الآيات:[٥٢- ٥٥]"(١).

وعنه –أيضا-رضي الله عنهما-؛ قال: "نزلت هذه الآية: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ} في بلال، وصهيب، وعمار، ومهجع، وعامر بن فهيرة، وخباب، وسالم"(٢). [موضوع]

قوله تعالى:{وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ} [الأنعام : ٥١]، أي:"أي خوِّف يا محمد بهذا القرآن المؤمنين المصدقين بوعد الله ووعيده الذي يتوقعون عذاب الحشر"(٣).

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: وأنذر، يا محمد، بالقرآن الذي أنزلناه إليك، القومَ الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم، علمًا منهم بأن ذلك كائن، فهم مصدقون بوعد الله ووعيده، عاملون بما يرضي الله، دائبون في السعي، فيما ينقذهم في معادهم من عذاب الله"(٤).

قال الزجاج:"قوله: {وأنذر به}، أي بالقرآن، وإنما ذكر الذين يخافون الحشر، دونغيرهم وهو - صلى الله عليه وسلم - منذر جميع الخلق، لأن الذين يخافون الحشر الحجة عليهم أوجب، لأنهم أفهم بالميعاد، فهم أحد رجلين، إما رجل مسلم فيؤدي حق الله في إسلامه، وإما رجل من أهل الكتاب، فأهل الكتاب أجمعون معترفونبأن الله جل ثناوه خالقهم، وأنهم مبعوثون"(٥).

قال أبو حيان:"لما أخبر أنه لا يتبع إلا ما يوحى إليه أمره الله تعالى أن ينذر به فقال: {وأنذر به} أي بما أوحي إليك. وقيل: يعود على الله أي بعذاب الله. وقيل: يعود على الحشر وهو مأمور بإنذار الخلائق كلهم وإنما خص بالإنذار هنا من خاف الحشر لأنه مظنة الإيمان، وكأنه قيل: الكفرة المعرضون دعهم ورأيهم وأنذربالقرآن من يرجى إيمانه"(٦).

قال البغوي:أي:"خوف بالقرآن، {الذين يخافون أن يحشروا} يجمعوا ويبعثوا إلى ربهم، وقيل: يخافون أي يعلمون، لأن خوفهم إنما كان من علمهم"(٧).

قال السمعاني:"{وانذر به}، أي: خوف به {الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} قيل: هم المسلمون، وقيل: كل من يؤمن بالبعث من المسلمين وأهل الكتاب"(٨).

قال الزمخشري:"{وأنذر به} الضمير راجع إلى قوله:{ما يوحى إلي} و{الذين يخافون أن يحشروا}، إما قوم داخلون في الإسلام مقرون بالبعث، إلا أنهم مفرطون في العمل، فينذرهم بما يوحى إليهلعلهم يتقون أى يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين. وإما أهل الكتاب لأنهم مقرون بالبعث. وإما ناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار، دون المتمردين منهم، فأمر أن ينذر هؤلاء"(٩).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم(٧٣٢٦):ص١٢٩٦/٤.

(٢)أخرجه أبونعيم الأصبهاني في "معرفة "الصحابة" (٥/ ٢٦١٤ رقم ٦٢٩٦)،وابن منده في "معرفة "الصحابة"، وأبوموسى المديني في "الصحابة"؛ كما في "أسد الغابة" (٤/ ٥٠٤)،و"الإصابة" (٣/ ٤٦٧) من طريق السدي الصغيرعن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس به.

قلنا: وهذا موضوع؛من دون ابن عباس متهمون.

(٣) صفوة التفاسير:٣٦٣/١.

(٤) تفسير الطبري:٣٧٣/١١.

(٥) معاني القرآن:٢٥١/٢.

(٦) البحر المحيط:٥١٩/٤-٥٢٠.

(٧) تفسير البغوي:١٤٥/٣.

(٨) تفسير السمعاني:١٠٦/٢.

(٩) الكشاف:٢٦/٢.

قال أبو حيان:"وظاهر قوله: {الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} عموم من خاف الحشر وآمن بالبعث من مسلم ويهودي ونصراني فلا يتخصص بالمسلمين المقرين بالبعث إلا أنهم مفرطون في العمل فينذرهم بما أوحي إليه"(١).

عن السدي قوله: "{وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع}، هؤلاء المؤمنون"(٢).

وقال الفضيل بن عياض: "ليس كل خلقه عاتب، إنما عاتب الذين يعقلون فقال: {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم}"(٣).

قوله تعالى:{لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ} [الأنعام : ٥١]، أي:"ليس لهم غير الله وليّ ينصرهم، ولا شفيع يشفع لهم عنده تعالى، فيخلصهم من عذابه"(٤).

قال ابن كثير:" أي : لا قريب لهم ولا شفيع فيهم من عذابه إن أراده بهم"(٥).

قال الطبري:"أي: ليس لهم من عذاب الله إن عذبهم ،{وليّ}، ينصرهم فيستنقذهم منه، {ولا شفيع}، يشفع لهم عند الله تعالى ذكره فيخلصهم من عقابه"(٦).

قال البغوي:أي:"{ليس لهم من دونه} من دون الله، {ولي} قريب ينفعهم، {ولا شفيع} يشفع لهم"(٧).

قال الزجاج:"لأن النصارى، واليهود ذكرت أنها أبناء الله وأحباؤه، فأعلم الله أنه لاولي له إلا المؤمنون، وأن أهل الكفر ليس لهم عن دون الله ولي ولا شفيع"(٨).

قال السمعاني:"فإن قيل: أليس يشفع الأنبياء والأولياء يوم القيامة، فما معنى قوله: {ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع} ؟

قلنا: معناه: لا شفاعة إلا بإذنه، وهم إنما يشفعون بإذنه، أو هذا رد لما زعموا أن الملائكة والأصنام يشفعون لنا"(٩).

قوله تعالى:{لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام : ٥١]، أي:"لعلهم يتقون الله تعالى بفعل الأوامر واجتناب النواهي"(١٠).

قال مجاهد:"لعلهم يطيعون"(١١).

قال الضحاك:" لعلهم يتقون النار بالصلوات الخمس"(١٢).

قال الزمخشري:"أى: يدخلون في زمرة المتقين من المسلمين"(١٣).

قال ابن كثير:" أي : أنذر هذا اليوم الذي لا حاكم فيه إلا الله ، عَزَّ وجل { لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } فيعملون في هذه الدار عملا ينجيهم الله به يوم القيامة من عذابه ، ويضاعف لهم به الجزيل من ثوابه "(١٤).

قال الطبري:"يقول: أنذرهم كي يتقوا الله في أنفسهم، فيطيعوا ربهم، ويعملوا لمعادهم، ويحذروا سَخطه باجتناب معاصيه"(١).

---

(١) البحر المحيط:٥٢٠/٤.
(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٢٧):ص١٢٩٦/٤.
(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٢٨):ص١٢٩٧/٤.
(٤) التفسير الميسر:١٣٣.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(٦) تفسير الطبري:٣٧٣/١١.
(٧) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(٨) معاني القرآن:٢٥١/٢.
(٩) تفسير السمعاني:١٠٦/٢.
(١٠) صفوة التفاسير:٣٦٣/١.
(١١) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٣٠):ص١٢٩٧/٤.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٢٩):ص١٢٩٧/٤.
(١٣) الكشاف:٢٦/٢.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.

قال البغوي:أي:"فينتهون عما نهوا عنه"[٢].

قال أبو حيان:"أي: يدخلون في زمرة أهل التقوى ولا بأهل الكتاب ولا بناس من المشركين علم من حالهم أنهم يخافون إذا سمعوا بحديث البعث أن يكون حقا فيهلكوا، فهم ممن يرجى أن ينجع فيهم الإنذار دون المتمردين منهم، و{يخافون} باق على حقيقته، أي: يخافون ما يترتب على الحشر من مؤاخذتهم بذنوبهم، وأما الحشر فمتحقق"[٣].

وقال الفراء:"يقول: يخافون أن يحشروا إلى ربهم علما بأنه سيكون. ولذلك فسر المفسرون {يخافون}: يعلمون"[٤].

قال الطبري:"فوضعت«المخافة» موضع«العلم»،لأنّ خوفهم كان من أجل علمهم بوقوع ذلك ووجوده من غير شك منهم في ذلك"[٥].

قال ابن عطية:"وهذا غير لازم، «ويخافون» على بابها في الخوف أي الذين يخافون ما تحققوه من أن يحشروا ويستعدون لذلك، ورب متحقق لشيء مخوف وهو لقلة النظر والحزم لا يخافه ولا يستعد له"[٦].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: وجوب الإنذار بالقرآن، ويتفرع من هذا: أن خير ما يُنْذَر به هو القرآن؛ لأنه أبلغ المواعظ في الإنذار، لكن كما قال الله عز وجل: (لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ) [ق ٣٧].

٢- ومن الفوائد: أنه لا ينتفع بالإنذار بالقرآن إلا الذين يؤمنون باليوم الآخر؛ لقوله: (أَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ).

٣- ومنها: إثبات الحشر إلى الله عز وجل، وهذا يكون يوم القيامة، تُحْشَر الخلائق إلى ربها عز وجل ليقضي بينهم قضاء دائرًا بين العدل والفضل؛ العدل للكفار، والفضل للمؤمنين.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: أنه لا أحد يمنع من الله؛ لقوله: (لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ).

٥- ومن فوائدها: إثبات الشفاعة؛ لأنه لولا وجودها ما صح نفيها، والشفاعة أنواع:

- منها: الشفاعة العظمى ليُقْضَى بين الناس، هذه خاصة بالرسول صلى الله عليه وعلى آله وسلم، يعتذر أولو العزم عنها، وتستقر للرسول ﷺ، ولم ينكرها أحد من طوائف الملة، يُقِرُّون بها.
- ومنها: الشفاعة في أهل الكبائر من المؤمنين أن يخرجوا من النار، وهذه ينازع فيها طائفتان من أهل الملة حسب انتسابهم، وهم الخوارج والمعتزلة؛ لأن هاتين الطائفتين يرون أن فاعل الكبيرة مخلّد في النار -والعياذ بالله- وإذا كان الله قد قضى عليه أن يُخَلّد في النار فإن الشفاعة لا تنفعه.

٦- ومن فوائد الآية الكريمة: إثبات العلل والأسباب؛ لقوله: (لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ)، فكل إنسان يعرف أن الأمور لها أسباب ولها علل.

القرآن

{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} [الأنعام : ٥٢]

---

(١) تفسير الطبري:٣٧٣/١١.
(٢) تفسير البغوي:١٤٥/٣.
(٣) البحر المحيط:٥٢٠/٤.
(٤) معاني القرآن:٣٣٦/١.
(٥) تفسير الطبري:٣٧٣/١١.
(٦) المحرر الوجيز:٢٩٤/٢.

التفسير:

ولا تُبْعد -أيها النبي- عن مجالستك ضعفاء المسلمين الذين يعبدون ربهم أول النهار وآخره، يريدون بأعمالهم الصالحة وجه الله، ما عليك من حساب هؤلاء الفقراء من شيء، إنما حسابهم على الله، وليس عليهم شيء من حساب عليك، فإن أبعدتهم فإنك تكون من المتجاوزين حدود الله، الذين يضعون الشيء في غير موضعه.

في سبب نزول الآيات:[٥٢، ٥٣]قولان:

أحدها: روي عن سعد بن أبي وقاص؛ قال: "فيّ نزلت: {وَلَا تَطْرُدِ. . .}؛ قال: نزلت في ستة: أنا وابن مسعود منهم، وكان المشركون قالوا له: تدني هؤلاء. وفي رواية: كنا مع النبي - صلى الله عليه وسلم - في ستة نفر، فقال المشركون للنبي - صلى الله عليه وسلم -: اطرد هؤلاء؛ لا يجترؤون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما، فوقع في نفس رسول الله ما شاء أن يقع، فحدث نفسه؛ فأنزل الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}(١). [صحيح]

وفي السياق نفسه لاوي عن عبدالله بن مسعود:" مرّ الملأ من قريش على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعنده صهيب وبلال وعمار وخباب ونحوهم من ضعفاء المسلمين، فقالوا: يا محمد! اطردهم، أرضيت هؤلاء من قومك؟ أفنحن نكون تبعاً لهؤلاء؟ أهؤلاء مَنَّ الله عليهم من بيننا؟ فلعل إن طردتهم أن نأتيك، قال: فنزلت: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}"(٢).[ضعيف]

والثاني: روي عن خباب بن الأرت؛ قال: "جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري فوجدوا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين، فلما رأوهم حول النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً، تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب تأتيك فنستحي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك؛ فأقمهم عنك، فإذا نحن فرغنا؛ فاقعد معهم إن شئت، قال: "نعم"، قالوا: فاكتب لنا عليك كتاباً، قال: فدعا بصحيفة ودعا علياً ليكتب ونحن قعود في ناحية؛ فنزل جبريل -عليه السلام- فقال: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ

---

(١)أخرجه مسلم في "صحيحه" (٤/ ١٨٧٨ رقم ٢٤١٣)، والنسائي في "الكبرى" (٥/ ٧٢، ٧٣ رقم ٨٢٦٤، ٨٢٦٦)، و"التفسير" (١/ ٤٦٩، ٤٧٠ رقم ١٨٣) وغيرهما كثير. وفي رواية لابن ماجه (٢/ رقم ٤١٢٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٥) تسمية الستة وهم: ابن مسعود وسعد وصهيب وعمار والمقداد وبلال، وفي سنده قيس بن الربيع؛ قال الحافظ: "صدوق، تغيّر لما كبر، أدخل عليه ابنه ما ليس من حديثه فحدث به".

(٢)أخرجه أحمد في "المسند" (١/ ٤٢٠)، والطبري في "جامع البيان" (١٣٢٥٥):ص١١/٣٧٤-٢٧٥، والبزار في "مسنده" (٣/ ٤٨، ٤٩ رقم ٢٢٠٩ - كشف)، والطبراني في "المعجم الكبير" (١٠/ ٢١٧ رقم ١٠٥٠٢)، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٩٦ رقم ٧٣٢٦)، وأبو الشيخ في "تفسيره" -وعنه الواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٦) - من طريق أشعث بن سوار عن كردوس الثعلبي عن ابن مسعود به.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه أشعث بن سوار وهو ضعيف؛ كما في "التقريب"، وكردوس هذا؛ روى عنه جمع من الثقات، ووثقه ابن حبان (٥/ ٣٤٢، ٣٤٣)، وقال ابن معين: "مشهور"؛ كما في "تهذيب الكمال" (٢٤/ ١٧٠)، ووثقه الهيثمي؛ فرجل هذا حاله لا ينزل حديثه عن مرتبة الحسن خاصة أنه من التابعين، والله أعلم.

قال الهيثمي في "مجمع الزوائد" (٧/ ٢٠، ٢١): "رواه أحمد والطبراني، ورجال أحمد رجال "الصحيح"! غير كردوس وهو ثقة".

وصححه الشيخ أحمد شاكر -رحمه الله- في "تحقيقه للمسند" (٦/ ٣٦، ٣٧ رقم ٣٩٨٥) وقد وهما في ذلك، والصواب ما قدمنا.

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٢) وزاد نسبته لابن مردويه وأبي نعيم.

شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} ثم ذكر الأقرع بن حابس وعيينة بن حصن، فقال: {وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)} ثم قال: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ}؛ قال: فدنونا منه حتى وضعنا ركبنا على ركبته، وكان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يجلس معنا، فإذا أراد أن يقوم قام وتركنا؛ فأنزل الله: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ} ولا تجالس الأشراف {تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا}؛ يعني: عيينة والأقرع، {وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف: ٢٨] , قال: هلاكاً، قال: أمر عيينة والأقرع، ثم ضرب لهم مثل الرجلين ومثل الحياة الدنيا. قال خباب: فكنا نقعد مع النبي - صلى الله عليه وسلم -، فإذا بلغنا الساعة التي يقوم فيها قمنا وتركناه حتى يقوم "[١]. [حسن]

قال ابن عطية: "وهذا تأويل بعيد في نزول الآية، لأن الآية مكية وهؤلاء الأشراف لم يفدوا إلا في المدينة، وقد يمكن أن يقع هذا القول منهم ولكنه إن كان وقع فبعد نزول الآية بمدة اللهم إلا تكون الآية مدنية"[٢].

والراجح-والله أعلم- أن سبب نزول هذه الآيات حديث سعد - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - لصحة إسناده، وموافقته للفظ الآية، وتصريحه بالنزول، واحتجاج المفسرين به مع عدم المعارض الراجح.

وقد ذكرت المصادر مجموعة من الروايات التي لا تصح وذلك لاعتلال إسنادها، نذكر منها على سبيل البيان:

- عن عكرمة:"جاء عتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة، ومطعم بن عدي، والحارث بن نوفل، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار إلى أبي طالب، فقالوا: لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءنا؛ فإنما هم عبيدنا

---

(١)أخرجه ابن أبي شيبة في "مسنده" (١/ ٣١٨، ٣١٩ رقم ٤٧٧)، و"مصنفه" (١٢/ ٢٠٧، ٢٠٨ رقم ١٢٥٦٤) -ومن طريقه الطبراني في "المعجم الكبير" (٤/ ٧٥، ٧٧ رقم ٣٦٩٣)، وأبو نعيم في "الحلية" (١/ ١٤٦، ١٤٧) -ومن طريقه المزي في "تهذيب الكمال" (٣٤، ٢٣٠، ٢٣١) -، وإسحاق بن راهويه في "مسنده" -ومن طريقه البيهقي في "الشعب" (٧/ ٣٣٤/ ١٠٤٩) -، وأبو يعلى في "مسنده"؛ كما في "تخريج أحاديث الكشاف" (١/ ٤٣٩)، و"المطالب العالية" (٨/ ٥٦٨، ٥٦٩ رقم ٣٩٧٧)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ١٠٧، ١٠٨ رقم ٧٧٤٣)، والبزار في "البحر الزخار" (٦/ ٦٩، ٧١ رقم ٢١٢٩، ٢١٣٠)، وابن ماجه في "سننه" (٢/ ١٣٨٢، ١٣٨٣ رقم ٤١٢٧)، والطبري في "جامع البيان" (١٣٢٥٨):ص١١/٣٧٦-٣٧٧، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٩٧ رقم ٧٣٣١)، والطحاوي في "مشكل الآثار" (١/ ١٥٧، ١٥٨)، والواحدي في "أسباب النزول" (ص ١٤٥، ١٤٦)، و"الوسيط" (٢/ ٢٧٤، ٢٧٥)، والخطيب البغدادي في "الأسماء المبهمة" (ص ٤٨٣)، والبيهقي في "دلائل النبوة" (١/ ٣٥٢، ٣٥٣) من طريق حكيم بن يزيد وأسباط بن نصر كلاهما عن السدي عن أبي سعيد الأزدي عن أبي الكنود عن خباب به.

قلنا: وهذا إسناد حسن -إن شاء الله-، السدي صدوق يهم؛ كما في "التقريب" وأبو سعيد الأزدي أو أبو سعد الأزدي؛ صدوق -إن شاء الله-؛ روى عنه جمع ووثقه ابن حبان (٥/ ٥٦٨)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول"، وأما أبو الكنود؛ فهو ثقة روى عنه جمع من الثقات، ووثقه ابن حبان (٥/ ١٤٤) وكذا ابن سعد في "الطبقات" (٦/ ١٧٧)، ولخصه الحافظ بقوله: "مقبول".

ويشهد له في الجملة ما سبق؛ فيرتقي إلى درجة الصحيح لغيره -إن شاء الله-.

قال البوصيري في "مصباح الزجاجة" (٣/ ٢٧٦، ٢٧٧ رقم ١٤٦٢): "هذا إسناد صحيح، رواه أبو بكر بن أبي شيبة في "مسنده" عن أحمد بن المفضل ثنا أسباط بن نصر فذكره بإسناده ومتنه. . . وأصله في "صحيح مسلم" وغيره من حديث سعد بن أبي وقاص".

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢/ ١٣٩): "وهذا حديث غريب؛ فإن الآية مكية، والأقرع بن حابس وعيينة إنما أسلما بعد الهجرة بشهر".

وصححه شيخنا في "صحيح ابن ماجه".

وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٣) وزاد نسبته لابن المنذر وأبي الشيخ وابن مردويه.

(٢) المحرر الوجيز:٢/٢٩٥.

وعسفاؤنا؛ كان أعظم في صدورنا، وأطوع له عندنا، وأدنى لأتباعنا إياه، وتصديقاً له، قال: فأتى أبو طالب النبي - صلى الله عليه وسلم - فحدثه بالذي كلموه به، فقال عمر بن الخطاب: لو فعلت ذلك حتى تنظر ما الذي يريدون وإلام يصيرون من قولهم؛ فأنزل الله -تعالى- هذه الآية: {وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُمْ مِنْ دُونِهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٥١) وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢) وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)}"(١). [ضعيف]

- وروى أبو صالح عن ابن عباس: "أن هذه الآيات نزلت في الموالي، منهم بلال، وصهيب، وخباب، وعمار، ومهجع، وسلمان، وعامر بن فهيرة، وسالم مولى أبي حذيفة وأن قوله:{وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} نزلت فيهم أيضا"(٢).[ضعيف]
- وعن الربيع بن أنس؛ قال: "كان رجال يستبقون إلى مجلس رسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ منهم: بلال، وصهيب، وسلمان، فيجيء أشراف قومه وسادتهم وقد أخذ هؤلاء المجلس فيجلسون ناحية، فقالوا: صهيب: رومي، وسلمان: فارسي، وبلال: حبشي، يجلسون عنده ونحن نجيء فنجلس ناحية، حتى ذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -: أنا سادة قومك وأشرافهم، فلو أدنيتنا منك إذا جئنا؟ قال: فَهَمَّ أن يفعل؛ فأنزل الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} "(٣). [ضعيف]
- وعن مجاهد؛ قال: "كان أشراف قريش يأتون النبي - صلى الله عليه وسلم - وعنده بلال وسلمان وصهيب وغيرهم؛ مثل: ابن أم عبد وعمار وخباب، فإذا أحاطوا به؛ قال أشراف قريش: بلال: حبشي، وسلمان: فارسي، وصهيب: رومي، فلو نحاهم لأتيناه؛ فأنزل الله -تعالى-: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}"(٤). [ضعيف]
- وعن قتادة؛ قال: إن ناساً من كفار قريش قالوا للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن سرك أن نتبعك! فاطرد عنك فلانًا وفلاناً ناساً من ضعفاء المسلمين، فقال الله: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ

---

(١)أخرجه سنيد في "تفسيره" -ومن طريقه الطبري في "جامع البيان" (١٣٢٦٤):ص١١/٣٧٩-٣٨٠ -: ثنا حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عكرمة.
قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه ثلاث علل:
الأولى: الإرسال.
الثانية: ابن جريج لم يسمع عن عكرمة.
الثالثة: سنيد صاحب "التفسير" هذا؛ ضعيف؛ ضعفه أبو حاتم والنسائي وغيرهما.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٢) وزاد نسبته لابن المنذر
(٢)عزاه ابن الجوزي في زاد المسير:٣٢/٢، لأبي صالح عن ابن عباس، وأبوصالح غير ثقة في ابن عباس، وراويته الكلبي يضع الحديث، والمتن منكر جدا بذكر سلمان فإن إسلامه كان في المدينة، والسورة مكية.
(٣)أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٢٩٨ رقم ٧٣٣٢): ثنا أبي ثنا سهل بن عثمان ثنا عبيد الله بن موسى عن أبي جعفر عنه به.
قلنا: هذا مرسل صحيح الإسناد.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٤، ٢٧٥) وزاد نسبته لعبد بن حميد وأبي الشيخ.
(٤)ذكره السيوطي في "الدرالمنثور" (٣/ ٢٧٥) ونسبه لابن عساكر.

شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}"[١]. [ضعيف]

- وعن عمر بن عبد الله بن المهاجر مولى غفرة؛ أنه قال في أسطوان التوبة: "كان أكثر نافلة النبي - صلى الله عليه وسلم - إليها، وكان إذا صلى الصبح انصرف إليها وقد سبق إليها الضعفاء، والمساكين، وأهل الضر، وضيفان النبي - صلى الله عليه وسلم - والمؤلفة قلوبهم، ومن لا مبيت له إلا المسجد، قال: وقد تحلقوا حولهاحلقاً بعضها دون بعض، فينصرف إليهم من مصلاه من الصبح، فيتلو عليهم ما أنزل الله عليه من ليلته، ويحدثهم ويحدثونه، حتى إذا طلعت الشمس جاء أهل الطول والشرف والغنى فلم يجدوا إليه مخلصاً؛ فتاقت أنفسهم إليه وتاقت نفسه إليهم؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} إلى منتهى الآيتين، فلما نزل ذلك فيهم؛ قالوا: يا رسول الله! لو طردتهم عنا ونكون نحن جلساءك وإخوانك لا نفارقك؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)} "[٢]. [ضعيف]
- وعن ابن عباس" -رضي الله عنهما-؛ أنه قال: "نزلت هذه الآية: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} في بلال، وصهيب، وعمار، وخباب، وسعد بن خولة، ومالك بن خولي وأصحابهم "[٣]. [موضوع]
- وعن الكلبي في قوله -تعالى-: "{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}؛ قال عيينة بن حصن للنبي - صلى الله عليه وسلم -: إن سرّك أن نتبعك؛ فاطرد عنك فلانًا وفلاناً؛ فإنه قد آذاني ريحهم؛ يعني: بلالاً، وسلمانَ، وصهيباً، وناساً من ضعفاء المسلمين؛ فأنزل الله -عزّ وجلّ-: {وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ (٥٢)}"[٤]. [موضوع]
- وروى عن ابن عباس أيضا: قوله : "{وكذلك فتنا بعضهم ببعض}[٥] الآية ، فهم أناس كانوا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم من الفقراء ، فقال أناس من أشراف الناس : نؤمن لك ، وإذا صلينا فأخِّر هؤلاء الذين معك فليصلُّوا خلفنا! "[٦].

قال ابن الجوزي:"فعلى هذا، إنما سألوه تأخيرهم عن الصف، وعلى الأقوال التي قبله، سألوه طردهم عن مجلسه"[٧].

---

(١)أخرجه عبدالرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٠٨) –ومن طريقه الخطيب في "الأسماء المبهمة" (ص ٤٨٢) - : نا معمر عن قتادة.
قلنا: وهذامرسل رجاله ثقات.
(٢)ذكره السيوطي في "الدرالمنثور" (٣/ ٢٧٤) ونسبه للزبير بن بكار في أخبار المدنية.
(٣)أخرجه أبونعيم الأصبهاني في "معرفة "الصحابة" (٣/ ١٢٨٢ رقم ١٢٨٤، ٣٢١٨، ٥/ ٢٦١٤ رقم ٦٢٩٥) م نطريق عبد الغني بن سعيد الثقفي ثنا موسى بن عبد الرحمن عن ابن جريج عن عطاءعن ابن عباس به.
قلنا: وهذا موضوع؛كما تقدم بيانه مرارا.
(٤)أخرجه عبدالرزاق في "تفسيره" (١/ ٢/ ٢٠٧) عن معمرعن الكلبي.
قلنا: وهذا كذب؛ فالكلبي متهم،اعترف بنفسه بالكذب.
(٥) [الأنعام:٥٣].
(٦)أخرجه الطبري(١٣٢٨٣):ص٣٨٥/١١،عن ابن عباس به، وإسناده ضعيف جدا، فيه عطية العوفي ضعيف، وعنه مجاهيل.
(٧) زاد المسير:٣٢/٢-٣٣.

قوله تعالى:{وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ} [الأنعام : ٥٢]، أي:"ولا تُبْعد -أيها النبي- عن مجالستك ضعفاء المسلمين الذين يعبدون ربهم أول النهار وآخره"[١].

قال ابن كثير:"أي : لا تبعد هؤلاء المتصفين بهذه الصفة عنك ، بل اجعلهم جلساءك وأخصاءك ، كما قال : { وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا } [الكهف : ٢٨].وقوله { يَدْعُونَ رَبَّهُمْ } أي : يعبدونه ويسألونه"[٢].

قال الزجاج:"كان قوم من المشركين أرادوا الحيلة على النبي - صلى الله عليه وسلم - فقالوا لو باعدت عنك هؤلاء السفلة والعبيد لجلس إليك الكبراء والأشراف، وكانوا عنوا بالذين قدروا أن يباعدهم النبي - صلى الله عليه وسلم - صهيبا وخبابا، وعمار بن ياسر وسلمان الفارسي وبلالا، فأعلم الله عز وجل، أن أمر الدين هو المقدم، ونهاه أن يباعد هؤلاء"[٣].

وفي معنى «الدعاء»في قوله تعالى:{يَدْعُونَ رَبَّهُمْ} [الأنعام : ٥٢]، ستة أقوال :

أحدها: أنه الصلاة المكتوبة، قاله ابن عمر[٤]، وابن عباس[٥]، والحسن[٦]، ومجاهد[٧]، وقتادة[٨]، وسعيد بن المسيب[٩]، وعبدالرحمن بن أبي عمرة[١٠]، وعامر[١١].

قال ابن كثير:"وهذا كقوله تعالى:{ وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ } [غافر : ٦٠] أي : أتقبل منكم"[١٢].

وفي رواية عن مجاهد[١٣]، وقتادة[١٤]، قالا:يعني "صلاة الصبح والعصر".

وزعم مقاتل أن الصلاة يومئذ كانت "ركعتين بالغداة وركعتين بالعشي ثم فرضت الصلوات الخمس"[١٥].

ونقل ابن أبي زمنين عن الحسن:" يعني: صلاة مكة؛ حين كانت الصلاة ركعتين غدوة، وركعتين عشية، قبل أن تفترض الصلوات الخمس"[١٦].

والثاني: أنه ذكر الله تعالى، قاله إبراهيم النخعي[١٧]، وعنه كالقول الأول[١٨].

والثالث: أنه عبادة الله، قاله الضحاك[١٩]، وعنه كالقول الاول[٢٠].

والرابع: أنه تعلم القرآن غدوة وعشية، قاله أبو جعفر[٢١].

والخامس: أنه دعاء الله بالتوحيد، والإخلاص له، وعبادته، قاله الزجاج[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٣.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(٣) معاني القرآن:٢٥١/٢.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٤):ص٣٨٣/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٦):ص٣٨١/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٠):ص٣٨٢/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧١):ص٣٨٢/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٣):ص٣٨٢/١١-٣٨٣، و(١٣٢٨١):ص٣٨٤/١١.
(٩) انظر: تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٨):ص٣٨٤/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٩):ص٣٨٤/١١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٩):ص٣٨٢/١١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٣):ص٣٨٢/١١-٣٨٣.
(١٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.
(١٦) تفسير ابن ابي زمنين:٧٠/٢.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٨٤):ص٣٨٥/١١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٧):ص٣٨١/١١.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٨٨):ص٣٨٦/١١.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٧٢):ص٣٨٢/١١.
(٢١) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٨٧):ص٣٨٦/١١.

والسادس:أنه يريد الدعاء في أول النهار وآخره، ليستفتحوا يومهم بالدعاء رغبة في التوفيق. ويختموه بالدعاء طلبا للمغفرة. أفاده الماوردي(٢).

قال الطبري:"والصواب من القول في ذلك أن يقال : إن الله تعالى ذكره نهى نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يطرُد قومًا كانوا يدعون ربّهم بالغداة والعشي ، و الدعاء لله، يكون بذكره وتمجيده والثناء عليه قولا وكلامًا وقد يكون بالعمل له بالجوارح الأعمالَ التي كان عليهم فرضُها ، وغيرُها من النوافل التي ترضي عن العامل له عابدَه بما هو عامل له. وقد يجوز أن يكون القوم كانوا جامعين هذه المعاني كلها ، فوصفهم الله بذلك بأنهم يدعونه بالغداة والعشي ، لأن الله قد سمى :العبادة ، دعاء، فقال تعالى ذكره : {وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [سورة غافر : ٦٠]. وقد يجوز أن يكون ذلك على خاصّ من الدعاء.

ولا قول أولى بذلك بالصحة ، من وصف القوم بما وصفهم الله به : من أنهم كانوا يدعون ربهم بالغداة والعشي ، فيعمُّون بالصفة التي وصفهم بها ربهم ، ولا يخصُّون منها بشيء دون شيء.

فتأويل الكلام إذًا : يا محمد ، أنذر القرآن الذي أنزلته إليك ، الذين يعلمون أنهم إلى ربهم محشورون فهم من خوف ورودهم على الله الذي لا شفيع لهم من دونه ولا نصير ، في العمل له دائبون إذ أعرض عن إنذارك واستماع ما أنزل الله عليك المكذبون بالله واليوم الآخر من قومك ، استكبارًا على الله ولا تطردهم ولا تُقْصِهم ، فتكون ممن وضع الإقصاء في غير موضعه ، فأقصى وطرد من لم يكن له طرده وإقصاؤه ، وقرّب من لم يكن له تقديمه بقربه وإدناؤه ، فإن الذين نهيتُك عن طردهم هم الذين يدعون ربهم فيسألونه عفوه ومغفرته بصالح أعمالهم ، وأداء ما ألزمهم من فرائضه ، ونوافل تطوّعهم ، وذكرهم إياه بألسنتهم بالغداة والعشي"(٣).

قوله تعالى:{يُرِيدُونَ وَجْهَهُ} [الأنعام : ٥٢]، أي:"يريدون بأعمالهم الصالحة وجه الله"(٤).

قال البغوي:"أي: يريدون الله بطاعتهم"(٥).

وقال ابن عباس: "يطلبون ثواب الله"(٦).

قال ابن كثير:" أي : يبتغون بذلك العمل وجه الله الكريم ، فهم مخلصون فيما هم فيه من العبادات والطاعات"(٧).

قال الزجاج:"أي يريدون اللهويقصدون الطرق التي أمرهم بقصدها وإنما قدروا بهذا أن يباعدهم فتكون لهم حجةعليه"(٨).

قال الطبري:أي:" يلتمسون بذلك القربة إلى الله ، والدنوّ من رضاه"(٩).

قال ابن عطية:"و{وجهه}، في هذا الموضع معناه: جهة التزلق إليه كما تقول خرج فلان في وجه كذا أي في مقصد وجهة"(١).

---

(١) انظر: معاني القرآن:٢٨١/٣، في تفسيره لآية (٢٨) من سورة الكهف:{وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا} [الكهف : ٢٨].
(٢) انظر: النكت والعيون:٣٠١/٣، وتفسير القرطبي:٤٣٢/٦.
(٣) تفسير الطبري:٣٨٧/١١-٣٨٨.
(٤) التفسير الميسر:١٣٣.
(٥) تفسير البغوي:١٤٧/٣.
(٦) تفسير البغوي:١٤٧/٣.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(٨) معاني القرآن:٢٥١/٢.
(٩) تفسير الطبري:٣٨٧/١١-٣٨٨.

وقال القرطبي:"{يريدون وجهه}: أي طاعته، والإخلاص فيها، أي: يخلصون في عبادتهم وأعمالهم لله، ويتوجهون بذلك إليه لا لغيره. وقيل: يريدون الله الموصوف بأن له الوجه كما قال:{وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ} [الرحمن : ٢٧]، وهو كقوله:" والذين {وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ} [الرعد : ٢٢]"(٢).

سئل سهل التستري عن قوله: {ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه}، قال: "أي: يريدون وجه الله ورضاه، ولا يغيبون عنه ساعة. ثم قال: أزهد الناس أصفاهم مطعما، وأعبد الناس أشدهم اجتهادا في القيام بالأمر والنهي، وأحبهم إلى الله أنصحهم لخلقه. وسئل عن العمر قال: الذي يضيع العمر"(٣).

قوله تعالى:{مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٥٢]، أي:"ما عليك من حساب هؤلاء الفقراء من شيء، إنما حسابهم على الله"(٤).

قال البغوي: "أي: لا تكلف أمرهم، وقيل: ليس رزقهم عليك فتملهم"(٥).

قال ابن عطية:"معناه: لم تكلف شيئا غير دعائهم فتقدم أنت وتؤخر، ويظهر يكون الضمير في {حسابهم} و{عليهم} للكفار الذين أرادوا طرد المؤمنين، أي: ما عليك منهم آمنوا ولا كفروا فتطرد هؤلاء رعيا لذلك"(٦).

قال الطبري:"يقول : ما عليك من حساب ما رزقتهم من الرزق من شيء"(٧).

قال ابن كثير:"كما قال نوح ، عليه السلام ، في جواب الذين قالوا : { أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأرْذَلُونَ } قال:{ وَمَا عِلْمِي بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * إِنْ حِسَابُهُمْ إِلا عَلَى رَبِّي لَوْ تَشْعُرُونَ } [الشعراء : ١١٢ ، ١١٣] ، أي : إنما حسابهم على الله ، عَزَّ وجل ، وليس على من حسابهم من شيء"(٨).

قوله تعالى:{وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٥٢]، أي:"وليس عليهم شيء من حسابك"(٩).

قال البغوي: أي:"ولا يتكلفون أمرك، وقيل:ولا رزقك عليهم"(١٠).

قال الطبري:أي:"وما عليهم من حساب ما رزقتك من الرزق من شيء "(١١).

قال ابن كثير:"كما أنه ليس عليهم من حسابي من شيء"(١٢).

قوله تعالى:{فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ} [الأنعام : ٥٢]، أي:"فإن أبعدتهم فإنك تكون من المتجاوزين حدود الله، الذين يضعون الشيء في غير موضعه"(١٣).

قال ابن كثير:"أي : إن فعلت هذا والحالة هذه"(١٤).

قال الطبري:أي:"حذارَ محاسبتي إياك بما خوّلتهم في الدنيا من الرزق"(١٥).

---

(١) المحرر الوجيز:٢٩٥/٢.
(٢) تفسير القرطبي:٤٣٢/٦.
(٣) تفسير التستري:٦١.
(٤) التفسير الميسر:١٣٣.
(٥) تفسير البغوي:١٤٧/٣.
(٦) المحرر الوجيز:٢٩٥/٢.
(٧) تفسير الطبري:٣٨٨/١١.
(٨) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(٩) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٠) تفسير البغوي:١٤٧/٣.
(١١) تفسير الطبري:٣٨٨/١١.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(١٣) التفسير الميسر:١٣٣.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٥٩/٣.
(١٥) تفسير الطبري:٣٨٨/١١.

قال عبدالرحمن بن زيد بن اسلم:"ما بينك وبين أن تكون من الظالمين إلا أن تطردهم"(١).

وقال السمعاني:"يعني: إن طردتهم، وقيل: في الآية تقديم وتأخير، وتقديره: ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه فتكون من الظالمين، (ثم قال) : {ما عليك من حسابهم من شيء وما من حسابك عليهم من شيء}"(٢).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: تحريم طرد المؤمنين الصالحين.

٢- ومنها: الثناء على أولئك القوم الذين يحضرون جلسات النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم بما ذكر الله عز وجل أنهم يَدْعُون الله بالغداة والعشي مع الإخلاص لله عز وجل.

٣- ومنها: أن كل إنسان لا يحاسَب عن الآخر؛ {مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ}، وهذا العموم مقيَّد بما إذا لم يفرِّط الإنسان في حق أخيه، فإن فرَّط جُوزي على ذلك، ولهذا قال العلماء رحمهم الله: يجب على الإنسان إذا رأى نائمًا وقد ضاق الوقت عن الصلاة يجب أن يُعْلِمه، أن يوقظه، مع أن النائم معذور ليس عليه إثم، لكن أنت أيها اليقظان يجب أن تُعْلِمه، توقظه وتُعْلِمه، لو لم تفعل صار عليك من حسابه، لكن الواحد في الحقيقة من حسابه، والواقع أنه من حسابك أنت؛ لأنك تركت الواجب.

٤- ومنها: كمال عدل الله عز وجل؛ لأنه خاطب نبيَّه بهذا الخطاب القوي من أجل قومٍ من أصحابه، هو -أي النبي ﷺ- عند الله أعظم جاهًا وأعلى منزلة، لكن الله عز وجل حكمٌ عدْلٌ، يقضي بالحق سبحانه وتعالى.

٥- ومنها: أن منْع الإنسان حقَّه ظلم، وإن لم يكن عدوان، يعني بضرب أو أخْذ مال، لكن إذا منعه حقَّه فإنه ظالم؛ لقوله: {فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ}، وهذا حق، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم: «مَطْلُ الغَنِيِّ ظُلْمٌ»(٣)، مع أن هذا لم يأكل من مال الفقير مثلًا، لكن مماطلته، يعني منع حقه، فكل مَن منَع صاحب حقٍّ حقَّه فهو ظالم له، كما لو اعتدى بأخذ شيء من ماله.

القرآن

{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ (٥٣)} [الأنعام : ٥٣]

التفسير:

وكذلك ابتلى الله تعالى بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق، فجعل بعضهم غنيًّا وبعضهم فقيرًا، وبعضهم قويًّا وبعضهم ضعيفًا، فأحوج بعضهم إلى بعض اختبارًا منه لهم بذلك; ليقول الكافرون الأغنياء: أهؤلاء الضعفاء مَنَّ الله عليهم بالهداية إلى الإسلام مِن بيننا؟ أليس الله تعالى بأعلم بمن يشكرون نعمته، فيوفقهم إلى الهداية لدينه؟

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ} [الأنعام : ٥٣]، أي:"وكذلك ابتلى الله تعالى بعض عباده ببعض بتباين حظوظهم من الأرزاق والأخلاق"(٤).

قال قتادة:"يقول: ابتلينا بعضهم ببعض"(٥).

قال ابن عباس:"يعني: أنه جعل بعضهم أغنياء وبعضهم فقراء"(٦).

---

(١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٤٠):ص١٢٩٩/٤.

(٢) تفسير السمعاني:١٠٨/٢.

(٣)متفق عليه؛ البخاري (٢٢٨٨)، ومسلم (١٥٦٤ / ٣٣) من حديث أبي هريرة.

(٤) التفسير الميسر:١٣٤.

(٥) أخرجه الطبري(١٣٢٨٩):ص٣٨٨/١١.

(٦) أخرجه الطبري(١٣٢٩٠):ص٣٨٩/١١.

قال ابن قتيبة:"أي: ابتلينا بعضا ببعض"[١].
قال الطبري والزجاج:"أي: اختبرنا وابتلينا"[٢].
قال ابن كثير:"أي : ابتلينا واختبرنا وامتحنا بعضهم ببعض"[٣].
قال الزمخشري:أي:"ومثل ذلك الفتن العظيم، فتنا بعض الناس ببعض، أى: ابتليناهم بهم"[٤].
قال السمرقندي:"يقول: هكذا ابتلينا بعضهم ببعض يعني: الشريف بالوضيع، والعربي بالمولى، والغني بالفقير"[٥].
قال مقاتل:"يقول: وهكذا ابتلينا فقراء المسلمين من العرب والموالي بالعرب من المشركين: أبي جهل، والوليد، وعتبة، وأمية، وسهل بن عمرو، ونحوهم"[٦].
قال السمعاني:"هو فتنة الأغنياء بالفقراء، والله - تعالى - يفتن الأغنياء بالفقراء، ويفتن الفقراء بالأغنياء، والمراد هاهنا: فتنة أكابرهم بفقرائهم؛ حيث امتنعوا عن الإيمان بسببهم؛ وذلك كان فتنة لهم"[٧].
قال البغوي:" أراد ابتلاء الغني بالفقير والشريف بالوضيع، وذلك أن الشريف إذا نظر إلى الوضيع قد سبقه بالإيمان امتنع من الإسلام بسببه فكان فتنة له"[٨].
قال ابن عطية:"{فتنا}، معناه في هذه الآية: ابتلينا، فابتلاء المؤمنين بالمشركين هو ما يلقون منهم من الأذى، وابتلاء المشركين بالمؤمنين هو أن يرى الرجل الشريف من المشركين قوما لا شرف لهم قد عظمهم هذا الدين وجعل لهم عند نبيه قدرا ومنزلة، والإشارة بذلك إلى ما ذكر من طلبهم أن يطرد الضعفة"[٩].
قوله تعالى:{لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا} [الأنعام : ٥٣]، أي:"ليقول الكافرون الأغنياء: أهؤلاء الضعفاء مَنَّ الله عليهم بالهداية إلى الإسلام مِن بيننا؟"[١٠].
قال مقاتل:"يعني: أنعم الله عليهم بالإسلام من بيننا"[١١].
قال ابن عباس:"فقال الأغنياء للفقراء:{أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا}، يعني: هداهم الله. وإنما قالوا ذلك استهزاءً وسُخريًّا"[١٢].
قال السمعاني:"يقول الأغنياء: أهؤلاء الفقراء سبقونا بالإيمان"[١٣].
قال الزجاج:"أي: ليكون ذلك آية أنهم اتبعوا الرسول وصبروا على الشدة، وهم في حال شديدة"[١٤].
قال الطبري:"يقول تعالى: اختبرنا الناس بالغنى والفقر، والعزّ والذل، والقوة والضعف، والهدى والضلال، كي يقول من أضلّه الله وأعماه عن سبيل الحق، للذين هداهم الله

---

(١) غريب القرآن:١٥٤.
(٢) تفسير الطبري:٣٨٨/١١، ومعاني القرآن:٢٥٢/٢.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦١/٣.
(٤) الكشاف:٢٨/٢.
(٥) بحر العلوم:٤٥١/١.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.
(٧) تفسير السمعاني:١٠٨/٢.
(٨) تفسير البغوي:١٤٧/٣.
(٩) المحرر الوجيز:٢٩٦/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٣٤.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٢٩٠):ص٣٨٩/١١.
(١٣) تفسير السمعاني:١٠٨/٢.
(١٤) معاني القرآن:٢٥٢/٢.

ووفقهم:{أهؤلاء منّ الله عليهم}، بالهدى والرشد، وهم فقراء ضعفاء أذلاء، ونحن أغنياء أقوياء؟ استهزاءً بهم، ومعاداةً للإسلام وأهله"[١].

قال الواحدي:"أنكروا أن يكونوا سبقوهم بفضيلةٍ أو خصُّوا بنعمةٍ"[٢].

قال الزمخشري:"وذلك أن المشركين كانوا يقولون للمسلمين أهؤلاء الذين من الله عليهم من بيننا أى أنعم عليهم بالتوفيق لإصابة الحق ولما يسعدهم عنده من دوننا، ونحن المقدمون والرؤساء، وهم العبيد والفقراء، إنكارا لأن يكون أمثالهم على الحق وممنونا عليهم من بينهم بالخير، ونحوه :{أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنَا} [القمر : ٢٥]، {لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْه} [الأحقاف : ١١]"[٣].

قال ابن كثير:"وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان غالب من اتبعه في أول البعثه ، ضعفاء الناس من الرجال والنساء والعبيد والإماء ، ولم يتبعه من الأشراف إلا قليل ، كما قال قومُ نوح لنوح : { وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ } الآية [هود : ٢٧] ، وكما قال هرقل ملك الروم لأبي سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، فقال له : فهل اتبعه ضعفاء الناس أو أشرافهم ؟ قال : بل ضعفاؤهم. فقال : هم أتباع الرسل [٤]،والغرض : أن مشركي قريش كانوا يسخرون بمن آمن من ضعفائهم ، ويعذبون من يقدرون عليه منهم ، وكانوا يقولون : { أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا } ؟ أي : ما كان الله ليهدي هؤلاء إلى الخير - لو كان ما صاروا إليه خيرا - ويدعنا ، كما قالوا : { لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْهِ } [الأحقاف : ١١] ، وكما قال تعالى : { وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا أَيُّ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَقَامًا وَأَحْسَنُ نَدِيًّا } [مريم : ٧٣]، قال الله تعالى في جواب ذلك : { وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَحْسَنُ أَثَاثًا وَرِئْيًا } [مريم : ٧٤]"[٥].

قال ابن عطية:"{وليقولوا}، معناه: ليصير بحكم القدر أمرهم إلى أن يقولوا، فهي «لام» الصيرورة، كما قال تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص : ٨]،أي: ليصير مثاله أن يكون لهم عدوا، وقول المشركين على هذا التأويل:{أهؤلاء من الله عليهم من بيننا} هو على جهة الاستخفاف والهزء.

ويحتمل الكلام معنى آخر: وهو أن تكون «اللام»في :{ليقولوا} على بابها في «لام كي»، وتكون المقالة منهم استفهاما لأنفسهم ومباحثة لها وتكون سبب إيمان من سبق إيمانه منهم، فمعنى الآية على هذا التأويل: وكذلك ابتلينا أشراف الكفار بضعفاء المؤمنين ليتعجبوا في نفوسهم من ذلك ويكون سبب نظر لمن هدي.

والتأويل الأول أسبق والثاني يتخرج، ومن على كلا التأويلين إنما هي على معتقد المؤمنين، أي هؤلاء من الله عليهم بزعمهم أن دينهم منة"[٦].

قال السمرقندي:"فلم يكن الاختبار لأجل أن يقولوا ذلك، ولكن كان الاختبار سببا لقولهم، وهكذا قوله تعالى: {فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا} [القصص : ٨]، فلم يأخذوه لأجل ذلك، ولكن كان أخذهم سببا لذلك فكأنهم أخذوه لأجل ذلك، هاهنا ما كان الاختبار لأجل أن يقولوا هؤلاء من الله عليهم من بيننا لأنهم كانوا يقولون:{لَوْ كَانَ خَيْرًا مَا سَبَقُونَا إِلَيْه} [الأحقاف : ١١]، ومعناه: ليظهر الذين يقولون: {هؤلاء من الله عليهم من بيننا}"[٧].

---

(١) تفسير الطبري:٣٨٩/١١.

(٢) الوجيز:٣٥٥.

(٣) الكشاف:٢٨/٢.

(٤)القصة في صحيح البخاري برقم (٧) من حديث عبد الله بن عباس ، رضى الله عنه.

(٥) تفسير ابن كثير:٢٦١/٣.

(٦) المحرر الوجيز:٢٩٦/٢.

(٧) بحر العلوم:٤٥١/١.

قوله تعالى:{أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ} [الأنعام : ٥٣]، أي:"أليس الله تعالى بأعلم بمن يشكرون نعمته، فيوفقهم إلى الهداية لدينه؟"(١).

قال مقاتل:"يعني: بالموحدين منكم من غيره، وفيهم نزلت فى الفرقان:{وَجَعَلْنَا بَعْضَكُمْ لِبَعْضٍ فِتْنَةً....}(٢) إلى آخر الآية"(٣).

قال السمعاني:"يعني: أليس الله بأعلم من هو أهل للإسلام؛ فيدخل في الإسلام؟!"(٤).

قال الواحدي:": إنَّما يهدي إلى دينه مَنْ يعلم أنَّه يشكر"(٥).

قال الزمخشري:"أى: الله أعلم بمن يقع منه الإيمان والشكر فيوفقه للإيمان. وبمن يصمم على كفره فيخذله ويمنعه التوفيق"(٦).

قال ابن عطية:"أي: يا أيها المستخفون أو المتعجبون على التأويل الآخر ليس الأمر أمر استخفاف ولا تعجب، فالله أعلم بمن يشكر نعمته والمواضع التي ينبغي أن يوضع فيها فجاء إعلامهم بذلك في لفظ التقدير إذ ذلك بين لا تمكنهم فيه معاندة"(٧).

قال البغوي:"استفهام بمعنى التقرير، أي: الله أعلم بمن شكر الإسلام إذ هداه الله عز وجل"(٨).

قال ابن كثيرأي : أليس هو أعلم بالشاكرين له بأقوالهم وأفعالهم وضمائرهم ، فيوفقهم ويهديهم سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور ، ويهديهم إليه صراطًا مستقيما ، كما قال تعالى { وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَإِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ } [العنكبوت : ٦٩]. وفي الحديث الصحيح : «إن الله لا ينظر إلى صوركم ، ولا إلى ألوانكم ، ولكن ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم»(٩)"(١٠).

قال الطبري:"وهذا منه تعالى ذكره إجابة لهؤلاء المشركين الذين أنكروا أن يكون الله هدى أهل المسكنة والضعف للحق، وخذلهم عنه وهم أغنياء وتقريرٌ لهم: أنا أعلم بمن كان من خلقي شاكرًا نعمتي، ممن هو لها كافر. فمنِّي على من مَنَنْتُ عليه منهم بالهداية، جزاء شكرهإياي على نعمتي، وتخذيلي من خذلت منهم عن سبيل الرشاد، عقوبة كفرانه إياي نعمتي، لا لغنى الغني منهم ولا لفقر الفقير، لأن الثواب والعقاب لا يستحقه أحدٌ إلا جزاءً على عمله الذي اكتسبه، لا على غناه وفقره، لأن الغنى والفقر والعجز والقوة ليس من أفعال خلقي"(١١).

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الله سبحانه وتعالى يفتن بعض الناس ببعض.

٢- ومنها: إقرار الكافرين بأن الإيمان والإسلام مِنَّة من الله تعالى؛ لقولهم: (أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا).

٣- * ومنها: أن أعداء المؤمنين يأتون بكل أسلوب للتنفير عن المؤمنين؛ لقولهم (أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا)، فإن ألقاب السوء لأهل الخير من أهل الشر لا تزال موجودة.

وقد ذكر اعداء الرسل عليهم الصلاة والسلام ما يُنَفِّر عنهم من الأوصاف،قال تعالى: (كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (٥٢) أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ) [الذاريات ٥٢، ٥٣].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٤.

(٢)[الفرقان : ٢٠].

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.

(٤) تفسير السمعاني:١٠٨/٢.

(٥) الوجيز:٣٥٥.

(٦) الكشاف:٢٨/٢.

(٧) المحرر الوجيز:٢٩٦/٢.

(٨) تفسير البغوي:١٤٧/٣.

(٩)رواه مسلم في صحيحه برقم (٢٥٦٤).

(١٠) تفسير ابن كثير:٢٦١/٣.

(١١) تفسير الطبري:٣٨٩/١١-٣٩٠.

٤- ومن فوائد الآية الكريمة: تقرير علم الله عز وجل في قوله: (أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ).

القرآن

{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥٤)} [الأنعام : ٥٤]

التفسير:

وإذا جاءك -أيها النبي- الذين صَدَّقوا بآيات الله الشاهدة على صدقك من القرآن وغيره مستفتين عن التوبة من ذنوبهم السابقة، فأكرِمْهم بردِّ السلام عليهم، وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة; فإنه جلَّ وعلا قد كتب على نفسه الرحمة بعباده تفضلا أنه من اقترف ذنبًا بجهالة منه لعاقبتها وإيجابها لسخط الله -فكل عاص لله مخطئًا أو متعمدًا فهو جاهل بهذا الاعتبار وإن كان عالمًا بالتحريم- ثم تاب من بعده وداوم على العمل الصالح، فإنه تعالى يغفر ذنبه، فهو غفور لعباده التائبين، رحيم بهم.

في سبب نزول الآية وجوه:

أحدها: عن ماهان؛ قال: "جاء قوم إلى النبي - صلى الله عليه وسلم - قد أصابوا ذنوباً عظاماً، فما أخاله رد عليهم شيئاً، قال: فأنزل: {وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ}"(١). [ضعيف]

وذكر ابن عطية والقرطبي عن الفضيل بن عياض نحو ذلك(٢).

قال ابن عطية:"وهي على هذا تعم جميع المؤمنين دون أن تشير إلى فرقة"(٣).

والثاني:أنها نزلت في القوم من المؤمنين الذين صوبوا رأي أبي طالب في طرد الضعفة، فأمر الله نبيه أن يسلم عليهم ويعلمهم أن الله يغفر لهم مع توبتهم من ذلك السوء وغيره. وهذا قول عكرمة(٤)، وعبد الرحمن بن زيد(٥)، والكلبي(٦).

قال عكرمة:"جاء عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، ومطعم بن عديّ ، والحارث بن نوفل ، وقرظة بن عبد عمرو بن نوفل ، في أشراف من بني عبد مناف من الكفار ، إلى أبي طالب فقالوا : يا أبا طالب ، لو أن ابن أخيك يطرد عنه موالينا وحلفاءَنا ، فإنما هم عبيدنا وعُسَفاؤنا ، كان أعظم في صدورنا ، وأطوع له عندنا ، وأدنى لاتّباعنا إياه ، وتصديقنا له! قال : فأتى أبو طالب النبي صلى الله عليه وسلم فحدثه بالذي كلموه به ، فقال عمر بن الخطاب : لو فعلتَ ذلك ، حتى تنظر ما الذي يريدون ، وإلام يصيرون من قولهم ؟ فأنزل الله تعالى ذكره هذه

---

(١)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣٢٩١):ص٣٩٠/١١-٣٩١، وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٠٠/ ٧٣٤٥)، ومسدد في "مسنده"؛ كما في "المطالب العالية" (٨/ ٥٦٧ رقم ٣٩٧٣ - المسندة)، و"إتحاف الخيرة المهرة" (٨/ ٧٢ رقم ٧٦٦١ - ط الرشد)، وسفيان الثوري في "تفسيره" (ص ١٠٧ رقم ٢٦٦) من طريق يحيى بن سعيد القطان وقبيصة وأبي نعيم ثلاثتهم عن الثوري عن مجمع التيمي قال: سمعت ماهان به.

قلنا: وهذا مرسل رجاله ثقات.

وأما البوصيري؛ فقال: "هذا إسناد ضعيف؛ لجهالة بعض رواته".

قلنا: وليس كما قال؛ فإن رجاله كلهم ثقات، وما فيه علة سوى الإرسال.

والحديث ذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٢٧٦) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن المنذر وأبي الشيخ.

وذكره الواحدي في اسباب النزول:٢١٩، حكاه دون ذكر الإسناد.

(٢) انظر: المحرر الوجيز: ٢٩٦/٢-٢٩٧، وتفسيرالقرطبي:٤٣٥/٦.

(٣) المحرر الوجيز:٢٩٦/٢.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٤):ص٣٧٩/١١-٣٨٠.

(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٥):٣٨٠/١١-٣٨١.

(٦) حكاه عنه ابن ابي زمنين في تفسيره:٧١/٢.

الآية : {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولي ولا شفيع لعلهم يتقون ولا تطرد الذين يدعون ربّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه} إلى قوله :{أليس الله بأعلم بالشاكرين}، قال : وكانوا : بلال ، وعمارُ بن ياسر ، وسالم مولى أبي حذيفة ، وصبيح مولى أسيد ومن الحلفاء : ابنمسعود ، والمقداد بن عمرو ، ومسعود بن القاريّ ، وواقد بن عبد الله الحنظلي ، وعمرو بن عبد عمرو ذو الشمالين ، ومرثد بن أبي مرثد وأبو مرثد ، من غنيّ ، حليفُ حمزة بن عبد المطلب وأشباههم من الحلفاء.ونزلت في أئمة الكفر من قريش والموالي والحلفاء: {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا} الآية. فلما نزلت ، أقبل عمر بن الخطاب فاعتذر من مَقالته ، فأنزل الله تعالى ذكره :{وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم} ، الآية"[1].[ضعيف]

وقال ابن زيد: "قال رجل للنبي صلى الله عليه وسلم : إني أستحيي من الله أن يرَاني مع سلمان وبلال وذَويهم ، فاطردهم عنك ، وجالس فلانًا وفلانًا! قال فنزل القرآن :{ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهه}، فقرأ ، حتى بلغ : {فتكون من الظالمين}، ما بينك وبين أن تكون من الظالمين إلا أن تطردهم . ثم قال : {وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا أليس الله بأعلم بالشاكرين}، ثم قال : وهؤلاء الذين أمروك أن تطردهم ، فأبلغهم منّي السلام ، وبشرهم وأخبرهم أني قد غفرت لهم! وقرأ : {وإذا جاءك الذين يؤمنونبآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة}، فقرأ حتى بلغ :{وكذلك نفصل الآيات ولتستبين سبيل المجرمين}، قال : لتعرفها "[2].

وقال الكلبي:"أن أبا طالب هو الذي قال للنبي: اطرد فلانا وفلانا وفلانا، وأن ناسا من أصحاب النبي قالوا: يا رسول الله، صدق عمك؛ فاطرد عنا سفلة الموالي، فعاتبهم الله في الآية الأولى، فجاءوا يعتذرون إلى رسول الله من سقطتهم، ويسألونه أن يعفو عنهم، فأنزل الله: {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم} أمره الله أن يسلم عليهم"[3].

والثالث: وحكي عن ابن عباس:"نزلت الآية في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي"[4].

وقال عطاء: "نزلت في أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبلال وسالم وأبي عبيدة ومصعب بن عمير وحمزة وجعفر وعثمان بن مظعون وعمار بن ياسر والأرقم بن أبي الأرقم وأبي سلمة بن عبد الأسد رضي، الله عنهم أجمعين"[5].

وقال مقاتل:"نزلت في عمر بن الخطاب تاب من بعد السوء، يعني: الشرك"[6].

والرابع: وذكر الواحدي عن عكرمة:أنها " نزلت في الذين نهى الله تعالى نبيه - صلى الله عليه وسلم - عن طردهم، فكانإذا رآهم النبي - صلى الله عليه وسلم - بدأهم بالسلام وقال: الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام"[7]. وذكره القرطبي دون نسبته لاحد[8].

---

(١)أخرجه سنيد في "تفسيره" –ومن طريقه الطبري في تفسيره(١٣٢٦٤):ص١١/٣٧٩-٣٨٠، ثنا حجاج بن محمد المصيصي عن ابن جريج عن عكرمة.

قلنا: وهذا سند ضعيف؛فيه ثلاث علل:

الأولى: الإرسال.

الثانية: ابن جريج لم يسمع عن عكرمة.

الثالثة: سنيد صاحب "التفسير" هذا؛ ضعيف؛ ضعفه أبوحاتم والنسائي وغيرهما.

(٢) أخرجه الطبري(١٣٢٦٥):١١/٣٨٠-٣٨١.

(٣) تفسير ابن ابي زمنين:٢/٧١.

(٤) عزاه غليه القرطبي في تفسيره: ٦ /٤٣٥.

(٥) تفسير البغوي:٣/١٤٨.

(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦٤.

(٧) أسباب النزول:٢١٨-٢١٩، حكاه دون ذكر الإسناد.

(٨) انظر: تفسير القرطبي:٦/٤٣٥.

قال ابن عطية:"قال جمهور المفسرين: الذين يراد بهم القوم الذين كان عرض طردهم فنهى الله عز وجل عن طردهم، وشفع ذلك بأن أمر بأن يسلم النبي صلى الله عليه وسلم عليهم ويؤنسهم"(١).

قوله تعالى:{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا} [الأنعام : ٥٤]، أي:"وإذا جاءك -أيها النبي- الذين صَدَّقوا بآيات الله الشاهدة على صدقك من القرآن وغيره مستفتين عن التوبة من ذنوبهم السابقة"(٢).

قال مقاتل:{يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا}"يعني: يصدقون بالقرآن أنه من الله"(٣).

قال الواحدي:{الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا}"يعني: الصَّحابة وهؤلاء الفقراء"(٤).

قال الطبري:يقول:"وإذا جاءك ، يا محمد ، القومُ الذين يصدِّقون بتنزيلنا وأدلتنا وحججنا ، فيقرّون بذلك قولا وعملا مسترشديك عن ذنوبهم التي سلفت منهم بيني وبينهم ، هل لهم منها توبة.

والمعنيُّون: غيرُ الذين نهى الله النبي صلى الله عليه وسلم عن طردهم. لأن قوله :{وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا}، خبر مستأنَفٌ بعد تقضِّي الخبر عن الذين نهى الله نبيه صلى اللهعليه وسلم عن طردهم. ولو كانوا هم ، لقيل : وإذا جاؤوك فقل سلام عليكم. وفي ابتداء الله الخبرَ عن قصة هؤلاء ، وتركه وصلَ الكلام بالخبر عن الأولين ، ما ينبئ عن أنهم غيرُهم"(٥).

قال صاحب المنار:"المراد بـ«الآيات»: آيات القرآن، المشتملة على حجج الله وآياته في الأنفس والآفاق، وهذهالآية معطوفة على آية النهي:{ولا تطرد الذين يدعون ربهم} . إلخ. والآية التي بينهما معترضة بين فيها ابتلاء كبراء المشركين بضعفاء المؤمنين ورغبتهم في طردهم"(٦).

قوله تعالى:{فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام : ٥٤]، أي:"فأكرِمْهم بردِّ السلام عليهم"(٧).

قال مقاتل:"يقول: مغفرة الله عليكم"(٨).

قال الطبري:أي:"أمَنَةٌ الله لكم من ذنوبكم ، أن يعاقبكم عليها بعد توبتكم منها"(٩).

قال ابن كثير:"أي : فأكرمهم برد السلام عليهم"(١٠).

قال الواحدي:أي:"سلّم عليهم بتحيَّة المسلمين"(١١).

قال السعدي:أي:"فحيهم ورحب بهم ولقهم منك تحية وسلاما"(١٢).

وفي قوله تعالى:{فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ} [الأنعام : ٥٤]، ثلاثة تاويلات:

أحدها: أنه تحية أمر الله تعالى رسوله أن يبدأ بها الذين يؤمنون بآياته إذا جاءوه إكراما خاصا بهم مخالفا للأصل العام - وهو كون القادم هو الذي يلقي السلام. وهو خاص بمن قال: إن الآية نزلت فيهم. هذا قول خبّاب (١٣)،عكرمة(١٤)، وعبد الرحمن بن زيد(١٥)، وبعض المتأخرين(١).

---

(١) المحرر الوجيز:٢٩٦/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٣٤.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.
(٤) الوجيز:٣٥٦.
(٥) تفسير الطبري:٣٩١/١١-٣٩٢.
(٦) تفسير المنار:٣٧٤/٧-٣٧٥.
(٧) التفسير الميسر:١٣٤.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٣/١.
(٩) تفسير الطبري:٣٩٢/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٦٢/٣.
(١١) الوجيز:٣٥٦.
(١٢) تفسير السعدي:٢٥٨.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٥٨):ص٣٧٦/١١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٤):ص٣٧٩/١١-٣٨٠.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٢٦٥):٣٨٠/١١-٣٨١.

والثاني: انه تحية منه تعالى أمر رسوله أن يبلغهم إياها عنه.وهذا قول الحسن[٢].
والثالث: انه إخبار عنه تعالى بسلامتهم وأمنهم من عقابه، قفى عليه ببشارتهم بمغفرته ورحمته.وهذا قول الإمام الطبري[٣]، وحكاه بعض المفسرين عن ابن عباس[٤].
قال صاحب المنار:القول"الثالث هو أظهرها"[٥].
قال القرطبي:معناه:"سلمكم الله في دينكم وأنفسكم، نزلت في الذين نهى الله نبيه عليه الصلاة والسلام عن طردهم، فكان إذا رآهم بدأهم بالسلام وقال: «الحمد لله الذي جعل في أمتي من أمرني أن أبدأهم بالسلام»، فعلى هذا كان السلام من جهة النبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: إنه كان من جهة الله تعالى، أي أبلغهم منا السلام، وعلى الوجهين ففيه دليل على فضلهم ومكانتهم عند الله تعالى، وفي صحيح مسلم عن عائذ بن عمرو:«أن أبا سفيان أتى على سلمان وصهيب وبلال ونفر[٦] فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عنق عدو الله مأخذها، قال: فقال أبو بكر: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم؟! فأتى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال: يا أبا بكر لعلك أغضبتهم لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك، فأتاهم أبو بكر فقال: يا إخوتاه أغضبتكم؟ قالوا: لا، يغفر الله لك يا أخي»[٧]، فهذا دليل على رفعة منازلهم وحرمتهم ..ويستفاد من هذا احترام الصالحين واجتناب ما يغضبهم أو يؤذيهم، فإن في ذلك غضب الله، أي حلول عقابه بمن آذى أحدا من أوليائه"[٨].
قال صاحب المنار:"«السلام»: من أسماء الله تعالى، يدل على تنزيهه عن كل ما لا يليق به من نقص، وعجز، وفناء، وغير ذلك من عيوب الخلق وضعفهم. واستعمل السلام في المتاركة وفي التحية معرفة ونكرة، يقال: سلام عليكم، والسلام عليكم، وهو بمعنى الدعاء بالسلامة من كل ما يسوء، ويفيد تأمين المسلم عليه من كل أذى يناله من المسلم،فهو آية المودة والصفاء، وثبت في التنزيل أن السلام تحية أهل الجنة يحييهم بها ربهم جل وعلا، وملائكته الكرام ويحيي بها بعضهم بعضا، وهو تحية الإسلام الذي هو دين السلم والمسالمة:{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً} [البقرة : ٢٠٨]"[٩].
قوله تعالى:{كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ} [الأنعام : ٥٤]، أي:"وبَشِّرهم برحمة الله الواسعة; فإنه جلَّ وعلا قد كتب على نفسه الرحمة بعباده تفضلا وإحسانا"[١٠].
قال الطبري:"يقول : قضى ربكم الرحمة بخلقه"[١١].
قال البغوي:"أي: قضى على نفسه الرحمة"[١٢].
قال الواحدي:أي:"أوجب الله لكم الرَّحمة إيجاباً مُؤكّدا"[١٣].
قال ابن كثير:"أي : أوجبها على نفسه الكريمة ، تفضلا منه وإحسانًا وامتنانًا"[١٤].

---

(١) انظر: النكت والعيون:١١٩/٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:١١٩/٢.
(٣) تفسير الطبري:٣٩٢/١١.
(٤) انظر: تفسير المنار:٣٧٤/٧.
(٥) تفسير المنار:٣٧٤/٧.
(٦) في صحيح مسلم: في نفر.
(٧) صحيح مسلم(٢٥٠٤)، وهو عند احمد(٢٠٦٤٠). وعائذ بن عمرو هو المزني، أبو هبيرة، كان ممن بايع تحت الشجرة، وسكن البصرة، وتوفي في إمارة ابن زياد، انظر: الإصابة:٣٠٨/٥.
(٨) تفسير القرطبي:٤٣٥/٦.
(٩) تفسير المنار:٣٧٤/٧.
(١٠) انظر: التفسير الميسر:١٣٤، وصفوة التفاسير:٣٦٤/١.
(١١) تفسير الطبري:٣٩٢/١١.
(١٢) تفسير البغوي:١٤٨/٣.
(١٣) الوجيز:٣٥٦.
(١٤) تفسير ابن كثير:٢٦٢/٣.

قال السعدي:أي:"وبشرهم بما ينشط عزائمهم وهممهم، من رحمة الله، وسعة جوده وإحسانه، وحثهم على كل سبب وطريق، يوصل لذلك"(١).

قال صاحب المنار:"وكتابتها، إيجابها على ذاته العلية، وله أن يوجب على نفسه ما شاء ولا يوجب عليه أحد شيئا. فالرحمة من شئون الربوبية الواجبة لها لا عليها، وإن في نظام الفطرة البشرية وما سخر الله للبشر من أسباب المعيشة المادية، وما آتاهم من وسائل العلوم الكسبية، ومن هداية الوحي الوهبية - لآيات بينات على سعة الرحمة الربانية، وتربية عباده بها في حياتهم الجسدية والروحية، بل هي التي وسعت كل شيء، ولكن كتابتها أمر آخر خص به بعض الخلق"(٢).

قوله تعالى:{أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ} [الأنعام : ٥٤]، أي:"أنه من اقترف ذنبًا بجهالة منه لعاقبتها وإيجابها لسخط الله(٣).

قال الطبري:أي:"أنه من اقترف منكم ذنبًا ، فجهل باقترافه "(٤).

قال الواحدي:"يريد: إن ذنوبكم جهل ليس بكفرٍ ولا جحود لأنَّ العاصي جاهلٌ بمقدار العذاب في معصيته"(٥).

قال الضحاك:" ليس من جهالته أن لا يعلم حلالا ولا حراما، ولكن من جهالته حين دخل فيه"(٦).

قال ابن كثير:"قال بعض السلف : كل من عصى الله ، فهو جاهل"(٧).

قال مجاهد:"من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع، عن معصيته"(٨).

وعن مجاهد ايضا :"{إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ}(٩)، قال: الجهالة العمد"(١٠).وروي، عن عطاء، مثله(١١).

وعن جهير بن يزيد قال: "سألت الحسن، عن قوله: {السوء بجهالة}، قلت: ما هذه الجهالة؟ قال: هم قوم لم يعلموا ما لهم مما عليهم. قلت: أرأيت لو كانوا علموا؟ قال: فليخرجوا منها، فإنها جهالة"(١٢).

وروي عن عكرمة في قوله: "{السوء بجهالة}، قال: الدنيا كلها جهالة"(١٣).

وقال خالد بن دينار أبو خلدة: "كنا إذا دخلنا على أبي العالية قال : {وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة}"(١٤).

قرأ عاصم، وابن عامر، ونافع:«أنه من عمل» بفتح الهمزة، وقرأ ابن كثير وابو عمرو وحمزة والكسائي:«إنه»، بكسرها(١٥).

فأما قراءة الفتح: فعلى البدل من الرحمة، أي بدل البعض من الكل؛ إذ ذكر من أنواع الرحمة المكتوبة ما هم أحوج إلى معرفته بنص الوحي، وهو حكم من يعمل السوء من

---

(١) تفسير السعدي:٢٥٨.
(٢) تفسير المنار:٣٧٥/٧.
(٣) التفسير الميسر:١٣٤.
(٤) تفسير الطبري:٣٩٣/١١.
(٥) الوجيز:٣٥٦.
(٦) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٤٧):ص١٣٠١/٤.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٦٢/٣.
(٨) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٤٨):ص١٣٠١/٤.
(٩)[النساء : ١٧].
(١٠) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٤٩):ص١٣٠١/٤.
(١١) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٣٠١/٤. حكاه دون ذكر السند.
(١٢) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥٠):ص١٣٠١/٤.
(١٣) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥١):ص١٣٠١/٤.
(١٤) أخرجه الطبري(١٣٢٩٨):ص٢٩٤/١١.
(١٥) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٨.

المؤمنين، وكيف يعامله الله تعالى، وأما سائر أنواعها، وما هو إحسان غير مكتوب منها، فيمكن أن يستدل عليهما بالنظرفي الأنفس والآفاق، وهو ما أشرنا إليه في تفسير كتابتها.

وأما قراءة الكسر: فعلى الاستئناف النحوي أو البياني، كأنه قيل: ما هذه الرحمة؟ أو: ما حظنا منها في أعمالنا؟ وهل من مقتضاها ألا نؤاخذ بذنب، وأن يغفر لنا كل سوء بلا شرط ولا قيد؟ فجاء الجواب: إنه - أي الحال والشأن - من عمل منكم عملا تسوء عاقبته وتأثيره لضرره الذي حرمه الله لأجله حال كونه متلبسا بجهالة دفعته إلى ذلك السوء(١).

قوله تعالى:{ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ} [الأنعام : ٥٤]، أي:"ثم تاب من بعده وداوم على العمل الصالح(٢).

قال الواحدي:يعني:"رجع عن ذنبه {وأصلح} عمله"(٣).

قال ابن كثير:"أي : رجع عما كان عليه من المعاصي ، وأقلع وعزم على ألا يعود وأصلح العمل في المستقبل"(٤).

قال السعدي:"أي: فلا بد مع ترك الذنوب والإقلاع، والندم عليها، من إصلاح العمل، وأداء ما أوجب الله، وإصلاح ما فسد من الأعمال الظاهرة والباطنة"(٥).

قوله تعالى:{فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} [الأنعام : ٥٤]، أي:"فإنه تعالى يغفر ذنبه، فهو غفور لعباده التائبين، رحيم بهم(٦).

قال السعدي:"أي: صب عليهم من مغفرته ورحمته، بحسب ما قاموا به، مما أمرهم به"(٧).

قال سعيد بن جبير:"{غفور}، يعني: لما كان منه قبل التوبة"(٨)، "{رحيم}: لمن تاب"(٩).

عن قتادة :قوله: "{رحيم} قال: رحيم بعباده"(١٠).

قرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَحَمْزَة ونافع والكسائى:«فَأَنَّهُ غَفُور رَحِيم»، بكسر الْألف، وَقَرَأَ عَاصِم وَابْن عَامر :« فَأَنَّهُ» بالفتح (١١).

عن أبي هريرة :قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "لما قَضَى الله الخَلْقَ ، كتب في كتابه فهو عنده فوق العرش : إن رحمتي غلبت غضبي"(١٢).

وعن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "إذا فرغ الله من القضاء بين الخلق ، أخرج كتابًا من تحت العرش : إن رحمتي سبقت غضبي ، وأنا أرحم الراحمين ، فيقبض قبضة أو قبضتين فيخرج من النار خلقًا لم يعملوا خيرًا ،مكتوب بين أعينهم. عُتَقَاء الله"(١٣).

وعن سلمان قال : "نجد في التوراة عطفتين : أن الله خلق السماوات والأرض ، ثم خلق مئة رحمة أو : جعل مئة رحمة قبل أن يخلق الخلق. ثم خلق الخلق ، فوضع بينهم رحمة واحدة ، وأمسك عنده تسعًا وتسعين رحمة. قال : فبها يتراحمون ، وبها يتباذلون ، وبها يتعاطفون ،

---

(١) انظر: تفسير المنار:٣٧٥/٧.
(٢) التفسير الميسر:١٣٤.
(٣) الوجيز:٣٥٦.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٦٢/٣.
(٥) تفسير السعدي:٢٥٨.
(٦) التفسير الميسر:١٣٤.
(٧) تفسير السعدي:٢٥٨.
(٨) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥٣):ص١٣٠٢/٤.
(٩) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥٤):ص١٣٠٢/٤.
(١٠) اخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥٥):ص١٣٠٢/٤.
(١١) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٨.
(١٢)المسند (٣١٣/٢)، ورواه البخاري في صحيحه برقم (٣١٩٤)، ومسلم في صحيحه برقم (٢٧٥١) من وجوه أخرى عن أبي هريرة.
(١٣) رواه ابن مَرْدُوَيه ، من طريق الحكم بن أبان، كما في تفسير ابن كثير:٢٦٢/٣-٢٦٣.

وبها يتزاورون ، وبها تحنُّ الناقة ، وبها تثُوجُ البقرة، وبها تيعر الشاة ، وبها تتَّابع الطير ، وبها تتَّابع الحيتان في البحر. فإذا كان يوم القيامة ، جمع الله تلك الرحمة إلى ما عنده. ورحمته أفضل وأوسع"(١).

قال ابن كثير:"ومما يناسب هذه الآية لكريمة من الأحاديث أيضا قوله صلى الله عليه وسلم لمعاذ بن جبل : «أتدري ما حق الله على العباد ؟ أن يعبدوه لا يشركوا به شيئا، ثم قال : أتدري ما حق العباد على الله إذا هم فعلوا ذلك ؟ ألا يعذبهم»(٢)"(٣).

الفوائد:

١- وجوب الرفق والتلطف بالمستفتين وعدم الشدة والغلظة عليهم.

٢- -ومنها: إثبات هذين الاسمين الكريمين: «الغفور»، و«الرحيم»؛ وما تضمناه من صفة، وفعل.

فـ«الغفور»: هو الذي تكثر منه المغفرة. وبناء فعول: بناء المبالغة في الكثرة(٤).

والفرق بين صيغتي:«الغفار»، و«الغفور»: أن "«الغفار»(٥)، معناه: الستار لذنوب عباده في الدنيا بأن لا يهتكهم ولا يشيدهما عليهم، ويكون معنى «الغفور»: منصرفا إلى مغفرة الذنوب في الآخرة، والتجاوز عن العقوبة فيها"(٦).

و«الرحيم»:أي: ذو الرحمة الواسعة التي وسعت كل شيء (٧).

قال الشيخ ابن عثيمين:"«الرحيم»:أي الموصل للرحمة من يشاء من عباده"(٨).

القرآن

{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ (٥٥)} [الأنعام : ٥٥]

التفسير:

ومثل هذا البيان الذي بيَّنَّاه لك -أيها الرسول- نبيِّن الحجج الواضحة على كل حق ينكره أهل الباطل; ليتبين الحق، وليظهر طريق أهل الباطل المخالفين للرسل.

سبب النزول:

عن ابن عباس قال: "مر الملأ من قريش على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعنده خباب وبلال وصهيب فقالوا: أهؤلاء من الله عليهم من بيننا، أتأمرنا أن نكون تبعا لهؤلاء؟ اطردهم عنك فلعلنا نتبعك. فأنزل الله: {وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم} إلى قوله: {ولتستبين سبيل المجرمين}. الآيات:[٥٢- ٥٥]"(٩).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٠٩٩):ص٢٧٥/١١.

(٢)رواه البخاري في صحيحه برقم (٧٣٧٣)، ومسلم في صحيحه برقم (٣٠).

(٣) تفسير ابن كثير:٢٦٣/٣.

(٤) انظر: شأن الدعاء:٦٥/١.

(٥)قال الخطابي:" الغفار: هو الذي يغفر ذنوب عباده مرة بعد أخرى. كلما تكررت التوبة في الذنب من العبد تكررت المغفرة. كقوله -سبحانه-: {وإني لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى} [طه:٨٢].

وأصل الغفر في اللغة: الستر والتغطية، ومنه قيل لجنة الرأس: المغفر، وبه سمي زئبر الثوب غفرا وذلك لأنه يستر سداه؛ فالغفار: الستار لذنوب عباده، والمسدل عليهم ثوب عطفه ورأفته. ومعنى الستر في هذا أنه لا يكشف أمر العبد لخلقه ولا يهتك ستره بالعقوبة التي تشهره فيعيونهم ويقال: إن المغفرة مأخوذة من الغفر: وهو فيما حكاه بعض أهل اللغة نبت يداوى به الجراح، يقال إنه إذا ذر عليها دملها وأبراها". [شأن الدعاء:٥٢/١-٥٣، وانظر: اللسان وتاج العروس، مادة"غفر"].

(٦) شأن الدعاء:٦٥/١.

(٧) انظر:تفسير ابن عثيمين: الفاتحة والبقرة:١٨٨/١، وشرح أسماء الحسنى في ضوء الكتاب والسنة:٨٤.

(٨) تفسير ابن عثيمين الفاتحة والبقرة:٥/١.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٢٦):ص١٢٩٦/٤.

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ} [الأنعام : ٥٥]، أي:" ومثل هذا البيان الذي بيَّنَّاه لك -أيها الرسول- نبيِّن الحجج الواضحة على كل حق ينكره أهل الباطل"[١].

عن قتادة:"{وكذلك نفصل الآيات}، نبين الآيات"[٢].

قال ابن زيد في:"{نفصل الآيات}، نبين"[٣]. وروي عن السدي مثل ذلك[٤].

قال البغوي:"أي: وهكذا، وقيل: معناه وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلناوإعلامنا على المشركين {كذلك نفصل الآيات}، أي: نميز ونبين لك حجتنا في كل حق ينكره أهل الباطل"[٥].

قال الطبري:أي:"وكما فصلنا لك في هذه السورة من ابتدائها وفاتحتها، يا محمد، إلى هذا الموضع، حجتَّنا على المشركين من عبدة الأوثان، وأدلتَّنا، وميَّزناها لك وبيَّناها، كذلك نفصِّل لك أعلامنا وأدلتنا في كل حقّ ينكره أهل الباطل من سائر أهل المللغيرهم، فنبينها لك"[٦].

قال الزمخشري:أي:"ومثل ذلك التفصيل البين نفصل آيات القرآن ونلخصها في صفة أحوال المجرمين، من هو مطبوع على قلبه لا يرجى إسلامه، ومن يرى فيه أمارة القبول وهو الذي يخاف إذا سمع ذكر القيامة، ومن دخل في الإسلام إلا أنه لا يحفظ حدوده"[٧].

قال القرطبي:"التفصيل: التبيين الذي تظهر به المعاني، والمعنى: وكما فصلنا لك في هذه السورة دلائلنا ومحاجتنا مع المشركين كذلك نفصل لكم الآيات في كل ما تحتاجون إليه من أمر الدين، ونبين لكم أدلتنا وحججنا في كل حق ينكره أهل الباطل"[٨].

وقال القتبي:" {نفصل الآيات}، نأتي بها شيئا بعد شي، ولا ننزلها جملة متصلة"[٩].

قال أبو عبيدة:{نُفَصِّلُ الْآيَاتِ}"أي: نميزها ونبيّنها، قال يزيد ابن ضبّة فى البغتة[١٠]:

ولكنّهم بانوا ولم أدر بغتة وأفظع شىء حين يفجؤك البغت"[١١]

قوله تعالى:{وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ} [الأنعام : ٥٥]، أي:" ليتبين الحق، وليظهر طريق أهل الباطل المخالفين للرسل"[١٢].

قال البغوي:"أي: طريق المجرمين"[١٣].

قال القرطبي:"أي: ولتستبين يا محمد سبيل المجرمين"[١٤].

قال ابن زيد:"{ولتستبين}، قال: لتعرفها"[١٥].{سبيلَ المجرمين}"الذين يأمرونك بطرد هؤلاء"[١٦].

قال الزمخشري:أي:"ولتستوضح سبيلهم فتعامل كلا منهم بما يجب أن يعامل به"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٤.

(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٠٠):ص٣٩٦/١١.

(٣) أخرجه الطبري(١٣٣٠١):ص٣٩٦/١١.

(٤) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٥٦):ص١٣٠٢/٤.

(٥) تفسير البغوي:١٤٨/٣-١٤٩.

(٦) تفسير الطبري:٣٩٥/١١.

(٧) الكشاف:٢٩/٢.

(٨) تفسير القرطبي:٤٣٦/٦.

(٩) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.

(١٠)زيد بن ضبة: مولى لثقيف واسم أبيه مقسم، وضبة أمه،غلبت على نسبه لأن أباه مات وخلفه صغيرا...وهو شاعر إسلامى. انظر:أخباره في الأغاني: ٦/ ١٤٦- ١٥٠ وترجم له ابن حبيب في كتاب من نسب إلى أمه: ص ٨٨ ...والبيت في الكامل ٥٢٠، واللسان"بغت".

(١١) مجاز القرآن:١٩٣/١.

(١٢) التفسير الميسر:١٣٤.

(١٣) تفسير البغوي:١٤٩/٣.

(١٤) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.

(١٥) أخرجه الطبري(١٣٢٦٥):٣٨٠/١١-٣٨١.

(١٦) أخرجه الطبري(١٣٢٩٩):ص٣٩٥/١١.

قال الطبري:أي:"حتى تبين حقه من باطله، وصحيحهُ من سقيمه"[٢].
قال الزجاج:"فإن قال قائل أفلم يكن النبي - صلى الله عليه وسلم – مستبيناسبيل المجرمين؟

فالجواب في هذا أن جميع ما يخاطب بهالمؤمنون يخاطب به النبي - صلى الله عليه وسلم -، فكأنه قال ولتستبينوا المجرمين، أي لتزدادوا استبانة لها، ولم يحتج أن يقول ولتستبين سبيل المؤمنين مع ذكر سبيل المجرمين، لأن سبيل المجرمين إذا استبانت فقد بانت معها سبيل المؤمنين.

وجائز أن يكون المعنى: ولتستبين سبيل المجرمين ولتستبين سبيلالمؤمنين، إلا أن الذكر والخطاب ههنا في ذكر المجرمين فذكروا وتركذكر سبيل المؤمنين، لأن في الكلام دليلا عليهاكما قال عز وجل: {سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الحَرّ} [النحل : ٨١] ولم يقل: تقيكم البرد، لأن الساتر يستر من الحر والبرد، ولكن جرى ذكر الحر لأنهم كانوا في مكانهم أكثر معاناة له من البرد"[٣].

قَرَأَ ابْن كثير وَأَبُو عَمْرو وَابْن عَامر، وحَفْص عَن عَاصِم: {ولتستبين} بِالتَّاءِ {سَبِيل} رفعا، وَقَرَأَ نَافِع :{ولتستبين} بِالتَّاءِ {سَبِيل} نصبا، وَقَرَأَ عَاصِم فى رِوَايَة أَبى بكر وَحَمْزَة والكسائى:«وليستبين»، بِالْيَاءِ، {سَبِيل} رفعا[٤].

الفوائد:

١- أن الله تعالى قد بيّن في كتابه سبيل المؤمنين مفصلة، وسبيل المجرمين مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وعاقبة هؤلاء مفصلة، وجلا سبحانه الأمرين في كتابه وكشفهما وأوضحهما وبينهما غاية البيان، حتى شاهدتهما البصائر كمشاهدة الأبصار للضياء والظلام.

٢- أن العالمين بالله وكتابه ودينه عرفوا سبيل المؤمنين معرفة تفصيلية، وسبيل المجرمين معرفة تفصيلية، فاستبانت لهم السبيلان كما يستبين للسالك الطريق الموصل إلى مقصوده والطريق الموصل إلى الهلكة. فهؤلاء أعلم الخلق وأنفعهم للناس وأنصحهم لهم وهم الأدلاء الهداة، وبذلك برز الصحابة على جميع من أتى بعدهم إلى يوم القيامة، فإنهم نشأوا في سبيل الضلال والكفر والشرك والسبل الموصلة إلى الهلاك وعرفوها مفصلة، ثم جاءهم الرسول فأخرجهم من تلك الظلمات إلى سبيل الهدى وصراط الله المستقيم، فخرجوا من الظلمة الشديدة إلى النور التام، ومن الشرك إلى التوحيد، ومن الجهل إلى العلم، ومن الغي إلى الرشاد، ومن الظلم إلى العدل، ومن الحيرة والعمى إلى الهدى والبصائر، فعرفوا مقدار ما نالوه وظفروا به، ومقدار ما كانوا فيه. فإن الضد يظهر حسنه الضد، وإنما تتبين الأشياء بأضدادها. فازدادوا رغبة ومحبة فيما انتقلوا إليه، ونفرة وبغضا لما انتقلوا عنه، وكانوا أحب الناس في التوحيد والإيمان والإسلام وأبغض الناس في ضده، عالمين بالسبيل على التفصيل.

٣- والناس في معرفتهم لللسبيلين أربع فرق:

- الفرقة الأولى: من استبان له سبيل المؤمنين وسبيل المجرمين على التفصيل علما وعملا، وهؤلاء أعلم الخلق.
- الفرقة الثانية: من عميت عنه السبيلان من أشباه الأنعام. وهؤلاء بسبيل المجرمين أحضر ولها أسلك.
- الفرقة الثالثة: من صرف عنايته إلى معرفة سبيل المؤمنين دون ضدها فهو يعرف ضدها من حيث الجملة والمخالفة، وأن كل ما خالف سبيل المؤمنين فهو باطل وإن لم

---

(١) الكشاف:٢٩/٢.
(٢) تفسير الطبري:٣٩٥/١١.
(٣) معاني القرآن:٢٥٤/٢-٢٥٥.
(٤) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٨.

يتصوره على التفصيل، بل إذا سمع شيئا مما خالف سبيل المؤمنين صرف سمعه عنه ولم يشغل نفسه بفهمه ومعرفة وجه بطلانه،وهو بمنزلة من سلمت نفسه من إرادة الشهوات فلم تخطر بقلبه ولم تدعه إليها نفسه، بخلاف الفرقة الأولى، فإنهم يعرفونها وتميل إليها نفوسهم ويجاهدونها على تركها لله.

وقد كتبوا إلى عمر بن الخطاب يسألونه عن هذه المسألة أيهما أفضل:«رجل لم تخطر له الشهوات ولم تمر بباله، أو رجل نازعته إليها نفسه فتركها لله؟ فكتب عمر: إن الذي تشتهي نفسه المعاصي ويتركها لله عزوجل من:{الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ} [الحجرات : ٣]»(١).

- الفرقة الرابعة: فرقة عرفت سبيل الشر والبدع والكفر مفصلة، وسبيل المؤمنين مجملة، وهذا حال كثير ممن اعتنى بمقالات الأمم ومقالات أهل البدع، فعرفها على التفصيل ولم يعرف ما جاء به الرسول كذلك، بل عرفه معرفة مجملة وإن تفصلت له في بعض الأشياء. ومن تأمل كتبهم رأى ذلك عيانا. وكذلك من كان عارفا بطرق الشر والظلم والفساد على التفصيل سالكا لها، إذا تاب ورجع عنها إلى سبيل الأبرار يكون علمه بها مجملا غير عارف بها على التفصيل معرفة من أفنى عمره في تصرفها وسلوكها.

والمقصود أن الله سبحانه يحب أن تعرف سبيل أعدائه لتجتنب وتبغض، كما يحب أن تعرف سبيل أوليائه لتحب وتسلك. وفي هذه المعرفة من الفوائد والأسرار ما لا يعلمه إلا الله من معرفة عموم ربوبيته سبحانه وحكمته وكمال أسمائه وصفاته وتعلقها بمتعلقاتها واقتفائها لآثارها وموجباتها. وذلك من أعظم الدلالة على ربوبيته وملكه وإلهيته وحبه وبغضه وثوابه وعقابه(٢).

٤- أن بيان مبادئ أهل الضلال، وطرقِهم في إضلال الناس والتلبيس عليهم، لَهُو من دين الله - عز وجل - ومن مقاصد القرآن الكريم؛ إذ قال الله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ}، فلمَّا عمت في الناس الأهواء وكثرت البدع والآراء وفشت الضلالات احتاج أهل العلم إلى تأليف الكتب وعقد الفصول وكتابة الرسائل وجمع الأدلة في بيان فضل اتباع النبي صلى الله عليه وسلم، والتحذير من الأهواء وأهلها حتى تستبين الجادة وتتضح الطريق.

فالباطل إذا وُجد في الناس وانتشر يجب أن يحذر منه، وأيضاً إذا ضعف الحق والتمسك به ينبغي أن ينشر بين الناس فضله. وإذا نظرت في كثير من مجتمعاتنا اليوم ترى أنَّهم يحتاجون إلى هذه الأصول، يحتاجون إلى أن تذكر لهم الأحاديث والأدلة الدالة على فضل اتباع النبي صلى الله عليه وسلم. فإذا عرفوا فضل ذلك، بُين لهم كيف يكون الإنسان متبعاً للنبي صلى الله عليه وسلم سائراً على نهجه مقتفياً لآثاره

القرآن

{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (٥٦)} [الأنعام : ٥٦]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل نهاني أن أعبد الأوثان التي تعبدونها من دونه، وقل لهم: لا أتبع أهواءكم قد ضللت عن الصراط المستقيم إن اتبعت أهواءكم، وما أنا من المهتدين.

سبب النزول:

---

(١) الفوائد لابن القيم:١١٠.

(٢) انظر: الفوائد:١٠٨-١١١.

قال مقاتل:"{قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ}، إن اتبعت أهواءكم، وذلك حين دعي إلى دين آبائه"(١).

قوله تعالى:{قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأنعام : ٥٦]، أي:"قل - أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إن الله عز وجل نهاني أن أعبد الأوثان التي تعبدونها من دونه"(٢).

قال البغوي:"{لا أتبع أهواءكم} في عبادة الأوثان وطرد الفقراء"(٣).

قال الزمخشري:"{نهيت}: صرفت وزجرت، بما ركب فى من أدلة العقل، وبما أوتيت من أدلة السمع عن عبادة ما تعبدون من دون الله وفيه استجهال لهم ووصف بالاقتحام فيما كانوا فيه على غير بصيرة"(٤).

قال الزجاج:"كانوا يعبدون الأصنام، وقالوا:{مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى} [الزمر : ٣]، فأعلم الله عز وجل أنه لا يعبد غيره"(٥).

قال القرطبي:"قيل:{تدعون} بمعنى تعبدون. وقيل: تدعونهم في مهمات أموركم على جهة العبادة، أراد بذلك الأصنام"(٦).

قوله تعالى:{قُلْ لَا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ } [الأنعام : ٥٦]، أي:"وقل لهم: لا أتبع أهواءكمفي عبادة غير الله"(٧).

قال الزمخشري:"أى: لا أجرى في طريقتكم التي سلكتموها في دينكم من اتباع الهوى دون اتباع الدليل، وهو بيان للسبب الذي منه وقعوا في الضلال، وتنبيه لكل من أراد إصابة الحق ومجانبة الباطل"(٨).

قال الزجاج:"أي: إنما عبدتموها على طريق الهوى لا على طريق البينة والبرهان"(٩).

قال القرطبي:أي:"فيما طلبتموه من عبادة هذه الأشياء، ومن طرد من أردتم طرده"(١٠).

قوله تعالى:{قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ} [الأنعام : ٥٦]، أي:"أي قد ضللت إن أتبعتُ أهواءكم ولا أكون في زمرة المهتدين"(١١).

قال الزجاج:"العنى: قد ضللت إن عبدتها،{وما أنا من المهتدين} وما أنا من النبيين الذين سلكوا طريق الهدى"(١٢).

قال القرطبي:"أي: قد ضللت إن اتبعت أهواءكم،{وما أنا من المهتدين}، أي: على طريق رشد وهدى"(١٣).

قال البغوي:"يعني: إن فعلت ذلك فقد تركت سبيل الحق وسلكت غير طريق الهدى"(١٤).

قال الزمخشري:"أى: إن اتبعت أهواءكم فأنا ضال، وما أنا من الهدى في شيء، يعنى: أنكم كذلك"(١٥).

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.
(٢)التفسير الميسر:١٣٤.
(٣) تفسير البغوي:١٤٩/٣.
(٤) الكشاف:٣٠/٢.
(٥) معاني القرآن:٢٥٥/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.
(٧) التفسير الميسر:١٣٤، وصفوة التفاسير:٣٦٤/١.
(٨) الكشاف:٣٠/٢.
(٩) معاني القرآن:٢٥٥/٢.
(١٠) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.
(١١) صفوة التفاسير:٣٦٤/١.
(١٢) معاني القرآن:٢٥٥/٢.
(١٣) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.
(١٤) تفسير البغوي:١٤٩/٣.
(١٥) الكشاف:٣٠/٢.

الفوائد:
١- إتباع أهواء أهل الأهواء والباطل يضل ويهلك.
٢- تضمنت هذه الآية حقيقة دين الإسلام وهو إخلاص التوحيد لله وحده.
قال ابن القيم في هذه الآية:"فما أوضحها من آية في بيان أن جل شرك المشركين إنما هو بدعاء من أشركوا مع الله في العبادة...هو من أشرف أنواع العبادة إذا قصر على الله الذي لا يستحقه أحد سواه، وقد قال تعالى: {لَهُ دَعْوَةُ الحَق} [الرعد:١٤] ، فهي له وحده ليس لغيره منها ولا مثقال ذرةومدلولها الطلب والسؤال، كما دل عليه قوله: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى المَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد:١٤]، فأنكر تعالى لى من صرف شيئاً من الدعوة لغيره... تبين بهذه الآية ونظائرها أن كل مدعو من دون الله لا ينفع داعيه ولا يضره، وأن دعوة من يدعي من دونه تنافي الإسلام، لأن أساسه التوحيد والإخلاص، وهذا الشرك ينافيه "(١).
٣- ويتفرغ من الفائدة السابقة ان الاستغاثة(٢) لاتكون إلا بالله، فالإستغاثة نوع من العبادة يجب صرفها لله تعالى، فلا يستغات إلا بالله عز وجل، ولقد ذكر الله تعالى الإستغاثة في كتابه العزيز، فلم تصرف إلا له سبحانه، كما في النصوص الآتية:
١-قال الله تعالى: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأنعام: ٧١] .
٢-وقال سبحانه وتعالى: {وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤] .
٣ - وقال جل وعلا: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ} . [المؤمنون: ١١٧] .
٤ - وقال تعالى: {إِنْ تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ} . [فاطر:١٤] .
٥ - وقال عز وجل: {قُلْ إِنَّمَا أَدْعُو رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِهِ أَحَدًا} [الجن: ٢٠] .
٦ - وقال تعالى: {وَلَا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكَ وَلَا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذًا مِنَ الظَّالِمِينَ} [يونس: ١٠٦] .
٧ - وقال سبحانه: {يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَضُرُّهُ وَمَا لَا يَنْفَعُهُ ذَلِكَ هُوَ الضَّلَالُ الْبَعِيدُ} . [الحج: ١٢] .
٨ - وقال عز وجل: {وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعَائِهِمْ غَافِلُونَ} [الأحقاف: ٥] .
٩ - وقال تعالى: {وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَدًا} . [الجن: ١٨] .
١٠ - وقال جل وعلا: {فَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتَكُونَ مِنَ الْمُعَذَّبِينَ} [الشعراء:٢١٣] .
١١ - وقال سبحانه: {وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ} . [القصص: ٨٨] .
١٢ - وقال سبحانه: {قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ} [الأنعام: ٥٦] .
١٣ - وقال تعالى:{وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ} [غافر: ٦٠] .
١٤ - وقال تعالى عن أصحاب الكهف: {لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلَهًا لَقَدْ قُلْنَا إِذًا شَطَطًا} [الكهف: ١٤] .
١٥ - وقال جل وعلا: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَكُمْ وَلَا أَنْفُسَهُمْ يَنْصُرُونَ} [الأعراف: ١٩٧] .
١٦ - وقال عز وجل: {أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ} [النمل: ٦٢] .

---

(١) تلبيس ابليس:١٤٧، ١٤٩.
(٢)والفرق بين الاستغاثة والدعاء: أن الاستغاثة لا تكون إلا من المكروب، وأما الدعاء فهو أعم منها؛ لأنه يكون من المكروب وغيره. انظر: اللباب:٥٧

١٧ - وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ} [الحج: ٧٣] .
١٨ - وقال تعالى: {وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِنْ قِطْمِيرٍ} [فاطر: ١٣] .
١٩ - وقال جل وعلا: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ} [الأحقاف: ٤] .
٢٠ - وقال تعالى: {قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ} [فاطر: ٤٠] .
٢١ - وقال عز وجل: {قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ} . [الزمر: ٣٨] .
٢٢ - وقال عز وجل: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ} [الرعد: ١٤] .
٢٣ - وقال تعالى: {وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَخْلُقُونَ شَيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ}[النحل: ٢٠] .
٢٤ - وقال سبحانه: {وَلَا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفَاعَةَ} [الزخرف: ٨٦] .
٢٥ - وقال جل وعلا: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِهِ فَلَا يَمْلِكُونَ كَشْفَ الضُّرِّ عَنْكُمْ وَلَا تَحْوِيلًا} [الإسراء:٥٦] .
٢٦ - وقال سبحانه: {قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ} [سبأ: ٢٢] .
٢٧ - وقال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ فَادْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ} [الأعراف: ١٩٤] .
٢٨ - وقال عز وجل: {وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء: ٦٧] .
٢٩ - قال تعالى: {أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ} . [الصافات: ١٢٥] .
٣٠ - وقال عز وجل: {حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ فَلَمَّا أَنْجَاهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ} [يونس: ٢٢-٢٣] .
٣١ - وقال تعالى: {وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُ مُنِيبًا إِلَيْهِ ثُمَّ إِذَا خَوَّلَهُ نِعْمَةً مِنْهُ نَسِيَ مَا كَانَ يَدْعُو إِلَيْهِ مِنْ قَبْلُ وَجَعَلَ لِلَّهِ أَنْدَادًا لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِهِ قُلْ تَمَتَّعْ بِكُفْرِكَ قَلِيلًا إِنَّكَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ}[الزمر: ٨] .
٣٢ - وقال سبحانه: {إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ} [الأنبياء: ٩٠] .
٣٣ - وقال سبحانه وتعالى: {وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ} [البقرة: ١٨٦] .
٣٤ - وقال تعالى: {تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا} [السجدة: ١٦] .
٣٥ - وقال سبحانه: {قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى} [الإسراء: ١١٠] .
٣٦ - وقال جل وعلا: {وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} [الأعراف: ١٨٠] .
٣٧ - وقال تعالى: {وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [الأعراف ٢٩] .
٣٨ - وقال سبحانه: {فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ} [غافر: ٦٥] .
٣٩ - وقال سبحانه: {فَادْعُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ} [غافر:١٤] .
٤٠ - وقال تعالى: {إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ} [الفاتحة:٥] .
٤١ - وقال سبحانه: {قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا} [الأعراف: ١٢٨] .

٤٢ - وقال تعالى عن نبيه يعقوب: {فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} .[يوسف: ١٨] .
٤٣ - وقال تعالى: {قَالَ رَبِّ احْكُمْ بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الرَّحْمَنُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ} [الأنبياء: ١١٢] .
٤٤ - وقال عز وجل: {وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا} [الأعراف: ٥٦] .

وقد استدل أهل العلم بهذه الآيات وغيرها على إبطال الاستغاثة بغير الله تعالىعند المصائب والكربات، وتقرير الاستدلال عندهم بهذه الآيات المباركات يتلخص فيما يلي من الفقرات:

- أن هذه الآيات المباركات تدلّ دلالة قاطعة على أنّ دعاء غير الله تعالى عبادة لغير الله عز وجل.
- وأنه ظلم.
- وأنه ضلال بعيد.
- وأنه منهي عنه.
- وأن جزاء فاعله جهنم.
- وأنه شطط.
- وأن الذين يدعونهم ويستغيثون بهم - لا يملكون نفعا ولا ضرا؛ لا لأنفسهم ولا لغيرهم.
- وهم عن دعائهم غافلون، فلا يعلمون بحالهم ولا يسمعون دعاءهم.
- وهم براء عن شركهم، ويكونون لهم أعداء يوم القيامة.
- وأن الله تعالى زجر وخوّف المستغيثين بغيره بعذاب أليم.
- وأن الله أمر أمرا باتا قاطعا ألا ندعوا إلا الله وحده لا شريك له.
- وأنه رغّب في دعائه، والاستعانة منه وحده لا شريك له.
- وأن الله تعالى وحده هو المستعان وحده لا شريك له.
- وأن دعاء الله تعالى وحده رغبا ورهبا- هو منهج الأنبياء والمرسلين وطريق عباد الله الصالحين.

عن ابن مسعود قال: "كان رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إذا نزل به هم أو غم، قال: يا حى يا قيوم برحمتك أستغيث"(١).

وعن ثابت بن الضحاك: أنه كان في زمن النبي صلى الله عليه وسلم منافق يُوذي المؤمنين فقال بعضهم: قوموا بنا نستغيث برسول الله من هذا المنافق. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أنه لا يستغاث بي وإنما يستغاث بالله»(٢).

وهذاحماية من النبي صلى الله علي هوسلم للتوحيد، وتأدب مع الله عز وجل وسد للذريعة، ومعلوم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم خير الخلق وأكرمهم على الله،وقد نفى الاستغاثة به وقال: «إنما يستغاث بالله»؛لأنه المغيث على الحقيقة الذي ينجي المكروب إذا دعاه واستغاثبه. والله أعلم.

القرآن

{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَكَذَّبْتُمْ بِهِ مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ (٥٧)} [الأنعام : ٥٧]

التفسير:

---

(١)الحاكم (٦٨٩/١، رقم ١٨٧٥) ، والبيهقى فى شعب الإيمان (٢٥٨/٧، رقم ١٠٢٣١)،والكنز(٥٠١٠).
(٢)أخرجه الطبراني في الكبير في مجمع الزوائد (١٥٩/١٠) من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه. قال ابن كثير في تفسيره:١٨٣/٣ "هذا الحديث غريب جدا".

قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليَّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة، وقد كذَّبتم بهذا، وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به، وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى، يقصُّ الحقَّ، وهو خير مَن يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه.

سبب النزول:

نقل الواحدي عن الكلبي، قال: "نزلت في النضر بن الحارث ورؤساء قريش، كانوا يقولون: يا محمد ائتنا بالعذاب الذي تعدنا به. استهزاء منهم، فنزلت هذه الآية"(١).[ضعيف] وذكر مقاتل نحو هذا المعنى(٢).

قوله تعالى:{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي} [الأنعام : ٥٧]، أي:"قل -أيها الرسول لهؤلاء المشركين-: إني على بصيرة واضحة من شريعة الله التي أوحاها إليَّ، وذلك بإفراده وحده بالعبادة"(٣).

قال أبو عمران الجوني:"{على بينة من ربي}، على ثقة"(٤).

قال مقاتل:"يعني: بيان من ربي بما أمرني من عبادته وترك عبادة الأصنام، حين قالوا له: ائتنا بالعذاب إن كنت من الصادقين"(٥).

قال ابن كثير:"أي : على بصيرة من شريعة الله التي أوحاها إليّ"(٦).

قال البغوي:"أي: على بيان وبصيرة وبرهان"(٧).

قال القرطبي:"أي: دلالة ويقين وحجة وبرهان، لا على هوى، ومنه البينة لأنها تبين الحق وتظهره"(٨).

قال الزمخشري:أي:"إنى من معرفة ربى وأنه لا معبود سواه، على حجة واضحة وشاهد صدق، يقال: أنا على بينة من هذا الأمر وأنا على يقين منه، إذا كان ثابتا عندك بدليل، وقيل على بينة من ربي على حجة من جهة ربى وهي: القرآن"(٩).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل ، يا محمد ، لهؤلاء العادلين بربهم ، الداعين لك إلى الإشراك بربك :إني على بيان قد تبينته ، وبرهان قد وضح لي {من ربي}، يقول : من توحيدي ، وما أنا عليه من إخلاص عُبُودته من غير إشراك شيء به"(١٠).

تقول العرب : فلان على بينة من هذا الأمر، إذا كان على بيان، منه ، ومن ذلك قول الشاعر (١١):

أَبَيِّنَةً تَبْغُونَ بَعْدَ اعْتِرَافِهِ ... وقَوْلِ سُوَيْدٍ قَدْ كَفَيْتُكُمُ بِشْرَا

أي: بيانا(١٢).

قوله تعالى:{وَكَذَّبْتُمْ بِهِ} [الأنعام : ٥٧]، أي:"وقد كذَّبتم بالحق الذي جاءني من عند الله"(١).

---

(١) أسباب النزول:٢١٩. الكلبي ضعيف.
(٢) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.
(٣)التفسير الميسر:١٣٤.
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٥٩):ص١٣٠٣/٤.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.
(٦) تفسير ابن كثير:٣٦٤/٣.
(٧) تفسير البغوي:١٤٩/٣.
(٨) تفسير القرطبي:٤٣٧/٦.
(٩) الكشاف:٣٠/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٣٩٧/١١.
(١١) لم أتعرف على قائله، والبيت من شواهد أبو عبيدة في مجاز القرآن:١٩٣/١، والطبري في تفسيره:٣٩٨/١١.
(١٢) انظر: مجاز القرآن:١٩٣/١، وتفسير الطبري:٣٩٧/١١-٣٩٨.

قال مقاتل:" يعني: بالعذاب"[2].
وقال الطبري:"يقول : وكذبتم أنتم بربكم"[3].
قال ابن كثير:"أي : بالحق الذي جاءني من عند الله "[4].
قال البغوي:"أي: ما جئت به"[5].
قال الزمخشري:أي:"حيث أشركتم به غيره، وقيل: بالبينة"[6].
قال القرطبي:"أي: بالبينة لأنها في معنى البيان، كما قال:{وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه}[النساء: 8] ، وقيل يعود على «الرب»، أي: كذبتم بربي، لأنه جرى ذكره. وقيل: بالعذاب. وقيل: بالقرآن"[7].
قوله تعالى:{مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [الأنعام : 57]، أي:"وليس في قدرتي إنزال العذاب الذي تستعجلون به"[8].
قال مقاتل:"من العذاب، يعني: كفار مكة"[9].
قال ابن كثير:"أي : من العذاب "[10].
قال الزمخشري:"يعنى: العذاب الذي استعجلوه في قولهم:{فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ } [الأنفال : 32]"[11].
قال الطبري:أي:"ما الذي تستعجلون من نقم الله وعذابه بيدي ، ولا أنا على ذلك بقادر. وذلك أنهم قالوا حين بعث الله نبيَّه محمدًا صلى الله عليه وسلم بتوحيده ، فدعاهم إلى الله ، وأخبرهم أنه رسوله إليهم : {هَلْ هَذَا إِلا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ أَفَتَأْتُونَ السِّحْرَ وَأَنْتُمْ تُبْصِرُونَ} [سورة الأنبياء : 3] . وقالوا للقرآن : هو أضغاث أحلام . وقال بعضهم : بل هو اختلاق اختلقه. وقال آخرون : بل محمد شاعر ، فليأتنا بآية كما أرسل الأولون فقال الله لنبيه صلى الله عليه وسلم : أجبهم بأن الآيات بيد الله لا بيدك ، وإنما أنت رسول ، وليس عليك إلا البلاغ لما أرسلت به "[12].
قال البغوي:"قيل: أراد به استعجالهم العذاب، كانوا يقولون: {إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة}[الأنفال] الآية، قيل: أراد به القيامة، قال الله تعالى: {يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها}[الشورى: 18]"[13].
قال القرطبي:" أي: العذاب، فإنهم كانوا لفرط تكذيبهم يستعجلون نزوله استهزاء نحو قولهم:{أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا}[الاسراء: 92]،{اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء}[الأنفال: 32]. وقيل: ما عندي من الآيات التي تقترحونها"[14].

---

(1) صفوة التفاسير:1/364
(2) تفسير مقاتل بن سليمان:1/564.
(3) تفسير الطبري:11/398.
(4) تفسير ابن كثير:3/364.
(5) تفسير البغوي:3/149.
(6) الكشاف:2/30.
(7) تفسير القرطبي:6/437.
(8) التفسير الميسر:134.
(9) تفسير مقاتل بن سليمان:1/564.
(10) تفسير ابن كثير:3/364.
(11) الكشاف:2/30.
(12) تفسير الطبري:11/399.
(13) تفسير البغوي:3/149.
(14) تفسير القرطبي:6/439.

قوله تعالى:{إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ} [الأنعام : ٥٧]، أي:"وما الحكم في تأخر ذلك إلا إلى الله تعالى"[١].

قال مقاتل:"يعني: ما القضاء إلا لله في نزول العذاب بكم في الدنيا"[٢].

قال الزمخشري:أي:"في تأخير عذابكم"[٣].

قال ابن كثير:"أي : إنما يرجع أمر ذلك إلى الله إن شاء عَجَّل لكم ما سألتموه من ذلك ، وإن شاء أنظركم وأجلكم ؛ لما له في ذلك من الحكمة العظيمة"[٤].

قال الطبري:أي:"ما الحكم فيما تستعجلون به ، أيها المشركون ، من عذاب الله وفيما بيني وبينكم ، إلا الله الذي لا يجور في حكمه ، وبيده الخلق والأمر "[٥].

قال القرطبي:"أي: ما الحكم إلا لله في تأخير العذاب وتعجيله. وقيل: الحكم الفاصل بين الحق والباطل لله"[٦].

قوله تعالى:{يَقُصُّ الْحَقَّ} [الأنعام : ٥٧]، أي:"يخبر الحق ويبينه البيان الشافي"[٧].

قال القرطبي":أي: يقص القصص الحق، وبه استدل من منع المجاز في القرآن"[٨].

قال الطبري:"يقضي الحق بيني وبينكم "[٩].

قال الزمخشري:"أى: القضاء الحق في كل ما يقضى من التأخير والتعجيل في أقسامه"[١٠].

قال مقاتل:"يعني: يقول الحق، ومن قرأها: «يقضي الحق»، يعني: يأتي بالعذاب ولا يؤخره إذا جاء"[١١].

قال مجاهد: "لو كانت يقص، لكانت يقضي بالحق، ولكنها يقص الحق"[١٢].وروي، عن عطية مثله[١٣].

قرَأَ ابْن كثير وَنَافِع وَعَاصِم :{يقص} بالصَّاد، ، بمعنى «القصص»، وتأوّلوا في ذلك قول الله تعالى ذكره : {نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَص} [يوسف : ٣] . وذكر ذلك عن ابن عباس[١٤].

قال الزمخشري:" أى: يتبع الحق والحكمة فيما يحكم به ويقدره، من قصر أثره"[١٥].

وقرأ أَبُو عَمْرو وَحَمْزَة وَابْن عَامر والكسائى :«يقْض الْحق» بالضاد[١٦]،، من «القضاء»، بمعنى الحكم والفصل بالقَضَاء ، واعتبروا صحة ذلك بقوله :{وهو خير الفاصلين} ، وأن «الفصل» بين المختلفين إنما يكون بالقضاء لا بالقَصَص.

عن سعيد بن جبير :"أنه قال : في قراءة عبد الله : «يَقْضِي الْحَقَّ وَهُو أَسْرَعُ الْفَاصِلِينَ»"[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٤.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.
(٣) الكشاف:٣٠/٢.
(٤) تفسير ابن كثير:٣٦٤/٣.
(٥) تفسير الطبري:٣٩٩/١١.
(٦) تفسير القرطبي:٤٣٩/٦.
(٧) صفوة التفاسير:٣٦٤/١.
(٨) تفسير القرطبي:٤٣٩/٦.
(٩) تفسير الطبري:٣٩٩/١١.
(١٠) الكشاف:٣٠/٢.
(١١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.
(١٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٦١):ص١٣٠٣/٤.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٣٠٣/٤. حكاه دون ذكر السند.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠٣):ص٣٩٩/١١.
(١٥) الكشاف:٣٠/٢.
(١٦) انظر: السبعة في القراءات:٢٥٩.

عن الأصمعي قال: "قرأ أبو عمرو :«يقض الحق»، وقال: لا يكون الفصل إلا بعد القضاء"(٢).

وعن إبراهيم قال مغيرة: "فسمعته يقرأ: «يقضي الحق وهو خير الفاصلين». قال ابن حمى: لا يكون الفصل إلا مع القضاء"(٣).

قال الطبري:"وهذه القراءة عندنا أولى القراءَتين بالصواب"(٤).

قوله تعالى:{وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الأنعام : ٥٧]، أي:"وهو خير مَن يفصل بين الحق والباطل بقضائه وحكمه"(٥).

قال الزمخشري:"أى: القاضين"(٦).

قال مقاتل:"بيني وبينكم ، يعني: خير الحاكمين في نزول العذاب بهم"(٧).

قال الطبري:أي:"وهو خير الفاصلين بيننا بقضائه وحكمه"(٨).

قال ابن كثير:"أي : وهو خير من فصل القضايا ، وخير الفاتحين الحاكمين بين عباده"(٩).

الفوائد:

١- على المسلم الداعي إلى ربه أن يكون على علم كاف بالله تعالى وبتوحيده ووعده ووعيده وأحكام شرعه.

٢- ويستفاد من الآية ان العقيدة عند السلف رحمهم الله تعالى -توقيفية، لا مجال لآراء البشر فيها، وكثير من نصوصها بكلمة «قل» التلقينية، قال تعالى:{قُلْ إِنِّي عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي}.

٣- ومن الفوائد: أن صدور المعجزة ليس من شروط النبوة، قال تعالى:{مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ}، أي العذاب الذي تستعجلون به.

وحاصل الآية أن العذاب ينزل عليكم في الوقت الذي أراد الله إنزاله، ولا قدرة لي على تقدمه، أو تأخيره. وقد نزل عليهم يوم بدر وما بعده فلا تدل هذه الآية على أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم لم تصدر عنه معجزة.

٤- إن الله هو الحكم وإليه الحكم، أما الحكم فهو من أسماءالله تبارك وتعالى.

قال الخطابي:"حقيقته: هو الذي سلم له الحكم، ورد إليه فيه الأمر. كقوله تعالى: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص: ٨٨]، وقوله: {أَنْتَ تَحْكُمُ بين عِبَادِكَ فِيْمَا كانوا فِيهِ يَخْتَلِفُوْنَ} [الزمر: ٤٦].

وقيل: للحاكم حاكم؛ لمنعه الناس عن التظالم، وردعه إياهم. يقال: حكمت الرجل عن الفساد: إذا منعته منه. وكذلك: أحكمته -بالألف- أنشدني أبو عمر قال: أنشدني أبو العباس لجرير(١٠):

أبني حنيفة أحكموا سفهاءكم ... إني أخاف عليكم أن أغضبا

ومن هذا قيل: حكمة اللجام، وذلك لمنعها الدابة من التمرد والذهاب في غير جهة القصد"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٣٠٢):ص١١/٣٩٨-٣٩٩.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٦٢):ص٤/١٣٠٣.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٦٣):ص٤/١٣٠٣.

(٤) تفسير الطبري:١١/٣٩٩.

(٥) التفسير الميسر:١٣٤.

(٦) الكشاف:٢/٣٠.

(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦٤.

(٨) تفسير الطبري:١١/٣٩٩.

(٩) تفسير ابن كثير:٣/٣٦٤.

(١٠)) ديوانه ١/ ٤٦٦ مع بيت آخرهو:

أبني حنيفة إنني إن أهجكم...أدع اليمامة لاتواري أرنبا.

وقد قال تعالى في الآية موضع التفسير:{وإليه الحكم}، أي: إليه الفصل بين العباد في الدنيا والآخرة، كما قال تعالى: {لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ} [القصص:٨٨]. وقال: {إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ} [الانعام:٥٧]، وفيه الدليل على المنع من التسمي بأسماء الله المختصة به، والمنع مما يوهم عدم الاحترام لها كالتكني بأبي الحكم ونحوه.

وقد ورد عده في الأسماء الحسنى مقرونًا بالعدل، "هو الذي لا يميل به الهوى فيجور في الحكم.. ويقال: عدلت الشيء أعدله عدلا: إذا قومته. ومنه الاعتدال في الأمور، وهو الاستقامة فيها"[٢].

فسبحان الله ما أحسن اقتران هذين الاسمين!

القرآن

{قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ (٥٨)} [الأنعام : ٥٨]

التفسير:

قل -أيها الرسول-: لو أنني أملك إنزال العذاب الذي تستعجلونه لأنزلته بكم، وقضي الأمر بيني وبينكم، ولكن ذلك إلى الله تعالى، وهو أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره.

قوله تعالى:{قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ} [الأنعام : ٥٨]، أي:"قل -أيها الرسول-: لو أنني أملك إنزال العذاب الذي تستعجلونه"[٣].

قال القرطبي:"أي: من العذاب"[٤].

قال الزمخشري:" أى:لو في قدرتي وإمكانى ما تستعجلون به من العذاب"[٥].

قال ابن كثير:"أي : لو كان مرجع ما تستعجلون به إليّ"[٦].

قال الطبري:"يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل ، يا محمد ، لهؤلاء العادلين بربهم الآلهة والأوثان ، المكذبيك فيما جئتهم به ، السائليك أن تأتيهم بآية استعجالا منهم بالعذاب : لو أنّ بيدي ما تستعجلون به من العذاب"[٧].

قوله تعالى:{لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ} [الأنعام : ٥٨]، أي:"لأنزلته بكم، وقضي الأمر بيني وبينكم"[٨].

قال البغوي:"أي: فرغ من العذاب وأهلكتم، أي: لعجلته حتى أتخلص منكم"[٩].

قال الزمخشري:" أى: لأهلكتكم عاجلا غضبا لربي وامتعاضا من تكذيبكم به. ولتخلصت منكم سريعا"[١٠].

قال ابن كثير:أي : "لأوقعت بكم ما تستحقونه من ذلك "[١١].

قال القرطبي:أي:"لأنزلته بكم حتى ينقضي الأمر إلى آخره. والاستعجال: تعجيل طلب الشيء قبل وقته"[١٢].

---

(١) شان الدعاء:٦١.
(٢) شأن الدعاء:٦٢.
(٣) التفسير الميسر:١٣٤.
(٤) تفسير القرطبي:٦/٤٤٠.
(٥) الكشاف:٢/٣٠.
(٦) تفسير ابن كثير:٣/٢٦٤.
(٧) تفسير الطبري:١١/٤٠٠.
(٨) التفسير الميسر:١٣٤.
(٩) تفسير البغوي:٣/١٤٩.
(١٠) الكشاف:٢/٣٠.
(١١) تفسير ابن كثير:٣/٢٦٤.
(١٢) تفسير القرطبي:٦/٤٤٠.

قال الطبري:أي:"ففصل ذلك أسرع الفصل ، بتعجيلي لكم ما تسألوني من ذلك وتستعجلونه"[١].

عن عكرمة، في قوله: {لقضي الأمر بيني وبينكم} قال: قامت الساعة"[٢].

وعن ابن جريج قال ، بلغني في قوله : {لقضي الأمر}، قال : ذبح الموت"[٣].

قال الطبري:"وأحسب أن قائل هذا القول ، نزع لقوله :{وَأَنْذِرْهُمْ يَوْمَ الْحَسْرَةِ إِذْ قُضِيَ الأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ} [سورة مريم : ٣٩] ، فإنه روي عن النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك قصة تدل على معنى ما قاله هذا القائل في «قضاء الأمر»[٤]، وليسقوله : {لقضي الأمر بيني وبينكم }من ذلك في شيء ، وإنما هذا أمرٌ من الله تعالى ذكره نبيه محمدًا صلى الله عليه وسلم أن يقول لمن استعجله فصلَ القضاء بينه وبينهم من قوله بآية يأتيهم بها : لو أن العذاب والآيات بيدي وعندي ، لعاجلتكم بالذي تسألوني من ذلك ، ولكنه بيد من هو أعلم بما يُصلح خلقه ، منّي ومن جميع خلقه"[٥].

قوله تعالى:{وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ} [الأنعام : ٥٨]، أي:"ولكن ذلك إلى الله تعالى، وهو أعلم بالظالمين الذين تجاوزوا حدَّهم فأشركوا معه غيره"[٦].

قال القرطبي:"أي: بالمشركين وبوقت عقوبتهم"[٧].

قال الزمخشري:" أى:وبما يجب في الحكمة من كنه عقابهم"[٨].

قال الطبري:أي:"ولكن ذلك بيد الله ، الذي هو أعلم بوقت إرساله على الظالمين ، الذين يضعون عبادتهم التي لا تنبغي أن تكون إلا لله في غير موضعها ، فيعبدون من دونه الآلهة والأصنام ، وهو أعلم بوقت الانتقام منهم ، وحالِ القضاء بيني وبينهم"[٩].

قال ابن كثير:"فإن قيل : فما الجمع بين هذه الآية ، وبين ما ثبت في الصحيحين عن عائشة ؛ أنها قالت لرسول الله صلى الله عليه وسلم : «يا رسول الله ، هل أتى عليك يوم كان أشد من يوم أحد ؟ فقال : "لقد لقيتُ من قومك ، وكان أشد ما لقيت منه يوم العقبة ؛ إذ عرضت نفسي على ابن عبد يا ليل ابن عبد كُلال ، فلم يجبني إلى ما أردتُ ، فانطلقت وأنا مهموم على وجهي ، فلم أستفق إلا بقرن الثعالب ، فرفعت رأسي ، فإذا أنا بسحابة قد أظلَّتني ، فنظرت فإذا فيها جبريل ، عليه السلام ، فناداني ، فقال : إن الله قد سمع قول قومك لك ، وما ردوا عليك ، وقد بعث إليك مَلَك الجبال لتأمره بما شئت فيهم. قال : فناداني مَلَك الجبال وسلم علي ، ثم قال : يا محمد ، إن الله قد سمع قول قومك لك ، وقد بعثني ربك إليك ، لتأمرني بأمرك ، فما شئت ؟

---

(١) تفسير الطبري:١١/٤٠٠.

(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٦٤):ص٤/١٣٠٣.

(٣) اخرجه الطبري(١٣٣٠٤):ص١١/٤٠٠.

(٤) روي عن رسول الله-صلى الله عليه وسلم-:" إذا دخل أهلُ الجنةِ الجنة وأهلُ النارِ النارَ يُجاءُ بالموتِ كأنه كَبْشٌ أملحُ فيوقف بين الجنةِ والنارِ فيقالُ يا أهلَ الجنةِ هل تعرفون هذا فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ ويقولون نعم هذا الموتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ ثم ينادى يا أهلَ النارِ هل تعرفون هذا فَيَشْرَئِبُّونَ فَيَنْظُرُونَ ويقولون نعم هذا الموتُ وَكُلُّهُمْ قَدْ رَآهُ فيؤمر به فيذبحُ ويقال يا أهلَ الجنةِ خلودٌ، ولا موتَ ويا أهلَ النارِ خلودُ ولا موتَ".

أخرجه أحمد (٩/٣، رقم ١١٠٨١) ، وهناد فى الزهد (١٥٧/١، رقم ٢١٣) ، وعبد بن حميد (ص ٢٨٦، رقم ٩١٤) ، والبخارى (١٧٦٠/٤، رقم ٤٤٥٣) ، ومسلم (٢١٨٨/٤، رقم ٢٨٤٩) ، والترمذى (٣١٥/٥، رقم ٣١٥٦) وقال: حسن صحيح. والنسائى فى الكبرى (٣٩٣/٦، رقم ١١٣١٦) ، وابن حبان (٤٨٥/١٦، رقم ٧٤٤٩) .

ومن غريب الحديث: "أملح": فيه بياض وسواد. "فَيَشْرَئِبُّونَ": أى يمدون أعناقهم ويرفعون رءوسهم للنظر.

(٥) تفسير الطبري:١١/٤٠٠-٤٠١.

(٦) التفسير الميسر:١٣٤.

(٧) تفسير القرطبي:٦/٤٤٠.

(٨) الكشاف:٢/٣٠.

(٩) تفسير الطبري:١١/٤٠٠.

إن شئت أطبقت عليهم الأخشبين، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله ، لا يشرك به شيئا»[١].

فقد عرض عليه عذابهم واستئصالهم ، فاستأنى بهم ، وسأل لهم التأخير ، لعل الله أن يخرج من أصلابهم من لا يشرك به شيئا. فما الجمع بين هذا ، وبين قوله تعالى في هذه الآية الكريمة : { قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الأمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ } ؟

فالجواب - والله أعلم - : أن هذه الآية دَلَّت على أنه لو كان إليه وقوعُ العذاب الذي يطلبونه حالَ طلبهم له ، لأوقعه بهم. وأما الحديث ، فليس فيه أنهم سألوه وقوع العذاب بهم ، بل عرض عليه مَلَك الجبال أنه إن شاء أطبق عليهم الأخشبين - وهما جبلا مكة اللذان يكتنفانها جنوبا وشمالا - فلهذا استأنى بهم وسأل الرفق لهم"[٢].

الفوائد:

١- وجوب الصبر والتحمل مما يلقاه الداعي من أهل الزيغ والضلال من الاقتراحات الفاسدة.

٢- أن المعجزة ليست من عمل النبي وكسبه، وإنما هي خلق محض من الله على خلاف سننه في الكائنات، وقد طلب من محمد صلى الله عليه وسلم آية، فقال بإرشاد مولاه: {إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ الل} [الأنعام : ١٠٩، العنكبوت:٥٠] ، وقال لمن استعجلوا ما توعدهم به من أمر ربه: مَا عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ الْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ الْفَاصِلِينَ قُلْ لَوْ أَنَّ عِنْدِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِ لَقُضِيَ الْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِالظَّالِمِينَ}.

٣- ويستفاد من الآية ان كمال المطلق في القدرة ونحوها من اختصاص الله جل شأنه وحده، وأن قدرة الرسول-صلى الله عليه وسلم- مستمدة من الله عزّ وجلّ.

القرآن

{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ (٥٩)} [الأنعام : ٥٩]

التفسير:

وعند الله -جل وعلا- مفاتح الغيب أي: خزائن الغيب، لا يعلمها إلا هو، ومنها: علم الساعة، ونزول الغيث، وما في الأرحام، والكسب في المستقبل، ومكان موت الإنسان، ويعلم كل ما في البر والبحر، وما تسقط من ورقة من نبتة إلا يعلمها، فكل حبة في خفايا الأرض، وكل رطب ويابس، مثبت في كتاب واضح لا لَبْس فيه، وهو اللوح المحفوظ.

قوله تعالى:{وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ} [الأنعام : ٥٩]، أي:" عند الله خزائن الغيب وهي الأمور المغيّبة الخفيّة لا يعلمها ولا يحيط بها إلا هو"[٣].

قال الطبري:أي:" والله أعلم بالظالمين من خلقه ، وما هم مستحقُّوه وما هو بهم صانع ، فإنّ عنده علم ما غاب علمه عن خلقه فلم يطلعوا عليه ولم يدركوه ، ولن يعلموه ولن يدركوه"[٤].

قال الثعلبي:" يعني: ومن عنده معرفة الغيب وهو يفتح ذلك بلطفه"[٥].

قال الزجاج:" معنى {مفاتح الغيب}، أي: عنده الوصلة إلى علم الغيب، وكل ما لا يعلم إذا استعلم يقال فيه: افتح على"[٦].

---

(١)صحيح البخاري برقم (٣٢٣١) وصحيح مسلم برقم (١٧٩٥).
(٢) تفسير ابن كثير:٢٦٤/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٣٦٦/١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٢/١١.
(٥) الكشف والبيان:١٥٣/٤.
(٦) معاني القرآن:٢٥٧/٢.

قال الزمخشري:" جعل للغيب مفاتح على طريق الاستعارة، لأن المفاتح يتوصل بها إلى ما في المخازن المتوثق منها بالأغلاق والأقفال. ومن علم مفاتحها وكيف تفتح، توصل إليها، فأراد أنه هو المتوصل إلى المغيبات وحده لا يتوصل إليها غيره كمن عنده مفاتح أقفال المخازن ويعلم فتحها، فهو المتوصل إلى ما في المخازن"(١).

قال ابن مسعود: "أوتي نبيكم علم كل شيء إلا علم مفاتيح الغيب" (٢) .

عن السدي قوله: "{وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو}، يقول: خزائن الغيب"(٣).

قال الضحاك(٤) ومقاتل(٥): "{مفاتح الغيب}: خزائن الأرض، وعلم نزول العذاب".

قال عطاء: "ما غاب عنكم من الثواب والعقاب، وما يصير إليه أمري وأمركم"(٦).

عن ابن عمر، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "مفاتيح الغيب في خمس لا يعلمهن إلا الله. لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم نزول الغيث إلا الله، ولا يعلم ما في الأرحام إلا الله، ولا يعلم الساعة إلا الله، وما تدري نفس ماذا تكسب غدا وما تدري نفس بأي أرض تموت"(٧).

قال الثعلبي والبغوي: وقيل: {مفاتيح الغيب}" هي الآجال ووقت انقضائها، وقيل: أحوال العباد من السعادة والشقاوة، وقيل: عواقب الأعمار وخواتيم الأعمال، وقيل: هي ما لم يكن بعد إنه يكون أم لا يكون وما يكون كيف يكون وما لا يكون أن لو كان كيف يكون"(٨).

وروي عن أبي عزة قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إذا أراد الله عز وجل قبض عبد بأرض، جعل له بها حاجة فلم ينته حتى يقدمها. ثم قرأ آخر سورة لقمان. ثم قال: هذه { مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}"(٩).

نستنتج بأن في «مفاتح الغيب» قولان لأهل العلم(١٠):

القول الأول: أن مفاتح الغيب هي الخمس المذكورة في قول الله سبحانه وتعالى: {إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ} [لقمان:٣٤] إلى آخر الآية.

القول الثاني- وهو الصواب-: أن مفاتح الغيب لا يعلمها إلا الله، وأن هذه الخمس منها، لكن لا يُجزم أن قوله تعالى: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ} [الأنعام:٥٩] تعلّق بهذه الخمس وحدها، بل هذه منها، وأما تفصيلها وكمالها وسائر مواردها فالله أعلم به.

وقرأ ابن السميقع: «مفاتيح» على جمع «المفتاح»(١١).

قوله تعالى:{وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام : ٥٩]، أي:" ويعلم كل ما في البر والبحر"(١٢).

قال مجاهد: "{البر} القفار، و{البحر} كل قرية فيها ماء« لا يحدث فيهما شيء إلا بعلم الله»"(١٣).

---

(١) الكشاف:٣١/٢.

(٢)أخرجه أحمد وأبو يعلى، ورجالهما رجال الصحيح، مجمع الزوائد: ٨ / ٢٦٣. وانظر: فتح الباري: ١ / ١٢٤ و٨ / ٢٩١،عالم الغيب والشهادة تأليف عثمان جمعة ضميرية: ص (٨٠-٨١) .

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٦٨):ص١٣٠٤/٤.

(٤) انظر: تفسير الثعلبي:١٥٤/٤، وتفسير البغوي:١٥٠/٣.

(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٤/١.

(٦) انظر: تفسير الثعلبي:١٥٤/٤، وتفسير البغوي:١٥٠/٣.

(٧) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٦٧):ص١٣٠٤/٤.

(٨) الكشف والبيان:١٥٤/٤، وتفسير البغوي:١٥٠/٣.

(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٦٦):ص١٣٠٣/٤-١٣٠٤.

(١٠) انظر: شرح الواسطية يوسف:الدرس(٧)/١٢.[مرقم آليا في موقع الشاملة]

(١١) انظر: الكشف والبيان:١٥٣/٤.

(١٢) التفسير الميسر:١٣٥.

(١٣) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان:١٥٤/٤، والواحدي في تفسير الوسيط:٢٨٠/٢. وما داخل القوسين«» زيادة في رواية الواحدي.

قال الطبري:" يقول : وعنده علم ما لم يغب أيضًا عنكم ، لأن ما في البر والبحر مما هو ظاهر للعين ، يعلمه العباد. فكأن معنى الكلام : وعند الله علم ما غابَ عنكم ، أيها الناس ، مما لا تعلمونه ولن تعلموه مما استأثرَ بعلمه نفسَه ، ويعلم أيضًا مع ذلك جميع ما يعلمه جميعُكم ، لا يخفى عليه شيء ، لأنه لا شيءَ إلا ما يخفى عن الناس أو ما لا يخفى عليهم. فأخبر الله تعالى ذكره أن عنده علم كل شيء كان ويكون ، وما هو كائن مما لم يكن بعد ، وذلك هو الغيب"(١).

قال ابن كثير:" أي : يحيط علمه الكريم بجميع الموجودات ، بَريها وبحريها، لا يخفى عليه من ذلك شيء ، ولا مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء. وما أحسن ما قال الصّرْصَرِيّ :

فَلا يَخْفَى عليه الذَّر إمَّا تَرَاءىَ للنواظر أو تَوَارى"(٢)

قوله تعالى:{وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا} [الأنعام : ٥٩]، أي:" أي لا تسقط ورقة من الشجر إلا يعلم وقت سقوطها والأرض التي تسقط عليها"(٣).

قال الطبري:أي:" ولا تسقط ورقةٌ في الصحاري والبراري ، ولا في الأمصار والقرى ، إلا الله يعلمها"(٤).

قال ابن كثير:" أي : ويعلم الحركات حتى من الجمادات ، فما ظنك بالحيوانات ، ولا سيما المكلفون منهم من جنهم وإنسهم ، كما قال تعالى : { يَعْلَمُ خَائِنَةَ الأعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ } [غافر : ١٩]"(٥).

قال الزجاج:" المعنى: أنه يعلمها ساقطة وثابتة، وأنت تقول: ما يجيئك أحد إلا وأنا أعرفه، فليس معناه إلا وأنا أعرفه في حال مجيئه فقط"(٦).

قال السعدي:" {وما تسقط من ورقة} من أشجار البر والبحر، والبلدان والقفر، والدنيا والآخرة {إلا يعلمها}"(٧).

وقال أبو بكر بن عبدوس: "معناه: يعلم كما تقلبت ظهرا لبطن إلى أن سقطت على الأرض"(٨).

أخرج ابن ابي حاتم عن ابن عباس في قوله: "{وما تسقط من ورقة إلا يعلمها}، قال: ما من شجرة في بر ولا بحر إلا ملك موكل بها يكتب ما يسقط منها"(٩).

قال السمعاني:"فإن قال قائل: لم خص الورق الساقط وهو يعلم الساقط والثابت؟

قيل: هذا معناه: أي: وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ساقطة وثابتة، قال جعفر بن محمد الصادق: أراد بالورقة الساقطة: السقط"(١٠).

قوله تعالى:{وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [الأنعام : ٥٩]، أي:" فكل حبة في خفايا الأرض، وكل رطب ويابس، مثبت في كتاب واضح لا لَبْس فيه، وهو اللوح المحفوظ"(١١).

قال السمرقندي:" ولا حبة في ظلمات الأرض يعني: تحت الصخرة التي هي أسفل الأرضين السابعة. ويقال: الحبة التي تحت الأرض التي يخرج منها النبات، ثم قال: ولا رطب

---

(١) تفسير الطبري:٤٠٢/١١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٦٥/٣.
(٣) صفوة التفاسير:٣٦٦/١.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٣/١١.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٦٥/٣.
(٦) معاني القرآن:٢٥٧/٢.
(٧) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٨) الطشف والبيان:١٥٤/٤.
(٩) تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٦٩):ص١٣٠٤/٤.
(١٠) تفسير السمعاني:١١٠/٢-١١١.
(١١) التفسير الميسر:١٣٥.

يعني: الماء ولا يابس يعني: الحجر ويقال: ولا رطب: يعني العمران والأمصار والقرى ولا يابس يعني: الخراب والبادية {إلا في كتاب مبين}: يعني في اللوح المحفوظ. ويقال: ولا رطب ولا يابس يعني: لا قليل ولا كثير إلا في كتاب مبين يعني: في اللوح المحفوظ. ويقال: القرآن قد بين فيه كل شيء، بعضه مفسر، وبعضه يعرف بالاستدلال والاستنباط"[١].

قال الزمخشري:" {ولا حبة ... ولا رطب ولا يابس}، عطف على ورقة وداخل في حكمها، كأنه قيل: وما يسقط من شيء من هذه الأشياء إلا يعلمه. وقوله إلا في كتاب مبين كالتكرير لقوله إلا يعلمها لأن معنى: {إلا يعلمها}، ومعنى:{إلا في كتاب مبين} واحد. و«الكتاب المبين»: علم الله تعالى، أو اللوح"[٢].

قال السعدي:"{ ولا حبة في ظلمات الأرض} من حبوب الثمار والزروع، وحبوب البذور التي يبذرها الخلق؛ وبذور النوابت البرية التيينشئ منها أصناف النباتات، {ولا رطب ولا يابس} هذا عموم بعد خصوص {إلا في كتاب مبين} وهو اللوح المحفوظ، قد حواها، واشتمل عليها، وبعض هذا المذكور، يبهر عقول العقلاء، ويذهل أفئدة النبلاء، فدل هذا على عظمة الرب العظيم وسعته، في أوصافه كلها، وأن الخلق -من أولهم إلى آخرهم- لو اجتمعوا على أن يحيطوا ببعض صفاته، لم يكن لهم قدرة ولا وسع في ذلك، فتبارك الرب العظيم، الواسع العليم، الحميد المجيد، الشهيد، المحيط، وجل من إله، لا يحصي أحد ثناء عليه، بل كما أثنى على نفسه، وفوق ما يثني عليه عباده، فهذه الآية، دلت على علمه المحيط بجميع الأشياء، وكتابه المحيط بجميع الحوادث"[٣].

قال مقاتل:" {إلا في كتاب مبين}، يقول: هو بين في اللوح المحفوظ"[٤].

قال الطبري:"يقول : ولا شيء أيضًا مما هو موجود ، أو ممّا سيوجد ولم يوجد بعد ، إلا وهو مثبت في اللوح المحفوظ ، مكتوبٌ ذلك فيه ، ومرسوم عددُه ومبلغه ، والوقت الذي يوجد فيه ، والحالُ التي يفنى فيها، ويعني بقوله :{مبين}، أنه يبين عن صحة ما هو فيه ، بوجود ما رُسم فيه على ما رُسم "[٥].

قال السمعاني:" {ولا حبة في ظلمات الأرض} هو الحب المعروف، وقال جعفر الصادق: هو الولد {ولا رطب ولا يابس} قيل: معناه: ولا حي ولا موات، وقيل: هو عبارة عن كل شيء {إلا في كتاب مبين} يعني: أن الكل مكتوب في اللوح المحفوظ، وهو مثل قوله - تعالى -: {وكل صغير وكبير مستطر} "[٦].

قال الواحدي:" {ولا حبة في ظلمات الأرض}، يعني: في الثرى تحت الأرض"[٧].

قال الثعلبي: "{في ظلمات الأرض}، أي: في بطون الأرض، وقيل: تحت الصخرة في أسفل الأرضين ، { وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ}: قيل: هي الأشجار والنبات"[٨].

قال ابن عباس: "«الرطب»: الماء، و«اليابس» البادية"[٩].

وقال ابن عباس، وعطاء: "يريد ما ينبت وما لا ينبت"[١٠].

---

(١) بحر العلوم:١/٤٥٣-٤٥٤.
(٢) الكشاف:٢/٣١.
(٣) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٤) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦٤.
(٥) تفسير الطبري:١١/٤٠٣.
(٦) تفسير السمعاني:٢/١١١.
(٧) التفسير الوسيط:٢/٢٨٠.
(٨) الطشف والبيان:٤/١٥٤.
(٩) حكاه الواحدي عن ابن عباس في التفسير الوسيط:٢/٢٨٠، وحكاه الثعلبي عن عطاء في الكشف والبيان:٤/١٥٤.
(١٠) حكاه الثعلبي عن عطاء في الكشف والبيان:٤/١٥٤.

وقال الحسن: "يكتبه الله رطبا ويكتبه يابسا، لتعلم يا بن آدم إن عملك أولى بها من إصلاح تلك الجنة، وقال: «الرطب» لسان المؤمن رطب بذكر الله، و«اليابس» لسان الكافر لا يتحرك بذكر الله، وبما يرضي الله عز وجل"(١).

قال الزجاج:" {في كتاب مبين} هنا على معنيين يتصرف، ويجوز أن يكون معنى {في كتاب مبين} أن يكون الله أثبت ذلك فى كتاب من قبل أن يخلق كما قال:{مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا} [الحديد : ٢٢] ، فأعلم أنه قد أثبت ما خلق من قبل خلقه"(٢).

قال عبد الله بن عمرو بن العاص: "إن تحت الأرض الثالثة وفوق الرابعة من الجن ما لو أنهم ظهروا. يعني: لكم لم تروا معه نورا. على كل زاوية من زواياه خاتم من خواتيم الله. على كل خاتم ملك من الملائكة، يبعث الله إليه في كل يوم ملكا من عنده: أن احتفظ بما عندك"(٣).

عن عبد الله بن الحارث قال: "ما في الأرض من شجرة ولا مغرز إبرة إلا عليها ملك موكل، يأتي الله ربنا بعلمها رطوبتها إذا رطبت، ويبسها إذا يبست"(٤).

قال ابن عباس:" خلق الله تبارك وتعالى النون- وهي الدواة- وخلق الألواح، فكتب فيها أمر الدنيا حتى تنقضي ما كان من خلق مخلوق، أو رزق حلال أو حرام، أو عمل بر أو فجور، وقرأ هذه الآية: {وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ}"(٥).

عن قتادة قوله: "{في كتاب مبين}، قال: كل ذلك في كتاب من عند الله مبين"(٦).

وقرأ بعضهم: «ولا حبة ولا رطب ولا يابس»: كل ذلك بالضم على معنى الابتداء. وهي قراءة شاذة، والقراءة المعروفة بالكسر لأجل: {من}(٧).

قال الطبري:" فإن قال قائل : وما وجهُ إثباته في اللوح المحفوظ والكتاب المبين ، ما لا يخفى عليه ، وهو بجميعه عالم لا يُخَاف نسيانَه ؟

قيل له : لله تعالى ذكره فعل ما شاء. وجائز أن يكون كان ذلك منه امتحانًا منه لحفَظَته ، واختبارًا للمتوكلين بكتابة أعمالهم ، فإنهم فيما ذُكر مأمورون بكتابة أعمال العباد ، ثم بعرضها على ما أثبته الله من ذلك في اللوح المحفوظ ، حتى أثبت فيه ما أثبت كل يوم.

وقيل إن ذلك معنى قوله : {إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [سورة الجاثية : ٢٩] .

وجائز أن يكون ذلك لغير ذلك ، مما هو أعلم به ، إمّا بحجة يحتج بها على بعض ملائكته ، وأما على بني آدم وغير ذلك"(٨).

روي عن ابن عمر، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "«ما من زرع على الأرض، ولا ثمار على أشجار، إلا عليها مكتوب: بسم الله الرحمن الرحيم: هذا رزق فلان ابن فلان »، وذلك قول الله عز وجل في محكم كتابه {وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين} [الأنعام: ٥٩]"(٩).

الفوائد:

---

(١) حكاه عنه الثعلبي في الكشف والبيان:١٥٤/٤.
(٢) معاني القرآن:٢٥٧/٢.
(٣) تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٧٠):ص١٣٠٤/٤.
(٤) تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٧١):ص١٣٠٤/٤-١٣٠٥.
(٥) تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٧٢):ص١٣٠٥/٤.
(٦) تفسير ابن ابي حاتم(٧٣٧٣):ص١٣٠٥/٤.
(٧) انظر: بحر العلوم:٤٥٤/١.
(٨) تفسير الطبري:٤٠٣/١١.
(٩) أخرجه الثعلبي في الكشف والبيان:١٥٤/٤-١٥٥، والواحدي في التفسير الوسيط(٣٣٠):ص٢٨١/٢.
فيه حموية بن حسن، قال في ميزان الاعتدال:٦٠٩/١:"حموية بن حسين.عن أحمد بن الخليل، معاصر لابن صاعد، لا يوثق به، وخبره باطل".

١- من فوائد الآية الكريمة: أن الله -سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى- هو المتفرد بعلم الغيب، و هذا إثبات لصفة العلم، وهي من الصفات الذاتية الثابتة له، والذين ينكرون صفة العلم: هم الجهمية.
٢- أن هذه الآية العظيمة، من أعظم الآيات تفصيلا لعلمه المحيط، وأنه شامل للغيوب كلها، التي يطلع منها ما شاء من خلقه. وكثير منها طوى علمه عن الملائكة المقربين، والأنبياء المرسلين، فضلا عن غيرهم من العالمين، وأنه يعلم ما في البراري والقفار، من الحيوانات، والأشجار، والرمال والحصى، والتراب، وما في البحار من حيواناتها، ومعادنها، وصيدها، وغير ذلك مما تحتويه أرجاؤها، ويشتمل عليه ماؤها(١).
٣- ومن فوائد الآية الكريمة الحكمة البالغة في حجب الغيوب عن الخلق، قال سبحانه: {وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ}.
٤- وفي الآية إبطال المخاريق، والدَّعاوي الكاذبة.
٥- ومن الفوائد :أنه تعالى قال: {مَفَاتِحُ الْغَيْبِ} ولم يقل مفاتيح الغيب، لأن المفاتح جمع مفتح وهو الذي يفتح به المخزن، ومعلوم بالضرورة أن من ملك المخزن قدر على فتحه بأي نوع كان وليس من ملك المفتاح قدر على المخزن، فالله سبحانه عنده مفاتح الغيب كلها، قال تعالى: {قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ} . [النمل: ٦٥] . قال تعالى: {عَالِمُ الْغَيْبِ فَلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ} . [الجن: ٢٦، ٢٧] (٢).

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٦٠)} [الأنعام : ٦٠]

التفسير:

وهو سبحانه الذي يقبض أرواحكم بالليل بما يشبه قبضها عند الموت، ويعلم ما اكتسبتم في النهار من الأعمال، ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهارًا بما يشبه الأحياء بعد الموت; لتُقضى آجالكم المحددة في الدنيا، ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياءً، ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك.

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ} [الأنعام : ٦٠]، أي:" وهو سبحانه الذي يقبض أرواحكم بالليل بما يشبه قبضها عند الموت"(٣).

عن السدي:" أما {يتوفاكم بالليل}، ففي النوم "(٤).

قال مجاهد:" أمّا وفاته إياهم بالليل ، فمنامهم"(٥).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : وقل لهم ، يا محمد ، والله أعلم بالظالمين ، والله هو الذي يتوفى أرواحكم بالليل فيقبضها من أجسادكم"(٦).

قال السمعاني:" أي: يقبض أرواحكم بالليل إذا نمتم، وهذا نظير قوله:{اللَّهُ يَتَوَفَّى الْأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا} [الزمر : ٤٢].

فإن قال قائل: أليس من نام فروحه معه؛ فما معنى هذا القبض؟

قيل: هو قبض النفس المميزة المتصرفة"(٧).

---

(١) انظر: تفسير السعدي:٢٥٩.
(٢) انظر: فتح الله الحميد المجيد في شرح كتاب التوحيد، بكر بن عبدالله أبو زيد:ص١٩٨.
(٣) التفسير الميسر:١٣٥.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٠٩):ص٤٠٥/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣١٤):ص٤٠٦/١١.
(٦) تفسير الطبري:٤٠٤/١١.
(٧) تفسير السمعاني:١١١/٢.

قال ابن كثير:" يخبر تعالى إنه يتوفى عباده في منامهم بالليل ، وهذا هو التوفي الأصغر كما قال تعالى : { إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا} [آل عمران : ٥٥] ، وقال تعالى : { اللَّهُ يَتَوَفَّى الأَنْفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي لَمْ تَمُتْ فِي مَنَامِهَا فَيُمْسِكُ الَّتِي قَضَى عَلَيْهَا المَوْتَ وَيُرْسِلُ الأُخْرَى إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى } [الزمر : ٤٢] ، فذكر في هذه الآية الوفاتين : الكبرى والصغرى ، وهكذا ذكر في هذا المقام حكم الوفاتين الصغرى ثم الكبرى"[١].

ومعنى «التوفي»، في كلام العرب: استيفاء العدد، كما قال منظور الوبري[٢]:

إِنَّ بَنِي الأَدْرَمِ لَيْسُوا مِنْ أَحَدْ وَلا تَوَفَّاهُمْ قُرَيْشٌ فِي العَدَدْ

بمعنى : لم تدخلهم قريش في العدد[٣].

قوله تعالى:{وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُمْ بِالنَّهَارِ} [الأنعام : ٦٠]، أي:" ويعلم ما اكتسبتم في النهار من الأعمال"[٤].

قال ابن عباس:" يعني : ما اكتسبتم من الإثم"[٥]. وروي عن السدي مثله[٦].

وقال قتادة:" ما عملتم بالنهار"[٧]. وفي رواية اخرى عنه أيضا:" : ما عملتم من ذنب فهو يعلمه ، لا يخفى عليه شيء من ذلك"[٨].

قال مجاهد:" يقول : ما اكتسبتم بالنهار"[٩].

قال ابن قتيبة:" أي: كسبتم"[١٠].

قال ابن كثير:" أي : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار. وهذه جملة معترضة دلت على إحاطة علمه تعالى بخلقه في ليلهم ونهارهم ، في حال سكونهم وفي حال حركتهم ، كما قال : { سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ } [الرعد : ١٠] ، وكما قال تعالى : { وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ } أي : في الليل { وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ } [القصص : ٧٣] أي : في النهار ، كما قال : { وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا * وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا } [النبأ : ١٠ ، ١١] "[١١].

قال الطبري:" يقول : ويعلم ما كسبتم من الأعمال بالنهار... وهذا الكلام وإن كان خبرًا من الله تعالى عن قدرته وعلمه ، فإنّ فيه احتجاجًا على المشركين به ، الذين كانوا ينكرون قدرته على إحيائهم بعد مماتهم وبعثهم بعد فنائهم. فقال تعالى ذكره محتجًا عليهم :{وهو الذي يتوفاكم بالليل ويعلم ما جرحتم بالنهار ثم يبعثكم فيه ليقضي أجل مسمى}، يقول : فالذي يقبض أرواحكم بالليل ويبعثكم في النهار ، لتبلغوا أجلا مسمى ، وأنتم ترون ذلك وتعلمون صحّته ، غير منكرٍ له القدرة على قبض أرواحكم وإفنائكم ، ثم ردِّها إلى أجسادكم ، وإنشائكم بعد مماتكم ، فإن ذلك نظير ما تعاينون وتشاهدون ، وغير منكر لمن قدر على ما تعاينون من ذلك ، القدرةُ على ما لم تعاينوه. وإن الذي لم تروه ولم تعاينوه من ذلك ، شبيه ما رأيتم وعاينتم"[١٢].

و«الاجتراح» عند العرب: هو عمل الرجل بيده أو رجله أو فمه ، وهي «الجوارح» عندهم ، جوارح البدن فيما ذكر عنهم. ثم يقال لكل مكتسب عملا :جارح، لاستعمال العرب ذلك

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(٢) انظر: اللسان "وفي"، وتفسير الطبري:٤٠٥/١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري:٤٠٥/١١.
(٤) التفسير الميسر:١٣٥.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣١٠):ص٤٠٥/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٠٩):ص٤٠٥/١١.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٣١١):ص٤٠٦/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٣١٣):ص٤٠٦/١١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٣١٤):ص٤٠٦/١١.
(١٠) غريب القرآن:١٥٤.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(١٢) تفسير الطبري:٤٠٤/١١، ٤٠٦

في هذه «الجوارح»، ثم كثر ذلك في الكلام حتى قيل لكل مكتسب كسبًا ، بأيّ أعضاء جسمه اكتسب :«مجترِح»[١].

قوله تعالى:{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [الأنعام : ٦٠]، أي:" ثم يعيد أرواحكم إلى أجسامكم باليقظة من النوم نهارًا بما يشبه الأحياء بعد الموت"[٢].

قال الطبري: أي: ثم" يثيركم ويوقظكم من منامكم في النهار"[٣].

قال ابن قتيبة:" أي: يبعثكم في النهار من نومكم"[٤].

وفي قوله تعالى:{ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ} [الأنعام : ٦٠]، وجهان:

أحدهما: أي : في النهار. قاله مجاهد[٥]، وقتادة[٦]، والسُّدِّي[٧]. واختاره الطبري[٨].

والثاني: أي: في المنام. قاله عبدالله بن كثير[٩].

قال ابن كثير:"والأول أظهر. وقد روى ابن مَرْدُوَيه بسنده عن الضحاك ، عن ابن عباس ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : "مع كل إنسان ملك إذا نام أخذ نفسه ، ويُرَد إليه. فإن أذن الله في قبض روحه قبضه ، وإلا رد إليه"[١٠]، فذلك قوله : { وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ بِاللَّيْلِ }"[١١].

قوله تعالى:{لِيُقْضَى أَجَلٌ مُسَمًّى} [الأنعام : ٦٠]، أي:" لتُقضى آجالكم المحددة في الدنيا"[١٢].

قال الطبري:" يقول : ليقضي الله الأجل الذي سماه لحياتكم ، وذلك الموت ، فيبلغ مدته ونهايته"[١٣].

قال الزجاج:" أي: يبعثكم من نومكم إلى أن تبلغوا أجالكم"[١٤].

قال ابن قتيبة: أي:" الموت"[١٥].

قال ابن كثير:" يعني به : أجل كل واحد من الناس"[١٦].

عن مجاهد : " {ليقضي أجل مسمى}، وهو الموت "[١٧].

قال مقاتل:" يعنى: منتهيا إليه"[١٨].

قال السدي:" هو أجل الحياة إلى الموت"[١٩].

عن عبد الله بن كثير: {ليقضي أجل مسمى}، قال : مدّتهم"[٢٠].

---

(١) انظر: تفسير الطري:٤٠٥/١١.
(٢) التفسير الميسر:١٣٥.
(٣) تفسير الطبري:٤٠٧/١١.
(٤) غريب القرآن:١٥٤.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٣١٥):ص٤٠٧/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٣١٦):ص٤٠٧/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٣١٨):ص٤٠٨/١١.
(٨) انظر: تفسير الطبري:٤٠٧/١١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٣١٩):ص٤٠٨/١١.
(١٠) تفسير ابن كثير:٢٦٦/٣، ورواه أبو الشيخ كما في الدر المنثور (٢٨٠/٣) وفي إسناده انقطاع بين الضحاك وابن عباس.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٦٦/٣.
(١٢) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٣) تفسير الطبري:٤٠٧/١١.
(١٤) معاني القرآن:٢٥٨/٢.
(١٥) غريب القرآن:١٥٤.
(١٦) تفسير ابن كثير:٢٦٦/٣.
(١٧) أخرجه الطبري(١٣٣٢٠):ص٤٠٨/١١.
(١٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(١٩) أخرجه الطبري(١٣٣٢١):ص٤٠٨/١١.
(٢٠) أخرجه الطبري(١٣٣٢٢):ص٤٠٨/١١.

قوله تعالى:{ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ} [الأنعام : ٦٠]، أي:" ثم إلى الله تعالى معادكم بعد بعثكم من قبوركم أحياءً"(١).
قال مقاتل:" في الآخرة"(٢).
قال ابن كثير:" أي : يوم القيامة"(٣).
قال الطبري:" يقول: ثم إلى الله معادكم ومصيركم"(٤).
عن الضحاك، قوله: "{إليه مرجعكم قال}: البر والفاجر"(٥).
قال أبو العالية:" يعني قوله: إليه مرجعكم قال: يرجعون إليه بعد الحياة"(٦).
قوله تعالى:{ثُمَّ يُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ} [الأنعام : ٦٠]، أي:" ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك"(٧).
قال مقاتل:" في الدنيا من خير أو شر، هذا وعيد"(٨).
قال ابن كثير:" أي: فيخبركم { بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ } أي : ويجزيكم على ذلك إن خيرًا فخير ، وإن شرًا فشر "(٩).
قال الطبري:" يقول: ثم يخبركم بما كنتم تعملون في حياتكم الدنيا، ثم يجازيكم بذلك، إن خيرًا فخيرًا وإن شرًّا فشرًّا"(١٠).
الفوائد:
١- من فوائد الآية الكريمة: الإخبار بتوفي النفس بالليل، وبعثها إلى أجسادها بالنهار، وتوفي الملائكة لها عند الموت.
٢- أن الآية الكريمة: تقرير لألوهيته سبحانه وتعالى، واحتجاج على المشركين به، وبيان أنه تعالى المستحق للحب والتعظيم، والإجلال والإكرام، فأخبر أنه وحده، المتفرد بتدبير عباده، في يقظتهم ومنامهم، وأنه يتوفاهم بالليل، وفاة النوم، فتهدأ حركاتهم، وتستريح أبدانهم، ويبعثهم في اليقظة من نومهم، ليتصرفوا في مصالحهم الدينية والدنيوية وهو -تعالى- يعلم ما جرحوا وما كسبوا من تلك الأعمال. ثم لا يزال تعالى هكذا، يتصرف فيهم، حتى يستوفوا آجالهم. فيقضى بهذا التدبير، أجل مسمى، وهو: أجل الحياة، وأجل آخر فيما بعد ذلك، وهو البعث بعد الموت، ولهذا قال: {ثم إليه مرجعكم} لا إلى غيره {ثم ينبئكم بما كنتم تعملون} من خير وشر(١١).
٣- في الآية تنبيه على أن القادر على البعث من توفي النوم قادر على البعث من توفي الموت(١٢).

القرآن

{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١)} [الأنعام : ٦١]

التفسير:

---

(١) التفسير الميسر:١٣٥.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦٦/٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٠٧/١١.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٨١):ص١٣٠٦/٤.
(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٨٢):ص١٣٠٦/٤.
(٧) التفسير الميسر:١٣٥.
(٨) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٦٦/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٤٠٧/١١.
(١١) انظر: تفسير السعدي:٢٥٩.
(١٢) انظر: فسيرالمنار:٧/ ٤٨٠.

والله تعالى هو القاهر فوق عباده، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته، ويرسل على عباده ملائكة، يحفظون أعمالهم ويُحْصونها، حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحَه مَلَكُ الموت وأعوانه، وهم لا يضيعون ما أُمروا به.

قوله تعالى:{وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ} [الأنعام : ٦١]، أي:" والله تعالى هو القاهر فوق عباده، كل شيء خاضع لجلاله وعظمته"(١).

قال الطبري:أي:" والله الغالب خلقه ، العالي عليهم بقدرته ، لا المقهور من أوثانهم وأصنامهم ، المذلَّل المعْلُوّ عليه لذلته"(٢).

قال ابن كثير:" أي : هو الذي قهر كل شيء ، وخضع لجلاله وعظمته وكبريائه كل شيء"(٣).

قال السعدي:" {وهو} تعالى {القاهر فوق عباده} ينفذ فيهم إرادته الشاملة، ومشيئته العامة، فليسوا يملكون من الأمر شيئا، ولا يتحركون ولا يسكنون إلا بإذنه"(٤).

قوله تعالى:{وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً} [الأنعام : ٦١]، أي:" ويرسل على عباده ملائكة، يحفظون أعمالهم ويُحْصونها"(٥).

قال الطبري:" وهي ملائكته الذين يتعاقبونكم ليلا ونهارًا ، يحفظون أعمالكم ويحصونها ، ولا يفرطون في حفظ ذلك وإحصائه ولا يُضيعون"(٦).

قال ابن كثير:" أي : من الملائكة يحفظون بدن الإنسان ، كما قال تعالى: { لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ } [الرعد : ١١] ، وحفظة يحفظون عمله ويحصونه عليه كما قال : { وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ } [الانفطار : ١٠ - ١٢] ، وقال : { عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ } [ق : ١٧ ، ١٨]"(٧).

قال السعدي:" وكّل بالعباد حفظة من الملائكة، يحفظون العبد ويحفظون عليه ما عمل، كما قال تعالى: {وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ * كِرَامًا كَاتِبِينَ * يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ}[الانفطار:١٠-١٢] {عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ * مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ}[ق:١٧-١٨]، فهذا حفظه لهم في حال الحياة"(٨).

قال قتادة:" يقول : حفظة ، يا ابن آدم ، يحفظون عليك عملك ورزقك وأجلك"(٩).

قال السدي:" هي المعقبات من الملائكة ، يحفظونه ويحفظون عمله"(١٠).

قوله تعالى:{حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا} [الأنعام : ٦١]، أي:" حتى إذا نزل الموت بأحدهم قبض روحَه مَلَكُ الموت وأعوانه "(١١).

قال ابن كثير:" أي : إذا احتضر وحان أجله { تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا } أي : ملائكة موكلون بذلك"(١٢).

قال السعدي:" أي: الملائكة الموكلون بقبض الأرواح"(١٣).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٥.
(٢) تفسير الطبري:٤٠٨/١١-٤٠٩.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(٤) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٥) التفسير الميسر:١٣٥.
(٦) تفسير الطبري:٤٠٩/١١.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(٨) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٣٢٤):ص٤٠٩/١١، وابن ابي حاتم(٧٣٨٤):ص١٣٠٦/٤.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٣٢٣):ص٤٠٩/١١.
(١١) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(١٣) تفسير السعدي:٢٥٩.

قال قتادة:"يقول تعالى ذكره : إن ربكم يحفظكم برسل يعقّب بينها ، يرسلهم إليكم بحفظكم وبحفظ أعمالكم ، إلى أن يحضركم الموت ، وينزل بكم أمر الله ، فإذا جاء ذلك أحدكم ، توفاه أملاكنا الموكّلون بقبض الأرواح ، ورسلنا المرسلون به"(١).

وقال قتادة أيضا:" إن ملك الموت له رسل، فيرسل ويرفع ذلك إليه ، وقال الكلبي: إن ملك الموت هو يلي ذلك، فيدفعه، إن كان مؤمنًا، إلى ملائكة الرحمة، وإن كان كافرًا إلى ملائكة العذاب"(٢).

قال الطبري:" فإن قال قائل : أو ليس الذي يقبض الأرواح ملك الموت ، فكيف قيل : {توفته رسلنا}، و«الرسل» جملة وهو واحد ؟ أو ليس قد قال : {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [سورة السجدة : ١١] ؟

قيل : جائز أن يكون الله تعالى ذكره أعان ملك الموت بأعوان من عنده ، فيتولون ذلك بأمر ملك الموت ، فيكون " التوفي " مضافًا وإن كان ذلك من فعل أعوان ملك الموت إلى ملك الموت إذ كان فعلهم ما فعلوا من ذلك بأمره ، كما يضاف قتلُ من قتل أعوانُ السلطان وجلدُ من جلدوه بأمر السلطان ، إلى السلطان ، وإن لم يكن السلطان باشر ذلك بنفسه ، ولا وليه بيده"(٣).

عن الحسن بن عبيد الله في قوله:"{توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، قال: سئل ابن عباس عنها فقال: إن لملك الموت أعوانًا من الملائكة"(٤).

عن إبراهيم:"{توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، قال: الرسل توفّى الأنفس، ويذهب بها ملك الموت"(٥).

وروي عن الثوري، عن منصور عن إبراهيم في قوله:"{توفته رسلنا}، قال: تتوفاه الرسل، ثم يقبض منهم ملك الموت الأنفس، قال الثوري: وأخبرني الحسن بن عبيد الله، عن إبراهيم قال: هم أعوان لملك الموت، قال الثوري: وأخبرني رجل، عن مجاهد قال: جعلت الأرض لملك الموت مثل الطست يتناول من حيث شاء، وجعلت له أعوان يتوفّون الأنفس ثم يقبضها منهم"(٦).

وعن عبد الله بن أبي جعفر، عن أبيه، قال: "سألت الربيع بن أنس عن ملك الموت، أهو وحده الذي يقبض الأرواح، قال: هو الذي يلي أمرَ الأرواح، وله أعوان على ذلك، ألا تسمع إلى قول الله تعالى ذكره: {حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا يَتَوَفَّوْنَهُمْ}؟ [سورة الأعراف: ٣٧] . وقال:{توفته رسلنا وهم لا يفرطون}، غير أن ملك الموت هو الذي يسير كل خطوة منه من المشرق إلى المغرب. قلت: أين تكون أرواح المؤمنين؟ قال: عند السدرة في الجنة"(٧).

عن مجاهد:" ما من أهل بيت شَعَرٍ ولا مَدَرٍ إلا وملك الموت يُطيف بهم كل يوم مرتين"(٨).

قوله تعالى:{وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ} [الأنعام : ٦١]، أي:" وهم لا يضيعون ما أُمروا به"(٩).

قال ابن عباس:" يقول: لا يضيعون"(١٠). وروي عن قتادة(١١)، والسدي مثل ذلك(١٢).

قال مقاتل:" يعني: لا يضيعون ما أمروا به"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٣٢٤):ص٤٠٩/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٣٢):ص٤١١/١١.
(٣) تفسير الطبري:٤٠٩/١١-٤١٠.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٢٦):ص٤١٠/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٢٨):ص٤١٠/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٣٣٥):ص٤١١/١١-٤١٢.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٣٣٨):ص٤١٢/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٣٣٩):ص٤١٢/١١.
(٩) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٣٤٠):ص٤١٣/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٢٤):ص٤٠٩/١١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤١):ص٤١٣/١١.

قال البغوي:أي:" لا يقصرون"[٢].
قال السعدي:يعني:" فلا يزيدون ساعة مما قدره الله وقضاه ولا ينقصون ولا ينفذون من ذلك إلا بحسب المراسيم الإلهية والتقادير الربانية"[٣].
قال ابو عبيدة:" أي: لا يتوانون ولا يتركون شيئا، ولا يخلفونه ولا يغادرون"[٤].
قال ابن كثير:" أي : في حفظ روح المتوفى ، بل يحفظونها وينزلونها حيث شاء الله ، عَزَّ وجل ، إن كان من الأبرار ففي عليين ، وإن كان من الفجار ففي سجين ، عياذا بالله من ذلك"[٥].

الفوائد:

١- أن الله تعالى جعل من الملائكة من يحفظ الإنسان من الأذى، إلى نهاية أجله، قال تعالى: {وَيُرْسِلُ عَلَيْكُم حَفَظَةً حَتَّىَ إِذَا جَاء أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لاَ يُفَرِّطُونَ}.

٢- أن الله سبحانه وتعالى هو المتوفي للأنفس؛ لأنه سبحانه هو الذي أمر به وبمشيئته يكون، فقال تعالى: {وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا}، فالملائكة رسل من عند الله يرسلهم لقبض روح من شاء من عباده، وأضيف التوفي إلى ملك الموت؛ لأنه هو الذي يتولى قبضَ النفسِ وأخذها أول ما تخرج من الجسد. قال تعالى: {قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ} [السجدة: ١١]، وقال :{الَّذِينَ تَتَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ} [النحل: ٢٨]، وأضيف إلى الملائكة باعتبار أنهم يقبضونها ويتولونها بعد ذلك.

فكلها حق، فنُسب التوفي إلى كلٍّ لثبوت ذلك على الوجه الذي يناسبه.

وإنها لآية عظيمة أنَّ هذه الأنفس الكثيرة التي تموت في اللحظة الواحدة يتوفاها ويتولاها ملك واحد، فهذا يفيدنا أن أمر الغيب لا تحيط به العقول البشرية، ولا يقاس على المحسوس، فلا ينفع أن تقيس الغائب على الشاهد.

وقد حدث في هذا العصر من المخترعات الباهرة ما يقرب بعض أمور الغيب؛ كالحاسوب، والشبكة المعلوماتية، وغيرها مما يرسل الصور والأصوات ويستقبلها مِن وإلى أمكان متباعدة.

٣- قال أبو القاسم اللالكائي رحمه الله: "فدلت هذه الآية أنَّهُ تعالى في السماء وعلمه مُحيطٌ بكلِّ مكان من أرضه وسمائه، وقال: وروى ذلك من الصحابة: عمر، وابن مسعود، وابن عباس، وأمُّ سلمة - رضي الله عنهم -، ومن التابعين ربيعةُ بن أبي عبد الرحمن، وسليمان التيمي، ومقاتل بن حيان، وبه قال من الفقهاء مالك بن أنس، وسفيان الثوري، وأحمد بن حنبل"[٦].

وسئل ربيعة بن أبي عبد الرحمن عن قوله تعالى: {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ قال: "الاستواء غير مجهول، والكيف غير معقول ومِنَ الله الرِّسالة، وعلى الرَّسول البلاغ، وعلينا التَّصديق"[٧].

وقال رجل للإمام مالك رحمه الله: يا أبا عبد الله {الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى} كيف استوى؟ فقال: "الكيف غير معقول، والاستواء منه غير مجهول، والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة، فإني أخاف أن تكون ضالاً وأَمَر به فَأُخرج"[٨].

---

(١) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٢) تفسير البغوي:١٥٣/٣.
(٣) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٤) مجاز القرآن:١٩٤/١.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٦٧/٣.
(٦)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي:٣/ ٤٣٠.
(٧)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي : ٣/ ٤٤٢،برقم ٦٦٥.
(٨)ش شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي: ٣/ ٤٤١ برقم ٦٦٤،وجوّد إسنادها بن حجر في فتح

وقيل لأبي عبد الله أحمد بن حنبل رحمه الله: الله - عز وجل - فوق السماء السابعة على عرشه بائنٌ من خلقه، وقدرتُه وعلمه في كل مكان؟ قال: "نعم على العرش وعلمه لا يخلو منه مكان"(١)، وفي رواية: "أنه سئل عن قوله: {وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ} فقال الكلام السابق.

وهذه النقولات تدل على أن أهل السنة يثبتون الأسماء والصفات وما دلّت عليه من المعاني العظيمة مع إمرارها كما جاءت بلا كيف. والمعيَّة معيتان: معيَّة عامة لجميع الناس، ومعيَّة خاصة تقتضي التوفيق والإلهام والنصرة.

القرآن

{ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ (٦٢)} [الأنعام : ٦٢]

التفسير:

ثم أعيد هؤلاء المتوفون إلى الله تعالى مولاهم الحق. ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده وهو أسرع الحاسبين.

قوله تعالى:{ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} [الأنعام : ٦٢]، أي:" ثم أعيد هؤلاء المتوفون إلى الله تعالى مولاهم الحق"(٢).

قال مقاتل:" ثم ردوا من الموت إلى الله في الآخرة، فيها تقديم"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ثم ردت الملائكة الذين توفَّوهم فقبضوا نفوسهم وأرواحهم ، إلى الله سيدهم الحق"(٤).

قال السعدي: "{ثُمَّ} بعد الموت والحياة البرزخية وما فيها من الخير والشر، {رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ} أي: الذي تولاهم بحكمه القدري فنفذ فيهم ما شاء من أنواع التدبير ثم تولاهم بأمره ونهيه وأرسل إليهم الرسل وأنزل عليهم الكتب ثم ردوا إليه ليتولى الحكم فيهم بالجزاء ويثيبهم على ما عملوا من الخيرات ويعاقبهم على الشرور والسيئات"(٥).

قال ابن كثير:" ويحتمل أن يكون المراد بقوله : { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ } يعني : الخلائق كلهم إلى الله يوم القيامة ، فيحكم فيهم بعدله ، كما قال [تعالى] (٣) { قُلْ إِنَّ الأوَّلِينَ وَالآخِرِينَ * لَمَجْمُوعُونَ إِلَى مِيقَاتِ يَوْمٍ مَعْلُومٍ } [الواقعة : ٤٩ ، ٥٠] ، وقال { وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَدًا } إلى قوله : { وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا } [الكهف : ٤٧ - ٤٩]"(٦).

قال البغوي: { ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ}" يعني: الملائكة، وقيل: يعني العباد يردون بالموت إلى الله مولاهم الحق.

فإن قيل: الآية في المؤمنين والكفار جميعا وقد قال في آية أخرى: {وأن الكافرين لا مولى لهم} [محمد: ١١]، فكيف وجه الجمع؟

فقيل: المولى في تلك الآية بمعنى الناصر ولا ناصر للكفار، والمولى هاهنا بمعنى الملك الذي يتولى أمورهم، والله عز وجل مالك الكل ومتولي الأمور، وقيل: أراد هنا المؤمنين خاصة يردون إلى مولاهم، والكفار فيه تبع"(٧).

قوله تعالى:{أَلَا لَهُ الْحُكْمُ} [الأنعام : ٦٢]، أي:" . ألا له القضاء والفصل يوم القيامة بين عباده"(١).

الباري، ١٣/ ٤٠٦.

(١)شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي، ٣/ ٤٤٦،برقم ٦٧٤.

(٢) التفسير الميسر:١٣٥.

(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.

(٤) تفسير الطبري:٤١٣/١١.

(٥) تفسير السعدي:٢٥٩.

(٦) تفسير ابن كثير:٢٦٨/٣.

(٧) تفسير البغوي:١٥٣/٣.

قال مقاتل:" يعنى: القضاء"[2].
قال البغوي:" أي: القضاء دون خلقه"[3].
قال الطبري:" يقول : ألا له الحكم والقضاء دون من سواه من جميع خلقه "[4].
قال السعدي: " {لَهُ الْحُكْمُ} وحده لا شريك له"[5].
قوله تعالى:{وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} [الأنعام : ٦٢]، أي:" وهو سبحانه أسرع الحاسبين، فلا يشغله حساب عن حساب ولا شأن عن شأن"[6].
قال مقاتل:" يقول: هو أسرع حسابا من غيره وذلك قوله: {وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ} [الأنبياء : ٤٧]"[7].
قال البغوي:" أي: إذا حاسب فحسابه سريع لأنه لا يحتاج إلى فكرة ورؤية وعقد يد"[8].
قال الطبري:" يقول : وهو أسرع من حسب عددكم وأعمالكم وآجالكم وغير ذلك من أموركم ، أيها الناس ، وأحصاها ، وعرف مقاديرها ومبالغها ، لأنه لا يحسب بعقد يد ، ولكنه يعلم ذلك ولا يخفى عليه منه خافية ، {و لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ } [سورة سبأ : ٣]"[9].
قال السعدي: " {وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ} لكمال علمه وحفظه لأعمالهم بما أثبتته في اللوح المحفوظ ثم أثبته ملائكته في الكتاب الذي بأيديهم فإذا كان تعالى هو المنفرد بالخلق والتدبير وهو القاهر فوق عباده وقد اعتنى بهم كل الاعتناء في جميع أحوالهم وهو الذي له الحكم القدري والحكم الشرعي والحكم الجزائي فأين للمشركين العدولُ عن من هذا وصفه ونعته إلى عبادة من ليس له من الأمر شيء ولا عنده مثقال ذرة من النفع ولا له قدرة وإرادة؟
أما والله لو علموا حلم الله عليهم وعفوه ورحمته بهم وهم يبارزونه بالشرك والكفران ويتجرءون على عظمته بالإفك والبهتان وهو يعافيهم [ص:٢٦٠] ويرزقهم لانجذبت دواعيهم إلى معرفته وذهلت عقولهم في حبه ولمقتوا أنفسهم أشد المقت حيث انقادوا لداعي الشيطان الموجب للخزي والخسران ولكنهم قوم لا يعقلون"[10].
عن أبي هريرة رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : "إن الميت تحضره الملائكة ، فإذا كان الرجل الصالح قالوا : اخرجي أيتها النفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، اخرجي حميدة ، وأبشري بروح وريحان ، ورب غير غضبان ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يُعْرَج بها إلى السَّماء فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : مرحبا بالنفس الطيبة كانت في الجسد الطيب ، ادخلي حميدة وأبْشري بروح وريحان ورب غير غضبان. فلا يزال يقال لها ذلك حتى ينتهي بها إلى السماء التي فيها الله عَزَّ وجل. وإذا كان الرجل السوء ، قالوا : اخرجي أيتها النفس الخبيثة ، كانت في الجسد الخبيث ، اخرجي ذميمة وأبشري بحميم وغساق ، وآخر من شكله أزواج ، فلا يزال يقال لها ذلك حتى تخرج ، ثم يعرج بها إلى السماء ، فيستفتح لها ، فيقال : من هذا ؟ فيقال : فلان ، فيقال : لا مرحبًا بالنفس الخبيثة كانت في الجسد الخبيث ، ارجعي ذميمة ، فإنه لا يفتح لك أبواب السماء. فترسل من السماء ثم

---

(١) التفسير الميسر:١٣٥.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٣) تفسير البغوي:١٥٣/٣.
(٤) تفسير الطبري:٤١٣/١١.
(٥) تفسير السعدي:٢٥٩.
(٦) التفسير الميسر:١٣٥، وصفوة التفاسير:٣٦٧/١
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٨) تفسير البغوي:١٥٣/٣.
(٩) تفسير الطبري:٤١٣/١١.
(١٠) تفسير السعدي:٢٥٩.

تصير إلى القبر ، فيجلس الرجل الصالح فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول ، ويجلس الرجل السوء فيقال له مثل ما قيل في الحديث الأول"[1].

عن أبي بكر بن عياش، قال: "دخلت على عاصم قبل أن يموت وهو يقرأ: {ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقِّ أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}، وأما أعلمه يعقل"[2].

الفوائد:

١- تقرير مبدأ المعاد والحساب والجزاء .

٢- ومن الفوائد: ان حساب الخلق لا مشقة فيه على الخالق الحاسب، بل هو يسير عليه، قال تعالى: {وهو أسرع الحاسبين}.

٣- ومن فوائد الآية: أن الحكم لله وحده لا شريك له في حكمه، كما لا شريك له في عبادته، قال تعالى {ولا يشرك في حكمه أحدا} [الكهف: ٢٦] وقال: {ألا له الحكم وهو أسرع الحاسبين}.

٤- ومنها: إثبات اسم من اسمائه المضافة، وهو :{أسرع الحاسبين}، ذكره ابن الوزير، والشرباصى[3].

إذ ذهب جمع من أهل العلم إلى اعتبار الأسماء المضافة وعدّها من ضمن الأسماء الحسنى، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وكذلك أسماؤه المضافة مثل: أرحم الراحمين، وخير الغافرين، ورب العالمين، ومالك يوم الدِّين، وأحسن الخالقين، وجامع النَّاس ليوم لا ريب فيه، ومقلّب القلوب، وغير ذلك ممَّا ثبت في الكتاب والسنَّة، وثبت في الدُّعاء بها بإجماع المسلمين"[4].

والعلماء في عدِّهم لهذه الأسماء ما بين مقلٍ ومكثرٍ، فبعض تلك الأسماء التي عدُّوها، إضافتها واضحة في النُّصوص، والبعض منها لا تدلُّ النُّصوص صراحة على إضافتها .

٥- ومن فوائد الآية إثبات اسمه تعالى«الحسيب»، قال تعالى: {أَلاَ لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ}، الحسيب: هو المكافىء[5]:

- فالله تعالى هو الكافي للعباد جميع ما أهمّهم من أمر دينهم ودنياهم من حصول المنافع ودفع المضارّ.
- و«الحسيب»: بالمعنى الأخصّ هو الكافي لعبده المتّقي المتوكّل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه.
- و«الحسيب»: أيضاً هو الذي يحفظ أعمال عباده من خير وشرٍّ ويحاسبهم، إنْ خيراً فخير، وإن شراً فشر، قال تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ}[الأنفال:٦٤]، أي كافيك وكافي أتباعك. فكفاية الله لعبده بحسب ما قام به من متابعة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ظاهراً وباطناً، وقيامه بعبودية الله تعالى[6].

القرآن

{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ (٦٣)} [الأنعام : ٦٣]

التفسير:

---

(١)المسند (٢/٣٦٤ ، ٣٦٥). قال ابن كثير في تفسيره:٣/٢٦٨:"هذا حديث غريب". .

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٣٩٠):ص٤/١٣٠٨ .

(٣) انظر: معتقد اهل السنة والجماعة في أسمائ الله الحسنى:١٨٩ .

(٤)مجموع الفتاوى ٢٢/ ٤٨٥ .

(٥) انظر: شأن الدعاء:٦٩ .

(٦) انظر:الحق الواضح المبين،ص٧٨،وشرح النونية للهراس، ٢/ ١٠٣ .

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: من ينقذكم من مخاوف ظلمات البر والبحر؟ أليس هو الله تعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًّا؟ تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته عز وجل وحده لا شريك له.

قوله تعالى:{قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} [الأنعام : ٦٣]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: من ينقذكم من مخاوف ظلمات البر والبحر؟"(١).

عن قتادة قوله : " {قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر }، يقول : من كرْب البر والبحر"(٢).

قال مقاتل:" قل يا محمد لكفار مكة: {من ينجيكم من ظلمات البر والبحر}، يعني: الظلل والظلمة والموج"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل ، يا محمد ، لهؤلاء العادلين بربهم ، الداعين إلى عبادة أوثانهم : من الذين ينجيكم " من ظلمات البر " ، إذا ضللتم فيه فتحيَّرتم ، فأظلم عليكم الهدى والمحجة ومن ظلمات البحر إذا ركبتموه ، فأخطأتم فيه المحجة ، فأظلم عليكم فيه السبيل"(٤).

قال البغوي:" {من ظلمات البر والبحر} أي: من شدائدهما وأهوالهما، كانوا إذا سافروا في البر والبحر فضلوا الطريق وخافوا الهلاك، دعوا الله مخلصين له الدين فينجيهم"(٥).

قال السعدي:" أي: {قُلْ} للمشركين بالله، الداعين معه آلهة أخرى، ملزما لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، على ما أنكروا من توحيد الإلهية {مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} أي: شدائدهما ومشقاتهما"(٦).

قال ابن كثير:" يقول تعالى ممتنا على عباده في إنجائه المضطرين منهم { مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ } أي : الحائرين الواقعين في المهامه البرية ، وفي اللجج البحرية إذا هاجت الريح العاصفة ، فحينئذ يفردون الدعاء له وحده لا شريك له ، كما قال : { وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الإنْسَانُ كَفُورًا} [الإسراء : ٦٧] وقال تعالى : { هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنْجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ } [يونس : ٢٢] وقال تعالى : { أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ أَإِلَهٌ مَعَ اللَّهِ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } [النمل : ٦٣]"(٧).

قرأ يعقوب:«ينجيكم» بالتخفيف، وقرأ العامة بالتشديد (٨).

قوله تعالى:{تَدْعُونَهُ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً} [الأنعام : ٦٣]، أي:" أليس هو الله تعالى الذي تدعونه في الشدائد متذللين جهرًا وسرًّا؟"(٩).

قال مقاتل:" {تضرعا}، يعني: مستكينين، {وخفية}، يعني: في خفض وسكون "(١٠).

قال ابن كثير:" أي : جهرا وسرا"(١١).

قال البغوي:" أي: علانية وسرا"(١).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٥.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٤٣):ص٤١٥/١١.
(٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٤) تفسير الطبري:٤١٤/١١.
(٥) تفسير البغوي:١٥٢/٣.
(٦) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٧) تفسير ابن كثير:٣٦٨/٣.
(٨) انظر: تفسير البغوي:١٥٣/٣.
(٩) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٠) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٦٨/٣.

قال الطبري:أي:" فلا تهتدون له غير الله الذي إليه مفزعكم حينئذ بالدعاء {تضرعًا}، منكم إليه واستكانة جهرًا ، {وخفية}، يقول : وإخفاء للدعاء أحيانًا ، وإعلانًا وإظهارًا"[٢].

قرأ أبو بكر عن عاصم :«وخفية» بكسر الخاء هاهنا وفي الأعراف، وقرأ الآخرون بضمها وهما لغتان [٣].

قوله تعالى:{لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} [الأنعام : ٦٣]، أي:" تقولون: لئن أنجانا ربنا من هذه المخاوف لنكونن من الشاكرين بعبادته عز وجل وحده لا شريك له"[٤].

قال ابن عباس:" يقول : إذا أضل الرجل الطريق ، دعا الله : {لئن أنجيتنا من هذه لنكونن من الشاكرين}"[٥].

قال مقاتل:"{ لئن أنجانا} من هذه الأهوال، {لنكونن من الشاكرين} لله في هذه النعم فيوحدوه"[٦].

قال الطبري:" تقولون : لئن أنجيتنا من هذه يا رب ، أي: من هذه الظلمات التي نحن فيها، لنكونن ممن يوحدك بالشكر ، ويخلص لك العبادة ، دون من كنا نشركه معك في عبادتك"[٧].

قال البغوي:" أي: يقولون لئن أنجيتنا من هذه الظلمات، {لنكونن من الشاكرين} والشكر: هو معرفة النعمة مع القيام بحقها"[٨].

قال ابن كثير:" { لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ } أي : من هذه الضائقة، { لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ }، أي : بعدها "[٩].

قال السعدي:" وحين يتعذر أو يتعسر عليكم وجه الحيلة، فتدْعون ربكم تضرعا بقلب خاضع، ولسان لا يزال يلهج بحاجته في الدعاء، وتقولون وأنتم في تلك الحال: {لَئِنْ أَنْجَانَا مِنْ هَذِهِ} الشدة التي وقعنا فيها {لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ} لله، أي المعترفين بنعمته، الواضعين لها في طاعة ربهم، الذين حفظوها عن أن يبذلوها في معصيته"[١٠].

وقرأ أهل الكوفة: «لئن أنجانا الله»[١١].

الفوائد:

١- أن الله تعالى هو المغيث المنقذ من الشدائد الفادحة والكروب، قال تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ}.

٢- أنه لا برهان أعظم على بطلان الشرك من أن المشركين يخلصون الدعاء لله تعالى في الشدة.

٣- أن أولئك المشركين إذا ركبوا في البحر وتعرضوا للخطر فتوقعوا نزول قارعة نسوا آلهتهم من الأولياء وغيرهم وكفروا بهم، وأخلصوا الدين لله وحده، وتوجهوا إليه بالدعاء، معلقين عليه وحده الرجاء.

لأنهم كانوا يعرفون -تماما- أن الذين يدعونهم من دونه هم أحقر وأضعف من أن يجلبوا لهم أية مساعدة أويقدموا لهم أي عون في تلك اللحظة الحرجة، بل لأنهم كانوا

---

(١) تفسير البغوي:١٥٢/٣.
(٢) تفسير الطبري:٤١٤/١١.
(٣) انظر: تفسير البغوي:١٥٢/٣.
(٤) التفسير الميسر:١٣٥.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٤٢):ص٤١٥/١١.
(٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٧) تفسير الطبري:٤١٤/١١.
(٨) تفسير البغوي:١٥٢/٣.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٦٨/٣.
(١٠) تفسير السعدي:٢٦٠.
(١١) انظر: تفسير البغوي:١٥٢/٣.

يدركون أن من يدعون من دون الله أعجز من أن يسمعوا لهم صوتا، فضلا عن أن يجيبوا لهم دعاء.

لذا فشريط المغالطات المعروض أمام بصائرهم يتمزق في تلك اللحظة الفاصلة، وتتجلى أمامهم الحقيقة جلية واضحة، وهي أن أحدا غير الله -مهما كان- لا يمكن الالتجاء إليه لإنقاذ الموقف في اللحظات العصيبة.

القرآن

{قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ (٦٤)} [الأنعام : ٦٤]

التفسير:

قل لهم -أيها الرسول-: الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه المخاوف ومن كل شدة، ثم أنتم بعد ذلك تشركون معه في العبادة غيره.

قوله تعالى:{قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ} [الأنعام : ٦٤]، أي:" قل لهم -أيها الرسول-: الله وحده هو الذي ينقذكم من هذه المخاوف ومن كل شدة"(١).

قال مقاتل:" يعني: من أهوال كل كرب، يعني: من كل شدة "(٢).

قال السعدي:" أي: من هذه الشدة الخاصة، ومن جميع الكروب العامة"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء العادلين بربهم سواه من الآلهة ، إذا أنت استفهمتهم عمن به يستعينون عند نزول الكرب بهم في البر والبحر : الله القادرُ على فَرَجكم عند حلول الكرب بكم ، ينجيكم من عظيم النازل بكم في البر والبحر من همّ الضلال وخوف الهلاك ، ومن كرب كل سوى ذلك وهمّ لا آلهتكم التي تشركون بها في عبادته ، ولا أوثانكم التي تعبدونها من دونه ، التي لا تقدر لكم على نفع ولا ضرّ"(٤).

قرأ أهل الكوفة وأبو جعفر:«ينجيكم» بالتشديد، مثل قوله تعالى: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُم} [الأنعام : ٦٣]، وقرأ الآخرون هذا بالتخفيف(٥).

قوله تعالى:{ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ} [الأنعام : ٦٤]، أي:" ثم أنتم بعد ذلك تشركون معه في العبادة غيره"(٦).

قال مقاتل:" في الرخاء"(٧).

قال الطبري:يقول" أنتم بعد تفضيله عليكم بكشف النازل بكم من الكرب ، ودفع الحالِّ بكم من جسيم الهم ، تعدلون به آلهتكم وأصنامكم ، فتشركونها في عبادتكم إياه. وذلك منكم جهل بواجب حقه عليكم ، وكفر لأياديه عندكم ، وتعرضٌ منكم لإنزال عقوبته عاجلا بكم"(٨).

قال ابن كثير:" أي : بعد ذلك { تُشْرِكُونَ } أي : تدعون معه في حال الرفاهية آلهة أخرى"(٩).

قال البغوي:" يريد أنهم يقرون أن الذي يدعونه عند الشدة هو الذي ينجيهم ثم تشركون معه الأصنام التي قد علموا أنها لا تضر ولا تنفع"(١٠).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٥.
(٢) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٣) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٤) تفسير الطبري:٤١٤/١١.
(٥)انظر: تفسير البغوي:١٥٢/٣-١٥٣.
(٦) التفسير الميسر:١٣٥.
(٧) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٥/١.
(٨) تفسير اطبري:٤١٤/١١-٤١٥.
(٩) تفسير ابن كثير:٢٦٨/٣.
(١٠) تفسير البغوي:١٥٣/٣.

قال السعدي:أي:" لا تفون لله بما قلتم، وتنسون نعمه عليكم، فأي برهان أوضح من هذا على بطلان الشرك، وصحة التوحيد؟"[١].

قال الزحيلي:" لا يثبت الإنسان غالباً على العهد، ولا يفي بالوعد، ولا يستقر على حال الاستقامة، فتراه بطبعه غداراً خائناً، يلجأ إلى الله وقت الشدة والخوف، وينسى الله بعد النجاة، ويعود إلى ضلالة وجهله. والواجب الذي يمليه العقل والوفاء بالجميل والإخلاص أن يستمر الإنسان على أصل العقيدة الصحيحة والإيمان الحق والعبادة لمن أنعم عليه بجلائل النعم ودقائقها، لا سيما في أحوال الأزمات والمحن.

وهذه حال من الأحوال التي ذكرتها الآية: وهي إذا أخطأتم الطريق وخفتم الهلاك ودعوتم الله، وأقسمتم: لئن أنجانا الله من هذه الشدائد، لنكونن من الطائعين المستقيمين.

وهذا توبيخ من الله لأولئك المشركين في دعائهم إياه عند الشدائد، ثم يدعوه معه غيره في حالة الرخاء، كما قال: {ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}. إنه مثل ضربه الله، بقصد التقريع والتوبيخ لمن تعهد بالإيمان ونبذ الشرك لأن الحجة إذا قامت بعد المعرفة، وحب الإخلاص، والمشركون قد جعلوا بدلاً منه وهو الإشراك، فحسن أن يقرعوا ويوبخوا على هذا المنهج، وإن كانوا مشركين قبل النجاة وفي الآية إيماء إلى أن من أشرك في عبادة الله تعالى غيره، فهو لم يعبده لأن شرط العبادة الإخلاص، والتوحيد أساس العبادة.

والآية صريحة بأنه إذا شهدت الفطرة السليمة والخلقة الأصلية في وقت المحنة بأنه لا ملجأ إلا إلى الله، ولا تعويل إلا على فضل الله، وجب أن يبقى هذا الإخلاص عند كل الأحوال والأوقات إذ لا يقبل عقلًا أن يأتي الإنسان بأمور أربعة عند حصول الشدائد: وهي الدعاء، والتضرع، والإخلاص بالقلب، والتزام الاشتغال بالشكر، ثم يرتد على عقيبه، ويعمل بنقيض هذه الأمور بعد النجاة وإحراز السلامة من الله تعالى وحده الذي يهيئ الأسباب للإنجاء من المخاوف، أو يغمر عباده بواسع الرحمة والفضل، وبدقائق اللطف والإلهام[٢].

الفوائد:

١- الدعوة إلى الثقة بالله تعالى في تفريج الكربات، إذ جاءت العديد من النصوص الشرعية التي تدعو المسلم وتؤكد عليه ضرورة الثقة بالله تعالى في تفريج الكربات، قال تعالى:{ قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}.

٢- أنه لا منجى من الشدائد ولا منقذ من الكروب إلا الله سبحانه وتعالى.

٣- أنه سبحانه وتعالى هو الكاشف للضر لا غيره، وأنه المنفرد بإجابة المضطرين، وأنه المستغاث لذلك كله، وأنه القادر على دفع الضر، القادر على إيصال الخير. فهو المنفرد بذلك، فإذا تعين هو - جل ذكره - خرج غيره من ملك ونبي وولي.

٤- أن الفزع إليه سبحانه عند شدة الضيق واليأس من الأسباب مركوز في فطرة البشر[٣].

وحتى أولئك الذين ضلوا طريق الحق وانحرف بهم السبيل، وزاغت قلوبهم وخفت عقولهم، كانت تدفعهم فطرهم إلى التوجه إلى الإله الحق عندما يمسهم الضر ويعوزهم المنقذ، وقد يئسوا من الأسباب.

٥- ومن الفوائد: القرآن الكريم الأسلوب في تلقين الجواب الظاهر، إذ أنه لوضوحه لا ينكره المشركون بل يسلمون به، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى في دليل النوائب: {قُلْ مَنْ يُنَجِّيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ} إلى قوله تعالى: {قُلِ اللَّهُ يُنَجِّيكُمْ مِنْهَا وَمِنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ}.

---

(١) تفسير السعدي: ٢٦٠.

(٢) التفسير المنير في العقيدة والشريعة والمنهج، د. وهبة بن مصطفى الزحيلي ٧/ ٢٢٧.

(٣) انظر: تفسير المنار: ٧/ ٤٠٩.

وقوله تعالى في دليل الخلق والملك: {قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّه..} [الرعد:١٦]، وقوله تعالى في دليل الرزق: {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلْ اللَّه} [سبأ:٢٤].

ففي هذه الآيات يأمر الله نبيه صلى الله عليه وسلم أن يسألهم عمن ينجيهم من المخاطر ومن رب السماوات والأرض ومن يرزقهم، ويأمره بأن يجيب: "الله"، لاعترافهم أن آلهتهم لا تملك شيئًا من ذلك، وتلقينهم الجواب فيه إشارة إلى أنهم لا ينكرون ذلك وليس عندهم جواب غيره وأن سكوتهم عن الجواب لوضوحه فيه حجة عليهم، إذ إنهم ما داموا قد اعترفوا بأن فاعل ذلك هو الله فلمَ يشركون به غيره؟ ومثل هذا الأسلوب يعجز الخلق كلهم عن الإتيان بمثله.

القرآن

{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥)} [الأنعام : ٦٥]

التفسير:

قل -أيها الرسول-: الله عز وجل هو القادر وحده على أن يرسل عليكم عذابًا مِن فوقكم كالرَّجْم أو الطوفان، وما أشبه ذلك، أو من تحت أرجلكم كالزلازل والخسف، أو يخلط أمركم عليكم فتكونوا فرقًا متناحرة يقتل بعضكم بعضًا. انظر -أيها الرسول- كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين لعلهم يفهمون فيعتبروا؟

سبب النزول:

عن زيد بن أسلم؛ قال: "لما نزلت: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ}؛ قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: "لا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض بالسيوف"، فقالوا: ونحن يا رسول الله؟ نشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، قال: "نعم"، فقال بعض الناس: لا يكون هذا أبداً؛ فأنزل الله -تعالى-: {انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦) لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)} "[1]. [ضعيف]

قوله تعالى:{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام : ٦٥]، أي:" قل -أيها الرسول-: الله عز وجل هو القادر وحده على أن يرسل عليكم عذابًا مِن فوقكم كالرَّجْم أو الطوفان، وما أشبه ذلك، أو من تحت أرجلكم كالزلازل والخسف"[2].

قال السعدي:" أي: هو تعالى قادر على إرسال العذاب إليكم من كل جهة"[3].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم : قل لهؤلاء العادلين بربهم غيره من الأصنام والأوثان ، يا محمد : إن الذي ينجيكم من ظلمات البرّ والبحر ومن كل كرب ، ثم تعودون للإشراك به ، هو القادر على أن يرسل عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم ، لشرككم به ، وادّعائكم معه إلهًا آخر غيره ، وكفرانكم نعمه ، مع إسباغه عليكم آلاءه ومِنَنه"[4].

---

(١)أخرجه الطبري في "جامع البيان" (١٣٣٧٨):ص٤٣٠/١١،وابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣١٢ رقم ٧٤١٨) من طريق المؤمل بن إسماعيل البصري نا يعقوب بن إسماعيل عن زيد به.

قلنا: وهذا سند ضعيف ؛لإرساله، ومؤمل هذا؛صدوق سيئ الحفظ.

(٢) التفسير الميسر:١٣٥.

(٣) تفسير السعدي:٢٦٠.

(٤) تفسير الطبري:٤١٦/١١.

قال القرطبي:" أي: القادر على إنجائكم من الكرب، قادر على تعذيبكم. ومعنى {من فوقكم}: الرجم والحجارة والطوفان والصيحة والريح، كما فعل بعاد وثمود وقوم شعيب وقوم لوط وقوم نوح، {أو من تحت أرجلكم} الخسف والرجفة، كما فعل بقارون وأصحاب مدين"[١].

وفي قوله تعالى:{قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ} [الأنعام : ٦٥]، وجوه:

أحدها : أن العذاب الذي من فوقهم الرجم ، والذي من تحت أرجلهم الخسف ، قاله سعيد بن جبير[٢]، ومجاهد[٣]، وأبو مالك[٤]، والسدي[٥]. واختاره الطبري[٦]، وابن قتيبة [٧]، وابن كثير[٨].

عن ابن زيد في قوله : " {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم } قال : كان ابن مسعود يصيح وهو في المجلس أو على المنبر : ألا أيها الناس ، إنه نزل بكم. إن الله يقول : {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم} ، لو جاءكم عذاب من السماء لم يبق منكم أحد، {أو من تحت أرجلكم}، لو خسف بكم الأرض أهلككم ، لم يبق منكم أحد، {أو يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض}، ألا إنه نزل بكم أسوأ الثلاث"[٩].

والثاني : أن العذاب الذي من فوقهم أئمة السوء ، والعذاب الذي من تحت أرجلهم عبيد السوء ، قاله ابن عباس[١٠] .

والثالث : أن الذي من فوقهم الطوفان ، والذي من تحت أرجلهم الريح ، حكاه علي بن عيسى[١١].

والرابع: أن العذاب الذي من فوقهم طوارق السماء التي ليست من أفعال العباد لأنها فوقهم ، والتي من تحت أرجلهم ما كان من أفعال العباد لأن الأرض تحت أرجل جميعهم . أفاده الماوردي[١٢].

الخامس:أن العذاب الذي من فوقهم : كالرَّجْم أو الطوفان، وما أشبه ذلك، والعذاب الذي من تحت أرجلهم: كالزلازل والخسف[١٣].

قال الطبري:" والصواب عندي ، قولُ من قال : عنى بالعذاب من فوقهم ، الرجمَ أو الطوفان وما أشبه ذلك مما ينزل عليهم من فوق رؤوسهم ومن تحت أرجلهم ، الخسفَ وما أشبهه. وذلك أن المعروف في كلام العرب من معنى «فوق» و«تحت»الأرجل ، هو ذلك ، دون غيره. وإن كان لما روي عن ابن عباس في ذلك وجه صحيح ، غير أن الكلام إذا تُنوزع في تأويله ، فحمله على الأغلب الأشهر من معناه أحق وأولى من غيره ، ما لم تأت حجة مانعة من ذلك يجب التسليم لها"[١٤].

قال ابن كثير:" وهو كما قال ابن جرير ، رحمه الله ، ويشهد له بالصحة قوله تعالى : { أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمُ الأرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ * أَمْ أَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ أَنْ يُرْسِلَ

---

(١) تفسير القرطبي:٩/٧.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٥):ص٤١٦/١١-٤١٧.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٦):ص٤١٧/١١.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٤):ص٤١٦/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٧):ص٤١٧/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري:٤١٨/١١.
(٧) انظر: غريب القرآن:١٥٤.
(٨) انظر: تفسير ابن كثير:٢٧٦/٣-٢٧٧.
(٩) اخرجه الطبري(١٣٣٤٨):ص٤١٧/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٩):ص٤١٧/١١.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٢٦/٢.
(١٢) انظر: النكت والعيون:١٢٦/٢.
(١٣) انظر: التفسير الميسر:١٣٥.
(١٤) تفسير الطبري:٤١٨/١١.

عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ * وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ} [الملك : ١٦ - ١٨] ، وفي الحديث : «ليكونن في هذه الأمة قَذْفٌ وخَسْفٌ ومَسْخٌ»(١)، وذلك مذكور مع نظائره في أمارات الساعة وأشراطها وظهور الآيات قبل يوم القيامة"(٢).

عن الحسن: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}، قال: هذه للمشركين"(٣).

وعن مجاهد: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}: لأمة محمد صلى الله عليه وسلم، فعفا عنهم"(٤).

عن جابر قال: "نزل على النبي صلى الله عليه وسلم: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}، قال: أعوذ بوجهك"(٥).

وعن أبي الزبير قال : "لما نزلت هذه الآية : {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم}، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أعوذ بالله من ذلك ! قال :{أو من تحت أرجلكم}، قال : أعوذ بالله من ذلك، قال :{أو يلبسكم شيعًا}، قال : هذه أيسر ! ولو استعاذه لأعاذه"(٦).

عن سعد بن أبي وقاص: "سئل النبي صلى الله عليه وسلم، عن هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ}، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أما إنها كائنة، لم يأت تأويلها بعد"(٧).

وعن أبي العالية، عن أبي بن كعب: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ} إلى قوله: {وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ}، قال: فهن أربع خلال، جاء منهم اثنتان بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة: ألبسوا شيعا، وأذيق بعضهم بأس بعض. وبقيت اثنتان هما لا بد واقعتان: الرجم، والخسف"(٨).

وعن الحسن في قوله:" {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا}، قال: حبست عقوبتها حتى عمل ذنبها، فما عمل ذنبها أرسلت عقوبتها"(٩).

عن عامر بن عبد الرحمن، قال: "أن ابن عباس كان يقول في هذه الآية: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}: فأئمة السوء"(١٠).

وعن حمزة بن إسماعيل قال: "سمعت أبي يقول: ثنا أبو سنان في قوله: {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ}، قال: أشرافكم وأمراؤكم"(١١).

قال ابن ابي حاتم:"وروي عن عمير بن هاني أنه قال: أمراء السوء"(١٢).

قوله تعالى:{أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا} [الأنعام : ٦٥]، أي:" أو يخلط أمركم عليكم فتكونوا فرقًا متناحرة"(١٣).

قال الطبري:يعني:" أو يخلطكم أهواء مختلفة وأحزابًا مفترقة"(١).

---

(١)رواه أحمد في مسنده (١٦٣/٢) من حديث عبد الله بن عمرو ، رضي الله عنه.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٧٦/٣-٢٧٧.
(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠٥):ص١٣١٠/٤.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠٦):ص١٣١٠/٤.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠٦):ص١٣٠٩/٤.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٣٧٧):ص٤٢٩/١١.
(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠٧):ص١٣٠٩/٤. واخرجه الترمذي(٣٠٦٦)، وقال:"هذا حديث غريبجدا".
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٩٨):ص١٣٠٩/٤.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٣٩٩):ص١٣٠٩/٤.
(١٠) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠٠):ص١٣٠٩/٤.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٠١):ص١٣١٠/٤.
(١٢) تفسير ابن ابي حاتم١٣١٠/٤.
(١٣) التفسير الميسر:١٣٥.

قال ابن قتيبة:" من الالتباس عليكم حتى تكونوا شيعا أي فرقا مختلفين"[٢].
قال ابو عبيدة:" يخلطهم، وهو من الالتباس، و«شيعا» : فرقا، واحدتها: شيعة"[٣].
قال ابن كثير:" أي : يجعلكم ملتبسين شيعا فرقا متخالفين"[٤].
قال القرطبي:" أي: يلبس عليكم أمركم، فحذف أحد المفعولين وحرف الجر، كما قال:{وَإِذَا كَالُوهُمْ أَوْ وَزَنُوهُمْ} [المطففين : ٣] ، وهذا اللبس بأن يخلط أمرهم فيجعلهم مختلفي الأهواء"[٥].

وقد ورد في الحديث المروي من طرق عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : "وستفترق هذه الأمة على ثلاث وسبعين فرقة ، كلها في النار إلا واحدة». وفي رواية: «قيل فمن الناجية؟ قال: ما أنا عليه وأصحابي». رواه جماعة من الأئمة[٦].

وفي قوله تعالى:{أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا} [الأنعام : ٦٥]، وجوه من التأويل:
أحدها : أنها : الأهواء والاختلاف ، قاله ابن عباس[٧].

وقال ابن زيد:"{ أو يلبسكم شيعًا} : الذي فيه الناس اليوم من الاختلاف ، والأهواء ، وسفك دماء بعضهم بعضًا"[٨].

وقال مجاهد:" الأهواء المفترقة"[٩]. وروي عن مقاتل بن حيان مثله[١٠].
وعن السدي : "{أو يلبسكم شيعًا}، قال : يفرق بينكم"[١١].
والثاني : أنها الفتن والاختلاف ، قاله مجاهد[١٢].
والثالث: أي: يسلط عليكم أتباعكم الذين كانوا أشياعكم ، فيصيروا لكم أعداء بعدما كانوا أولياء ، وهذا من أشد الانتقام أن يستعلي الأصاغر على الأكابر . أفاده الماوردي[١٣].
والرابع: وقيل: معنى{يلبسكم شيعا} يقوي عدوكم حتى يخالطكم وإذا خالطكم فقد لبسكم." شيعا" معناه فرقا[١٤].
والخامس: وقيل يجعلكم فرقا يقاتل بعضكم بعضا، وذلك بتخليط أمرهم وافتراق أمرائهم على طلب الدنيا[١٥].

عن قتادة : " {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا}، الآية. ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَلى ذات يوم الصبح فأطالها ، فقال له بعض أهله : يا نبي الله ، لقد صلّيت صلاة ما كنت تصلّيها ؟ قال : إنها صلاةُ رَغبة ورَهبة ، وإني سألت ربّي فيها ثلاثًا ، سألته أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غيرهم ، فيهلكهم ، فأعطانيها. وسألته أن لا يسلط على

---

(١) تفسير الطبري:٤١٩/١١.
(٢) غريب القرآن:١٥٤.
(٣) مجاز القرآن:١٩٤/١.
(٤) تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣.
(٥) تفسير القرطبي:٩/٧.
(٦)رواه الترمذي بسند ضعيف في كتاب الإيمان، باب ماجاء في افتراق هذه الأمة ح (٢٦٤١):ص ٢٦/٥. ولكنه ورد بروايات أخرى صحيحه كما في أبي داود، كتاب السنة باب شرح السنة ح (٤٥٩٦-٤٥٩٧):ص ٤/٥-٥. وابن ماجه في كتاب الفتن، باب افتراق الأمم ح (٣٩٩١):ص ١٣٢١/٥. وأحمد في المسند ١٠٢/٤،والحاكم في المستدرك ١٢٨/١. وتتبع الألباني طرقه في سلسلة الأحاديث الصحيحة رقم (٢٠٣، ٢٠٤).
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٥٥)، و(١٣٣٥٦):ص٤٢٠/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٣٥٤):ص٤١٩/١١-٤٢٠.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٣٥١):ص٤١٩/١١.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٣١١/٤. حكاه دون ذكر السند.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٣٥٢):ص٤١٩/١١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٦٢):ص٤٢٢/١١.
(١٣) انظر: النكت والعيون:١٢٦/٢.
(١٤) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧.
(١٥) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧.

أمتي السنة ، فأعطانيها. وسألته أن لا يلبسهم شيعًا ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعنيها. ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله"[١].

عن الزهري في قوله :{أو يلبسكم شيعًا }، قال : "راقب خباب بن الأرتّ ، وكان بدريًّا ، النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يصلي ، حتى إذا فرغ ، وكان في الصبح ، قال له : يا رسول الله ، لقد رأيتك تصلي صلاة ما رأيتك صليت مثلها ؟ قال : أجل ، إنها صلاة رَغَبٍ ورَهَبٍ ، سألت ربي ثلاث خصال ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة : سألته أن لا يهلكنا بما أهلك به الأمم ، فأعطاني. وسألته أن لا يسلط علينا عدوًّا ، فأعطاني. وسألته أن لا يلبسنا شيعًا ، فمنعني"[٢].

أخرج الطبري عن شداد بن أوس يرفعه إلى النبي صلى الله عليه وسلم : أنه قال : إن الله زَوى لي الأرض حتى رأيت مشارقها ومغاربَها ، وإنّ ملك أمتي سيبلغ ما زُوِي لي منها ، وإني أعطيت الكنزين الأحمرَ والأبيض ، وإني سألت ربّي أن لا يهلك قومي بسَنَةٍ عامة ، وأن لا يلبسهم شيعًا ، ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فقال : يا محمد ، إني إذا قضيت قضاءً فإنه لا يردّ ، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة ، ولا أسلّط عليهم عدوًّا ممن سواهم فيهلكهم بعامة ، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ، وبعضهم يقتل بعضًا ، وبعضهم يسبي بعضًا. فقال النبي صلى الله عليه وسلم : إني أخاف على أمتي الأئمة المضلين ، فإذا وضع السيف في أمتي ، لم يُرفع عنهم إلى يوم القيامة"[٣].

عن عمرو بن دينار قال : سمعت جابر بن عبد الله يقول : "لما نزلت على النبي صلى الله عليه وسلم : { قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم}، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك، {أو من تحت أرجلكم}، قال النبي صلى الله عليه وسلم : أعوذ بوجهك، {أو يلبسكم شيعًا}، قال : هذه أهون"[٤].

عن نافع بن خالد الخزاعي ، عن أبيه : "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم صلى صلاة خفيفة تامة الركوع والسجود ، فقال : قد كانت صلاة رغبة ورهبة ، فسألت الله فيها ثلاثًا ، فأعطاني اثنتين ، وبقي واحداة. سألت الله أن لا يصيبكم بعذاب أصاب به مَن قبلكم ، فأعطانيها. وسألت الله أن لا يسلّط عليكم عدوًّا يستبيح بيضتكم ، فأعطانيها. وسألته أن لا يلبسكم شيعًا ويذيق بعضكم بأس بعض ، فمنعنيها قال أبو مالك : فقلت له : أبوك سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ فقال : نعم ، سمعته يحدث بها القوم أنه سمعها مِن في رسول الله صلى الله عليه وسلم"[٥].

عن أبي العالية قال : "لما جاء جبريل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فأخبره بما يكون في أمته من الفرقة والاختلاف ، فشق ذلك عليه ، ثم دعا فقال : اللهم أظهر عليهم أفضلهم بقية"[٦].

روي عن أبي عبد الله المدني:«أو يلبسكم» بضم الياء، أي: يجللكم العذاب ويعمكم به، وهذا من اللبس بضم الأول، وقراءة الفتح من اللبس[٧].

قوله تعالى:{وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأْسَ بَعْضٍ} [الأنعام : ٦٥]، أي:" ويقتل بعضكم بعضًا"[٨].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٣٦٤):ص٤٢٢/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٧٠)،و(١٣٣٧٠):ص٤٢٥/١١-٤٢٦.
(٣) تفسير الطبري(١٣٣٦٨):ص٤٢٤/١١-٤٢٥.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٧٢):ص٤٢٧/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٦٧):ص٤٢٣/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٣٧٦):٤٢٩/١١.
(٧) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧.
(٨) التفسير الميسر:١٣٥.

قال الشاطبي:" تكفير البعض للبعض حتى يتقاتلوا، كما جرى للخوارج حين خرجوا على أهل السنة والجماعة"(١).

قال ابن قتيبة:أي:" بالقتال والحرب"(٢).

قال البغوي:" يعني: السيوف المختلفة، يقتل بعضكم بعضا"(٣).

قال الطبري:" يعني : بقتل بعضكم بيد بعض"(٤).

قال مقاتل:" يقول: يقتل بعضكم بعضا فلا يبقى منكم أحد إلا قليل"(٥).

قال ابن عباس:"يسلط بعضكم على بعض بالعذاب والقتل"(٦).

قال نوف:" هي والله للرجال بأيديها الحراب، يطعن بها حواصلهم"(٧).

قال السعدي:" أي: في الفتنة، وقتل بعضكم بعضا، فاحذروا من الإقامة على معاصيه، فيصيبكم من العذاب ما يتلفكم ويمحقكم، ومع هذا فقد أخبر أنه قادر على ذلك. ولكن من رحمته، أن رفع عن هذه الأمة العذاب من فوقهم بالرجم والحصب، ونحوه، ومن تحت أرجلهم بالخسف، ولكن عاقب من عاقب منهم، بأن أذاق بعضهم بأس بعض، وسلط بعضهم على بعض، عقوبة عاجلة يراها المعتبرون، ويشعر بها العالمون "(٨).

قوله تعالى:{انْظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ} [الأنعام : ٦٥]، أي:" انظر -أيها الرسول- كيف نُنوِّع حججنا الواضحات لهؤلاء المشركين"(٩).

قال القرطبي:" أي: نبين لهم الحجج والدلالات"(١٠).

قال ابن كثير:" أي : نبينها ونوضحها ونُقرِّهَا "(١١).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : انظر ، يا محمد ، بعين قلبك إلى ترديدنا حججنا على هؤلاء المكذبين بربّهم الجاحدين نعمه ، وتصريفناها فيهم"(١٢).

قال مقاتل:" انظر يا محمد {كيف نصرف الآيات} يعني: العلامات في أمور شتى من ألوان العذاب"(١٣).

قال السعدي:" {نُصَرِّفُ الآيَاتِ} أي: ننوعها، ونأتي بها على أوجه كثيرة وكلها دالة على الحق"(١٤).

قوله تعالى:{لَعَلَّهُمْ يَفْقَهُونَ} [الأنعام : ٦٥]، أي:" لعلهم يفهمون فيعتبروا"(١٥).

قال مقاتل:" عن الله فيخافوه ويوحدوه"(١٦).

قال ابن كثير:" أي : يفهمون ويتدبرون عن الله آياته وحججه وبراهينه"(١٧).

---

(١) الاعتصام:٩٠/١.
(٢) غريب القرآن:١٥٤.
(٣) تفسير البغوي:١٥٣/٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٢٠/١١.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٦/١.
(٦) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٤١٦):ص١٣١٢/٤.
(٧) اخرجه ابن ابي حاتم(٧٤١٧):ص١٣١٢/٤.
(٨) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٩) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٠) تفسير القرطبي:١١/٧.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣.
(١٢) تفسير الطبري:٤٣٣/١١.
(١٣) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٦/١.
(١٤) تفسير السعدي:٢٦٠.
(١٥) التفسير الميسر:١٣٥.
(١٦) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٦/١.
(١٧) تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣.

قال الطبري:" يقول : ليفقهوا ذلك ويعتبروه فيذّكروا ويزدجروا عما هم عليه مقيمون مما يسخطه الله منهم ، من عبادة الأوثان والأصنام ، والتكذيب بكتاب الله تعالى ذكره ورسوله صلى الله عليه وسلم"(١).

قال السعدي:" أي: يفهمون ما خلقوا من أجله، ويفقهون الحقائق الشرعية، والمطالب الإلهية"(٢).

قال القرطبي:" يريد بطلان ما هم عليه من الشرك والمعاصي"(٣).

عن الحسن : "أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال : سألت ربّي أربعًا ، فأعطيت ثلاثًا ومنعت واحداة : سألته أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غيرهم يستبيح بيضتهم ، ولا يسلط عليهم جوعًا ، ولا يجمعهم على ضلالة ، فأعطيتهن وسألته أن لا يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعتُ"(٤).

عن السدي قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "إني سألت ربي خصالا فأعطاني ثلاثًا ومنعني واحدة : سألته أن لا تكفر أمتي صفقة واحدة ، فأعطانيها. وسألته لا يُظهر عليهم عدوًّا من غيرهم ، فأعطانيها. وسألته أن لا يعذبهم بما عذب به الأمم من قبلهم ، فأعطانيها. وسألته أن لا يجعل بأسهم بينهم ، فمنعنيها"(٥).

عن أبي بكر ، عن الحسن، قال : "لما نزلت هذه الآية ، قوله : {ويذيق بعضكم بأس بعض}، قال الحسن : ثم قال لمحمد صلى الله عليه وسلم وهو يُشهده عليهم : {انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون}، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم فتوضأ ، فسأل ربه أن لا يرسل عليهم عذابًا من فوقهم أو من تحت أرجلهم ، ولا يلبس أمته شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض كما أذاق بني إسرائيل ، فهبط إليه جبريل عليه السلام فقال : يا محمد ، إنك سألت ربك أربعًا ، فأعطاك اثنتين ومنعك اثنتين : لن يأتيهم عذاب من فوقهم ، ولا من تحت أرجلهم يستأصلهم ، فإنهما عذابان لكل أمة اجتمعت على تكذيب نبيها وردِّ كتاب ربها ، ولكنهم يلبسهم شيعًا ويذيق بعضهم بأس بعض ، وهذان عذابان لأهل الإقرار بالكتاب والتصديق بالأنبياء ، ولكن يعذبون بذنوبهم ، وأوحي إليه : فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ ، يقول : من أمتك { أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْنَاهُمْ } من العذاب وأنت حي { فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ } [سورة الزخرف : ٤١ ، ٤٢]. فقام نبي الله صلى الله عليه وسلم فراجع ربه ، فقال : أيّ مصيبة أشدّ من أن أرى أمتي يعذب بعضها بعضًا! وأوحي إليه : { الم أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ } ، [سورة العنكبوت : ١ ، ٣] ، فأعلمه أن أمته لم تخصّ دون الأمم بالفتن ، وأنها ستبتلى كما ابتليت الأمم. ثم أنزل عليه : { قُلْ رَبِّ إِمَّا تُرِيَنِّي مَا يُوعَدُونَ رَبِّ فَلا تَجْعَلْنِي فِي الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ } [سورة المؤمنون : ٩٣ ، ٩٤] ، فتعوّذ نبي الله ، فأعاذه الله ، لم يرَ من أمته إلا الجماعة والألفة والطاعة. ثم أنزل عليه آية حذّر فيها أصحابه الفتنة ، فأخبره أنه إنما يُخَصّ بها ناسٌ منهم دون ناس ، فقال : { وَاتَّقُوا فِتْنَةً لا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْكُمْ خَاصَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ } ، [سورة الأنفال : ٢٥] ، فخصّ بها أقوامًا من أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم بعده ، وعصم بها أقوامًا"(٦).

واختلف أهل التأويل في نزول هذه الآية على ثلاثة أقوال :

---

(١) تفسير الطبري:٤٣٣/١١-٤٣٤.
(٢) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٣) تفسير القرطبي:١١/٧.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٧٣):ص٤٢٧/١١-٤٢٨.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٧٤):ص٤٢٨/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٣٧٥):ص٤٢٨/١١-٤٢٩.

أحدها : عني بها المسلمون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم ، وفيهم نزلت، وهذا قول عبدالله بن مسعود[١]، وابن عباس[٢]، والحسن[٣]، ومجاهد[٤]، وقتادة[٥]، وأبي العالية[٦]، والسدي[٧].

قال قتادة:" ذكر لنا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صَلى ذات يوم الصبح فأطالها ، فقال له بعض أهله : يا نبي الله ، لقد صليت صلاة ما كنت تصلَيها ؟ قال : إنها صلاةُ رَغبة ورَهبة ، وإني سألت ربّي فيها ثلاثا ، سألته أن لا يسلط على أمتي عدوًّا من غيرهم ، فيهلكهم ، فأعطانيها. وسألته أن لا يسلط على أمتي السنة ، فأعطانيها، وسألته أن لا يلبسهم شيعًا ولا يذيق بعضهم بأس بعض ، فمنعنيها. ذكر لنا أن نبيّ الله صلى الله عليه وسلم كان يقول : لا تزال طائفةٌ من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين ، لا يضرهم من خذلهم ، حتى يأتي أمر الله"[٨].

واختاره القرطبي، وقال:" وهو الصحيح، فإنه المشاهد في الوجود، فقد لبسنا العدو في ديارنا واستولى على أنفسنا وأموالنا، مع الفتنة المستولية علينا بقتل بعضنا بعضا واستباحة بعضنا أموال بعض نعوذ بالله من الفتن ما ظهر منها وما بطن"[٩].

والقول الثاني : أنها نزلت في المشركين ، وهذا قول الحسن في رواية أخرى[١٠]، وبه قال بعض المتأخرين [١١].

عن حفص بن سليمان ، عن الحسن في قوله : {قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم }، قال : هذا للمشركين ، {أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض}، قال : هذا للمسلمين"[١٢].

والثالث: أنها عامة في المسلمين والكفار. ذكره القرطبي[١٣].

قال الطبري:" والصواب من القول عندي أن يقال : إنّ الله تعالى ذكره توعَّد بهذه الآية أهلَ الشرك به من عبدة الأوثان ، وإياهم خاطبَ بها ، لأنها بين إخبار عنهم وخطاب لهم ، وذلك أنها تتلو قوله : {قل ينجيكم من ظلمات البر والبحر تدعونه تضرعًا وخُفْية لئن أنجانا من هذه لنكونن من الشاكرين قل الله ينجيكم منها ومن كل كرب ثم أنتم تشركون}، ويتلوها قوله : {وكذب به قومك وهو الحق}. وغير جائز أن يكون المؤمنون كانوا به مكذبين ، فإذا كان غير جائز أن يكون ذلك كذلك ، وكانت هذه الآية بين هاتين الآيتين ، كان بيِّنًا أن ذلك وعيدٌ لمن تقدّم وصف الله إياه بالشرك ، وتأخر الخبر عنه بالتكذيب لا لمن لم يجر له ذكر. غير أن ذلك وإن كان كذلك ، فإنه قد عم وعيدُه بذلك كلَّ من سلك سبيلهم من أهل الخلاف على الله وعلى رسوله ، والتكذيب بآيات الله من هذه وغيرها.

وأما الأخبار التي رويت عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :«سألت ربي ثلاثا ، فأعطاني اثنتين ، ومنعني واحدة»، فجائز أن هذه الآية نزلت في ذلك الوقت وعيدًا لمن ذكرتُ من المشركين ، ومن كان على منهاجهم من المخالفين ربهم ، فسأل رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه أن يعيذ أمته مما ابتلى به الأمم الذين استوجبوا من الله تعالى ذكره بمعصيتهم

---

(١) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٨):ص٤١٧/١١.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٤٩):ص٤١٧/١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٧٣):ص٤٢٧/١١-٤٢٨، و(١٣٣٧٥):ص٤٢٨/١١-٤٢٩.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٦٢):ص٤٢٢/١١.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٦٤):ص٤٢٢/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٦١):ص٤٢١/١١، و(١٣٣٧٦):ص٤٢٩/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٧٤):ص٤٢٨/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٣٦٤):ص٤٢٢/١١.
(٩) تفسير القرطبي:٩/٧-١٠.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٧٩):ص٤٣٠/١١.
(١١) انظر: النكت والعيون:١٢٨/٢.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٣٧٩):ص٤٣٠/١١.
(١٣) انظر: تفسير القرطبي:٩/٧.

إياه هذه العقوبات ، فأعاذهم بدعائه إياه ورغبته إياه ، من المعاصي التي يستحقون بها من هذه الخلال الأربع من العقوبات أغلظها ، ولم يُعذهم من ذلك ما يستحقون به اثنتين منها.

وأما الذين تأوّلوا أنه عني بجميع ما في هذه الآية هذه الأمة ، فإني أراهم تأوّلوا أن في هذه الأمة من سيأتي من معاصي الله وركوب ما يُسخط الله ، نحو الذي ركب مَن قبلهم من الأمم السالفة ، من خلافه والكفر به ، فيحلّ بهم مثل الذي حلّ بمن قبلهم من المثلات والنقمات ، وكذلك قال أبو العالية ومن قال بقوله : «جاء منهن اثنتان بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة. وبقيت اثنتان ، الخسف والمسخ »، وذلك أنه رُوي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «سيكون في هذه الأمة خسف ومسخ وقذف»[١]، وأن قومًا من أمته سيبيتون على لهو ولعب ، ثم يصبحون قردة وخنازير[٢]، وذلك إذا كان ، فلا شك أنه نظير الذي في الأمم الذين عتوا على ربهم في التكذيب وجحدوا آياته. وقد روي نحو الذي روي عن أبي العالية ، عن أبيّ: «قل هو القادر على أن يبعث عليكم عذابًا من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعًا " ، قال : أربع خِلال ، وكلهن عذاب ، وكلهن واقعٌ قبل يوم القيامة ، فمضت اثنتان بعد وفاة النبيّ صلى الله عليه وسلم بخمس وعشرين سنة ، ألبسوا شيعًا ، وأذيق بعضهم بأس بعض. وثنتان واقعتان لا محالة : الخسف والرجم»[٣]."[٤].

الفوائد:

١- الله تعالى قادر على أن يأخذ عباده بعذابٍ يحيط بهم، إذ أمر الله - تعالى - رسوله - صلى الله عليه وسلم - أن يخوِّف الناس عذابه وانتقامه، فقال:{ {قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُمْ بَأسَ بَعْضٍ}.

٢- من اسمائه تعالى:«القادر»: بمعنى "أنه قادر على كل شيء، أراده: لا يعترضه عجز ولا فتور"[٥].

٣- التحذير من الاختلاف المفضي إلى الانقسام والتكتل.

٤- الرجوع إلى الله تعالى لانتقاء العقوبات والمصائب.

٥- ومنها: أن مصائب الدنيا فإنها تكفر كما تواترت بذلك النصوص، ويؤخذ من قوله:{ أويلبسكم شيعا ويذيق بعضكم بأس بعض}، فهذا أمر لا بد منه للأمة عموما، والصحابة رضي الله عنهم كانوا أقل فتنا من سائر من بعدهم فإنه كلما تاخر العصر عن النبوة كثر التفرق والخلاف ولهذا لم يحدث في خلافة عثمان بدعة ظاعرة فلما قتل وتفرق الناس حدثت بدعتان متقابلتان بدعة الخوارج المكفرين لعلي وبدعة الرافضة المدعين لإمامته وعصمته أو نبوته أو إلاهيته.

ثم لما كان في آخر عصر الصحابة في إمارة ابن الزبير وعبد الملك حدثت بدعة المرجئة والقدرية.

---

(١)هذا حديث عائشة ، رواه الترمذي في الفتن بإسناده ، ونصه : " عن عائشة قالت : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : يكون في آخر هذه الأمة خسفٌ ومَسْخٌ وقَذْفٌ. قالت : قلت : يا رسول الله ، أنهلك وفينا الصالحون ؟ قال : نعم ، إذا ظهر الخَبَثُ " ، قال الترمذي : " هذا حديثٌ غريبٌ من حديث عائشة ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وعبد الله بن عمر ، تكلم فيه يحيى بن سعيد من قبل حفظه " يعني راوي الخبر : " عبد الله بن عمر ، عن عبيد الله ، عن القاسم بن محمد ، عن عائشة ".

(٢)روى البخاري (الفتح ١٠ : ٤٧ - ٤٩) من حديث أبي مالك وأبي عامر الأشعري قال : " قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ليكونن من أُمتي قومٌ يستحِلُون الحِر (أي : الزنا) والحرير والخمر والمعازف ، وليزلنَّ أقوامٌ إلى جنب عَلَم ، تروح عليهم سارحةٌ لهم ، فيأتيهم رجلٌ لحاجته ، فيقولون : ارجع إلينا غدًا! فيبيِّتهم الله تعالى ويضع العَلَم ، ويمسخ آخرين قِردةً وخنازير إلى يوم القيامة " .

(٣) أخرجه الطبري(١٣٣٨٠):ص١١/٤٣٢.

(٤) تفسير الطبري:١١/٤٣٠-٤٣٢.

(٥) شأن الدعاء للخطابي:٨٥.

ثم لما كان في أول عصر التابعين في أواخر الخلافة الأموية حدثت بدعة الجهمية والمشبهة الممثلة.

ولم يكن علي عهد الصحابة شيء من ذلك.

وكذلك فتن السيف فإن الناس كانوا في ولاية معاوية رضي الله عنه متفقين يغزون العدو فلما مات معاوية قتل الحسين وحوصر ابن الزبير بمكة ثم جرت فتنة الحرة بالمدينة ثم لما مات يزيد جرت فتنة بالشام بين مروان والضحاك بمرج راهط ثم وثب المختار على ابن زياد فقتله وجرت فتنة ثم جاء مصعب بن الزبير فقتل المختار وجرت فتنة ثم ذهب عبد الملك إلى مصعب فقتله وجرت فتنة وأرسل الحجاج إلى ابن الزبير فحاصره مدة ثم قتله وجرت فتنة ثم لما تولى الحجاج العراق خرج عليه محمد بن الأشعث مع خلق عظيم من العراق وكانت فتنة كبيرة.

فهذا كله بعد موت معاوية-رضي الله عنه-.

ثم جرت فتنة ابن المهلب بخراسان وقتل زيد بن علي بالكوفة وقتل خلق كثير آخرون.

ثم قام أبو مسلم وغيره بخراسان وجرت حروب وفتن يطول وصفها فلم يكن من ملوك المسلمين ملك خيرا من معاوية ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيرا منهم في زمن معاوية إذا نسبت أيامه إلى أيام من بعده، وأما إذا نسبت إلى أيام أبي بكر وعمر ظهر التفاضل، ومعاوية على ذنوبه لم يأت بعده مثله ملك.

فعن قتادة قال: "لو أصبحتم في مثل عمل معاوية لقال أكثركم هذا المهدي"(١).

وعن مجاهد أنه قال: "لو رأيتم معاوية لقلتم هذا المهدي"(٢).

وعن الزهري قال: "عمل معاوية بسيرة عمر بن الخطاب سنين لا يخرم منها شيئاً"(٣).

وعن الأعمش أنه ذكر عنده عمر بن عبد العزيز وعدله فقال :"فكيف لو أدركتم معاويه؟ قالوا: يا أبا محمد يعني في حلمه؟ قال: لا والله، ألا بل في عدله"(٤).

وسئل المعافى معاوية أفضل أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال: (كان معاوية أفضل من ستمائه مثل عمر بن عبد العزيز"(٥).

والآثار عن السلف في ذلك كثيرة، وإنما سقت هنا بعضها.

كما أثنى على معاوية - رضي الله عنه - العلماء المحققون في السير والتاريخ، ونقاد الرجال:

يقول ابن قدامة المقدسي: «ومعاوية خال المؤمنين، وكاتب وحي الله، وأحد خلفاء المسلمين -رضي الله تعالى عنهم-» (٦).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: «واتفق العلماء على أن معاوية أفضل ملوك هذه الأمة، فإن الأربعة قبله كانوا خلفاء نبوة، وهو أول الملوك، كان ملكه ملكاً ورحمة»(٧).

وقال: «فلم يكن من ملوك المسلمين خير من معاوية، ولا كان الناس في زمان ملك من الملوك خيراً منهم في زمان معاوية» (٨).

---

(١)أخرجه الخلال في السنة ٤٣٨/١.
(٢)المصدرنفسه. وأورده ابن كثير في البداية والنهاية ١٣٧/٨.
(٣)أخرجه الخلال في السنة ٤٤٤/١،وقال المحقق: إسناده صحيح.
(٤)أخرجه الخلال في السنة ٤٣٧/١.
(٥)المصدرنفسه ٤٣٥/١
(٦)لمعة الاعتقاد الهادي إلى سبيل الرشاد:ص٣٣.
(٧)مجموع الفتاوى ٤٧٨/٤.
(٨)منهاج السنة ٢٣٢/٦.

وقال ابن كثير في ترجمة معاوية - رضي الله عنه -: «وأجمعت الرعايا على بيعته في سنة إحدى وأربعين ... فلم يزل مستقلاً بالأمر في هذه المدة إلى هذه السنة التي كانت فيها وفاته، والجهاد في بلاد العدو قائم، وكلمة الله عالية، والغنائم ترد إليه من أطراف الأرض، والمسلمون معه في راحة وعدل، وصفح وعفو»[١].

القرآن

{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ (٦٦)} [الأنعام : ٦٦]

التفسير:

وكذَّب بهذا القرآن الكفارُ مِن قومك أيها الرسول، وهو الكتاب الصادق في كل ما جاء به. قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول الله أبلغكم ما أرسلت إليكم.

قوله تعالى:{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ} [الأنعام : ٦٦]، أي:" وكذَّب بهذا القرآن الكفارُ مِن قومك أيها الرسول، وهو الكتاب الصادق في كل ما جاء به"[٢].

قال السدي:" يقول : كذبت قريش بالقرآن ، وهو الحق"[٣].

قال السعدي:" {وَكَذَّبَ بِهِ} أي: بالقرآن {قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ} الذي لا مرية فيه، ولا شك يعتريه"[٤].

قال البغوي:" أي: بالقرآن، وقيل: بالعذاب"[٥].

قال ابن كثير:" أي : بالقرآن الذي جئتهم به ، والهدى والبيان. { قَوْمُكَ } يعني : قريشا { وَهُوَ الْحَقُّ } أي : الذي ليس وراءه حق"[٦].

قال الطبري:يقول" وكذب ، يا محمد ، قومك بما تقول وتخبر وتوعد من الوعيد، والوعيدُ الذي أوعدناهم على مقامهم على شركهم : من بعث العذاب من فوقهم ، أو من تحت أرجلهم ، أو لبسهم شيعًا ، وإذاقة بعضهم بأس بعض {الحق}الذي لا شك فيه أنه واقع إن هم لم يتوبوا وينيبوا مما هم عليه مقيمون من معصية الله والشرك به ، إلى طاعة الله والإيمان به"[٧].

قوله تعالى:{قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} [الأنعام : ٦٦]، أي:" . قل لهم: لست عليكم بحفيظ ولا رقيب، وإنما أنا رسول الله أبلغكم ما أرسلت إليكم"[٨].

قال السدي:" وأما «الوكيل» ، فالحفيظ "[٩].

قال الطبري:" يقول : قل لهم ، يا محمد ، لست عليكم بحفيظ ولا رقيب ، وإنما رسول أبلغكم ما أرسلت به إليكم "[١٠].

قال البغوي:أي:" برقيب، وقيل: بمسلط ألزمكم الإسلام شئتم أو أبيتم، إنما أنا رسول"[١١].

قال ابن كثير:" أي : لست عليكم بحفيظ ، ولست بموكل بكم ، كقوله { وَقُلِ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيَكْفُرْ } [الكهف : ٢٩] أي : إنما علي البلاغ ، وعليكم السمع

---

(١)البداية والنهاية ١٢٢/٨.
(٢) التفسير الميسر:١٣٥.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٣٨١):ص٤٣٥/١١.
(٤) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٥) تفسير البغوي:١٥٤/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣.
(٧) تفسير الطبري:٤٣٤/١١.
(٨) التفسير الميسر:١٣٥.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٣٨١):ص٤٣٥/١١.
(١٠) تفسير الطبري:٤٣٤/١١.
(١١) تفسير البغوي:١٥٤/٣.

والطاعة ، فمن اتبعني ، سعد في الدنيا والآخرة ، ومن خالفني ، فقد شقي في الدنيا والآخرة"[^1].

قال السعدي:" {قُلْ لَسْتُ عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ} أحفظ أعمالكم، وأجازيكم عليها، وإنما أنا منذر ومبلغ"[^2].

الفوائد:

١- من فوائد الآية: شهادة الله بأن هذا القرآن المنزَّل على هذا النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هو الحق من الله[^3]، حيث سمّى الله تعالى القرآن حقاً، فقال:{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُّ }.

٢- أن الكفر باعتبار الباعث القلب هو التكذيب الذي ينافي التصديق القلبي ويضاده، والتكذيب معناه النسبة إلى الكذب، قال تعالى: {وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ وَهُوَ الْحَقُ}، ومنه قوله: {وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا يَمَسُّهُمُ الْعَذَابُ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ} [الأنعام : ٤٩]، وقال: {الَّذِينَ كَذَّبُوا بِالْكِتَابِ وَبِمَا أَرْسَلْنَا بِهِ رُسُلَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ} [غافر : ٧٠].

٣- ذمّ بعضهم العرب لقوله:{وَكَذَّبَ بِهِ قَوْمُكَ}، وجوابه: إن كل العرب لم يكذبوا، فقوم من العرب قد صدقوا.

القرآن

{لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (٦٧)} [الأنعام : ٦٧]

التفسير:

لكل خبر قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليها، فيتبيَّن الحق من الباطل، وسوف تعلمون -أيها الكفار- عاقبة أمركم عند حلول عذاب الله بكم.

قوله تعالى:{لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ} [الأنعام : ٦٧]، أي:" لكل خبر قرار يستقر عنده، ونهاية ينتهي إليها، فيتبيَّن الحق من الباطل"[^4].

قال السعدي:" أي: وقت يستقر فيه، وزمان لا يتقدم عنه ولا يتأخر"[^5].

قال الزجاج:" أي: لأخذكم بالإيمان على جهة الحرب، واضطراركم إليه ومقاتلتكم عليه، {مستقر}، أي وقت"[^6].

قال الطبري:" يقول : لكل خبر مستقر ، يعني: قرار يستقرّ عنده ، ونهاية ينتهي إليه ، فيتبين حقه وصدقه ، من كذبه وباطله"[^7].

قال ابن كثير:" أي : لكل خبر وقوع ، ولو بعد حين ، كما قال : { وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ } [ص : ٨٨] ، وقال { لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ } [الرعد : ٣٧]، وهذا تهديد ووعيد أكيد ؛ ولهذا قال بعده : { وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ }"[^8].

قال البغوي:أي:لكل" خبر من أخبار القرون، حقيقة ومنتهى ينتهي إليه فيتبين صدقه من كذبه وحقه من باطله، إما في الدنيا وإما في الآخرة"[^9].

قال القرطبي:أي:" لكل خبر حقيقة، أي لكل شي وقت يقع فيه من غير تقدم وتأخر. وقيل: أي لكل عمل جزاء"[^10].

---

[^1]: تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣.
[^2]: تفسير السعدي:٢٦٠.
[^3]: انظر: أضواء البيان:٧/ ٢٤٦.
[^4]: التفسير الميسر:١٣٥.
[^5]: تفسير السعدي:٢٦٠.
[^6]: مهعاني القرآن:٢٦٠/٢.
[^7]: تفسير الطبري:٤٣٤/١١.
[^8]: تفسير ابن كثير:٢٧٧/٣-٢٧٨.
[^9]: تفسير البغوي:١٥٤/٣.
[^10]: تفسير القرطبي:١١/٧.

عن ابن عباس قوله : " {لكل نبأ مستقر}، يقول : حقيقة"[١].

وفي رواية اخرى عنه- أيضا-:{لكل نبأ مستقر}" فعل وحقيقة ، ما كان منه في الدنيا وما كان منه في الآخرة"[٢].

وعن مجاهد:" { لكل نبأ مستقر}، لكل نبأ حقيقة ، إما في الدنيا وإما في الآخرة"[٣].

وقال السدي:" وأما {لكل نبأ مستقر}، فكان نبأ القرآن استقر يوم بدر بما كان يَعِدهم من العذاب"[٤].

قال مقاتل:" يقول لكل حديث حقيقة ومنتهى يعنى: العذاب منه في الدنيا وهو القتل ببدر، ومنه في الآخرة نار جهنم"[٥].

وقال الكلبي: " لكل قول أو فعل حقيقة ما كان منه في الدنيا فستعرفونه. وما كان منه في الآخرة فسوف يبدو لهم "[٦].

قوله تعالى:{وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ} [الأنعام : ٦٧]، أي:" وسوف تعلمون -أيها الكفار- عاقبة أمركم عند حلول عذاب الله بكم"[٧].

قال السعدي: أي: "ما توعدون به من العذاب"[٨].

قال الطبري:" يقول : وسوف تعلمون ، أيها المكذبون بصحة ما أخبركم به من وعيد الله إياكم ، أيها المشركون ، حقيقته عند حلول عذابه بكم ، فرأوا ذلك وعاينوه ، فقتلهم يومئذ بأيدي أوليائه من المؤمنين "[٩].

قال الزجاج:" جائز أن يكون وعدهم بعذاب الآخرة، وجائز أن يكون وعدهم بالحرب، وأخذهم بالإيمان شاءوا أو أبوا، إلا أن يعطي أهل الكتاب الجزية"[١٠].

قال الطبري:"وكان الحسن يتأوّل في ذلك أنه الفتنة التي كانت بين أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم"[١١] .

عن جعفر بن حيان ، عن الحسن أنه قرأ : " {لكل نبأ مستقر}، قال : حبست عقوبتها ، حتى إذا عمل ذنبها أرسلت عقوبتها"[١٢].

ونقل القرطبي عن في قوله: {لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَر}، قال: "هذا وعيد من الله تعالى للكفار، لأنهم كانوا لا يقرون بالبعث"[١٣].

الفوائد:

١- أن قوله تعالى:{لكل نبأ مستقر} أجري مجرى المثل، وكذا {سوف تعلمون}.
٢- أن الله سبحانه وتعالى على كل شيء قدير، جعل لكل شيء أجلا ووقتا، وما عجز الأوائل عن اكتشاف ما اكتشفه المتأخرون إلا لأن الله عز وجل جعل لكل شيء أجلا[١٤].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٣٨٣):ص١١/٤٣٥.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٨٤):ص١١/٤٣٥.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٣٨٢):ص١١/٤٣٥.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٨١):ص١١/٤٣٥.
(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:١/٥٦٦-٥٦٧.
(٦) الكشف والبيان:٤/١٥٦، وتفسير البغوي:٣/١٥٤.
(٧) التفسير الميسر:١٣٥.
(٨) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٩) تفسير الطبري:١١/٤٣٤.
(١٠) مهعاني القرآن:٢/٢٦٠.
(١١)تفسير الطبري:١١/٤٣٥.
(١٢) اخرجه الطبري(١٣٣٨٥):ص١١/٤٣٥.
(١٣) تفسير القرطبي:٧/١١.
(١٤)انظر: إتحاف الجماعة:٢ / ٢٩٧، والإرشاد إلى صحيح الاعتقاد:٢١٤.

٣- قال الثعلبي: "ورأيت في بعض التفاسير إن هذه الآية نافعة من وجع الضرس إذا كتبت على كاغد ووضع عليه السن"(١).

القرآن

{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٦٨)} [الأنعام : ٦٨]

التفسير:

وإذا رأيت -أيها الرسول- المشركين الذين يتكلمون في آيات القرآن بالباطل والاستهزاء، فابتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر، وإن أنساك الشيطان هذا الأمر فلا تقعد بعد تذكرك مع القوم المعتدين، الذين تكلموا في آيات الله بالباطل.

سبب النزول:

عن ابن جريج عن مجاهد قوله:"{وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا}، قال : يستهزئون بها. قال : نُهي رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يقعد معهم إلا أن ينسى ، فإذا ذكر فليقم. فذلك قوله : {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين }، قال ابن جريج : كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزءوا ، فنزلت : " وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم " ، الآية"(٢).

قوله تعالى:{وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا} [الأنعام : ٦٨]، أي:" وإذا رأيت -أيها الرسول- المشركين الذين يتكلمون في آيات القرآن بالباطل والاستهزاء"(٣).

قال ابو مالك:"يعني: المشركين"(٤).

عن أبي مالك وسعيد بن جبير في قوله : "{وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا}، قال : الذين يكذبون بآياتنا"(٥). وروي عن مجاهد مثل ذلك(٦).

قال ابن كثير:{ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا}،" أي : بالتكذيب والاستهزاء"(٧).

قال القرطبي:" بالتكذيب والرد والاستهزاء"(٨).

قال الطبري:" : يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : وإذا رأيت ، يا محمد ، المشركين الذين يخوضون في آياتنا التي أنزلناها إليك ، ووحينا الذي أوحيناه إليك ، و«خوضهم فيها»، كان استهزاءَهم بها ، وسبَّهم من أنزلها وتكلم بها ، وتكذيبهم بها"(٩).

قال السعدي: " المراد بالخوض في آيات الله: التكلم بما يخالف الحق، من تحسين المقالات الباطلة، والدعوة إليها، ومدح أهلها، والإعراض عن الحق، والقدح فيه وفي أهله، فأمر الله رسوله أصلا وأمته تبعا، إذا رأوا من يخوض بآيات الله بشيء مما ذكر، بالإعراض عنهم، وعدم حضور مجالس الخائضين بالباطل، والاستمرار على ذلك، حتى يكون البحث والخوض في كلام غيره، فإذا كان في كلام غيره، زال النهي المذكور.

فإن كان مصلحة كان مأمورا به، وإن كان غير ذلك، كان غير مفيد ولا مأمور به، وفي ذم الخوض بالباطل، حث على البحث، والنظر، والمناظرة بالحق"(١).

---

(١) الكشف والبيان:١٥٧/٤، ونقله عنه القرطبي في تفسيره:١١/٧.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٣٩٣):ص٤٣٨/١١.
(٣) التفسير الميسر:١٣٥.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٩٥):ص٤٣٨/١١.
(٥) اخرجه الطبري(١٣٣٨٨):ص٤٣٧/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٣٩٠):ص٤٣٧/١١.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٧٨/٣.
(٨) تفسير القرطبي:١٢/٧.
(٩) تفسير الطبري:٤٣٦/١١.

قال أبو جعفر:" لا تجالسوا أهل الخصومات ، فإنهم الذين يخوضون في آيات الله"[2].

عن ابن عباس قوله : " {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا }، وقوله : { الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا } [سورة الأنعام : ١٥٩] ؛ وقوله : { وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ } [سورة آل عمران : ١٠٥] ؛ وقوله : { أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } [سورة الشورى : ١٣] ، ونحو هذا في القرآن ، قال : أمر الله المؤمنين بالجماعة ، ونهاهم عن الاختلاف والفرقة ، وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمِراء والخصومات في دين الله"[3].

قال القرطبي:" الخطاب مجرد للنبي صلى الله عليه وسلم. وقيل: إن المؤمنين داخلون في الخطاب معه، وهو صحيح، فإن العلة سماع الخوض في آيات الله، وذلك يشملهم وإياه. وقيل المراد به النبي صلى الله عليه وسلم وحد، لأن قيامه عن المشركين كان يشق عليهم، ولم يكن المؤمنون عندهم كذلك، فأمر أن ينابذهم بالقيام عنهم إذا استهزءوا وخاضوا ليتأدبوا بذلك ويدعوا الخوض والاستهزاء"[4].

و«الخوض»: "أصله في الماء، ثم استعمل بعد في غمرات الأشياء التي هي مجاهل، تشبيها بغمرات الماء فاستعير من المحسوس للمعقول.

وقيل: هو مأخوذ من :الخلط. وكل شي خضته فقد خلطته، ومنه خاض الماء بالعسل خلطه"[5].

قوله تعالى:{فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ} [الأنعام : ٦٨]، أي:" فابتعد عنهم حتى يأخذوا في حديث آخر"[6].

قال ابن كثير:" أي : حتى يأخذوا في كلام آخر غير ما كانوا فيه من التكذيب "[7].

قال الطبري:" : يقول : فصد عنهم بوجهك ، وقم عنهم ، ولا تجلس معهم، حتى يأخذوا في حديث غير الاستهزاء بآيات الله من حديثهم بينهم "[8].

قال ابن العربي:" قال علماؤنا: أمر الله سبحانه نبيه - صلى الله عليه وسلم - بالإعراض عن المشركين الذين يخوضون في آيات الله، وفي ذلك نزلت.

و«الخوض» هو المشي فيما لا يتحصل حقيقة، من الخائض في الماء الذي لا يدرى باطنه، استعير من المحسوس للمعقول على ما نبهنا عليه في الأصول، وحرم الله سبحانه المشاركة لهم في ذلك على رسوله بالمجالسة، سواء تكلم معهم في ذلك أو كرهه.

وهذا دليل على أن مجالسة أهل المنكر لا تحل"[9].

قال القرطبي:" فأدب الله عز وجل نبيه -صلى الله عليه وسلم - بهذه الآية، لأنه كان يقعد إلى قوم من المشركين يعظهم ويدعوهم فيستهزءون بالقرآن، فأمره الله أن يعرض عنهم إعراض منكر. ودل بهذا على أن الرجل إذا علم من الآخر منكرا وعلم أنه لا يقبل منه فعليه أن يعرض عنه إعراض منكر ولا يقبل عليه"[10].

قوله تعالى:{وَإِمَّا يُنْسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ} [الأنعام : ٦٨]، أي:" وإن أنساك الشيطان هذا الأمر"[11].

قال ابو مالك:" إن نسيت فذكرتَ فلا تجلس معهم "[1].

---

(١) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٢) اخرجه الطبري(١٣٣٩١):ص٤٣٧/١١.
(٣) اخرجه الطبري(١٣٣٩٢):ص٤٣٨/١١.
(٤) تفسير القرطبي:١٢/٧.
(٥) تفسير القرطبي:١٢/٧.
(٦) التفسير الميسر:١٣٥.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٧٨/٣.
(٨) تفسير الطبري:٤٣٦/١١.
(٩) أحكام القرآن:٢٦٠/٢.
(١٠) تفسير القرطبي:١٢/٧.
(١١) التفسير الميسر:١٣٥.

قال السدي:" يقول : نَهْيَنَا فتقعد معهم ، فإذا ذكرت فقم"[٢].
قال السعدي:" أي: بأن جلست معهم، على وجه النسيان والغفلة"[٣].
قال الطبري:" يقول : وإن أنساك الشيطان نهينا إياك عن الجلوس معهم والإعراض عنهم في حال خوضهم في آياتنا ، ثم ذكرت ذلك ، فقهم عنهم"[٤].
قال ابن كثير:" والمراد بهذا كلّ فرد ، فرد من آحاد الأمة ، ألا يجلس مع المكذبين الذين يحرفون آيات الله ويضعونها على غير مواضعها ، فإن جلس أحد معهم ناسيًا "[٥].
قال القرطبي:" المعنى: يا محمد إن أنساك الشيطان أن تقوم عنهم فجالستهم بعد النهي، قيل: هذا خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته، ذهبوا إلى تبرئته عليه السلام من النسيان. وقيل: هو خاص به، والنسيان جائز عليه"[٦].
قال ابن العربي:" هذا خطاب من الله سبحانه لنبيه - صلى الله عليه وسلم - والمراد بذلك الأمة، وكأن القائلين بذلك ذهبوا إلى تنزيه النبي - صلى الله عليه وسلم - عن النسيان وهم كبار الرافضة، قبحهم الله، وإن عذرنا أصحابنا في قولهم: إن قوله تعالى: {لئن أشركت ليحبطن عملك} [الزمر: ٦٥]، خطاب للأمة باسم النبي - صلى الله عليه وسلم -؛ لاستحالة الإشراك عليه فلا عذر لهم في هذا لجواز النسيان على النبي - صلى الله عليه وسلم - قال الله تعالى: {سنقرئك فلا تنسى} [الأعلى: ٦].
وقال - صلى الله عليه وسلم - مخبرا عن نفسه: «إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون»[٧].
وقال وقد سمع قراءة رجل يقرأ: «لقد أذكرني كذا وكذا آية كنت أنسيتها»[٨].
وقال في ليلة القدر: «تلاحى رجلان فنسيتها»[٩].
وقال: « بئسما لأحدكم أن يقول نَسِيْتُ آية كيت وكيت بل هو نُسِّيَ استذكروا القرآن فوالذى نفسى بيده لهو أشد تفصيًا من صدور الرجال من النعم من عقلها»[١٠]، كراهية إضافة اللفظ إلى القرآن؛ لقوله تعالى: {كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى} [طه: ١٢٦].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٣٩٥):ص٤٣٨/١١.
(٢) اخرجه الطبري(١٣٣٨٩):ص٤٣٧/١١.
(٣) تفسير السعدي:٢٦٠.
(٤) تفسير الطبري:٤٣٦/١١.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٧٨/٣.
(٦) تفسير القرطبي:١٤/٧.
(٧)الروافض يزعمون أن الأئمة كالأنبياء في العصمة ولا يقع منهم سهو ولاخطأ ، وهذامن افتراءاتهم فإن النبي صلى الله علي هوسلم وقع منه السهو في الصلاة،وقال بعد سجوده للسهو " إنما أنا بشر مثلكم أنسى كما تنسون، فإذا نسيت فذكرونى". أخرجه البخارى (١٥٦/١، رقم ٣٩٢) ، ومسلم (٤٠٠/١، رقم ٥٧٢) ، وأبو داود (٢٦٨/١، رقم ١٠٢٠) ، والنسائى (٢٨/٣، رقم ١٢٤٢) ، وابن ماجه (٣٨٢/١، رقم ١٢١١) .
ولا يستطيع الروافض أن يوردوا على إثبات هذه العصمة دليلاً صحيحاً بالنسبة لأئمتهم، مع العلم أن أئمتهم في. عمهم لم يتول منهم الأمر سوى علي - رضي الله عنه - وكذا الحسن فترة وجيزة، فعصمتهم المزعومة لا أثر لها في الأمة على فرض وجودها. انظر: قولهم في العصمة كتاب حق اليقين في معرفة أصول الدين لعبد الله شبر ص ١٩١ - ٢٥٥، ونقل شيخ الإسلام ذلك عن صاحب منهاج الكرامة ورد شيخ الإسلام عليه في منهاج السنة النبوية ٤٥٧/٦ - ٤٧٤ ٤٧٤.
(٨)البخاري "٩/ ٩٥" في فضائل القرآن، باب نسيان القرآن، وفي باب من لم ير بأسا أن يقول سورة البقرة وسورة كذا وكذا "٩/ ٨٧".
(٩) في الحديث:"تَلاَحَى رَجُلاَن، فَرُفِعَتْ".
أي: تنازع وتخاصم؛«فرفعت»، أي: رفع بيانها أوعلم تعيينها من قبلي،الزرقاني ٢/ ٢٨٩.
والحديث صحيح: أخرجه مالك في الموطأ (٢١٣) ،والنسائي في الكبرى (تحفة الأشراف (٧٣٨).

(١٠)أخرجه أحمد (٤١٧/١، رقم ٣٩٦٠) ، والبخارى (١٩٢١/٤، رقم ٤٧٤٤) ، ومسلم (٥٤٤/١، رقم ٧٩٠) ، والنسائى فى الكبرى (١٩/٥، رقم ٨٠٤٠) ، وابن حبان (٤١/٣، رقم ٧٦٣) . وأخرجه أيضًا: الطيالسى

وفائدته: أن لفظ «نسيت» ينطلق على تركت انطلاقا طبقيا، ثم نقول في تقسيم وجهي متعلقه سهوت إذا كان تركه عن غير قصد، وعمدت إذا كان تركه عن قصد؛ ولذلك قال علماؤنا: إن قوله: « إذا نسى أحدُكم صلاةً أو نام عنها فليصلها إذا ذكرها»(١) عام في وجهي النسيان العمد والسهو.

وقوله: إذا ذكرها: يعني أن الساهي يطرأ عليه الذكر فيتوجه عليه الخطاب، وأن العامد ذاكر أبدا فلا يزال الخطاب يتوجه عليه أبدا"(٢).

وقرأ ابن عباس وابن عامر«ينسينك» بتشديد السين على التكثير، يقال: نسى وأنسى بمعنى واحد لغتان، قال الشاعر(٣):

قالت سليمى أتسري اليوم أم تقل وقد ينسيك بعض الحاجة الكسل

وقال امرؤ القيس(٤):

ومثلك بيضاء العوارض طفلة لعوب تنسى أذا قمت سربالي(٥).

قوله تعالى:{فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ} [الأنعام : ٦٨]، أي:" فلا تقعد بعد تذكرك مع القوم المعتدين، الذين تكلموا في آيات الله بالباطل"(٦).

قال الطبري:أي:" ولا تقعد بعد ذكرك ذلك مع القوم الظالمين الذين خاضوا في غير الذي لهم الخوضُ فيه بما خاضوا به فيه"(٧).

قال القرطبي:" أي إذا ذكرت فلا تقعد {مع القوم الظالمين}، يعني: المشركين. و«الذكرى»: اسم للتذكير"(٨).

قال ابن كثير:أي:" بعد التذكر، وهذه الآية هي المشار إليها في قوله : { وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ } الآية [النساء : ١٤٠] أي : إنكم إذا جلستم معهم وأقررتموهم على ذلك ، فقد ساويتموهم في الذي هم فيه "(٩).

قال السعدي:" يشمل الخائضين بالباطل، وكل متكلم بمحرم، أو فاعل لمحرم، فإنه يحرم الجلوس والحضور عند حضور المنكر، الذي لا يقدر على إزالته.

(٣٤/١، رقم ٢٦١) ، وابن أبى شيبة (١٢٤/٦، رقم ٢٩٩٩٤) ، والبزار (٨٣/٥، رقم ١٦٥٦) ، وأبو يعلى (٦٩/٩، رقم ٥١٣٦) .

وللحديث أطراف أخرى منها: "تعاهدوا القرآن".

ومن غريب الحديث: "تفصيًا": التفصى الانفصال والتفلت. "عقالها": العقال هو الحبل الذى يربط به البعير.

(١)أخرجه الترمذى (٣٣٤/١، رقم ١٧٧) وقال: حسن صحيح. والطحاوى (٤٦٦/١) . وأخرجه أيضًا: النسائى (٢٩٤/١، رقم ٦١٥) ، وابن ماجه (٢٢٨/١، رقم ٦٩٨) ، والدارقطنى (٣٨٦/١) .

وللحديث أطراف أخرى منها: "أما لكم فى أسوة"، "ليس فى النوم تفريط"..

(٢) أحكام القرآن:٢/٢٦٠-٢٦١.

(٣) قيل للراعي عبيد بن حصين، من قصيدة لامية، وأولها هو قوله:

١ - قالتْ سُلَيمَى أَتَنْوِي أنتَ أَمَّ تَغِلُ ... وقد ينسِّيك بعضَ الحاجةِ الكسلُ

٢ - فقلتُ ما أَنَا ممن لا يُوافقُني ... ولا ثوائيَ إلَّا ريثَ ارتحلُ

٣ - أَمّلتُ خَيَرك هَلْ تَأْتي مَواعدُهُ ... واليومَ قصّرَ عن تلقائك الأملُ

٤ - وما هجرتك حَتّى .... إلى آخره

انظر: "انظر ديوان الراعي (٢٣٣) تحقيق نوري حمودي، وهلال ناجي.

والبيت غير منسوب عند القرطبي في تفسيره:١٣/٧، والشوكاني في فتح القدير:١٤٦/٢.

(٤) ديوانه:٣٠. قال الشارح: الطفلة: الناعمة الرخصة اليدين، والسربال:القميص.

(٥) انظر: السبعة في القراءات:٢٦٠، وتفسير القرطبي:١٣/٧.

(٦) التفسير الميسر:١٣٥.

(٧) تفسير الطبري:٤٣٦/١١.

(٨) تفسير القرطبي:١٤/٧.

(٩) تفسير ابن كثير:٢٧٨/٣.

هذا النهي والتحريم، لمن جلس معهم، ولم يستعمل تقوى الله، بأن كان يشاركهم في القول والعمل المحرم، أو يسكت عنهم، وعن الإنكار، فإن استعمل تقوى الله تعالى، بأن كان يأمرهم بالخير، وينهاهم عن الشر والكلام الذي يصدر منهم، فيترتب على ذلك زوال الشر أو تخفيفه، فهذا ليس عليه حرج ولا إثم"(١).

وقد ورد في الحديث : "رفع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه"(٢).

قال قتادة:" نهاه الله أن يجلس مع الذين يخوضون في آيات الله يكذبون بها ، فإن نسي فلا يقعد بعد الذكر مع القوم الظالمين"(٣).

قال السدي:" كان المشركون إذا جالسوا المؤمنين وقعوا في النبي صلى الله عليه وسلم والقرآن فسبوه واستهزءوا به ، فأمرهم الله أن لا يقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره"(٤).

الفوائد:

١- حرمة الجلوس في مجالس يسخر فيها من الإسلام وشرائعه وأحكامه وأهله.

٢- وجوب القيام احتجاجاً من أي مجلس يعصى فيه الله ورسوله.

٣- ذكر ابن العربي من فوائد هذه الآية: " الخروج من أرض البدعة".

قال ابن العربي:" قال ابن القاسم: سمعت مالكا يقول: لا يحل لأحد أن يقيم ببلد سب فيها السلف. وهذا صحيح؛ فإن المنكر إذا لم يقدر على تغييره نزل عنه قال الله تعالى: {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين} [الأنعام: ٦٨]. وقد كنت قلت لشيخنا الإمام الزاهد أبي بكر الفهري: ارحل عن أرض مصر إلى بلادك. فيقول: لا أحب أن أدخل بلادا غلب عليها كثرة الجهل، وقلة العقل، فأقول له: فارتحل إلى مكة أقم في جوار الله وجوار رسوله؛ فقد علمت أن الخروج عن هذه الأرض فرض لما فيها من البدعة والحرام، فيقول: وعلى يدي فيها هدى كثير، وإرشاد للخلق، وتوحيد، وصد عن العقائد السيئة"(٥).

وفي السياق نفسه قال القرطبي:" وقد قال بعض أهل البدع لأبي عمران النخعي: اسمع مني كلمة، فأعرض عنه وقال: ولا نصف كلمة.

ومثله عن أيوب السختياني.

وقال الفضيل بن عياض: من أحب صاحب بدعة أحبط الله عمله وأخرج نور الإسلام من قلبه، ومن زوج كريمته من مبتدع فقد قطع رحمها، ومن جلس مع صاحب بدعة لم يعط الحكمة، وإذا علم الله عز وجل من رجل أنه مبغض لصاحب بدعة رجوت أن يغفر الله له.

وروى أبو عبد الله الحاكم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:« من وقر صاحب بدعة فقد أعان على هدم الإسلام»(٦).

---

(١) تفسير السعدي: ٢٦٠.

(٢)رواه ابن ماجه في السنن برقم (٢٠٤٣) من حديث أيوب بن سويد عن أبي بكر الهذلي عن شهر عن أبي ذر الغفاري ، رضي الله عنه. وقال البوصيري في الزوائد (١٣٠/٢) : "إسناده ضعيف".

(٣) اخرجه الطبري(١٣٣٨٦):ص٤٣٦/١١-٤٣٧.

(٤) اخرجه الطبري(١٣٣٨٩):ص٤٣٧/١١.

(٥) أحكام القرآن: ٦١١/١.

(٦)الطبرانى عن عبد الله بن بسر. ابن عدى عن ابن عباس. ابن عدى، وأبو نصر السجزى فى الإبانة، وابن عساكر عن عائشة. البيهقى فى شعب الإيمان عن إبراهيم بن ميسرة مرسلاً، وأورده ابن الجوزى فى الموضوعات. أبو نصر عن ابن عمر، وابن عساكر موقوفا

حديث عبد الله بن بسر: قال العجلونى (٣٢٥/٢) : أسانيده ضعيفة بل قال ابن الجوزى كلها موضوعة.

حديث ابن عباس: أخرجه ابن عدى (٦٥/٢، ترجمة ٢٩٧) .

حديث عائشة: أخرجه ابن عدى (٣٢٤/٢، ترجمة ٤٥٦ الحسن بن يحيى أبو عبد الملك) ، وابن عساكر (٤/١٤) . وأخرجه أيضًا: الطبرانى فى الأوسط (٣٥/٧، رقم ٦٧٧٢) .

حديث إبراهيم بن ميسرة: أخرجه البيهقى فى شعب الإيمان (٦١/٧، رقم ٩٤٦٤).

فبطل بهذا كله قول من زعم أن مجالستهم جائزة إذا صانوا أسماعهم"[1].

القرآن

{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ (٦٩)} [الأنعام : ٦٩]

التفسير:

وما على المؤمنين الذين يخافون الله تعالى، فيطيعون أوامره، ويجتنبون نواهيه من حساب الله للخائضين المستهزئين بآيات الله من شيء، ولكن عليهم أن يعظوهم ليمسكوا عن ذلك الكلام الباطل، لعلهم يتقون الله تعالى.

سبب النزول:

روى البغوي عن ابن عباس قال:" لما نزلت هذه الآية: { وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ}، قال المسلمون: كيف نقعد في المسجد الحرام ونطوف بالبيت وهم يخوضون أبدا؟ وفي رواية قال المسلمون: فإنا نخاف الإثم حين نتركهم ولا ننهاهم، فأنزل الله عز وجل: { وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ}.. "[2].

قوله تعالى:{وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ} [الأنعام : ٦٩]، أي:" وما على المؤمنين الذين يخافون الله تعالى، فيطيعون أوامره، ويجتنبون نواهيه من حساب الله للخائضين المستهزئين بآيات الله من شيء"[3].

قال مجاهد:" إن قعدوا ، ولكن لا تقعد"[4].

قال أبو مالك:" وما عليك أن يخوضوا في آيات الله إذا فعلت ذلك"[5].

قال السمعاني:" يعني: إذا لقوهم، ولم يخوضوا فيما يخوضون"[6].

قال ابن كثير:" أي : إذا تجنبوهم فلم يجلسوا معهم في ذلك ، فقد برئوا من عهدتهم ، وتخلصوا من إثمهم"[7].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : ومن اتقى الله فخافه ، فأطاعه فيما أمره به ، واجتنب ما نهاه عنه ، فليس عليه بترك الإعراض عن هؤلاء الخائضين في آيات الله في حال خوضهم في آيات الله ، شيء من تبعة فيما بينه وبين الله ، إذا لم يكن تركه الإعراضَ عنهم رضًا بما هم فيه ، وكان لله بحقوقه متقيًا ، ولا عليه من إثمهم بذلك حرج"[8].

قوله تعالى:{وَلَكِنْ ذِكْرَى لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ} [الأنعام : ٦٩]، أي:" ولكن عليهم أن يعظوهم ويذكّروهم ليمسكوا عن ذلك الكلام الباطل، لعلهم يتقون الله تعالى"[9].

قال الطبري:أي:" ولكن ليعرضوا عنهم حينئذ ذكرى لأمر الله ،{لعلهم يتقون}، يقول : ليتقوا"[10].

قال ابن كثير:" أي : ولكن أمرناكم بالإعراض عنهم حينئذ تذكيرا لهم عما هم فيه ؛ لعلهم يتقون ذلك ، ولا يعودون إليه "[11].

قال السعدي:" أي: ولكن ليذكرهم، ويعظهم، لعلهم يتقون الله تعالى"[12].

---

(١) تفسير القرطبي:١٣/٧.
(٢) تفسير البغوي:١٥٥/٣.
(٣) التفسير الميسر:١٣٦.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٣٩٨):٤٤٠/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٤٠٠):٤٤١/١١.
(٦) تفسير السمعاني:١١٧/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٧٨/١١.
(٨) تفسير الطبري:٤٣٩/١١.
(٩) التفسير الميسر:١٣٦.
(١٠) تفسير الطبري:٤٣٩/١١.
(١١) تفسير ابن كثير:٢٧٨/١١. حكاه عن القائلين بعدم نسخ الآية كما سياتي.
(١٢) تفسير السعدي:٢٦٠.

قال السمعاني:" أمر بتذكيرهم ومنعهم عن ذلك، وقيل: معناه: في حال الذكر، وليس عليهم شيء في حال ما يذكرونهم إذا لم يرضوا بما خاضوا فيه"(١).

واختلف في نسخ الآية على قولين:

أحدهما: انها منسوخة بقوله: {وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ} [النساء : ١٤٠]. وهذا قول سعيد بن جبير(٢)، وأبي مالك(٣)، ومجاهد(٤)، والسدي(٥)، وابن جريج(٦)، وأخرجه النحاس بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما(٧)، وذكره مكي بن أبي طالب عنه بدون إسناد(٨).

عن السدي قوله : " {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، يقول : من حساب الكفار من شيء،{ولكن ذكرى}، يقول : إذا ذكرت فقم، {لعلهم يتقون} مساءتكم ، إذا رأوكم لا تجالسونهم استحيوا منكم ، فكفوا عنكم. ثم نسخها الله بعد ، فنهاهم أن يجلسوا معهم أبدًا ، قال : {وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا}(٩)، الآية"(١٠).

قال ابن جريج: "كان المشركون يجلسون إلى النبي صلى الله عليه وسلم يحبون أن يسمعوا منه ، فإذا سمعوا استهزءوا ، فنزلت : {وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره}، الآية ، قال : فجعل إذا استهزءوا قام ، فحذروا وقالوا لا تستهزءوا فيقوم! فذلك قوله : {لعلهم يتقون}، أن يخوضوا فيقوم ، ونزل : {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، إن قعدوا معهم ، ولكن لا تقعدوا. ثم نسخ ذلك قوله بالمدينة : {وَقَدْ نزلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذًا مِثْلُهُمْ} [سورة النساء : ١٤٠] ، فنسخ قوله : {وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء}، الآية"(١١).

وروي عن سعيد بن جبير، وأبي مالك في قوله: "{وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء} قالا: نسخها: {وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها} الآية"(١٢).

والثاني: أنها محكمة، لأنها دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه، ولا يلزمه حساب غيره(١٣). وهذا قول الطبري(١٤)، والنحاس(١٥)، ومكي بن أبي طالب(١٦)، وابن الجوزي(١٧). وهو الصحيح. والله أعلم.

قال ابن الجوزي: "ولو قال: هؤلاء: أنها منسوخة بآية السيف كان أصلح(١) وكان معناها معناها عندهم إباحة مجالستهم وترك الاعتراض عليهم، والصحيح أنها محكمة لأنها خبر وقد بينا أن المعنى: ما عليكم شيء من آثامهم إنما يلزمكم إنذارهم"(٢).

---

(١) تفسير السمعاني:١١٧/٢.
(٢) اخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٢٥/٢.
(٣) اخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٢٥/٢.
(٤) عزاه غليه ابن كثير في تفسيره: ٢٧٨/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٣٩٧):ص٤٤٠/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٣٩٦):ص٤٤٠/١١.
(٧)فيناسخه:١٣٧.
(٨) انظر: الإيضاح:٢٤٣.
(٩)[النساء : ١٤٠].
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٣٩٧):ص٤٤٠/١١.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٣٩٦):ص٤٤٠/١١.
(١٢) اخرجه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٤٢٥/٢، وأخرجه النحاس في ناسخه (١٣٧) بسند ضعيف عن ابن عباس رضي الله عنهما،وذكره مكي بن أبي طالب عنه بدون إسناد في الإيضاح (٢٤٣).
(١٣) انظر: زاد المسير٤٢٥/٢.
(١٤) انظر: تفسير الطبري:٤٣٩/١١.
(١٥)فيناسخه:١٣٧.
(١٦) انظر: الإيضاح:٢٤٣.
(١٧) انظر: الناسخ والمنسوخ:٤٢٥/٢.

الفوائد:

١- مشروعية الإعراض في حال الضعف عن المستهزئين بالإسلام الذين غرتهم الحياة الدنيا من أهل القوة والسلطان وحسب المؤمن أن يعرض عنهم فلا يفرح بهم ولا يضحك لهم.

٢- وجوب التذكير بالقرآن وخاصة المؤمنين الذين يرجى توبتهم.

٣- أن المقصود من العباد، أن يخلصوا لله الدين، بأن يعبدوه وحده لا شريك له، ويبذلوا مقدورهم في مرضاته ومحابه. وذلك متضمن لإقبال القلب على الله وتوجهه إليه، وكون سعي العبد نافعا، وجدا، لا هزلا وإخلاصا لوجه الله، لا رياء وسمعة، هذا هو الدين الحقيقي، الذي يقال له دين، فأما من زعم أنه على الحق، وأنه صاحب دين وتقوى، وقد اتخذ دينه لعبا ولهوا. بأن لها قلبه عن محبة الله ومعرفته، وأقبل على كل ما يضره، ولها في باطله، ولعب فيه ببدنه، لأن العمل والسعي إذا كان لغير الله، فهو لعب، فهذا أمر الله تعالى أن يترك ويحذر، ولا يغتر به، وتنظر حاله، ويحذر من أفعاله، ولا يغتر بتعويقه عما يقرب إلى الله(٣).

٤- في الآية دليل على أنه إذا كان التذكير والوعظ، مما يزيد الموعوظ شرا إلى شره، إلى أن تركه هو الواجب لأنه إذا ناقض المقصود، كان تركه مقصودا(٤).

القرآن

{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ (٧٠)} [الأنعام : ٧٠]

التفسير:

واترك -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين جعلوا دين الإسلام لعبًا ولهوًا; مستهزئين بآيات الله تعالى، وغرَّتهم الحياة الدنيا بزينتها، وذكّر بالقرآن هؤلاء المشركين وغيرهم; كي لا ترتهن نفس بذنوبها وكفرها بربها، ليس لها غير الله ناصر ينصرها، فينقذها من عذاب، ولا شافع يشفع لها عنده، وإن تَفْتَدِ بأي فداء لا يُقْبَل منها. أولئك الذين ارتُهنوا بذنوبهم، لهم في النار شراب شديد الحرارة وعذاب موجع; بسبب كفرهم بالله تعالى ورسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام.

قوله تعالى:{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [الأنعام : ٧٠]، أي:" واترك -أيها الرسول- هؤلاء المشركين الذين جعلوا دين الإسلام لعبًا ولهوًا; مستهزئين بآيات الله تعالى"(٥).

قال الطبري:" وذكّر بالقرآن هؤلاء الذين يخوضون في آياتنا وغيرهم ممن سلك سبيلهم من المشركين"(٦).

---

(١)قلت: ليس هذا اعترافا منه إنم اذكره على طريق الإلزام بدليل قوله فيما بعد: "والصحيح أنها محكمة".

(٢) نواسخ القرآن:٤٢٥/٢.

وقال في زاد المسير٤٢٥/٢:"والصحيح أنها محكمة. لأنها دلت على أن كل عبد يختص بحساب نفسه، ولا يلزمه حساب غيره".

وهكذا فند الطبري والنحاس ومكي بن أبي طالب دعوى النسخ هنا وأثبت الإحكام لكونه اخبر. انظر: المصادر الثلاثة السابقة.

(٣) انظر: تفسير السعدي:٢٦١.

(٤) انظر: تفسير السعدي:٢٦٠.

(٥) التفسير الميسر:١٣٦.

(٦) تفسير الطبري:٤٤٦/١١.

قال ابن كثير:" أي : دعهم وأعرض عنهم وأمهلهم قليلا فإنهم صائرون إلى عذاب عظيم ؛ ولهذا قال : { وَذَكِّرْ بِهِ } أي : وذكر الناس بهذا القرآن ، وحذرهم نقمة الله وعذابه الأليم يوم القيامة"(١).

قال البغوي:" يعني: الكفار الذين إذا سمعوا آيات الله استهزءوا بها وتلاعبوا عند ذكرها، وقيل: إن الله تعالى جعل لكل قوم عيدا فاتخذ كل قوم دينهم -أي: عيدهم -لعبا ولهوا، وعيد المسلمين الصلاة والتكبير وفعل الخير مثل الجمعة والفطر والنحر"(٢).

قال الزمخشري:" معنى «ذرهم»: اعرض عنهم، ولا تبال بتكذيبهم واستهزائهم ولا تشغل قلبك بهم"(٣).

عن قتادة: {اتخذوا دينهم لعبا ولهوا} قال: أكلا وشربا"(٤).

عن مجاهد قال:"كل لعب لهو"(٥).

قال الفراء:" يقال: ليس من قوم إلا ولهم عيد فهم يلهون في أعيادهم، إلا أمة محمد صلى الله عليه وسلم فإن أعيادهم بر وصلاة وتكبير وخير"(٦).

وقد اختلف المفسرون في معنى اتخاذ الكفار دينهم لهوًا ولعبًا على أقوال منها(٧):

أولاً: أنهم اتخذوا دينهم الذي كلفوه ودعوا إليه وهو الإسلام لعبًا ولهوًا حيث سخروا به واستهزؤوا به، إذًا المراد بكونهم جعلوا دينهم لهوًا ولعبًا سخروا بالإسلام واستهزؤوا به، فإذا دعاهم الداعي إلى الإسلام سخروا به وهزءوا به، وهذا موجود في كل زمان ومكان، وهذا كقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَتَّخِذُواْ الَّذِينَ اتَّخَذُواْ دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِّنَ الَّذِينَ أُوتُواْ الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاء وَاتَّقُواْ اللّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ * وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلاَةِ اتَّخَذُوهَا هُزُواً وَلَعِباً ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْقِلُونَ} [المائدة: ٥٧، ٥٨].

ثانيًا: أنهم اتخذوا ما هو لهوٌ ولعبٌ من عبادة الأصنام وغيرها دينًا لهم وتركوا دين الحق وهو الإسلام.

والأول أقرب من هذا لكنه هذا غير مستبعد، بمعنى أن اتخاذ الدين لهوًا ولعبًا أن يعبد الأصنام، ولذلك قد يتخذوا الصنم من تمر وعجين ثم إذا جاع أكله، هذا لَعِب كيف أنت تعبده من دون الله عز وجل وتستغيث به وتستفتح به الأمور ويكشف لك الضر ويجلب لك النفع ويدفع عنك الضر ثم بعد ذلك تأكله؟ هذا لعب ولهو.

ثالثًا: أن الكفار كانوا يحكمون في دين الله بمجرد التشهي والتمني وما تزينه لهم شياطينهم ونفوسهم من تحليل حرام، أو تحريم حلال، أو تعبد بما لم يشرعه الله، وهذا له أمثلة كثيرة وذكرها في الشرح هناك.

رابعًا: وهو أن المراد به الإشارة إلى من يتوصل بدينه إلى دنياه، يعني: يجعل الدين وسيلة إلى تحصيل الدنيا، وهذا اختلاف تنوع لا تضاد وتشترك في أمر واحد وهو: عدم الاهتمام بأمر الدين.

قوله تعالى:{وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا} [الأنعام : ٧٠]، أي:" وخدعتهم هذه الحياة الفانية بزينتها"(٨).

قال الربيع بن أنس: "غرهم ما كانوا يفترون"(٩).

---

(١) تفسير ابن كثير:٣/٢٧٩.
(٢) تفسير البغوي:٣/١٥٥.
(٣) الكشاف:٢/٣٦.
(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٤٩):ص٤/١٣١٨.
(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٥٠):ص٤/١٣١٨.
(٦) معاني القرآن:١/٣٣٩.
(٧) جاء ذلك في شرح المسائل للسعيدي، انظر: شرح مسائل الجاهلية للحازمي:٦/٢١-٢٢.
(٨) انظر: صفوة التفاسير:١/٣٦٩، والتفسير الميسر:١٣٦.
(٩) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٥١):ص٤/١٣١٨.

قوله تعالى:{وَذَكِّرْ بِهِ أَنْ تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ} [الأنعام : ٧٠]، أي :" وذكّر بالقرآن الناس مخالفة أن تُسْلَم نفسٌ للهلاك وتُرهن بسوء عملها"(١).

قال ابن كثير:" أي : لئلا تبسل"(٢).

قال الماوردي:" قيل: معناه: أن لا تبسل، كما قال تعالى:{يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ}[النساء : ١٧٦] بمعنى: أن لا تضلوا"(٣).

قال الطبري:أي:" كيلا تُبسل نفس بذنوبها وكفرها بربها ، وترتهن فتغلق بما كسبت من إجرامها في عذاب الله"(٤).

قال البغوي:" أي: وعظ بالقرآن، {أن تبسل} أي: لأن لا تبسل، أي: لا تسلم، {نفس} للهلاك، {بما كسبت}"(٥).

قال السمعاني:أي:" وذكر به، لأن لا تسلم نفس للهلاك بعملها"(٦).

قال ابن عطية:" معنى الآية: وذكر بالقرآن والدين وادع إليه لئلا تبسل نفس التارك للإيمان بما كسبت من الكفر وآثرته من رفض الإسلام"(٧).

قال الزمخشري:أي:" وذكر به أى بالقرآن {أن تبسل نفس}، مخافة أن تسلم إلى الهلكة والعذاب وترتهن بسوء كسها"(٨).

وفي قوله :{أَن تُبْسَلَ} [الأنعام : ٧٠]، ستة أوجه :

أحدها : أن تسلم ، قاله الحسن(٩)، وعكرمة(١٠)، ومجاهد(١١)، والسدي(١٢). وهو مروي عن ابن عباس في رواية الضحاك(١٣).

والثاني : أن تُحْبَس ، قاله قتادة (١٤).

والثالث : أن تُفْضح ، قاله ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة(١٥).

والرابع : أن تُؤْخَذ بما كسبت ، قاله ابن زيد(١٦) . وهذا قريب من قول قتادة، أي: "الحبس".

والخامس : أن تُجْزَى ، قاله الكلبي(١٧).

والسادس : أن تُرْتَهن ، قاله الفراء (١٨)، من قولهم: أسد باسل، لأن فريسته مُرْتَهَنَة معه لا تَفْلِت منه ، ومنه قول عوف بن الأحوص الكلابي (١٩):

---

(١) صفوة التفاسير:٣٦٩/١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٧٩/٣.
(٣) النكت والعيون:١٣٠/٢.
(٤) تفسير الطبري:٤٤٦/١١.
(٥) تفسير البغوي:١٥٥/٣.
(٦) تفسير السمعاني:١١٦/٢.
(٧) المحرر الوجيز:٣٠٥/٢.
(٨) الكشاف:٣٦/٢.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠٦):ص٤٤٣/١١.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠٥):ص٤٤٣/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠٨):ص٤٤٣/١١.
(١٢) انظر: تفسير ابن ابي حاتم:١٣١٨/٤.حكاه دون ذكر السند.
(١٣) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٤٥٢):ص١٣١٨/٤.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٤١١)، و(١٣٤١٢):٤٤٣/١١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٤١٤):٤٤٤/١١.
(١٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٤١٣):ص٤٤٣/١١-٤٤٤.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٤١٥):ص٤٤٤/١١.
(١٨) انظر: معاني القرآن:٣٣٩/١.
(١٩)نوادر أبي زيد : ١٥١ ، مجاز القرآن ١ : ١٩٤ ، المعاني الكبير : ١١١٤ ، واللسان (بسل) (بعا) ، يقول :
فَلَوْلا أَنَّنِي رَحُبَتْ ذِرَاعِي ... بِإِعْطَاءِ المَفَارِقِ والحِقَاقِ
وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ ... بَعَوْنَاهُ ، وَلا بِدَمٍ مُرَاقِ
لَقِيتُمْ مِنْ تَدَرُّئِكُمْ عَلَيْنَا ... وَقَتْلِ سَرَاتِنَا ذَاتَ العَرَاقِي

وَإِبْسَالِي بَنِيَّ بِغَيْرِ جُرْمٍ بَعَوْنَاهُ وَلا بِدَمٍ مُرَاقِ

وقوله : «بعوناه» أي: جنيناه ، وقال الشنفرى[1]:

هُنَالِكَ لا أَرْجُو حَيَاةً تَسُرُّنِي سَمِيرَ اللَّيَالِي مُبْسَلا بِالْجَرَائِرِ

قال ابن كثير:" وكل هذه العبارات متقاربة في المعنى ، وحاصلها الإسلام للهلكة ، والحبس عن الخير ، والارتهان عن درك المطلوب ، كما قال : { كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ * إِلا أَصْحَابَ الْيَمِينِ } [المدثر : ٣٨ ، ٣٩]"[2].

وقال بعض أهل العلم: وأصل «الإبسال»: التحريم، من قولهم : شراب بَسْل، اي: حرام، والعرب تقول: هذا عليك بسل أي حرام[3]، قال الشاعر [4]:

بَكَرت تَلُومُكَ بَعْدَ وَهْنٍ في النَّدى بسلٌ عليكِ مَلاَمَتِي وَعِتَابي

أي: حرام عليك ملامتي وعتابي[5] .

قال ابن عطية:" وهذا بعيد"[1].

" المفارق " جمع " ناقة مفرق " ، فارقها ولدها. و " الحقاق " جمع " حقة " (بكسر الحاء) ، وهي الناقة إذا استكملت السنة الثالثة ، ودخلت في الرابعة. يقول : طابت نفسي ببذل ذلك من المال ، لكن أحقن الدماء ، وأبقي على الوشائج. و " بعا الذنب يبعوه بعوا " : اجترمه واكتسبه. يقول لهم : وأسلمت إليكم بني في الفداء ، ولم نجرم جريمة ، ولم نرق دمًا ، فنحمل الحمالة في الذي اجترحناه. و " تدرأ على فلان " أي : تطاول وتهجم. و " السراة " أشراف القوم. و " ذات العراقي " ، أي : ذات الدواهي المنكرة ، يقول : لولا ما فعلت إبقاء ، لفعلنا بكم الأفاعيل.

(١)ديوانه (الطرائف) : ٣٦ ، وفيه المراجع ، ومجاز القرآن ١ : ١٩٥ ، اللسان (بسل). وقبله ، وهي أبيات مشهورة :

لا تَقْبُرُونِي ، إنَّ قَبْرِي مُحَرَّمٌ ... عَلَيْكُمْ ، وَلِكنْ أَبْشِرِي أَمَّ عامِرِ

إذَا احْتَمَلُوا رَأْسِي ، وَفِي الرّأْسِ أَكْثَرِي ، ... وَغُودِرَ عِنْدَ المُلْتَقَى ثَمَّ سَائِري

و " سمير الليالي " : أبد الليالي ، ويروى " سجيس الليالي " ، وهو مثله.

(٢) تفسير ابن كثير:٢٧٩/٣.

(٣) انظر: معاني القرآن للفراء:٣٣٩/١.

(٤) البيت لضمرة بن ضمرة النهشلي، انظر: نوادر أبي زيد : ٢ ، الأمالي ٢ : ٢٧٩ ، الشعر والشعراء : ٢٥٠ ، الوحشيات رقم : ٤٢٤ ، الأزمنة والأمكنة ١ : ١٦٠ ، اللسان (بسل) وغيرها ، وبعد هذا البيت من أبيات حسان : قالها لامرأته إذ عاتبته على حلب إبله ونحرها لضيفه وأهله ، وتحبب إليه الشح ، وتنهاه عن بذل المال ، في القحط والجدب :

أَأَصُرُّهَا ، وَبُنَيُّ عَمِّي سَاغِبٌ ... فَكَفَاكِ من إبَةٍ عَلَيَّ وَعَابِ!

وَلَقَدْ عَلِمْتُ ، فَلا تَظُنِّي غَيْرَهُ ... أنْ سَوْفَ يَخلِجُني سَبيلُ صِحَابي

أرَأَيتِ إنْ صَرَخَتْ بِلَيْلٍ هَامَتِي ... وَخَرَجْتُ مِنْهَا عَارِيًا أثْوَابي

هَلْ تَخْمِشَنْ إبِلِي عَلَيَّ وُجُوهَهَا ... أمْ تَعْصِبَنَّ رُؤُوسَهَا بِسِلاَبِ!!

" بكرت " ، عجلت في أول السحر. " بعد وهن " ، أي بعد قومة من جوف الليل. أرقها ما يبذل لبني عمه من ماله ، فلم تتأن به مطلع النهار حتى أخذت تلومه في وجه الصبح. ثم أخذ يذكرها بالمروءة فيقول : " أأصرها " ، يعني النوق ، يشد عليها الصرار (وهو خيط يشد فوق الخلف) ، لئلا تحلب ، أو يرضعها ولدها ، يقول : لا أفعل ذلك ، وبني عمي جياع حتى ، أرويهم ؛ و " السغب " الجوع ، فإن ذلك لؤم. و " الإبة " الخزي يستحي منه ، و " العاب " ، العيب. يقول : كفاك بهذا الفعل لؤمًا يخزي فاعله. ثم احتج عليها بما يجد بنو عمه وضيفانه من اللوعة عليه إذا مات ، وأن الإبل لا تفعل ذلك. فقال لها : إن الموت سبيل كل حي ، وأني سلك سبيل أصحابي الذين ذهبوا وخلفوني ، فإن هذه السبيل تخجلني (أي : تجذبني وتنتزعني) كما خلجتهم من قبل. وقوله : " صرخت بليل هامتي " ، وهو من عقائد الجاهلية ، أبطله الله بالإسلام ، يزعمون أن روح القتيل تصير طائرًا كالبومة يزقو عند قبره ، يقول : اسقوني ، اسقوني! وقوله : " عاريًا أثوابي " أي : عاريًا من أثوابي التي كنت أستمتع بلباسها في الدنيا. ويروى : " باليًا أثوابي " ، ويعني عندئذ : أكفانه التي تبلى في التراب. وقول " هل تخمش إبلي " ، أي : هل تلطم الإبل على وجوهها فيخمشها اللطم ويؤثر فيها ويجرحها ، كما يفعل بنو عمي وبنات عمي إذا مت. و " السلاب " : عصائب للرأس سود ، يلبسنها عند الحداد. يقول : هذا حزن بنات عمي علي ، فهل تفعل الإبل فعلهن حتى آسى على نحرها وإهلاكها في إطعامهم وإروائهم في زمان الجدب وهم جياع ؟

(٥) انظر: معاني القرىن للفراء:٣٣٩/١، وتفسير الطبري:٣٣٣/١١-٤٤٥.

قوله تعالى:{لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ} [الأنعام : ٧٠]، أي:" ليس لها غير الله ناصر ينصرها، فينقذها من عذاب، ولا شافع يشفع لها عنده"(٢).

قال ابن كثير:" أي: لا قريب ولا أحد يشفع فيها ، كما قال : { مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فِيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ } [البقرة : ٢٥٤]"(٣).

قال الطبري:" يقول : ليس لها ، حين تسلم بذنوبها فترتهن بما كسبت من آثامها ، أحدٌ ينصرها فينقذها من الله الذي جازاها بذنوبها جزاءها ،{ولا شفيع}، يشفع لها ، لوسيلة له عنده"(٤).

قال السعدي:" أي: قبل أن تحيط بها ذنوبها، ثم لا ينفعها أحد من الخلق، لا قريب ولا صديق، ولا يتولاها من دون الله أحد، ولا يشفع لها شافع"(٥).

قوله تعالى:{وَإِنْ تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَا يُؤْخَذْ مِنْهَا} [الأنعام : ٧٠]، أي:" وإن تَفْتَدِ بأي فداء لا يُقْبَل منها"(٦).

قال قتادة:" لو جاءت بملء الأرض ذهبًا لم يقبل منها"(٧).

قال السدي:" فما يعدلها لو جاءت بملء الأرض ذهبًا لتفتدي به ما قُبل منها"(٨).

قال ابن زيد:"{وإن تعدل}: وإن تفتد ، يكون له الدنيا وما فيها يفتدي بها " {لا يؤخذ منه}، عدلا عن نفسه ، لا يقبل منه"(٩).

وقال أبو عبيدة:أي:" إن تقسط كل قسط لا يقبل منها. لأنّما التوبة فى الحياة"(١٠).

قال الطبري:معناه:" وإن تعدل النفس التي أبسلت بما كسبت ، كل فداء، لا يقبل منها ، وقد تأوّل ذلك بعض أهل العلم بالعربية بمعنى : وإن تُقسط كل قسط لا يقبل منها. وقال : إنها التوبة في الحياة ، وليس لما قال من ذلك معنى ، وذلك أن كل تائب في الدنيا فإن الله تعالى ذكره يقبل توبته"(١١).

قال ابن كثير:" أي : ولو بذلت كلّ مبذول ما قبل منها كما قال : { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلْءُ الأرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ} [آل عمران : ٩١]"(١٢).

قال البغوي:" أي:[إن] تفد كل فداء، {لا يؤخذ منها}"(١٣).

قال السعدي:" أي: تفتدي بكل فداء، ولو بملء الأرض ذهبا {لا يؤخذ منها} أي: لا يقبل ولا يفيد"(١٤).

قال القرطبي:" العدل: الفدية"(١٥).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا} [الأنعام : ٧٠]، أي:" أولئك الذين ارتُهنوا بذنوبهم"(١).

---

(١) المحرر الوجيز:٣٠٥/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٣٦.
(٣) تفسير ابن كثير:٢٧٩/٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٤٦/١١.
(٥) تفسير السعدي:٢٦١.
(٦) التفسير الميسر:١٣٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٤١٦):ص٤٤٧/١١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٤١٧):ص٤٤٧/١١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٤١٨):ص٤٤٧/١١.
(١٠) مجاز القرآن:١٩٥/١.
(١١) تفسير الطبري:٤٤٧/١١-٤٤٨.
(١٢) تفسير ابن كثير:٢٧٩/٣.
(١٣) تفسير البغوي:١٥٥/٣.
(١٤) تفسير السعدي:٢٦١.
(١٥) تفسير القرطبي:١٦/٧.

قال البغوي:أي:" أسلموا للهلاك"[٢].
قال السعدي:" {أولئك} الموصوفون بما ذكر {الذين أبسلوا} أي: أهلكوا وأيسوا من الخير، وذلك {بما كسبوا} "[٣].
قال الطبري:" يقول تعالى ذكره : وهؤلاء الذين إن فدوا أنفسهم من عذاب الله يوم القيامة كل فداء لم يؤخذ منهم ، هم أسلموا لعذاب الله ، فرهنوا به جزاءً بما كسبوا في الدنيا من الآثام والأوزار"[٤].
عن السدي : " {أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا}، قال يقال : أسلموا"[٥].
عن ابن عباس : {أولئك الذين أبسلوا}، قال : فُضحوا"[٦].
عن ابن زيد :{أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا}، قال : أخذوا بما كسبوا"[٧].
قوله تعالى:{لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ} [الأنعام : ٧٠]، أي:" لهم في النار شراب شديد الحرارة وعذاب موجع; بسبب كفرهم بالله تعالى ورسوله محمَّد صلى الله عليه وسلم وبدين الإسلام"[٨].
قال السمرقندي:"{شراب من حميم}، يعني: ماء حار قد انتهى حره"[٩].
قال السعدي:" ، أي: ماء حار قد انتهى حره، يشوي وجوههم، ويقطع أمعاءهم"[١٠].
قال الطبري:" وإنما جعل تعالى ذكره لهؤلاء الذين وصف صفتهم في هذه الآية شرابًا من حميم ، لأن الحارّ من الماء لا يروي من عطش. فأخبر أنهم إذا عطشوا في جهنم لم يغاثوا بماء يرويهم ، ولكن بما يزيدون به عطشًا على ما بهم من العطش{وعذاب أليم}، يقول : ولهم أيضًا مع الشراب الحميم من الله العذابُ الأليم والهوان المقيم {بما كانوا يكفرون} ، يقول : بما كان من كفرهم في الدنيا بالله ، وإنكارهم توحيده ، وعبادتهم معه آلهة دونه"[١١].
قال القرطبي:" «الحميم»: الماء الحار، وفي التنزيل:{يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُءُوسِهِمُ الْحَمِيمِ} [الحج : ١٩] الآية"[١٢].
و «الحميم»: هو الحارّ ، في كلام العرب ، وإنما هو :محموم، صرف إلى :فعيل، ومنه قيل للحمّام ،حمام ، لإسخانه الجسم ، ومنه قول مرقش[١٣] :
فِي كُلِّ مُمْسًى لَهَا مِقْطَرَةٌ فِيهَا كِبَاءٌ مُعَدٌّ وَحَمِيمْ
يعني بذلك: ماء حارًّا ، ومنه قول أبي ذويب الهذلي في صفة فرس[١٤] :

---

(١) التفسير الميسر:١٣٦.
(٢) تفسير البغوي:١٥٥/٣.
(٣) تفسير السعدي:٢٦١.
(٤) تفسير الطبري:٤٤٨/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٤١٩):ص٤٤٩/١١.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٤٢٠):ص٤٤٩/١١.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٤٢١):ص٤٤٩/١١.
(٨) التفسير الميسر:١٣٦.
(٩) بحر العلوم:٤٥٨/١.
(١٠) تفسير السعدي:٢٦١.
(١١) تفسير الطبري:٤٤٩/١١.
(١٢) تفسير القرطبي:١٦/٧.
(١٣)المفضليات : ٥٠٥ ، واللسان (قطر) (حمم) ، وسيأتي في التفسير ١١ : ٦١ (بولاق). من قصيدته في ابنة عجلان ، جارية صاحبته فاطمة بنت المنذر ، وكان لابنه عجلان قصر بكاظمة ، وكان لها حرس يجرون الثياب كل ليلة حول قصرها ، فلا يطوه إلا بنت عجلان. وكانت تأخذ كل عشية رجلا من أهل المال يبيت عندها ، فبات عندها المرقش ليلة ، وقال ذاك الشعر ، فوصفها بالنعمة والترف. و " المقطرة " : المجمرة ، يكون فيها القطر (بضم فسكون) ، وهو العود الذي يتبخر به. و " الكباء " : ضرب من العود. يصف ما هي فيه من الترف ، بين تبخر بالعود الطيب ، وتنزه بالاستحمام بالماء الساخن ، من شدة عنايتها ببدنها.
(١٤)ديوانه ١٧ ؛ المفضليات ٨٧٩ ، اللسان (حمم) (بصع) (بضع) ، وغيرها. وهذا من الأبيات التي أخذت على أبي ذؤيب ، وأنه لا علم له بالخيل. وقد اختلف في روايته. روي : وإذا ما استغضبت " و " إذ اما

تَأبَى بِدِرَّتِهَا إذَا مَا اسْتُضْغِبَتْ إلا الْحَمِيمَ فَإنّهُ يَتَبَضَّعُ

يعني بالحميم : عرق الفرس[1].

وفي نسخ قوله تعالى:{وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا} [الأنعام : ٧٠] قولان[2]:

أحدهما: أنه اقتضى المسامحة لهم والإعراض عنهم ثم نسخ بآية السيف: { فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ } ، [سورة التوبة : ٥]، وهذا مذهب قتادة[3]، والسدي[4]، واختيار الطبري[5].

والثاني: أنه خرج مخرج التهديد: كقوله تعالى: { ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا } ، [المدثر: ١١] ، فعلى هذا هو محكم، وهذا مذهب مجاهد[6]، وهو اختيار النحاس [7]، ومكي بن أبي طالب[8]، وابن الجوزي[9].

الفوائد:

١- أن الإسلام هو الدين الوحيد الذي يعده الله دينا ويقبله من الناس بعد بعثة خاتم النبيين، قال تعالى:{ وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا} فالإسلام دين للبشرية كافة. فمن اتخذه لعبا ولهوا، فإنما يتخذ دينه كذلك.

٢- أن من أعظم أسباب المقت والحرمان. وأكبر موجبات العقوبة والخذلان هو اتخاذ لدين الله هزوا ولهوا ولعبا.

٣- أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وينسحب الأمر على كل مسلم - مأمور بعد إهمال شأن هؤلاء الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا - أن يقوم بتذكيرهم وتخويفهم من أن ترتهن نفوسهم بما كسبوا، وأن يلاقوا الله ليس لهم من دونه ولي ينصرهم، ولا شفيع لهم كما أنه لا يقبل منهم فدية لتطلق نفوسهم بعد ارتهانها بما كسبت.

٤- أنه من مات على كفره لم ينج من النار إذ لا يجد فداء ولا شفيعاً يخلصه من النار بحال.

القرآن

{قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٧١)} [الأنعام : ٧١]

التفسير:

قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أنعبد من دون الله تعالى أوثانًا لا تنفع ولا تضر؟ ونرجع إلى الكفر بعد هداية الله تعالى لنا إلى الإسلام، فنشبه -في رجوعنا إلى الكفر- مَن فسد عقله باستهواء الشياطين له، فَضَلَّ في الأرض، وله رفقة عقلاء مؤمنون يدعونه إلى الطريق الصحيح الذي هم عليه فيأبى. قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إنَّ هدى الله الذي بعثني به

استكرهت " ، ورواية الطبري مذكورة في اللسان في (بضع) وروي أيضًا " يتصبع " بالصاد. أي يسيل قليلا قليلا. و " تبضع العرق " بالضاد ، سال سيلا منقطعًا. وانظر شرح هذا البيت في المراجع ، فإنه يطول ذكره هنا. وأما رواية : " استضغبت " ، وهي التي هنا ، فقد فسرت بأنه : فزعت ، لأن " الضاغب " ، هو الذي يختبئ في الخمر ليفزع بمثل صوت الأسد. و " الضغاب " و " الضغيب " صوت الأرنب والذئب إذا تضور.

(١) انظر: تفسير الطبري:١١/٤٤٨-٤٤٩.

(٢) انظر: نواسخ القرآن، ابن الجوزي:٢/٤٢٦.

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٤٨):ص٤/١٣١٧.

(٤) عزاه غليه ابن الجوزي في نواسخ القرآن:٢/٤٢٦.

(٥) انظر: تفسير الطبري:١١/٤٤٢.

(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٠١):ص١١/٤٤١.

(٧)فيناسخهص: ١٣٧ - ١٣٨.

(٨)فيالإيضاح (٢٥٤).

(٩) انظر: نواسخ القرآن:٢/٤٢٦.

هو الهدى الحق، وأُمِرنا جميعًا لنسلم لله تعالى رب العالمين بعبادته وحده لا شريك له، فهو رب كل شيء ومالكه.

في سبب نزول الآية وجهان:

احدهما: قال السدي:" قال المشركون للمؤمنين: اتبعوا سبيلنا، واتركوا دين محمد = صلى الله عليه وسلم. فقال الله تعالى ذكره: {قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا}"(١).

والثاني: حكى أبو صالح عن ابن عباس : "أن هذه الآية نزلت في أبي بكر وامرأته حين دعَوا ابنهما عبد الرحمن إلى الإسلام والهدى أن يأتيهما"(٢).

قال القرطبي:" وقال في رواية أبي صالح: نزلت في عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، كان يدعو أباه إلى الكفر وأبواه يدعوانه إلى الإسلام والمسلمون، وهو معنى قوله: (له أصحاب يدعونه إلى الهدى) فيأبى. قال أبو عمر(٣): أمه أم رومان بنت الحارث بن غنم الكنانية، فهو شقيق عائشة. وشهد عبد الرحمن بن أبي بكر بدرا واحدا مع قومه وهو وكافر، ودعا إلى البراز فقام إليه أبوه ليبارزه فذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال له:«متعني بنفسك»(٤). ثم أسلم وحسن إسلامه، وصحب النبي صلى الله عليه وسلم في هدنة الحديبية. هذا قول أهل السير. قالوا: كان اسمه عبد الكعبة فغير رسول الله صلى الله عليه وسلم اسمه عبد الرحمن، وكان أسن ولد أبي بكر. قال: إنه لم يدرك النبي صلى الله عليه وسلم أربعة ولاء: أب وبنوه إلا أبا قحافة وابنه أبا بكر وابنه عبد الرحمن بن أبي بكر وابنه أبا عتيق محمد بن عبد الرحمن"(٥).

قوله تعالى:{قُلْ أَنَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا} [الأنعام : ٧١]، أي:" قل - أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: أنعبد من دون الله تعالى أوثانًا لا تنفع ولا تضر؟"(٦).

قال السدي:"هذه الآلهة"(٧).

عن مجاهد في قوله:"{ما لا ينفعنا ولا يضرنا}، قال: الأوثان"(٨).

قال البغوي:"{ما لا ينفعنا} إن عبدناه، {ولا يضرنا} إن تركناه، يعني: الأصنام ليس إليها نفع ولا ضر"(٩).

قال الزمخشري:يعني:" قل أندعوا أنعبد من دون الله الضار النافع ما لا يقدر على نفعنا ولا مضرتنا"(١٠).

قال الطبري:" وهذا تنبيه من الله تعالى ذكره نبيه صلى الله عليه وسلم على حجته على مشركي قومه من عبدة الأوثان. يقول له تعالى ذكره: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثانَ والأنداد، والآمرين لك باتباع دينهم وعبادة الأصنام معهم: أندعو من دون الله حجرًا أو خشبًا لا يقدر على نفعنا أو ضرنا، فنخصه بالعبادة دون الله، وندع عبادة الذي بيده الضر والنفع والحياة والموت، إن كنتم تعقلون فتميزون بين الخير والشر؟ فلا شك أنكم تعلمون أن خدمة ما يرتجى نفعه ويرهب ضره، أحق وأولى من خدمة من لا يرجى نفعه ولا يخشى ضره!"(١١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٤٢٢):ص١١/٤٥٢.
(٢) انظر: النكت والعيون:١٣٢/٢.
(٣) انظر: الاستيعاب"على هامش الإصابة":٢٩/٦-٣٤.
(٤) أخرجه الحاكك في المستدرك:٤٧٤/٣-٤٧٥، وعنه البيهقي في السنن:١٨٦/٨، من طريق الواقدي عن ابن أبي زناد، عن أبيه، وانظر: التلخيص الحبير:١٠١/٤.
(٥) تفسير القرطبي:١٨/٧-١٩.
(٦) التفسير الميسر:١٣٦.
(٧) أخرجه الطبري(١٣٤٢٢):ص١١/٤٥٢.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٤٢٥):ص١١/٤٥٣.
(٩) تفسير البغوي:١٥٦/٣.
(١٠) الكشاف:٣٧/٢.
(١١) تفسير الطبري:٤٥٠/١١.

قوله تعالى:{وَنُرَدُّ عَلَى أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَانَا اللَّهُ} [الأنعام : ٧١]، أي:" ونرجع إلى الكفر بعد هداية الله تعالى لنا إلى الإسلام"(١).

قال الطبري:" يقول: ونرد إلى أدبارنا، فنرجع القهقري خلفنا، لم نظفر بحاجتنا، بعد إذ هدانا الله، فوفقنا له"(٢).

قال أبو عبيدة:" يقال: ردّ فلان على عقيبيه، أي: رجع ولم يظفر بما طلب ولم يصب شيئا"(٣).

قال البغوي:"أي: إلى الشرك مرتدين"(٤).

قال الزمخشري:أي:" راجعين إلى الشرك بعد إذ أنقذنا الله منه وهدانا للإسلام"(٥).

قال السعدي:" أي: وننقلب بعد هداية الله لنا إلى الضلال، ومن الرشد إلى الغي، ومن الصراط الموصل إلى جنات النعيم، إلى الطرق التي تفضي بسالكها إلى العذاب الأليم. فهذه حال لا يرتضيها ذو رشد"(٦).

قوله تعالى:{كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الْأَرْضِ حَيْرَانَ} [الأنعام : ٧١]، أي:" أي فيكون مثلنا كمثل الذي اختطفته الشياطين وأضلته وسارت به في المفاوز والمهالك فألقته في هوّة سحيقة، فَضَلَّ في الأرض متحيراً لا يدري أين يذهب"(٧).

قال قتادة:" أضلته في الأرض حيران"(٨).

قال مجاهد:"رجل حيران يدعوه أصحابه إلى الطريق، فذلك مثل من يضلّ بعد إذ هدي"(٩).

وعن مجاهد أيضا:" هذا مثل ضربه الله للكافر، يقول: الكافر حيران، يدعوه المسلم إلى الهدى فلا يجيب"(١٠).

قال القرطبي:" أي: استغوته وزينت له هواه ودعته إليه. يقال: هوى يهوي إلى الشيء أسرع إليه"(١١).

قال الثعلبي:{ اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ}" أي: أضلته"(١٢).

قال أبو عبيدة:" وهو: الحيران الذي يشبّه له الشياطين فيتبعها حتى يهوى فى الأرض فيضلّ"(١٣).

قال الزمخشري:أي:" كالذي ذهبت به مردة الجن والغيلان في الأرض المهمه(١٤) حيران تائها ضالا عن الجادة لا يدرى كيف يصنع"(١٥).

قال البغوي:" أي: يكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين، أي: أضلته، و«الحيران»: المتردد في الأمر، لا يهتدي إلى مخرج منه"(١٦).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٦.
(٢) تفسير الطبري:٤٥٠/١١.
(٣) مجاز القرآن:١٩٦/١.
(٤) تفسير البغوي:١٥٦/٣.
(٥) الكشاف:٣٧/٢.
(٦) تفسير السعدي:٢٦١.
(٧) انظر: التفسير الميسر:١٣٦، وصفوة التفاسير:٣٦٩/١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٤٢٤):ص٤٥٣/١١.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٤٢٦):ص٤٥٣/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٤٢٧):ص٤٥٣/١١.
(١١) تفسير القرطبي:١٨/٧.
(١٢) الكشف والبيان:١٥٩/٤.
(١٣) مجاز القرآن:١٩٦/١.
(١٤)قوله«الأرض المهمه»أى: المفازة المتسعة. أفاده الصحاح.
(١٥) الكشاف:٣٧/٢.
(١٦) تفسير البغوي:١٥٦/٣.

قال السعدي:" أي: أضلته وتيهته عن طريقه ومنهجه له الموصل إلى مقصده. فبقي {حَيْرَانَ}"[١].

قال الطبري:" فيكون مثلنا في ذلك مثل الرجل الذي استتبعه الشيطان، يهوي في الأرض، و«حيران»، فإنه:«فعلان»، من قول القائل: قد حار فلان في الطريق، فهو يَحَار فيه حَيرة وحَيَرَانًا وَحيرُورة، وذلك إذ ضل فلم يهتد للمحجَّة "[٢].

وقال الزجاج:{ الذي استهوته الشياطين في الأرض}،" أي: كالذي زينت له الشياطين هواه في حال حيرته"[٣].

قال السدي:" فيكون مثلنا كمثل الذي استهوته الشياطين في الأرض، يقول: مثلكم إن كفرتم بعد الإيمان، كمثل رجل كان مع قوم على الطريق، فضلّ الطريق، فحيرته الشياطين، واستهوته في الأرض"[٤].

عن ابن عباس :" قوله:{كالذي استهوته الشياطين في الأرض}، وهم«الغيلان»، يدعونه باسمه واسم أبيه واسم جده، فيتبعها، فيرى أنه في شيء، فيصبح وقد ألقته في الهلكة، وربما أكلته أو تلقيه في مضلّة من الأرض يهلك فيها عطشًا. فهذا مثل من أجاب الآلهة التي تُعبد من دون الله عز وجل"[٥].

وقرأ حمزة:«استهوه»، بالألف ويميلها[٦].

قوله تعالى:{لَهُ أَصْحَابٌ يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى ائْتِنَا} [الأنعام : ٧١]، أي:" وله رفقة عقلاء مؤمنون يدعونه إلى الطريق الصحيح الذي هم عليه فيأبى ولا يستجيب لهم"[٧].

قال السدي:" وأصحابه على الطريق، فجعلوا يدعونه إليهم، يقولون: ائتنا، فإنا على الطريق، فأبى أن يأتيهم. فذلك مثل من يتبعكم بعد المعرفة بمحمد، ومحمد الذي يدعو إلى الطريق، والطريق هو الإسلام"[٨].

قال الزمخشري:" أى: لهذا المستهوى أصحاب رفقة يدعونه إلى الهدى إلى أن يهدوه الطريق المستوى. أو سمى الطريق المستقيم بالهدى، يقولون له ائتنا وقد اعتسف المهمه تابعا للجن لا يجيبهم ولا يأتيهم. وهذا مبنى على ما تزعمه العرب وتعتقده: أن الجن تستهوى الإنسان، والغيلان تستولى عليه، كقوله:{الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ} [البقرة : ٢٧٥] ، فشبه الضال عن طريق الإسلام التابع لخطوات الشيطان والمسلمون يدعونه إليه فلا يلتفت إليهم"[٩].

قال الطبري:" يقول: لهذا الحيران الذي قد استهوته الشياطين في الأرض، أصحابٌ على المحجة واستقامة السبيل، يدعونه إلى المحجة لطريق الهدى الذي هم عليه، يقولون له: ائتنا، وهذا مثل ضربه الله تعالى ذكره لمن كفَر بالله بعد إيمانه، فاتبع الشياطين، من أهل الشرك بالله وأصحابه الذين كانوا أصحابه في حال إسلامه، المقيمون على الدين الحق، يدعونه إلى الهدى الذي هم عليه مقيمون، والصواب الذي هم به متمسكون، وهو له مفارق وعنه زائل، يقولون له:"ائتنا فكن معنا على استقامة وهدى"! وهو يأبى ذلك، ويتبع دواعي الشيطان، ويعبد الآلهة والأوثان"[١٠].

---

(١) تفسير السعدي:٢٦١.
(٢) تفسير الطبري:٤٥٠/١١.
(٣) معاني القرآن:٢٦٢/٢.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٤٢٢):ص٤٥٢/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٤٢٣):ص٤٥٢/١١-٤٥٣.
(٦) انظر: السبعة في القراءات:٢٦٠.
(٧) انظر: التفسير الميسر:١٣٦، وصفوة التفاسير:٣٦٩/١.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٤٢٢):ص٤٥٢/١١.
(٩) الكشاف:٣٧/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤٥١/١١.

قال البغوي:" هذا مثل ضربه الله تعالى لمن يدعو إلى الآلهة ولمن يدعو إلى الله تعالى، كمثل رجل في رفقة ضل به الغول عن الطريق يدعوه أصحابه من أهل الرفقة هلم إلى الطريق، ويدعوه الغول :هلم، فيبقى حيران لا يدري أين يذهب، فإن أجاب الغول انطلق به حتى يلقيه إلى الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الطريق اهتدى"(١).

قال السعدي:" والشياطين يدعونه إلى الردى، فبقي بين الداعين حائرا وهذه حال الناس كلهم، إلا من عصمه الله تعالى، فإنهم يجدون فيهم جواذب ودواعي متعارضة، دواعي الرسالة والعقل الصحيح، والفطرة المستقيمة {يَدْعُونَهُ إِلَى الْهُدَى} والصعود إلى أعلى عليين. ودواعي الشيطان، ومن سلك مسلكه، والنفس الأمارة بالسوء، يدعونه إلى الضلال، والنزول إلى أسفل سافلين، فمن الناس من يكون مع داعي الهدى، في أموره كلها أو أغلبها، ومنهم من بالعكس من ذلك. ومنهم من يتساوى لديه الداعيان، ويتعارض عنده الجاذبان، وفي هذا الموضع، تعرف أهل السعادة من أهل الشقاوة"(٢).

قال الزجاج: قيل في التفسير يعنى بهذا عبد الرحمن بن أبي بكر، {ائتنا} أي: تابعنا في إيماننا"(٣).

عن ابن عباس قوله:"{أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ونرد على أعقابنا}، قال: هذا مثل ضربه الله للآلهة ومن يدعو إليها، وللدعاة الذين يدعونَ إلى الله، كمثل رجل ضل عن الطريق تائهًا ضالا إذ ناداه منادٍ:يا فلان بن فلان، هلمّ إلى الطريق، وله أصحاب يدعونه:يا فلان، هلم إلى الطريق! فإن اتبع الداعي الأول انطلق به حتى يلقيه في الهلكة، وإن أجاب من يدعوه إلى الهدى اهتدى إلى الطريق. وهذه الداعية التي تدعو في البرية من الغيلان. يقول: مثل من يعبد هؤلاء الآلهة من دون الله، فإنه يرى أنه في شيء حتى يأتيه الموت، فيستقبل الهلكة والندامة"(٤).

وروي عن عن ابن عباس أيضا قوله:"{كالذي استهوته الشياطين في الأرض حيران له أصحاب يدعونه إلى الهدى}، فهو الرجل الذي لا يستجيب لهدى الله، وهو رجل أطاعَ الشيطان، وعمل في الأرض بالمعصية، وحار عن الحقّ وضل عنه، وله أصحاب يدعونه إلى الهدى، ويزعمون أن الذي يأمرونه هدًى. يقول الله ذلك لأوليائهم من الإنس: إن الهدى هدى الله، والضلالة ما تدعو إليه الجنّ"(٥).

قال الطبري:" فكأنّ ابن عباس -على هذه الرواية- يرى أن أصحاب هذا الحيران الذين يدعونه إنما يدعونه إلى الضلال، ويزعمون أنّ ذلك هدى، وأنّ الله أكذبهم بقوله:{قل إنّ هدى الله هو الهدى}، لا ما يدعوه إليه أصحابه.

وهذا تأويل له وجه، لو لم يكن الله سمى الذي دعا الحيرانَ إليه أصحابه"هدى"، وكان الخبر بذلك عن أصحابه الدعاة له إلى ما دعوه إليه: أنهم هم الذين سموه، ولكن الله سماه:«هدى»، وأخبر عن أصحاب الحيران أنهم يدعونه إليه. وغير جائز أن يسمي الله"الضلال" هدى، لأن ذلك كذب، وغير جائز وصف الله بالكذب، لأن ذلك وصفه بما ليس من صفته. وإنما كان يجوز توجيه ذلك إلى الصواب، لو كان ذلك خبرًا من الله عن الداعي الحيران أنهم قالوا له: تعال إلى الهدى، فأما وهو قائل:{يدعونه إلى الهدى}، فغير جائز أن يكون ذلك، وهم كانوا يدعونه إلى الضلال"(٦).

وذكر عن ابن مسعود أنه كان يقرأ: «يَدْعُونَهُ إِلَى الهُدَى بَيِّنًا»(٧).

---

(١) تفسير البغوي:١٥٦/٣.
(٢) تفسير السعدي:٢٦١.
(٣) معاني القرآن:٢٦٢/٢.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٤٢٣):ص٤٥٢/١١.
(٥) أخرجه الطبري(١٣٤٣٠)، و(١٣٤٣١):ص٤٥٣/١١-٤٥٤.
(٦) تفسير الطبري:٤٥٤/١١.
(٧) اخرجه الطبري(١٣٤٣٠):ص٤٥٤/١١-٤٥٥.

وإذا قرئ ذلك كذلك، كان«البين» من صفة:{الهدى}، ويكون نصب«البين» على القطع من{الهدى}، كأنه قيل: يدعونه إلى الهدى البين، ثم نصب«البين» لما حذفت«الألف واللام»، وصار نكرة من صفة المعرفة، وهذه القراءة التي ذكرناها عن ابن مسعود تؤيد قول من قال:"الهدى" في هذا الموضع، هو الهدى على الحقيقة[١].

قوله تعالى:{قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى} [الأنعام : ٧١]، أي:" قل -أيها الرسول- لهؤلاء المشركين: إنَّ هدى الله الذي بعثني به هو الهدى الحق"[٢].

قال الزمخشري:" {هدى الله}: وهو الإسلام، هو الهدى وحده وما وراءه ضلال وغى، ومن يبتغ غير الإسلام دينا. فماذا بعد الحق إلا الضلال"[٣].

قال البغوي:" يزجر عن عبادة الأصنام، كأنه يقول: لا تفعل ذلك فإن الهدى هدى الله، لا هدى غيره"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأوثان، القائلين لأصحابك:{اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم}، فإنا على هدى: ليس الأمر كما زعمتم، {إن هدى الله هو الهدى}، يقول: إن طريق الله الذي بينه لنا وأوضحه، وسبيلنا الذي أمرنا بلزومه، ودينه الذي شرعه لنا فبينه، هو الهدى والاستقامة التي لا شك فيها، لا عبادة الأوثان والأصنامالتي لا تضر ولا تنفع، فلا نترك الحق ونتبع الباطل"[٥].

قال السعدي:" أي: ليس الهدى إلا الطريق التي شرعها الله على لسان رسوله، وما عداه، فهو ضلال وردى وهلاك"[٦].

قوله تعالى:{وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ} [الأنعام : ٧١]، أي:" وأُمِرنا جميعًا لنسلم لله تعالى رب العالمين بعبادته وحده لا شريك له فهو رب كل شيء ومالكه"[٧].

قال الطبري:" يقول: وأمرَنا ربنا وربّ كل شيء تعالى وجهه، لنسلم له، لنخضع له بالذلة والطاعة والعبودية، فنخلص ذلك له دون ما سواه من الأنداد والآلهة، وقيل: وأمرنا كي نسلم، وأن نسلم لرب العالمين"[٨].

قال البغوي:" أي: أن نسلم، {لرب العالمين}، والعرب تقول: أمرتك لتفعل وأن تفعل وبأن تفعل"[٩].

قال السعدي: أي:" بأن ننقاد لتوحيده، ونستسلم لأوامره ونواهيه، وندخل تحت عبوديته، فإن هذا أفضل نعمة أنعم الله بها على العباد، وأكمل تربية أوصلها إليهم"[١٠].

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما معنى اللام في لنسلم؟ قلت: هي تعليل للأمر، بمعنى: أمرنا وقيل لنا أسلموا لأجل أن نسلم"[١١].

عن قتادة قوله:{قل أندعو من دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا}، حتى بلغ:{لنسلم لرب العالمين}، علمها الله محمدًا وأصحابه، يخاصمون بها أهلَ الضلالة"[١٢].

الفوائد:

١- مثل المشرك بالحيران في الأرض.

---

(١) انظر: تفسير الطبري:١١/٤٥٥.
(٢) التفسير الميسر:١٣٦.
(٣) الكشاف:٢/٣٧.
(٤) تفسير البغوي:٣/١٥٦.
(٥) تفسير الطبري:١١/٤٥٥-٤٥٦.
(٦) تفسير السعدي:٢٦١.
(٧) التفسير الميسر:١٣٦.
(٨) تفسير الطبري:١١/٤٥٦.
(٩) تفسير البغوي:٣/١٥٦.
(١٠) تفسير السعدي:٢٦١.
(١١) الكشاف:٢/٣٧.
(١٢) أخرجه الطبري(١٣٤٢٨):ص١١/٤٥٣.

٢- ذم الحيرة، لقوله:{ كَالَّذِي اسْتَهْوَتْهُ الشَّيَاطِينُ فِي الأَرْضِ حَيْرَانَ}.
٣- قبح الردة وسوء عاقبتها.
٤- حرمة إجابة أهل الباطل لما يدعون إليه من الباطل.
٥- لا هدى إلا هدى الله تعالى أي لا دين إلا الإسلام.
٦- وجوب الإسلام لله تعالى.
٧- تبين بهذه الآية ونظائرها أن كل مدعو من دون الله لا ينفع داعيه ولا يضره، وأن دعوة من يدعي من دونه تنافي الإسلام، لأن أساسه التوحيد والإخلاص، وهذا الشرك ينافيه.
٨- ومن الفوائد: أن مسائل العقيدة الإسلامية توقيفية، لا تؤخذ من آراء البشر لورود أكثرها في القرآن بكلمة :{قل} التلقينية.

القرآن

{وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٧٢)} [الأنعام : ٧٢]

التفسير:

وكذلك أُمرنا بأن نقيم الصلاة كاملة، وأن نخشاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه. وهو -جل وعلا- الذي إليه تُحْشَرُ جميع الخلائق يوم القيامة.

قوله تعالى:{وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَاةَ} [الأنعام : ٧٢]، أي:" وكذلك أُمرنا بأن نقيم الصلاة كاملة"(١).

قال البغوي:"أي : وأمرنا بإقامة الصلاة"(٢).

قال السعدي: " أي: وأمرنا أن نقيم الصلاة بأركانها وشروطها وسننها ومكملاتها"(٣).

قال الطبري:أي:" وأمرنا بإقامة الصلاة، وذلك أداؤها بحدودها التي فرضت علينا"(٤).

قال القرطبي:" إقامة الصلاة: الإتيان بها والدوام عليها. ويجوز أن يكون{وأن أقيموا الصلاة} عطفا على المعنى، أي: يدعونه إلى الهدى ويدعونه أن أقيموا الصلاة، لأن معنى {ائتنا}: أن ائتنا"(٥).

روي عن ابن مسعود قال: " و «إقامة الصلاة»: تمام الركوع والسجود والتلاوة والخشوع، والإقبال عليها فيها"(٦).

قوله تعالى:{وَاتَّقُوهُ} [الأنعام : ٧٢]، أي:" وأن نخشاه بفعل أوامره واجتناب نواهيه"(٧).

قال السعدي: أي: "بفعل ما أمر به، واجتناب ما عنه نهى"(٨).

قال البغوي:"أي : وأمرنا بالتقوى"(٩).

قال الطبري:" يقول: واتقوا رب العالمين الذي أمرنا أن نسلم له، فخافوه واحذروا سَخطه، بأداء الصلاة المفروضة عليكم، والإذعان له بالطاعة، وإخلاص العبادة له"(١٠).

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} [الأنعام : ٧٢]، أي:" وهو -جل وعلا- الذي إليه تُحْشَرُ جميع الخلائق يوم القيامة"(١١).

قال البغوي:" أي: تجمعون في الموقف للحساب"(١).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٦.
(٢) تفسير البغوي:٣/١٥٦.
(٣) تفسير السعدي:٢٦١.
(٤) تفسير الطبري:١١/٤٥٧.
(٥) تفسير القرطبي:٧/١٩.
(٦)أخرجهالطبري (١٤٥٨): ص ٢/ ٢٩٦.
(٧) التفسير الميسر:١٣٦.
(٨) تفسير السعدي:٢٦١.
(٩) تفسير البغوي:٣/١٥٦.
(١٠) تفسير الطبري:١١/٤٥٧.
(١١) التفسير الميسر:١٣٦.

قال السعدي: " أي: تُجْمَعون ليوم القيامة، فيجازيكم بأعمالكم، خيرها وشرها"[٢].

قال الطبري:" يقول: وربكم رب العالمين، هو الذي إليه تحشرون فتجمعون يوم القيامة، فيجازي كلَّ عامل منكم بعمله، وتوفي كل نفس ما كسبت"[٣].

الفوائد:

١- من فوائد الآية الكريمة: الأمر بإقامة الصلاة على وجه الوجوب فيما لا تصح الصلاة إلا به؛ وعلى وجه الاستحباب فيما تصح الصلاة بدونه وهو من كمالها.

٢- ومنها: فضيلة التقوى، وهو: اتقاء الله تعالى بفعل المأمور وترك المنهي.

٣- ومنها: إثبات الحشر وذكر ما في الآخرة من الحساب والجزاء وصحائف الأعمال وكثرة الأهوال والجنة والنار.

القرآن

{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ (٧٣)} [الأنعام : ٧٣]

التفسير:

والله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض بالحق، واذكر -أيها الرسول- يوم القيامة إذ يقول الله: «كن» ، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب، قوله هو الحق الكامل، وله الملك سبحانه وحده، يوم ينفخ المَلَك في «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام. وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن حواسكم -أيها الناس - وما تشاهدونه، وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بأمور خلقه. والله تعالى هو الذي يختص بهذه الأمور وغيرها بدءًا ونهاية، نشأة ومصيرًا، وهو وحده الذي يجب على العباد الانقياد لشرعه، والتسليم لحكمه، والتطلع لرضوانه ومغفرته.

قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" والله سبحانه هو الذي خلق السموات والأرض بالحق"[٤].

قال مقاتل:" يعني: بأنه لم يخلقهما باطلا لغير شيء، ولكن خلقهما لأمر هو كائن"[٥].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم: قل، يا محمد، لهؤلاء العادلين بربهم الأنداد، الداعيك إلى عبادة الأوثان: أمرنا لنسلم لرب العالمين، الذي خلق السماوات والأرض بالحق، لا من لا ينفع ولا يضر، ولا يسمع ولا يبصر"[٦].

قال القرطبي:" أي: فهو الذي يجب أن يعبد لا الأصنام. ومعنى {بالحق} أي: بكلمة الحق. يعني قوله:«كن»"[٧].

وفي قوله تعالى:{وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ} [الأنعام : ٧٣]، أربعة اقوال[٨]:

أحدها: خلقهما للحق.

والثاني: خلقهما حقا.

والثالث: خلقهما بكلامه وهو الحق.

والرابع: خلقهما بالحكمة.

---

(١) تفسير البغوي:١٥٨/٣.

(٢) تفسير السعدي:٢٦١.

(٣) تفسير الطبري:٤٥٧/١١.

(٤) التفسير الميسر:١٣٦.

(٥) تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٩/١.

(٦) تفسير الطبري:٤٥٨/١١.

(٧) تفسير القرطبي:١٩/٧.

(٨) انظر: تفسير الطبري:٤٥٨/١١-٤٥٩، وزاد المسير:٤٤/٢.

قال البغوي:{ بِالْحَقِّ}:" قيل: «الباء» بمعنى:«اللام»، أي: إظهارا للحق لأنه جعل صنعه دليلا على وحدانيته"[١].

قوله تعالى:{وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" واذكر -أيها الرسول- يوم القيامة إذ يقول الله: «كن» ، فيكون عن أمره كلمح البصر أو هو أقرب"[٢].

قال القرطبي:" أي: واذكر يوم يقول كن. أو اتقوا يوم يقول: كن. أو قدّر يوم يقول كن. وقيل: هو عطف على الهاء في قول:«واتقوه»"[٣].

قال الزمخشري:" {اليوم} بمعنى «الحين». والمعنى: أنه خلق السموات والأرض قائما بالحق والحكمة، وحين يقول لشيء من الأشياء كن فيكون ذلك الشيء قوله الحق والحكمة، أى لا يكون شيأ من السموات والأرض وسائر المكونات إلا عن حكمة وصواب"[٤].

وفي قوله تعالى:{وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ} [الأنعام : ٧٣]، وجهان:

أحدهما : أن يقول ليوم القيامة : كن فيكون ، لا يثنّي إليه القول مرة بعد أخرى ، قاله مقاتل[٥].

قال البغوي:فـ"يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وقوموا فيقومون"[٦].

والثاني : أنه يقول للسموات كوني صوراً يُنْفَخ فيه لقيام الساعة ، فتكون صوراً مثل القرآن ، وتبدل سماءً أخرى ، قاله الكلبي[٧].

قال البغوي:" أي: الصدق الواقع لا محالة، يريد أن ما وعده حق كائن"[٨].

قوله تعالى:{قَوْلُهُ الْحَقُّ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" قوله هو الحق الكامل"[٩].

قال البغوي:فـ"يدل على سرعة أمر البعث والساعة، كأنه قال: ويوم يقول للخلق: موتوا فيموتون، وقوموا فيقومون"[١٠].

قال ابن الجوزي:" أي: الصدق الكائن لا محالة"[١١].

قوله تعالى:{وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" وله الملك سبحانه وحده، يوم ينفخ المَلَك في «القرن» النفخة الثانية التي تكون بها عودة الأرواح إلى الأجسام"[١٢].

قال القرطبي:" أي: وله الملك يوم ينفخ في الصور. أو وله الحق يوم ينفخ في الصور. وقيل: هو بدل من{يوم يقول}. و«الصور» قرن من نور ينفخ فيه، النفخة الأولى للفناء والثانية للإنشاء"[١٣].

قال ابن الجوزي:" معنى الكلام: أن الملوك يومئذ لا ملك لهم، فهو المنفرد بالملك وحده، كما قال: والأمر يومئذ لله"[١٤].

---

(١) تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(٢) التفسير الميسر:١٣٦.
(٣) تفسير القرطبي:١٩/٧.
(٤) الكشاف:٣٨/٢.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٦٩/١.
(٦) تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(٧) انظر: النكت والعيون:١٣٣/٢.
(٨) تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(٩) التفسير الميسر:١٣٦.
(١٠) تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(١١) زاد المسير:٤٤/٢.
(١٢) التفسير الميسر:١٣٦.
(١٣) تفسير القرطبي:٢٠/٧.
(١٤) زاد المسير:٤٤/٢.

قال البغوي:" يعني: ملك الملوك يومئذ زائل، كقوله: {مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ} [الفاتحة : ٤]، وكما قال: {وَالْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِ} [الانفطار : ١٩]، والأمر له في كل وقت، ولكن لا أمر في ذلك اليوم لأحد مع أمر الله"[١].

قال الطبري:" خُصّ بالخبر عن ملكه يومئذ، وإن كان الملك له خالصًا في كل وقت في الدنيا والآخرة، لأنه عنى تعالى ذكره أنه لا منازع له فيه يومئذ ولا مدّعي له، وأنه المنفرد به دون كل من كان ينازعه فيه في الدنيا من الجبابرة، فأذعن جميعهم يومئذ له به، وعلموا أنهم كانوا من دعواهم في الدنيا في باطل"[٢].

وفي «الصور» قولان[٣]:

أحدهما: أنه قرن ينفخ فيه نفختان : إحداهما لفناء من كان حيًّا على الأرض ، والثانية لنشر كل مَيْتٍ.

واعتلوا لقولهم ذلك بقوله : {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر : ٦٨] ، وبالخبر الذي روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال إذ سئل عن الصور :"هو قرن يُنفخ فيه"[٤].

وقال مجاهد: "الصور كهيئة البوق"[٥].

وحكى ابن قتيبة: أن الصور: القرن، في لغة قوم من أهل اليمن، وأنشد[٦]:

نحن نطحنا غداة الجمعين ... بالضابحات في غبار النقعين
نطحا شديدا لا كنطح الصورين[٧].

وأنشد الفراء[٨]:

لَوْلا ابْنُ جَعْدَةَ لَمْ تُفْتَحْ قُهُنْدُزُكُمْ ... وَلا خُرَاسَانَ حَتَّى يُنْفَخَ الصُّورُ

رجّحه البغوي[٩]، وقال ابن الجوزي:" وهذا اختيار الجمهور"[١٠].

والثاني: أن {الصور}، جمع:« صورة»، يقال: صورة وصور، بمنزلة سورة وسور، كسورة البناء والمراد نفخ الأرواح في صور الناس، قاله الحسن[١١]، وقتادة[١٢]، وأبو عبيدة[١٣]، وارتضاه البخاري[١٤]، قال النابغة[١٥]:

---

(١) تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(٢) تفسير الطبري:٤٦٣/١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري:١١/-٤٦٢ وما بعدها، وزاد المسير:٤٤/٢-٤٥.
(٤)حسن صحيح. أخرجه أبوداود ٤٧٤٢ والترمذي ٢٤٣٠ و ٣٢٤٤ والنسائي في«الكبرى» ١١٣١٢ و ١١٣٨١ و ١١٤٥٦ وأحمد ٢/ ١٦٢ و ١٩٢ والدارمي ٢/ ٣٢٥ وابن حبان ٧٣١٢ والحاكم ٢/ ٤٣٦ و ٥٠٦ و ٤/ ٥٦٠ وأبونعيم في«الحلية» ٧/ ٢٤٣ والمزي في«تهذيب الكمال» ٤/ ١٣٠ وابن المبارك في«الزهد» ١٥٩٩.
ورواه الحاكم في المستدرك ٤ : ٥٦٠ ، وقال : " حديث صحيح الإسناد ، ولم يخرجاه " ، ووافقه الذهبي. وحسنه الترمذي كلهم من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص، و "القرن " ، البوق يتخذ من القرون ، ينفخ فيه.
(٥) انظر: تفسير البغوي:١٥٧/٣، وزاد المسير:٤٥/٢.
(٦)الرجز في«غريب القرآن» : ٢٦ بدوننسبة.
(٧) انظر: غريب القرآن:٢٦.
(٨)لم أعرف قائله، والبيت بلا نسبة في معاني القرآن للفراء:٣٤٠/١، وتفسير الطبري: ٤٦٣/١١، نسب قريش : ٣٤٥ ، المعرب للجواليقي : ٢٦٧ اللسان "صور".
(٩)انظر: تفسير البغوي:١٥٧/٣.
(١٠) زاد المسير:٤٥/٢.
(١١) انظر: تفسير البغوي:١٥٧/٣.
(١٢) انظر: زاد المسير:٤٥/٢.
(١٣) انظر: مجاز القرآن:١٩٦/١.
(١٤) انظر: الجامع الصحيح:١٩٥/٥.
(١٥)ديوانه: ١٧، واللسان: ٦/ ٥٣،ومجاز القرآن: ٤،وتفسيرالطبري: ١/ ١٠٥،وتفسيرالقرطبي: ١/ ٦٥ والإتقا:ن ١/ ٨٩.

ألم تر أنّ الله أعطاك سورة ... ترى كلّ ملك دونها يتذبذب

قال ابن قتيبة:" السورة في هذا البيت سورة المجد. وهي مستعارة من سورة البناء"[1].

وقال العجّاج[2]:

فربّ ذى سرادق محجور سرت إليه في أعالي السّور

ومنها: سورة المجد أعاليه، وقال جرير[3]:

لمّا أتى خبر الزّبير تواضعت سور المدينة والجبال الخشّع

وكذلك قرأ الحسن، ومعاذ القارئ، وأبو مجلز، وأبو المتوكل :«في الصور» بفتح الواو[4].

قال ثعلب: "الأجود أن يكون {الصور}: القرن، لأنه قال عز وجل: {ونفخ في الصور فصعق من في السماوات ومن في الأرض}، ثم قال: {ثم نفخ فيه أخرى}، ولو كان الصور، كان: ثم نفخ فيها، أو فيهن، وهذا يدل على أنه واحد، وظاهر القرآن يشهد أنه ينفخ في الصور مرتين"[5].

وقد روى أهل التفسير عن أبي هريرة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال: «الصور قرن ينفخ فيه ثلاث نفخات: الأولى: نفخة الفزع. والثانية: نفخة الصعق. والثالثة: نفخة القيام لرب العالمين»[6].

قال ابن عباس: " يعني: بالصور : النفخة الأولى[7] ، ألم تسمع أنه يقول : {وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الأرْضِ إلا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى يعني الثانية فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ} [سورة الزمر : ٦٨]"[8].

---

(١) غريب القرآن:٣٤.

(٢)في ديوانه:رقم ١٥،وفى الكتاب لسيبويه: ٢/ ٢٤٥ واللسان، التاج"سور".

(٣)ديوانه ٣٤٥ والنقائض ٩٦٩ والكتاب ١/ ١٩، ٢٥- والكامل للمبرد ٣١٢ والطبري ١/ ١٤٥ واللسان والتاج "سور"، والخزانة ٢/ ١٦٦.

(٤) انظر: زاد المسير:٢/٤٥.

(٥) زاد المسير:٢/٤٥.

(٦)هو بعض حديث الصور المطول. أخرجه الطبراني في «الطوال» ٣٦، وأبو الشيخ في «العظمة» ٣٨٨ و ٣٨٩ و ٣٩٠، والبيهقي في «البعث» ٦٦٨ و ٦٦٩، والطبري ٢/ ٣٣٠ و ٣٣١ و ١٧/ ١١٠ و ٢٤/ ٣٠ و ٦١ و ٣٠/ ٢٦ و ٣١ و ٣٢ وإسحاق بن راهويه كما في «المطالب العالية» ٢٩٩١ من طرق عن إسماعيل بن رافع، وهو واه، فرواه تارة عن يزيد بن أبي زياد عن محمد بن كعب القرظي عن أبي هريرة وتارة عن محمد بن زياد عن محمد بن كعب عن أبي هريرة وتارة عن محمد بن يزيد ابن أبي زيادة عن رجل من الأنصار عن محمد بن كعب عن أبي هريرة، وتارة عن محمد بن كعب القرظي عن رجل من الأنصار عن أبي هريرة. وأيا كان فمداره على إسماعيل بن رافع، ولم يتابعه على هذا الحديث بطوله أحد، وهو واه. جاء في الميزان ٨٧٢: ضعفة أحمد ويحيى وجماعة، وقال الدارقطني وغيره: متروك، وقال ابن عدي: أحاديثه كلها فيها نظر اهـ باختصار. وقد اضطرب فيه كما سبق. وقد نص الحفاظ على وهن هذا الحديث بطوله فقال الحافظ في «المطالب العالية» ٢٩٩١: فيه ضعف ا. هـ وقال البوصيري، في ١/ ٢١: تابعيه مجهول. وجاء في الفتح ١١/ ٣٦٨- ٣٦٩ عقب حديث ٦٥١٨ ما ملخصه: وأخرجه عبد بن حميد وأبي يعلى في «الكبير» وعلي بن معبد في «الطاعة والمعصية» ومداره على إسماعيل بن رافع، واضطرب في سنده مع ضعفه، وأخرجه إسماعيل بن أبي زياد الشامي أحد الضعفاء في «تفسيره» عن محمد بن عجلان عن محمد القرظي واعترض مغلطاي على عبد الحق في تضعيفه الحديث بإسماعيل بن رافع، وخفي عليه أن الشامي أضعف منه، ولعله سرقه من إسماعيل فلزقه بابن عجلان وقد قال الدارقطني: يضع الحديث. وقد قال الحافظ ابن كثير: جمعه إسماعيل بن رافع من عدة آثار فساقه كله مساقا واحدا ا. هـ. وقد صحح الحديث من طريق إسماعيل بن رافع القاضي أبو بكر بن العربي في «سراجه» وتبعه القرطبي في «التذكرة» وقول عبد الحق في تضعيفه أولى، وضعفه قبله البيهقي اهـ كلام الحافظ، وتكلم عليه أيضا ابن كثير رحمه الله في «البداية والنهاية» ٢/ ٢٢٣ و ٢٢٤.

وخلاصة القول: أنه حديث ضعيف بهذا التمام، وبعض ألفاظه في الصحيحين وغيرهما وبعضه في الكتاب المعتبرة وبعضه الآخر منكر لا يتابع عليه انظر «تفسير ابن كثير» ٢/ ١٩٠.

(٧) يعني: نفخة الصعق.

(٨) أخرجه الطبري(١٣٤٣٣):١١/٤٦٤.

قال الطبري:" والصواب من القول في ذلك عندنا ، ما تظاهرت به الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : «إن إسرافيلَ قد التقم الصور وحنى جبهته ، ينتظر متى يؤمر فينفخ»[١]، وأنه قال : «الصور قرن ينفخ فيه»[٢]"[٣].

وروى إسحاق بن يوسف الأزرق عن أبي عمرو «ننفخ» بنونين[٤].

قوله تعالى:{عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن حواسكم -أيها الناس - وما تشاهدونه"[٥].

قال ابن عباس:" يعني : أن عالم الغيب والشهادة ، هو الذي ينفخ في الصور"[٦].

وقال الحسن: " الشهادة، ما قد رأيتم من خلقه، والغيب: ما غاب عنكم ما لم تروه"[٧].

قال الطبري:أي:" عالم ما تعاينون : أيها الناس ، فتشاهدونه ، وما يغيب عن حواسكم وأبصاركم فلا تحسونه ولا تبصرونه"[٨].

قال البغوي:أي:" يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه، لا يغيب عن علمه شيء"[٩].

قال ابن الجوزي:" {الغيب}: وهو ما غاب عن العباد مما لم يعاينوه، والشهادة وهو ما شاهدوه ورأوه"[١٠].

قوله تعالى:{وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ} [الأنعام : ٧٣]، أي:" وهو الحكيم الذي يضع الأمور في مواضعها، الخبير بأمور خلقه"[١١].

قال الطبري:"{وهو الحكيم}، في تدبيره وتصريفه خلقه من حال الوجود إلى العدم ، ثم من حال العدم والفناء إلى الوجود ، ثم في مجازاتهم بما يجازيهم به من ثواب أو عقاب، {الخبير}، بكل ما يعملونه ويكسبونه من حسن وسيئ ، حافظ ذلك عليهم ليحازيهم على كل ذلك، يقول تعالى ذكره : فاحذروا ، أيها العادلون بربكم ، عقابَه ، فإنه عليم بكل ما تأتون وتذرون ، وهو لكم من وراء الجزاء على ما تعملون"[١٢].

عن أبي العالية: قوله:"{الحكيم}، قال: حكيم في أمره"[١٣].

عن محمد بن جعفر بن الزبير :قوله: {الحكيم}، قال: الحكيم في عذره ورحمته إلى عباده"[١٤].

الفوائد:

١- في الآية يعرفنا الله - تبارك وتعالى - عن نفسه، ويسوق لنا ربنا - تبارك وتعالى - مشاهد كثيرة تعرفنا به، وتدلُّنا عليه، فهو خالق السموات والأرض، وهو الذي له الملك يوم القيامة، وهو سبحانه الذي يعلم ما غاب عن العباد وما يشاهدونه.

٢- تقرير المعاد والحساب والجزاء.

---

(١)رواه الترمذي في باب " ما جاء في الصور " ، وفي أول تفسير سورة الزمر وذكره ابن كثير في تفسيره ٣ : ٣٣٧ ، ثم قال : " رواه مسلم في صحيحه " ، ولم أستطع أن أعرف مكانه في صحيح مسلم.

(٢) سبقق تخريجه انظر: القول الأول.

(٣) تفسير الطبري:٤٦٣/١١.

(٤) انظر: زاد المسير:٤٤/٢.

(٥) التفسير الميسر:١٣٦.

(٦) أخرجه الطبري(١٣٤٣٢):٤٦٣/١١-٤٦٤.

(٧) .أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٨٦):ص١٣٢٤/٤

(٨) تفسير الطبري:٤٦٤/١١.

(٩) تفسير البغوي:١٥٨/٣.

(١٠) زاد المسير:٤٦/٢.

(١١) التفسير الميسر:١٣٦.

(١٢) تفسير الطبري:٤٦٤/١١-٤٦٥.

(١٣) .أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٨٧):ص١٣٢٤/٤

(١٤) .أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٨٨):ص١٣٢٤/٤

٣- انه تعالى: لم يخلق السموات والارض باطلا ولا لعبا ولا عبثا بل خلق ذلك وغيره بالحق وللحق ويقضي الحق ولذلك تسمى سبحانه وتعالى بالحق وكان قوله الحق وحكمه الحق فهو سبحانه وتعالى الحق.

٤- ومن فوائد قوله تعالى: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ}: أن الحق الذي خلق به السموات والأرض قد كان قبل السموات والأرض، والحق قوله، وليس قوله مخلوقًا.

٥- ويستفاد من الفائدة السابقة: الرد على تغاليط الجهمية، قال ابن بطة": ثم إن الجهمي ادعى أمرًا آخر، فقال: إن الله -عز وجل- يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ} [الدخان: ٣٨] فزعم أن القرآن لا يخلو أن يكون في السموات أو في الأرض أو فيما بينهما.

فيقال له: إن الله -عز وجل- يقول: {وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ} [الحجر: ٨٥] فالحق الذي خلق به السموات والأرض وما بينهما هو قوله وكلامه، لأنه هو الحق وقوله الحق: {قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ} [ص: ٨٤] .

وقال: {وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ} [الأنعام: ٧٣] فأخبر بأن الخلق كله كان بالحق والحق قوله وكلامه.

وقال: {خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ بِالْحَقِّ} [النمل: ٣] وقال: {مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلاَّ بِالْحَقِّ} [يونس: ٥] يعني قوله وكلامه، فقوله وكلامه قبل السموات والأرض وما بينهما، فتفهموا -رحمكم الله- ولا يستفزنكم الجهمي الخبيث بتغاليطه وتمويهه وتشكيكه ليزلكم عن دينكم، فإن الجهمي لا يألوا جهدًا في تكفير الناس وتضليلهم. عصمنا الله وإياكم من فتنته برحمته"[(١)].

٦- ومنها: إثبات اسمين من أسماء الله سبحانه وتعالى. وهما «الحكيم»«الخبير»:

- فـ«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء. صرف عن مفعل إلى فعيل، كقولهم: أليم بمعنى: مؤلم، وسميع بمعنى: مسمع؛ كقوله -جل وعز-: {آلر، تلك آيات الكتاب الحكيم} [يونس:١] وقال في موضع آخر: {كتاب أحكمت آياته} [هود: ١]، فدل على أن المراد بـ«الحكيم هنا الذي أحكمت آياته، صرف عن مفعل إلى فعيل.

ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها. إذ ليس كل الخليقة موصوفا بوثاقة البنية، وشدة الأسر كالبقة، والنملة، وما أشبههما من ضعاف الخلق، إلا أن التدبير فيهما، والدلالة بهما على كون الصانع وإثباته، ليس بدون الدلالة عليه بخلق السموات والأرض والجبال وسائر معاظم الخليقة، وكذلك. هذا في قوله -جل وعز-: {الذي أحسن كل شيء خلقه} [السجدة:٧] لم تقع الإشارة به إلى الحسن الرائق في المنظر، فإن هذا المعنى معدوم في القرد، والخنزير، والدب، وأشكالها من الحيوان، وإنما ينصرف المعنى فيه إلى حسن التدبير في إنشاء كل شيء من خلقه على ما أحب أن ينشئه عليه وإبرازه على الهيئة التي أراد أن يهيئه عليها. كقوله [تعالى]: {وخلق كل شيء فقدره تقديرا} [الفرقان:٢] [(٢)].

- و«الخبير»:"هو العالم بكنه الشيء، المطلع على حقيقته، كقوله تعالى: {فاسأل به خبيرا} [الفرقان:٥٩]. يقال فلان بهذا الأمر خبير؛ وله به خبر، وهو أخبر به من فلان؛ أي: أعلم. إلا أن الخبر في صفة المخلوقين إنما يستعمل في نوع العلم الذي يدخلة الاختبار، ويتوصل إليه بالامتحان، والاجتهاد، دون النوع المعلوم ببدائه العقول.

وعلم الله -سبحانه- سواء فيما غمض من الأشياء و فيما لطف، وفيما تجلى به منه وظهر. وإنما تختلف مدارك علوم الآدميين الذين يتوصلون إليها بمقدمات من

---

(١)الإبانة:٢/١٩٠-١٩١.
(٢) انظر:شأن الدعاء:١/٧٢-٧٣.

حس، وبمعاناة من نظر، وفكر؛ ولذلك قيل لهم: ليس الخبر كالمعاينة، وتعالى الله عن هذه الصفات علوا كبيرا"(١).

والفرق بين « العلم»، و«الخبر»: "أن الخبر هو العلم بكنه المعلومات على حقائقها؛ ففيه معنى زائد على العلم"(٢).

القرآن

{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ (٧٤)} [الأنعام : ٧٤]

التفسير:

واذكر -أيها الرسول- مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، إذ قال له: أتجعل من الأصنام آلهة تعبدها من دون الله تعالى؟ إني أراك وقومك في ضلال بيِّن عن طريق الحق.

قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ} [الأنعام : ٧٤]، أي:" واذكر -أيها الرسول- مُحاجَّة إبراهيم عليه السلام لأبيه آزر، إذ قال له"(٣).

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره لنبيه محمد صلى الله عليه وسلم : واذكر ، يا محمد لحجاجك الذي تحاجّ به قومك ، وخصومتك إياهم في آلهتهم ، وما تراجعهم فيها ، مما نلقيه إليك ونعلمكه من البرهان والدلالة على باطل ما عليه قومك مقيمون ، وصحة ما أنت عليه مقيم من الدين ، وحقيقة ما أنت عليهم به محتج حِجَاج إبراهيم خليلي قومَه ، ومراجعته إياهم في باطل ما كانوا عليه مقيمين من عبادة الأوثان ، وانقطاعه إلى الله والرضا به وليًّا وناصرًا دون الأصنام، فاتخذه إمامًا واقتد به ، واجعل سيرته في قومك لنفسك مثالا إذ قال لأبيه مفارقًا لدينه ، وعائبًا عبادته الأصنام دون بارئه وخالقه : يا آزر"(٤).

وفي قوله تعالى:{وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ} [الأنعام : ٧٤]، أقوال:

أحدها : أن آزر اسم أبيه ، قاله ابن عباس(٥)، والحسن(٦)، والسدي(٧)، ومحمد بن إسحاق(٨)، والضحاك(٩)، والكلبي(١٠).

قال محمد : " «آزر»، أبو إبراهيم. وكان ، فيما ذكر لنا والله أعلم ، رجلا من أهل كُوثَى ، من قرية بالسواد ، سواد الكوفة"(١١).

قال ابن عباس:"يعني بآزر: الصنم، وأبو إبراهيم اسمه: يازر. وأمه اسمها: مثاني. وامرأته اسمها: سارة. وأم إسماعيل اسمها: هاجر، وهي سرية إبراهيم"(١٢).

روي عن سعيد بن عبد العزيز قال : هو«آزر»، وهو «تارح»، مثل: «إسرائيل» و«يعقوب»"(١٣).

---

(١) شأن الدعاء:٦٣.
(٢) الفروق، ابو هلال العسكري:٧٤.
(٣) التفسير الميسر:١٣٧.
(٤) تفسير الطبري:٤٦٦/١١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٤٨٩):ص١٣٢٤/٤.
(٦) انظر: النكت والعيون:١٣٤/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٧٤٩٠):ص١٣٢٤/٤.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٣٥):ص٤٦٦/١١.
(٩) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان:١٦٠/٤.
(١٠) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان:١٦٠/٤.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٤٣٥):ص٤٦٦/١١.
(١٢) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٨٩):ص١٣٢٤/٤.
(١٣) أخرجه ابن أبي حاتم(٧٤٨٩):ص١٣٢٤/٤.

قال الزمخشري:" «آزر» اسم أبى إبراهيم عليه السلام. وفي كتب التواريخ أن اسمه بالسريانية: تارح. والأقرب أن يكون وزن«آزر»: فاعل، مثل: تارح وعابر وعازر وشالخ وفالغ وما أشبهها من أسمائهم، وهو عطف بيان {لأبيه}"(١).

قال ابن عطية:" وقد ثبت أن اسمه تارح فله على هذا القول اسمان كيعقوب وإسرائيل، وهو في الإعراب على هذا بدل من الأب المضاف في موضع خفض وهو اسم علم، وقال مجاهد بل هو اسم صنم وهو في موضع نصب بفعل مضمر تقديره: أتتخذ أصناما. وفي هذا ضعف"(٢).

والثاني : أن آزر اسم صنم ، وكان اسم أبيه تارح ، قال مجاهد(٣)، وسعيد بن المسيب(٤)، ويمان(٥).

كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه أتتخذ آزر إلها؟ أتتخذ أصناما آلهة؟ فكأنه جعل أصناما بدلا من آزر، والاستفهام معناه الإنكار(٦).

والثالث : أنه ليس باسم ، وإنما هو صفة سب بعيب ، وهذا قول سليمان التيمي(٧).

عن معتمر بن سليمان قال: "سمعت أبي يقرأ: {وإذ قال إبراهيم لأبيه آزر}، قال: بلغني أنها أعوج، وأنها أشد كلمة قالها إبراهيم صلى الله عليه وسلم"(٨).

وفي معناه ثلاثة أقوال:

أحدها: أنه المعوج، كأنه عابه بزيغه وتعويجه عن الحق، ذكره الفراء(٩)، وهو قول سليمان(١٠).

والثاني: أنه المخطئ، فكأنه قال: يا مخطئ أتتخذ أصناما؟ ذكره الزجاج(١١).

قال ابن عطية:" قال بعضهم بل هو صفة ومعناه هو المعوج المخطئ. ويعترض هذا بأن «آزر» إذا كان صفة فهو نكرة ولا يجوز أن تنعت المعرفة بالنكرة ويوجه ذلك على تحامل بأن يقال أريدت فيه الألف واللام وإن لم يلفظها، وإلى هذا أشار الزجاج لأنه قدر ذلك فقال لأبيه المخطئ، وبأن يقال إن ذلك مقطوع منصوب بفعل تقديره اذن المعوج أو المخطئ، والا تبقى فيه الصفة بهذه الحال. وهذا ضعيف، وقيل نصبه على الحال كأنه قال: وإذ قال إبراهيم لأبيه وهو في حال عوج وخطأ"(١٢).

والرابع: وقيل: معناه الشيخ الهنم بالفارسية. ذكره الثعلبي(١٣).

والرابع: أنه لقب لأبيه، وليس باسمه، قاله مقاتل بن حيان(١٤).

قال الفراء:" وقد أجمع أهل النسب على أنه ابن تارح، فكأن «آزر» لقب له"(١٥).

قال ابن الانباري: "قد يغلب على اسم الرجل لقبه، حتى يكون به أشهر منه باسمه"(١٦).

---

(١) الكشاف:٣٨/٢.
(٢) المحرر الوجيز:٣١٠/٢.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٣٧):ص٤٦٦/١١.
(٤) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان:١٦٠/٤.
(٥) عزاه إليه الثعلبي في الكشف والبيان:١٦٠/٤.
(٦) انظر : معاني القرىن للزجاج: ٢٦٥/٢، وزاد المسير:٤٦/٢.
(٧) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٤٩٣):ص١٣٢٥/٤.
(٨) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٤٩٣):ص١٣٢٥/٤.
(٩) انظر: معاني القرآن:٣٤٠/١.
(١٠) انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٤٩٣):ص١٣٢٥/٤.
(١١) انظر: معاني القرآن:٢٦٥/٢.
(١٢) المحرر الوجيز:٣١٠/٢.
(١٣) انظر: الكشف والبيان:١٦٠/٤.
(١٤) انظر: الكشف والبيان:١٦٠/٤، وتفسير البغوي:١٥٨/٣، وزاد المسير:٤٦/٢.
(١٥)معاني القرآن:٣٤٠/١.
(١٦) نقلا عن: زاد المسير:٤٦/٢.

قال الماوردي:"فإن قيل : فكيف يصح من إبراهيم - وهو نبي - سبَّ أباه ؟
قيل : لأنه سبّه بتضييعه حق الله تعالى ، وحق الوالد يسقط في تضييع حق الله"[١].

قرأ يعقوب:«آزرُ»، بالرفع، يعني: «آزر»، والقراءة المعروفة بالنصب، وهو اسم أعجمي لا ينصرف فينتصب في موضع الخفض[٢].

قوله تعالى:{أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً} [الأنعام : ٧٤]، أي:" أتجعل من الأصنام آلهة تعبدها من دون الله تعالى؟"[٣].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن قيل إبراهيم لأبيه آزر أنه قال:{أتتخذ أصنامًا آلهة}، تعبدها وتتخذها ربًّا دون الله الذي خلقك فسوَّاك ورزقك؟، و«الأصنام»: جمع:صنم، والصنم: التمثال من حجر أو خشب أو من غير ذلك في صورة إنسان، وهو«الوثن»، وقد يقال للصورة المصوّرة على صورة الإنسان في الحائط وغيره:صنم، ووثن"[٤].

قال المراغي:أي:" يا آزر أتتخذ أصناما آلهة تعبدها من دون الله الذي خلقك وخلقها؟ فهو المستحق للعبادة دونها"[٥].

قال النسفي:" استفهام توبيخ، أى أتتخذها آلهة وهي لا تستحق الإلهية"[٦].

قال السعدي:" أي: لا تنفع ولا تضر وليس لها من الأمر شيء"[٧].

قوله تعالى:{إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ} [الأنعام : ٧٤]، أي:" إني أراك وقومك في ضلال بيِّن عن طريق الحق"[٨].

قال السعدي:" حيث عبدتم من لا يستحق من العبادة شيئا، وتركتم عبادة خالقكم، ورازقكم، ومدبركم"[٩].

قال الطبري:" يقول:{إني أراك}، يا آزر،{وقومك} الذين يعبدون معك الأصنام ويتخذونها آلهة ، في زوال عن محجّة الحق، وعدول عن سبيل الصواب، يتبين لمن أبصَره أنه جورٌ عن قصد السبيل، وزوالٌ عن محجة الطريق القويم. يعني بذلك أنه قد ضلّ هو وهم عن توحيد الله وعبادته، الذي استوجب عليهم إخلاص العبادة له بآلائه عندهم، دون غيره من الآلهة والأوثان"[١٠].

قال الشنقيطي:" أي: في ذهاب عن طريق الحق بين واضح لكل من له أدنى عقل، كيف تتركون عبادة الخالق الرازق النافع الضار المحيي المميت وتعبدون جمادات لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر؟!! هذا هو الضلال المبين الواضح لكل من له أدنى عقل"[١١].

قال المراغي:" أي إنى أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك، فى ضلال عن الصراط المستقيم، مبين لا شبهة فيه للهدى، فإن هذه الأصنام تماثيل تنحتونها من الحجارة أو تقطعونها من الخشب، أو تصنعونها من المعادن، فأنتم أرفع منها قدرا وأعز جانبا، ولم تكن آلهة بذاتها بل باتخاذكم إياها ولا يليقبالعاقل أن يعبد ما هو مساو له فى الخلق، ولا ما هو مقهور بتصرف الخالق فيه، ومحتاج إلى الغنى القادر، ولا يقدر على نفع ولا ضر، ولا إعطاء ولا منع.

---

(١) النكت والعيون:١٣٤/٢.
(٢) انظر: تفسير البغوي:١٥٨/٣.
(٣) التفسير الميسر:١٣٧.
(٤) تفسير الطبري:٤٦٩/١١.
(٥) تفسير المراغي:١٦٨/٧.
(٦) تفسير النسفي:٥١٥/١.
(٧) تفسير السعدي:٢٦٢.
(٨) التفسير الميسر:١٣٧.
(٩) تفسير السعدي:٢٦٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤٦٩/١١.
(١١) العذب المنير من مجالس الشنقيي في التفسير:٤٠٨/١.

والتعبير بالضلال البين بيان لما حدث منهم بما تدل عليه اللغة كقوله تعالى لخاتم أنبيائه: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى : ٧] وقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الذي يسلكه: إن الطريق من هنا فأنت حائد أو ضال عنه.

وقد دلت آثار الكشف الحديث فى العراق على صدق ما عرف فى التاريخ من عبادة أولئك القوم للأصنام الكثيرة حتى كان لكل منهم صم للعبادة خاص به، سواء فى ذلك الملوك والسوقة، وكانوا يعبدون الفلك والنيرات من الكواكب عامة والدراري السبع خاصة"(١).

قال صاحب المنار:" «الضلال»: العدول عن الطريق الموصل إلى الغاية التي يطلبها العاقل من سيره الحسي أو المعنوي، وغاية الدين تزكية النفس بمعرفة الله وعبادته، وما شرعه من الأعمال والآداب للفوز بسعادة الدارين. وأما عبادة غير الله تعالى - ولو بقصد التقرب إليه - فهو مدس للنفس مفسد لها، فلا يوصلها إلا إلى الهلاك الأبدي. والتعبير عنها بالضلال ليس فيه سب ولا جفاء ولا غلظة كما زعم من استشكله من الولد للوالد، وقابله بأمر الله تعالى لموسى وهارون أن يقولا لفرعون قولا لينا، وأجاب عنه بأنه حسن للمصلحة، كالشدة في تربية الأولادأحيانا، ومن استدل به على أن آزر كان عم إبراهيم لا والده، فالصواب أن التعبير بالضلال البين هنا بيان للواقع باللفظ الذي يدل عليه لغة، كقوله تعالى: {وَوَجَدَكَ ضَالًّا فَهَدَى} [الضحى : ٧] وكقولك لمن تراه منحرفا عن الطريق الحسي: إن الطريق من هنا، فأنت حائد أو ضال عنه، ومعنى قول إبراهيم لأبيه: إني أراك وقومك الذين يعبدون هذه الأصنام مثلك في ضلال - عن صراط الحق المستقيم - بين ظاهر لا شبهة للهدى فيه، فإن هذه الأصنام التي اتخذتموها آلهة لكم لم تكن آلهة في أنفسها، بل باتخاذكم وجعلكم، ولستم من خلقها ولا من صنعها، بل هي من صنعكم، ولا تقدر على نفعكم ولا ضركم، وذلك أنها تماثيل تنحتونها من الحجارة، أو تقتطعونها من الخشب، أو تصوغونها من المعدن، فأنتم أفضل منها، ومساوون في أصل الخلقة لمن جعلت ممثلة لهم من الناس، أو لما صنعت مذكرة به من النيرات، ولا يليق بالإنسان أن يعبد ما هو دونه، ولا ما هو مساو له في كونه مخلوقا مقهورا بتصرف الخالق، ومربوبا فقيرا محتاجا إلى الرب الغني القادر، وقد دلت آثار أولئك القوم التي اكتشفت في العراق على صحة ما عرف في التاريخ من عبادتهم للأصنام الكثيرة، حتى كان يكون لكل منهم صنم خاص به، سواء الملوك والسوقة في ذلك، وكانوا يعبدون الفلك ونيراته عامة، والدراري السبع خاصة"(٢).

الفوائد:

١- إنكار الشرك على أهله، وعدم إقرارهم ولو كانوا أقرب الناس إلى المرء.

٢- أن المشركين كانوا يعبدون الأصنام والأوثان لذاتها ولهذا جاء النهي عن عبادة هذه الأوثان والأصنام صريحا.

٣- ومن الفوائد: أن الناس كانوا في قديم الدهر عبدة الكواكب ثم اتخذوا لكل كوكب صنما ومثالا واشتغلوا بعبادتها وكانت نيتهم توجيه تلك العبادات إلى الكواكب ولهذا السبب لما حكى الله عز وجل عن الخليل عليه السلام أنه قال لأبيه آزر: {أتتخذ أصناما آلهة إني أراك وقومك في ضلال مبين} ثم ذكر عقيب هذا الكلام مناظرة إبراهيم مع القوم في إلهية الكواكب.

٤- ويستفاد من قوله تعالى:{أَتَتَّخِذُ أَصْنَاماً آلِهَةً}، أن كونها باطلة لا ينافي تسميتها آلهة، فكما تسمى آلهة وأندادا وأربابا وشركاء وأولياء؛ لأن من عبدها فقد جعلها مألوهة له وجعللها شركة في العبادة التي هي حقه، ومثلها بالله في عبادته لها، واتخذها أربابا وأولياء.

---

(١) تفسير المراغي:١٦٨/٧-١٦٩.

(٢) تفسير المنار:٤٦٢/٧.

القرآن

{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ (٧٥)} [الأنعام : ٧٥]

التفسير:

وكما هدينا إبراهيم عليه السلام إلى الحق في أمر العبادة نُريه ما تحتوي عليه السموات والأرض من ملك عظيم، وقدرة باهرة، ليكون من الراسخين في الإيمان.

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام : ٧٥]، أي:" وكما هدينا إبراهيم عليه السلام إلى الحق في أمر العبادة نُريه ما تحتوي عليه السموات والأرض من ملك عظيم، وقدرة باهرة"(١).

قال الطبري:أي:" وكما أريناه البصيرة في دينه، والحقّ في خلافه ما كانوا عليه من الضلال، نريه ملكوت السماوات والأرض ،يعني: ملكه"(٢).

قال الثعلبي:" يعني كما أريناه البصيرة في دينه والحق في خلاف قومه نريه {ملكوت السماوات والأرض}، أي: ملكهما"(٣).

قال ابن عطية:" الآية المتقدمة تقضي بهداية إبراهيم عليه السلام والإشارة هنا بـ{ذلك} هي إلى تلك الهداية، أي :وكما هديناه إلى الدعاء إلى الله وإنكار الكفر أريناه ملكوت، ونري لفظها الاستقبال ومعناها المضي، وحكى المهدوي: أن المعنى وكما هديناك يا محمد فكذلك نري إبراهيم. وهذا بعيد إذ اللفظ لا يعطيه"(٤).

وفي المراد بقوله تعالى:{مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} [الأنعام : ٧٥]، وجوه من التأويل:

أحدها : أنه خلق السموات والأرض ، قاله ابن عباس(٥)، وقتادة(٦).

والثاني : مُلك السموات والأرض .

واختلف من قال بهذا فيه على وجهين :

أحدهما : أن الملكوت هو المُلك بالنبطية ، قاله عكرمة(٧).

والثاني : أنه المُلك بالعربية ، يقال مُلك وملكوت كما يقال رهبة ورهبوت ، ورحمة ورحموت ، والعرب تقول : رهبوت خير من رحموت ، أي أن تُرْهَب خير من أن تُرْحَم ، قاله الأخفش(٨)، وابن قتيبة(٩).

والثالث : معناه: آيات السماوات والأرض. قاله مجاهد(١٠)، وسعيد بن جبير(١١)، والسدي(١٢)، وغيرهم.

ومن الأخبار التي وردت في هذا المعنى:

روي عن مجاهد، قال:" فرجت له السماوات فنظر إلى ما فيهنّ، حتى انتهى بصره إلى العرش، وفرجت له الأرضون السبع فنظر ما فيهن"(١٣).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٧.
(٢) تفسير الطبري:٤٧٠/١١.
(٣) الكشف والبيان:١٦٠/٤-١٦١.
(٤) المحرر الوجيز:٣١١/٢.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٤١):ص٤٧٠/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٤٢):ص٤٧٠/١١-٤٧١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٤٤):ص٤٧١/١١.
(٨) حكاه عنه الماوردي في النكت والعيون:١٣٥/٢، ولم أجده في معاني القرآن.
(٩) انظر: غريب القرآن:١٣٥.
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٤٦)-(١٣٤٤٨):ص٤٧١/١١-٤٧٢.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٥١):ص٤٧٢/١١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٤٩):ص٤٧٢/١١.
(١٣) أخرجه الطبري(١٣٤٥٠):ص٤٧٢/١١.

قال السدي:" أقيم على صخرة وفتحت له السماوات، فنظر إلى ملك الله فيها، حتى نظر إلى مكانه في الجنة. وفتحت له الأرضون حتى نظر إلى أسفل الأرض، فذلك قوله: {وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا} [سورة العنكبوت: ٢٧] ، يقول: آتيناه مكانه في الجنّة، ويقال:"أجره" الثناء الحسن"[١].

عن سلمان قال: "لما رأى إبراهيم ملكوت السماوات والأرض، رأى عبدًا على فاحشة، فدعا عليه، فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. ثم رأى آخر على فاحشة، فدعا عليه فهلك. فقال: أنزلوا عبدِي لا يُهْلِك عبادِي!"[٢].

قال عطاء:" عطاء قال: "لما رفع الله إبراهيم في الملكوت في السماوات، أشرفَ فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رُفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فهلك. ثم رفع فأشرف، فرأى عبدًا يزني، فدعا عليه، فنودي: على رِسْلِك يا إبراهيم، فإنك عبد مستجابٌ لك، وإني من عبدي على ثلاث: إما أن يتوب إليّ فأتوب عليه، وإما أن أخرج منه ذرية طيبة، وإما أن يتمادى فيما هو فيه، فأنا من ورائه"[٣].

وعن أسامة: "أن إبراهيم خليل الرّحمن حدَّث نفسه أنه أرحمُ الخلق، وأن الله رفعه حتى أشرفَ على أهل الأرض، فأبصر أعمالهم. فلما رآهم يعملون بالمعاصي قال: اللهم دمِّر عليهم! فقال له ربه: أنا أرحم بعبادي منك، اهبطْ، فلعلهم أن يتوبوا إليّ ويُراجعوا"[٤].

والرابع: معناه : خلق السماوات والأرض وما بينهما من الآيات، قاله مقاتل[٥].

والخامس : هو الشمس والقمر والنجوم ، قاله الضحاك[٦]، وهو مروي عن ابن عباس قي رواية علي بن ابي طلحة[٧].

وقال مجاهد:" الشمس والقمر"[٨].

والسادس : أن ملكوت السماوات : الشمس، والقمر، والنجوم ، وملكوت الأرض : الجبال ، والشجر ، والبحار ، قاله قتادة[٩].

قال قتادة:" : ذكر لنا أن نبيّ الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم، فُرَّ به من جبَّار مُتْرَف، فجعل في سَرَبٍ، وجعل رزقه في أطرافه، فجعل لا يمصُّ إصبعًا من أصابعه إلا وجد فيها رزقًا. فلما خرج من ذلك السَّرَب، أراه الله ملكوت السماوات، فأراه شمسًا وقمرًا ونجومًا وسحابًا وخلقًا عظيمًا، وأراه ملكوت الأرض، فأراه جبالا وبحورًا وأنهارًا وشجرًا ومن كلّ الدواب وخلقًا عظيمًا"[١٠].

قال الطبري:" وأولى الأقوال في تأويل ذلك بالصواب، قولُ من قال: عنى الله تعالى ذكره بقوله:"وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض"، أنه أراه ملك السماوات والأرض، وذلك ما خلق فيهما من الشمس والقمر والنجوم والشجر والدواب وغير ذلك من عظيم سلطانه فيهما، وجلَّى له بواطنَ الأمور وظواهرَها، لما ذكرنا قبل من معنى"الملكوت"، في كلام العرب: الملك، إذ حكي عن العرب سماعًا:«له مَلَكوت اليمنِ والعراق»، بمعنى: له ملك ذلك"[١١].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٤٤٩):ص٤٧٢/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٤٥٢):ص٤٧٢/١١-٤٧٣.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٤٥٣):ص٤٧٣/١١.
(٤) أخرجه الطبري(١٣٤٥٤):ص٤٧٣/١١.
(٥) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان:٥٧٠/١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٥٥):ص٤٧٣/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٥٧):ص٤٧٤/١١.
(٨) .أخرجه الطبري(١٣٤٥٦):ص٤٧٤/١١
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٥٨):ص٤٧٤/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٤٥٩):ص٤٧٤/١١.
(١١) تفسير الطبري:٤٧٠/١١، ٤٧٥. [بتصرف بسيط].

وقرئ: «ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض»، بالتاء ورفع «الملكوت». ومعناه: تبصره دلائل الربوبية[١].

قوله تعالى:{وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ} [الأنعام : ٧٥]، أي:" ليكون من الراسخين في الإيمان"[٢].

قال مقاتل:يعني:{ مِنَ الْمُوقِنِينَ }" بالرب أنه واحد لا شريك له"[٣].

قال النحاس:" أي: وليكون من الموقنين فعلنا ذلك"[٤].

قال الطبري:" يعني: أنه أراه ملكوت السماوات والأرض، ليكون ممن يقرّ بتوحيد الله، ويعلم حقيقة ما هداه له وبصّره إياه، من معرفة وحدانيته، وما عليه قومه من الضلالة، من عبادتهم الأصنام، واتخاذهم إياها آلهة دون الله تعالى"[٥].

قال ابن الجوزي:" هذا عطف على المعنى، لأن معنى الآية: نريه ملكوت السماوات والأرض ليستدل به، وليكون من الموقنين"[٦].

قال ابن كثير:"قيل : «الواو»زائدة ، تقديره : وكذلك نري إبراهيم ملكوت السموات والأرض ليكون من الموقنين ، كقوله : { وَكَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ الْمُجْرِمِينَ } [الأنعام : ٥٥]. وقيل : بل هي على بابها ، أي نريه ذلك ليكون عالما وموقنا"[٧].

وفي ما يوقن به ثلاثة أقوال[٨]:

أحدها: وحدانية الله وقدرته.

والثاني: نبوته ورسالته.

والثالث: ليكون موقنا بعلم كل شيء حسا، لا خبرا.

أخرج الطبري عن ابن عباس قوله:"{وليكون من الموقنين}، أنه جلَّى له الأمر سرَّه وعلانيتَه، فلم يخف عليه شيء من أعمال الخلائق. فلما جعل يلعن أصحاب الذنوب، قال الله: إنك لا تستطيع هذا! فردَّه الله كما كان قبل ذلك"[٩].

قال الطبري:" فتأويل ذلك على هذا التأويل: أريناه ملكوت السماوات والأرض ليكون ممن يوقن علم كل شيء حسًّا لا خبرًا"[١٠].

وعن عبد الرحمن بن عائش الحضرميّ قال: "صلى بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات غداةٍ، فقال له قائل: ما رأيتك أسفرَ وجهًا منك الغداة!قال: ومالي، وقد تبدّى لي ربّي في أحسن صورة، فقال: فيم يختصم الملأ الأعلى، يا محمد؟ قلت: أنت أعلم يا رب! فوضع يده بين كتفي فوجدت بردَها بين ثدييّ، فعلمت ما في السماوات والأرض، ثم تلا هذه الآية:{وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين}"[١١].

الفوائد:

١- فضل الله تعالى وتفضله على من يشاء بالهداية الموصلة إلى أعلى درجاتها.
٢- مطلب اليقين وأنه من أشرف المطالب وأعزها، ويتم بالتفكر والنظر في الآيات.
٣- الاستدلال بالحدوث على وجود الصانع الحكيم وهو الله عز وجل.

---

(١) انظر: الكشاف:٣٨/٢.
(٢) التفسير الميسر:١٣٧.
(٣)تفسير مقاتل بن سليمان:٥٧٠/١.
(٤) إعراب القرآن:٩٦/١.
(٥) تفسير الطبري:٤٧٥/١١.
(٦) زاد المسير:٤٧/٢.
(٧) تفسير ابن كثير:٢٩١/٣.
(٨) انظر: زاد المسير:٤٧/٢.
(٩) تفسير الطبري(١٣٤٦٠):ص٤٧٥/١١.
(١٠) تفسير الطبري:٤٧٥/١١.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٤٦١):ص٤٧٦/١١، ورواه أحمد من حديث ابن عباس في مسنده رقم: ٣٤٨٤،بمثله. وخرجه السيوطي في الدرالمنثور ٥: ٣١٩ - ٣٢١.

٤- أن قوله تعالى: {وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} من أعظم الأدلة على المسألة ببديهة العقل، لأن من رأى نخلاً كثيراً لا يخالجه شك أن المدبر له ليس نخلة واحدة منه. فكيف بملكوت السموات والأرض؟

٥- في الآية الحث على النظر والاستدلال والتفكر في خلق الله وصنعه وتدبيره، فإنه يدل عليه وعلى حكمته وجوده وعدله، وأن في جميع ما خلقه دليلا عليه وداع إليه.

٦- ومن الفوائد لن الايمان يزيد وينقص، وهو مذهب اهل السنة والجماعة[١]، ولولا ذلك ما كان في الجنات درجات.

وسائر المؤمنين يزيد إيمانهم في بواطنهم بالقوة واليقين وينقص من فروعه بالتقصير في الفرائض وارتكاب المناهي.

٧- أن الأنبياء في مقام المزيد من الله تعالى من جهة القوة واليقين ومشاهدات أحوال الغيوب كما قال الله تعالى {وكذلك نري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض وليكون من الموقنين}

والأنبياء معصومون عن ارتكاب المناهي ومحفوظون في الفرائض عن التقصير فلا يوصفون بالنقصان في شئ من أوصافهم في حقائق الإيمان.

القرآن

{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (٧٦)} [الأنعام : ٧٦]

التفسير:

فلما أظلم على إبراهيم عليه السلام الليل وغطَّاه ناظر قومه; ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم. رأى إبراهيم عليه السلام كوكبًا، فقال -مستدرجا قومه لإلزامهم بالتوحيد-: هذا ربي، فلما غاب الكوكب، قال: لا أحب الآلهة التي تغيب.

قوله تعالى:{فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا} [الأنعام : ٧٦]، أي:" فلما أظلم على إبراهيم عليه السلام الليل وغطَّاه ناظر قومه; ليثبت لهم أن دينهم باطل، وكانوا يعبدون النجوم. رأى إبراهيم عليه السلام كوكبًا"[٢].

قال أبو عبيدة:" أي: غطّى عليه وأظلم عليه"[٣].

قال الطبري:"يقول: فلما واراه الليل وغيّبه، أبصر كوكبًا حين طلع"[٤].

قال ابن كثير:" أي : تغشاه وستره { رَأَى كَوْكَبًا } أي : نجما"[٥].

عن زيد بن علي:"قوله: {فلما جن عليه الليل رأى كوكبا}، قال: الزهرة"[٦].

وعن السدي:"{رأى كوكبا} قال: هو المشترى"[٧].

---

(١)أجمع أهل السنة والجماعة على أن الإيمان يزيد وينقص، ومن النصوص الصريحة التي استند إليها الإجماع في الحكم بزيادة الإيمان؛ قوله تعالى: (أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا) (التوبة: ١٢٤)، فهذه الآية من جملة أدلة صريحة في زيادة الإيمان، وجاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال [لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن ولا ينهب نُهبة ذات شرف يرفع الناس إليه فيها بأبصارهم حين ينتهبها وهو مؤمن). متفق عليه: رواه البخاري: (٢٤٧٥)، ومسلم (٥٧)، فنفى عنه كمال الإيمان الواجب بفعل هذه الكبائر مما دل على نقص الإيمان بفعلها وهكذا كل ما ورد من نفي كمال الإيمان الواجب أو المستحب تدل على زيادته ومن ثمَّ نقصانه..

(٢) التفسير الميسر:١٣٧.

(٣) مجاز القرآن:١٩٨/١.

(٤) تفسير الطبري:٤٧٧/١١، ٤٨٠

(٥) تفسير ابن كثير:٢٩١/٣.

(٦) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٠٩):ص١٣٢٨/٤.

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥١٠):ص١٣٢٨/٤.

يقال :جنَّ عليه الليل، وجنَّه الليل، وأجنه، وأجنّ عليه: وإذا ألقيت«على»، كان الكلام بالألف أفصح منه بغير«الألف»، أجنه الليل، أفصح من:أجن عليه، وجنّ عليه الليل، أفصح من جنَّه، وكل ذلك مقبول مسموع من العرب.

ويقال:"أتى فلان في جِنّ الليل، و«الجن» من ذلك، لأنهم استجنُّوا عن أعين بني آدم فلا يرون، وكل ما توارى عن أبصار الناس، فإن العرب تقول فيه: قد جَنّ، ومنه قول الهذلي(١):

وَمَاءٍ وَرَدْتُ قُبَيْلَ الكَرَى ... وَقَدْ جَنَّهُ السَّدَفُ الأَدْهَمْ

وقال عبيد(٢):

وَخَرْقٍ تَصِيحُ البُومُ فِيهِ مَعَ الصَّدَى ... مَخُوفٍ إذَا مَا جَنَّهُ اللَّيْلُ مَرْهُوبِ

ومنه:أجننت الميت، إذا واريته في اللحد، وجننته، وهو نظير :جنون الليل، في معنى غطيته، قال دريد بن الصِمّة(٣):

ولولا جنون الليل أدرك ركضنا ... بذي الرّمث والأرطي عياض بن ناشب

وبعضهم ينشده: ولولا جنان الليل، أي غطاؤه وسواده، وما جنّك من شيء فهو جنان لك، وقال سلامة بن جندل(٤):

ولولا جنان الليل ما آب عامر ... إلى جعفر سرباله لم يمزّق

قال ابن أحمر يخاطب ناقته(٥):

جنان المسلمين أودّ مسّا ... وإن جاورت أسلم أو غفارا

أي: سوادهم، يقول: دخولك فى المسلمين أودّ لك(٦).

قرأ : ابن كثير وعاصم -فى رواية حفص- «رءا» بفتح الراء والهمزة، وقرأ نافع بين الفتح والكسر، وقرأ أبو عمرو :«رءا» بفتح الراء وكسر الهمزة، وروى القطعى عن عبيد بن عقيل عن أبى عمرو«رءا» بكسر الراء والهمزة جميعا، وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وابن عامر وحمزة والكسائى«رءا» بكسر الراء والهمزة(٧).

قوله تعالى:{قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام : ٧٦]، أي:" فقال إبراهيم -مستدرجا قومه لإلزامهم بالتوحيد-: هذا ربي"(٨).

قال قتادة:" ذكر لنا أن نبي الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم بعد ما أراه الله ملكوت السموات رأى كوكبا، {قال هذا ربي}"(٩).

---

(١)هو البريق الهذلي، واسمه: "عياض بن خويلد الخناعي"، وروى الأصمعي أن قائل الشعر هو"عامر بن سدوس الخناعي".

(٤) ديوان الهذليين ٣: ٥٦، وما بقي من أشعار الهذليين رقم: ٣١، واللسان (سدف) (جنن) ، من أبيات يمجد فيها نفسه، وبعد البيت: مَعِي صَاحِبٌ مِثْلُ نَصْلِ السِّنَانِ ... عَنِيفٌ عَلَى قِرْنِهِ مِغْشَمُ

ويروى: "وما وردت علي خيفة"، ويروى"قبيل الصباح"، وكله حسن. و"السدف": الظلمة من أول الليل أو آخره، عند اختلاط الضوء. و"الأدهم": الضارب إلى السواد.

(٢)ديوانه: ٣٣، ذكر نفسه في هذا البيت ثم قال بعده: قَطَعْتُ بِصَهْبَاءِ السَّرَاةِ شِمِلَّةٍ ... تَزِلُّ الوَلاَيَا عَنْ جَوَانِبِ مَكْرُوبِ

وختمها بالبيت الحكيم:

تَرَى المَرْءَ يَصْبُو لِلحَيَاةِ وَطُولِهَا ... وَفِي طُولِ عَيْشِ المَرْءِ أَبْرَحُ تَعْذِيبِ.

(٣)من كلمة له في الأصمعيات ١٢ وبعضها في الأغانى ٩/ ٦ والخزانة ٣/ ١٦٦،وهو في القرطبي ٧/ ٢٥ واللسان والتاج (جنن) ومعجم البلدان ٢/ ٨١٦ وقي لإنه لخفاف بن ندبة.

(٤)البيت هو ٢٨ منرقم ٣ في ديوانه وهو في اللسان والتاج (جنن) والعين: ٣/ ٢١٠.

(٥)في اللسان والتاج"جنن"، ومجاز القرآن لأبي عبيدة:١٩٩/١.

(٦) انظر: معاني القرآن للفراء:٣٤١/١، ومجاز القرآن لأبي عبيدة:١٩٨/١-١٩٩، وتفسير الطبري:٤٧٧/١١-٤٨٠.

(٧) انظر: السبعة في القراءات:٢٦٠.

(٨) التفسير الميسر:١٣٧.

(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥١٥):ص١٣٢٩/٤.

وفي قوله تعالى:{قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام : ٧٦]، خمسة أقوال[١]:
أحدها : أنه قال : هذا ربي في ظني ، لأنه في حال تقليب واستدلال .
والثاني : أنه على ظاهره، فقال ذلك اعتقاداً أنه ربه، قاله ابن عباس في رواية علي بن أبي طلحة[٢]، وقالوا: وإنما قال هذا في حال طفولته على ما سبق إلى وهمه، قبل أن يثبت عنده دليل.
قال ابن عباس:" فعبده حتى غاب، فلما غاب قال: لا أحب الآفلين"[٣].
واختاره الطبري، محتجا بخبر الله تعالى عن قيل إبراهيم حين أفل القمر:{لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّين} [الأنعام : ٧٧] [٤].
قال ابن الجوزي:" وهذا القول لا يرتضى، والمتأهلون للنبوة محفوظون من مثل هذا على كل حال. فأما قوله: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي}، فما زال الأنبياء يسألون الهدى، ويتضرعون في دفع الضلال عنهم، كقولهم: {وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ} [إبراهيم : ٣٥]، ولأنه قد آتاه رشده من قبل، وأراه ملكوت السماوات والأرض ليكون موقنا، فكيف لا يعصمه عن مثل هذا التحيير؟!"[٥].
والثالث : أنه قال ذلك في حال الطفولية والصغر ، لأن أمه ولدته في مغارة حذراً عليه من نمرود ، فلما خرج عنه قال هذا القول قبل قيام الحجة عليه ، لأنها حال لا يصح فيها كفر ولا إيمان ، ولا يجوز أن يكون قال ذلك بعد البلوغ .
والرابع : أنه لم يقل ذلك قول معتقد ، وإنما قاله على وجه الإنكار لعبادة الأصنام ، فإذا كان الكوكب والشمس القمر وما لم تصنعه يد ولا عَمِلَه بشر لم تكن معبودة لزوالها ، فالأصنام التي هي دونها أولى ألاّ تكون معبودة .
قال الفراء:" إنما قال: هذا ربي استدراجا للحجة على قومه ليعيب آلهتهم أنها ليست بشيء، وأن الكوكب والقمر والشمس أكبر منها ولسن بآلهة"[٦].
والخامس : أنه قال ذلك توبيخاً على وجه الإنكار الذي يكون معه ألف الاستفهام وتقديره : أهذا ربي ، كما قال الشاعر[٧]:

رَفَوْنِي وَقَالُوا: يَا خُوَيْلِدُ، لا تُرَعْ! ... فَقُلْتُ، وأنْكَرْتُ الوُجُوهَ: هُمُ هُمُ؟

يعني: أهم هم؟ قالوا: ومن ذلك قول أوس[٨]:

لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي، وَإِنْ كُنْتُ دَارِيًا، ... شُعَيْثَ بنَ سَهْمٍ أم شُعَيْثَ بْنَ مِنْقَرِ

بمعنى: أشعيث بن سهم؟[٩].

---

(١) انظر: تفسير الطبري:٤٨٣/١١ وما بعدها.
(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٦٢):ص٤٨٠/١١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٤٦٢):ص٤٨٠/١١.
(٤) انظر: تفسير الطبري:٤٨٥/١١.
(٥) زاد المسير:٤٨/٢.
(٦) معاني القرآن:٣٤١/١.
(٧)ديوان الهذليين ٢: ١٤٤، الخزانة ١: ٢١١ واللسان، (رفأ) (رفو) ، وغيرها كثير. هي مطلع شعر له في فرة فرها على رجليه، فوصف ذلك وحسن فرته. وقوله: "رفوني"، أي: سكنوني، كأن قلبه قد طار شعاعًا، فضموا بعضه إلى بعض. يقال: "رفوته من الرعب" و"رفأته".
(٨)سيبويه ١: ٤٨٥،البيان والتبين ٤: ٤٠، ٤١،الكامل ١: ٣٨٤، ٢: ١١٥،الخزانة ٤: ٤٥٠،شرح شواهد المغني: ٥١،وغيرها كثير. قال الجاحظ: "وذكروا أن حزن بنالحارث، أحد بني العنبر، ولد"محجنًا"، فولد محجن: "شعيب بن سهم"، فأغير على إبله، فأتى أوس بن حجر يستنجده، فقال له أوس: أو خير من ذلك، أحضض لك قيس بن عاصم! وكان يقال إن"حزن بن الحارث" هو"حزن بن منقر"، فقال أوس:
سَائِلُ بِهَا مَوْلاكَ قَيْسَ بن عَاصِمٍ ... فمَوْلاكَ مَوْلَى السَّوْءِ إنْ لَمْ يُغَيِّرِ
لَعَمْرُكَ مَا أَدْرِي: أَمِنْ حزن مِحْجَنٍ ... شُعَيْثُ بن سَهْمٍ أَمْ لِحَزْنِ بن مِنْقَرِ
فما أنْتَ بالمَوْلَى المُضَيِّعِ حَقَّهُ ... وَمَا أَنْتَ بِالْجَارِ الضَّعِيفِ المُسَتَرِ
فسعى قيس في إبله حتى ردها على آخرها". والبيت برواية الجاحظ لا شاهد فيه.
(٩) انظر: تفسير الطبري:٤٨٤/١١-٤٨٥.

قال السعدي:" وهذا الذي ذكرنا في تفسير هذه الآيات، هو الصواب، وهو أن المقام مقام مناظرة، من إبراهيم لقومه، وبيان بطلان إلهية هذه الأجرام العلوية وغيرها. وأما من قال: إنه مقام نظر في حال طفوليته، فليس عليه دليل"(١).

قال ابن كثير:" والحق أن إبراهيم ، عليه الصلاة والسلام ، كان في هذا المقام مناظرا لقومه ، مبينا لهم بطلان ما كانوا عليه من عبادة الهياكل والأصنام ، فبين في المقام الأول مع أبيه خطأهم في عبادة الأصنام الأرضية ، التي هي على صورة الملائكة السماوية ، ليشفعوا لهم إلى الخالق العظيم الذين هم عند أنفسهم أحقر من أن يعبدوه ، وإنما يتوسلون إليه بعبادة ملائكته ، ليشفعوا لهم عنده في الرزق والنصر ، وغير ذلك مما يحتاجون إليه. وبين في هذا المقام خطأهم وضلالهم في عبادة الهياكل ، وهي الكواكب السيارة السبعة المتحيرة ، وهي : القمر ، وعطارد ، والزهرة ، والشمس ، والمريخ ، والمشترى ، وزحل ، وأشدهن إضاءة وأشرقهن عندهم الشمس ، ثم القمر ، ثم الزهرة. فبين أولا أن هذه الزهرة لا تصلح للإلهية ؛ لأنها مسخرة مقدرة بسير معين ، لا تزيغ عنه يمينًا ولا شمالا ولا تملك لنفسها تصرفا ، بل هي جرم من الأجرام خلقها الله منيرة ، لما له في ذلك من الحكم العظيمة ، وهي تطلع من المشرق ، ثم تسير فيما بينه وبين المغرب حتى تغيب عن الأبصار فيه ، ثم تبدو في الليلة القابلة على هذا المنوال. ومثل هذه لا تصلح للإلهية. ثم انتقل إلى القمر. فبين فيه مثل ما بين في النجم.

ثم انتقل إلى الشمس كذلك. فلما انتفت الإلهية عن هذه الأجرام الثلاثة التي هي أنور ما تقع عليه الأبصار ، وتحقق ذلك بالدليل القاطع ، { قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ } أي : أنا بريء من عبادتهن وموالاتهن ، فإن كانت آلهة ، فكيدوني بها جميعا ثم لا تنظرون ، { إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ } أي : إنما أعبد خالق هذه الأشياء ومخترعها ومسخرها ومقدرها ومدبرها ، الذي بيده ملكوت كل شيء ، وخالق كل شيء وربه ومليكه وإلهه ، كما قال تعالى : { إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ } [الأعراف : ٥٤] وكيف يجوز أن يكون إبراهيم الخليل ناظرا في هذا المقام ، وهو الذي قال الله في حقه : { وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِنْ قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لأبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ } الآيات [الأنبياء : ٥١ ، ٥٢] ، وقال تعالى : { إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ * شَاكِرًا لأنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ * وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ * ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل : ١٢٠ - ١٢٣] ، وقال تعالى : { قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [الأنعام : ١٦١].

وقد ثبت في الصحيحين ، عن أبي هريرة ، عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «كل مولود يولد على الفطرة»(٢).

وفي صحيح مسلم عن عياض بن حماد ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : «قال الله : إني خلقت عبادي حنفاء»(٣)، وقال الله في كتابه العزيز : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ } [الروم : ٣٠] ، وقال تعالى : { وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى } [الأعراف : ١٧٢]، ومعناه على أحد القولين ، كقوله : { فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا } كما سيأتي بيانه.

فإذا كان هذا في حق سائر الخليقة ، فكيف يكون إبراهيم الخليل - الذي جعله الله { أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ } [النحل : ١٢٠] ناظرا في هذا المقام ؟! بل هو أولى الناس

---

(١) تفسير السعدي:٢٦٢.
(٢)) صحيح البخاري برقم (١٣٨٥) وصحيح مسلم برقم (٢٦٥٨).
(٣)صحيح مسلم برقم (٢٨٦٥).

بالفطرة السليمة ، والسجية المستقيمة بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا شك ولا ريب. ومما يؤيد أنه كان في هذا المقام مناظرًا لقومه فيما كانوا فيه من الشرك لا ناظرا"[١].

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَفَلَ} [الأنعام : ٧٦]، أي:" فلما غاب الكوكب"[٢].

قال سعيد بن جبير:"{ فلما أفل}: ذهب"[٣].

قال الطبري:" معناه: فلما غاب وذهب"[٤].

قال ابن إسحاق:"ا«لأفول»، الذهاب، يقال منه:أفل النجم يأفُلُ ويأفِلُ أفولا وأفْلا، إذا غاب، ومنه قول ذي الرمة[٥]:

مَصَابِيحُ لَيْسَتْ بِاللَّوَاتِي تَقُودُهَا نُجُومٌ، وَلا بالآفِلاتِ الدَّوَالِكِ

ويقال:أين أفلت عنا، بمعنى: أين غبت عنا؟"[٦].

قال السدي:" فلما رفع رأسه إلى السماء فإذا هو بالكوكب، وهو المشترى، فـ{قال: هذا ربي}، فلم يلبث أن غاب"[٧].

قوله تعالى:{قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ} [الأنعام : ٧٦]، أي:" قال: لا أحب الآلهة التي تغيب"[٨].

قال أبو عبيدة "أي: من الأشياء، ولم يقصد قصد الشمس والقمر والنجوم فيجمعها على جميع الموات"[٩].

قال ابن الجوزي:" أي: حب رب معبود، لأن ما ظهر وأفل كان حادثا مدبرا"[١٠].

عن قتادة:" {لا أحب الآفلين}، قال: الزائلين"[١١]، "علم أن ربّه دائم لا يزول"[١٢].

قال الزجاج:" أي لا أحب من كانت حالته أن يطلع ويسير على هيئة يتبين معها أنه محدث منتقل من مكان إلى مكان، كما يفعل سائر الأشياء التي أجمعتم معي على أنها ليست بآلهة، أي لا أتخذ ما هذه حاله إلها، كما أنكم لا تتخذون كل ما جرى مجرى هذا من سائر الأشياء آلهة، ليس أنه جعل الحجة عليهم أن ما غاب ليس بإله، لأن السماء والأرض ظاهرتان غير غائبتين وليس يدعى فيهما هذه الدعوى، وإنما أراد التبيين لهم القريب، لأن غيبوبته أقرب ماالناظرون به فيما يظهر لهم، كما قال: {فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ} [البقرة : ٢٥٨]"[١٣].

قال النحاس:" ومن أحسن ما قيل في هذا ما صح عن ابن عباس رحمه الله أنه قال في قول الله جل وعز:{نور على نور} [النور: ٣٥]، قال: كذا قلب المؤمن يعرف الله جل وعز ويستدل عليه بقلبه فإذا عرفه ازداد نورا على نور وكذا إبراهيم صلى الله عليه وسلم عرف الله

---

(١) تفسير ابن كثير:٢٩٢/٣-٢٩٣.

(٢) التفسير الميسر:١٣٧.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥١٣):ص١٣٢٨/٤.

(٤) تفسير الطبري:٤٨٥/١١.

(٥)ديوانه: ٤٢٥، مجاز القرآن لأبي عبيدة ١: ١٩٩، الأزمنة ٢: ٤٩، كتاب القرطين ١: ٢٦١، اللسان (دلك) ، من قصيدة طويلة، وصف بها الإبل، وهذا البيت من صفة الإبل."مصابيح" جمع"مصباح"، و"المصباح" التي تصبح في مبركها لا ترعى حتى يرتفع النهار، وهو مما يستحب من الإبل، وذلك لقوتها وسمنها. يقول: ليست بنجوم آفلات، ولكنها إبل.

(٦) أخرجه الطبري(١٣٤٦٥):ص٤٨٥/١١، وانظر: مجاز القرآن لأبي عبيدة:١٩٩/١

(٧) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥١٢):ص١٣٢٨/٤.

(٨) التفسير الميسر:١٣٧.

(٩) مجاز القرآن:٢٠٠/١.

(١٠) زاد المسير:٤٨/٢.

(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥١٦):ص١٣٢٩/٤.

(١٢) أخرجه الطبري(١٣٤٦٣):ص٤٨٠/١١.

(١٣) معاني القرآن:٢٦٦/٢-٢٦٧.

عز وجل بقلبه واستدل عليه بدلائله فعلم أن له ربا وخالقا فلما عرفه الله جل وعز بنفسه ازداد معرفة فقال: أتحاجوني في الله وقد هدان [الأنعام: ٨٠]"(١).

الفوائد:

١- سنة التدرج في التربية والتعليم.

٢- أن أصل علم المعقول بالنظر، في الكتاب والسنة، لأن الله تعالى احتج في القرآن على المخالفين لدينه بالأدلة العقلية، وحكى عن إبراهيم عليه السلام محاجته للكفار بقوله: {فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي} إلى آخرها.

وفي الحديث حين ذكرت العدوى: «فمن أعدى الأول؟"(٢) إلى غير ذلك من الأدلة.

٣- ويستفاد من نفي إبراهيم –عليه السلام-محبة الزائلين، في قوله تعالى:{لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ}،أن الله هو الفعال لما يريد، لا يأفل في شيء، بل الأشياء كلها تخشع له والمواضع والشمس والقمر والكواكب خلائق مخلوقة، إذا أفلت أفلت في مخلوق، في عين حمئة، كما قال الله، والله أعلى وأجل لا يحيط به شيء، ولا يحتوي عليه شيء.

قال الماتريدي:" كذلك وجب صرف الإتيان إلى الوجه الذي يحق بالربوبية لا إلى ما عرف به الخلق من التغير والزوال فمثله في حقيقة الفعل والكلام على ما قال إبراهيم {لا أحب الآفلين} ومن يكون على حال ثم على أخرى فهو من الآفلين بالتحقيق"(٣).

قال أبو حزم الأندلسي:" وقد حمد الله إبراهيم خليله ورسوله وعبده صلى الله عليه وسلم إذ بين لقومه بنقلة القمر أنه ليس ربا فقال {فلما أفل قال لا أحب الآفلين} وكل منتقل عن مكان فهو آفل عنه تعالى الله عن هذا"(٤).

وقال أبو مظفر:" وأن تعلم أن الحركة والسكون والذهاب والمجيء والكون في المكان والإجتماع والإفتراق والقرب والبعد من طريق المسافة والإتصال والإنفصال والحجم والجرم والجثة والصورة والحيز والمقدار والنواحي والأقطار والجوانب والجهات كلها لا تجوز عليه تعالى لأن جميعها يوجب الحد والنهاية وقد دللنا على استحالة ذلك على الباري سبحانه وتعالى وأصل هذا في كتاب الله تعالى وذلك أن إبراهيم عليه السلام لما رأى هذه العلامات على الكواكب والشمس والقمر قال {لا أحب الآفلين} فبين أن ما جاز عليه تلك الصفات لا يكون خالقا"(٥).

القرآن

---

(١) إعراب القرىن:١٨/٢.

(٢)أخرجه مسلم "٢٢٢٠" في السلام: باب لا عدوى ولا طيرة ولا هامة ولا صفر، عن حرملة، بهذا الإسناد.
وأخرجه مسلم "٢٢٢٠" "١٠١" والطحاوي في "شرح معاني الآثار" ٣٠٩/٤و٣١٢، والبيهقي ٢١٦/٧ والطبري في "مسند علي" من "تهذيب الآثار" "٣" من طرق عن ابن وهب، به.
واخرجه عبد الرزاق "١٩٥٠٧"، وأحمد ٢٦٧/٢، والبخاري "٥٧١٧" "١٠٢"، والطحاوي في "شرح المعاني" ٣٠٩/٤ و٣١٢، وابن أبي عاصم في "السنة" مختصرا "٢٧٢" و"٢٧٣" "٢٧٤"، والبيهقي ٢١٧/٧، والبغوي "٣٢٤٨" من طرق عن ابن شهاب، به ولفظ البخاري "٥٧١٧" ومسلم والطحاوي: أخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمن وغيره.
وأخرجه البخاري "٥٧٧٥" باب لا عدوى، ومسلم "٢٢٢٠" "١٠٣"، وابن أبي عاصم في "السنة" "٢٨٤" و"٢٨٥" والطبري "٧"، والبيهقي ٢١٧/٧ من طريق الزهري، عن سنان بن أبي سنان الدؤلي، عن أبي هريرة.

(٣) التوحيد:٥٣.

(٤) الفصل في الملل والأهواء والنحل:١٣٢/٢.

(٥)لتبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين:١٦٠.

{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (٧٧)} [الأنعام : ٧٧]

التفسير:

فلما رأى إبراهيم القمر طالعًا قال لقومه -على سبيل استدراج الخصم-: هذا ربي، فلما غاب، قال -مفتقرا إلى هداية ربه-: لئن لم يوفقني ربي إلى الصواب في توحيده، لأكونن من القوم الضالين عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى.

قوله تعالى:{فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا} [الأنعام : ٧٧]، أي:" فلما رأى إبراهيم القمر طالعًا"[١].

قال أبو عبيدة وابن كثير: " أي : طالعا"[٢].

قال السمعاني:" وكان ذلك في ليلة قد تأخر طلوع القمر فيها قليلا"[٣].

وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وحمزة:«رءا القمر»بكسر الراء وفتح الهمزة فى كل القرآن[٤].

قوله تعالى:{قَالَ هَذَا رَبِّي} [الأنعام : ٧٧]، أي:" قال لقومه -على سبيل استدراج الخصم-: هذا ربي"[٥].

قال ابن عباس:" فعبده حتى غاب، فلما غاب، قال: {لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين}"[٦].

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَفَلَ} [الأنعام : ٧٧]، أي:" فلما غاب القمر"[٧].

قوله تعالى:{قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ} [الأنعام : ٧٧]، أي:" قال -مفتقرا إلى هداية ربه-: لئن لم يوفقني ربي إلى الصواب في توحيده، لأكونن من القوم الضالين عن سواء السبيل بعبادة غير الله تعالى"[٨].

قال القرطبي:" دله العلم على أنه غير مستحق لذلك، فنفاه بقلبه وعلم أنه مربوب وليس برب. وقيل: إنما قال:«هذا ربي» لتقرير الحجة على قومه فأظهر موافقتهم، فلما أفل النجم قرر الحجة وقال: ما تغير لا يجوز أن يكون ربا. وكانوا يعظمون النجوم ويعبدونها ويحكمون بها"[٩].

الفوائد:

١- أن من أسباب الشرك عبادة الكواكب، واتخاذ الأصنام بحسب ما يظن أنه مناسب للكواكب من طباعها. وشرك قوم إبراهيم عليه السلام كان - فيما يقال - من هذا الباب. وكذلك الشرك بالملائكة والجن، واتخاذ الأصنام لهم.

وقد رأى بعض العلماء أن عبادة أهل الجاهلية هي: عبادة الكواكب في الأصل، وأن أسماء الأصنام والآلهة -وإن تعددت وكثرت- إلا أنها ترجع كلها إلى ثالوث سماوي هو: الشمس، والقمر، والزهرة، وهو رمز لعائلة صغيرة تتألف من أب هو: القمر، ومن أم هي الشمس، ومن ابن هو الزهرة، وذهبوا إلى أن أكثر أسماء الآلهة هي في الواقع نعوت لها، وهي من قبيل ما يقال له الأسماء الحسنى في الإسلام[١٠].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٧.
(٢) مجاز القرآن:٢٠٠/١، وتفسير ابن كثير:٢٩١/٣.
(٣) تفسير السمعاني:١٢٠/٢.
(٤) انظر: السبعة في القراءات:٢٦٠.
(٥) التفسير الميسر:١٣٧.
(٦) أخرجه الطبري(١٣٤٦٢):ص٤٨٠/١١.
(٧) التفسير الميسر:١٣٧.
(٨) التفسير الميسر:١٣٧.
(٩) تفسير القرطبي:٢٦/٧.
(١٠) انظر: المفصل:٥٠/٦.

٢- من فوائد الآية الكريمة: التسليم لله عز وجل بأنه صاحب الهداية، وأن الهدية لا تأتي إلا من قبله، وأن الدلالة على توحيد الله لا يمكن أن تكون إلا بالنقل عن الله عز وجل.
٣- من فوائد الآية: أن من أعطاه الله عز وجل قوة الإيمان آمن واهتدى وأن من منعه تلك القوة كان من الضالين، قال: {لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ}. فعلم أن الهداية وقعت بالسمع لا بالعقل.
٤- منها: أن القمر قرين الشمس في كتاب الله تعالى, فهو قرينها في الحسبان والجريان والسبح في الفلك والدؤوب في السر والبزوغ والأقوال.
٥- ويستفاد من الفائدة السابقة: أنه إذا كان القمر قرين الشمس في كتاب الله تعالى فإنه يلزم أن يقال في الشمس مثل ما قيل في القمر, فمن قال إن دوران القمر حول الأرض معلوم مقرر لزمه أن يقول مثل ذلك في الشمس, وأن لم يفعل فقد فرق بين متماثلين وآمن ببعض الكتاب ورد بعضه.

القرآن

{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ (٧٨)} [الأنعام : ٧٨]

التفسير:

فلما رأى الشمس طالعة قال لقومه: هذا ربي، هذا أكبر من الكوكب والقمر، فلما غابت، قال لقومه: إني بريء مما تشركون من عبادة الأوثان والنجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى.

قوله تعالى:{فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً} [الأنعام : ٧٨]، أي:" فلما رأى الشمس طالعة"[١].

قال الزمخشري:" فإن قلت: لم احتج عليهم بالأفول دون البزوغ ، وكلاهما انتقال من حال إلى حال؟

قلت: الاحتجاج بالأفول أظهر، لأنه انتقال مع خفاء واحتجاب"[٢].

وقرأ عاصم -فى رواية أبى بكر- وحمزة:«رءا الشمس»بكسر الراء وفتح الهمزة فى كل القرآن[٣].

قوله تعالى:{قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ} [الأنعام : ٧٨]، أي:" قال لقومه: هذا ربي، هذا أكبر من الكوكب والقمر"[٤].

قال ابن كثير:" أي : هذا المنير الطالع ربي، { هَذَا أَكْبَرُ }، أي : جرمًا من النجم ومن القمر، وأكثر إضاءة "[٥].

قال الكسائي والأخفش: أي:" هذا الطالع ربّي"[٦].

وقال غيرهما: أي: "هذا الضوء"[٧].

وقال الأخفش الصغير:أي: "هذا الشخص"[٨]، كما قال الأعشى[٩]:

قامت تبكيه على قبره من لي من بعدك يا عامر
تركتني في الدار ذا غربة قد ذل من ليس له ناصر

---

(١) التفسير الميسر:١٣٧.
(٢) الكشاف:٣٨/٢.
(٣) انظر: السبعة في القراءات:٢٦١.
(٤) التفسير الميسر:١٣٧.
(٥) تفسير ابن كثير:٢٩١/٣.
(٦) في معاني القرآن له:٤٩٦/١، وإعراب القرآن للنحاس:١٨/٢.
(٧) تفسير القرطبي:٢٨/٧.
(٨) إعراب القران للنحاس:١٨/٢.
(٩) من شواهد الحاس في إعراب القرآن:٧٧/٢، وهما في الإنصاف:٥٠٧/٢، ٧٦٣ بلا نسبة.

قال البغوي:"{ هذا أكبر}، أي: أكبر من الكوكب والقمر، ولم يقل هذه مع أن الشمس مؤنثة لأنه أراد هذا الطالع، أو رده إلى المعنى، وهو الضياء والنور، لأنه رآه أضوأ من النجوم والقمر"(١).

قال قتادة:" رأى خلقًا هو أكبرَ من الخلقين الأوّلين وأنور"(٢).

قال ابن عباس:" فعبدها حتى غابت، فلما غابت قال: {يا قوم إنّي بريء مما تشركون}"(٣).

قال الزمخشري:" فإن قلت: ما وجه التذكير في قوله: {هذا ربي} والإشارة للشمس؟

قلت: جعل المبتدأ مثل الخبر لكونهما عبارة عن شيء واحد، كقولهم: ما جاءت حاجتك، ومن كانت أمك، لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا وكان اختيار هذه الطريقة واجبا لصيانة الرب عن شبهة التأنيث. ألا تراهم قالوا في صفة الله :«علام» ولم يقولوا «علامة»، وإن كان العلامة أبلغ، احترازا من علامة التأنيث"(٤).

قوله تعالى:{فَلَمَّا أَفَلَتْ} [الأنعام : ٧٨]، أي:" فلما غابت الشمس"(٥).

قال البغوي وابن كثير:" أي : غابت"(٦).

قوله تعالى:{قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ} [الأنعام : ٧٨]، أي:" قال لقومه: إني بريء مما تشركون من عبادة الأوثان والنجوم والأصنام التي تعبدونها من دون الله تعالى"(٧).

روي عن محمد بن إسحاق:" أن آزر كان رجلا من أهل كوثى، من قرية بالسوادِ، سواد الكوفة، وكان إذ ذاك ملك المشرق النمرود، فلما أراد الله أن يبعث إبراهيم عليه السلام، خليل الرحمن، حجة على قومه، ورسولا إلى عباده، ولم يكن فيما بين نوح وإبراهيم نبيّ إلا هود وصالح، فلما تقارب زمان إبراهيم الذي أراد الله ما أراد، أتى أصحابُ النجوم نمرودَ فقالوا له: تَعَلَّمْ، أنّا نجد في عِلمنا أن غلامًا يولد في قريتك هذه يقال له:إبراهيم، يفارق دينكم، ويكسر أوثانكم، في شهر كذا وكذا من سنة كذا وكذا. فلما دخلت السنة التي وصف أصحابُ النجوم لنمرود، بعث نمرود إلى كل امرأة حبلى بقريته فحبسها عنده إلا ما كان من أمّ إبراهيم امرأة آزر، فإنه لم يعلم بحبَلِها، وذلك أنها كانت امرأة حَدَثة، فيما يذكر، لم تعرف الحبَل في بطنها، ولِمَا أرادَ الله أن يبلغ بولدها، يريدُ أن يقتل كل غلام ولد في ذلك الشهر من تلك السنة، حذرًا على ملكه. فجعلَ لا تلد امرأة غلامًا في ذلك الشهر من تلك السنة، إلا أمر به فذبح. فلما وجدت أم إبراهيم الطَّلْقَ خرجت ليلا إلى مغارة كانت قريبًا منها، فولدت فيها إبراهيم، وأصلحت من شأنه ما يُصْنَع بالمولود، ثم سَدّت عليه المغارة، ثم رجعت إلى بيتها، ثم كانت تطالعه في المغارة فتنظر ما فعل، فتجده حيًّا يمصّ إبهامه، يزعمون، والله أعلم، أن الله جعل رزق إبراهيم فيها وما يجيئه من مصّه. وكان آزر، فيما يزعمون، سأل أمّ إبراهيم عن حمْلها ما فعل، فقالت: ولدت غلامًا فمات! فصدّقها، فسكت عنها. وكان اليوم، فيما يذكرون، على إبراهيم في الشَّباب كالشهر، والشهر كالسنة. فلم يلبث إبراهيم في المغارة إلا خمسة عشر شهرًا حتى قال لأمه: أخرجيني أنظر! فأخرجته عِشاء فنظر، وتفكر في خلق السماوات والأرض، وقال:إن الذي خلقني ورزقني وأطعمني وسقاني لربّي، ما لي إله غيره! ثم نظر في السماء فرأى كوكبًا، قال:{هذا ربي}، ثم اتّبعه ينظر إليه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال:{لا أحب الآفلين}، ثم طلع القمر فرآه بازغًا، قال:{هذا ربي}، ثم اتّبعه ببصره حتى غاب، فلما أفل قال:"لئن لم يهدني ربّي لأكونن من القوم الضالين"! فلما دخل عليه النهار وطلعت الشمس، أعظمَ الشمسَ، ورأى شيئًا

---

(١) تفسير البغوي:١٦٣/٣.
(٢) أخرجه الطبري(١٣٤٦٣):ص٤٨٠/١١.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٤٦٢):ص٤٨٠/١١.
(٤) الكشاف:٣٨/٢.
(٥) التفسير الميسر:١٣٧.
(٦) تفسير البغوي:١٦٣/٣، وتفسير ابن كثير:٢٩١/٣.
(٧) التفسير الميسر:١٣٧.

هو أعظم نورًا من كل شيء رآه قبل ذلك، فقال:"هذا ربي، هذا أكبر"! فلما أفلت قال:{يا قوم إني بريئ مما تشركون إني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفًا وما أنا من المشركين}. ثم رجع إبراهيم إلى أبيه آزر وقد استقامت وجهته، وعرف ربَّه، وبرئ من دين قومه، إلا أنه لم يبادئهم بذلك. وأخبر أنه ابنه، وأخبرته أم إبراهيم أنه ابنه، وأخبرته بما كانت صنعت من شأنه، فسرَّ بذلك آزر وفرح فرحًا شديدًا. وكان آزر يصنع أصنام قومه التي يعبدونها، ثم يعطيها إبراهيم يبيعها، فيذهب بها إبراهيم، فيما يذكرون، فيقول:من يشتري ما يضرُّه ولا ينفعه، فلا يشتريها منه أحد. فإذا بارت عليه، ذهب بها إلى نهر فصوَّبَ فيه رؤوسها، وقال:اشربي، استهزاء بقومه وما هم عليه من الضلالة، حتى فشا عيبُه إياها واستهزاؤُه بها في قومه وأهل قريته، من غير أن يكون ذلك بلغ نمرودَ الملك"[١].

الفوائد:

١- أن إن البشرية صاحبتها عقيدة التوحيد من أول خطوة دبت بها على وجه الأرض.

٢- وجوب البراءة من الشرك وأهله.

٣- أن هذه الآية من أوضح الأدلة على سير الشمس ودورانها على الأرض.

القرآن

{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (٧٩)} [الأنعام : ٧٩]

التفسير:

إني توجَّهت بوجهي في العبادة لله عز وجل وحده، فهو الذي خلق السموات والأرض، مائلا عن الشرك إلى التوحيد، وما أنا من المشركين مع الله غيره.

قوله تعالى:{إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ} [الأنعام : ٧٩]، أي:" إني توجَّهت بوجهي في العبادة لله عز وجل وحده، فهو الذي خلق السموات والأرض"[٢].

قال ابن كثير:" أي: أخلصت ديني وأفردت عبادتي { لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأرْضَ}، أي:خلقهما وابتدعهما على غير مثال سبق"[٣].

قال النحاس:" أي قصدت بعبادتي وتوحيدي لله جل وعز وحده"[٤].

قال الطبري:" وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن خليله إبراهيم عليه السلام: أنه لما تبيّن له الحق وعرَفه، شهد شهادةَ الحقّ، وأظهر خلاف قومِه أهلِ الباطل وأهلِ الشرك بالله، ولم يأخذه في الله لومة لائم، ولم يستوحش من قِيل الحقِّ والثبات عليه، مع خلاف جميع قومه لقوله، وإنكارهم إياه عليه، وقال لهم: يا قوم إنّي بريء مما تشركون، مع الله الذي خلقني وخلقكم في عبادته من آلهتكم وأصنامكم، إني وجهت وجهي في عبادتي إلى الذي خلق السماوات والأرض، الدائم الذي يبقى ولا يفنى، ويُحْيي ويميت، لا إلى الذي يفنى ولا يبقى، ويزول ولا يدوم، ولا يضر ولا ينفع"[٥].

قوله تعالى:{حَنِيفًا} [الأنعام : ٧٩]، أي:" مائلا عن الشرك إلى التوحيد"[٦].

قال أبو السعود:" أي: مائلا عن الأديان الباطلة والعقائد الزائغة كلها"[٧].

قال ابن كثير:" أي: في حال كوني {حَنِيفًا}، أي : مائلا عن الشرك إلى التوحيد "[٨].

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٤٦٤):ص١١/٤٨٠-٤٨١.

(٢) التفسير الميسر:١٣٧.

(٣) تفسير ابن كثير:٣/٢٩١.

(٤) إعراب القرىن:٢/١٨.

(٥) تفسير الطبري:١١/٤٨٧.

(٦) التفسير الميسر:١٣٧.

(٧) تفسير أبي السعود:٣/١٥٤.

(٨) تفسير ابن كثير:٣/٢٩١.

قال الطبري:" ثم أخبرهم تعالى ذكره: أن توجيهه وجهه لعبادته، بإخلاص العبادة له، والاستقامة في ذلك لربه على ما يحبُّ من التوحيد، لا على الوجه الذي يوجَّه له وَجْهه من ليس بحنيف، ولكنه به مشرك، إذ كان توجيه الوجه على غير التحنُّف غير نافع موجِّهه، بل ضارّه ومهلكه"[١].

عن ابن وهب قال:" قال ابن زيد في قول قوم إبراهيم لإبراهيم: تركت عبادة هذه؟ فقال: {إني وجّهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض}، فقالوا: ما جئت بشيء! ونحن نعبده ونتوجّهه! فقال: لا {حنيفًا}!! قال: مخلصًا، لا أشركه كما تُشْركون"[٢].

واختلف أهل التفسير في معنى قوله تعالى:{حَنِيفًا}[الأنعام : ٧٩]، على أقوال:

أحدها: أن الحنيفية حج البيت، والحنيف هو الحاج. وهذا قول ابن عباس[٣]، والحسن[٤]، ومجاهد[٥]، وعطية[٦]، وكثير بن زياد[٧]، وعبدالله بن قاسم[٨]، والضحاك[٩]، والسدي[١٠].

وقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم الإسلام (الحنيفية)، لأنه أول إمام لزم العباد - الذين كانوا في عصره ، والذين جاءوا بعده إلى يوم القيامة - اتباعه في مناسك الحج ، والائتمام به فيه. قالوا : فكل من حج البيت فنسك مناسك إبراهيم على ملته ، فهو (حنيف)، مسلم على دين إبراهيم"[١١].

والثاني: أنها اتباع الحق، قاله مجاهد في إحدى الروايات[١٢]، والربيع بن أنس[١٣].

والثالث: اتباع إبراهيم في شرائعه التي هي شرائع الإسلام[١٤].

فقالوا: "إنما سمي دين إبراهيم «الحنيفية»، لأنه أول إمام سن للعباد الختان ، فاتبعه من بعده عليه. قالوا : فكل من اختتن على سبيل اختتان إبراهيم ، فهو على ما كان عليه إبراهيم من الإسلام ، فهو " حنيف " على ملة إبراهيم"[١٥].

والرابع: أنها: «الإخلاص»: وقوله {بل ملة إبراهيم حنيفا}، معناه: (بل ملة إبراهيم مخلصا)، فـ(الحنيف)" على قولهم : المخلص دينه لله وحده[١٦]، قاله السدي[١٧]، ومقاتل بن سليمان[١٨]، وخصيف[١٩]، وعطاء[٢٠].

---

(١) تفسير الطبري:٤٨٧/١١.
(٢) أخرجه الطبري(١٢٣٦٥م):ص٤٨٨/١١.
(٣) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٧):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، و(٧٥٢٥):ص١٣٣٠/٤.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢، وتفسير الطبري(٢٠٩١):ص١٠٤/٣.
(٥) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٤):ص١٠٦/٣.
(٦) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٢)، و(٢٠٩٣):ص١٠٤/٣-١٠٥.
(٧) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٥):ص١٠٦/٣.
(٨) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٨):ص١٠٦/٣.
(٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١٠)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩١):ص٢٤١/١، و(٣٦٥٠):ص٦٧٣/٢.
(١١) تفسير الطبري: ١٠٤/٣.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(٢٠٩٩):ص١٠٦/٣، وابن أبي حاتم(١٢٩٢):ص٢٤١/١، و، و(٧٥٢٦):ص١٣٣٠/٤
(١٣)انظر: تفسير ابن أبي حاتم: (١٢٩٢):ص٢٤١/١.
(١٤)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(١٥) تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٦) انظر: تفسير الطبري: ١٠٦/٣.
(١٧) انظر: تفسير الطبري(٢١٠٠):ص١٠٧/٣.
(١٨) انظر: تفسير مقاتل بن سليمان: ١٤١/١.
(١٩) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٥):ص٢٤٢/١.
(٢٠)، انظر: تفسير ابن ابي حاتم(٧٥٢٨):ص١٣٣٠/٤.

والخامس: وقيل:«الحنيفية»: الإسلام. فكل من ائتم بإبراهيم في ملته فاستقام عليها ، فهو «حنيف»[١].

قال القفال: "وبالجملة فالحنيف لقب لمن دان بالإسلام كسائر ألقاب الديانات، وأصله من إبراهيم عليه السلام"[٢].

والسادس: أن الحنيف: المستقيم. قاله محمد بن كعب[٣]، وروي عن عيسى بن جارية[٤] مثله.

السابع: أن الحنيف: الذي يؤمن بالرسل كلهم من أولهم إلى آخرهم. قاله أبو قلابة[٥].

الثامن: أن الحنيف: الذي يستقبل البيت بصلاته، ويرى أن حجه عليه إن استطاع إليه سبيلا. قاله أبو العالية[٦].

التاسع: أن الحنيفية: شهادة أن لا إله إلا الله. يدخل فيها تحريم الأمهات والبنات والخالات، والعمات، وما حرم الله عز وجل، والختان. وكانت حنيفة في الشرك: كانوا أهل الشرك، وكانوا يحرمون في شركهم الأمهات والبنات والخالات والعمات، وكانوا يحجون البيت، وينسكون المناسك. قاله قتادة[٧].

والصواب: أن «الحنيفية»: هو الإستقامة على دين إبراهيم واتباعه على ملته، قال الإمام الطبري: " وذلك أن الحنيفية لو كانت حج البيت ، لوجب أن يكون الذين كانوا يحجونه في الجاهلية من أهل الشرك كانوا حنفاء. وقد نفى الله أن يكون ذلك تحنفا بقوله : {ولكن كان حنيفا مسلما وما كان من المشركين} [سورة آل عمران : ٦٧]، فكذلك القول في الختان. لأن " الحنيفية " لو كانت هي الختان ، لوجب أن يكون اليهود حُنفاء. وقد أخرجهم الله من ذلك بقوله : {مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا} [سورة آل عمران : ٦٧].

قوله تعالى:{وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام : ٧٩]، أي:" وما أنا من المشركين مع الله غيره"[٨].

قال أبو السعود:أي: "في شيء من الأفعال والأقوال"[٩].

قال الطبري:" ولست منكم، أي: لست ممن يدين دينكم، ويتّبع ملّتكم أيُّها المشركون"[١٠].

قال السعدي:" فتبرأ من الشرك، وأذعن بالتوحيد، وأقام على ذلك البرهان"[١١].

الفوائد:

١- أن تحقيق التوحيد عزيز في الأمة لا يوجد إلا في أهل الإيمان الخلص الذين أخلصهم الله واصطفاهم من خلقه.

٢- أن الخالق هو الذي يستحق العبادة، أما الكواكب فهي مخلوقة، والمخلوق لا يستحق العبادة، مدبرة ليس لها في نفسها تدبير فكيف بغيرها؟

٣- وقد تضمنت الآية دلالة الاختراع، فيدخل فيها وجود الحيوان ووجود النبات ووجود السموات، قال:{ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ}.

---

(١)انظر: مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٢) مفاتيح الغيب: ٧١/٤.
(٣) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٣):ص٢٤٢/١، و(٧٥٢٧):ص١٣٣٠/٤.
(٤) انظر: تفسير ابن أبي حاتم: ٢٤٢/١.
(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٤):ص٢٤٢/١، و(٧٥٣٠):ص١٣٣١/٤.
(٦) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٦):ص٢٤٢/١.
(٧) انظر: تفسير ابن أبي حاتم(١٢٩٧):ص٢٤٢/١، و(٧٥٢٩):ص١٣٣١/٤.
(٨) التفسير الميسر:١٣٧.
(٩) تفسير أبي السعود:١٥٤/٣.
(١٠) تفسير الطبري:٤٨٨/١١.
(١١) تفسير السعدي:٢٦٢.

٤- ويستفاد من الآية أن الخليل عليه السلام لم يكن مستدلاً بدليل الأعراض وحدوث الأجسام على إثبات الصانع، بل كان محاججاً لقومه، منكراً عليهم عبادتهم الكواكب من دون الله تعالى.
٥- دلت الآية الكريمة على أن أقوال العبد وأعماله الباطنة والظاهرة لا يجوز أن يصرف منها شيء لغير الله كائنا من كان.

القرآن
{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ (٨٠)} [الأنعام : ٨٠]
التفسير:
وجادله قومه في توحيد الله تعالى قال: أتجادلونني في توحيدي لله بالعبادة، وقد وفقني إلى معرفة وحدانيته، فإن كنتم تخوفونني بآلهتكم أن توقع بي ضررًا فإنني لا أرهبها فلن تضرني، إلا أن يشاء ربي شيئًا. وسع ربي كل شيء علمًا. أفلا تتذكرون فتعلموا أنه وحده المعبود المستحق للعبودية؟
قوله تعالى:{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ} [الأنعام : ٨٠]، أي:" وجادله قومه في توحيد الله تعالى"(١).

قال الربيع:" يقول: خاصموه"(٢).
قال الطبري:" وجادل إبراهيم قومه في توحيد الله وبراءته من الأصنام، وكان جدالهم إياه قولُهم: أن آلهتهم التي يعبدونها خير من إلهه"(٣).
قال ابو السعود:" أي: شرعوا في مغالبته في أمر التوحيد"(٤).
قال الزمخشري:" وكانوا حاجوه في توحيد الله ونفى الشركاء عنه منكرين لذلك"(٥).
قال القرطبي:" قوله تعالى: {وحاجه قومه} دليل على الحجاج والجدال، حاجوه في توحيد الله"(٦).
قال السعدي:" أيُّ فائدة لمحاجة من لم يتبين له الهدى؟ فأما من هداه الله، ووصل إلى أعلى درجات اليقين، فإنه -هو بنفسه- يدعو الناس إلى ما هو عليه"(٧).
قوله تعالى:{قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ} [الأنعام : ٨٠]، أي:" قال: أتجادلونني في توحيدي لله بالعبادة"(٨).
قال ابن عباس:" قال أتخاصموني في الله"(٩).
قال الطبري:" يقول: أتجادلونني في توحيدي الله وإخلاصي العمل له دون ما سواه من آلهة"(١٠).
قال محمد بن إسحاق:" محمد بن إسحاق: وحاجه قومه عند ذلك في الله يستوصفونه إياه، ويخبرونه أن آلهتهم خير مما يعبد، فقال: {أتحاجوني في الله وقد هدان}"(١١).

---

(١) التفسير الميسر:١٣٧.
(٢) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٣١):ص١٣٣١/٤.
(٣) تفسير الطبري:٤٨٨/١١.
(٤) تفسير أبي السعود:١٥٤/٣.
(٥) الكشاف:٤٢/٢.
(٦) تفسير القرطبي:٢٩/٧.
(٧) تفسير السعدي:٢٦٢.
(٨) التفسير الميسر:١٣٧.
(٩) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٣٢):ص١٣٣١/٤.
(١٠) تفسير الطبري:٤٨٨/١١.
(١١) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٣٣):ص١٣٣١/٤.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة والكسائى :«أتحجونى» مشددتين، وقرأ نافع وابن عامر :«أتحجونى» مخففتين (١).

قوله تعالى:{وَقَدْ هَدَانِ} [الأنعام : ٨٠]، أي:" وقد وفقني إلى معرفة وحدانيته"(٢).

قال الزمخشري:" يعنى إلى التوحيد"(٣).

قال الطبري:" يقول: وقد وفقني ربي لمعرفة وحدانيته، وبصّرني طريق الحقّ حتى أيقنتُ أن لا شيء يستحق أن يعبد سواه"(٤).

قال ابو السعود:" {وقد هدان}، حال من ضمير المتكلم مؤكدة للإنكار فإن كونه عليه السلام مهديا من جهة الله تعالى ومؤيدا من عنده مما يوجب استحالة محاجته عليه السلام أي أتجادلونني في شأنه تعالى ووحدانيته والحال أنه تعالى هداني إلى الحق بعد ما سلكت طريقتك بالفرض والتقدير وتبين بطلانها تبينا تاما كما شاهدتموه"(٥).

قرأ الكسائى:«هدن» ممالة الدال، وقرأ الباقون:«هدن» بالفتح (٦).

قوله تعالى:{وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ} [الأنعام : ٨٠]، أي:" فإن كنتم تخوفونني بآلهتكم أن توقع بي ضررًا فإنني لا أرهبها فلن تضرني"(٧).

قال الطبري:" يقول: ولا أرهب من آلهتكم التي تدعونها من دونه شيئًا ينالني به في نفسي من سوء ومكروه. وذلك أنهم قالوا له:«إنا نخاف أن تمسَّك آلهتنا بسوء من برص أو خبل، لذكرك إياها بسوء!»، فقال لهم إبراهيم: لا أخاف ما تشركون بالله من هذه الآلهة أن تنالَنِي بضر ولا مكروه، لأنها لا تنفع ولا تضر"(٨).

قال القرطبي:" أي: لأنه لا ينفع ولا يضر- وكانوا خوفوه بكثرة آلهتهم- إلا أن يحييه الله ويقدره فيخاف ضرره حينئذ، والهاء في{به} يحتمل أن تكون لله عز وجل، ويجوز أن تكون للمعبود"(٩).

قال السعدي:" أيُّ فإنها لن تضرني، ولن تمنع عني من النفع شيئا"(١٠).

قال ابن جريج:" دعا قومُه مع الله آلهةً، وخوّفوه بآلهتهم أن يصيبَه منها خَبَل، فقال إبراهيم:{أتحاجوني في الله وقد هدان}، قال: قد عرفت ربّي، لا أخاف ما تشركون به"(١١).

قوله تعالى:{إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا} [الأنعام : ٨٠]، أي:" أي إلا إذا أراد ربي أن يصيبني شيءٌ من المكروه فيكون"(١٢).

قال الطبري:" يقول: ولكن خوفي من الله الذي خلقني وخلق السماوات والأرض، فإنه إن شاء أن ينالني في نفسي أو مالي بما شاء من فناء أو بقاءٍ، أو زيادة أو نقصان أو غير ذلك، نالني به، لأنه القادر على ذلك"(١٣).

قال القرطبي:" أي إلا أن يشاء أن يلحقني شي من المكروه بذنب عملته فتتم مشيئته. وهذا استثناء ليس من الأول..وقال:{إلا أن يشاء ربي} يعني: أن الله تعالى لا يشاء أن أخافهم"(١).

---

(١) انظر: السبعة في القراءات:٢٦١.
(٢) التفسير الميسر:١٣٧.
(٣) الكشاف:٢/٤٢.
(٤) تفسير الطبري:١١/٤٨٨.
(٥) تفسير أبي السعود:٣/١٥٤.
(٦) انظر: السبعة في القراءات:٢٦١.
(٧) التفسير الميسر:١٣٧.
(٨) تفسير الطبري:١١/٤٨٨-٤٨٩.
(٩) تفسير القرطبي:٧/٢٩.
(١٠) تفسير السعدي:٢٦٢.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٤٦٦):ص١١/٤٨٩.
(١٢) صفوة التفاسير:١/٣٧٣.
(١٣) تفسير الطبري:١١/٤٨٩.

قال البغوي:" وليس هذا باستثناء عن الأول بل هو استثناء منقطع، معناه لكن إن يشأ ربي شيئا أي سوء، فيكون ما شاء"[٢].

قال ابو السعود:" قوله تعالى {إلا أن يشاء ربى شيئا} استثناء مفرغ من أعم الأوقات أي لا أخاف ما تشركونه به سبحانه من معبوداتكم في وقت من الأوقات إلا في وقت مشيئتهتعالى شيئا من إصابة مكروه من جهتها وذلك إنما هو من جهته تعالى من غير دخل لآلهتكم فيه أصلا وفي التعرض لعنوان الربوبية مع الإضافة إلى ضميره عليه السلام إظهار منه لانقياده لحكمه سبحانه وتعالى واستسلام لأمره واعتراف بكونه تحت ملكوته وربوبيته"[٣].

قوله تعالى:{وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا} [الأنعام : ٨٠]، أي:" أحاط علمه بجميع الأشياء"[٤].

قال البغوي:" أي: أحاط علمه بكل شيء"[٥].

قال القرطبي:" أي: وسع علمه كل شي"[٦].

قال الطبري:" يقول: وعلم ربي كلَّ شيء، فلا يخفى عليه شيء، لأنه خالق كل شيء، وليس كالآلهة التي لا تضرّ ولا تنفع ولا تفهم شيئًا، وإنما هي خشبة منحوتةٌ، وصورة ممثلة"[٧].

قال ابو السعود:" كأنه تعليل للاستثناء، أي: أحاط بكل شيء علما فلا يبعد أن يكون في علمه تعالى أن يحيق بي مكروه من قبلها بسبب من الأسباب وفي الإظهار في موضع الإضمار تأكيد للمعنى المذكور واستلذاذ بذكره تعالى"[٨].

قوله تعالى:{أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام : ٨٠]، أي:" تتذكرون فتعلموا أنه وحده المعبود المستحق للعبودية؟"[٩].

قال الزمخشري:" فتميزوا بين الصحيح والفاسد والقادر والعاجز"[١٠].

قال الطبري:" يقول: أفلا تعتبرون، أيها الجهلة، فتعقلوا خطأ ما أنتم عليه مقيمون، من عبادتكم صورةً مصوّرة وخشبة منحوتة، لا تقدر على ضر ولا على نفع، ولا تفقه شيئًا ولا تعقله وترككم عبادةَ من خلقكم وخلق كلّ شيء، وبيده الخير، وله القدرة على كل شيء، والعالم لكل شيء"[١١].

قال ابو السعود:" أي: أتعرضون عن التأمل في أن آلهتكم جمادات غير قادرة على شيء ما من نفه ولا ضر فلا تتذكرون أنها غير قادرة على إضراري وفي إيراد التذكر دون التفكر ونظائره غشارة إلى أن أمر أصنامهم مركوز في العقول لا يتوقف إلى على التذكر"[١٢].

الفوائد:

١- مشروعية جدال المبطلين والمشركين لإقامة الحجة عليهم علهم يهتدون.

٢- بيان ضلال عقول أهل الشرك في كل زمان ومكان.

٣-يستفاد من الآية أن الخوف من غير الله تعالى ينقسم إلى ثلاثة أقسام: إلى ما هو شرك؛ وإلى ما هو محرم؛ وإلى ما هو مباح.

---

(١) تفسير القرطبي:٢٩/٧.
(٢) تفسير البغوي:١٦٣/٣.
(٣) تفسير أبي السعود:١٥٤/٣.
(٤) صفوة التفاسير:٣٧٣/١.
(٥) تفسير البغوي:١٦٣/٣.
(٦) تفسير القرطبي:٢٩/٧.
(٧) تفسير الطبري:٤٨٩/١١.
(٨) تفسير أبي السعود:١٥٥/٣.
(٩) التفسير الميسر:١٣٧.
(١٠) الكشاف:٤٢/٢.
(١١) تفسير الطبري:٤٨٩/١١.
(١٢) تفسير أبي السعود:١٥٥/٣.

أولا:- الخوف الشركي: وهو خوف السر (خوف التعظيم - خوف العبودية) يعني أن يخاف في داخله من هذا المخوف منه من أن يمسه بسوء، وهذا النوع مناف لأصل التوحيد.

ومن أمثلة ذلك قوله تعالى عن إبراهيم وقومه :{وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِّي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ} [الأنعام : ٨٠].

يفهم من الآية : أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك؛ فهو مناف لأصله، وإلا فهو مناف لكماله.

وأيضا قوله تعالى عن هود وقومه:{إِنْ نَقُولُ إِلَّا اعْتَرَاكَ بَعْضُ آلِهَتِنَا بِسُوءٍ قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ(٥٤) مِنْ دُونِهِ فَكِيدُونِي جَمِيعًا ثُمَّ لَا تُنْظِرُونِ} [هود :٥٤-٥٥].

وكما في قوله تعالى:{أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ} [الزمر : ٣٦].

وقد ذكر الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره:قوله{وَيُخَوِّفُونَكَ بِالَّذِينَ مِنْ دُونِهِ } [الزمر : ٣٦]:، قال: "يعني المشركين - يخوفون الرسول صلى الله عليه وسلم ويتوعدونه بأصنامهم وآلهتهم التي يدعونها من دون الله جهلا منهم وضلالا؛ ولهذا قال عز وجل: { وَمَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٦) وَمَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ مُضِلٍّ أَلَيْسَ اللَّهُ بِعَزِيزٍ ذِي انْتِقَامٍ (٣٧)} [الزمر : ٣٦ - ٣٧] أي: منيع الجناب، لا يضام من استند إلى جنابه ولجأ إلى بابه، فإنه العزيز الذي لا أعز منه ولا أشد انتقاما منه ممن كفر به وأشرك وعاند رسوله صلى الله عليه وسلم(١).

ثانيا:- الخوف المحرم (٢): وهو أن يخاف من مخلوق؛ فيطيعه في معصية الله، أو يترك ما أوجبه الله عليه - خوفا من عقابه -، بحيث أنه إذا هدده إنسان وأمره بفعل محرم فخافه - وهو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به - فهذا خوف محرم، لأنه يؤدي إلى فعل محرم بلا عذر (٣)، وهذا النوع مناف لكمال التوحيد الواجب(٤).

---

(١)تفسير ابن كثير:١٠٠/٧.

(٢)والذي قبله أيضا محرم - لا ريب في ذلك - ولكنه أخص منه، كما في تفريق أهل العلم في الذنوب بين الشرك والكبيرة والمعصية؛ رغم أنها كلها هي من جملة المعاصي، ولكنهم يعنون بالأخير عموم المعاصي من الصغائر

(٣)قال الحافظ ابن حجر رحمه الله في كتابه (فتح الباري) (٥٣/ ١٣): "قال الطبري: "اختلف السلف في الأمر بالمعروف؛ فقالت طائفة: يجب مطلقا واحتجوا بحديث طارق بن شهاب رفعه «أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر»، وبعموم قوله «من رأى منكم منكرا فليغيره بيده» الحديث.

وقال بعضهم: يجب إنكار المنكر؛ لكن شرطه أن لا يلحق المنكر بلاء لا قبل له به من قتل ونحوه، وقال آخرون: ينكر بقلبه لحديث أم سلمة مرفوعا «يستعمل عليكم أمراء بعدي، فمن كره فقد برئ، ومن أنكر فقد سلم، ولكن من رضي وتابع» الحديث). قال: والصواب اعتبار الشرط المذكور، ويدل عليه حديث «لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه» ثم فسره بأن «يتعرض من البلاء لما لا يطيق»". انتهى ملخصا.

وقال غيره: يجب الأمر بالمعروف لمن قدر عليه ولم يخف على نفسه منه ضررا.

قلت: وأما حديث طارق بن شهاب فهو صحيح. رواه أبو داود (٤٣٤٤). صحيح أبي داود (٤٣٤٤).

وأما حديث (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده) فقد رواه مسلم (٤٩) عن أبي سعيد مرفوعا.

وأما حديث أم سلمة فقد رواه مسلم (١٨٥٤) أيضا.

وأما حديث (لا ينبغي لمؤمن أن يذل نفسه) فهو صحيح. الترمذي (٢٢٥٤) عن حذيفة مرفوعا. الصحيحة (٦١٣).

(٤)فمن خشي أحدا أكثر من خشيته من الله تعالى - ليس خوف العبودية - فهو الخوف المحرم، وهو كمن أحب غير الله أكثر من محبة الله - ولكن أيضا ليس محبة العبودية -.

قال الطبري رحمه الله في التفسير (٥٤٧/ ٨) عند تأويل قوله تعالى {ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية وقالوا ربنا لم كتبت علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب} [النساء:٧٧]: (ذكر أن هذه الآية نزلت في قوم من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كانوا قد آمنوا به وصدقوه قبل أن يفرض عليهم الجهاد - وقد فرض

وفي الحديث :"ألا لا يمنعن أحدكم رهبة الناس أن يقول بحق إذا رآه أو شهده؛ فإنه لا يقرب من أجل ولا يباعد من رزق؛ أن يقول بحق أو يذكر بعظيم"(١).

وكما في وصية النبي صلى الله عليه وسلم لأبي ذر :"وأن لا أخاف في الله لومة لائم"(٢).

ثالثا:- الخوف الطبيعي: وهذا أمر طبيعي؛ كالخوف من عدو أو سبع, أو نار، أو مؤذ ومهلك ونحو ذلك، كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يعوذ بالله من العجز والكسل والجبن والبخل والهرم(٣).

وهذا النوع مباح لا يتعلق به مدح ولا ذم إلا إن أدى إلى محظور شرعي(٤).

والخوف من الله تعالى درجات، فمن الناس من يغلو في خوفه؛ فيقنط من رحمة ربه؛ فلا يستغفره ولا ينتهي عن معصيته! ومنهم من يفرط فيه؛ فلا ييأس بعذاب ربه؛ فلا ينتهي أيضا عن معصيته، ومنهم من يعتدل في خوفه - وهذا هو الخوف العدل - وضابطه أنه يرد العبد عن محارم الله فقط ولا يقنطه(٥).

قال الحافظ ابن رجب رحمه الله: "والقدر الواجب من الخوف؛ ما حمل على أداء الفرائض واجتناب المحارم، فإن زاد على ذلك بحيث صار باعثا للنفوس على التشمير في نوافل الطاعات والانكفاف عن دقائق المكروهات والتبسط في فضول المباحات؛ كان ذلك فضلا محمودا، فإن تزايد على ذلك بأن أورث مرضا أو موتا أو هما لازما بحيث يقطع عن السعي في اكتساب الفضائل المطلوبة المحبوبة لله عز وجل؛ لم يكن محمودا"(٦).

القرآن

{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ (٨١)} [الأنعام : ٨١]

التفسير:

وكيف أخاف أوثانكم وأنتم لا تخافون ربي الذي خلقكم، وخلق أوثانكم التي أشركتموها معه في العبادة، من غير حجة لكم على ذلك؟ فأي الفريقين: فريق المشركين وفريق الموحدين أحق بالطمأنينة والسلامة والأمن من عذاب الله؟ إن كنتم تعلمون صدق ما أقول فأخبروني.

قوله تعالى:{وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ} [الأنعام : ٨١]، أي:" أي كيف أخاف أوثانكم التي أشركتموها مع الله في العبادة!" (٧).

عليهم الصلاة والزكاة - وكانوا يسألون الله أن يفرض عليهم القتال، فلما فرض عليهم القتال شق عليهم ذلك وقالوا ما أخبر الله عنهم في كتابه.

(١)صحيح. أحمد (١١٤٧٤) عن أبي سعيد مرفوعا. الصحيحة (١٦٨).

(٢)صحيح. أحمد (٢١٤١٥). الصحيحة (٢١٦٦).

وتمامه: "أمرني خليلي صلى الله عليه وسلم بسبع؛ أمرني بحب المساكين والدنو منهم، وأمرني أن أنظر إلى من هو دوني ولا أنظر إلى من هو فوقي، وأمرني أن أصل الرحم وإن أدبرت، وأمرني أن لا أسأل أحدا شيئا، وأمرني أن أقول بالحق وإن كان مرا، وأمرني أن لا أخاف في الله لومة لائم، وأمرني أن أكثر من قول لا حول ولا قوة إلا بالله؛ فإنهن من كنز تحت العرش".

(٣)كما في البخاري (٦٣٦٧)، ومسلم (٢٧٠٦) عن أنس مرفوعا:"اللهم إني أعوذ بك من العجز والكسل والجبن والهرم والبخل، وأعوذ بك من عذاب القبر، ومن فتنة المحيا والممات".

(٤) انظر: التوضيح الرشيد في شرح التوحيد:٢٨٨-٢٩٠.

(٥)أفاده الشيخ ابن عثيمين رحمه الله في كتابه (القول المفيد) :(٦٧/ ٢).

قال الشيخ السعدي رحمه الله في التفسير (ص١٥٧): "{إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين} [آل عمران:١٧٥] وفي هذه الآية وجوب الخوف من الله وحده، وأنه من لوازم الإيمان، فعلى قدر إيمان العبد يكون خوفه من الله، والخوف المحمود ما حجز العبد عن محارم الله".

(٦)التخويف من النار والتعريف بحال دار البوار: ٢٨.

(٧) انظر: صفوة التفاسير: ٣٧٣/١، والتفسير الميسر:١٣٧.

قال محمد بن إسحاق:" يقول:كيف أخاف وثنًا تعبدون من دون الله لا يضرُّ ولا ينفع"(١).
قال ابن كثير:" أي : كيف أخاف من هذه الأصنام التي تعبدون من دون الله"(٢).
قال البغوي:" يعني الأصنام، وهي لا تبصر ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع"(٣).
قال الطبري:" وهذا جواب إبراهيم لقومه حين خوفوه من آلهتهم أن تمسَّه، لذكره إياها بسوء في نفسه بمكروه، فقال لهم: وكيف أخاف وأرهب ما أشركتموه في عبادتكم ربَّكم فعبدتموه من دونه، وهو لا يضر ولا ينفع؟ ولو كانت تنفع أو تضر، لدفعت عن أنفسها كسرى إياها وضربي لها بالفأس!"(٤).
قال القرطبي:" في{كيف} معنى الإنكار، أنكر عليهم تخويفهم إياه بالأصنام وهم لا يخافون الله عز وجل، أي كيف أخاف مواتا"(٥).
قال السمعاني:" الإشراك: هو الجمع بين الشيئين في معنى؛ فالإشراك بالله: هو أن يجمع مع الله غير الله فيما لا يجوز إلا لله، ومعنى الآية: وكيف أخاف الأصنام وما أشركتم"(٦).
قوله تعالى:{وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا} [الأنعام : ٨١]، أي:" وأنتم لا تخافون ربي الذي خلقكم، وخلق أوثانكم التي أشركتموها معه في العبادة، من غير حجة لكم على ذلك؟"(٧).
قال محمد بن إسحاق:" ولا تخافون أنتم الذي يضر وينفع، وقد جعلتم معه شركاء لا تضر ولا تنفع؟"(٨).
قال الزجاج:" أي: ولا تخافون أنتم شرككم بالله ما لم ينرل به عليكم سلطانا، أي: حجة بينة"(٩).
قال الطبري:أي:"وأنتم لا تخافون الله الذي خلقكم ورزقكم، وهو القادر على نفعكم وضركم في إشراككم في عبادتكم إياه، {ما لم ينزل به عليكم سلطانًا}، يعني: ما لم يعطكم على إشراككم إياه في عبادته حُجّة، ولم يضع لكم عليه برهانًا، ولم يجعل لكم به عذرًا"(١٠).
قال السمعاني:أي:" وأنتم أحق بالخوف مني حيث أشركتم بالله، ولا تخافون الله بشرككم أو فعلكم الذي لم ينزل به الله حجة وسلطانا؟"(١١).
قال الزمخشري:" {سلطانا} أى: حجة، لأن الإشراك لا يصح أن يكون عليه حجة، كأنه قال: وما لكم تنكرون على الأمن في موضع الأمن، ولا تنكرون على أنفسكم الأمن في موضع الخوف"(١٢).
قال البغوي:" {سلطانا}، حجة وبرهانا"(١٣).
عن ابن عباس:" كل سلطان في القرآن حجة"(١٤).
قال ابن ابي حاتم:"وروي، عن أبي مالك ومحمد بن كعب وعكرمة وسعيد بن جبير والضحاك والسدي ونضر بن عربي، مثله"(١).

---

(١) أخرجه الطبري(١٣٤٦٧):ص١١/٤٩٠-٤٩١.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٩٤/٣.
(٣) تفسير البغوي:١٦٤/٣.
(٤) تفسير الطبري:٤٩٠/١١.
(٥) تفسير القرطبي:٣٠/٧.
(٦) تفسير السمعاني:١٢١/٢.
(٧) التفسير الميسر:١٣٧.
(٨) أخرجه الطبري(١٣٤٦٧):ص١١/٤٩٠-٤٩١.
(٩) معاني القرآن:٢٦٠/٢.
(١٠) تفسير الطبري:٤٩٠/١١.
(١١) تفسير السمعاني:١٢١/٢.
(١٢) الكشاف:٤٢/٢.
(١٣) تفسير البغوي:١٦٤/٣.
(١٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٣٧):ص١٣٣٢/٤.

قوله تعالى:{فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ} [الأنعام : ٨١]، أي:" فأي الفريقين: فريق المشركين وفريق الموحدين أحق بالطمأنينة والسلامة والأمن من عذاب الله؟"(٢).

قال محمد بن إسحاق:" أي: بالأمن من عذاب الله في الدنيا والآخرة، الذي يَعْبد الذي بيده الضرّ والنفع، أم الذي يعبد ما لا يضرّ ولا ينفع؟ يضرب لهم الأمثال، ويصرِّف لهم العبر، ليعلموا أنَّ الله هو أحق أن يخاف ويعبد مما يعبُدون من دونه"(٣).

قال الزجاج:" أي: أحق بأن يأمن من العذاب، الموحد أم المشرك"(٤).

قال البغوي:يقول" أنا وأهل ديني أم أنتم؟"(٥).

قال ابن كثير:" فأي الطائفتين أصوب ؟ الذي عَبَد من بيده الضر والنفع ، أو الذي عبد من لا يضر ولا ينفع بلا دليل ، أيهما أحق بالأمن من عذاب الله يوم القيامة ؟"(٦).

قال الطبري:" يقول: أنا أحق بالأمن من عاقبة عبادتي ربّي مخلصًا له العبادة، حنيفًا له ديني، بريئًا من عبادة الأوثان والأصنام، أم أنتم الذين تعبدون من دون الله أصنامًا لم يجعل الله لكم بعبادتكم إياها برهانًا ولا حجة"(٧).

قال الزمخشري:" ولم يقل: فأينا أحق بالأمن أنا أم أنتم، احترازا من تزكيته نفسه، فعدل عنه إلى قوله :{فأي الفريقين}، يعنى: فريقى المشركين والموحدين"(٨).

عن مجاهد:" قول إبراهيم حين سألهم:{أيُّ الفريقين أحق بالأمن}، هي حجة إبراهيم صلى الله عليه وسلم"(٩).

عن ابن جريج قال:"{فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}، أمَنْ يعبد ربًّا واحدًا، أم من يعبد أربابًا كثيرة؟ يقول قومه: الذين آمنوا برب واحد"(١٠).

عن ابن زيد:" قوله: {فأي الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}، أمن خاف غير الله ولم يخفه، أم من خاف الله ولم يخف غيره؟ فقال الله تعالى ذكره:"الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم"، الآية"(١١).

قوله تعالى:{إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام : ٨١]، أي:" إن كنتم تعلمون صدق ما أقول فأخبروني"(١٢).

قال الطبري:" يقول: إن كنتم تعلمون صدق ما أقول، وحقيقة ما أحتجُّ به عليكم، فقولوا وأخبروني: أيُّ الفريقين أحق بالأمن؟"(١٣).

قال الربيع:" أفلج الله إبراهيم صلى الله عليه وسلم حين خاصمهم(١٤)، فقال:{وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطانًا فأيّ الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون}؟ ثم قال:{وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه}"(١٥).

---

(١) تفسير ابن ابي حاتم:١٣٣٢/٤.
(٢) التفسير الميسر:١٣٧.
(٣) أخرجه الطبري(١٣٤٦٧):ص٤٩٠/١١-٤٩١.
(٤) معاني القرآن:٢٦٠/٢.
(٥) تفسير البغوي:١٦٤/٣.
(٦) تفسير ابن كثير:٢٩٤/٣.
(٧) تفسير الطبري:٤٩٠/١١.
(٨) الكشاف:٤٢/٢.
(٩) أخرجه الطبري(١٣٤٦٩):ص٤٩١/١١.
(١٠) أخرجه الطبري(١٣٤٧١):ص٤٩١/١١.
(١١) أخرجه الطبري(١٣٤٧٢):ص٤٩١/١١-٤٩٢.
(١٢) التفسير الميسر:١٣٧.
(١٣) تفسير الطبري:٤٩٠/١١.
(١٤)أفلجت فلانا على خصمه " ، إذا غلبته ، و " أفلجه الله عليه " ، آتاه الظفر والفوز والغلبة.[انظر: حاشية الطبري: ٤٩١/١١].
(١٥) أخرجه الطبري(١٣٤٦٨):ص٤٩١/١١.

الفوائد:
١- من فوائد الآية: التعجب من حال مذنب لا يخاف عاقبة ذنوبه.
٢- ومنها: أن انحرافات الجاهلية وتصوراتها لا قيمة لها، وأن المسلم لا يخاف من غير الله تعالى أن يصيبه بما يشاء من مصيبة أو مرض أو فقر أو قتل أو نحو ذلك، بقدرته ومشيئته، فهذا الخوف لا يجوز تعلقه أصلا بغير الله تعالى؛ لأن هذا من لوازم الإلهية.
وقد توارد الآيات الكريمة تنزع عوامل الخوف من الخَلق على الرزق، أو الخوف من الأذى أو النتائج المجهولة، فمنها(١):
- {قُلْ مَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ} [يونس: ٣١] .
- {قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ} [التوبة: ٥١].
٣- أن أهل الإيمان هم أهل الأمن والاطمئنان.
٤- أن أحق العباد بالأمن من الخوف، من آمن بالله ولم يشرك به شيئاً.
٥- ومن فوائد الآية الكريمة:بيان ثمرة من ثمرات الإيمان وهي: استعلاء نفس المؤمن وتحرره من العبودية لغير الله تعالى، فلا يخاف إلا إياه، ولا يطمع إلا في رضاه، وهذا ما يربي فيه الخصال الحميدة من العزة والكرامة والصدق والشجاعة والسخاء، لأنه صار عبدا لله حقا يستمد عزه من عزته كما قال تعالى: { وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ} [المنافقون : ٨]، وقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: {وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ} [الأنعام : ٨١].

القرآن
{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ (٨٢)} [الأنعام : ٨٢]
التفسير:
الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ولم يخلطوا إيمانهم بشرك، أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق.
في سبب نزول الآية قولان:
احدهما: قال علي-كرّم الله وجهه-: "نزلت هذه الآية في إبراهيم وأصحابه خاصة ليس في هذه الأمة"(٢). [ضعيف]
والثاني: قال بكر بن سوادة: "حمل رجل من العدو على المسلمين فقتل رجلًا، ثم حمل فقتل آخر، ثم حمل فقتل آخر، ثم قال: أينفعني الإسلام بعد هذا؟ قالوا: ما ندري حتى نذكر ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم -؛ فقال: نعم، فضرب فرسه فدخل فيهم، ثم حمل على أصحابه فقتل رجلًا، ثم آخر، ثم آخر؛ ثم قُتِل، قال: فيرون أن هذه الآية نزلت فيه: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ}"(٣). [ضعيف]

---

(١)منهج التربية الإسلامية: ١/ ١٢٩-١٣٢.
(٢)أخرجه الحاكم (٢/ ٣١٦) من طريق أبي حذيفة ثنا الثوري عن زياد بن علاقة عن زياد بن حرملة قال: سمعت علياً (وذكره).
وأخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٣٣ رقم ٧٥٤٤)، والطبري في "جامع البيان" (٧/ ١٧٠) من طريق قيس بن الربيع عن زياد بن علاقة به.
قلنا: وهو بمجموعهما حسن إلى زياد بن عِلاقة، لكن زياد بن حرمله لم نجد له ترجمة!.
وذكره السيوطي في "الدر المنثور" (٣/ ٣٠٩) وزاد نسبته للفريابي وعبد بن حميد وابن مردويه.
أما الحاكم؛ فقال: "هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه! "، وسكت عنه الذهبي..
(٣)أخرجه ابن أبي حاتم في "تفسيره" (٤/ ١٣٣٣ رقم ٧٥٤٥) من طريق عبيد الله بن زحر عنه به.

قوله تعالى:{الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ} [الأنعام : ٨٢]، أي:" الذين صدَّقوا الله ورسوله وعملوا بشرعه ولم يخلطوا إيمانهم بشرك"[١].

قال ابن كثير:" أي : هؤلاء الذين أخلصوا العبادة لله وحده لا شريك ، له ، ولم يشركوا به شيئا هم الآمنون يوم القيامة ، المهتدون في الدنيا والآخرة "[٢].

وفي الظلم ها هنا قولان :

أحدهما : أنه الشرك ، قاله ابن مسعود[٣]، وأُبَيّ بن كعب[٤]، وسلمان[٥]، وحذيفة[٦]، وابن عباس[٧]، وأبو ميسرة[٨]، وإبراهيم[٩]، ومجاهد[١٠]، وقتادة[١١]، وابن زيد[١٢]، والسدي[١٣]، وأبو عبدالرحمن[١٤]، وابن إسحاق[١٥].

روى ابن مسعود قال :" لما نزلت هذه الآية:{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم}، شقَّ ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا: أيُّنا لم يظلم نفسه؟ قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: ليس كما تظنُّون، وإنما هو ما قال لقمان لابنه: {لا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ} [لقمان : ١٣]"[١٦].

والثاني : أنه سائر أنواع الظلم، والمعنى: ولم يخلطوا إيمانهم بشيء من معاني الظلم، وذلك: فعلُ ما نهى الله عن فعله، أو ترك ما أمر الله بفعله، وقالوا: الآية على العموم، لأن الله لم يخصَّ به معنى من معاني الظلم[١٧].

ومن قال بهذا اختلفوا في عمومها وخصوصها على قولين[١٨]:

أحدهما : أنها عامة .

والثاني : أنها خاصة .

واختلف من قال بتخصيصها فيمن نزلت على قولين :

أحدهما : أن هذه الآية نزلت في إبراهيم خاصة وليس لهذه الأمة منها شيء ، قاله علي كرّم الله وجهه[١٩].

والثاني : أنها فيمن هاجر إلى المدينة ، قاله عكرمة[٢٠].

قلنا: وهذا سند ضعيف؛ فيه علتان:
الأولى: الإرسال.
الثانية: عبيد الله هذا ضعيف.

(١) التفسير الميسر:١٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٩٤/٣.
(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٧٦)-(١٣٤٨٠):ص٤٩٤/١١-٤٩٦.
(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٩٣)-(١٣٤٩٧):ص٤٩٩/١١-٥٠٠.
(٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٨٦):ص٤٩٧/١١.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٨٨):ص٤٩٨/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٩٠)-(١٣٤٩٢):ص٤٩٨/١١-٤٩٨.
(٨) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٩٨):ص٥٠٠/١١.
(٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٥٠٠):ص٥٠٠/١١-٥٠١..
(١٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠٣):ص٥٠١/١١.
(١١) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠١):ص٥٠١/١١.
(١٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠٦):ص٥٠١/١١.
(١٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠٥):ص٥٠١/١١.
(١٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٥٠٨):ص٥٠٢/١١.
(١٥) انظر: تفسير الطبري(١٣٥١٠):ص٥٠٢/١١.
(١٦) أخرجه الطبري بطرق مختلفة، انظر: تفسيره(١٣٤٧٦)-(١٣٤٨٠):ص٤٩٤/١١-٤٩٦.
(١٧) انظر: تفسير الطبري:٥٠٢/١١.
(١٨) انظر: تفسير الطبري:٥٠٢/١١، والنكت والعيون:١٣٨/٢.
(١٩) انظر: تفسير الطبري(١٣٥١١):ص٥٠٣/١١.
(٢٠) انظر: تفسير الطبري(١٣٥١٢):ص٥٠٣/١١.

قال أبو جعفر الطبري:" وأولى القولين بالصحة في ذلك، ما صح به الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهو الخبر الذي رواه ابن مسعود عنه أنه قال: الظلم الذي ذكره الله تعالى ذكره في هذا الموضع، هو الشرك"(١).

واختلفوا فيمن كانت هذه الآية جواباً منه على ثلاثة أقاويل :

أحدها : أنه جواب من الله تعالى فصل به بين إبراهيم ومن حَاجّه من قومه ، قاله ابن زيد(٢)، وابن إسحاق(٣).

والثاني : أنه جواب قومه لما سألهم :{أَيُّ الفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ}؟ فأجابوا بما فيه الحجة عليهم ، قاله ابن جريج(٤).

والثالث : أنه جواب إبراهيم كما يسأل العالم نفسه فيجيبها ، حكاه الزجاج(٥).

قوله تعالى:{أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ} [الأنعام : ٨٢]، أي:" أولئك لهم الطمأنينة والسلامة، وهم الموفقون إلى طريق الحق" (٦).

قال الطبري:" يعني: هؤلاء الذين آمنوا ولم يخلطوا إيمانهم بشرك {لهم الأمن} يوم القيامة من عذاب الله، وهم المصيبون سبيل الرشاد، والسالكون طريق النجاة"(٧).

الفوائد:

١- أن الإيمان أمن، والإسلام سلامة، كما قال تعالى: {الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ}؛ فإن تدارك الله من شاء منهم بتوبة نصوح فهو فضله سبحانه وإلا فيا خسرهم.

٢- أنه كلما كان العبد أكثر إخلاصاً لربه تبارك وتعالى كان أكثر أمناً في يوم القيامة، فالموحدون الذين لم يلبسوا إيمانهم بشيء من الشرك، لهم الأمن التام يوم القيامة، قال تعالى:{الَّذِينَ آمَنُواْ وَلَمْ يَلْبِسُواْ إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ}.

٣- إثبت الإيمان مع الكبائر، لقوله تعالى:{الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم}.

٤- وقد اضطر الزمخشري والمعتزلة إلى صحة الجمع بين الإيمان وما عدا الشرك من الكبائر في مواضعَ منها في تفسير قوله تعالى: {ولم يلبسوا إيمانهم بِظُلْمٍ} [الأنعام: ٨٢]، فإنهم فسَّروه بالفسق بالكبيرة، ومنعوا مما صح في حديث ابن مسعود أنه الشرك(٨)، وعلَّلوا ذلك بأن الشرك لا يُجامِعُ الإيمانَ، بخلاف سائر الكبائر، ونسوا قاعدتهم في الوعيد، وهي أن الإيمان لا يُجامِعُ شيئاً من الكبائر، والحق أن الإيمان المذكور هنا هو اللُّغويُّ، وهو يُجامِعُ الشرك والكبائر. قال الله تعالى فيه: {وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ} [يوسف: ١٠٦]، فردُّهُم للحديث الصحيح هنا غلطٌ فاحشٌ، والله أعلم(٩).

القرآن

{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (٨٣)} [الأنعام : ٨٣]

---

(١) تفسير الطبري:١١/٥٠٣-٥٠٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٧٤):ص١١/٤٩٣.

(٣) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٧٣):ص١١/٤٩٣.

(٤) انظر: تفسير الطبري(١٣٤٧٥):ص١١/٤٩٣.

(٥) انظر: معاني القرآن:٢/٢٦٠.

(٦) التفسير الميسر:١٣٨.

(٧) تفسير الطبري:١١/٥٠٤.

(٨)أخرج أحمد ١/ ٣٨٧ و٤٢٤ و٤٤٤، والبخاري (٣٢) و (٣٤٢٨) و (٣٤٢٩) و (٤٦٢٩)، ومسلم (١٢٤)، والترمذي (٣٠٦٧) عن ابن مسعود، قال: لما نزلت: {الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم} شق ذلك على المسلمين وقالوا: أينا لا يظلم نفسه، فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: " ليس ذلك، إنما هو الشرك. ألم تسمعوا قول لقمان لابنه: {يا بني لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم} [لقمان: ١٣]. وانظر ابن حبان (٢٥٣).

(٩) انظر: العواصم والقواصم، لابن الوزير:٩/٢٢٢-٢٢٣.

التفسير:
وتلك الحجة التي حاجَّ بها إبراهيم عليه السلام قومه هي حجتنا التي وفقناه إليها حتى انقطعت حجتهم. نرفع مَن نشاء من عبادنا مراتب في الدنيا والآخرة. إن ربك حكيم في تدبير خلقه، عليم بهم.

قوله تعالى:{وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ} [الأنعام : ٨٣]، أي:" وتلك الحجة التي حاجَّ بها إبراهيم عليه السلام قومه هي حجتنا التي وفقناه إليها حتى انقطعت حجتهم" [١].

قال ابن كثير:" أي : وجهنا حجته على قومه "[٢].

قال الطبري:" قولَ إبراهيم لمخاصميه من قومه المشركين:{أي الفريقين أحق بالأمن}، أمن يعبد ربًّا واحدًا مخلصًا له الدين والعبادة، أم من يعبد أربابًا كثيرة؟ وإجابتهم إياه بقولهم:بل من يعبد ربًّا واحدًا أحق بالأمن، وقضاؤهم له على أنفسهم، فكان في ذلك قطع عذرهم وانقطاع حجتهم، واستعلاء حجة إبراهيم عليهم، فهي الحجةالتي آتاها الله إبراهيم على قومه"[٣].

قال القرطبي:" {تلك}، إشارة إلى جميع احتجاجاته حتى خاصمهم وغلبهم بالحجة"[٤].

وفي هذه «الحجة» التي أوتيها إبراهيم-عليه السلتم-، ثلاثة أقوال:

أحدها : قوله لهم : {أَتَعْبُدُونَ مِنْ دِونِ اللَّهِ مَا لاَ يمْلِكُ لَكُم ضَراً وَلاَ نَفْعاً} أم تعبدون من يملك الضر والنفع ؟ فقالوا : مالك الضر والنفع أحق[٥] .

والثاني : أنه لما قال:{فَأَيُّ الفَرِيقَينِ أَحَقُّ بِالأَمْنِ}، عبادة إله واحد أم آلهة شتى؟ فقالوا : عبادة إله واحد فأقروا على أنفسهم . وهذا قول مجاهد[٦]، وهو اختيار أبي جعفر الطبري[٧].

والثالث : أنهم لما قالوا لإبراهيم ألا تخاف أن تخبلك آلهتنا ؟ فقال : أما تخافون أن تخبلكم آلهتكم بجمعكم للصغير مع الكبير في العبادة[٨].

واختلفوا في سبب ظهور الحجَّة لإبراهيم على قولين[٩]:

أحدهما : أن الله تعالى أخطرها بباله حتى استخرجها بفكره .

والثاني : أنه أمره بها ولقنه إياها .

قوله تعالى:{نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاءُ} [الأنعام : ٨٣]، أي:" نرفع مَن نشاء من عبادنا مراتب في الدنيا والآخرة" [١٠].

قال البغوي:أي:"بالعلم"[١١].

قال الزمخشري:" يعنى: في العلم والحكمة"[١٢].

قال مالك: "سمعت زيد بن أسلم يقول في هذه الآية: {نرفع درجات من نشاء}: إنه العلم، يرفع الله به من يشاء في الدنيا"[١٣].

قرأ أهل الكوفة ويعقوب:«درجات» بالتنوين -هاهنا وفي سورة يوسف-، أي: نرفع درجات من نشاء بالعلم والفهم والفضيلة والعقل، كما رفعنا درجات إبراهيم حتى اهتدى وحاج قومه في التوحيد[١].

---

(١) التفسير الميسر:١٣٨.
(٢) تفسير ابن كثير:٢٩٦/٣.
(٣) تفسير الطبري:٥٠٤/١١-٥٠٥.
(٤) تفسير القرطبي:٣٠/٧.
(٥) انظر: النكت والعيون:١٣٩/٢.
(٦) انظر: تفسير الطبري(١٣٥١٣):ص٥٠٥/١١.
(٧) انظر: تفسير الطبري:٥٠٤/١١-٥٠٥.
(٨) انظر: النكت والعيون:١٣٩/٢.
(٩) انظر: النكت والعيون:١٣٩/٢.
(١٠) التفسير الميسر:١٣٨.
(١١) تفسير البغوي:١٦٤/٣.
(١٢) الكشاف:٤٣/٢.
(١٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٥٠):ص١٣٣٥/٤.

قوله تعالى:{إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام : ٨٣]، أي:" إن ربك حكيم في تدبير خلقه، عليم بهم" [٢].

عن أبي العالية: "{حكيم}، يقول: حكيم في أمره"[٣].

قال محمد ابن إسحاق:"حكيم في عذره وحجته إلى عباده"[٤]، "عليم بما يخفون"[٥].

قال ابن كثير:" أي : حكيم في أفعاله وأقواله { عَلِيمٌ } أي : بمن يهديه ومن يضله ، وإن قامت عليه الحجج والبراهين ، كما قال : { إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ * وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّى يَرَوُا الْعَذَابَ الألِيمَ } [يونس : ٩٦ ، ٩٧]"[٦].

قال الطبري:" يعني: إن ربك، يا محمد،{حكيم}، في سياسته خلقه، وتلقينه أنبياءه الحجج على أممهم المكذّبة لهم، الجاحدة توحيد ربهم، وفي غير ذلك من تدبيره، {عليم}، بما يؤول إليه أمر رسله والمرسل إليهم، من ثبات الأمم على تكذيبهم إياهم، وهلاكهم على ذلك، أوإنابتهم وتوبتهم منه بتوحيد الله تعالى ذكره وتصديق رسله، والرجوع إلى طاعته، يقول تعالى ذكره لنبيه صلى الله عليه وسلم: فأتَس، يا محمد، في نفسك وقومك المكذبيك، والمشركين، بأبيك خليلي إبراهيم صلى الله عليه وسلم، واصبر على ما ينوبك منهم صبرَه، فإني بالذي يؤول إليه أمرك وأمرهم عالم، وبالتدبير فيك وفيهم حكيم"[٧].

الفوائد:

١- أن النصر قد يكون بقوة الحجة، وصحة البرهان، وهذا ثابت لجميع الأنبياء والرسل وأتباعهم.

٢- أن إبراهيم عليه السلام كان نبي الحجة وهو أول من أصل أصول الدين بالاستدلال على علم التوحيد وبه اقتدى رؤساء المتكلمين في استدلاله بالثلاثة الكواكب (الكوكب، القمر، الشمس).

٣- أن الأنبياء –عليهم السلام-أُعطوا العقول الراجحة، والذكاء الفذ، واللسان المبين، والبديهة الحاضرة، وغير ذلك من المواهب والقدرات التي لا بدّ منها لتحمل الرسالة ثم إبلاغها ومتابعة الذين تقبلوها بالتوجيه والتربية.

لقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يحفظ ما يُلقى إليه ولا ينسى منه كلمة {سَنُقْرِؤُكَ فلا تنسى} [الأعلى: ٦] .

وقد كانوا يعرضون دين الله للمعارضين ويفحمونهم في معرض الحجاج، وفي هذا المجال أسكت إبراهيم خصمه (فبهت الّذي كفر والله لا يهدي القوم الظّالمين) [البقرة: ٢٥٨] ، وقال الله معقباً على محاججة إبراهيم لقومه: {وتلك حجَّتنا آتيناها إبراهيم على قومه نرفع درجاتٍ مَّن نَّشاء} [الأنعام: ٨٣] .

وموسى كان يجيب فرعون على البديهة حتى انقطع، فانتقل إلى التهديد بالقوة {قال فرعون وما ربُّ العالمين - قال ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما إن كنتم مُّوقنين - قال لمن حوله ألا تستمعون - قال ربُّكم وربُّ آبائكم الأوَّلين - قال إنَّ رسولكم الّذي أرسل إليكم لمجنون - قال ربُّ المشرق والمغرب وما بينهما إن كنتم تعقلون - قال لئن اتَّخذت إلهاً غيري لأجعلنَّك من المسجونين} [الشعراء: ٢٣-٢٩][٨].

---

(١) انظر: تفسير البغوي:١٦٤/٣.

(٢) التفسير الميسر:١٣٨.

(٣) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٥١):ص١٣٣٥/٤.

(٤) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٥٢):ص١٣٣٥/٤.

(٥) أخرجه ابن ابي حاتم(٧٥٥٣):ص١٣٣٥/٤.

(٦) تفسير الطبري:٢٩٦/١١.

(٧) تفسير الطبري:٥٠٦/١١.

(٨) انظر: الرسل والرسالات:٨٣.

٤- استدل بعض الفرق بقول الله تعالى:{ وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ} [الأنعام: ٨٣] على تصحيح دليل الأعراض وحدوث الأجسام، وشرعيته؛ بزعمهم أن الله تعالى في هذه الآية قد صدق خليله عليه السلام في استدلاله بدليل الأعراض وحدوث الأجسام: مجانب للصواب.

فالله تعالى قال: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ}، ولم يقل على نفسه. فعلم أن هذه المباحثة إنما جرت بين إبراهيم عليه السلام، وقومه؛ لأجل أن يرشدهم إلى الإيمان والتوحيد، لا لأجل أن يطلب إبراهيم عليه السلام المعرفة لنفسه."ولهذا قال الخليل في تمام الكلام: {إِنِّي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} [الأنعام: ٧٨ - ٧٩]. فقوله: إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ: يبين أنه إنما يعبد الله وحده، فله يوجه وجهه؛ فإنه إذا توجه قصده إليه، تبع قصده وجهه؛ فالوجه موجه حيث توجه القلب؛ فصار قلبه ووجهه متوجهاً إلى الله تعالى ولهذا قال: وَمَا أَنَاْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، لم يذكر أنه أقر بوجود الصانع؛ فإن هذا كان معلوماً عند قومه، لم يكونوا ينازعونه في وجود فاطر السموات والأرض، وإنما كان النزاع في عبادة غير الله واتخاذه رباً"(١).

فعلم مما تقدم أن الخليل عليه السلام لم يكن مستدلاً بدليل الأعراض وحدوث الأجسام على إثبات الصانع، بل كان محاجاً لقومه، منكراً عليهم عبادتهم الكواكب من دون الله تعالى.

٥- في الآية تفضيل الأنبياء على غيرهم من الصديقين والشهداء والصالحين(٢)، ويدلّ على تفضيلهم قوله تعالى: {وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَّن نَّشَاء إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ...}.

عن أبي الدرداء، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: " ما طلعت الشمس ولا غربت على أحد أفضل، وأخير، من أبي بكر، إلا أن يكون نبيٌّ" (٣).

وفي حديث آخر:" أبو بكر أفضل هذه الأمة إلا أن يكون نبي"(٤).

ويؤخذ من الحديث أن الأنبياء والمرسلين أفضل الخلق، وأنّ أفضل رجل بعدهم أبو بكر الصديق.

وقريب من هذا الحديث قول الرسول صلى الله عليه وسلم في أبي بكر وعمر " هذان سيدا كهول أهل الجنة من الأولين والآخرين، إلاّ النبيين والمرسلين " (٥).

والمهتدون بهدى الكتاب والسنة يرون أنّ الرسل أفضل الخلق وأكملهم، وقد اختارهم العليم الخبير كي يكونوا سفراءه إلى خلقه، وينبغي أن نفرق بين ما جبلهم الله عليه من الفضائل والمزايا وبين ما أوحاه إليهم، فالذي أوحي إليهم به لم يكن لهم به علم، وليس لذكائهم وفطنتهم من شيء فيه، ولذلك قال الله لرسوله: {وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الإيمانُ} [الشورى: ٥٢] وهذا يرد على ذلك الصنف من الذين يزعمون أنهم يعظمون الرسول صلى الله عليه وسلم، ويصفونه بالعبقرية، ثم ينسبون كل شيء إلى عبقريته، حتى العلوم التي جاء بها، وهذه خدعة ماكرة، يريدون

---

(١)رسالة في الصفات الاختيارية لابن تيمية – ضمن جامع الرسائل:٢/ ٥٢، ٥٣.

(٢) انظر: مجموع فتاوى شيخ الإسلام:٣٢١/١١.

(٣)أخرجه عبد بن حميد في "مسنده" ورقمه: (٢١٢) من حديث أبي الدرداء، وأخرجه أيضاً عبد الله بن أحمد في كتاب "فضائل الصحابة" ورقمه: (٥٠٨) .

(٤)رواه الطبراني كما في "مجمع الزوائد" (٩/ ٤٤). وابن عدي (٥/ ٢٧٦) وقال: عكرمة بن عمار هو مستقيم الحديث إذا حدث عنه ثقة. قال الهيثمي: فيه إسماعيل بن زياد وهو ضعيف. وقال الألباني في "السلسلة الضعيفة" (١٦٧٦) موضوع.

(٥)أخرجه الترمذي: (٣٦٦٤) من حديث أنس بن مالك، و (٣٦٦٥) من حديث علي بن أبي طالب، وكلاهما صحيح.

من ورائها إنكار الوحي، ونسبة هذه العلوم الإلهية الربانية إلى العبقرية المحمدية، ونحن في الرد عليهم لا نشتط فننكر مزايا الرسول وفضله، ولكننا نبطل باطلهم، ونثبت الجانب الحق فيه، وهو أن محمداً ليس عبقرياً فقط، بل هو مع ذلك رسول رب العالمين.

٦- إثبات اسمين من أسماء الله. وهما «الحكيم»، و«العليم»:

- فـ«الحكيم»:"هو المحكم لخلق الأشياء، ومعنى الإحكام لخلق الأشياء، إنما ينصرف إلى إتقان التدبير فيها، وحسن التقدير لها[١].
- و«العليم»: هو المحيط علمه بكل شيء، فلا يخفى عليه شيء من الأشياء[٢].

القرآن

{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلًّا هَدَيْنَا وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ (٨٤)} [الأنعام : ٨٤]

التفسير:

ومننَّا على إبراهيم عليه السلام بأن رزقناه إسحاق ابنًا ويعقوب حفيدًا، ووفَّقنا كلا منهما لسبيل الرشاد، وكذلك وفَّقنا للحق نوحًا -من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب- وكذلك وفَّقنا للحق من ذرية نوح داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام، وكما جزينا هؤلاء الأنبياء بإحسانهم نجزي كل محسن.

قوله تعالى:{وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ} [الأنعام : ٨٤]، أي:" ومننَّا على إبراهيم عليه السلام بأن رزقناه إسحاق ابنًا ويعقوب حفيدًا" [٣].

قال القرطبي:" أي: جزاء له على الاحتجاج في الدين وبذل النفس فيه"[٤].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: فجزينا إبراهيم صلى الله عليه وسلم على طاعته إيانا، وإخلاصه توحيد ربه، ومفارقته دين قومه المشركين بالله، بأن رفعنا درجته في عليين، وآتيناه أجره في الدنيا، ووهبنا له أولادًا خصصناهم بالنبوّة، وذرية شرفناهم منا بالكرامة، وفضلناهم على العالمين، منهم: ابنه إسحاق، وابن ابنه يعقوب"[٥].

قال ابن كثير:" يخبر تعالى أنه وهب لإبراهيم إسحاق ، بعد أن طَعَن في السن ، وأيس هو وامرأته "سارة" من الولد ، فجاءته الملائكة وهم ذاهبون إلى قوم لوط ، فبشروهما بإسحاق ، فتعجبت المرأة من ذلك ، وقالت : { قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ * قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ } [هود : ٧٢ ، ٧٣] ، وبشروه مع وجوده بنبوته ، وبأن له نسلا وعَقِبا ، كما قال : { وَبَشَّرْنَاهُ بِإِسْحَاقَ نَبِيًّا مِنَ الصَّالِحِينَ } [الصافات : ١١٢] ، وهذا أكمل في البشارة ، وأعظم في النعمة ، وقال : { فَبَشَّرْنَاهَا بِإِسْحَاقَ وَمِنْ وَرَاءِ إِسْحَاقَ يَعْقُوبَ } [هود : ٧١] أي : ويولد لهذا المولود ولد في حياتكما ، فتقر أعينكما به كما قرت بوالده ، فإن الفرح بولد الولد شديد لبقاء النسل والعقب ، ولما كان ولد الشيخ والشيخة قد يتوهم أنه لا يَعْقب لضعفه ، وقعت البشارة به وبولده باسم "يعقوب" ، الذي فيه اشتقاق العقب والذرية ، وكان هذا مجازاة لإبراهيم ، عليه السلام ، حين اعتزل قومه وتركهم ، ونزح عنهم وهاجر من بلادهم ذاهبا إلى عبادة الله في الأرض ، فعوضه الله ، عَزَّ وجل ، عن قومه وعشيرته بأولاد صالحين من صلبه على دينه ، لتقر بهم عينه ، كما قال تعالى: { فَلَمَّا اعْتَزَلَهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَكُلا جَعَلْنَا نَبِيًّا } [مريم : ٤٩] ، وقال هاهنا : { وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلا هَدَيْنَا }"[٦].

---

(١) انظر:شأن الدعاء:١/٧٢-٧٣.
(٢) انظر: شرح العقيدة الواسطية، لابن عثيمين:١/١٨٨.
(٣) التفسير الميسر:١٣٨.
(٤) تفسير القرطبي:٧/٣١.
(٥) تفسير الطبري:١١/٥٠٧.
(٦) تفسير الطبري:١١/٢٩٧.

قال السعدي:"{يَعْقُوبَ} ابنه، الذي هو إسرائيل، أبو الشعب الذي فضله الله على العالمين"(١).
قوله تعالى:{كُلًّا هَدَيْنَا} [الأنعام : ٨٤]، أي:" ووفَّقنا كلا منهما لسبيل الرشاد" (٢).
قال القرطبي:" أي: كل واحد منهم مهتد"(٣).
قال البغوي:أي:" أووفقنا وأرشدنا"(٤).
قال الطبري:" يقول: هدينا جميعهم لسبيل الرشاد، فوفقناهم للحق والصواب من الأديان"(٥).
قال السعدي:" {كُلا} منهما {هَدَيْنَا} الصراط المستقيم، في علمه وعمله"(٦).
قوله تعالى:{وَنُوحًا هَدَيْنَا مِنْ قَبْلُ} [الأنعام : ٨٤]، أي:" وكذلك وفَّقنا للحق نوحًا -من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب-" (٧).
قال الطبري:أي:" ونوحًا وفقنا للحق والصواب من قبل إبراهيم وإسحاق ويعقوب"(٨).
قال ابن كثير:" أي : من قبله ، هديناه كما هديناه ، ووهبنا له ذرية صالحة ، وكل منهما له خصوصية عظيمة ، أما نوح ، عليه السلام ، فإن الله تعالى لما أغرق أهل الأرض إلا من آمن به - وهم الذين صحبوه في السفينة - جعل الله ذريته هم الباقين ، فالناس كلهم من ذرية نوح ، وكذلك الخليل إبراهيم ، عليه السلام ، لم يبعث الله ، عَزَّ وجل ، بعده نبيا إلا من ذريته ، كما قال تعالى : { وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } الآية [العنكبوت : ٢٧] ، وقال تعالى : { وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ } [الحديد : ٢٦] ، وقال تعالى : { أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِنْ ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُ الرَّحْمَن خَرُّوا سُجَّدًا وَبُكِيًّا } [مريم : ٥٨]"(٩).
قال البغوي:{ مِنْ قَبْلُ}" أي: من قبل إبراهيم"(١٠).
قال السعدي:" وهدايته من أنواع الهدايات الخاصة التي لم تحصل إلا لأفراد من العالم؛ وهم أولو العزم من الرسل، الذي هو أحدهم"(١١).
قوله تعالى:{وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ} [الأنعام : ٨٤]، أي:" وكذلك وفَّقنا للحق من ذرية نوح داود وسليمان وأيوب ويوسف وموسى وهارون عليهم السلام" (١٢).
قال الطبري:أي:" وهدينا أيضًا من ذرّية نوح، داود وسليمان[وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ].. و«الهاء» التي في قوله:{ومن ذريته}، من ذكر نوح. وذلك أن الله تعالى ذكره ذكر في سياق الآيات التي تتلو هذه الآية لوطًا فقال:{وإسماعيل واليسع ويونس ولوطًا وكلا فضلنا على العالمين}، ومعلوم أن لوطًا لم يكن من ذرية إبراهيم صلى الله عليهم أجمعين. فإذا كان ذلك كذلك، وكان معطوفًا على أسماء من سمَّينا من ذريته، كان لا شك أنه لو أريد بالذرية ذرية

---

(١) تفسير السعدي:٢٦٣.
(٢) التفسير الميسر:١٣٨.
(٣) تفسير القرطبي:٣١/٧.
(٤) تفسير البغوي:١٦٥/٣.
(٥) تفسير الطبري:٥٠٧/١١.
(٦) تفسير السعدي:٢٦٣.
(٧) التفسير الميسر:١٣٨.
(٨) تفسير الطبري:٥٠٨/١١.
(٩) تفسير الطبري:٢٩٧/١١.
(١٠) تفسير البغوي:١٦٥/٣.
(١١) تفسير السعدي:٢٦٣.
(١٢) التفسير الميسر:١٣٨.

إبراهيم، لما دخل يونس ولوط فيهم. ولا شك أن لوطًا ليس من ذرّية إبراهيم، ولكنه من ذرية نوح، فلذلك وجب أن تكون«الهاء» في«الذرية» من ذكر نوح"[1].

قال ابن كثير:" { وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ } أي : وهدينا من ذريته { دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ } الآية، وعود الضمير إلى "نوح" ؛ لأنه أقرب المذكورين ، ظاهر. وهو اختيار ابن جرير ، ولا إشكال عليه. وعوده إلى "إبراهيم" ؛ لأنه الذي سبق الكلام من أجله حسن ، لكن يشكل على ذلك "لوط" ، فإنه ليس من ذرية "إبراهيم" ، بل هو ابن أخيه مادان بن آزر ؛ اللهم إلا أن يقال : إنه دخل في الذرية تغليبًا ، كما في قوله تعالى : { أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ } [البقرة : ١٣٣] ، فإسماعيل عمه ، ودخل في آبائه تغليبا. وكما قال في قوله : { فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ * إِلا إِبْلِيسَ } [الحجر : ٣٠ ، ٣١] فدخل إبليس في أمر الملائكة بالسجود ، وذم على المخالفة ؛ لأنه كان قد تشبه بهم ، فعومل معاملتهم ، ودخل معهم تغليبا ، وكان من الجن وطبيعتهم النار والملائكة من النور "[2].

قال البغوي:" {ومن ذريته} أي ومن ذرية نوح عليه السلام، ولم يرد من ذرية إبراهيم لأنه ذكر في جملتهم يونس ولوطا ولم يكونا من ذرية إبراهيم {داود} يعني: داود بن أيشا، {وسليمان} يعني ابنه، {وأيوب} وهو أيوب بن أموص بن رازح بن روم بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم، {ويوسف} هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام، {وموسى} وهو موسى بن عمران بن يصهر بن فاهث بن لاوي بن يعقوب. {وهارون} هو أخو موسى أكبر منه بسنة"[3].

قوله تعالى:{وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ} [الأنعام : ٨٤]، أي:" وكما جزينا هؤلاء الأنبياء بإحسانهم نجزي كل محسن" [4].

قال الطبري:" يقول تعالى ذكره: جزينا نوحًا بصبره على ما امتحن به فينا، بأن هديناه فوفقناه لإصابة الحق الذي خذلنا عنه من عصانا فخالف أمرنا ونهينا من قومه، وهدينا من ذريته من بعده من ذكر تعالى ذكره من أنبيائه لمثل الذي هديناه له. وكما جزينا هؤلاء بحسن طاعتهم إيانا وصبرهم على المحن فينا، كذلك نجزي بالإحسان كل محسن"[5].

قال البغوي:" أي: وكما جزينا إبراهيم على توحيده بأن رفعنا درجته ووهبنا له أولادا أنبياء أتقياء كذلك، {نجزي المحسنين} على إحسانهم، وليس ذكرهم على ترتيب أزمانهم"[6].

الفوائد:

١- أن خير ما يعطى المرء في هذه الحياة الهداية إلى صراط مستقيم
٢- فضيلة الإحسان، لقوله:{ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ}.

نسأله سبحانه وتعالى أن يوفقنا لمرضاته ويجعلنا من الفائزين بجناته، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم.

---

(١) تفسير الطبري:١١/٥٠٧-٥٠٨. قال أبو جعفر:"و"داود"، هو داود بن إيشا ، و"سليمان" هو ابنه: سليمان بن داود، و"أيوب"، هو أيوب بن موص بن رزاح بن عيص بن إسحاق بن إبراهيم ، و"يوسف"، هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، و"موسى"، هو موسى بن عمران بن يصهر بن قاهث بن لاوي بن يعقوب، و"هارون"، أخو موسى". [تفسير الطبري:١١/٥٠٨].

(٢) تفسير الطبري:١١/٢٩٧-٢٩٨.

(٣) تفسير البغوي:٣/١٦٥.

(٤) التفسير الميسر:١٣٨.

(٥) تفسير الطبري:١١/٥٠٨.

(٦) تفسير البغوي:٣/١٦٥.

انتهى الجزء الثالث عشر من التفسير ويليه الجزء الرابع عشر بإذن الله، وبدايته تفسير الآية (٨٤) من سورة «الانعام».